تيسير التفسير

لقطب الأئمّة

الشيخ الحاج محمد بن يوسف اطفيّش

(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء الرابع)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الطبعة الأولى

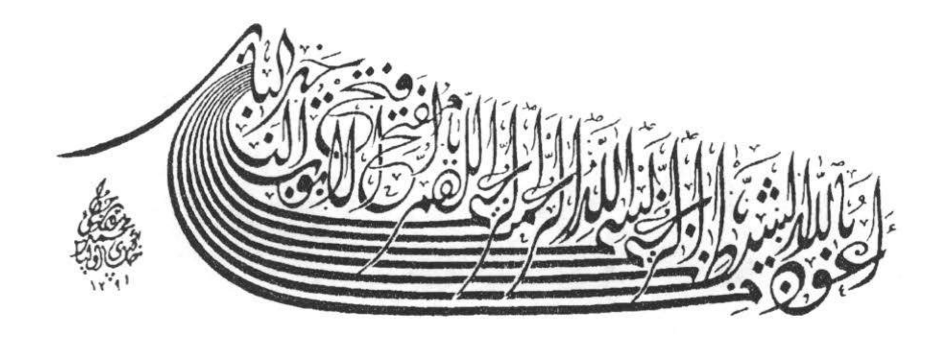
١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: كروم أحمد وبازين عمر

الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى الشريفي ومحمد بباعمي



﴿ قل نزّلـه روح القدس من ربّـك بالحقّ ليثبت الذين ءامنوا وهدًى وبشرى للمسلمين ﴾ .

(سورة النحل ءاية ١٠٢)

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قصَّة قابيل وهابيل وأوّل جريمة قتل في الدنيا

﴿وَاتْلُ﴾ يا محمَّد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على قومك، أو على النـاس، أو على بني إسرائيل، تحذيراً مـن عاقبـة السوء على الحسـد، فيـترك أهـل الكتـاب وغـيرهم حسـدك على رسـالتك، وجنايـة ابـن آدم وجنايـة بـني إسـرائيل متـَّحدتان في المعصية، وأيضا تناسبتا بأنـَّهم جبنوا على القتل، وابـنُ آدم اجـترأ عليـه، والقصَّـة غامضة لا توجد إلاَّ عند الخاصـَّة، فتكون حجَّة له ﷺ.

﴿نَبَأَ ابْنَـيِ ءَادَمَ﴾ هـابيل وقـابيل، وهـو أكـبر بسنتين، فالبُنُـوَّة لآدم بـلا واسطة؛ وَقِيلَ: رجلان من بني إسرائيل، فالبُنُوَّة له بوسائط، ويناسبه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِن اَجـل ذلـك كتبنـا علـى بـني إسـرآئيل...﴾ الخ، إلاَّ أنـَّه يناسـب كونهما هابيل وقابيل لأَنَّ قتله هـابيل سبب لمفاسـد كثـيرة، ﴿بـالْحَقِّ﴾ تـلاوة ملتبسة بالحقِّ، أو اتل ملتبساً بالحقِّ، أو نبأ ابني آدم ملتبساً بـالحقِّ، وهـو الصـدق الموافق لِمَا في الكتب الأولى من الحسد وتحريمه.

(قصص) أوحـى ا لله جـلَّ وعـلا إلى آدم أن زوِّجْ قـابيل الأنثـى الـتي اجتمعت مع هابيل في بطن حوَّاء وهي "لبودا"، وزوِّج هابيل الأنثى التي كـانت مع قابيل في بطنها، فسخط قابيل، لأنَّ التي كانت معه في البطن أجمـل، وَأنـَّهُمَا معاً من الجنَّة، جعل ا لله عزَّ وجلَّ التخالف بالاجتمـاع في البطـن بمنزلـة افـتراق النسب للضرورة، فالتي لم تجتمع معه في البطن كأنـَّها غـير أختـه. ويـروى أنـَّها حملت حوَّاء بها في الجنَّة وهي "إقليمَا" مع قابيل في بطن واحد قبـل أنْ يصيـب آدم الخطيئة، و لم تَجِدْ لهما وحماً ولا وجعـاً ولا دمـاً، وحملـت هـابيل ولبـودا في الدُّنيا بوحم ووجع ودم؛ وَقِيلَ: حملتهما في الأرض بعد مائة سنة وبعدهما هابيل ولبودا، فقال لهما آدم: قَرِّبا [قربانا] فمن قُبِل قربانه تَزَوَّجَها، وذلك إزاحة للعلـل وإيضاحاً لأمر ا لله إن كان قد أخبره ا لله أنـَّه قضـى في الأزل بتزوُّجهـا لهـابيل، فلا بدَّ من موافقة القربان له، أو أمره بأن يقرِّبا مع إيحائه أنَّ زوجها هـابيل، وإلاَّ فالتحكيم لا يجوز بعـد حكـم ا لله، حاشـى آدم عنـه؛ وَقِيـلَ: أمـره ا لله بذلـك، وقال: لا تحلُّ لك، فقال: ذلك رأيك لا من ا لله؛ وأمرهمـا بالقربـان وقـد علـم عليه السَّلام أنـَّه لا يُقبَـل من قابيل، فقرَّب هابيل كبشاً سميناً، ويروى جَمَـلاً ــ بالجيم ــ ويروى جذعة، وكان صاحب ضـرع، وقـابيل قمحـاً رديئـاً وكـان ذَا

زرعٍ، كما قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي قرَّب كلٌّ واحد قرباناً، أو قرَّب كلاهما قرباناً، أو أفرد لأنَّه مصدر في الأصل يصلح للاثنين، و«إذ» مُتَعَلِّق بـ«نبأ» على تقدير مضاف، أي: «نبأ إذ قرَّبا قرباناً»، ولا بدَّ من التأويل لأنَّ الإخبار لم يقع وقت تقريب القربان، ﴿فَتُقُبِّلَ﴾ أي هو، أي قربان، أو النائب قوله: ﴿مِنَ اَحَدِهِمَا﴾ هو هابيل، قُبِل كبشه أو جَمَله، بأن نزلت نار بيضاء فأكلته، أو حملته إلى الجنَّة حتَّى كان فداء[1]، أو نور فحمله كذلك.

﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ﴾ هو كالأوَّل، ﴿مِنَ الاَخَرِ﴾ قابيل، لم تنزل النَّار أو النور على قمحه، إذ قرَّب الرديء، وسخط حكم الله، و لم يخلص النية في قربانه؛ ويروى أنَّه قرَّب حزمةَ سنابلِ القمحِ الرديءِ، ووجد فيها سنبلة طيِّبة، ففركها وأكلها، وقال: لا أُبالي أتُقُبِّل أم لا، هي أختي لا يَتَزَوَّجُها غيري، وهي حرام عليه لأنَّها معه في بطن واحد، وأضمر هابيل الرضا بما حكم الله. وما لم يُقبل لم يرفع بل يبقى للطير والوحش.

﴿قَالَ﴾ الآخر لفرط حسده على تقبُّل قربان هابيل دون قربانه، وقد قال ﷺ: «**إذا حَسَدْتَ فلا تَبْغِ**»، أو لحصول توأمته له، ويدلُّ للأوَّل قوله: ﴿إِنَّمَا...﴾ الخ. ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ لأستريح منك، ولئلاَّ تَتَزَوَّجها.

﴿قَالَ﴾ الآخر ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وأنت لم تتَّق فلم يُتَقَبَّل قربانك، وإنَّما أوتيت من جهة نفسك فلماذا تقتلني؟، ولِمَ لَمْ تفعل سبب القبول فيقبل منك؟، **واللبيب يتعاطى أسباب تحصيل مثل ما يحسد فيه**

[1] - فداء لإسماعيل حسب الروايات.

غيره، لا أسبابَ إزالته عن غيره، فإنَّ ذلك لا ينفعه ولا يزيل، وإن زال بـهِ أَثِـمَ بزواله؛ أو كنَّى بذلك عن أنِّي لا أخرج عن التقوى بترك حكم الله تعالى، ولا أختار عنها الحياة؛ أو الكناية عن أنِّي لا أدفعك بالقتل عن قتلي كما قال:

﴿**لَئِن بَسَطتَّ إِلَيَّ يَدَكَ**﴾ لم يقل: يديك، لأنَّ القتل يُتصوَّر ولو بيد واحدة، ولذلك لم تشدَّد الياء في «يَدِيَ» ولو شدِّد لكان مثنى، ﴿**لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ**﴾ لست مِمَّن يوصف ببسط اليد لقتلك، ﴿**إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ كان هابيل أقوى من قابيل، وَلَكِن لم يبح الله لهم في ذلك الزمان وما بعده الدفع عن أنفسهم إلى أنْ شاء الله، فكان ترك الدفع واجباً وخوفاً من عقاب الله على ترك الواجب، وإن كان تركه مستحبًّا فخوفه من نقص الثواب، وقيل قتله نائمًا.

(فقه) وزعم الشافعيُّ أنَّه يجوز لنا هذا إذا كان القاتل غير مشرك وغير مهدور الدم، وزعموا عنه ﷺ أنَّه قال لمحمَّد بن مسلمة: «**ألق كُمَّك على وجهك وكن عبد الله المظلوم ولا تكن عبد الله الظالم**»، ويروى: «**وكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل**»، وأنَّه قال لخبَّاب في الفتنة التي القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي: «**إن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل**»، وقال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»، **والصواب وهو مذهبنا وجوب الدفع علينا ولو كان يؤدِّي إلى الموت**، وَمَعنَى الأحاديث: لا تخرج عن دينك، ولو كان عدم الخروج عنه يُؤَدِّي إلىَ الموت، وإنَّما يكون القاتل والمقتول في النَّار إذا كان كلٌّ منهما مبطلاً.

وعن ابن عبَّاس: «لا أقتلك ظلمًا، أو لا أبتدئك بالقتل ظلمًا»، لكن لم يُرْوَ أنَّه قاتله ولا دفعه مع أنَّه أقوى، وتُحمَل أحاديث الباب على ما إذا لم يبق في عقله أو في يده ما يدفع بِهِ.

﴿إِنِّيَ أُرِيدُ أَن تَبُوأَ﴾ تتهيَّأ، أو ترجع إلى رَبِّك، أو منزلك ﴿بِإِثْمِي﴾ لو بسطتُّ إليك يَدِي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ بسخط أمر الله ومخالفة أبيك، والحسد، وإضمار القتل، وبسط يدِك إليَّ إن بسطتَّها إِليَّ، فالشخص يحمل إثم المباشرة وإثم كونه سببًا لإثم شخص آخر، فالبادئ بالسبِّ حامل لإثم سبِّه وإثم تسبُّبه لسبِّ صاحبه له، وكلا الإثمين فعل له، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (سورة الأنعام: ١٦٤) أو أراد بالإثم: قتلي، أو أراد بالإثم: لازمه ومسبَّبه وهو العقاب، أو «إثمي»: إثم قتلي، و«إثمك»: الإثم الذي عليه قبل القتل، وبه قال ابن مسعود وابن عبَّاس، وَقِيلَ: بإثمك الذي لم يُتقبَّل بِهِ قربانُك، وَقِيلَ: إثم قتلي، وإثمك الذي هو كلُّ قتل مُحَرَّم بعدك لأنَّك سننتَه.

(فقه) ومن كلام أصحابنا أنَّه يجوز أن تدعو لصاحب الكبيرة أنْ يزيد عصيانًا، حتَّى أجاز بعض أن تدعو له بالإشراك لقوله تعالى: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ (سورة يونس: ٨٨) وقد بحثت في "شرح التبيين" لذلك، ولا أقول بذلك، لأنَّ فيه ميلاً إلى المعصية ووقوعها، وأنت خبير: هل «شرع من قبلنا شرع لنا»؟. والآية تقبل أنْ يكون المُراد بها التبرُّؤ من الإثم لا حصوله لأخيه، كقوله ﷺ: «أَشْهِدْ غيري»، بمعنى أنَّه ليس ذلك جائزًا، لا حقيقة الأمر بإشهاد غيره ﷺ، وقدَّر بعض: إنِّي أريد أن لا تبوء، أو: لا أريد أن تبوء. وأمَّا أن تريد العقاب للفاسق فواجب يثاب عليه عندنا ولو لم يكن مشركًا، فكيف

وقد يطَّلع هابيل على شرك قابيل.

﴿فَتَكُونَ مِنَ اَصْحَابِ النَّارِ وَذَالِكَ جَزَآؤُاْ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم أو لغيرهم، وظالم غيره ظالم لنفسه، بل ظالم نفسه ظالم لغيره، لشؤم المعصية بالقحط والطاعون والآفات.

﴿فَطَوَّعَتْ﴾ سهَّلت ﴿لَهُ, نَفْسُهُ, قَتْلَ أَخِيهِ﴾ هو صعْبٌ في الحقيقة لتحريم الله وللعقاب ولِرِقَّةِ القلب، لكن سهَّلته له نفسه؛ يقال: طاع له الأمر أي: انقاد، وطاع المرعى: اتَّسع. ﴿فَقَتَلَهُ,﴾ نهارًا، ومعنى «أصبح»: صار، لا ما قيل: إنَّه قتله ليلاً. قيل: لم يدر كيف يقتله فأعلمه إبليس أن يجعل رأسه على حجر ويضربه بآخر، وَقِيلَ: رضَّ رأس طائر بين حجرين فتعلَّم منه، ويقال عن ابن مسعود وغيره: إنَّ هابيل هرب عن أخيه في رؤُوس الجبال، فوجده يومًا نائمًا مع غنمه فقتله بصخرة. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لدينه وآخرته ودنياه، إذ لم ينتفع ببدنه إذ توحَّش، وأُقصي وعوقب وحزن حتَّى قتله ولد هابيل ولم يتزوَّج "إقليمَا" ولا "لبودا"، وَقِيلَ: هرب بـ"إقليما" إلى "عدن" من أرض "اليمن"، واسودَّ وجهه ومسخ قلبه، وكان مذمومًا أبدًا؛ ويقال: لـمَّا مات علّق برجله إلى الشمس تصيبه إلى حظيرة نار صيفًا وَإِلَى حظيرة ثلج شتاء يعذَّب بذلك. وفي الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعًا: «لا تُقتَل نفسٌ ظلمًا إلاَّ كان على ابن آدم الأَوَّل كفل منها»، لأنَّه أوَّل من سنَّ القتل. وفي الطبري والبيهقي عن ابن عمر موقوفًا: «إنَّا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النَّار قسمة صحيحة عليه شطر العذاب». والأشقياء الثلاثة: إبليس وقابيل وقاتل ناقة صالح.

(قصص) وهرب إلى عدن وقال له إبليس: تُقبِّل قربانُ أخيك لأنَّه يعبد

النَّار، فعَبَدَها فكان عليه وزر من عَبَدَها ومن عَبَدَ غير ا لله سُبحَانَهُ مطلقًا. ولـمَّا قتل هابيل قيل له: اذهب طريدًا شريدًا فزعًا مرعوبًا، لا تأمن من تراه. وكان قبل موته لا يَمُرُّ بِهِ أحد إلاّ رماه بالحجارة لقتله هابيل، وعمر هابيل حين قُتل عشرون سنة، فقتله في "عقبة حراء"، وعن كعب الأحبار: في جبل "دير المران"، وَقِيلَ: في جبل "قاسيون"، وَقِيلَ: في موضع المسجد الأعظم من البصرة؛ وعن ابن عبَّاس: في جبل "نود".

وكانت حوَّاء تلد لآدم في كُلِّ بطن غلامًا وجارية، إلاّ "شيت" فإنَّها وضعته مفردًا عوضًا عن هابيل؛ ومعنى "شيت": هبة ا لله، لأنَّ جبريل عليه السَّلام قال لحوَّاء لـمَّا ولدته: هذا هبة ا لله لك بدلاً من هابيل. وكان آدم يوم ولد "شيت" ابن مائة سنة وثلاثين سنة، بعد قتل هابيل بخمسين سنة؛ وجملة أولاده: تسعة وثلاثون، في عشرين بطنًا، عشرون من الذكور، وتسعة عشر من الإناث، أوَّلهم "قابيل" و"إقليما" من بطن واحد، وآخرهم "عبد المغيث" و"أمة المغيث" من بطن، وبارك ا لله في نسله. ومات عن أربعين ألفًا من ولده وولد ولده. وحلَّ لِكُلِّ رجل منهم أخته إلاَّ التي معه في بطن، لأنَّه لا نساء إلاَّ أخواتهم؛ فالنساء سبب للشرور، فحوَّاء رَضِيَ ا للهُ عَنهَا سبب لخروج آدم عليه السَّلام من الجنَّة، و"إقليما" سبب قتل هابيل.

ولـمَّا قتله رجفت الأرض بمن عليها سبعة أيَّام، وشربت الأرض دمه فقال ا لله له: أين أخوك هابيل؟ فقال: ما أدري، ما كنت عليه رقيبًا، فقال ا لله عزَّ وجلَّ: إنَّ دمه لَيناديني من الأرض فَلِمَ قتلتَ أخاك؟ فقال: فأين دمه إن قتلته؟ فحرَّم ا لله على الأرض شرب الدم، وكان آدم بِمَكَّةَ، خرج إليها ليراها بعد أن طلب من الجبال والأرض والسماء أن يحفظن ولده هابيل فأبين، واستحفظه

قابيل، فقال: نعم أحفَظُه وأهلَك حتَّى ترجع، فخانه فقتله، فاشتاك الشجر ــ أي ظهر بِهِ شوك ــ وتغيَّرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، وأغبرت الأرض، فقال: حدث في الأرض حادث، فلمَّا رجع إلىَ الهند وجد قابيل قد قَتل هابيل، فسأله أين هابيل؟ فقال: ما كنت عليه وكيلاً. فقال: بل قتلته! ولذلك اسودَّ وجهك وجلدك. فما ضحك مائة سنة.

فجاءه مَلَك على تمامها فقال له: حيَّاك الله تعالى وبيَّاك، وبشَّره بغلام وهو "شيت" فضحك. وَقِيلَ: ولد "شيت" لخمسين سنة مِن قتْل قابيل، وجعل مرثيته نثرًا بالسريانية لـمَّا قتل هابيل، وأوصى بها "شيت"، وأوصاه على الدِّين، وجعله وليَّ عهده، وأنزل الله عزَّ وجلَّ إليه خمسين صحيفة، وعلَّمه ساعات اللَّيْل وَالنَّهَار وعبادة الخلق في كُلِّ ساعة، ولـمَّا وصلت مرثيته يعرب بن قحطان جعلها شعرًا بتقديم وتأخير هكذا:

تغيرت البلاد ومن عليها	فوجه الأرض مغبر قبيح
تغيَّر كلُّ ذي طعم ولون	وزالت بشاشة الوجه المليح
ومالي لا أجود بسكب دمعي	وهابيل تضمَّنه الضريح
أرى طول الحياة عليَّ غمًّا	فهل أنا من حياتي مستريح

اختار بعض أنَّه ليس ليعرب لركَّته، والوجه المليح: ــ بقطع المليح إلى الرفع ــ وجهُ هابيل، وليس ذلك شعرًا لآدم، لأنَّ الأنبياء لا يقولون الشعر. ولـمَّا قتله حمله على ظهره في جراب أربعين يومًا، وَقِيلَ: حمله سنة، وَقِيلَ: أكثر، لـمَّا رأى السباع قصدته للأكل وأنتن وجاف، وكان أوَّل آدمي مات فلم يدر ما يصنع بِهِ، ﴿**فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا**﴾ إكرامًا لهابيل ﵁ ﴿**يَبْحَثُ فِي الاَرْضِ**﴾ برجليه ومنقاره حفرًا ودفنًا لغراب قتله هذا الغراب، اقتتلا فحفر القاتل حفرة فألقى

المقتول فيها ودفنه بترابها، وَقِيلَ: أحد الغرابين ميِّت، وَقِيلَ: الغراب الباحث مَلَك بصورة الغراب، ولا حجَّة لهذا.

وَقِيلَ: خصَّ الله تعالى الغراب لأنَّه يتشاءم بِهِ في الفراق بعد.

(قصص) وكذلك آدم حفرت له الملائكة ودفنوه، وكذلك موسى حفرت الملائكة قبرًا، فمرَّ عليهم موسى، فأعجبته خضرته وحسنه، فقال لهم: لمن هذا؟ فقالوا: لعبد كريم على رَبِّه، وإن شئت فانزل فيه، فنزل، فامتدَّ، وتنفَّس، فقبض الله روحه، وسوَّوا عليه التراب. وَقِيلَ: أتاه ملك الموت بتفَّاحة من الجنَّة، فشمَّها، فقبض الله روحه، وعمره: مائة وعشرون، ويروى أنَّه جاءَه مَلَك الموت فقال: أجبْ أمر رَبِّك! فلطمه، ففقأ عينه، فقال: يا رَبِّ، أرسلتني إلى عبدٍ لا يريد الموت ففقأ عيني، فردَّ الله عينه، فقال: ارجع إليه فخيِّره أن يَقبض على متن ثور، ويعيش قدْرَ ما قَبَضَ عليه، شعرةٌ بِسَنَةٍ، فقال موسى: فما بعد ذلك؟ قال: الموت، قال: فمِنَ الآن، فقال: يا ربِّ أدنني من بيت المقدس رمية حجر، فقرَّبه إلى جهته قدرها فقبضه. وكذلك ذهب إلى كهف مع هارون فمات فدفنه موسى، فقالوا له: قتلته لِحُبِّنا إيَّاه! فتضرَّع إلى الله عزَّ وجلَّ، فأوحى الله إليه أن اِذهب إليه معهم فإنِّي أحييه، فناداه: ياهارون، فقام ينفض التراب، فقال: أنا قتلتك؟ قال: لا ولكن مُتُّ، فعاد كما كان. وأمَّا يوشع فدُفن في جبل إبراهيم، وعمره: مائة سنة وستٌّ وعشرون، أقام في بني إسرائيل بعد موسى سبعًا وعشرين سنة.

وكلُّ هؤلاء دُفنوا بلا حائل بينهم وبين التراب كالغراب، والسنَّة كذلك: لا يحال بين كفن الميِّت والأرض من فوق ولا من تحت أو جانب إلاَّ اللحد.

ودَفَنَ قابيلُ هابيلَ بالتراب كالغراب بلا حائل تعليما من الله أن لا يجعل حائلاً، كما قال: ﴿لِيُرِيَهُ,﴾ أي ليريه الله، أو الغراب، بمعنى الإعلام أو التبصير. والتحقيق: جواز تعليق الرؤية البصريَّة لإفضائها إلى معنى العلم. ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ عورة أخيه، وهي بعد موته: جسدُه كله، أو بعد تغيُّر، وَسمِّيَ لأنَّه يسوءُ ناظرَه، ولا سيما ما هو منه العورة الواجب سترها، ولأنَّه يقبح بقاء الميِّت غير مستور، أو هي عورته الكبرى، أو السرَّة والركبة وما بينهما؛ ويراد أنَّ غيرَها كذلك، وخُصَّت لأنَّ ذكرها آكد.

﴿قَالَ يَاوَيْلَتَىٰ﴾ يا هلكتي أحضري فهذا زمانك، والمُراد: التحسُّر، وقد حضرْتِني إذ حَمَلتُه و لم أدفنه. وزعم بعض أنَّ المعنى: اعتراف على نفسه باستحقاق العقاب.

(قصص) ويروى أنَّه لـمَّا هرب إلى "عدن" أتاه إبليس فقال: إنَّمَا تُقبِّل قربان أخيك لأَنَّهُ يعبد النَّار فاعبُدْها أنت وعقبك، فعَبَدَها، وهو أوَّل مَن عَبَدها، وكان لا يَمُرُّ بِهِ أحد إلاَّ رماه بحجارة لقتل هابيل، فأقبل ابنٌ لقابيل أعمى ومعه ابنه فقال ابن الأعمى لأبيه: هذا أبوك قابيل، فرماه بحجارة فقتله، فقال الابن لأبيه: قتلتَ أباك قابيل! فلطم الأعمى ابنَه فَقَتَله، فقال: ويلي! قتلت أبي بالرمي وابني باللطم. وَاتَّخَذَ أولاد قابيل الطبول والزمور والعيدان والطنابير والخمور والفواحش وعبادة النَّار حتّى أغرقوا بالطوفان، و لم تبق إلاّ ذرِّيَّة "شيت".

﴿أَعَجَزْتُ أَنَ اَكُونَ﴾ عن أن أكون ﴿مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ﴾ تعجَّب من أنَّه لم يهتد إلى ما اهتدى إليه الغراب ﴿فَأُوَارِيَ﴾ عطفٌ على «أكونَ» أي:

أعجزتُ عن كوني مثل هذا الغراب في الحفر والدفن وعن مواراة أخي!، أو منصوب في جواب الاستفهام، أي: أكان منّي عجز عن كوني مثله ومواراتي، عطف للمواراة على عجز في السبك. ﴿سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ﴾ صار ﴿مِنَ النَّادِمِينَ﴾ فحفر له ودفنه، ونَدَمُهُ على حمله وعلى عدم اهتدائه للدفن وعلى فقد أخيه، ولِمَا أصابه من العذاب وسواد بدنه كما مَرَّ، وبراءةِ أبيه وأمّه منه.

(فقه) ومطلق الندم لا يكون توبة، بل يكون الندم توبة إذا كان معه تضرُّع إلى الله، وعزمٌ على عدم العود، وتداركُ ما فعل بما يجب، كَدِيَةٍ أو قودٍ أو طلبِ عفوٍ، وكلُّ ما وقع من المعاصي في الأمم وقع مثله أو ما يناسبه بعدُ، فليحذر الحاذر، كما قال عمارة اليمني:

لا تعْجَبَنْ لقُدار ناقة صالح فلِكلِّ عصر ناقة وقُدار[1]

﴿مِنَ اَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الذي فعل قابيل مِن قتلِ هابيل، متعلّق بـ«النادمين» عند نافع، وقال الجمهور: بقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا﴾، وعليه فالإشارة ليست إلى نفس ما فعل قابيل، إذ لا مناسبة بين ما فعل قابيل ووجوب القصاص على بني إسرائيل، بل إلى المفاسد التي لوَّح إليها ذلك القتل، وإلى الخسارة في قوله: ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والندم أيضًا: التحسُّر بلا توبة.

وخَصَّ بني إسرائيل مع أنَّ الحكم عامٌّ لمن قبلَهم ومَن بعدَهم لكثرة القتل فيهم، حتّى قتلوا الأنبياء، وعالجوا قتل سيّدنا محمَّد ﷺ وسَمُّوه ومات، ولأنّهم أوّل من نزل عليهم في الكتاب التغليظ في القتل، وقَبْلَهُم التغليظُ بقولٍ

١- قُدار بن سالف: قاتل ناقة صالح عَلَيهِ السَّلاَمُ.

لا بكتابٍ.

(لغة) وأصل الأجْل - بإسكان الجيم ــ جناية الشرِّ، ثـمَّ استعمل في تعليل الجناية، ثمَّ التعليل مطلقا. و«مِن» للابتداء، وذلـك كقولهـم: «مِنْ جَـرَّاك فَعَلْتُهُ» بشدِّ الراء، بوزن «دعوى»، أي: مِن أَنْ جَرَرته أي جنيته.

(فقه) والمعنى: من أجل ذلك فرضنا ﴿**عَلَى بَنِي إِسْرَآءِيلَ أَنَّـهُ, مَن قَتَلَ نَفْساَۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ**﴾ أي بغير قتل نفس مكافئة توجب القصاص، أو لا توجبه كأَبٍ قَتَل ولده، وقَتْلِ عبدٍ، فإنَّ ذلك حرام ولا قصاص فيه، ومن اقتصَّ هلـك، (وكقتلِ مشرك معصوم الدم لا قصاص فيه، ومن اقتـصَّ هلـك)[1]. ﴿**اَوْ فَسَادٍ فِي الاَرْضِ**﴾ أمَّا قَتْلُها بفسادٍ كطعنٍ وقطعِ طريقٍ ورِدَّةٍ وشركٍ فعبادةٌ.

﴿**فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ لفتحه باب القتل، وتَـجْرِئَـةِ النـاس، حتَّى كأنَّ الناس قاموا كـلٌّ يقتـل آخـر، ولأنَّ قتـل الواحـد كقتـل الجميـع في جلـب غضب الله عزَّ وجلَّ، وانتهاك حدِّ الله. ﴿**وَمَنَ اَحْيَاهَا**﴾ أبقاها حـيَّة، مثـل أن يعفوَ عن قاتل وليِّـه، أو ينجيَ أحدًا من موت بحرقٍ أو غرقٍ أو جوعٍ أو عطشٍ أو قاتلٍ أو سبعٍ أو داءٍ بنحو دواء ونحو ذلك. وزعـم بعض أنَّ المعنـى: مَـن أعـان على استيفاء القصاص، ﴿**فَكَأَنَّـمَآ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ وقد قُتِلوا، **وذلك لفتـح باب إبقاء الحياة، وترغيب الناس فيه، ومراعاةِ حقِّ الله وحـدوده، وفي ذلـك محاماةٌ، إذ قاتل غيرك كقـاتلك**، ومسـارعةٌ، إذ كـان مُحْيِي غـيرك كمُحْيِـيك فَتُحِبَّ المحيِـيَ وتعينه، وتردُّ مريد القتل وتبغضه.

---

[1] - زيادة من نسخة (ب).

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ أي بني إسرائيل ﴿رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ﴾ ما هو واضح، يتبيَّن بِهِ لهم الحقُّ والباطل من آيات تنزل أو معجزات، كالتوراة والزبور والإنجيل وصحف موسى العشر والعصا واليد والطوفان ومعجزات عيسى عليهم السَّلام. ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ المجيء بِالبَيِّنَاتِ ﴿فِي الاَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ بالمعاصي كالقتل، وَقِيلَ: بالإشراك، وَقِيلَ: بالقتل كما أسرف قابيل، ولم يتأثَّروا بما جاءت بِهِ الرُّسل.

(قصص) ومن ذلك شأن التيه، إذ لم يقدروا على الخروج منه، مع أن الشمس تطلع، والقمر والنجوم والفجر؛ ومن ذلك المنُّ والسلوى، وأعطاهم من الكسوة ما يكفي على مقدارهم لَمَّا شَكَوا الجوعَ والعريَ، ولا تطول شعورهم. قيل: وإذا ولد لهم مولود كان عَلَيْهِ ثوب كالظفر، يطول بطوله ويتَّسع بقدره، كذا قيل. ومع موسى حجر من الطور يضربه بعصاه فتخرج منه اثنتا عشرة عينًا، ويضربه فيكفُّ الماء. وأرسل الله عليهم الغمام يظلُّهم ولو كانوا يرون منه الشمس، ويطلع عليهم عمود من نور يضيء لهم ليلاً، وذلك كلُّه نعمة ولو كفروها إذ كدرها حبسهم. ولم يبق بعد الأربعين إلاَّ أولادهم الذين دون العشرين، فخرجوا مع يوشع، وفتح الشام كلّها، واستباح منها ثلاثين ملكًا، وفرَّق عماله فيها، وجمع الغنائم، ولم تنزل النَّار، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إِلَيْهِ أنَّ فيها غلولاً، مُرْهم يبايعوك، فالتصق يدُ رجل منهم بيده، فقال: هلمَّ ما عندك، فأتى برأس ثور من ذهب مكلَّل باليواقيت والجواهر، فجعله في القربان مع الرجل، فنزلت النَّار فأكلت الرجل والقربان. وكان العصبة تجتمع على عنق رجل من الجَبَّارين بالضرب. وكادت الشمس تغرب ليلة السبت، فدعا الله عزَّ وجلَّ فردَّت ساعة، أو وقفت ساعة حتَّى فرغوا؛ روى أنَّه قال للشمس:

أنتِ في طاعة الله وأنا في طاعة الله، وسأل الله ووقف له القمر والشمس معًا. ولمَّا حان موت موسى سأل الله أن يدنيه للمقدس رمية حجر، ولم يسأل الدفن فيه لئلاّ يُعبد قبره.

وجرى على منوال قابيلَ وفسقةِ بني إسرائيل كفرةُ هذه الأمَّة بالقتل وغيره، ونزل في ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَآؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

حدُّ الحرابة أو حكم قطَّاع الطرق

﴿**إنَّمَا جَزَآؤُاْ الذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ,**﴾ لمحاربة المسلمين، أي الموحِّدين الذين لا تحلُّ دماؤهم، فمحاربة المسلمين محاربة لِرَسُول الله ﷺ، وذكر «الله» تعظيمًا، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين يُوذون الله ورسولَه﴾ (سورة الأحزاب: ٥٧)، ولو حاربوا الرَّسول لكانوا مرتدِّين، وإنَّما المُراد قطَّاع الطريق؛ قيل: ويحاربون أولياء الله ورسولِه - بجرِّ رسول - في هذا التقدير، وفيه أنَّه لا يختصُّ التحريم بأولياء الله تعالى، بل يعمُّ كلّ من لا يحلُّ قتله، وذلك في زمانه وبعده. وفي جعل محاربة المسلمين محاربة لله ورسوله تعظيم لهم.

وأصل الحرب: أخذ المال وترك صاحبه بلا شيء، والمُراد: قطع الطريق

باجتماع وقوَّة وشوكة وتعرُّض لمن عصم دمه ومالِ من عُصم مالُه من أهل التوحيد وغيرهم. وذكر ا لله «ورسوله» لأنَّ قطع الطريق مخالفة لأمر ا لله، وهذا أمر عظيم، وذلك في غير العمران. وأطلق عليه الحرب حقيقة عرفيَّة، أو مجازًا، لأنَّه سبب أخذ المال.

(فقه) ومن ذلك المكابرة باللصوصية ولو في مصر، أو ليلاً كما قال أبو يوسف، وقال أبو حنفيَّة ومحمَّد: لا نجري عليه في المصر أو في أقلَّ من مسافة السفر أحكامَ قطَّاع الطريق، بل أحكام السرقة أو القتل. ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ يجتهدون، وأصله: إسراع المشي، ﴿فِي الاَرْضِ﴾ أرضهم، أو أرض غيرهم، ﴿فَسَادًا﴾ هذا السعي في الأرض فسادًا هو المحاربة المذكورة، ذكرت باسم عامٍّ ثمَّ بخاصٍّ، أي ذوي إفساد، أو نفس الإفساد مبالغةً، أو لأجل الإفساد، أو يُقَدَّرُ: «مفسدين إفسادًا»، أو ضُمِّن «يسعون» «يفسدون»، وهو في ذلك كُلِّه اسم مصدر كما رأيت؛ وأجاز المبرِّد حالية المصدر قياسًا، وهو أوفق، لأنَّه مجاز، والعلاقةُ: الاشتقاقُ أو التَّعَلُّق، والمجاز مقيس.

﴿اَنْ يُّقَتَّلُواْ﴾ بلا تصليب، شدَّد للمبالغة فيمن يقتل، بمعنى أنَّه لابدَّ من القتل، ولا ينجو منه بعفو الوليِّ أو أخذ الدية، أو يقتَّلوا كلُّهم، لا في نفس القتل لأنَّه لا يقبل الزيادة وذلك قصاص إن أفردوا القتل، وإن شاء الوليُّ عفا أو أَخَذ الدية ولو لم يتعدَّد ذلك منهم فللإمام قتلهم، ولو عفا الوليُّ أو أَخَذَ الدية ولو لم يتعدَّد ذلك، وَقِيلَ: إن تعدَّد، تبادر التَّجَدُّد من قوله: ﴿يحاربون﴾، ﴿ويسعون﴾، ﴿أَو يُصَلَّبُواْ﴾ مكفتين[1] إن كفتوا وأخذوا المال.

١ - قوله: «مكفتين» كذا في النسخ، وَلَعلَّهُ لغة في كتفه كتفا، أي شدَّ يديه إِلَى خلف كتفيه

(فقه) ومذهبنا أن لا يصلب مُوَحِّد، والتصليب أن يعرض بخشبة ويطعن حتَّى يموت، وبه قال أبو حنيفة وصاحبه محمَّد، وَقِيلَ: يقتل ثمَّ يصلب ثلاثة أيَّام، وإن خيف تغيُّره أنزل قبل تمام الثلاثة، وَقِيلَ: يصلبون قليلاً قدر ما يعتبر بهِ فيُنزل ويقتل، وَقِيلَ: يُعرض ثلاثة أيَّام ثمَّ يُنزل فيُقتل، وَقِيلَ: يعرض بها حتَّى يموت، وَقِيلَ: يقتل ثمَّ يعرض ويترك حتَّى ينتن ويسيل ويتهرأ ويغسل، ويُصلِّي عليه غير المنظور إليه عقب القتل في ذلك كُلِّه، وقيل يصلَّى عليه بلا غسل، **ومشهور المذهب إطلاق أنَّه لا يغسل ولا يصلَّى عليه**، وكذلك الخلاف في المقتول بلا صلب، وَقِيلَ: يقتل قصاصًا، ويصلب نكالاً وعبرة. ولا غسل لمشرك ولا صلاة.

﴿أو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ أكفُّهم **﴿وَأَرْجُلُهُمْ﴾** أقدامهم **﴿مِّنْ خِلاَفٍ﴾** الأيدي اليمنى والأرجل اليسرى إن اقتصروا على أخذ المال، وذلك أنَّ اليد التي تقطع في السرقة هي اليمنى فكذا هاهنا، ويزاد إليها قطع الرجل اليسرى، قال ﷺ: «**من أخذ المال قطع ومن قتلَ قُتِلَ، ومن أخذ المال وقتلَ صُلب**» جاءه جبريل بهذا التقسيم في أصحاب أبي بردة.

(سبب النزول) والآية نزلت في العرنيِّين نسبة إلى "عرينة" قبيلة من العرب، جاءوا المدينة وأظهروا الإسلام وهم مرضى، فأذن لهم النبي ﷺ أن يخرجوا إلى إبل الصدقة ويشربوا من أبوالها وألبانها وهم ثمانية والإبل خمسة عشر فَلَمَّا صحُّوا قتلوا راعى النبي ﷺ وهو "يسار النوبي"، واستاقوا الإبل فبعث النبي ﷺ عشرين فارسًا منهم "كرز بن جابر الفهري" أميرًا، فجاءوا بهم

وأوثقه.

فأمر بهم فسملت أعينهم، وقطعت أيديهم ، وتركوا في الحرَّة يعضُّون الحجارة ويستسقون ولا يُسقون، فعل بهم ذلك ونزلت الآية بعد فعله. وسمل الأعين: إحماء حديد وكحلها به، وهذا قبل تحريم المثلة، أو لأنَّهم سملوا عين الراعي.

﴿اَو يُنفَواْ مِنَ الاَرْضِ﴾ يطالبهم الإمام بالنكال أو التعزيز إن خافوا ابن السبيل ولم يأخذوا مالاً ولا قتلوا، وهربوا حتّى لا يأمنوا في موضع يجري فيه حكمه. شبِّهت المطالبة بالنفي لأنَّه يخرج بها عن الأرض التي يفسد فيها، أرضًا لهم أو لغيرهم، وإن قبض عليهم قبل الهروب أو بعده نكلهم أو عزرهم.

(فقه) **وكذلك يطالب من أخذ مالاً أو قَتل أو جمع بينهما حتّى يقبض عليه فينفذ فيه تلك الأحكام، وهذا مذهبنا**، وقالت الشافعيَّة: ينفون من كُلِّ بلد يدخلونه حتّى لا يجدوا قرارًا بلا ضرب إن قبض عليهم، ومنهم من قال: ينفى أربعة بـُرَد عن وطنه ليستوحش فصاعدًا. وألحق بعض الشافعيَّة بالنفي ما ينزجرون بِهِ من ضرب أو حبس، وقال أبو حنيفة: ينفون من التَّصرُّف في الأرض حيث شاءوا بالحبس، كما قال محبوس في مكان ضيِّق وطال حبسه:

خرجنا من الدُّنيا وعن وصل أهلها ... فلسنا من الأحيا ولسنا من الموتى
إذا جاءنا السجَّان يومًا لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدُّنيا

وقال مالك: إنَّ الإمام مخيَّر في هؤلاء كُلِّهم بظاهر الآية لأنَّ المراد الزجر فبأيٍّ ينزجر الناس بِهِ يحكم، فقد لا ينزجر الحيُّ بقتل من قَتل وقد ينزجر بنفيه، وقد ينزجرون بالقتل أو بالقطع، وهو مرويٌّ عن الحسن البصري والنخعي؛ وما ذكرته أولى، لأنَّ القتل يوجب القصاص، فغلظ هنا بأن لا يسقط ولو أسقطه الوليُّ فهو حدٌّ، والسرقة توجب القطع، فغلظ هنا بالقطع من خلاف، وإن قتل

وأخذ مالاً غلظ بالتصليب، والإخافة أخفُّ فخفف بالتعزيز أو النكال أو بـالنفي على ظاهره أو الحبس، وَقِيلَ: أو في الآية تخيير للإمام بين تلـك الأحكـام كُـلِّها في كُلِّ قاطع. **وإن أراد وليُّ الدم العفو عن قاطع الطريق وزاحمه الإمام فالحكم للإمام، فإن شاء قَتل وإن شاء أمر الوليَّ بالقتل، ولا يسقط القتـل بـالعفو عـن قاطع الطريق، وإنّـما يسقط بعفو الوليِّ في غير القاطع.**

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الجزاء المذكور في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَآءُ...﴾، ﴿**لَهُمْ**﴾ خـبرٌ، واللام للاستحقاق، أي: هو لائق بهم، ﴿**خِزْيٌ**﴾ خبرٌ ثـان، أو خـبرٌ و«لهـم» حال من «خزيٌ»، أي: ذلٌّ وفضيحة، ﴿**فِي الدُّنْيَا**﴾ والحصر في «إِنَّمَا جَزَآءُ» بالإضافة إلى الدُّنيا، وأمَّا الآخرة ففي قوله: ﴿**وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ النَّار، لعظم ذنوبهم من إضرار الناس، ولاسيما مـا معه شرك، ولم يسمِّ الأوَّل الذي في الدُّنيا عذابًا لأنَّه بالنسبة إلى عذاب الآخرة كلا عذاب، أو لأنـَّه تحقير كما حقروا الناس، والجزاء من جنس العمل، ولأنَّه زجر للناس عن فعلهم.

﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا**﴾ من محاربة الله ورسوله والسعي فسادًا، ﴿**مِنْ قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ**﴾ فأسقطوا عنهم ما كان حقًّا لله من تصليبٍ وقطعٍ مـن خـلافٍ وقتلٍ حدًّا ونفيٍ من الأرض، فلا يُقتلون حدًّا فإن شاء وليُّ الدم قتل قصاصًا أو أخذ الدية أو عفا، وله القصاص فيما دون القتل أو الأرش، وله أخذ ما أُفْسِد مـن مالـه أو أُخِذَ.

﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ مـن شأنه الغفران والرحمة، فدخلوا في ذلك.

(فقه) وإن تابوا بعد القبض عليهم لم يسقط عنهـم ذلـك إلاَّ المشرك

فيسقط عنه بالتوحيد ولو وحَّد بعد القدرة عليه، ولا يطالب بمال ولا نفس، وَقِيلَ: لا يطالب المُوَحِّد بمال ولا نفس إن تاب قبل القدرة عليه، إلاَّ إن وُجد مالٌ بعينه لمعلوم، وبهذا حكم عليٌّ في حارثة بن بدر، إذ خرج محاربًا مفسدًا وتاب قبل القدرة وقَبِلَ توبته، وكتب له الأمان وبه قال السدِّيُّ.

(فقه) وإن تاب المشرك قبل القدرة عليه عن السعي فسادًا و لم يوحِّد لم يحكم عليه بتلك الأحكام المذكورة في الآية، بل يحكم عليه بما استحقَّه من جزية أو قتل أو إنذار إن لم يبلغه، فلا تدلُّ الآية بقيد القبلية على أنَّها في الموحِّدين من حيث إنَّ المُوَحِّد يدفع عنه توحيدُه القتلَ مطلقًا، والغفران يعمُّ عدم الجزاء بتلك الأحكام في الدُّنيا، والرحمة تَعُمُّه دنيا، أو هُمَا لَهُ في الآخرة إن تاب عن ذلك ووحَّد، ولو وحَّد قبل القدرة و لم يتب عن ذلك السعي فهو كغيره من القطَّاع إن عاود السعي بعد التوحيد، ثمَّ المفهوم إذا كان فيه تفصيل لا ينقض عموم الكلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾﴾

التقوى والجهاد أساس الفلاح في الآخرة، والدنيا كلّها لا تصلح فداء للكفّار

﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ﴾ احذرو عقابه بترك موجبه وهو

الكبائر، ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ﴾ اطلبوا، ضُمِّن «ابتغوا» معنى: توجَّهوا، فعدِّي بـ«إلى»، أو معناه باق فيتعلَّق بقوله: ﴿الوَسِيلَةَ﴾، لأنَّه اسم مفعول، فليس مصدرًا، فلم يمنع تقدُّم معموله عليه.

(نحو) لكن تكون "الـ" موصولة فتمنع التقدُّم، فالأولى أنَّه حال، أو يبقى مصدرًا فيعلق بِهِ ما قدِّم عليه، لأنَّه ليس منحلاً إلى الفعل وحرف المصدر، أو يعلَّق بما بعد الموصول، لأنَّه غير مفعول صريح؛ والظروف يتوسَّع فيها.

والمعنى: الخصلة الموسول بها إليه، أي المتوصَّل بها إليه، أو الأمر الموسول بِهِ إليه، وعلى هذا فالتاء للنقل، وهي طاعته.

ولا تفسير في الآية بالدرجة المخصوصة التي قال فيها ﷺ: «**إنَّها لواحد من عباد الله في الجنَّة اسألوا أن تكون لي**»[1]، لأنَّه ﷺ أمرنا أن ندعوَ بها له لا لنا، ودعوى أنَّ المعنى: ابتغوا إليه الوسيلة لرسولكم تكلُّفٌ لا يناسبه ما قبلُ وما بعدُ. وعن ابن عبَّاس: «الوسيلة: الحاجة»، أي: اطلبوا حوائجكم متوجِّهين إليه.

وَقِيلَ: هي الاتِّقاء المذكور، **لأنَّ التقوى ملاك الأمر كلِّه، والذريعة إلى كلِّ خير، والمنجاة من كلِّ شرٍّ.**

(فقه) ولا يقسم على الله بأهل الصلاح، ولا بأهل القبور، ولا يتوسَّل بِهما إلاَّ النبيِّ ﷺ، لأنَّه أفضل الخلق، فيجوز أن يتوسَّل به إلى الله، كما

---

[1] - أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٢، ص ١٢٤. بلفظ: «إنَّها منزلة في الجَنَّة جعلها الله تَعَالَى لعبد من عباده، وأرجو أن أكون أنا فاسألوا لي الوسيلة».

قال لضرير شكا إليه: «**توضَّأ وتوجَّه إلى ا لله تعالى بي في ردِّ بصرك**»[١]، ومنع بعض هذا أيضًا، وأجاز بعضهم ذلك بأولياء ا لله قياسًا عليه ﷺ ؛ وفي البخاري عن أنس عن عمر: «كنَّا نستسقي بنبيِّك فَتَسقينا، وإنَّا نتوسَّل إليك بعمِّه فاسقنا»[٢]، قال: فيسقون؛ وتأويل هذا بأنَّهم يطلبون الدعاء من العبَّاس [وهذا] غيرُ ظاهر. نعم يجوز الجمع بين التوسُّل بِهِ ودعائه.

وطلب الدعاء من الحيِّ جائز ولو مفضولاً، كما قال ﷺ لعمر رَضِيَ ا للهُ عَنهُ: «**لا تنسنا من دعائك**»[٣]، وذلك في عمرة استأذنه فيها. **وطلب من أوس أن يستغفر له**[٤]، **وأمرنا أن نطلب له الوسيلة**[٥].

(فقه) [قلت] ولم يصحَّ ما روي مرفوعًا: «**إذا أعيَتكُم الأمورُ فاستغيثوا بأهل القبور**». وفي ابن ماجه عن أبي سعيد مرفوعًا أنَّه يقول الخارج إلى الصلاة: «**اللهمَّ إنِّي أسألك بحقِّ السائلين عليك، وبحقِّ ممشاي هذا، فإنِّي**

١- رواه **ابن ماجه** بالمعنى في كِتَاب إقامة الصلاة وَالسُّنَّة فيها، رقم ١٣٧٥، عن عثمان بن حيف.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الاستسقاء، (٠٣) باب سؤال الناس الاستسقاء إذا قحطوا، رقم ٩٦٤، من حديث أنس.

٣- رواه **أحمد**، مسند العشرة المبشَّرين بالجنَّة، رقم ١٩٠.

٤- رواه **مسلم** في كِتَاب فضائل الصحابة، رقم ٤٦١٣ في قِصَّة طويلة عن عمر.

٥- رواه **مسلم** في كِتَاب الصلاة، ٥٧٧، في حديث طويل، بلفظ: «ثُمَّ اسألوا ا لله الوسيلة». عن عمرو بن العاص.

لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا رياء ولا سمعة، ولكن خرجت اتّقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، أن تنقذني من النّار، وأن تدخلني الجَنّة»، وفي سنده رجل ضعيف، مع أنّ فيه «عليك»، ولا واجب على الله تعالى، فيؤوَّل. وكان ابن عمر إذا دخل مسجد المدينة قال: «السَّلام عليك يا رسول الله، السَّلام عليك يا أبا بكر، السَّلام عليك يا أبتِ». ولا يحلُّ أن يقال لميِّت: أغثني أو افعل لي كذا، ويجوز: ادعُ الله لي.

﴿**وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ**﴾ نفوسَكم عن المعاصي والشهوات وأهل الشرك، لإعلاء دين الله عزَّ وجلَّ. ﴿**لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ**﴾ تفوزون بالثواب والفضل.

﴿**إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ لَوَ اَنَّ لَهُم مَّا فِي الاَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ, مَعَهُ,**﴾ من أموالها الحاضرة والماضية والآتية، المتشخصِّة والكامنة، من خافيات ومعادن ومنافع. ولفظ المعيَّة زيادة في تفظيع أمرهم، ﴿**لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ أي بما ذكر مِمَّا فيها ومثله، أو يُقَدَّرُ: ليفتدوا بِهِ بعدُ جميعًا، أو هذا له، ويقدَّر مثله لقوله: ﴿مثله معه﴾، أو الواو للمعيَّة فيكونان كواحد، واللام متعلّق بـ«ثبت» المُقَدَّر بعد «لو»، أو بـ«لَهُم» لنيابته عن «كان»، أو كائن، أو بـ«كان»، أو كائن، وهو للتعليل أو للعاقبة على دعواهم لا عند الله لأنَّه قال: ﴿**مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ**﴾ وما أثبته الله للفداء لا بدَّ أن يكون فداء مقبولاً، إلاَّ عَلَى معنى أنَّه لو ملَّك الله لهم ذلك على أن يفتدوا بِهِ، وصحَّ أن يفتدوا بِهِ لم يُتَقَبَّل لقلّته وبخسه في مقابلة النجاة.

وفي الآية حذف، أي: ليفتدوا بِهِ فافتدَوا بِهِ؛ أو: ما تُقُبِّل منهم إن افتدوا بِهِ؛ أو الآية تمثيل، بأن شبَّه حال الكافر في عدم خلاصه عن العذاب بعد إتيانه بجميع ما ظنَّ أنَّه مخلّص بحال شخص وقع في بليَّة ثمَّ افتدى بما في الأرض وبمثله لو كان له و لم يُتقبَّل منه.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تصريح بالمقصود من الجملة الأولى، وزيادة تقريرها، وبيان الهول، وبيان أنَّه كما لا يَدفع عذابَهم لا يخفّف، بل لهم عذاب شديد. ومن صحَّة الشرطيَّة الامتناعيَّة من حيث امتناعها، وكذا نفي انفكاك العذاب قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ يتمنَّون، وَقِيلَ: المُراد أنَّه يرفعهم لهبها فيقربون للخروج فيريدون الخروج، وَقِيلَ: المُراد يكادون يخرجون، وإنَّما يتمنَّون الخروج أو يريدونه مع علمهم بالخلود لأنَّهم ينسونه، أو ذلك للطبيعة، والعلم بعدم حصول الشيء لا يمنع من إرادته، لأنَّ الداعي إلى إرادة الشيء حسنه والحاجة إليه. ﴿أَنْ يَّخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ إذا دخلوها يوم القيامة، والمُراد دوامها معهم، لا يَفنَوْن ولا تفنى هي، ومقابل قوله: ﴿أَنْ يَّخْرُجُوا﴾ أن يقال: «وما يخرجون»، لكن جيء بجملة اِسْمِيَّة مسندها اسمٌ تأكيدًا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

حدُّ السرقة

(فقه) ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ لربع دينار وما يساويه قيمة عندنا وعند الشافعي ومالك، وقيل أو أقلّ، وبسطتُ الأقوال في الفروع، ومنها قول

أبي حنيفة: عشرة دراهم، وقول الحسن بِدِرْهَمٍ. وعنه عن ابن الزبير وابن عبَّاس في القليل والكثير بلا حدٍّ، وبه قال الخوارج. وقيل: لا تقطع الخمس إلاَّ بخمسة دراهم، والخلاف لأحاديث، ومنها: «**لا قطع إلاَّ في ربع دينار**»[١]، وذلك من حرز. ولم يعتبر ابن عبَّاس وابن الزبير والحسن والخوارج الحرز.

وقدَّم السارق على السارقة، لأنَّ الرجل أميل إلى السرقة وأقوى، والزانية على الزاني لأنَّها أميل إلى الزنى؛ حتَّى إنَّ الرجل إليها كإبرة في الطين، ولأنَّه لولا رضى المرأة غالبًا ما زنى بها رجل، إذ لو صاحت أو أنكرت من جدِّها لذلَّ الرجل وذهب. وهما مبتدأ على حذف مضاف، والخبر محذوف، أي: مِمَّا يتلى عليكم، أو: مِمَّا فرض عليكم حكم السارق والسارقة، وقوله تعالى: ﴿**فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا**﴾ بيان لذلك الحكم، أو هو الخبر، فالفاء فيه لشبه المبتدأ باسم الشرط في العموم، مع ما أشبه الفعل وهو الوصف. والإخبار بالطلب جائز.

(فقه) والمراد بالأيدى الأكفُّ اليمنى، وإن عادوا فاليسرى، وإن عادوا فالقدم اليمنى من مفصلها، وإن عادوا فاليسرى. ويعزَّر بعد ذلك إن عاد بما يرى الإمام، وقد قطع ﷺ يمنى سارق من الرسغ، رواه الحارث بن أبي عبد الله بن أبي ربيعة كما ذكره أبو نعيم، وذلك مذهب الجمهور وهو **مذهبنا**. وقالت الإماميَّة: يقطع من أصول الأصابع ويترك له الإبهام والكف، وزعمت الصُّفْرِيَّة أنَّ القطع من المنكب، وزعم بعضٌ أنَّ المُراد: الأصابع من اليمنى،

---

١ - رواه أحمد، مج٢، ص ٢٠٤: «لا قطع فيما دون عشرة دراهم». (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث).

لأنَّ القبض بها غالبًا و لم يقطع الأئمَّة إلاَّ من الرسغ فصار إجماعًا.

والجمع لكراهة تثنيتين، ولو ثنَّى فقيل: «يديهما» لجاز، ولو أفرد فقيل: «يدهما» لإرادة الحقيقة لجاز، ويُختار الجمع. ﴿جَزَآء﴾ اقطعوا أيديهما حال كونكم مجازين أو ذوي جزاء، أو أيديهما حال كونهما مجازَيْنِ - بفتح الزاي - أو ذَوَيْ جزاء - بفتح الواو - ولأجل الجزاء، أو جَازُوهُمَا جزاء، أو اعتبر الجزاء في «اقطعوا». ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ بما كسباه وهو السرقة، أو بكسبهما وهو: هي.

﴿نَكَالاً﴾ تعليلاً لـ«جزاء»، أو بدل منه، على أنَّه نوع منه، وهو العذاب؛ أو الإصابة بنازلة؛ أو تعليل لـ«اقطعوا»، أو لو جعلنا جزاء تعليلاً له لجواز تعليل شيء واحد بعلَّتين بطريق التَبَعِيَّة كالبدل هنا، وأجازه بعضهم ولو بلا تَبَعِيَّة، ولا بأس بتعليل علَّة ومعلولها. ﴿مِنَ اللهِ﴾ فلا بدَّ من التوبة بالندم وبالعزم على عدم العود وبالضمان، لأنَّ ذلك جزاء لا كفَّارة، وما جاء في الحديث أنَّه كفَّارة محمولٌ على من تاب. ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في إيجاب القطع وفي انتقامه منه ومن العصاة، وفي فرائضه وحدوده، فالقطع حكمة لا تحكُّم، لعن الله المعرِّي إذ قال:

يد بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار؟

تحكّم مالنا إلاَّ السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النَّار

قلت:

ياليت كلب المعرَّة الذي نبحا ... بذا الكلام وأبدى مضمر العار

عن نطقه ساكت، فإنَّ حكمته ... سبحانه وتعالى عزَّ من جار

عزُّ الأمانة أغلاها، وأرخصها ... ذلُّ الخيانة للحرز والدار

وإن أراد بالتحكيم مجرَّد أنَّه لاَ بُدَّ لنا من الحكم بِهِ قلنا قبَّحه الله لسوء عبارته. ويدلُّ على أنَّه لا يكون القطع كفَّارة بلا توبة قولُه تعالى:

﴿فَمَن تَابَ﴾ عن السرقة بالندم والعزم على عدم العودة ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلمهِ﴾ غيرَه، بأخذ ماله خفية، ومثله الجهر، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما أفسد بردِّ ما سرق إلى صاحبه، فإنَّ القطع لا يجزيه عن الردِّ **على الصحيح**.

(فقه) وَإن جهل صاحبه أو أيس منه أنفقه على فقير أو متعدِّد، وإن علم بعض أصحابه و لم يعلم حصَّته أعطاه الفقراء كذلك، وإن كان فقيرًا أعطاه إيَّاهُ، ويجزي إعطاء غيره إن جهل حصَّته، **ومِن إصلاحه: استقامتُه على الهدى بعدُ.**

﴿فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقبل توبته إذا ندم وعزم على ترك العود وردّ المال، إلاَّ إن تركه له صاحبه، وكذا إن لم يرفع إلى الإمام سقط القطع. وإن ترك صاحب المال للسارق ما سرق ثمَّ رُفِع السارق للإمام قطَعه **عندنا**، خلافًا للشافعي في قول له إِنَّ توبته تسقط القطع، ولو وقعت بعد الرفع ولو بلا عفو من صاحب المال عن ماله.

﴿أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقرير بما بعد النفي، أو نفي للنفي، والخطاب للنبي ﷺ أو لِكُلِّ من يصلح له، وتقرير لما مَرَّ من الوعد والوعيد، واستشهاد على قدرته على التعذيب والمغفرة في قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَّشَآءُ﴾ تعذيبَه أو خذلانَه، والمقام دليل، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ المغفرةَ له وتوفيقَه، وقدَّم التعذيب مع أنَّ «رحمته سبقت غضبه» مراعاةً لترتيب ما سبق،

ولأنَّ استحقاق التعذيب مقدَّم والمغفرة إنَّما هي بعد التوبة عمَّا يوجب التعذيب، وإن أريد بالتعذيب القطع فتقديمه لأنَّه في الدنيا، وهو غير متبادر، وداع إلى تفسير [قوله]: ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بعدم القطع بأن يستر، أو قدِّم لأنَّ المقام للوعيد، أو لأنَّ المُراد وصفه تعالى بالقدرة وهي في التعذيب أظهر، لأنَّه ممَّا يتعاصى عنه في الجملة[1].

﴿وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني أنَّه تعالى قادر على تعذيب من أراد تعذيبه من خلقه، وغفران ذنوب من أراد إسعاده وإنقاذه من الهلكة من خلقه، لأنَّ الخلق كلُّهم عبيده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ

---

[1] - كذا في النسخ، ولم يظهر لنا وجه المُراد. تأمَّل.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

مسارعة المنافقين واليهود إلى الكفر
وموقف اليهود من أحكام التوراة

﴿يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ﴾ لم يخاطب الله عزَّ وجلَّ سيدنا محمدا ﷺ بلفظ الرَّسول في القرآن إلاَّ في موضعين من هذه السورة، وذلك تشريف له، وتقوية لقلبه، وتسلية له ﷺ عمَّا يوجب حزنه من قومه، ولا حكم للذوات بنفسها بل باعتبار عوارضها، فالمراد: لا يحزنك كفر الذين يسارعون في الكفر، أو: لا يحزنك مسارعة الذين يسارعون، فأجسام الكفَّار لا تورث حزنًا ولا فرحًا، بل يورث الحزن كفرهم أو مسارعتهم ولفظ الآية من نهي الغائبين، وهو نهي الكفار عن إحزانه، والمراد نهي المخاطب ﷺ، أي: لا تحزن بكفرهم ومسارعتهم فيه، ولا تتأثَّر عن ذلك وتبال به.

والأحزان سبب للحزن، فنُهي عن السبب، والمراد النهي عن المُسبَّب قطعًا له من أصله تأكيدًا، وكذا العكس كقولك: لا أراك هنا، نهيًا لنفسك عن أن تراه هنا، والمراد نهيه عن الكون فيه الذي هو سبب رؤيتكهُ، ثمَّ المراد إظهار الكفر والمسارعة، وإلاَّ فأصل الكفر فيهم وهم منافقون فليسوا يجاهرون به، ولكن إذا وجدوا فرصة أظهروره لمثلهم، أو للمشركين الآخرين فذلك المسارعة، ويظهر أيضًا كفرهم بظهور أثره، وأيضًا يسارعون من كفر إلى كفر. ﴿مِنَ الذِينَ قَالُواْ ءامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ متعلّقٌ بـ«قالواْ» ﴿وَلَم تُومِن قُلُوبُهُمْ﴾ فـ«مِنْ» للبيان، أو للتبعيض، وسواء فيهما علّقنا بمحذوف حال من واو

«يسارعون» أو من «الذين»، أي : هم الذين قالوا، أو بعض الذين قالوا، اعتبارًا لكون بعض المنافقين يسارع وبعض لا، والقول لا يكون إلاّ بأفواه، فإنّما قال: قالوا بأفواههم، تلويحًا بأنّ قولهم قول فم لا نصيب فيه لاعتقادهم.

﴿**وَمِنَ الذِينَ هَادُواْ**﴾ عطف على ﴿مِنَ الذِينَ قَالُواْ﴾ على حدِّ ما مرَّ في ﴿مِنَ الذِينَ قَالُواْ﴾ فهم أو بعضهم مسارعون في الكفر كالمنافقين.

﴿**سَمَّاعُونَ**﴾ أي قوم سمّاعون، ﴿**لِلْكَذِبِ**﴾ خبر لضمير ﴿الذِينَ قَالُواْ﴾ و﴿الذِينَ هَادُواْ﴾، أي: هم سمّاعون، أي: هؤلاء الذين قالوا والذين هادوا سمّاعون.

ويجوز جعل «مِنَ الذِينَ هَادُواْ» خبرًا لـ«سَمَّاعُونَ»، ودون ذلك أن تجعل «سَمَّاعُون» خبرًا لضمير «الذِينَ قَالُواْ» محذوفًا، والأوّل أولى لعموم العقاب والغوائل، ويدلُّ له قراءة: «سَمَّاعِينَ» بالياء، فإنّها تعيِّن العطف. واللام لام التقوية، أي: سماعون الكذب من الأخبار على وجه القول، أو المراد بالسمع: القبول، كقولنا: «سمع الله لمن حمده»، واللام للتقوية، لأنّ القبول أيضًا يتعدَّى بنفسه.

والكذب تحريف التوراة لفظًا أو تفسيرًا، والطعن في نبوءته ﷺ، أو اللام للتعليل فيُقدَّر المفعول، أي: سمّاعون كلام رسول الله ﷺ أو كلام الناس، أو كليهما ليَكْذبوا في شأنه عليه بالزيد والنقص والتبديل والإرجاف، والقول بـ«إنّا سمعنا كذا وكذا» ولم يسمعوا.

﴿**سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ اخَرِينَ**﴾ من اليهود وهم أهل خيبر وقريظة والنضير والسمّاعون: الناقلون، منافقوا المدينة، وحاصل الكلام هو هذا، أو إنّ قومًا من

اليهود يسمعون الكذب من أحبارهم وينقلونها إلى عوامِّهم، وينقلـون عنـك إلى أحبارهم ليحرِّفوه، ويقال: قريظة تنقل إلى خيبر. ﴿لَمْ يَاتُوكَ﴾ سمَّاعون كلامك لأجل قوم آخرين، أو اللام للنفع خبر ثانٍ، أو نعت لـ«سمَّـاعون» الأوَّل باعتبـار منعوته.

وصفهـم أولاً: بـأنَّهم يسـمعون الكـذب ويقبلونـه، أو يسـمعون كلامـك ليكذبوا فيه، وثانيًا: بأنَّهم يسمعون كلامك ويوصلونه لقوم آخرين أعـداء لـك، لم يجيئوك استكبارًا أو لمزيد بغض، حتّى كأنَّهم لا قدرة لهم على رؤيتك.

وجملة «لم يأتوك» نعت ثانٍ لـ«قوم» أو حال منه لنعته بـ«آخرين» أو اللام للتّقوية، أي: سمَّاعون كلام قـوم آخريـن يقدحـون في نبوَّتـك وفي الديـن، كمـا قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ﴾ التوراة أو كلام رسول الله ﷺ أو كلام الله ورسوله ﷺ وكلام الناس، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ مـن بعـد تمكُّنـه في مواضعـه، فالجملـة نعت ثالث لـ«قوم» أو حال من واو «ياتوك» أو من المستتر في «سَمَّاعون».

والكلم: كلم التوراة، يحرِّفونهـا بالزيـادة فيهـا والنقـص منهـا لفظًـا وكتابـةً وتفسيرًا بغير المراد، وتبديلاً، كما بدَّلوا آية الرَّجم بالجلد والتحميم، وحمـل كـلٍّ واحد على حمار وجهه إلى دبر الحمار، وتسويد وجهه مربوطا بحبـل مـن ليـف، ولذلك العموم قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ ولم يقـل: «عـن مواضعـه» وقيـل: إنَّ «مـن» للابتداء، وإنَّ لفظ «بعد» للإشارة إلى أنَّ التحريـف ممَّـا بَعُـدَ إلى موضـع أبعـد، وذلك بليغ في التشنيع، ويبعد ما قيل: إنَّ لفظ «بعد» للتنبيـه علـى تـنزيل الكلـم منزلة هي أدنى ممَّا وضعت فيه، لأنَّه إبطال النـافع بالضـارِّ لا بالنـافع أو بـالأنفع، فكأنَّه وقف المحرِّف في موضع هو أدنى من موضع الكلمـة يحرِّفهـا إلى موضعـه،

ويضعف تعليقُ القوم بالكذب وجعلُ «سَمَّاعون» توكيدًا لفظيًّا.

﴿**يَقُولُونَ**﴾ نعت رابع، أو حال آخر، أو من واو «يُحرِّفون»، ﴿**إِنْ أُوتِيتُمْ**﴾ آتاكم محمد ﷺ في سؤالكم له. ﴿**هَذَا**﴾ أي هذا الأمر الذي حرَّفتم إليه التوراة كالتحميم والجلد بدل الرَّجم، ﴿**فَخُذُوهُ**﴾ اقبلوه واعملوا به، ونقول لله: إنّا عملنا بفتوى نبيٍّ ﴿**وَإِن لَّمْ تُوتَوْهُ**﴾ بأن أفتاكم بما في التوراة كالرجم أو بشيء عنده صعب، ﴿**فَاحْذَرُواْ**﴾ قبوله والعمل به.

(قصص) أُتي رسول الله ﷺ بشريف وشريفة زنى بها من اليهود وهما محصنان، وحكمهما في التوراة الرجمُ، ومعهما رهط من اليهود بعثوهما إلى قريظة ليسألوا النبيء ﷺ عنهما، فأمرهم بالرجم، فأبوا لشرفهما ولحسدهم أهل الإسلام، فقال له جبريل: «اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، شابًا أبيض أعور أمرد يسكن "فدك"» فسألهم عنه فقالوا: «نعم هو أعلم يهودي على وجه الأرض بما في التوراة» فأمرهم بإحضاره، فقال له النبيء ﷺ :«أنت ابن صوريا؟» قال: نعم قال: « **وأنت أعلم اليهود؟**» قال: كذلك يزعمون، قال ﷺ: «أترضون به حكمًا؟» قالوا: نعم قال ﷺ: « **أنشدك الله الذي لا إله إلاَّ هو، فلق البحر لموسى، وأنزل عليكم المنَّ والسلوى، وأنجاكم وأغرق فرعون، ورفع فوقكم الطور، وأنزل عليكم الحلال والحرام، هل تجدون في كتابكم الرجم على من أحصن؟**» قال: نعم والذي ذكرتني به، لولا أنِّي خشيت أن تحرقني النار ويروى :التوراة إن كذبت أو غيَّرت ما اعترفت، فوثب عليه اليهود، ويروى: سفلة اليهود فقال: خشيت إن كذبت أن ينزل عليَّ العذاب.

(سبب النزول) ثمَّ سأل النبيَّ ﷺ عن أشياء كان يعرفها من علامات نبوَّته ﷺ، فأجابه عنها فأسلم، فقال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّك رسول الله، النبيُّ الأميُّ العربيُّ، ولكن حسدك اليهود، وأنَّك الذي بشَّر به المرسلون. ثمَّ كفر، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـآ أَيُّهَا الرَّسُولُ...﴾، وأمر بهما فرجما عند باب المسجد، وإنَّما سأل النبيُّ ﷺ [ابن صوريا] تقريرًا، وليس إسلام ابن صوريا متَّفَقًا عليه.

وفي القصة: رجم المحصن ولو مشركًا، فليس الإسلام شرطًا أو شطرًا للإحصان عندنا، وقيل: أسلم وارتدَّ، وقيل: لم يسلم، وقيل: لمَّا سألوه وقد كان عنده الرجم، أتى أحبارَهم في مدارسهم وقال: «أخرجوا إليَّ أحباركم» فأخرجوا إليه ابن صوريا، وأبا ياسر بن أخطب، ووهب بن يهوذا، وسألهم فأخبروه بما عندهم، وقالوا «إنَّ ابن صوريا أعلمنا» فسأله وحده.

وروي أنَّه زنى رجل من "فدك"، فأرسلوا إلى اليهود بالمدينة أن يسألوه ﷺ فسألوه، فقال: «أرسلوا إليَّ رجلين منكم» فجاءُوا بابن صوريا وآخر، فأنشدهما بما مرَّ ، فقال أحدهما للآخر: ما أنشدت بمثله قطُّ، فقالا: نجد القبلة والاعتناق والنظرة ريبة، وإذا رأينا الذكر في الفرج كالميل في المَكحلة رُجِما، فرجم الرجل.

وقيل: اقتتلت طائفة من اليهود من الجاهليَّة، وجعلوا دية قتيل العزيزة[1]

---

[1] - القبيلة الشريفة.

مائة وسق، والذليلة خمسين، ولمّا جاء ﷺ أبت الذليلة إلاّ مائة، لأنَّ دينهم واحد، وقالت العزيزة: «صدقوا» ومحمَّد يحكم لهم بما قالوا، ولكن إن حكم بذلك فلا تأخذوا به.

﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ فضيحته أو صرفه عن الدِّين بالخذلان كهؤلاء الجاحدين للرجم، وقِيلَ: «فتنته» عذابه. ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لن تملك له شيئًا من توفيق تأتي به من الله، و«من» للابتداء تتعلّق بـ«تَمْلك»، أو بمحذوف حالاً من «شيئًا»، و«شيئًا» بمعنى: خيرًا وتوفيقًا، مفعول به، أو بمعنى: ملكًا، مفعول مطلق، أو «تملك» بمعنى: تدفع، و«شيئًا» بمعنى: ضرًّا، أو دفعًا كذلك.

(أصول الدين) وفي الآية أنَّ الله يريد كفر الكافر ومعصية العاصي، ويشاء ذلك، وإنّما الممنوع أن نقول أحبَّهما، ومنع المعتزلة ذلك، وهم محجوجون بالآية، وبأنَّه يلزم أن يكون في ملكه ما لا يريد، وذلك يستلزم الجهل والعجز والقهر، ومن يحصل في ملكه ما لا يريد يجوز أن يكون جاهلاً به، وكذا الكلام من أنّه لا يريد إيمان الكافر ولا طاعة العاصي كما قال: ﴿أُولَئِكَ الذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر، والإشارة لليهود والمنافقين، وصيغة البعد لبعدهم عن الخير وأهله، أو لبعد منزلتهم في الكفر، أو لَهُما، وفسِّر على هذا مثله من القرآن. وفي الآيتين أنَّ الله أراد كفر الكافر وعصيان العاصي وأخطأت المعتزلة في قولهم: إنَّ الله تعالى لم يُرِدِ من المكلّف إلاّ الخير والطاعة، وما وقع من شرك أو عصيان فعلى خلاف إرادته، وهذا كفر، إلاّ أنَّهم تأوَّلوا، فلم نحكم بشركهم.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ذلٌّ بالفضيحة بمخالفة التوراة وقوّة الإسلام، وذلّ المنافقون بالافتضاح وهوانهم على المسلمين، وخوف من المؤمنين، وبالجزية في أهلها. ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في القبر والحشر والنار.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ تأكيد لما قبله، وتميهد لقوله: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ المال الحرام، كالرُّشى، لأنّه يسحت البركة من المال والعمر، أي: يقطعها وتنقطع منه، وقال الزجّاج: لأنّه يعقبه الاستئصال، وقال: الخليل لأنّه يسحت المروءة عن صاحبه في حين كسبه. قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ لحم نبت من سحت فالنار أولى به**»[1]، قيل: «يا رسول الله ما السُّحت؟»، قال: «**الرشوة**» قال جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «**هدايا الأمراء سحت**»[2]. قال ﷺ: «**لعن الله الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما**»[3].

ويجوز أن يكون المعنى: سمّاعون لكلام الخصم الراشي في الحكم، فلا

---

[1] - رواه الطبراني في الكبير، ج ١٩ ص ١٣٥، رقم ٢٩٨، وأوّل الحديث عنده: «أعاذك الله من أمراء يكونون من بعدي...»إلخ.

[2] - رواه البيهقي (الكبرى) في كتاب آداب القاضي (٥١)، باب لا ينبغي للقاضي أن يضيِّف الخصم إلاَّ والخصم معه، رقم ٢٠٤٧٤ بلفظ: «غلول» بدل:«سحت»، من حديث أبي حميد الساعدي.

[3] - رواه الحاكم في كتاب الأحكام، ج ٤ ص ١١٥، رقم ٧٠٦٨ (٦٥) من حديث ثوبان.

تأكيد لما قبله، ويناسبه ذكر أكل السحت، فتكون الآية في اليهود. قال الحسن: كثرت الرشوة في بني إسرائيل، حتّى إنّه يجعل الخصم الرشوة في كمِّه فيريها الحاكم، فيتكلّم بحاجته ولا ينظر إلى خصمه، وقيل: ذكر تعليلاً لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، وقيل: الكذب هنا: الدعوى الباطلة، وفيما مرَّ: ما يفتريه الأحبار.

﴿**فَإِن جَآءُوكَ**﴾ للحكم بينهم، ﴿**فَاحْكُم بَيْنَهُمْ**﴾ بالقرآن ﴿**أَوَ اَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾ زاد المحلّي إنّك إن أعرضت عنهم فأردِدهم إلى حاكم ملّتهم، وإن جاء كتابيٌّ موحِّدٌ وجب الحكم، ثمَّ نسخ ذلك التخيير بقوله تعالى: ﴿وَأَنُ احْكُم بَيْنَهُمْ﴾ فيجب الحكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إلينا، لأنَّ لهم ذمَّة فيجب القيام بها، وكذا كتابيٌّ وغيره قيامًا بحقّه إذا كان ذميًا، وقيل: غير منسوخ، وهو قول للشافعي، والراجح عنه عدم النسخ.

وقيل: الآية ليست في أهل الكتاب، **والصحيح** [عندي] أنّها فيهم لقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَىٰةُ...﴾. وعن أبي حنيفة وجوب الحكم، وأنَّ الآية فيهم، وأنَّ التخيير منسوخ بـ«أنُ احْكُم بَيْنَهُمْ»، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، ومن لم يقل بالنسخ قال المرادُ: احكم بينهم بالحقِّ لا بغيره، إغراء بالحقِّ، وإلهابًا عليه.

(فقه) والظاهر بقاء التخيير ما لم يدخلوا تحت الذمَّة، وإذا دخلوا لم يلزمنا ما لم يترافعوا فيه إلينا، ولزمنا ما ترافعوا فيه إلينا، ونحكم عليهم بأحكام الإسلام فيما يبطل به البيع والنكاح وما يصحُّ به ونحو ذلك، وقيل:

يتركون على بيع الخمر والخنزير.

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ أي ضرٌّ، لأنَّ الله عصمك من الناس، فهم وإن ازدادوا عداوة لإعراضك غير قادرين على مضرّتك، قدَّم الإعراض للمسارعة إلى أن لا يخاف مضرَّة منهم إذ قد تُتوقَّع، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ أردت الحكم بينهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل الذي جاءك من الله كالرجم، أو من اجتهادك إن لم يكن وحي. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يرضى حالهم فيحفظهم ويعظم شأنهم ويثيبهم.

(لغة) ويقال: قسط وأقسط بمعنى: عدل، ويقال: قسط بمعنى جار، وأقسط وهو مقسط أي: أزال القسط أي الجور.

﴿وَكَيْفَ﴾ استفهام تعجيب أو توبيخ أو إنكار لللياقة ذلك عقلاً وشرعًا ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾ يجعلونك حاكمًا بينهم ويرضون بحكمك ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ لم لا يقتصرون على حكم التوراة وقد كفروا بك؟ هذا وجه التعجيب، ووجه آخر في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ عن حكمك ﴿مِن بَعْدِ ذَالِكَ﴾ من تحكيمهم إيَّاك وحكمك، ووجه آخر هو رجوعهم إلى حكم يعتقدون أنه باطل، وذلك كما حكّموك في المحصَنَيْنِ وحكمت بالرجم فأبوا، وما تدري ما السبب، وهو طلب ما هو أسهل مع اعتقادهم أن يقولوا لله: «عملنا بفتوى نبي»، وكثيرًا ما يكون التعجيب أو التعجُّب مع معرفة السبب.

أو: كيف يحكّمونك وعندهم التوراة! فإنَّ الواجب عليهم العمل بما فيها ما لم يعلموا بنسخه، فإذا علموا بنسخ شيء رجعوا إلى ناسخه.

(أصول الدين) وإمّا أن يبيح ا لله الرجوع إلى التوراة فيما علموا بنسخه، فاعتقاده كفر، لأنّه نفي لرسالة سيّدنا محمد ﷺ إليهم، وإنكار للناسخ. ﴿وَمَآ أُوْلَئِكَ بِالْمُؤمِنِينَ﴾ بكاملي الإيمان بكتابهم لنقصه بالكفر ببعض التوراة بتركه وبالكفر بك، أو ما هم من أهل حقيقة الإيمان المعهود المأمور به، أو ما هم مؤمنين بك.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

تشريع القصاص بالتوراة وإلزام النصارى بالحكم بها

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاٰةَ فِيهَا هُدًى﴾ من الضلال ﴿وَنُورٌ﴾ بيان للأحكام، حكم المسألة التي استفتوك فيها وغيرها، وقيل: النور كون نبيّنا ﷺ رسولاً من ا لله تعالى، الجملة حال مقارنة من «التوراة». ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيئُونَ﴾ حال

مقدَّرة منها. عابهم الله بالإعراض عن كتاب عظيم من الله متَّصفٌ بأنَّه مشتمل على الهدى والنور، وبأنَّه يحكم به الأنبياء والربَّانيون والأحبار، والمُراد: الأنبياء الذين في زمان موسى كهارون ويوشع في آخر عهد موسى، وبعد زمان موسى عليه السلام، وهم ألوف من الأنبياء من بني إسرائيل ليس معهم كتاب، وقيل: ألف نبيٍّ. وإنَّما بعثوا بإقامة التوراة، وزيد على داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل عليهما السلام، واستدلَّ بعض بالآية على أنَّ «شرع من قبلنا شرع لنا» وهو قول بعض أصحابنا، وقيل: دخل في «النَّبِيئُونَ» سيِّدُنا محمد ﷺ، لأنَّه يحكم بما في التوراة ما لم ينزل ناسخ.

﴿الذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ انقادوا لأمر الله عزَّ وجلَّ والعمل بكتابه، وفيه تعريض باليهود بأنَّهم خالفوا الأنبياء في الإسلام الذي هو دينهم، ومدح للمؤمنين لأنَّهم أسلموا كالأنبياء، وليس ذلك تخصيصًا وتوضيحًا للأنبياء، لأنَّ أنبياء الله كلَّهم انقادوا، بل تقوية لشأن الإسلام، لأنَّ إبراز وصف في معرض مدح العظماء منبئٌ عن عظم قدر الوصف، كما وصف الأنبياء بالصلاح والملائكة بالإيمان، كما يقال: أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف.

﴿لِلذِينَ هَادُواْ﴾ متعلّق بـ«يَحْكُمُ» لأجل الذين هادوا إذ يحكمون بينهم أو اللام للاختصاص وليس حصرًا، أو للبيان فشمل الحكم لهم والحكم عليهم، أو يقدَّر: للذين هادوا وعليهم، أو الحكم لهم مطلقًا، لأنَّ المحكوم عليه منفوع بزوال التباعة، ولأنَّهم رضوا بها كأنَّها أمر نافع للخصمين، أو تعلّق بإنزال، أو نعت لـ«هُدَى وَنُورٌ» ويضعف تعليقه بـ«هُدًى» للفصل. وقوله: ﴿لِلذِينَ هَادُواْ﴾ يدلُّ على أنَّ الأنبياء أنبياء بني إسرائيل، ويضعف ما قيل: إنَّهم جميع الأنبياء، بمعنى إنَّهم آمنوا بما في التوراة قبل نزولها، إلاَّ إن أريد ما لا يتغيَّر للأمم،

أو أراد جلّها، وإلاّ ففيها بعض مخالفة لما قبلها. ومعنَى «هادوا»: تابوا من الكفر، والمُرادُ: المؤمنون من اليهود، وقدَّر بعضٌ: للذين هادوُا وغيرهم من الناس، كما قدَّر: للذين هادوا وعليهم.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ العبَّاد الزهَّاد ﴿وَالاَحْبَارُ﴾ العلماء السالكون طريق الأنبياء عند قتادة، والفريقان من ولد هارون عليه السلام، وقيل: ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾ العلماء، ﴿والاحبار﴾ الفقهاء عطف خاص على عام، وعن ابن عباس «الربانيون»: الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغار العلم قبل كباره و«الأحبار» الفقهاء، وقيل: «الربانيون» أعلى لتقديمهم، وقيل: «الربانيون» الحكام، و«الأحبار» العلماء وقيل: «الرَّبَّانِيُّون»: علماء النصارى، و«الاَحْبَارُ» علماء اليهود.

(لغة) والعالم حِبر -بكسر الحاء- لأنّه يحصِّل العلم بالحبر -بالكسر- وهو المداد، وقد تُفتح من الحَبر بالفتح، بمعنى التحسين لأنّه يحسن العلم بتفسيره وتجويده والترغيب فيه.

والعطف على «النَّبيئُونَ» وفصل بقوله: ﴿لِلذِينَ هَادُواْ﴾ إيذانًا بأنَّ الأصلَ في الحكم بالتوراة وحملِ الناس عليها الأنبياءُ، وأمَّا الربَّانِيُونَ والأحبار فنوابٌ.

﴿بِمَا اسْتُحْفِظُواْ﴾ أي بما استحفظوه، و«ما» اسم موصول، والرابط هاء محذوفة، والواو للأنبياء والربَّانيِّين والأحبار. والذي استحفظهم إيَّاه هو الله جلَّ وعلا، أمرهم بحفظه من تغييره لفظًا ومعنًى، و«بما» بدلٌ من «بها» أو الواو للأحبار والربَّانيِّين، والعطف على معمولي عامل، أي يحكم النبيئون بها والربَّانيُّون والأحبار بما استحفظوا، أو الباء سببية، أي: يحكم بها النبيئون...الخ بسبب ما استحفظوا، جعلنا الواو للأنبياء والأحبار والربَّانيِّين أو للأحبار

والربَّانيِّين، وا لله استحفظ الكلَّ، أو الأنبياء استحفظوا الربَّانيِّين والأحبار.

﴿مِن كِتَابِ ا للهِ﴾ بيان لـ «مَا»، ﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ عطف على صلة «ما»، فالهاء عائدة إلى «ما» الواقعة على الكتاب، كما قلنا: إنَّ «مِن» للبيان فهي في المعنى للكتاب، والواو للأنبياء والأحبار والربَّانيِّين، أو للأحبار والربَّانيِّين، وأجيز أنَّه للنبيئين. و«شهداء»: حاضرين كمن حضر شيئًا رقيبًا عليه، أي لا يتركونه يغيِّر لفظًا أو معنى، كذا قيل، واعترض بأنَّه يلزم أن يكون الربَّانيُّون والأحبار رقباء على أنفسهم لا يتركونها أن تغيَّر، لأنَّ المحرِّف إنَّما يكون منهم، أو شاهدين بتفسيره، ومعناه: كما فعل ابن صوريا وعبد ا لله بن سلام لا يكتمونه، أوبصدقه كما فعلا[1] أيضًا أنَّه حقٌّ، ويجوز عود الهاء على رسول ا لله ﷺ، أي شهدوا برسالته، وعليه فليست الجملة معطوفة على صلة «ما» والأوَّل أولى.

تولَّى ا لله حفظ القرآن فلا يغيَّر، قال ا لله جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَافِظُونَ﴾(سورة الحجر:٩)، وأمر الأنبياء والربَّانيِّين والأحبار بحفظ التوراة، كما قال: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُواْ﴾ فغيَّرت.

﴿فَلاَ تَخْشَوُاْ﴾ أيُها اليهود والرؤساء، والمُراد: من علم منهم ما في التوراة، إذا كان الشأن ماذكر فلا تخشوا ﴿النَّاسَ﴾ في إظهار ما في التوراة من رسالة محمد ﷺ وكتابه وصفاته، وما وافق أحكامه كالرجم، بأن يظهَر عجزُكم

---

[1] -كذا في النسخ، وفي نسخة ج إسقاط الجملة كلّها ولعلَّ الصواب كما قالا إنَّه حق.

وكذبُكم ويعيبوكم، ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ في كتمان ذلك، وفي الإخلال بحقوقه، والتعرض له بسوء، فإنَّ ذلَّ الدُّنيا -ولا سيما أنَّه يزول ويعقبه خير للتوبة والإفصاح بالحقِّ- أهونُ من عذاب الآخرة الدائم، والنفع والضرُّ بيدي.

﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ بِئَايَاتِي﴾ بتركها وأخذ عوضها كما قال: ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ هو ما يأخذونه على كتمانها أو تبديلها أو تأويلها من مال أو جاه، أو الخطاب للحكَّام من هذه الأمَّة، كما روي عن ابن مسعود ورجَّحه بعض، نهاهم أن يداهنوا في الحكم خشية لظالم ومراقبة لكبير، أو خوفًا من فوت نفع، وأن يأخذوا الرشوة والجاه بدل آيات الله.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لنعمه بالإشراك إن خالفوا ما أنزل الله إنكارًا له، أو إهانة له أو بالمخالفة إن خالفوه مع إيمان به، لرشوة أو جاه أو غرض من أغراض الدنيا أو بجهالة، فإنَّ القاضي بما لم يعلم ولو وافق الحقَّ والقاضي بغير حقٍّ مع علمه في النار، كما جاء الحديث.

(أصول الدين) وفي الآية تكفير من أجاز تحكيم الحكَمَيْن فيما جاء فيه حكم الله، تكفيرًا غير شرك، واستدلَّت الصُّفْرِية بالآية على شرك فاعل الكبيرة وأخطأوا، لأنَّ الكفر في الآية ليس شركًا على الإطلاق، بل معنى عامٌّ قابل للشرك باعتبار، وما دون الشرك باعتبار، كما رأيت على طريق الإشتراك لا على الجمع بين الحقيقة والمجاز.

والآية على العموم، وبه قال الحسن والنخعي كابن مسعود، وقال ابن عبَّاس في بين قريظة والنضير، وَقِيلَ: في المشركين واليهود، وكذا الخلاف في مثليها بعد، وأنت خبير بأنَّ خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم، ومن حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر لإنكاره أو إعراضه، وظالم بالجور على غيره وعلى

نفسه، وفاسق بالخروج عن الحقِّ.

(أصول الدين) أو هذه في أهل التوحيد لاتّصالها بهم، على أنَّ الكفر كفر نعمة وكفر شرك، على التشبيه لا الحقيقة تغليظًا عليهم، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى، ولا بأس في أنَّها في أهل التوحيد، كما قال عليٌّ بن الحسين: ظلم دون شرك، وكفر دون شرك، وفسق دون شرك فذلك ظلم وكفر وفسق بالجارحة وكفر نعمة.

[قلت:] **وأنا أعجب ممَّن يروي هنا أحاديث سعيًا في إخراج الآيات عن أهل التوحيد، كأنَّه لا موحِّد ظالم، ولا موحِّد فاسق، ولا موحِّد كافر كفر نعمة**، فعن ابن عباس أنَّهنَّ في اليهود، وعن أبي صالح[1] في المشركين وأوَّلوا أيضًا بأنَّها في المشركين كُفَّارًا باعتبار الإنكار، أي مشركين وظالمين باعتبار وضع الشيء في غير موضعه، وفاسقين باعتبار الخروج عن الحقِّ، ودعاهم لذلك حصر لفظ الكفر على الشرك.

﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ**﴾ على الذين هادوا ﴿**فِيهَآ**﴾ في التوراة ﴿**أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾ النفس الجانية تُقتل بالنفس المجني عليها، الأولى القاتلة والثانية المقتولة، والباء للعوض. ﴿**وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ**﴾ تفقأ بالعين ﴿**وَالاَنفَ بِالاَنفِ**﴾ تجدع

---

[1] - هو أبو صالح باذام حدَّث عن مولاته أمِّ هانئ وأخيها عليٍّ بن أبي طالب وأبي هريرة وابن عبَّاس حدَّث عنه أبو قلابة الأعمش والسدِّي، قال ابن عديٍّ: أكثر ما يرويه تفسير، وقلَّ ما له من المسند. الذهبي: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج ١ ص ١٧٢ رقم ٦٣٧.

بالأنف، ﴿وَالْأُذْنَ بِالْأُذْنِ﴾ تصلم بالأذن، ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ تقلع بالسنِّ.

(نحو) والمحذوفات غير واجبات الحذف، لأنَّها أكوان خاصَّة، ولم يجز حذفها إلاَّ لدليل، وهو هنا المقام، ويجوز أن يقدَّر: تؤخذ بالنفس، وينسحب على ما بعد ذلك، وذلك عطف على معمولي عامل واحد وهو «أنَّ» وإنَّما قدَّرتُ المضارع لا اسم مفعول لأنَّ المقام للتجدُّد، ويضعف هنا تقدير الكون العامِّ المحذوف وجوبًا هكذا: النفس ثابتة أو تثبت بالنفس، وكذا ينسحب لأنَّ الكون الخاصَّ أفيد.

(صرف) والنفس بمعنى الإنسان يذكَّر، أو بمعنى الروح يؤنَّث، فتصغيره نُفَيْسَة بالتاء، والعين في الوجه يؤنَّث، وكذا الأذن، والأنف يذكَّر، والسنُّ يؤنَّث، ولو كان بمعنى الكِبَر في العمر، ويذكَّر الناب والضرس والناجذ والضاحك العارض مع أنَّهنَّ أسنان، ويؤنَّث اليد والضلع والرِّجْل والكبد والكرش، ويذكَّر الحاجب والصدغ والخدُّ والمرفق واللسان.

﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ ذات قصاص، أو مقتصٌّ بها إذا أمكنت فيها المماثلة، كاليد والرجل والإصبع والمفصل والذكر والأنثيين والشفتين واللسان، لا فيما يصعب فيه إدراك المماثلة كرض اللحم وكسر العظم ففيه ديته، ويقال الحكومة، وبسطتُّ ذلك في الفروع.

(فقه) ويقتل الرجل بالمرأة، ويردُّ لورثته نصف الدية، ولا يقتل حرٌّ بعبد ولو مكاتبًا. ولا مسلم بمشرك ولو كتابيًا في ذمَّة أو معاهدًا أو مستأمنًا أو جارًا ليسمع كلام الله عزَّ وجلَّ، وزعم بعض قومنا أنَّ الكافر يُقتل المؤمن بهِ والحرُّ بالعبد، ورووا أنَّه ﷺ **قتل مؤمنًا بذمِّيٍ**، والصحيح ما مرَّ وبه

جاء الحديث، ولا يصحُّ أنَّه قتل مؤمنًا بكافر. ولا يقتل أب أو أمٌّ أو جدٌّ أو جدَّة بالإبن كما في الحديث، وعن مالك أنَّه يذبح إن ذبح ولده. وتُقتل الجماعة بالواحد، كما قال عمر رضي الله عنه، خلافًا لأحمد، ولزم عليه كثرة إهراق الدماء بالجماعات، وفي قتلهنَّ كفٌّ، ولا حجَّة له في الآية، لأنَّ المُراد فيها ما شمل الجنس.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي بواحد ممَّا ذكر من النفس والعين وقصاص الجروح ومابينهما، أي عفا عن الجاني، ﴿فَهُوَ﴾ أي الواحد ممَّا ذكر باعتبار التصدُّق به، أو الهاء للتصدُّق، ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ أي لذنوب الذي عفا حتَّى وليِّ المقتول إذا عفا فعفوه كفَّارة له، لأنَّ له القتل أو الديَّة فترك ذلك، وتارة الدية، وللمقتول عوض من الله إن تاب القاتل، وإلاَّ فمن حسناته، والله أعلم.

وعنه ﷺ: «**من أصيب في جسده كفَّر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه**»[1] فقيل: هذا فيمن عفا عن جانيه، ففي رواية عنه ﷺ: «**يُحطُّ عنهُ بقدرِ ما عَفَا مِن ذُنوبه**» إن عفا، نصف بنصف الذنوب، وربع بربع، وثلث بثلث وكلٌّ بكلٍّ، أعطى الوليّ دية وديتين وثلاثًا على عهد معاوية فأبى إلاَّ القتل، فروى صحابيٌّ عنه ﷺ: «**من تصدَّق بدم غُفر له مِن يوم وُلد إلى أن**

---

[1] - رواه النسائي في تفسيره، ج ١ ص ٤٣٩، رقم ١٦٦، مع اختلاف في اللفظ، من حديث عبادة بن الصامت.

يموت»[1]

وقيل: المُراد العموم كما تبادر، وَقيل: الهاء للجاني وعليه ابن عبَّاس، أي: فالتصدق ستر للجاني عن أن يؤخذ بذلك في الدُّنيا، وأمَّا الآخرة فمتوقِّفة على التوبة، أو فالتصدُّق كفَّارة لجنايته، أي: لا يؤخذ بها إذا تصدَّق عليه بها صاحب الحقِّ، ولو كان يؤاخذ في الآخرة على إصراره، وأمَّا أجر العافي ففي قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ, عَلَى اللهِ﴾(سورة الشورى:٤٠)، أو المعنى فمن تصدَّق بالقصاص في نفسه أو في الجروح أو ما بينها بأن انقاد صاحب الحقِّ أنَّ يقتصَّ منه، فالتصدُّق كفَّارة لجنايته.

﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ**﴾ في القصاص أو غيره ﴿**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ لأنفسهم وغيرهم، وناسب ذكر الظلم لأنَّه عقب تباعات مخصوصة، والآية ردٌّ على ما أصطلحوا عليه من أن «لا يقتل الشريف بالوضيع ولا الرجل بالمرأة» ولِمَا كانوا عليه من أنَّه إذا قتل النضير من قريظة أدُّوا إليهم نصف الدِّية، وإذا قتل قريظة من النضير أدُّوا إليهم الديَّة.

﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾ أي أتبعناهم عيسى ابن مريم، فالباء صلة، و«عيسى» مفعول أوَّل مؤخَّر، لأنه فاعلٌ معنىً لأنَّه القافي، والثاني محذوف مقدَّم، أي: قفَّيناهم، أو التشديد للمبالغة، أو لموافقة الثلاثي، والباء

---

[1] - فعفا عنه الوليُّ، وقال لهم معاوية مروا بمال. راجع ابن كثير، ج٢، ص٦٤. والألوسي، ج ٢، ص ١٤٩.

للتعدية، والهاء للنبيئين، كما قال: ﴿...بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾(سورة الحديد:٢٧)، وهذا أولى لهذه الآية ولمزيد مناسبته من أن تعود إلى من كتب عليهم في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ولا مانع من كون عيسى تابعًا لأمَّة قبله، لأنَّ المعنى أنَّه جاء بعدها مقرِّرًا لما لزمهم. ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من «عيسى» مؤسِّسة لا مؤكّدة لعاملها ولا لصاحبها، لأنَّ «قفّينا» و«عيسى» لم يوصفا لمعنى التصديق، ولو لزم من كونه رسولاً أنَّه مصدِّق، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ مؤمنًا بها، عاملاً بها، ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الاِنجِيلَ﴾ عطف على «قفّينا»، ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ حال من الإنجيل، أو الحالُ «فيه»، و«هدى» فاعلُه، أي: ثابتًا فيه الهدى من الضلال، وللنور: وهو البيان للأحكام.

﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطف على الحال التي هي جملة، أو على الحال التي هي ثابتًا، والحالان مؤسِّستان على حدِّ ما مرَّ في التي قبلهما. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي غير مناقض لها، إلاَّ ما نسخه منها، بل هو مثبت لها، وإنَّما هو مواعظ وأمثال ورموز، وأمَّا الأحكام بين الناس فأحيلت على التوراة، أمروا في الإنجيل أي يعملوا بما في التوراة. وظاهر هذه الآية وما بعدها أنَّ في الإنجيل أحكامًا غير ما في التوراة، ففي البخاري: « **أعطي أهل التوراة التوراةَ فعملوا بها، وأهل الإنجيل الإنجيلَ فعملوا بهِ**»[1].

---

[1] - رواه البخاري في كتاب التوحيد (٤٧) باب قول الله تعالى: ﴿قُل فأتوا بالتوراة فاتلوها...﴾ رقم ٧٠٩٥، وأوَّل الحديث هو: «إنَّما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم...» من حديث ابن عمر.

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ حالان من «الإنجيل» بالعطف مؤسِّستان على حدِّ ما مرَّ، أي : ذا هدى ووعظ، أو هاديًا وواعظًا، أو نفس الهدى والوعظ مبالغة بأنَّه نفسهما بعد أن جعله مشتملاً عليهما، أو مفعول من أجله محذوف، أي: وآتيناه الإنجيل إرشادًا وهدى وموعظة. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي لمن قضي له بالتقوى، أو يزيد الهدى والإتِّعاظ لمن اتَّصف بالتقوى، أو يثبتهم علَى الهدى والإتِّعاظ. ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الاِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ فِيهِ﴾ هذا من جملة ما أنزل الله في الإنجيل، لا أمرٌ لهم بعد بعث سيِّدنا محمد ﷺ بالحكم بالإنجيل، والتقدير: وقلنا لهم في الإنجيل: «وَلْيَحْكُم أَهْلُ الانجيل بِما أنزلَ اللهُ فيهِ من المواعظ والأمثال والرموز»، ويجوز أن يكون أمرًا لهم بعد بعثه ﷺ بالحكم بهِ، بمعنى: ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من رسالة محمَّد ﷺ وصفاته وكتابه وبما في كتابه.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ عن الإيمان به ولو ادَّعوا الإيمان به، وناسب ذكر الفسق لأنَّه أمرهم قبل هذا بالحكم بالإنجيل، فمن لم يحكم، بما أنزل الله فقد فسق، أي خرج عن أمره، كقوله: ﴿اسْجُدُوا لآدَم فَسَجَدُواْ إلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنَ اَمْرِ رَبِّهِ﴾(سورة الكهف: ٤٩).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾

الحكم بشريعة القرآن

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمَّد ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن، عطف على «أنزلنا التوراة»، ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من «نا»، أو الكاف أو «الكتاب»، ولا مانع من تعليقه بـ«أنزل»، والباء بمعنى مع، أو يُقَدَّرُ: إنزالاً كائنا بالحقِّ، وإن قدَّرنا ملتبسين أو ملتبسًا بالحَقِّ ونحو ذلك من الأكوان الخاصَّة فليس «بالحقِّ» نائبًا عنه

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من الكتب السابقة كلّها فـ«أل» لاستغراق الكتب قبله، وتحتمل الحقيقة الصادقة بالتوراة والإنجيل لأنّهما للأحكام ومتأخّران، وأصحابهما حاضرون متنافسون، ولا يدخل القرآن في ذلك لأنَّه هو المصدِّق لها، مثلما نقول: المتكلّم لا يدخل في عموم كلامه، حيث تبادر العموم في غيره، إلاَّ أن يتكلّف أيضًا بقصد أنَّ بعضه يصدِّق بعضًا، والبينية هنا بمعنى التَّقدُّم، فَرُبَّما يُفَسَّرُ بها ما في غيرها من سائر القرآن.

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي رقيبًا على ذلك الكتاب الذي أريد به الحقيقة، أو الاستغراق، بأن كان مبيِّنًا لفساد ما نسب إليه من الباطل، وشاهدًا لها بالصحَّة، وانتفاء ما خالف الحقَّ عنها، ومقرِّرًا لما فيها، وهاؤه أصلِيَّة، يقال: هَيْمَنَ، كبَيطَرَ وخَيْمَرَ وسَيْطَرَ وبَيْقَرَ، وَقِيلَ: بدلٌ من الهمزة، كهَرَاقَ وأصله: أراق.

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم﴾ بين أهل الكتاب ﴿بِمَآ أَنزَلَ اللهُ﴾ إليك وافق توْراتَهم أو إنجيلهم أو لم يوافق، ولم يقل: «فاحكم به»، ليؤكّد شأنه بذكره بلفظ

الإنزال، ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ مائلاً أو معرضًا عمَّا جاءك من الحقِّ ونحو ذلك من الأكوان الخاصَّة كعادلاً.

(نحو) والكون الخاصُّ يجوز حذفه لدليل. أو متعلّق بـ«تتّبع» لتضمنه معنى الإعراض والميل عمَّا جاءه، ولايَتَعَيَّنُ هذا، ولو كان الحال كالخبر، والجارُ والمجرور ويضعف الإخبار بهما في نحو: «زيد بك» لأنَّه إن أريد الكون العام فلا بأس، أو الخاصُّ ودَلَّ عليه جاز حذفه، أو لم يدلَّ عليه لم يَجُز حذفه.

﴿لِكُلٍّ﴾ أي لِكُلِّ أمَّة، متعلّق بقوله: ﴿جَعَلْنَا﴾ أي أثبتنا ﴿مِنكُمْ﴾ أيُّها الأمم الحاضرون والماضون والآتون، غلَّب الحاضرين بالخطاب، وَقِيلَ: الخطاب للأنبياء المشار إليهم في الآيات قبلُ، **وهو بعيد**، وأبعد منه كونه لهذه الأمَّة. وليس تقديم الجارِّ للحصر. ولفظ: «منكم» نعت لـ«أمَّة» المُقَدَّر، مفعول لـ«جَعَلْنَا»، كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ا للهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الاَرْضِ﴾(سورة الأنعام: ١٤).

أو الخطاب لليهود والنصارى وهذه الأمَّة، ويناسب هذا أنَّهم المذكورون، والكلام فيهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾(الآية:٤٤)، وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَءَاتَيْنَاهُ الاِنجِيلَ﴾(الآية:٤٦)[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الكِتَابَ﴾(سورة

---

١ - في الأصل: «ثُمَّ قَفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل» وهو خطأ من النساخ فيما يبدوا، وأمَّا الآية المبدوءة بـ«ثمَّ» فهي في سورة الحديد ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ
=

النساء: ١٠٥)[١].

﴿شِرْعَةً﴾ مِلّةً، سمِّيت لأنَّها شرعت، أي أظهرت وبيِّنت، أو شرِّعت أي وضعت لتقصد ويؤخذ منها، كماءٍ دائم على وجه الأرض، يقصد للشرب والاستقاء وغير ذلك، يتوَصَّلُ بها إلى حياة القلب والحياة الأبديَّة كالماء للبدن، أو لأنَّها طريقة إلى رضى الله والجنَّة، وطريق إلى العمل بما يثبت ذلك.

﴿وَمِنْهَاجًا﴾ طريقًا واضحًا واسعًا، فالملَّة شريعة باعتبار تلك المعاني، ومنهاج باعتبار وضوحه واتِّساعه، وإذا فسَّرنَا الشريعة بالظهور فقد زاد لفظ «منهاج» لها سعة، أو الشرعة: العبادة والمنهاج أحكام الدِّين.

فلأمَّة موسى شريعة ولأمَّة عيسى شريعة تضمُّ إليها أمَّة موسى، ولمن وجد في زمان سيِّدنا محمد ﷺ بعد بعثه من اليهود والنصارى والعرب وغيرهم شريعة هي القرآن والسنة وما يؤخذ منهما، وكذا لِكُلِّ أمَّة قبل سيِّدنا موسى عليه السلام شريعة.

(فقه) والدين واحد، وهو التوحيد لا يختلف، ومكارم الأخلاق، واجتناب مساوئها، والإقرار بحقيقة ما جاء من الله. ولا شريعة بعد

=

مَرْيَمَ﴾ (الآية ٢٧).

[١] - يبدوا أن الشيخ توهَّم، فأورد آية النساء بدل الآية التي هو بصدد تفسير سياقها، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (الآية ٤٨).

البعثة المحمَّدِيَّة سوى المِلَّة المحمَّدية، وتدلُّ الآية أنَّ شرع من قبلنا ليس شرعًا لنا، وكذا بين الشرائع، وقيلَ: هما واحد.

والعطف لاختلاف الصِّفة، أو للتأكيد، كقول عنترة:

أقوى وأقفر بعد أمِّ الهيثم[1]

وقال المبرِّد: الشرعة: ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق الواسع، وقِيلَ: المنهاج: أصول الدين، والشرعة: فروعه، وضُعِّف، وَقِيلَ: الشرعة: النبيء، والمنهاج: الكتاب، وقِيلَ: المنهاج: الدليل، والشرعة: الطريق مطلقًا.

﴿**وَلَوْ شَآءَ ا للهُ لَجَعَلَكُم, أُمَّةً وَٰحِدَةً**﴾ على دين واحد لا يلحق نسخ شريعة، وَقِيلَ: لو شاء ا لله لجعلكم على دين الإسلام كلّكم، ولا يشرك منكم أحد، ولا يناسبه قوله تعالى: ﴿**وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ**﴾ ليظهر مطيعكم وعاصيكم خارجًا طبق علمه، ﴿**فِي مَآ ءاتَاكُمْ**﴾ فإنَّ المعنى: ولكن خالف بين شرائعكم ليبلوكم فيما آتاكم من الشرائع، ولا يصحُّ أن يقال: ولكن لم يجعلكم كلّكم مسلمين ليبلوكم فيما آتاكم من الشرائع ويظهر المطيع والعاصي، فإنَّ فَرْضَ الحمل علي دين الإسلام وأنَّه الأمَّة الواحدة ينافي تعدُّد الشرائع، فافهم. وقيل: لو شاء اجتماعكم على الإسلام لأجبَركم عليه، وقيلَ: لو شاء ا لله تعالى لم يبعث نبيًّا فيتعبَّدكم بعقولكم، ويوفِّق بينها، **وليس الشرائع مجرَّد ابتلاء بل نظر للصلاح لهم**، كما يدلُّ له قوله تعالى:

[1] - وصدره: «حييت من طلل تقادم عهده» (المعلَّقة).

﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾ سارعوا إلى الخيرات بمسابقة، من الإفتعال الذي بمعنى التفاعل، افعلوا طاقتكم في الخيرات وهي الأعمال الصالحات، من فعل ما أُمر به، وتركِ ما نُهي عنه، كما يفعل كلٌّ من المتنافسَيْن مع الآخر. ﴿إِلَى ا للهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي لأنَّ رجوعكم بالبعث إلى ا لله لا إلى غيره، وهو لا يخفى عنه شيء من مبادرة المبادر، وتقصير المقصِّر، فيجازي على ذلك كما قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين، إنَّ فلانًا مبادر للحقِّ ثوابه الجنَّة، وفلانًا مقصِّر مبطل عقابه النَّار. و«جميعًا» حال من الكاف المضاف إليها المصدرُ الميميُّ إضافة مصدرٍ لفاعلِه، من «رجَعَ» اللازم، أو لمفعوله، من «رَجَعَ» المتعدِّي، ولو كان هذا المصدر لا ينحلُّ إلى حرف المصدر والفعل، إذ لا يصحُّ أن يقال: إلى ا لله أن ترجعوا جميعًا.

﴿وَأَنُ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ا للهُ وَلاَ تَتَّبِعْ اَهْوَآءَهُمْ﴾ «أن» مفسِّرة لمعطوف على «أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكِتَابَ»، أي: وأمرناك أن احكم، أو: أوحينا إليك أن احكم.

(نحو) ثمَّ رأيت أنَّه اعترض بأنَّه لم يحفظ حذف المفسَّر، إذا قلنا هذا لصحَّته معنى أولى من جعلها مصدريَّة دخلت على الطلب، إذ لا معنى لذلك، **فعندي** لا يدخل حرف المصدر على الأمر والنهي، لأنَّ المصدر له خارج والأمر والنهي طلب لا خارج له، فلا تقدِّر: «وبِأَنُ احْكُمْ» عطفًا على «بالحقِّ»، ولا: «وأمرناك بأن احكم»، وما أوهم ذلك مؤوَّل، فكذلك لا يصحُّ أن تجعل مصدرية ويعطف المصدر على «الكتاب»، أي: أنزلنا إليك الكتاب والحكم بينهم، أو على «الحقِّ»، أي: بالحقِّ وبالحكم. وليس ذكر الحكم هنا

تكريرًا، لأنَّ الأوَّل في الرجم وهذا في الدماء والديات.

(سبب النزول) ولأنَّ هذا في قول أحبار اليهود: اذهبوا بنا إلى محمَّد لَعلَّنا نفتنه عن دينه، فقالوا: «يامحمَّد، قد عرفت أنَّا أحبار اليهود، وأنَّا إن اتَّبعناك اتَّبعَنا اليهود كلُّهم، وأنَّا بيننا وبين قومنا خصومة فاحكم لنا عليهم نؤمن بك» فنزل قوله تعالى: ﴿**وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَّفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ا للهُ إِلَيْكَ**﴾إلخ، مع قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ا للهُ وَلاَ تَتَّبِعَ اَهْوَآءَهُمْ﴾، ثمَّ إنَّه لا مانع من أنَّه ذكر الحكم تأكيدًا.

ومصدر «يفتن» بدل اشتمال من الهاء، أو مفعول من أجله على حذف المضاف المستكمل لشروطه، أن: مخافة أي يفتنوك، أي: مخافة فتنتهم إيَّاك.

قلت: واستُدلَّ بالآية على جواز الغلط والنسيان في حقِّ الرّسل لأنَّه أمره بالحذر، وتعَمُّد قبول فتنتهم لا نتوهَّمه منه ﷺ.

﴿**فَإِن تَوَلَّوْا**﴾ عمَّا أنزل إليك وأرادوا غيره، أو أمسكوا عنه وعن غيره، ﴿**فَاعْلَمَ اَنَّمَا يُرِيدُ ا للهُ أَنْ يُّصِيبَهُم**﴾ يعاقبهم في الدُّنيا بالقتل والسبي والجلاء، أجلى النضير، وقتل قريظة، وأعَمُّ من ذلك ما عرا[1] قينقاع وأهل خيبر وفدك. ﴿**بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ**﴾ هو ذلك التولّي، وعبَّر عنه بالبعض تعظيمًا له بالإبهام ويعاقبهم عليه وعلى سائر ذنوبهم في الآخرة، لأنَّ المصيبة كفَّارة لمن لم يصرَّ.

---

[1] - مِن: عرا يعرو فلانًا أمرٌ: أَلَمَّ به، ومنه قول الشاعر:

=

وذِكر «البعض» مضافا للذنوب إشعارٌ بأنَّ لهم ذنوبًا كثيرة يكفي واحد منها في الأخذ، وأبهم «البعض» تعظيمًا له وهو التولِّي، وأنَّ بعضا منها أيًّا كان يوجب إهلاكهم في الدُّنيا والباقي في الآخرة، وَقِيلَ: المراد بالبعض الكلُّ، كما يعكس، ولا يمنع من إرادة الكلِّ كونُ الإصابة في الدُّنيا، لجواز أن يصيبهم بمصيبة واحدة في الدُّنيا بذنوبهم كلِّها ويعاقبهم بها كلِّها، في الآخرة لأنَّهم أصرُّوا.

(أصول الدين) والآية دليل على أنَّ الله أراد المعصية كما أراد الطاعة، لأنَّه لا يريد إصابتهم إلاَّ وقد أراد معصيتهم بأن نهاهم و لم ينتهوا. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ اَلنَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ خارجون عمَّا أمر الله به، أو عن ترك ما نهى عنه إنكارًا له أو تشهِّيًا، والمُراد أنَّ مثل هؤلاء اليهود كثير، وهم من لم يزدجر و لم يأتمر. وأمَّا التمرُّد في الفسق والإعتداء فيه فلا دلالة في الآية عليهما، اللهمَّ إلاَّ على معنى أثبتنا القصاص في التوراة وقرَّرناه في الإنجيل، وأنزلنا عليك الكتاب مصدِّقًا لما فيهما ومع ذلك كلِّه لم يؤمنوا به، وخرجوا عنه.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الفاء عاطفة لما بعدها، وللهمزة قبلها على الجملة قبلُ هي: «إِنَّ كَثِيرًا...»إلخ، أو «فَإِن تَوَلَّوْا...»إلخ، أو عاطفة على جملة مُقَدَّرة بعد الهمزة، أي: أيتولَّون عن قبول حكمك فيبغون حكم الجاهليَّة؟ فإنَّ «حُكْمَ» مفعول «يَبْغُونَ»، وبَّخهم الله على طلب حكم الجاهليَّة، وأنكر لياقته،

=

وَإِنِّي لتعروني لذكراك هزَّة كما انتفض العصفور بلَّله القطر

وهو المداهنة والميل عن الحقِّ إلى الهوى، مع أنَّ الله أنزل التوراة والإنجيل والقرآن على خلافه.

(سبب النزول) ويقال نزلت في النضير إذ طلبوا رسول الله ﷺ أن يقيهم على أنَّ دية أحدهم تامَّة على القرضيِّ: ودية القرضيِّ عليهم نصف، وفي قريظة إذ قالوا: النضير إخواننا أبونا واحد وديننا واحد كتابنا واحد، فإن قَتَل النضير منَّا أعطَوْنا سبعين وسقًا تمرًا، إن قَتَلْنا منهم أخذوا مائة وأربعين وسقًا، وجراحتنا نصف جراحتهم، فاقض بيننا، فقال ﷺ: «**لا فضل لأحدكم على الآخر في دم ولا عقل** -أي دية- **ولا جرح**»، فغضب النضير فقالوا: «لا نرضى بحكمك إنَّك لنا عدوٌّ تجتهد في وضعنا» فنزلت.

وتقديم المفعول للحصر، عاب الله عليهم التولِّي وعاب عليهم أنَّهم لا يبغون في ذلك إلاَّ حكم الجاهليَّة، والجاهلية: الملَّة الجاهليَّة، أو الأُمَّة الجاهِليَّة، وعبارة بعضهم: أهل الجاهليَّة، **والمُراد على كلِّ حال: اتِّباع الهوى.**

﴿**وَمَنَ اَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا**﴾ نفي لحصول حكم أفضل من حكم الله بالعبارة، ونفي لحصول حكم مساوٍ لحكمه بالعرف في مثل هذا، والمُراد لا مساوي فضلاً عن فائق، وهذا عرف مستعمل، يقال: «لا أحسن من زيد» ويراد هو أفضل من غيره. ﴿**لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ بالله، أي عند قوم، متعلِّق بـ«أحْسَنُ»، أو اللام للبيان، أي: قلنا ذلك لقوم يوقنون، أو الخطاب، أي قلنا ذلك لقوم يوقنون، وعلى الأوجه كلِّها خصَّهم لأنَّهم المتأمِّلون المدركون الحقَّ بتأمُّلهم، وإلاَّ فحكم الله لا يختصُّ، فلا يتعلَّق اللام بـ«حكمًا»، وقيلَ: تعلَّق بهِ بمعنى: لا أحسن من حكم الله للموقنين بالغلبة والنصرة على الكفرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣﴾

موالاة اليهود والنصارى

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيمان صدق أو إيمان نفاق، بالجارحة أو بإضمار شرك، ولو كان سبب النزول فيمن نافق بإضمار الشرك ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ بالحبِّ، والاعتماد عليهم، وإلقاء الأسرار إليهم، ومشاورتهم، بل ابغضوهم، لأنَّهم أعداء الله، وفيهم مكر، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ بعض اليهود أولياء لبعض اليهود، وبعض النصارى أولياء لبعض النصارى، كلُّهم يد واحدة عليكم، واليهود عدوٌّ للنصارى، والنصارى عدوٌّ لهم، ومع ذلك هم أولياء، بعض لبعض من حيث الإشراك ومعاداتهم، فكيف تطمئنون إليهم؟ ولظهور العداوة بين اليهود والنصارى لا يُتوهَّم إنَّ المُراد أنَّ اليهود أولياء النصارى والنصارى أولياء اليهود.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ تأكيد في التحذير، يعذَّب بالنار كما يعذَّبون، وإن كان تولِّيه إياهم بإضمار الشرك فهو أيضًا مشرك مثلهم.

(سبب النزول) روي أنَّه قال عبادة بن الصامت رَضِيَ ا للهُ عنهُ -من بني الحرث بن الخزرج- لعبد ا لله بن أبيٍّ بن سلول في تنازعهما: «إنَّ لي أولياء من اليهود، كثيرًا عددهم، شديدًا شوكتهم، وإنّي أبرأ إلى ا لله وإلى رسوله من ولاية اليهود، ولا مولى لي إلاَّ ا لله ورسوله»، فقال عبد ا لله بن أبيٍّ: «لكنّي لا أبرأ من ولاية اليهود، فإنّي أخاف الدوائر، ولابدَّ لي منهم»، فقال النبيء ﷺ: «**يا أبا الحباب، ما نفست بهِ من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه**»، أراد العيب عليه، فقال: إذًا أقبَلُ، وأبو الحباب كنية ابن أبيٍّ، ونزلت الآية والتي بعدها في ذلك.

وفي أنَّه تخوَّف قوم بعد قتال أحد، فقال مسلم [ضعيف الإيمان]: أنا ألحق بفلان اليهودي، آخذ منه أمانًا، وأتهوَّد معه، لعلَّه تكون الدولة لليهود، وقال آخر: أنا ألحق بفلان النصرانيِّ بالشام، وأتنصَّر معه، وآخذ منه أمانًا.

﴿**إِنَّ ا للهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ الذين سبقت لهم الشقاوة، بل يخذلهم باختيارهم الضلال كموالاة الكفّار.

قال ﷺ: «**لا تتراءى نار المؤمن والمشرك إلاَّ على حرب**»[1]، أي لا تظهر نار أحدهما لنار الآخر في حال النزول القرب إلاَّ على حرب، قال أبو موسى الأشعري لعمر رضي ا للهُ عنه: «إنَّ لي كاتبًا نصرانيًّا» فقال: «مالك

---

[1] - يريد عليه السَّلام أنَّ كلَّ واحد منهم ينزل بعيدًا عن الآخر، ولا يقترب منه ليستأنس به أو يلتقي به عند الحاجة كالسفر. أخرجه البغوي في شرح السنة، ج١٠، ص ٢٤٤.

قاتلك الله؟ ألا تتّخذ حنيفيًّا مسلمًا؟ أما سمعت قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ اَلْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾؟» فقال: «له دينه ولي كتابته»، فقال عمر رَضِيَ الله عنه: «**لا تكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تأمنوهم إذ خوّنهم الله، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله**»، فقال أبو موسى: «لا قوام للبصرة إلاّ به»، فقال له: «فأنت النصراني» أي فأنت مثله إذ ولّيته،وقيل: قال: «هب أنّه مات، فما كنت صانعًا حينئذ فاصنعه الساعة، واستغن عنه بغيره».

﴿**فَتَرَى**﴾ تعلم يا محمَّد، أو يامطلق من يتأهّل، أو سمّى سماع الأذن بمسارعتهم في الكفر رؤية بصر، ولعلّ لهم أيضًا أفعالاً في المسارعة فسمّى مشاهدتها إبصارًا، وكلُّ ذلك مجاز، ﴿**الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ شكٌّ في الإيمان مضرٌّ كمضرّة المرض، كعبد الله بن أبيٍّ المنافق. والفاء للسَّببيَّة، والعطف على «لا يَهْدِي» فإنَّ انتفاء هدايتهم أي انتفاء توفيقهم سبب للمسارعة المعلومة أو المشاهدة، وذكر القلب لرسوخ المرض المذكور فيه، فهم راغبون في المسارعة، وإنّما الحادث التنقُّل في مراتبها من نوع إلى آخر، وهذا التنقُّل مُراد في قوله تعالى: ﴿**يُسَارِعُونَ فِيهِمْ**﴾ في موالاتهم كابن أبيٍّ يسارع في موالاة اليهود، وكمن يسارع في موالاة نصارى نجران، وحذف المضاف لمبالغتهم في الرغبة فيهم، وقال: ﴿فيهم﴾ دون «إليهم» لأنّهم استقرُّوا في الموالاة، وإنّما سارعوا من كفر إلى كفر.

﴿**يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ**﴾ هَلَكة دائرة، أو مضرَّة دائرة، هذا أصله، ثمَّ تغلّبت عليه الإسميَّة، والمُراد: أمر يدور في الدهر، من غلبة الكفَّار فلا يتمُّ أمر محمَّد ﷺ، ومن الجدب فلا نجد من يعطينا طعامًا ببيع أو قرض أو هبة

أو غير ذلك.

(لغة) والدائرة لغة: ما أحاط بالشيء، وفي الاصطلاح: سطح مستو يحيط به خط مستدير في وسطه نقطة تستوي إليها ما دار من كلِّ جهة على سواء، وليس الخطُّ والنقطة مشخَّصين بل تفرضهما بمعناهما باعتبار، والدائرة حقيقة في الخط وقِيلَ: في السطح. واستعير لفظ الدائرة لنوائب الزمان بملاحظة إحاطتها، ويطلق لفظ الدائرة في الشرِّ كالدولة في الخير.

﴿فَعَسَى اللهُ﴾ الفاء لعطف الإنشاء على الخبر الذي هو ترى ﴿أَنْ يَّاتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ فتح الخيور لنبيِّه ﷺ، من النصر وإعلاء دينه والتملُّك على البلاد، وقال السدِّيُّ: «فتح مكَّة» وَقِيلَ: فتح بلاد الكفَّار. ﴿أَوَ اَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ كقتل اليهود وإجلائهم، والسبي، وإظهار أسرار المنافقين، والأمر بقتلهم، وَقِيلَ: موت رأس النفاق، وعبارة بعض: قتل قريظة وسبي ذراريهم، وإجلاء النضير، وإظهار نفاق المنافقين.

﴿فَيُصْبِحُوا﴾ عطف على خبر «عَسَى»، ولو لم يكن فيه ضمير يعود على اسم «عَسَى» استغناء بالرَّبط بالفاء السببيَّة. والإصباح على ظاهره: يندمون صباحًا بما نزل عليهم فيه، أو في ليله ويستمرُّ، أو معناه: يصيرون، والواو للمنافقين. ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ على ما أرسخوا فيها، وربَّما نطقوا بِهِ من موالاة الكفَّار للشكِّ أو للإنكار، ﴿نَادِمِينَ﴾ على أن لم يخلصوا الإيمان فلم ينجوا. وتخصيص إسرار الموالاة بالندامة لا بما كانوا يظهرونه من الموالاة، لأنَّ ذلك الإسرار هو الذي حملهم على فعلها، فالندامة على التولِّي بأصله وسببه.

وكأنّه قيل: فماذا يقول المؤمنون؟ فأجاب بقوله: ﴿يَقُولُ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بعضهم لبعض حين نزل بهؤلاء ما ندموا به: ﴿أَهَؤُلَآءِ﴾ المنافقون، استفهام تعجُّب ﴿الذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ,﴾ مفعول مطلق، أي: إقسامًا جهد أيمانهم، وجاهدين جهد أيمانهم غاية طاقتهم فيها، ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ يا معشر اليهود في الدُّنيا، وهذا جواب القسم، وفيه التفات سكاكي[1]، ومقتضى الظاهر: إنّا لمعكم بالنصر كما قالوا: ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾(سورة الحشر: ١١).

﴿حَبِطَتَ اَعْمَالُهُمْ﴾ أي الصالحات التي يظهرونها، وما عملوا من الصالحات راجين به النجاة والثواب، والجملة خبر «هؤلاء» و«الذين» تابع، أو خبر والجملة حال، ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ كالإصباح الذي مرَّ ﴿خَاسِرِينَ﴾ دنيًا وأخرى، وهنا تمَّ كلام الذين آمنوا متعجِّبين من حبوط عملهم، كأنّهم قالوا: ما أحبط أعمالهم! وما أشدَّ إصباحهم خاسرين!

وَقِيلَ: الجملة من مقولهم المحذوف لا المذكور، كأنّه قيل: ماذا قال المؤمنون بعد قولهم المذكور؟ فقيل: قالوا حبطت أعمالهم إلخ.

[قلت:] وهو قول بارد لا حاجة إليه ولا دليل عليه ولا داعي إليه، وأجيز أن تكون من كلامه ﷺ على طريق الدعاء أو الإخبار، ولا دليل على هذا القول أيضًا ولا داعي.

---

١ - أي على مذهب السكاكي في الالتفات.

ويجوز أن يكون المراد بأعمالهم: ما اجتهدوا فيه من موالاة اليهود وإطفاء دين الإسلام، وذلك أولى من أن يقال: «هؤلاء الذين» مبتدأ وخبر، و«حبطت أعمالهم...»إلخ مستأنف من كلام الله عزَّ وجلَّ، وشاهد منه بحبوط عملهم ، أي انتفاء الثواب له، ولو قال الجمهور بهذا. والمعنى: ويقول الذي آمنوا مخاطبين لليهود، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم، ويرجون دولتهم، ويظهرون لهم غاية المحبَّة وعدم المفارقة في السَّرَّاء والضرَّاء عند مشاهدة خيبتهم ومضادَّة ما أملوا «أهؤلاء الذين...» إلخ.

أو المعنى: يقول المؤمنون بعضهم لبعض: «أهؤلاء الذي أقسموا با لله تعالى لليهود إنَّهم لمعكم»؟، والخطاب على المعنيين لليهود، إلاَّ أنَّه على الأوَّل من جهة المؤمنين، وعلى الثاني من جهة المقسمين، **والمختار عند بعض: المعنى الثاني**، ويضعف ما قيل: إنَّ الخطاب للمؤمنين، أي يقول الذين آمنوا بعضٌ لبعض تعجُّبًا من حال المنافقين إذ أقسموا لليهود أنَّهم مع اليهود بالنصر، ولمَّا حلَّ باليهود ما حلَّ أظهروا ما أسرُّوا من مولاتهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾

المرتدُّون ومعاداتهم المُسلمين

(سيرة وأخبار) ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ مَنْ يَّرْتَـدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾

ارتدَّت في زمانه ﷺ بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار، لقّب به لأنّه كان لـه حمـار يأتمر بأمره وينتهي بنهيه وهو الأسْوَدُ العنسي، وكان كاهنًا تنبّأ باليمن واستولى على بلاده، وأخرج عمّال رسول الله ﷺ فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بـن جبل وسادات اليمن، فأهلكه الله على يد فيروز الديلمي فبيّته وقتله، فأخبر رسول الله ﷺ بقتله ليلة قتله، فسُرَّ المسلمون بذلك، وقبض رسول الله ﷺ من الغد، فأتى خبر موته في آخر ربيع الأوّل.

وارتدَّ بنو حنيفة وهم قوم مسيلمة الكذّاب. تنبّأ وكتب إلى رسول الله ﷺ: «من مسيلمة رسول الله، إلى محمّد رسول الله، أمّا بعد فإنَّ الأرض نصفها لي ونصفها لك، وإنّي قد أُشركتُ في الأمر وَلَكِنَّ قريشا تعتدي»، فكتب إليه رسول الله ﷺ : «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسليمة الكذّاب، السّلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد، فـ﴿إنَّ الأرض لله يورثهامن يّشآء من عباده والعاقبة للمتّقين﴾(سورة الأعراف: ١٢٨)»، وذلك سنة عشرة، قتله وحشيٌّ غلام مطعم بن عديٍّ، فكان يقول: قتلت خير الناس أي حمزة في جاهليّتي، وشرّهم أي مسيلمة في إسلامي، وذلك في خلافة الصدّيق، وَقِيلَ: شاركه في قتله عبدُ الله بن زيد الأنصاريُّ.

طعنه وحشي وضربه عبد الله بسيفه، قال عبد الله :

يسائلني الناس عن قتله فقلت ضربت وهذا طعن

وروي أنَّه أرسل مسيلمة إليه ﷺ رسولين بكتاب فلمَّا قرأه قال لهما: «**فما تقولان؟**» فقالا: نقول بما قال، فقال ﷺ:«**لولا أنَّ الرسل لا تقتل لقتلتكما**»، فكتب إليه ما مرَّ، وذلك سنة عشر.

وارتدَّ بنوا أسد، وهم قوم طلحة بن خويلد، تنبَّأ، فبعث إليه رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقاتله فانهزم بعد القتال إلى الشام، ثمَّ أسلم وحسن إسلامه.

وارتدَّ في زمان الصدِّيق رَضيَ الله عنه فزارةُ قوم عيينة بن حصن الفزازي، وغطفان قوم قرَّة بن سلمة القشيري، وبنو سليم قوم عبد يَاليلَ -بكسر اللام الأولى كهابيل-، وبنو يربوع قومُ مالك بن نويرة اليربوعي[1]، وبعض تميم قوم سَجَاح بنت المنذر المتنبِّئة التي زوَّجت نفسها من مسيلمة الكذَّاب وأسلمت بعد قتله وحسن إسلامها، وكندةُ قوم الأشعث بن قيس الكندي، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الخطمي بن يزيد، **فكفى الله أمرهم على يد الصدِّيق** رَضيَ الله عَنهُ.

وارتدَّت فرقة واحدة في خلافة عمر بن الخطَّاب،وهم جبلة بن الأيهم وقومه، لَّما طلب منه عمر أن يقتصَّ منه الذي لطمه في الطواف فهشَّم أنفه

---

[1] - هو ماك بن نويرة التميمي اليربوعي (**البداية والنهاية** لابن كثير، ج٦، صـ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢،٣٢٣. ط ١٩٨٨، مكتبة المعارف) وَقِيلَ: إنَّه أسلم بعد ذَلِكَ.

وكسر ثناياه، ويروى: خلع عينيه إذ وطئ ثوبه فانكشف، فرَّ هو وقومه ليلاً إلى الروم وهو من ملوك غسان، ويروى أنَّه عوَّض في القصاص ألفًا، فأبى صاحبه وزاد حتَّى بلغ عشرة آلاف وأبى إلاَّ القصاص، وروي أنَّه قال: أتقتصُّ منِّي وأنا ملك وهو سوقة؟ قال: نعم لأنَّه شملك وإيَّاهُ الإسلام، ومات مرتدًّا، وَقِيلَ: أسلم وبسطتُ قصَّته في غير هذا.

﴿فَسَوْفَ يَاتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ يوفّقهم وينعم عليهم دنيًا وأخرى، [قلت:] وهذا من أدلّتي على بطلان قوم من أوجب الإظهار إذا جرى اللفظ على غير ما هو له ولو ظهر المُراد، فإنَّ ضمير «يُحِبُّهم» لله لا للقوم، ومع هذا لم يقل: يحبُّهم هو، ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ يحبُّون دينه وطاعته، ويعملون بهما مستمرِّين، وصحَّ هذا الشرط لأنَّ المعنى: يعوِّض الله عنهم هذا القوم، أو يُقَدَّرُ: يأتي الله مكانهم بقوم، أو هذا تعليل للجواب، أي: لم ينقص الدِّين بارتداده، لأنَّه سوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه.

(أصول الدين) والمضارعان لتجدُّد الإنعام والتوفيق من الله وتجدُّد الطَّاعة منهم، وإن شئت فمحبَّة العباد لله ميلهم إليه فيعبدوه ولا يعصوه، ومحبَّة الله لهم: إثابتهم ومدحهم، ولا يُفَسَّرُ بالميل، ووَصْفُه بالميل إشراك. ولا يجوز: «عشقتُ الله سبحانه ورسوله ﷺ»، ولا يقال: حبُّ العبادِ لله تعالى: كطاعته، بل هي لازِم الحبِّ.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُومِنِينَ﴾ ضمَّن «أذلَّة» معنى الحنوِّ والعطف فعبَّر بـ«على» أو عبَّر بـ«على» عن اللام لمشاكلة قوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: شداد

عليهم غالبين، أو العلوُّ على ظاهره لفضلهم على سائر المؤمنين، كما أنَّها في الثاني على ظاهرها، وقدَّم الحبَّين لأنَّهما سبب الذلِّ والعِزَّة، وقدَّمَ الذلَّ لأنَّه نفع لمن تذلَّلوا له من المؤمنين وما ينفعه مقدَّم، وكانا بالوصف لا بالفعل كالحبَّين للرسوخ.

﴿**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ يتكرَّر منهم الجهاد في سبيل الله ﴿**وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ**﴾ مَّا ﴿**لَآئِمٍ**﴾ مَّا، فقد انتَفَى الخوف من كلِّ اللومات ومن كلِّ اللائمين، والنكرة في سياق السلب للعموم حتَّى يدلَّ دليل على عدمه، وَقِيلَ: ظاهرة في العموم إلاَّ إن كانت مع «مِن» الزائدة أو «لا» العاملة عملَ «إنَّ» فَنصٌّ فيه، إلاَّ أنَّ العموم في «لَآئِمٍ» استتباع لـ«لَوْمَةَ» المضاف.

والقوم: الفُرس المُسلمون المتبيِّنُ أثرهم في الدِّين، كالإمام عبد الرحمن بن رستم، والإمام أفلح، والإمام عبد الوهَّاب، والإمام محمَّد. لَمَّا نزلت الآية وفيهم نزل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾(سورة محمَّد:٣٨)، أيضًا ضَرَبَ ﷺ يده على كتف سلمان الفارسي، فقال: «**هذا وذووه**»، وقال: «**لو تعلَّق الدِّين بالثريَّا لناله رجالٌ من أبناء فارس**».

(تاريخ) ويناسب هذا ما وجدنا في نسخة قديمة على عهد حسن بن علي، جدِّ هذا الباي في تونس الذي هو محمَّد الهادي على عهدي وقت التفسير، المؤَرَّخة باليوم المتم عشرين من ربيع الثاني من عام ألف ومائة وعشرين من الهجرة، أنَّه «أنَّه وقع نزاعٌ بين بعض أراذل تونس والمضابيين [أي الميزابيين]، وطعنوا في دين المضابيين، ونصَّب الباي مجلسًا بحضرة شيخ الإسلام، وحكم

بأنّه من طعن في المزابيّين يقتل شرعًا إن لم يتب، لأنّه طعن في الإسلام جملة، **ونحن كلّنا تجمعنا كلمة التوحيد**، والمزابيُّون يوفون بالقول والعمل». انتهى ماوجد في تلك النسخة القديمة والحمد لله تعالى وعزَّ وجلَّ.

وَقِيلَ «القوم» الذي جاهدوا يوم القادسيَّة وهم ألفان من نخع، وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من الناس. وَقِيلَ: أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردَّة، وَقِيلَ: أهل اليمن، لقوله ﷺ لَمَّا نزلت: «**هم قوم هذا**»، وأشار إلى أبي موسى، و[قيلَ:] قال في أبي موسى: «**ضالٌّ مضلٌّ**».

وفي نفي خوف لومة لائم تعريض بالمنافقين، إذ كانوا يخافون إذا خرجوا في الجهاد أن يفعلوا من جهة المؤمنين ما يلومهم بِهِ اليهود، كقتل عدوٍّ للمؤمنين، ودلالة على عورة عدوِّهم.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ ما ذكر من حبِّ الله لهم وحبِّهم إيَّاهُ، والذِّلة للمؤمنين، والعِزَّة على الكافرين، والجهاد في سبيل الله، وانتفاء خوف لومة لائم ﴿**فَضْلُ اللهِ**﴾ خيرًا جاد به عليهم لا أجرة على شيء، ﴿**يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ**﴾ بتوفيقه، ﴿**وَاللهُ وَٰسِعٌ**﴾ كثير الخير إثابة وفضلاً، ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بمستحقِّي ذلك.

﴿ **اِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُۥ وَالذِينَ ءَامَنُواْ الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُوتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ**﴾ آية ٥١ متعلّق بقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ﴾ كأنَّه قيل: ما هؤلاء أولياؤكم، ما وليُّكم إلاَّ الله ورسوله والذين آمنوا، وإنَّما أفرد الوليَّ وعطف ليدلَّ أنَّ الولاية أصالة لله، وأمَّا لرسوله وللمؤمنين فبالتبع، ولا دلالة على ذلك لو قال: «إنَّما

أَولياؤكم»، ودون ذلك أن يقال: الوليُّ وصف بوزن المصدر كالصرير والدبيب، والمصدر يطلق على الواحد وغيره، وهو وجه في قوله تعالى: ﴿وَالمَلاَئِكَةُ بعدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾(سورة التحريم:٤) ويقال: هم صديق وهو صديق وهي صديق، أعني أنَّه وقع ذلك في كلام العرب. و«الذين» بدل من «الذين» أو نعته، لجواز نعت ما هو وصف أو كالوصف، إذ نُزِّلَ منزلة الذَّات كما تقول: «القائم الأبيض جاء»، تميل إلى معنى قولك: الإنسان الأبيض.

والمراد بالركوع: ركوع الصلاة، تلويحًا باليهود، إذ كانوا لا يركعون، والآن نجد بعضًا يركع، أو مطلق الخضوع لدين الله، لا خصوص ركوع الصلاة، والوليُّ: المحبُّ.

وزعمت بعض الشِّيعة أنَّه هنا المتولِّي على الناس، وأنَّ عليًّا هو الإمام بهذه الآية على عهد رسول الله ﷺ لا رسول الله، وأنَّ عليًّا هو الرَّسول، وأنَّه هو المراد بلفظ الرَّسول في الآية، وأنَّ المعنى: إنَّما وليُّكم الله ومن اتَّصف بالرسالة والإيمان وإقامة الصلاة ...إلخ. وبعض الشيعة أنَّه الإمام بعد موت رسول الله ﷺ لا أبو بكر ولا غيره وأنَّه المراد بقوله: ﴿الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُوتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، وأنَّه كان يصلِّي فسأله سائل في ركوعه فأعطاه خاتمه حال ركوعه.

ويردُّ كلامهم عطف «المؤمنين» بلا حرف ترتيب، فإنَّ المتبادر تغاير المعطوف، لا يصار إلى تنزيل مغايرة الصفات منزلة مغايرة الذات إلاَّ بدليل، ويردُّه أيضًا صيغة الجمع، ولا يصار إلى دعوى تنزيل المفرد منزلة الجماعة تعظيمًا وترغيبًا في فعله إلاَّ بدليل، ويَرُدُّه أيضًا أنَّ إطلاق الزكاة على صدقة التطوُّع لا

يصحُّ إلاَّ بدليل.

(فقه) ولو صحَّ أنَّ عليًّا أعطى في الصلاة، لدلَّ أنَّ الفعل الخفيف الواحد في الصلاة عمدًا لا يبطلها، **والعمدة إبطالها** إلاَّ لعذر، فقد يكون عليٌّ يخاف على ذلك السائل، والخفيف القليل ما لا يظنُّ بِهِ الرائي أنَّه ليس في الصلاة، أو ما لا يستكثره المصلِّي، والكثير ما يستكثره، وَقِيلَ: ما يحتاج إلى اليدين كثيرٌ، ومَا لاَ فقليلٌ.

﴿وَمَنْ يَّتَوَلَّ ا للهَ وَرَسُولَهُ, وَالذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ا للهِ هُـمُ الْغَالِبُونَ﴾

أي فإنَّهم هم الغالبون، فوضعُ «حزب ا لله» موضع الضمير يكون قد ذكرهم بما يوجب الغلبة، وهو الحزبيَّة لله تعظيمًا لهم، أو المعنى: ومن يتولَّ ا لله ورسوله والذين آمنوا فإنَّهم غالبون، لأنَّ حزب ا لله هم الغالبون. وأمَّا قول بعض المحقِّقين: فإنَّهم حزب ا لله وحزب ا لله هم الغالبون، فلا يصحُّ، لأنَّ فيه حذف الجواب وإبقاء فائه داخلة على معطوف بواو عاطفة محذوفة، وفي ذلك تعريض بأنَّه من تولَّى غيرهم فإنَّهم حزب الشيطان مغلوبون.

وأصل الحزب القوم يجمعون لأمر حَزَبَهم، أي نَزَل عليهم، واشتدَّ وأهمَّهم، «**وكان ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزَع إلى الصلاة**»[1].

(سبب النزول) وأظهر رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث الإسلام ونافقا واتَّخَذَا دين ا لله هزءًا ولعبًا، وكان رجال من المسلمين يوادُّونهما فنزل قوله تعالى:

---

[1] - رواه أحمد وأبو داود، عن حذيفة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

النهي عن موالاة الكفَّار وأسبابه

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا﴾ مهزوءا بِهِ، أو ذا هزء، أو مبالغة، أو مثل هزء بِهِ مفعول ثان لقوله: ﴿اتَّخَذُوا﴾، وأمَّا المفعول الثاني لقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا﴾ فهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أولياء﴾. ﴿**وَلَعِبًا**﴾ ملعوبًا بِهِ، أو مثل لعب، أو ذا لعب، أو مبالغة، والهزء: السخرية واللعب ضدّ الجدِّ، والأخذ على غير طريق الجدِّ كلعاب الصبي يخرج على غير جهته، لعب

الصبي خرج لعابه كذلك.

﴿مِنَ الذِينَ﴾ للبيان، كأنَّه قيل: وهم الذين، ﴿أُوتُواْ الكِتَابَ﴾ التوراة والإنجيل وغيرهما ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ متعلّق بـ«أُوتوا»، لأنَّ تلك الكتب أنزلت قبل القرآن كما قال ﷺ: «**إنَّا أهلُ كتاب، بيد أنَّهم أوتوا الكتاب من قبلنا**»، وهم اليهود والنصارى، وهم كُفَّار مشركون. ﴿وَالكُفَّارَ﴾ معطوف على «الذين» الأوَّل، والكفار هم مشركو العرب مثلاً، فإنَّهم اتَّخَذُوا دين الله هزؤا ولعبًا كاليهود والنصارى، وقد سمَّاهم الله كُفَّارا في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَمْ يَكُنِ الذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ (سورة البيِّنَة: ٠١)، إلاَّ أنَّه لـمَّا كان شرك مَن عَبَدَ الأوثانَ أو مَن ينكر الله أعظمَ خُصُّوا باسم الكفَّار دون أهل الكتاب هنا، وباسم المشركين في قوله: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾، مع أنَّ أهل الكتاب الذين أنكروه ﷺ مشركون أيضًا، وقد سمَّى الله أهل الكتاب مشركين في قوله: ﴿سُبحَانَهُ, عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة التوبة: ٢١).

﴿أَوْلِيَآءَ﴾ بل أولياؤكم من أخذ بدينكم وعظَّمه، ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ﴾ اتَّقوا عقابه بترك موالاتهم، أو بترك المناهي، فتدخل موالاتهم أوَّلاً، ﴿إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ بوعده ووعيده، أو اتَّقوا الله بترك اتِّخَاذ المستهزئين اللاَّعبين بدينكم أولياء، إن تحقَّق إيمانكم، واتِّخاذهم أولياء دليل عدم تحقُّقه فاتركوه، ويجوز في مثله أن يجعل الإنشاء بمعنى الإخبار، أي: تتَّقون الله إن كنتم مؤمنين، إلاَّ أنَّه خلاف الأصل.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمُ,﴾ أهل الصلاة بكلمات الأذان، وسمَّى الأذان نداء لقول

المؤذّن: «حي على الصلاة، حي على الفلاح». ﴿إلى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا﴾ بنفسها وبالنداء إليها، ويضعف ردُّ الضمير إلى المناداة المعلومة من «نَادَيْتُم»، لعدم الحاجة إلى ذلك.

(فقه) والآية تقرير لـمَا ثبت بالسنَّة من الأذان، وبحديث عبد ا لله بن زيد الأنصاريِّ في رؤيا الأذان، وكذا قوله: ﴿إذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ (سورة الجمعة: ٩)، وفيه تلويح بأنَّ النداء يكون أيضًا في سائر الأيَّام، فالأذان ثبت بالقرآن بعد أن ثبت بالسُّنَّة.

﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ فصل بينهما بـ«أَوْلِيَاءَ»، وبقوله: ﴿وَاتَّقُوا ا للهَ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾. كان المشركون في مكَّة واليهود في المدينة إذا سمعوا الأذان قالوا له مواجهة: «بدعت ما لم يكن للأمم قبلك، وخالفت الأنبياء وأنت تدَّعي النبوَّة، لو كان حقًّا لكان للأنبياء، من أين لك صياح كصياح العير؟، فما أقبح هذا الصوت وهذا الأمر!». ونُسب ذلك للمنافقين مع اليهود مواجهة، وهو بعيد، وإنَّما يقوله المنافقون في خلوة عنه ﷺ.

وكذلك إذا أذَّن المؤذّن وقاموا إلى الصلاة، قالت اليهود: قاموا لا قاموا، وصلَّوا لا صلَّوا، ويضحكون استهزاء إذا رأوهم ركَّعًا وسجَّدًا، ونزل في ذلك كُلّه: ﴿وَمَنَ اَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ا للهِ﴾ (سورة فصِّلت: ٣٢) وهذا في مكَّة، ونزل بالمدينة: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾.

﴿ذَالِكَ﴾ الاتِّخاذ هزؤًا ولعبًا ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم فلم تمنعهم عن السفه، وكان نصرانيٌّ بالمدينة إذا سمع قول المؤذّن:

«أشهد أنَّ محمَّدا رسول الله»، قال: «أحرق الله الكاذب»، فدخل خادمه ليلاً بنار وأهله نيام، فتطاير شررها فأحرقه وأهله.

(سبب النزول) سأل نفر من اليهود كأبي اليُسْرِ بن أخطب، وغازي بن عمرو، وزيد بن خالد، ورافع بن أبي رافع رسولَ الله ﷺ عمَّن يؤمن به من الرُّسل؟ فقال ﷺ: «أومن **﴿بالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إبراهيم وَإسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالاَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيئُونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ, مُسْلِمُونَ﴾** (سورة البقرة: ١٣٥)»، فلمَّا سمعوا ذكر عيسى عليه السَّلام جحدوا نبوَّته وقالوا: والله لا نعلم أهل دين أقلَّ حظًّا منكم في الدُّنيا والآخرة، ولا دينًا شرًا من دينكم، ولا نؤمن بمن آمنت بِهِ، يعنون عيسى أو الكلَّ، غضبًا كما قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٩٢)، وإن أرادوا العموم، فنزل قوله تعالى:

﴿قُلْ يَآ أَهْلَ الكِتَابِ﴾ أي اليهود وذكرهم باسم الكتاب تشنيعًا عليهم بمخالفة ما في الكتاب، وإرشادًا إلى أنَّ اللائق أن يكونوا أوَّل تابع، وكذا في غير هذه الآية، وكذا النصارى، وَقِيلَ: الخطاب لأهل الكتاب مطلقًا، وَقِيلَ: لِلْكُفَّارِ مطلقا، وَقِيلَ: للمؤمنين مطلقا. **﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾** من أوصافنا **﴿إِلآَّ أَنَ ـامَنَّا بِالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾** القرآن، **﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾** من التوراة والإنجيل وغيرهما، و«أَنْ» مصدريَّة دخلت على الماضي، وضمَّن «تَنقِمُ» معنى تعيب أو تنكر أو تكره، فعدَّاه إلى المصدر، أي: ما تنقمون منَّا إلاَّ إيماننا بالله... الخ.

أو هو باق على ظاهره ويقدَّر الجارُّ قبل «أَنْ»، أي: ما تنقمون منَّا بكلام

السوء والتكذيب إلاَّ بسبب إيماننا، والأصل أن يقال: نقمت عليه بكذا، وكان هنا بـ«مِنْ» لذلك التضمُّن، أو هي بمعنى على، وجعل الله عزَّ وجلَّ إنكارهم لبعض الأنبياء والكتب إنكارًا للهِ، لأنَّ من كفر بكتاب أو نبيء فقد كفر بالله سبحانه، أو المُراد: هل تنقمون منَّا إلاَّ جمع ذلك بالإيمان، وتحبُّون أن نؤمن بغير عيسى والإنجيل فقط.

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ عطف على «أَنَ ـ امَنَّا»، باعتبار لازم الفسق، وهو المخالفة، أي ما تنقمون منَّا إلاَّ إيماننا بذلك وإلاَّ مخالفتكم إذ دخلنا في الإيمان وخرجتم عنه، هذا هو المعنى؛ وأمَّا اللفظ فهكذا: «إلاَّ إيماننا وفسق أكثركم»؛ ويجوز العطف بدون اعتبار اللازم، لكن على حذف مضاف، أي إلاَّ إيماننا واعتقاد أنَّ أكثركم فاسقون، أي واعتقاد فسق أكثركم، أي واعتقادنا فسق أكثركم، أو يعطف على با لله، أي إلاَّ إيماننا با لله وبأنَّ أكثركم فاسقون. ومن لم يؤمن بأنَّ فعل الفاسق فسق لا يقبل إيمانه با لله وكتبه.

ولا داعي إلى تكلُّف عطفه على علَّة محذوفة متعلِّقة بـ«تَنقِمُ»، هكذا لقلَّة إنصافكم وفسق أكثركم، ولا إلى تكلُّف نصبه بمحذوف، أي: ولا تنقمون أنَّ أكثركم فاسقون، أو تكلف جعله مبتدأ خبرُه محذوف، أي وفسق أكثركم معلوم، أو فسق أكثركم معلوم عندكم وَلَكِنَّ حبَّ الرياسة والمال منعكم عن الإنصاف، ولا إلى دعوى زيادة الواو وأَنَّ ما بعدها تعليل، ولا إلى دعوى أنَّ الواو عاطفة بمعنى مع.

(نحو) وأمَّا أن نجعلها واو المعيَّة التي ينصب مدخولها، فلا وجه له، لأنَّه لاَ بُدَّ فيها من المصاحبة في معمولية الفعل، نعم لم يشترط الأخفش إلاَّ

المقارنة في الوجود كما في: «سرت والنيل»، و«جئت وطلوع الشمس».

ولـمَّا قالوا: دينكم شرٌّ دين أجابهم ا لله عزَّ وجلَّ بقوله:

﴿**قُلْ هَل**﴾ توبيخ ﴿**أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ**﴾ بنوع من الناس وهو شرٌّ، ﴿**مِّن ذَٰلِكَ**﴾ النوع الذي آمن بعيسى والأنبياء كلّهم والكتب كلّها، وعبارة بعض الإشارة إلى الدِّين، وقيل إلى الأكثر الفاسقين بتأويل من ذكر، وادَّعى بعض أنَّ ذا يشار بها للمفرد وغيره، وَقِيلَ: الإشارة إلى الأشخاص المُتَقَدِّمين الذين هم أهل الكتاب، وإنَّ المُراد أنَّ السلف شرٌّ من الخلف، والتفضيل بين الذوات لا بين الأعراض، والشرُّ إنـَّمَا هو باعتبار دعواهم أنَّ أهل الإسلام شرُّ أهل كلِّ دين، فإنـَّه لا سوء في أهل الإسلام من حيث الإسلام، وأثبته تهكُّمًا بهم كما تهكَّم بطريق الاستعارة في قوله: ﴿**مَثُوبَةً عِندَ ا للهِ**﴾ أي عقوبة، وأصله في الجزاء بالخير وإن فَسَّرَناه شرًّا ـ وذلك بالأَعراض ـ قدَّرنا مضافًا، أي: بأهل عمل أسوأ من ذلك العمل الذي هو الإيمان بالحقِّ كُلّه، فيناسب بالتقدير قوله: ﴿**مَن لَّعَنَهُ ا للهُ**﴾ أو يبقى بشر، وذلك على معنى الإعراض فَيُقَدَّرُ العرض هنا، أي: كفر من لعنه ا لله، أو دين من لعنه ا لله.

وما ذكرته أولاً أولى، لأنـَّه لا تقدير فيه أوَّلاً ولا آخرًا، والتمييز بالمثوبة صالح للذات وللعرض، تقول: فلان شرٌّ عقابًا وعمله شرٌّ عقابًا، أو هو مفعول لأجله على حذف مضاف، أي: لطلب مثوبة، أو بلا حذف عند من لا يشترط الاتـِّحاد في الفاعل ومعناه الإثابة، والإثابة فعل لله عزَّ وجلَّ، و«مَنْ» خبر لمحذوف، كأنـَّه قيل: من هو؟ فقال: «هو من لعنه ا لله»، ولا يحسن البدل أو البيان إلاَّ على التعريض بأنَّ المُتـَّصِف باللعن وما بعده لا بدَّ أن يكون شرًّا

مثوبة. و«لعنه ا لله»: أبعده عن الخير بالخذلان.

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ قضى عليه بالعذاب ﴿وَجَعَلَ مِنْهُم﴾ هذا الضمير لمراعاة معنى «مَنْ». ﴿القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ﴾ مسخ شبَّان أصحاب السبت قردة وشيوخهم خنازير، أو أصحاب السبت من اليهود قردة وأصحاب المائدة من النصارى خنازير، ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ العجلَ، أو الشيطانَ، أو الكهنةَ وكلَّ من عُبد من دون ا لله، ومَن رَأَسَ في الضلال فهو طاغوت؛ والعطف على «لَعَنَهُ ا للهُ»، أي: وأنتم راضون عنهم وسالكون طريق كفرهم، فساغ ذمُّهم بما فعل هؤلاء.

﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هو نار الآخرة، واسم التفضيل خارج عن بابه إذ لا سوء في مكان المؤمنين وهو الجنَّة، أو باق عليه بمعنى أنَّ مكانهم وهو النَّار شرٌّ من مكان المؤمنين وهو الدُّنيا لِمَا يلحقهم فيها من الهموم والحاجة وسماع الأذى، أو شرٌّ من مكان المؤمنين على زعم الكفَّار هؤلاء أَنَّ مكان المؤمنين سوء، أو شرٌّ مكانًا على سائر كفرة اليهود.

ويجوز أن يراد بـ«مَكَانًا» المرتبة والشأن، وهو منصوب على التمييز المحوَّل عن الفاعل مبالغة، بإثبات الشرارة للموضع لعظم شرارتهم حتَّى أثَّر في مكانهم، أو عظم حتَّى صار مجسَّمًا، أو الإسناد مجازيٌّ كـ«جَرَى النَّهْرُ»، أو يراعى في المكان أصله وهو موضع الكون الذي يكون فيه أمرهم إلى التمكُّن فيه، أي شرٌّ منصرفًا وهو جهنَّم.

﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ﴾ أي عن السبيل السواء، أي الوسط أي **الأفضل وهو دين الإسلام ولا خير في غيره**، وناسب الوسط أنَّه بين تفريط

اليهود وقدحهم إذ أنكروا عيسى وقالوا: إنَّه ولد الزنى وإنَّ أمَّه زنت، وإفراط النصارى وغلوِّهم بقولهم: عيسى إله أو ابن الله. واسم التفضيل خارج عن بابه، إذ لا ضلال في الإسلام، أو باق على بابه باعتبار قصدهم، أو بالنسبة إلى غيرهم من الكفَّار.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بك وبما جئت بِهِ، عطف قصَّة على أخرى، والجاءون مطلق المنافقين، أو بعض اليهود الذين من ذرِّيَّة هؤلاء اليهود الذين مسخ بعضهم، يدخلون على رسول الله ﷺ ويظهرون له الإسلام ويضمرون الكفر؛ والكاف للنبيء ﷺ تعظيمًا، أو له ولمن عنده من المؤمنين. ﴿وَقَد دَّخَلُواْ﴾ عليك ﴿بِالْكُفْرِ﴾ حال من واو «قَالُوا» والباء للمصاحبة. ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ﴾ من عندك، حال مُقَدَّرة بمعنى: يخرجون، لأنَّهم حال القول غير خارجين، أو هذه حال من واو «دَخَلُوا»، فالواو للحال لا عاطفة عَلَى الحال مقارنة، و«بِالْكُفْرِ» حال من واو «دَخَلُوا»، و«بِهِ» حال من واو «خَرَجُوا»، و«قَدْ» الأوَّل لتقريب الماضي من الحال، أو مُتَعَلِّقان بـ«دخل وخرج»، أو «وهم قد خرجوا بِهِ» عطف قصَّة على أخرى لا مدخل لها في الحالية.

وفي «قد» في الموضعين تلويح بما يتوقَّع ﷺ من ظهور نفاقهم لِمَا يرى من أمارته، فإنَّ الإخبار بالدخول بالكفر والخروج بِهِ، بحيث لا يتأثَّرون بشيء مِمَّا سمعوا منه ﷺ، كالإخبار بأنَّ ما تتوقَّعه منهم قد حضر فأنت عالم بنفاقهم، وقال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾، ولم يقل: «وقد خرجوا به» تأكيدًا لذمِّهم وكفرهم حال الخروج، بحسب اعتبار بأنَّ الظاهر أن لا يخرجوا بكفرهم بعد مشاهدتهم له ﷺ، أو إخبار بأنَّ كفرهم حال الخروج أشدُّ، لأنَّهم ازدادوا

كفرًا إذ زجرهم وكفروا بما قال.

﴿وَا للهُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ من الكفر وسيجزيهم به.

﴿وَتَرى﴾ تعلم، أو تشاهد وهو أنسب لظهور حالهم، ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين أو اليهود ﴿يُسَارِعُونَ﴾ أصله المسارعة في الخير ففيه المبالغة بأنَّهم رغبوا في الشرِّ كأنَّه خيرٌ يُتسابق إليه، ﴿فِي الاِثْمِ﴾ الذنب فيما بينهم وبين ا لله، أو مطلق الذنب، ويقال: الكذب، لقوله: ﴿عَن قَوْلِهِمُ الاِثْمَ﴾، وَقِيلَ الإثم: الحرام، وَقِيلَ: الكذب بقولهم: «آمنَّا» إخبارًا كان أو إنشاء، إلاَّ أنَّه إن كان إنشاء فالكذب باعتبار تضمُّنه الإخبار بحصول صفة الإيمان، وَقِيلَ الإثم: الكفر مطلقًا، ﴿وَالعُدْوَانِ﴾ الذنب بينهم وبين الخلق، أو خصوص الذنب المجاوز للحدِّ.

﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الحرام كالرُّشا، وما يؤكل على الدِّين وعلى إفساده، والربا؛ وعطفُه تخصيصٌ بعد تعميم. ﴿لَبِيسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ هو المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت.

﴿لَولاَ يَنْهَاهُم﴾ تحضيض على النهي ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾ العبَّاد ﴿وَالاَحْبَارُ﴾ العلماء، ومرَّ كلام فيهما، وهما من اليهود لأنَّ الكلام فيهم، وقيل الربَّانيُّون: علماءُ النصارى، والأحبار: علماء اليهود، ولا مانع من أن يؤمر نصرانيٌّ بنهي اليهود، ﴿عَن قَوْلِهِمُ الاِثْمَ﴾ نصب المفرد بالقول اعتبارًا لمعنى الذكر، أي عن ذكرهم الإثم، أو لكونه بمعنى الجملة، أي عن قولهم: القرآن غير حقٍّ؛ أو: محمَّد غير رسول؛ أو: ليس في التوراة كذا، وهو فيها؛ أو: معناه كذا، وليس كذلك؛

أو: فيها كذا، وليس فيها؛ وليس بمعنى المقول، وإلاَّ لم ينصب المفرد.

﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِيسَ﴾ وا لله لبئس أو اللام للابتداء لشبه الفعل بالاسم لجموده. ﴿مَا كَانُواْ﴾ أي الربَّانيُّون والأحبار، ﴿يَصْنَعُونَ﴾ من ترك النهي عن المنكر. وتركُ النهي منهم عن المنكر أشدُّ من أكل السحت وقول الإثم، ولذلك قال: ﴿يَصْنَعُونَ﴾ هنا، وهناك: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ لأنَّ الصنعة ما كان عن تدبير وتفكُّر وإبرام، فهو راسخ، فبرسوخ ترك النهي زاد تركهم إيَّاه قبحًا على قول الإثم وأكل السحت، وأيضًا بعلمهم با لله وكُتُبِهِ يشتدُّ النهي في حقِّهم عن المنكر، فبتركه يشتدُّ القبح.

(فقه) ويؤخذ من الآية الوعيد الشديد على من ترك النهي من علماء هذه الأمَّة، كما قال ابن عبَّاس والضحَّاك: **ما في القرآن أشدُّ على العلماء من هذه الآية.** وأيضًا المعصية لَذَّة للعاصي، ولا لَذَّة في ترك النهي فكيف يترك، فتاركه أقبح. وأيضًا يجترئ الناس على تلك المعصية وغيرها إذا ترك النهي فيزداد ذنب تارك النهي بِذَلِكَ.

(سبب النزول) ولـمَّا كذَّب اليهود رسول ا لله ﷺ كفَّ عنهم ما كان مبسوطًا عندهم من النعم، وكانوا قبل ذلك أكثر الناس مالاً ونعمة، فقال فنحاص بن عازوراء رأس يهود قينقاع أو النباش بن قيس ـ روايتان عن ابن عبَّاس ـ: «يد ا لله مغلولة» ورضي بقوله اليهود ولم ينهوه، فكلُّهم قالوا، فنزل قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

سوء أخلاق اليهود وجزاء إيمان أهل الكتاب

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ ا للهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مقبوضة عن توسيع الرزق، قبضها هو عنهم، وهو كناية عن البخل، أو عن مطلق المنع، أو مجاز استعاريٌّ، والكناية لا يلزم تحقُّق كلماتها بل لازمها، ولو لم تتحقَّق كلماتها، أو عن الفقر تعالى ا لله عنه، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ ا للهُ قَوْلَ الذِينَ قَالُواْ إِنَّ ا للهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (سورة آل عمران: ١٨١)، وذلك أنَّ ا لله جَلَّ جَلاَلُهُ لا يتَّصف باليد، وقد قيل: إنَّها بمعنى النّعمة، لَكِنِ اليهودُ الزائغون مجسِّمون، فلا يبعد أنَّهم أثبتوا اليد لله عزَّ وجلَّ، ومن التجسيم قولهم: إنَّ ربَّهم أبيض الرأس واللحية، قاعد على كرسيٍّ، فرغ من خلق السَّمَاوَات وَالأَرْض يوم الجمعة، واستلقى على ظهره واضعًا إحدى رجليه على الأخرى، وإحدى يديه على صدره، ليستريح

من التعب. **تعالى ا لله عن ذلك.**

وقالوا لموسى عليه السَّلام: ﴿اِجْعَل لَّنَآ إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، (سورة الأعراف: ١٣٨)، وقد عبدوا العجل، وَقِيلَ: قالوا استهزاء بالنبيء ﷺ إذ لم يوسِّع عليه وعلى أصحابه، وَقِيلَ: يده ممنوعة من عذابنا إلاَّ قدر أيَّام عبادة العجل. واليد: القدرة، أو على ظاهره. ﴿**غُلَّتَ اَيْدِيهِمْ**﴾ إخبار بأنَّ أيديهم ستغلُّ في النَّار، أو تُغَلُّ عند السحب إلى النَّار، أو تُغَلُّ بالأسر، أو تزداد فقرًا بحيث لا تعطي ولا تأخذ، فالمعنى ستغلُّ غلاًّ لاَ بُدَّ منه، وكأنَّه حاضر ومتحقِّق الآن، أو غلِّت عن الإنفاق الموجب لإدرار الرزق عليهم، وإخبار ببخلهم، **فلا ترى أبخل منهم، ولا أفقر، ولو كانوا ذوي مال**، لأنَّ «الغنى غنى القلب»، أو أمسكت عن فعل الخير، فالمراد كلُّهم لا أيديهم فقط، لا دعاء بفقرٍ أو قبضٍ، لأنَّ ا لله لا يدعو، لأنَّه إنَّمَا يدعو المحتاج العاجز، وا لله جلَّ وعلا لا يحتاج، ولا أحد مثله أو فوقه يَستجلِب منه، إلاَّ أن يقال: صورة دعاءٍ بطريق الكناية بأن يراد لازمها، وهو كونهم بحال خسيسة بحيث يستحقُّون الدعاء عليهم بسوء.

﴿**وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ**﴾ من أنَّ يد ا لله مغلولة، أو به وبسائر بهاتينهم، أي أبعدوا عن الرحمة بالمسخ قردة وخنازير، والذلِّ والجلاء، وإدخالِ النَّار. والعطفُ على «غُلَّتَ اَيْدِيهِم» وهو مثله في أنَّه إخبار أو دعاء. ونَاقَضَ قولَهم بإثباتِ البسط له وبكونه يعطي بيديه معًا في قوله: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾، عطف على محذوف، أي ليس الأمر كما قالوا، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، والمعنى: إنَّه جواد باسط للنعمة، وهكذا المُراد لا إثبات الجارحتين، ولكن ثنَّى اليد إعلامًا بأنَّه في غاية الجود، وكناية، والكناية يراد لازمها وحده تارةً ـ وهو هنا كثرة العطاء لا

معناها الحقيقيُّ، وهو هنا: الجارحتان ــ ولازمُها ومعناها معًا تارةً.

أو اليدان النعمتان: نعمة الدُّنيا، ونعمة الآخرة؛ أو نعمة إعطاء الخير ونعمة صرف الضُّرِّ؛ أو نعمة الدُّنيا ونعمة الدِّين؛ أو نعمة الظاهر ونعمة الباطن؛ أو ما يعطي إكرامًا وما يعطي إهانة واستدراجًا.

وَقِيلَ: التثنية للثواب والعقاب، وَقِيلَ: للتكثير كـ«كَرَّتَيْنِ» و«لبَّيْكَ» و«مرَّة بعد أخرى».

(أصول الدين) وزعم جمهور الأشاعرة أنَّ اليد في حقِّ ا لله واليدين والأيدي صفة ذات، يؤمن بها بلا تكييف، وهو خطأ. وجمهور المتكلّمين على ما نحن عليه من تفسير ذلك بالنعمة والقدرة ونحو ذلك... وَهَذَا البسط المذكور في الآية مقيَّد بقوله: ﴿يُنفِقُ﴾ الخَلْقَ، أو يصرِّفُ النِّعَمَ. ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من تضييق وبسط على مقتضى الحكمة، وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ا للهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الاَرْضِ وَلَكِنْ يُّنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ (سورة الشورى: ٢٥)، وقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ (سورة الشورى: ١٢). فكأنَّه قيل: بل يداه مبسوطتان متى شاء ولمن شاء، فهو مطلقًا جواد، يبسط الخير الكثير، مفرَّقًا بحسب مشيئته.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ أي: وا للهِ لَيزيدَنَّ، ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود، ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن وغيره، ﴿مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ على طغيانهم وكفرهم السابقَيْنِ، كلَّما نزل من ا لله شيء كفروا به، أو سعوا في إطفائه بالتحريف للفظه ومَعناه ما أمكن، كالمريض كلَّما أكل غذاءً صالحًا للأصحَّاء ازداد

مرضًا.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كلُّ فرقة من اليهود تخالف الأخرى قلبًا وقولاً، وَقِيلَ: الضمير للنصارى واليهود لذكرهم في ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ (سورة المائدة: ٥٣)، وفي لفظ أهل الكتاب، فمنهم مجبرة، ومنهم قَدَرِيَّة، ومشبِّهة، ومجسِّمة، ومُرجئة. كما أنَّ النصارى ملكانيَّة، ونسطوريَّة، وماردانيَّة، وهم على ذلك حتَّى في عهد رسول الله ﷺ ونزول القرآن. وزادت النصارى أنَّهم على ذلك حتَّى في عهد نزول الإنجيل، بخلاف فِرَق هذه الأمَّة، فإنَّها لم توجد في زمان نزول القرآن بل بعد رسول الله ﷺ.

والبغضاء في القلب، والعداوة أثرها على الجوارح، مِن شتمٍ وضربٍ ونحوِ ذلك، فكلَّما كانت العداوة فالبغضاء موجودة، وليس كلَّما كانت البغضاء فالعدواة موجودة، فالعداوة أخصُّ من البغضاء. وكلُّ عدوٌّ مبغض، وقد تبغض من ليس عدوًّا، ومن تلك العداوة بين اليهود والنصارى: لا يرى جندٌ يهوديُّون ونصرانيُّون مجتمعين على قتال المسلمين.

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ كلَّما شدَّدوا شرًّا من جموع وأموال ومكر وحيل وشجاعة يلقون به رسول الله ﷺ والمسلمين، ﴿أَطْفَأَهَا﴾ أبطلها كما تطفأ النَّار بالماء، ﴿اللهُ﴾ بإلقاء البأس بينهم، وتفرُّق الناس عنهم، وكذلك قبل النبيء ﷺ فَإِنَّهُمْ لـمَّا خالفوا التوراة وقتلوا الأنبياء سلَّط الله عليهم "بُخْتُ نُصَّرَ" من بابل، قَتَلَ كبارَهم وسَبَى صغارَهم، وأَحرق التوراةَ، وأَخرَبَ بيتَ

المقدس، وذلك حين حبسوا "أرمياءَ"، وقتلوا يحيى وَقِيلَ: "شعياء"، ثمَّ أفسدوا بقتل يحيى أو "شعياءَ"، على ما مَرَّ، فسلَّط الله عليهم "قطرس الرومي"، ثمَّ أفسدوا بقصد قتل عيسى فسلَّط عليهم المجوس، ثمَّ أفسدوا فسلَّط عليهم الروم، إذ ردَّت لهم الغلبة على المجوس، ثمَّ سلَّط الله المسلمين عليهم وعلى الروم، فقتلوا قريظة وأجلوا النضير وبني قينقاع، وأسَرُوا أهل خيبر، ودان لهم أهل وادي القرى، وضربوا على أهل الذمَّة الجزية.

وَقِيلَ: جاء الإسلام وهم تحت المجوس، ووجهه أنَّه حين غلبت الروم الفرس وهم مجوس، كانوا تحت المجوس كما كانوا من قبل، حتَّى تغلَّب المسلمون على الفرس، مع أنَّ من كان منهم في أرض الروم فهو تحت الروم، وَقِيلَ: الآية على العموم: لا يقاتل اليهود قومًا إلاَّ غلبهم القوم كُفَّارا أو مسلمين، وأشار إلى تلك الإفسادات وغيرها بقول:

﴿**وَيَسْعَوْنَ فِي الاَرْضِ**﴾ أيِّ أرض كانوا، أو في أرضهم ﴿**فَسَادًا**﴾ مفعول «يَسْعَوْنَ» لتضمُّنه معنى «يكسبون»، ففيه مبالغة بأنَّهم راغبون في الفساد كالرغبة في جمع المال، أو يَسْعَوْنَ سَعْيَ فسادٍ، أو اسم مصدر، أي لأجل الإفساد أو ذوي إفساد، وذلك أنَّهم يجتهدون في الكيد على المسلمين وإثارة الحروب وهتك الحرم، أو «يَسْعَوْنَ» بمعنى: يفسدون، أي يفسدون فسادًا، أي إفسادًا.

﴿**وَا للهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ أي يجازيهم شرًّا عمومًا، فيدخل هؤلاء بالأَوْلى، أو المراد من عُهِد، أظهر لهم ليصفهم بالإفساد، فيدخل غيرهم بالإلحاق لِعِلَّةِ الإفساد.

﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل، فالمتبادر أنَّ أهل الكتاب اليهود والنصارى، ويحتمل اليهود لأنَّ الكلام فيهم، وهم مخاطبون بالإنجيل كالتوراة، ﴿ءَامَنُواْ﴾ بمحمَّدٍ ﷺ وبما جاء به، وهو يتضمَّن الإيمان بالأنبياء والكتب كلّها، فأهل الكتاب مشركون إذا لم يؤمنوا به، فلا يدخلون الجنَّة، أو ولو أنَّ أهل الكتاب آمنوا بجميع الرسل والكتب ﴿وَاتَّقَواْ﴾ إيقادَ الحرب، والسعيَ فسادًا، والإلحادَ في صفات الله وأفعاله، وأكلَ السحت، وغيرَ ذلك مِمَّا هو معصية فعلاً أو تركًا، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ نسقطها عنهم فلا نؤاخذهم بها، فهذه تخلية، وهي طرح المَضَرَّة، ﴿وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ هذه تحلية، أخّرت على ما هو الأصل. ولا شكَّ أنَّ التوحيد مكفّر لما قبله حال الشرك، والآية لم تخرج عن ذلك.

أمَّا من حيِيَ بعد إسلامه حتَّى وقع عليه تكليف بفعل أو ترك، ففعَل الواجب وترَك المحرَّم فقد اتَّقَى، ومن أسلم ومات قبل ذلك فقد اتَّقَى، بمعنى أنَّه انتفى عنه فعل ما نهي عنه، وترك ما أمر به، فلفظ «اتَّقَوْا» شامل لهما، على أنَّه من عموم المجاز. أو المراد في الآية مَن حَيِيَ فيعلم غيره كذلك إلحاقًا، بل من مات بعد التوحيد وقبل ذلك فقد آمن واتّقى الشرك، فشملته الآية بلا عموم مجاز، إذ قد فعل ما كلّف به في الحال.

(أصول الدين) ولا يكتفى بذلك فيمن حَيِيَ إلى ذلك، لأدلّة وجوب العمل الصالح والتقوى مع الإيمان فيمن أسلم مِن شرك، وفيمن إسلامه أصيل. قال مالك بن دينار رحمه الله: «جنَّات الفردوس وجنَّات عدن جنّتان عظيمتان بينهما جنَّة النعيم، أفضل منهما فيها جوار خلقن من ورد الجنَّة»، قيل: فمن

يسكنها؟ قال: «الذين إذا همُّوا بالمعاصي ذكروا عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فتركوا المعاصي».

ماتت النوار زوج الفرزدق، فصلَّى عليها الحسن، ووقف الناس، فقال: «ما تنتظرون؟» فقال الفرزدق: «ينتظرون شرَّ الناس ـ يعنى نفسه ـ وخيرَ الناس ـ يعني الحسن ـ» فقال الحسن: «لستَ بشرِّهم ولستُ بخيرهم، ولكن ما أعددتَ لهذا اليوم؟» فقال: «شهادة أن لا إله إلاَّ لله سبعين سنة»»، توهَّم أنَّ التوحيد يكفي، فقال الحسن: «هذا العمود، فأين الأطناب؟» يعني التوحيد كعمود الخيمة لا ينتفع بِهِ دون العمل والتقوى، كما لا ينتفع بالخيمة دون الأطناب.

﴿وَلَوَ اَنَّهُمُ, أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالاِنجِيلَ﴾ آمنوا بهما وعملوا بما فيهما من الإيمان بمحمَّدٍ ﷺ، والعمل بشرعه، والدعاء إليه بلا كتم ولا تحريف، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من سائر كتب الله أنزلت عليهم أو على غيرهم، لأنَّهم كلِّفوا بها، أو المراد: القرآن، لأنَّه أنزل إليهم كما أنزل إلى غيرهم، أعني كلِّفوا بِهِ كغيرهم.

وممَّا أنزل عليهم: كتاب "دانيال"، وكتاب "شعياءَ"، وكتاب "أرمياءَ"، وزبور داود، وكتاب "حزقيل"، وكتاب "حبقوق" بِقَافَيْنِ.

﴿لأَكَلُواْ مِن فَوقِهِمْ﴾ الشجر العالي عليهم كالنخل وأنواع ما يعلو، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ ما سفل عنهم مِن حرثٍ وما نبت بلا حرث، وما سقط من الشجر العالي، وما بين ذلك داخل في الكلام، كما يذكر الأطراف،

ويترك ذكر الأوساط وهي مرادة، أو يرزقهم أجنَّة كأجنَّة سبأ بلا عمل، يأكلون منها وما تساقط لا يعفن بالسقوط، أو المراد **الكناية عن كثرة الأرزاق لا خصوص الثمار، ولا خصوص الجهات فتكون لهم بركات السماء والأرض وكلِّ جهة**، وقد قيل: لأعطتهُم السماءُ مطرَها وبركتها، والأرضُ نباتَها وخيرَها، كقوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ﴾ (سورة الأعراف: ٩٦).

﴿**مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ**﴾ عادلة، لا غالية ولا مقصِّرة، تعمل بالحقِّ، وهم من آمن بالنبيء ﷺ واتَّبعه، كما قال مجاهد: كعبد الله بن سلام، قيل: ومن اتَّبع كتاب الله قبل بعثته ﷺ أو بعدها، ولم يبلغه خبره، وقيل: عبد الله بن سلام ونحوه وأربعون من النصارى، وَقِيلَ: النجاشيُّ وأصحابه. ﴿**وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ**﴾ من معاندةٍ وتحريف وإعراض وإفراط في عداوة، وهذه الكثرة مقابلة القِلَّة، فمن ساء عملُه ككعبِ بن الأشرف أكثرُ مِمَّنَ اقتصد كما دلَّ له قوله: ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ

﴿صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦٩﴾

أمر الرّسول بتبليغ الوحي

ودعوة أهل الكتاب للإيمان برسالته

﴿**يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ كلّه، لا تَخَفْ لومة لائم ولا مكروهًا ولا تراقب أحدًا، والمُراد: ما أنزل للتبليغ لمصالح الناس دينًا ودنيًا، لا ما يحرم إفشاؤه أو ما لا خير فيه، فعن جعفر الصادق في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ (سورة النجم: ١٠)، إنّه أوحى إليه في قلبه بلا واسطة، ولا يعلم به أحد إلاّ حين يعطيه الشفاعة. وقبّح الله الشيعة إذ قالوا: كَتَمَ البعضَ تقيَّة، ويَرُدُّه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة النحل: ٨٩)، وقال: ﴿مَا فَرَّطْنَا...﴾ إلخ (سورة الأنعام: ٣٨).

فأقول: ما في السنّة أخذه النبيء ﷺ من القرآن إذا لم ينزل به وحي، أو هو فيه ولو نزل بِهِ وحي على حدة، ويحتمل [ما] قلته قول عائشة رَضِيَ الله عَنهَا أنّه ﷺ قال: «**لا أحلّل ولا أحرِّم إلاّ ما في القرآن**»[1]، قال ابن مسعود: «ذكر لنا في القرآن كلُّ شيء إلاّ أنَّ علمنا يقصر». والمراد أنَّ القرآن محلُّ الاستنباط. وقد خرج بعضهم عمره ﷺ ثلاثًا وَسِتِّينَ سنة من قوله تعالى:

١- رواه **الطبراني** في الكبير، ج١٢، ص١٨٩، رقم ١٣٠٠٨، ما يقاربه معنى، في حديث طويل، من حديث يزيد بن أرقم.

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ ا للهُ نَفْسًا...﴾ الخ (المنافقون: ١١) في سورة هي رأس ثلاث وَسِتِّينَ سورة.

﴿**وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ**﴾ بل تركت بعضًا ﴿**فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاَتِهِ**﴾، لأنَّ تاركَ بعضٍ كتاركِ كلٍّ، فكأنَّك لم تبلِّغ شيئًا لارتباط بعضٍ ببعضٍ، إذ كانت كشيء واحد أمر بتبليغها كلِّها، فَتَرْكُ بعضٍ كترك ركنٍ من أركان الصلاة.

أو إن لم تفعل التبليغ بأن تركت ما تركت عوقبت، لأنَّك لم تبلِّغ رسالته، فنابت العلَّة مناب الجواب، وهو في صورة تهديد، كأنَّه قيل: تهيَّأْ لشأن ما اقترفت من عدم التبليغ، كما روي عنه ﷺ: «**إنَّ ا لله بعثني برسالته، فضِقت بها ذرعًا، فأوحى ا لله إليَّ: إن لم تبلِّغ رسالتي عذَّبتك، فضمن لي العصمة، فقويت**»[1]. قال ابن عبَّاس: سئل رسول ا لله ﷺ: أيُّ آية أنزلت من السماء أشدُّ عليك؟ فقال: «**كنت بمنى أيَّام موسم، فنزل عليَّ ﴿يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ...﴾ الآية، فناديت عند العقبة: أيُّها الناس من ينصرني على أن أبلِّغ رسالات ربِّي ولكم الجنَّة؟ أيُّها الناس قولوا: لا إله إلاَّ ا لله وأنا رسول ا لله إليكم تُفلحوا، ولكم الجنَّة. فما بقي رجل ولا امرأة ولا أمَة، ولا صبيٌّ إلاَّ رموني بالتراب والحجارة، ويقولون: كذَّاب صابئ، فعرض عليَّ عارض فقال: يا محمَّد إن كنت رسول ا لله، فقد آن لك أن تدعو عليهم كنوح، فقلت: اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يعلمون، وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك،**

١- أورده **السيوطي** في تفسيره، ج٢، ص١٨٩، وقال: رواه ابن حبَّان في تفسيره، من مرسل الحسن.

فجاء العبَّاس فطردهم وأنقذني منهم».

﴿**وَا للهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ لا يصلك منهم ضربٌ ولا قتل ولا سحر، ولا ما يمنعك من التبليغ، وهذا بعدما سُحر في مشط ومشاطة، وأطعم لحمًا مسمومًا، وشجَّ يوم أحد وكسرت رباعيته.

وسورة المائدة من آخر ما أنزل، فهو يبلّغ ما نزل بعد هذا، ويكرِّر تبليغ ما بلَّغ من قبلُ لمن بلغه ولمن لم يبلغه، وإن كانت الآية قبل أُحُد والسحر والسمِّ وجعلت في هذه السورة فالمُراد: **عصمته من القتل وما يمنعه من التبليغ**. وكان ﷺ يحرسه سعد وحذيفة، كما قال أنس: إنَّه كان ﷺ يحرس حتّى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من قبَّة أَدَمٍ أي كان فيها حال النزول، فقال: «**انصرفوا أيُّها الناس فقد عصمني ا لله من الناس**»[1].

﴿**إِنَّ ا للهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ**﴾ لا يمكّنهم مِمَّا أَرادوه مِن قتلك وقتلِ أَصحابك، ومن تعطيل التبليغ، أَو لا يوفّق من سبقت شقاوتُه عند ا لله إلى التوبة، والأوَّل أَنسب لِمَا في صحيح مسلم عن عائشة : «سهر رسول ا لله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: **ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة**، قالت: فبينما نحن كذلك، سمعنا خشخشة السلاح، قال: **من هذا؟** قال: سعد بن أبي وقَّاص، فقال له ﷺ: **ما جاء بك؟** قال: وقع في نفسي خوف على رسول ا لله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول ا لله ﷺ فنام».

١- رواه **الترمذي** في كِتَاب التفسير، (٦) باب: ومن سورة المائدة، رقم، ٣٠٤٦. من حديث عائشة.

وروي أنَّها قالت: «فبينما نحن كذلك سمعت صوت السلاح، فقال: **من هذا؟** قال: سعد وحذيفة جئنا نحرسك، فنام عليه الصلاة والسلام حتّى سمعت غطيطه، ونزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبَّة أدم، وقال: **انصرفوا أيُّها الناس فقد عصمني الله من الناس**».

وزعم بعض أنَّ المعنى: يعصمك من الذنوب من بين الناس، وهو تفسير لم يعصم صاحبه من الخطأ، وكذا من قال: لا يهدي القوم الكافرين إلىالكفر، بل إلى الإيمان والهدى إرشادا.

﴿**قُلْ يَآ أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ**﴾ من الدِّين الحقِّ، أو على شيء نافع، أو على شيء معتدٍّ به، ﴿**حَتَّىٰ تُقِيمُواْ التَوْرَاةَ وَالاِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ القرآنَ، أو كُتُبَ رُسُل بني إسرائيل، أو كُتُبَ الله كلّها، ﴿**وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا**﴾ مَرَّ مثله، وإنَّ الإيمان به ﷺ واتِّباعه داخلان في ذلك. نزلت في رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع بن حرملة، إذ قالوا: يا محمَّد تزعم أنَّك على ملَّة إبراهيم وتؤمن بالتوراة؟ فقال ﷺ: «**نعم، لكن أحدثتم وكتمتم ما أُمرتم بتبيينه**»، قالوا: فإنَّا نأخذ بما عندنا ولا نتَّبعك. وَقِيلَ: المُراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى. ﴿**فَلاَ تَاسَ**﴾ لا تحزن ﴿**عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ**﴾ أيـّما كانوا، أو على هؤلاء فلا تأس عليهم بسبب كفرهم، أو إهلاكهم. وَوَضَعَ الظاهر موضع المضمر ليذكّر أنَّه من اتَّصف بكفر لا يستحقُّ أن يُحزن عليه.

﴿**إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ بألسنتهم، وَقِيلَ: مطلقًا، فيراد بالإيمان على الأوَّل في

قوله: ﴿مَنَ ـ امَنَ﴾ الإيمانُ المخلص ولا إشكال، وَعَلَى الثاني: الإيمانُ المخلصُ السابق والمستمرُّ والمخلصُ الحادثُ جمعًا بين الحقيقة والمجاز؛ أو حملا على عموم المجاز، كذا قيل. قلت: بل حقيقة، لأنَّ حاصله ثبوت الإيمان المخلص هكذا، سبق واستمرَّ أو حدث.

(صرف) ﴿وَالذِينَ هَادُواْ وَالصَّابُونَ﴾ قلبت الهمزة ياءً فثقلت عليها الضمَّة فحذفت لثقلها، وضمَّت الباء الموحَّدة أو نقلت للباء، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين، أو هو من "صَبَا" بالألف "يَصْبُو" بالواو قلبت ياءً كذلك؛ وهو مبتدأ عطف عليه بقوله: ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ وخبره جملة قوله ﴿مَنَ ـامَنَ﴾ منهم ﴿بِا للهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة، وخبر «إنَّ» محذوف يقدَّر: «مثلُ هذا» قبل قوله: ﴿وَالصَّابُونَ﴾، أو هذا خبر إنَّ وخبر «الصَّابُونَ» يقدَّر هكذا: «والصابون والنصارى كذلك».

(نحو) وقال الكسائي: معطوف على واو «هَادُوا»، ويعترض عليه بإنَّه لا يعطف على ضمير الرفع المُتَّصِل بلا فصل، ولعلَّ الكسائيَّ أجازه، لَكِنَّ إجازته ضعيفة، ويردُّه أنَّ الصابين على ذلك يهود. وقدَّر بعضٌ: «والذين هم الصابون» بحذف الموصول وصَدرِ الصِّلة، وقيل: الرفع عطف على محلِّ إنَّ واسمها، ويردُّه عدم استقامة المعنى وتوارد عاملين هما: إنَّ والابتداء، أو إنَّ والمتبدأ على معمول واحد وهو الخبر، وقيل: «إنَّ» بمعنى «نعم» فكلُّ ما بعدها مرفوع، ويردُّه أنَّه لا يوجد ما تكون له جوابًا إلاَّ بتكلُّف وحذف، ولا تكون أوَّل الكلام، ولا شيء في القرآن يصحُّ أن تكون فيه «إنَّ» بمعنى «نعم» أو

يترجَّح.

وإنَّما صحَّ أن يكون الصابون من أهل الجنَّة باعتبار أنَّهم جمعوا نوافل ومصالح من التوراة والإنجيل، وأدَّوا ما وجب، وتركوا ما حرِّم، أمَّا لو تركوا فرضًا أو عملوا محرَّمًا فلا، **وذلك قبل البعثة**، وأمَّا بعدها فكلُّ يهوديٍّ أوصابئٍ أو نصرانيٍّ في النَّار إلاَّ إن آمن به ﷺ واتَّبَعَه، أو لم يبلغه خبره، وكان على دين غير منسوخ، أو على دين منسوخ لم يبلغه نسخه.

روى أبو هريرة عنه ﷺ: «**والذي نفس محمَّد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمَّة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثمَّ يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلاَّ كان من أصحاب النَّار**»[1]. وشهر أنَّ الصابين خرجوا عن دين اليهود والنصارى وعبدوا الملائكة وهم في النَّار إلاَّ من تاب، ووجدت في نسخة عتيقة للسيوطي، وفي أخرى [مطبوعة] بالقالب أنَّ إدريس عليه السَّلام حمل الناس على دين الصابين وهو التوحيد والطهارة والصلاة والصوم وعبادات الله عزَّ وجلَّ وأنَّه عمَّ الأرض بالتوحيد.

وَقِيلَ: الصابين نسب إلى "صابئ بن متوشلخ بن إدريس" وكان على دين الإسلام، وَقِيلَ: إلى "الصابئ بن ملوى" في عصر الخليل عليه السَّلام قلت: لا إشكال في ذلك، لأنَّ الصابئة الكفرة ينتسبون إلى الصابئ المسلم.

١- رواه **مسلم** في كِتَاب الإيمان (٧٠) باب وجوب الإيمان برسالة نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ إِلىَ جميع الناس ونسخ الملل بملَّته، رقم ٢٤٠، (١٥٣)، من حديث أبي هريرة.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠ وَحَسِبُوٓا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٧١﴾

مراجعة اليهود لرسلهم

﴿**لَقَدَ اَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ**﴾ في التوراة بالتوحيد والعمل بما فيها، ومما فيها: الإيمان بمحمَّدٍ والقرآن والعمل به، ﴿**وَأَرْسَلْنَآ إِلَيهِمْ**﴾ منهم ﴿**رُسُلاً**﴾ كثيرة عظامًا، جارين على حكم التوراة ﴿**كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ**﴾ من تلك الرُّسل ﴿**بِمَا لاَ تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ**﴾ لصعوبته أو لغيرها.

(منطق) ونحو كلَّما كان كذا كان كذا، كهذه الآية، يعدُّها المناطقة قَضِيَّة شرطيَّة لشبهه بالشرط والجواب في الارتباط والتعلُّق، ونصبه على الظرفيَّة لإضافته للمصدر النائب عن الزمان المؤوَّل مِن ما المصدريَّة، والفعل بعدها يتعلَّق بجوابه محذوفًا، أي شاقوه أو استكبروا، وفسَّره بقوله:

﴿**فَرِيقًا**﴾ من الرُّسل ﴿**كَذَّبُوا**﴾ بلا قتل ﴿**وَفَرِيقًا**﴾ منهم ﴿**يَقْتُلُونَ**﴾ كزكرياء ويحيى، وتعاطوا قتل عيسى فنجَّاه الله، وفي زعمهم الباطل أنَّهم قتلوه، وكتب الله عليهم ذنب القتل. وَقَدَّمَ المفعول للفاصلة والاهتمام. والمضارع لحكاية الحال الماضية، كأنَّه ﷺ يشاهد قتلهم، وهذا أقوى، وليدلَّ

على التكرير، فإنَّ قتل الأنبياء عادتهم، فكأنَّه يشاهد تكريره أيضًا.

(نحو) وليس «كَذَّبُوا» و«يَقْتُلُونَ» جوابا يتعلّق بهما، لأنَّ الرَّسول الواحد لا ينقسم إلى فريق مكذَّب ـ بفتح الذال ـ وفريق مقتول، ولأنَّه إن عُلّق بـ«كَذَّبُوا» بقي «يَقْتُلُونَ»، أو بـ«يَقْتُلُونَ» بقي «كَذَّبُوا»، أو بهما لم يصحَّ، إذ لا يعمل عاملان في معمول، فيحتاج إلى تقدير «كلّما» لأحدهما من مطلق الحذف مع ركّة المعنى، وإن اعتبرنا الرَّسول عامًّا للرسل للفظ «كلّما» اندفع به قولنا: إنَّ الرَّسول الواحد لا ينقسم...الخ، [قلت] وبقي قولنا: إنَّه إن علّق بـ«كَذَّبُوا»...الخ إشكالاً عليه لا يندفع، فاجْرِ على قولي: الجواب محذوف تقديره: «شاقّوه» أو «استبكروا».

﴿وَحَسِبُواْ﴾ ظنَّ بنو إسرائيل ﴿أَلاَّ تَكُونَ﴾ تحصل ﴿فِتْنَةٌ﴾ بلاء وعذاب بتكذيب الأنبياء وقتلهم، وذلك أنَّهم اعتقدوا أنَّ كلَّ من جاءهم بشرع غير شرعهم الأوَّلِ يَجبُ قتله، كذا قيل، وفيه أنَّ أنبياءهم متواردون على التوراة بلا مخالفة، ولعلَّ المُراد أنَّهم يجيئون من ا لله بأشياء ليست في التوراة ولا تناقضها، أو يقتلونهم تشهّيًّا وخوفًا من زوال الجاه وتفرُّق الأتباع، كما عبدوا العجل، ويزعمون أنَّ أسلافهم يشفعون لهم.

﴿فَعَمُواْ﴾ فعموا عن إدراك الدِّين ودلائله بمجرَّد ما وجدوا في التوراة بلا إسماع مسمع، كمن لا يرى بعينه ما هو ظاهر لعماه، كما عبدوا العجل ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن سماع المسمع لهم سماع قبول، كمن لا تسمع أُذناه لصمم فيهما، ويجوز أن يكون العمى والصمم بمعنى واحد مجازيٍّ، وهو المبالغة في الإعراض عن الحقِّ كَبُعد من اجتمع فيه العمى والصمم عن الإدراك. ﴿ثُمَّ تَابَ ا للهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفّقهم للتوبة.

(أصول الدين) والسعيد منهم في ولاية الله تعالى له، ولو في حال المعصية لِمَا يختم له به لا لها، والشقيُّ في براءة الله، ولو في حال طاعته وتوبته لِمَا يختم به له، فليس في ذلك تقلُّب ولاية الله وبراءته بحسب التوبة ونقضها.

﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بدل من واو «عَمُوا»، فهو في نية التقديم عن «صَمُّوا»، أو تجعل الواو في «عَمُوا» علامة الجمع، و«كَثِيرٌ» فاعلُه، وهو في نية التقديم كذلك، وواو «صَمُّوا» فاعل، أو «كَثِيرٌ» مبتدأ و«عَمُوا» و«صَمُّوا» خبَرَانِ بعطفٍ.

(نحو) لجواز تقديم الخبر الفعليِّ إذا لم يكن ليس كقولك: قام أبوه زيد، وإنَّما يمتنع إذا كان تقديمه يوهم المبتدأ بالفاعل، كقولك في زيد قام: قام زيد، أو اللبس بالتأكيد نحو: أنا قمت.

(قصص) ويقال «فَعَمُوا وَصَمُّوا» إشارة إلى المرَّة الأولى من مرَّتي الفساد، حين خالفوا التوراة وقتلوا "شعياء" أو حبسوا "أرمياء"، وإنَّما تابوا في أَسر "بخت نُصَّر"، وكانوا دهرًا طويلاً تحته في بابل في ذلٍّ عظيم، وأهلك الله "بخت نُصَّر"، وبعث ملكًا عظيما من فارس وعمر بيت المقدس ثلاثين سنة، وردَّ بني إسرائيل، وتراجعوا كأحسن ما كانوا وكثروا كذلك.

وقيل: لـمَّا ورث "بهمان بن اسفنديار" الملك من جدِّه "كاسف" ألقى الله تعالى شفقة عليهم في قلبه، فردَّهم إلى الشام، وملك عليهم "دانيال" عليه السَّلام، فاستولوا على من كان فيها من أتباع "بخت نصَّر"، فقامت عليهم الأنبياء فرجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الإسراء: ٦).

والمرَّة الثانية من مرَّتي الفساد: حين قَتلوا زكرياء ويحيى، وقصدوا قتل عيسى عليه السلام.

ويقال: المُراد بالتوبة أنَّهم تابوا من عبادة العجل، وفيه ضعف، لأنَّه على عهد سيِّدنا موسى عليه السَّلام لا يناسب المقام.

وكذا ما قيل: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ بعبادة العجل ثمَّ تابوا، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ بطلب الرؤية والاعتداء في السبت، إلاَّ أنَّ الاعتداء فيه في زمان داود بعد موسى عليهما السَّلام، ولو قيل: المُراد في زمان سيِّدنا محمَّد ﷺ لجاز، لرضاهم عن أسلافهم فيسند إليهم ما لآبائهم. وَقَدَّمَ العمى لأنَّه أوَّل ما يعرض لمن أنكر ما أتى من الحقِّ، ثمَّ لو أبصره لم يتَّبعه كأنَّه لم يسمعه. و«ثُمَّ» للتراخي رتبة وزمانًا.

﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فلن ينجوا من عقابه، ومقتضى الظاهر: «بما عملوا»، لَكِنَّ المضارع للفاصلة وحكاية الحال والتكرير.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

تأليه المسيح عند المسيحين، مع أنَّه مجرَّد بشر رسول

﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ أشرك ﴿الذِينَ قَالُواْ إِنَّ ا للهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نزلت فيه الأُلُوهِيَّة من ا لله فيبقى ا لله غير إله، أو ناقص الأُلُوهِيَّة.

(أصول الدين) ولا يخفى خطأهم، فإنَّ الصفات القديمة لا يتحمَّلها حادث، والصفات الذاتيَّة لا يتَّصف بها غير من هي له، ولا سيما أنَّ صفات ا لله بمعنى أنَّها ليست شيئًا آخر زائدا عليه مقترنة ولا حالَّة به، سبحان ا لله عمَّا يقوله المبطلون. وفي ذكر مريم تشنيع عليهم بأنَّ المولود لا يكون إلها، وأنَّ مريم ولدت إلهًا.

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ اَعْبُدُواْ ا للهَ رَبِّي وَرَبَّكُم﴾ فإنِّي عَبدٌ من عبيده أعبده ولست بإله. أرسل رسول ا لله ﷺ رجلاً إلى الجلندى بعُمان، فقال له قبل تبليغ الرسالة إليه: «هل تعلم أنَّ عيسى يصلِّي لله سبحانه؟» فقال: «نعم»، فقال: «فإنِّي أدعوك إلى عبادة من يعبده عيسى».

﴿إِنَّهُۥ مَنْ يُّشْرِكْ بِا للهِ﴾ غيره في العبادة أو في الصِّفة أو في الفعل أو في نفي ما هو له عنه، وهذا تصريح بأنَّ من قال عيسى إله فهو مشرك، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ا للهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ قضى ا لله أن لا يدخلها؛ شبَّه قضاءه بعدم الدخول بمنع من لو خُلِّيَ لدخل دارا مُنِع من دخولها، فإنَّه ليس في طاقة الإنسان أن يذهب إلى

الجنَّة باختياره، حتّى يأتي بابها فيمنعه البوّاب. والتحريم لغويٌّ، ولك أن تقول: شرعيٌّ بطريق المجاز المرسل أو الاستعارة، فإنَّ تحريم الشيء سبب لعدم مقارفته، وملزوم لعدمها، والتحريم شبيه بالمنع الحسِّيِّ.

﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ فإنَّ الجنَّة مأوى من يوحِّد ويعمل الصالحات، ويتَّقي المحارم، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنَ اَنصَارٍ﴾ أي مانعين العذاب عنهم من أوَّل، أو مزيلين له بعد وقوعه بمغالبة أو شفاعة، وهذا من كلام المسيح، وَقِيلَ: من كلام الله.

وَقِيلَ: قوله: ﴿إِنَّهُ, مَنْ يُّشْرِكْ...﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ اَنصَارٍ﴾ من كلام الله، والراجح أنَّ ذلك من كلام عيسى، وذلك من مقابلة الجمع بالجمع، فرد لفرد، كأنَّه قيل: «وما لظالمٍ نصيرٌ»، قُلْ هذا ولا تقل: صيغة الجمع للإشعار بأنَّ نصرة الواحد أمر غير محتاج إلى التعرُّض لنفيه لشدة ظهوره، وأنَّه إنَّما ينبغي التعرُّض لنفي نصرة الجمع، ومقتضى الظاهر وما لهم من ناصرين، أي لمن يشرك بالله. وأظهر [الضمير] ليصفهم بالظلم؛ فمن قال: «إنَّ الله هو المسيح» لا ينصره عيسى ولا غيره، بل يعاديه عيسى وغيره من المسلمين والحيوانات والجمادات، فما ينفعه التقرُّب بذلك إلى عيسى، وإذا لم تنصرهم الجماعة فأولى أن لا ينصرهم الفرد. وَقِيلَ: الجمع ردٌّ لقولهم: إنَّ لهم أنصارا كثيرة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قيل: هم النسطوريَّة والملكانيَّة من النصارى، وَقِيلَ: النسطوريَّة والمرقوسيَّة، والآخَرَان: عيسى وأُمُّه، وكلٌّ من الثلاثة إله بزعمهم وَالإِلَهيَّة مشتركة بينهم، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ءَآنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ (سورة المائدة: ١١٦). وَقِيلَ: زعموا

-لعنهم الله- أنَّ الإله جوهر واحد مركّب من ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، وروح القدس؛ وأنَّ هذه الثلاثة إله واحد، كما أنَّ الشمس مركّبة من قرص، وشعاع، وحرارة.

وعَنوا بالأب: الذّاتَ - وَقِيلَ: الوجود - وبالابنِ: كلامَ الله، وبالروحِ: الحياةَ. ومنهم -لعنهم الله- مَن زعم أنَّ الحياة تتجسَّم، وأنَّ هذا الكلام اختلط بجسد عيسى اختلاط الماء باللبن، وأنَّ الأب إلهٌ، والابنَ إلهٌ، والروحَ إلهٌ والكلَّ إلهٌ واحدٌ. ولزمهم الحدوث لأنَّ المركّب حادث، والحادث يعجز ويجهل، ويحتاج إلى غير ذلك من صفات الخلق تعالى الله.

ومن النصارى من هو مُوَحِّد مثلنا، ولا يقبل توحيدهم وعملهم لكفرهم بالنبي ﷺ والقرآن.

﴿وَمَا مِنِ اِلَهٍ اِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ظاهر هذا الكلام في العرف أنَّه لا يوجد إله إلاَّ وهو واحد، فثبتت آلهة، إلاَّ أنَّه كلُّ واحد إله معه بل هو واحد، وهو متناقض، فبان أنَّه ليس ذلك مرادًا، بل المُراد أنَّ الإله كائنًا من كان لا يوجد له شريك في الأُلُوهِيَّة، يوجد الخلقَ ويستحقُّ العبادةَ، أو لا إله في الوجود ولا في الإمكان غير إله لا يقبل الشركة وهو الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من أنواع الإشراك، كالتثليث وكون الله هو المسيح، ﴿لَيَمَسَّنَّ الذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ نار الآخرة والقتل والأسر والجزية. و«مِن» للبيان، أي: ليمسَّنَّ الذين كفروا وهم هؤلاء الذين لم ينتهوا، أو النصارى. ومقتضى الظاهر: «لَيَمَسَّنَّهُم»، ووَضَعَ الظاهر موضع المضمر ليصفهم بالكفر مرَّة بعد أخرى، ولينبِّه على أنَّ العذاب مترتِّب على

عدم الانتهاء. أو «مِن» للتبعيض تحرُّزًا عن البعض، الذي تاب وانتهى كما قال:

﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى ا للهِ﴾ ألا ينتهون فيتوبون عن تلك العقائد الزائغة! وما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال الباطلة!. والاستفهام تعجيب من إصرارهم، وتوبيخُيهم، وإنكارٌ لأن يليق ذلك، فيقولوا: لا إله إلاَّ ا لله اللهمَّ اغفر لنا، كما قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ, وَا للهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للتائب ويتفضَّل عليه، ومَن هذا فعله وهو قادر كيف لا يتاب إليه.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ إنَّمَا هو رسول من ا لله لا أُلُوهِيَّة له، وكيف يكون إلهًا من يتَّصف بالنبوَّة؟! ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ جاءوا بما لم يجئ به غيرهم، ومع مجيئهم بما لم يجئ به غيرهم لم تَدَّعهم أُمَمُهم آلهةً، فلا كفر ككفر النصارى، بل قد كان فيهم مثل ما لعيسى من إحياء الموتى على أيديهم، وإحياء الجماد، ومن خلقٍ من غير أبٍ ولا أمٍّ. وقد أخرج ا لله عزَّ وجلَّ للنبيِّ العربي صالح عليه السَّلام ناقة من صخرة، وأحيَى ا لله عصا موسى عليه السَّلام، وخَلَقَ آدم بلا أب ولا أمٍّ، وخلق حوَّاء بلا أب ولا أمٍّ، سوى أنَّها جزء من آدم، وكلُّ ذلك أعجب.

﴿وَأُمُّهُ, صِدِّيقَةٌ﴾ لا إله، كما أنَّه رسول لا إله، وهي كسائر النساء الصدِّيقات، كما أنَّ عيسى من الرسل، والصدِّيق ـ بالشدِّ ـ من كان صادقًا مع ا لله ومع الخلق قولاً وفعلاً واعتقادًا مجتهدًا في ذلك، وكم امرأة صدِّيقة لم يدَّع قومُها أنَّها إله، ولو كان عيسى وأمُّه إلهين لقالا: إنَّا إلهان. وصِدْقُها هو صِدْقُها مع ا لله عزَّ وجلَّ، وفي انتفائها ممَّا رمتها به اليهود، وفي إقرارها بكلمات رَبِّها وكتابه، وبالأنبياء وجميع ما يؤمَن به.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ ومن يأكل الطعام هو كسائر البشر وسائر الحيوان، لا يكون إلها لحدوثه وتركُّبه واحتياجه وعجزه وجهله بأكثر الأشياء، ومن يبول ويتغوَّط كيف يكون إلها! ومن يركب الحمار ويعيى كيف يكون إلها! ومن يكون إلها لا يصيبه مكروه. وَقِيلَ: المُراد بأكل الطعام: الكناية عن قضاء حاجة الإنسان، وهذا أمَرُّ ذوقًا في أسماع النصارى، ولم أر أبعد فهما وجدالاً من النصارى وما سمعنا به.

﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾ على اختصاصنا بالأُلُوهِيَّة والوحدانيَّة، وهو تعجيب من البيان العظيم، ﴿ثُمَّ انظُرَ انَّى﴾ كيف؟ ﴿يُوفَكُونَ﴾ يصرفون عن التوحيد مع ذلك البيان العظيم؟ وهذا تعجيب من إصرارهم على الشرك مع هذا البيان وعدم تدبُّرهم، و«ثُمَّ» لتراخي الرتبة، فإنَّ إعراضهم عن التدبُّر في البيان الواضح أبعد، فإنَّ الإنسان قد يفعل ما يفعل جهلاً أو تشهِّيًا فإذا وُعظ وبُيِّن له رجع كلَّ الرجوع أو بعضه، والنصارى لم يرجعوا أدنى رجوع.

﴿قُلَ اَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِ۬للَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ اَ۬لسَّمِيعُ اُ۬لْعَلِيمُ ۝٧٦ قُلْ يَٰٓأَهْلَ اَ۬لْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِے دِينِكُمْ غَيْرَ اَ۬لْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٖ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ اِ۬لسَّبِيلِ ۝٧٧ لُعِنَ اَ۬لذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِے إِسْرَآءِيلَ عَلَيٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى اَ۪بْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ لَبِيسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٧٩ تَرَيٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ اَ۬لذِينَ كَفَرُواْ لَبِيسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمُۥٓ أَنفُسُهُمُۥٓ أَن سَخِطَ اَ۬للَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِے

﴿الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨١﴾

مناقشة النصارى في تأليه عيسى، ومطالبة أهل الكتاب بعدم الغلو في الدّين

﴿قُلَ اَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ أي دفع ضرٍّ ﴿وَلاَ نَفْعًا﴾ في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم من الجمادات والحيوانات فيقولوا لك: لا، فتقول: إنَّ عيسى لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا كتلك الجمادات والحيوانات، فكيف يُعبد؟. أو «مَا» واقعةٌ على عيسى، أو عليه وعلى أمِّه باعتبار النوع أو باعتبار الشبه بنحو الفرس، أو باعتبار تغليب الصليب، تأكيد في نفي الإلهيَّة.

وقد قيل ـ على بُعدٍ ـ إنَّ المراد بـ«مَا»: الصليب، أو باعتبار أنَّ أوَّل أحوالهما لا يوصف بعقل ولا بفضل، فهل يمنعكم أحدهما من موت أو مرض أو فقر أو ما تكرهون؟ فاعبدوا الذي يفعل ذلك بكم قهرًا وعدلاً، ويفعل لكم النفع الدينيَّ والدنيويَّ والأخرويَّ. وقدَّم الضُّر لأنَّ دفعه أهمُّ، وقد يقدَّم النفع لأنَّ النفس أميل إليه طبعًا.

﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم وأقوال غيركم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم وأحوال غيركم، فيجازيكم، فهو أهل للألوهية وغَيْرُه إن ضرَّ أو نفع فبتمليك الله عزَّ وجلَّ لا من ذاته.

﴿قُلْ يَـآ أَهْلَ الكِتَابِ﴾ يا أهل الإنجيل، بدليل قوله: ﴿لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ فإنَّ الغلوَّ الدفعُ بما لا يثبت، كما سمَّوا عيسى عليه السَّلام إلَهًا أو ابنَ إله. أو أهلُ الكتاب: اليهودُ والنصارى، لأنَّ اليهود غلوا في عزير إذ سمَّوه ابن ا لله، وَلأَنَّ الغلوَّ يجوز إطلاقه عَلَى المبالغة في الذمِّ أيضًا، فَإِنَّهُمْ ـ لعنهم ا لله ـ نسبوا مريم للزنى وابنَها لبنوَّة الزنى بهتانًا عظيمًا. و«غَيْرَ» مفعول مطلق، أي: غَلَوْا غَيْرَ الحقِّ، أي غُلوًّا باطلاً، ويطلق الغلوُّ على المبالغة في الشيء ولو حلالاً، كالتعمُّق في مسائل علم الكلام على الوجه الحقِّ فإنَّه غلوٌّ، وعلى وجهٍ باطلٍ غلوٌّ أيضًا.

﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَد ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ من قبلكم أو قبل بعث النبيء ﷺ، والمأصدق واحد، من أسلافكم القائلين ببنوَّة عيسى لله، أو أُلُوهِيَّته وأُلُوهِيَّة مريم وبِدَعِهِم في التوحيد؛ وبدعِ اليهود في التوحيد كالتجسيم ودعوى بنوَّة عزير، والإنكارِ على موسى في بعض الأحيان، وسائرِ بدعهم في التوحيد.

﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ من الناس في التوحيد وغيره ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ﴾ عن سائر دينهم، أو عن القرآن، وعلى الوجهين تغاير الضلال الأَوَّل، وهذا أو الأوَّل عن أدلَّة العقل، وهذا عمَّا جاء به الوحي، أو الأوَّل الضلال بالغلوِّ، والثاني الضلال عن دينهم الواضح، وخروجهم عنه بالكُلِّيَّةِ، وقال الزجَّاج: الضلال الأخير ضلالُهم بإضلالهم غيرهم كقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ اَوْزَارِ الِذينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(سورة النحل: ٢٥). وقيل: واو «ضَلُّوا» عائد إلى «كَثِيرًا».

﴿لُعِنَ الذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِي إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾ اعتدى قوم من اليهود واصطادوا الحوت في السبت، وهم أصحاب "أيلة"، على عهد داود عليه السَّلام قبل عيسى، فدعا عليهم فقال: «اللهمَّ العنهم واجعلهم قردة» فمسخوا قردة.

﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أكل ناسٌ من قوم عيسى من المائدة وادَّخروا و لم يؤمنوا، فدعا عليهم عيسى فقال اللهمَّ: «العنهم واجعلهم قردة وخنازير»، فمسخوا قردة وخنازير، وهم خمسة آلاف ليس فيهم صبيٌّ ولا امرأة.

وَقِيلَ: معنى لعنِهم على لسان داود وعيسى: إنزالُ لعنهم من ا لله عليهما، بأن قال لهما في الزبور والإنجيل: من كفر با لله أو بواحد من أنبيائه فقد لعنته، أو أوحى إليهما على لسان جبريل.

وقال الزجَّاج أمر ا لله عزَّ وجلَّ داود وعيسى أن يؤمنا بمحمَّدٍ ﷺ ويلعنا من كفر به. والمُراد باللسان الحقيقة، فشمل لسانين، ويجوز في العربيَّة على لسانَيْ داود وعيسى بالتثنية، يجوز فيها على ألسنة بالجمع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ اللعن المقتضي للمسخ، ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي بعصيانهم وكونهم يعتدون فيما بينهم وبين رَبِّهم، ويعتدون فيما بينهم وبين الخلق، أو العصيان: الصغائر، والاعتداء: الكبائر، أو أَعَمُّ. والاعتداء في السبت، والكفرُ بعد الأكل من المائدة. ويجوز عطف «كَانُوا يَعْتَدُونَ...» الخ، على «ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا»، أو على «لُعِنَ...» إلخ عطفَ قصَّة على أخرى. [قلت] ولا أجيزُ واو الاستئناف، واختار أبو حيَّان الاستئناف وقال: يدلُّ له تفسير ذلك بقوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ لا ينهى بعضهم بعضًا عنه، أو لا ينتهون عنه، والأوَّل أصل في التفاعل وما فُعِلَ لا يُنهى عنه لفوته، إذ لا يمكن

تصييره غير مفعول وقد فُعِلَ، فالمنكر في الآية غير مفعول إلاَّ بعد المنكر، والمُراد: عن منكر أرادوا فِعْلَه، فالفعل مؤوَّل بسببه وملزومه وهو الإرادة؛ أو المُراد: لا يتناهون عن مثل منكر فعلوه من صنفه أو من سائر المعاصي، وكذا إذا فُسِّرَ التناهي بالانتهاء يحتاج إلى أحد هذه التأويلات، لأنَّ ما فُعِل لا يُنتَهَى عنه، فالمعنَى: لا يريدون الانتهاء أو لا يستعملون مثل ما هو انتهاء عن ذلك.

والمنكر على العموم والإفراد له نوعيٌّ لا شخصيٌّ. وَقِيلَ: المُراد الصيد يوم السبت، وَقِيلَ: الرشوة في الحكم، وَقِيلَ: الربا وأثمان الشحوم. ﴿**لَبِيسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾ إنشاءٌ لذمِّ فعلهم، وتعجيبٌ مؤكَّد بالقسم، أي وا للهِ لبئس، أو بلام الابتداء على أنَّها للابتداء، لأنَّ الفعل الجامد كالاسم، والمُراد: ما كانوا يفعلون من المناكر، أو من ترك النهي، أو منهما وهو أَعَمُّ فائدة، وشُهِرَ تفسيرُه بترك النهي. قال حذيفة عنه ﷺ: «**والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتَنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ ا لله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثمَّ لتَدْعُنَّه فلا يستجيب لكم**»[1]، وقال ﷺ: «**إنَّ ا لله لا يُعَذِّبُ العامَّة بِذَنْبِ الخاصَّةِ، حتَّى يروا المنكر بين ظُهرَانِيهم وهم قادرون على أن يَنْكُرُوه فلا ينكرُونه، فإذا فعلوا ذلك عَذَّبَ ا لله تعالى**

١- أخرجه **السمرقندي** في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج١، ص١٠٠، من حديث حذيفة بن اليماني.

الخاصَّة والعامَّة»[١]، وقال ﷺ: «**والذِي نفسُ محمَّدٍ بيَدِهِ لَيَخرُجَنَّ من أمَّتي أناس من قبورهم في صور القردة والخنازير بما داهنوا أهل المعاصي، وكفُّوا عن نهيهم وهم يستطيعون»**[٢].

﴿**ترى**﴾ بعينيك برؤية الأثر، أو تَعْلَم يا محمَّد، أو يا من يصلح للرؤية ﴿**كَثِيرًا مِّنْهُمْ**﴾ من أهل الكتاب عمومًا، وَقِيلَ: المُراد اليهود، وهو أظهر، ككعب بن الأشرف وأصحابه، وقد خرج جماعة منهم إلى مكَّة ليتَّفقوا مع المشركين على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، فلم يتمَّ لهم ذلك.

﴿**يَتَوَلَّوْنَ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ أشركوا من قريش أو غيرهم، ويفضِّلونهم على رسول الله ﷺ والمؤمنين بغضًا لهم وحبًّا لذلِّهم، والله يأبى إلاَّ نصرهم وعزَّهم.

﴿**لَبِيسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمُ, أَنفُسَهُم**﴾ لبئس الذي قَدَّمَته لهم أنفسهم، أو لبئس هو شيئًا قَدَّمَته لهم أنفسهم، ﴿**أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِم**﴾ مخصوص بالذمِّ على حذف مضاف، أي موجب سخطه عليهم، لأنَّهم لا يقدِّمون السخط في الدُّنيا وهو عذاب[٣] الآخرة، أو ما يلحقهم في الدُّنيا من الأسواء، إذ ليس تقديم ذلك في وسعهم ولا محبوبًا لهم، بل يقدِّمون أفعال السوء واعتقاد السوء وهي الموجبة لعذاب الآخرة.

١- رواه **الطبراني** في الكبير، ج١٧، ص١٣٨، رقم ٣٤٣، من حديث العرس بن عميرة.

٢- رواه **الهندي** في الكنز، ج٣، ص٨٣، رقم ٥٦٠٥، من حديث عبد الرحمن بن عوف.

٣- كذا في النسخ، لعلَّ الصواب: «أو هو عذاب».

(نحو) أو المخصوص محذوف، أي عملهم الذي عملوه، فيكـون «أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْـهِم» علّة، أي لأنـّه سخط الله عليهـم بـه، أو بـدلاً منـه، وإن جعل «أَن سَخِطَ» بدلاً من «مَا» على أنّها موصولة أو معرِفة تامـّة جـاز، بـل جاز ولو على أنّها نكرة، وإبـدال المعرفة مـن النكـرة أولى مـن تكلُّـف تقديـر: «لبئس الشيء شيئًا قَدَّمَته لهم أنفسهم سخط الله»، على أنَّ «سَخِطَ اللهُ» بدل من المخصوص المُـقَـدَّر وهو: شيءٌ.

﴿وفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ الجملة معطوفـة على خـبر «أنْ» المخفَّفـة، فينسحب عليها التأويل بالمصدر، أي سخطه وخلودهم في العذاب.

﴿وَلَوْ كَانُواْ يُومِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيءِ﴾ جنـس أنبيـائهم كموسـى وعيسـى. والضمير لأهل الكتاب، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ من التـوراة والإنجيـل وغيرهمـا ﴿مَا اَتَّخَذُوهُمُ﴾ أي ما اتّخَذوا مشركي قريش وغيرهم ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يحبّـونهم مـن قلوبهم ويوادُّونهم ويسارُّونهم ويعينونهـم، فـإنَّ الإيمـان بالأنبيـاء والكتـب ينـافي ذلك، ويجوز أن يراد بـ«النَّبِيءِ» سيـّدنا محمَّـد ﷺ، وبـ«مَـا أُنـزِلَ»: القـرآنُ، وصحَّ ذلك مع إنكارهم لهما، لأنـّهما حقٌّ ظاهر كالشمس، فلم يعتبر إنكارهم، أو يُقَـدَّرُ في هذا الوجه: «ما اتَّخذوهم أولياء فينجوا من العـذاب»، وإن رجعنـا الضمير في قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُومِنُونَ﴾ إلى المنافقين ولو لم يَجْرِ لهم ذكـر لكـان المراد سيِّدنا محمَّد ﷺ والقرآن، فتكون الهاء في «اتَّخَذُوهُم» للذين كفـروا أي المشركين، أو لأهـل الكتـاب الذيـن اتـّخذوا الكفّـار أوليـاء، أو لأهـل الكتـاب والمشركين.

﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن حكم التوراة والإنجيل، أو مستمرُّون في النفاق، والمراد بالكثير مقابل القِلَّة المعادلة لهم، أي والقليل غير فاسق من أهل الكتاب، بل مؤمن من أوَّل، أو يتوب، والقليل من المنافقين يتوب أيضًا.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَاتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

علاقة اليهود والنصارى بالمؤمنين

﴿لَتجِدنَّ أشَدَّ النّاسِ﴾ الكلام في اليهود وحدهم، أو مع غيرهم قبلُ وبعدُ، فالمراد أنَّهم أشدُّ عداوة لا فيمن هو أشدُّ عداوة لهم اليهود أم غيرهم، فالأولى أنَّ «الْيَهُودَ» مفعول أوَّل و«أَشَدَّ» ثان لا العكس، إلاَّ أنَّه جائز. والمراد بالناس: الكُفَّار ﴿عَداوَةً لِّلذِينَ ءَامَنُواْ اليَهُودَ﴾ عمومًا، وَقِيلَ: يهود المدينة، والمشاهد

وعموم اللفظ يقتضيان العموم. ﴿وَالذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ من أهل مكّة لتضاعف كفرهم وجهلهم وحبِّهم للدنيا واللّذّات، ورغبتهم في تكذيب الأنبياء وتسفيه الحقِّ، وقيل: المراد المشركون مطلقًا، وقدَّم اليهود لأنَّهم أشدُّ عداوة من المشركين، ولأنَّ الكلام فيهم.

﴿وَلَتجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلذِينَ ءَامَنُواْ الذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ ذلك في جملتهم لا في خصوص مَن أسلم منهم، ومَن شأنُهم لين الجانب، ورقّة القلب، وقِلّة الرغبة في الدُّنيا، ومَن شأنُهم الاهتمام بالعلم والتعلُّم، ولو كانت القسوة والغلظة قد توجد في بعضهم وفي بعض الأماكن وبعض الأزمنة.

وكفرهم ولو كان أشدَّ مِن كفر اليهود كالتثليث، لكن يقارنه بعض الميل إلى الآخرة ونحوه مِمَّا لا يوجد في اليهود، و [تسميةُ] النصارى لَمَّا قال عيسى: ﴿مَنَ انصَارِيَ إِلَى ا للهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ا للهِ﴾. و[تسمية] اليهود لَمَّا قال لهم موسى ما ذكر ا لله عزَّ وجلَّ قالوا: ﴿إِذْهَبَ اَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾ (المائدة: ٢٤).

وقد أسلم من النصارى ومن التحق بهم من الروم قرى لا تحصى، وإلى الآن يسلمون عام ألف وثلاثمائة وأحد عشر، وممَّا يوضِّح لك ذلك أنَّ مِمَّا تدين به اليهود وجوب إيصال الشرِّ إلى من خالفهم في دينهم، نصرانيًّا أو مسلمًا أو غيرهما، من كلِّ من يستحلُّ السبت، يرون حلَّ دمائهم وأموالهم. ودانت النصارى بتحريم الأذى، ولا يخفى أنَّ حبَّ الأذى بالديانة يكون أشدُّ منه بالتشهِّي وبعارض. قال أبو هريرة: قال رسول ا لله ﷺ: «**ما خلا يهوديٌّ**

بمسلم إلاَّ هم بقتله» رواه ابن مردوية، وروي: «**إلاَّ حدَّث نفسه بقتله**»[١].

وأراد مسلم الدخول على يهوديٍّ فردَّ الباب عنه، وبينهما معرفة، فقال له المسلم في ذلك؟ فأجابه بأنَّ في ديني وجوب قتلك إن قدرت عليك، وقد قدرت إن خلوت بك، وأنا أحبُّك، ولا أريد قتلك. وهذه منه خيانة مبنية على أخرى.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي قرب مودَّتهم الزائد ﴿**بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ**﴾ علماء. قال عروة بن الزبير: ضيَّعت النصارى الإنجيل، وأدخلوا فيه ما ليس منه، وبقي واحد منهم على الدِّين والحقِّ، واسمه "قسِّيس"، فكانوا يسمُّون من على دينه قِسِّيسًا، حتَّى إنَّه ينتحل هذا الاسم من ليس فيه معناه. وقد قيل: من "قَسَّ" بمعنا قَصَّ وهو تتبُّع الأثر، وهم يتَّبعون العلم والحِكَم أو يتَّبعون أوراد اللَّيْل.

﴿**وَرُهْبَانًا**﴾ عبَّادًا خائفين الله، من الرهبة بمعنى الخوف، أو الترهُّب بمعنى التعبُّد مع الرهبة، وهو جمع راهب كراكب وركبان، وهو لفظ عربيٌّ. ﴿**وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ عن الحقِّ ولو لم يؤمنوا كما تستكبر اليهود.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ...﴾ إلى قوله ﴿...الصَّالِحِينَ﴾ داخل في التعليل، أي حصل في جملتهم قربُ المودَّة بسبب أنَّ منهم قسِّيسين ورهبانًا، وسببِ أنَّهم لا يستكبرون، وبسبب أنَّ أعينَهم تفيض من الدمع بمعرفة الحقِّ إذا سمعوا القرآن، وبسبب قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٥٣)، وبسبب قولهم: ﴿وَمَا لَنَا لاَ نُومِنُ بِاللهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُّدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

١- رواه **الهندي** في الكنز، ج٤، ص ٤٣٠، رقم ١١٢٥٩، من حديث أبي هريرة.

ومَن كان مِن هؤلاء قبلَ النبي ﷺ تسبَّب لقرب المودَّة لِمَن قبلَه ومَن معه ومَن بَعدَه، ومَن كان معه تسبَّب لِمَن معه ومَن بعدَه، وكأنَّه قيل: حصول أَقْرَبيَّة المودَّةِ للمسلمين فيهم تسبَّب فيها علماؤهم وعبَّادهم، كلٌّ وأهل زمانه، إلى أن جاء قسِّيسون ورهبانٌ على عهد رسول الله الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ذَالِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿**وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ**﴾ محمَّد ﷺ، وهو ما نزل من القرآن ﴿**ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ**﴾ لرقَّة قلوبهم وشدَّة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحقِّ، والعين لا تفيض بنفسها بل دمعها، فالمراد بـ«تَفِيضُ»: تمتلئ، لأنَّ الامتلاء سبب الفيض، لأنَّ الفيض انصباب عن امتلاء، وذلك مبالغة حتَّى كان الامتلاء نفس الفيض، أو أسند الفيض إلى الأعين إسنادًا للمحلِّ كأنَّها تفيض بنفسها مبالغة، وإنَّما يفيض دمعها الذي هي محلُّه. و«مِن» للابتداء، أي من كثرة الدمع، كذا قيل، [قلت] والأَوْلى أنَّها بمعنى الباء.

﴿**مِمَّا عَرَفُواْ**﴾ من للتعليل أي لِمَا عرفوه، وَقِيلَ: للابتداء على أنَّ الأولى ليست له لأنَّ الفيض نشأ مِمَّا عرفوا، ﴿**مِنَ الْحَقِّ**﴾ «مِن» للبيان، أى مِمَّا عرفوه حال كونه هو الحقّ، أي جنس الحقِّ؛ أو للتبعيض، أي فكيف لو عرفوا كلَّ الحقِّ فكأنَّهم يبكون دمًا، أو تنسجم دموعهم.

﴿**يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا**﴾ بما سمعنا، وهو ما أنزل إلى الرَّسول أو بمحمد ﷺ، ﴿**فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ مع الذين شهدوا من أمَّته بِأَنَّهُ حقٌّ من الله، أو بأنَّه ﷺ رسولٌ إلى الناس كلِّهم، أو من الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة وهم أمَّته ﷺ.

﴿وَمَا لَنَا لاَ نُومِنُ بِا للهِ﴾ مع قيام الدلائل، والجملة من جملة المقول كأنَّه قيل: «ويقولون: ما لنا...» إلخ، وَقِيلَ: معطوفة على جملة محذوفة، والمحذوفة من المقول، أَي: «ما لكم لا تؤمنون با لله، وما لنا...»إلخ، واختار الزجَّاج أَنَّهَا جواب سؤال، كأنَّه قيل: لِم آمنتم؟ وَيَرُدُّه اقترانها بالواو، والحقُّ أنَّ واو الاستئناف لا تصحُّ، لأنَّ الاستئناف ليس معنى، وزعم بعض عن الأخفش أنَّ الواو تزاد في الجملة المستأنفة.

﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو الوحدانيَّة ونفي التثليث والتثنية، و«مِن» للبيان؛ أوالحقُّ ا لله و«مِن» للابتداء، وكانوا من قبل ذلك مؤمنين محقِّقين نافين للتثليث والتثنية، كما قال ا لله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (سورة القصص: ٥٣) فالمراد: ما لنا لا نؤمن هذا الإيمان الخاصَّ، وهو الإيمان بمحمَّدٍ وما جاء به، وَقِيلَ: أسلَموا حين سمعوا ما أنزل إلى الرَّسول.

﴿وَنَطْمَعُ﴾ عطف على «لاَ نُومِنُ» أي: ما لنا نجمع بين ترك الإيمان والطمع، أو على نؤمن فالنفي متسلِّط عليه، أي ما لنا لا نؤمن ولا نطمع فإنَّا إن لم نؤمن لم نطمع؛ أو خبر لمحذوف، والجملة حال من ضمير «نُومِنُ»، أي: ما لنا لا نؤمن ونحن نطمع، فإنَّ الطامع يسعى فيما يتحقَّق له ما يطمع فيه. ﴿أَنْ يُّدْخِلَنَا﴾ في أن يدخلنا ﴿رَبُّنَا﴾ جنَّته ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أمَّة محمَّد ﷺ، أو عموم الصَّالحين.

(سبب النزول) نزل قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ...﴾ إلى قوله: ﴿...الصَّالِحِينَ﴾ في وفد النجاشيِّ القادمين على رسول ا لله ﷺ، فقرأ عليهم ﷺ "يس" فبكوا وأسلموا، فقالوا ما أشبه هذا بما نزل على عيسى عليه السَّلام، والوفد قبل الهجرة

وهؤلاء الآيات في المدينة لأنَّ المائدة مَدَنِيَّة، وأمَّا "يس" فمَكِّيَّة.

وَقِيلَ: نزلت الآيات في أربعين رجلاً من نصارى نجران من العرب من بني الحارث بن كعب، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم. وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب لم يخرجوا عن دين عيسى وآمنوا بسَيِّدنَا محمَّد ﷺ. ويروى أنَّ جعفرًا وأصحابه رجعوا من الحبشة ووافوا رسول الله ﷺ وهو على خيبر، هم واثنان وستُّون من الحبشة وثمانية من الشام عليهم ثياب الصوف، فقرأ ﷺ "يس" فبكوا وآمنوا، فالآيات فيهم.

وروي أنَّ النجاشي رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قال لجعفر رَضِيَ اللهُ عَنهُ: هل تعرفون شيئًا مِمَّا أنزل على صاحبكم؟ قالوا: نعم. قال: اقرأوا، فقرأ جعفر سورة مريم وهناك قسِّيسون ورهبان وسائر النصارى، فعرفوا ما قرأ، فانحدرت دموعهم مِمَّا عرفوا من الحقِّ، ونزلت الآيات فيهم، وأرسل النجاشيُّ إلى رسول الله ﷺ ابنه "أزهى" في ستِّين من أصحابه وكلُّهم أسلموا، وكتب إليه: يا رسول الله إنِّي أشهد أنَّك رسول الله صادقًا مصدَّقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمِّك جعفرًا، وأسلمت لله ربِّ العالمين، وقد بعثت إليك ابني "أزهى" وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلتُ، والسلام عليك يا رسول الله. فركبوا في سفينة في أثر جعفر حتَّى إذا كانوا في وسط البحر غرقوا.

وعن ابن عبَّاس: المُراد بالنصارى في الآية اثنان وستُّون من الحبشة وثمانية من الشام: أبرهة وبحيري وإدريس وأشرف وتمام وقثم ودريد وأيمن، فهم سبعون جاءوا مع جعفر.

﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُواْ﴾ بما اعتقدوا، والقول يطلق على الاعتقاد أو بقولهم المطابق لاعتقادهم، وَقِيلَ: القول بمعنى الرأي والمذهب، وفسَّر كثيرٌ القولَ بقولهم: «مَا لَنَا لاَ نُومِنُ»، وبعض بقولهم: «رَبَّنَا آمَنَّا». وعن ابن عبَّاس هو قولهم: «فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ». وقولهم: «وَنَطْمَعُ...» الخ.

﴿جَنَّاتٍ﴾ مفعول آخر لـ«أَثَابَ»، أي جعل الجنَّات ثوابًا لهم. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وذَلِكَ﴾ ما ذكر من الإثابة أو الإشارة إلى الإثابِ بلا تاء يعتبر مضافًا، أي إثابة أو إثابهم بكسر الهمزة كقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَاةِ﴾ (سورة الأنبياء: ٧٣). ﴿جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أحسنوا النظر في الدلائل النقليَّة والحسيَّة فآمنوا وعملوا واتَّقوا، أو أحسنوا بالإيمان والعمل والتقوى، أو اعتادوا الإحسان في الأمور. والمُراد: عمومُ المحسنين، أو هؤلاء المذكورون، فمقتضى الظاهر: «جَزَاؤُهُم» فأظهرَ ليصفهم بأنَّ ذلك منهم إحسان.

﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل الكتاب وغيرهم ﴿وَكَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَآ﴾ أي القرآن ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ترهيب بعد ترغيب.

(سبب النزول) روي أنَّه ﷺ ذكَّر الناس يومًا ووصف القيامة فرقُّوا وبكوا، فاجتمع في بيت عثمان بن مظعون هو وأبو بكر وعليٌّ وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وأبو ذرٍّ وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد وسلمان ومعقل بن مقرن، واتَّفقوا أن يترهَّبوا، ويلبسوا المسوح، ويجبُّوا مذاكرهم، ويصوموا ولا يفطروا، ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم والودك، ولا يقربوا النساء ولا الطيب، وأن يسيحوا في الأرض. فبلغ ذلك النبيَّ

ﷺ فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه، فقال لامرأته: «**أحقٌّ ما بلغني عن زوجك وأصحابه؟**»، فكرهت أن تكذب، وكرهت أن تفشي سرَّ زوجها، فقالت: يا رسول الله: إن كان قد أخبرك عثمان فقد صدق، فانصرف رسول الله ﷺ، فلمَّا جاء عثمان أخبرته بذلك، فأتى هو وأصحابه إليه ﷺ فقال: «**ألم أُخبَر أنَّكم اتَّفقتم على كذا؟**». فقالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلاَّ الخير، أي ولم نرد الردَّة إلى أهل الكتاب. فقال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لم أؤمر بذلك، وإنَّ لأنفسكم عليكم حقًّا، ولأزواجكم حقًّا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، وآتوا النساء وكلوا الطَّيِّبات وتطيَّبوا، فإنِّي أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدسم وآتي النساء، وآكل الطَّيِّبات، وأتطيَّب، فمن رغب عن سنَّتي فليس منِّي**»، ثمَّ جمع الناس وخطبهم وقال: «**ما بال أقوام حرَّموا النساء والطعام والطيب وشهوات الدُّنيا، وإنِّي لست آمركم أن تكونوا قسِّيسين ورهبانًا، فإنَّه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتِّخاذ الصوامع، وإنَّ سياحةَ أمَّتي ورهبانيَّتَهم الجهادُ، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وحُجُّوا واعتمروا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا يُسْتَقَم لكم، فإنَّما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شدَّدوا فشدَّد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الديارات والصوامع**»[1].

١- أورده **السيوطي** في الدرِّ المنثور، ج٢، ص ٣٤٠، من حديث أبي أمامة.

وأيضًا قال بعض الصحابة: أقوم الليل أبدًا إلاَّ ما شاء الله، وهو عليٌّ. وبعض: أصوم أبدًا، وهو بلال، إلاَّ العيدين. وعثمان بن مظعون يقول: لا أنكح أبدًا فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾

إباحة الطَّيِّبات بلا إسراف

﴿**يآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ ا للهُ لَكُمْ**﴾ من اللذائذ، وهؤلاء الصحابة أرادوا أن يحرِّموها على أنفسهم، فإنَّه من حرَّم حلالاً كفر، ومن حجر على نفسه فقد شدَّد على نفسه وظلمها، وليس المُراد لا تفتنوا الناس بتحريمها كما زعم بعض، بل المُراد النهي عمَّا شدَّدوا به على أنفسهم، وأيضًا يبعده ما يأتي من الأمر بالأكل.

﴿**وَلاَ تَعْتَدُواْ**﴾ إلى الحرام، وجبِّ المذاكر وما ذكر معه، قيل: والإسراف في الطَّيِّبات، ﴿**إِنَّ ا للهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ بالإفراط والتفريط.

﴿**وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ا للهُ حَلاَلاً طَيِّبًا**﴾ لذيذًا. لَمَّا مدح النصارى بالتقشُّف عن الدُّنيا وشهواتها، زجر المسلمين عن إفراطهم، ثمَّ نهاهم عن التفريط بالاعتداء، فدين الله بين ذلك لا إفراط ولا تفريط.

وكان ﷺ يحِبُّ لحم مقدَّم الشاة، ويأكل ثريد اللحم ، ويحِبُّ الحلوى،

ويمدح الحلوى، وثريد اللحم، ويأمر بأكل الحلوى، وقال ﷺ: «**إن ا لله تعالى لم يأمرني بالرهبانيَّة**»[١]. وقال ﷺ: «**شراركم عزَّابكم، وأراذل موتاكم عزَّابكم**»[٢]. وقال ﷺ، «**من كان موسرًا لأن ينكح فلم ينكح فليس منِّي**»[٣]، وفي الآية النهي عن تحريم ما حلَّ وتحليل ما حرَّم.

(أصول الدين) وفيها أنَّ الرزق يطلَق على ما تملَّك الإنسانُ من حلال أو حرام، وهو مذهبنا ومذهب الأشعريَّة، خلافًا للمعتزلة إذ قصروه على الحلال. وبيان ذلك أنَّه لولا الاحتراز عن الرزق الحرام لم يذكر «حَلاَلاً»، وهو مفعول لـ«كُلُوا» أو حال مِن «مَا»، أو من عائدها المحذوف، أو مفعول مطلق أي: أكلاً حلالاً، والأكل الحرام يكون بالمأكول الحرام إلاَّ أنَّ المعروف أنَّ المتَّصف بالحلال المأكول لا الأكل، وللمعتزلة أن يقولوا: ذَكَرَ حلالاً توطئة لطيِّبًا، وأن يقولوا: الأكل الحرام هو أكل الحلال بإسراف.

﴿**وَاتَّقُواْ ا للهَ الذِي أَنتُمْ بِهِ مُومِنُونَ**﴾ كيف تدَّعون الإيمان به إن خالفتموه في أمره ونهيه.

(سبب النزول) وروي أنَّ هؤلاء الصحابة حلفوا على أن يجتنبوا تلك الملاذّ، وأنَّ اجتنابها قربة، وَلَمَّا نُهوا قالوا: يا رسول ا لله كيف نفعل بأيماننا؟ فنزل قوله تعالى:

١- أورده **السيوطي** في الدرّ المنثور، ج ٢، ص ٣٤١، من حديث أبي أمامة.

٢- **نفس المصدر**، ج ٢، ص ٣٤١، من حديث أبي ذرٍّ.

٣- **نفس المصدر**، ج ٢، ص ٣٤٢، من حديث ميمون أبي المغلس.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

اليمين وكفارته

﴿**لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**﴾ وهو الحلف غلطًا، والقصد إلى لفظ الحلف بلا قصد حلف، كقولك (لا والله) بلا قصد يمين، وَقِيلَ: الحلف على ما يعتقده أنَّه وقع فيخرج خلافه، كما اعتقد هؤلاء الصحابة أنَّ جبَّ المذاكر واجتناب الطَّيِّبات ونحو ذلك قربة، فخرج أنَّها غير قربة. وَقِيلَ: نزلت الآية في عبد الله بن رواحة أخَّرت زوجه عشاء ضيفه، فحلف لا يأكل من الطعام، وحلفت زوجه لا تأكل إن لم يأكل، وحلف الضيف لا يأكل إن لم يأكلا، فأكل عبد الله بن رواحة فأكلا معه، فقال ﷺ له: «**أحسنت**» أي بتحنيث نفسك.

﴿**وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ**﴾ بتشديد القاف للمبالغة، بأن يكون الحلف بالله وباللسان والقلب، أو شدَّد لموافقة المجرَّد، ﴿**الأَيْمَانَ**﴾ أي بعقدكم الأيمان من قلوبكم، أي بنكث عقدكم الأيمان، والنكث هنا الحنث، أو بما عقدتم عليه الأيمان، فحذف الرابط للعلم به، ولو مجرورًا بما لم يُجَرَّ به الموصول، ولم يتعلّق بمثل ما تعلّق ما جرَّ الموصول، والمُراد: يؤاخذكم

بنكث عقدكم الأيمان، أو بما عقَّدتم عليه الأيمان إذا حنثتم، وفي هذا ردٌّ على من فَسَّرَ اللغو بما يعتقده ويخرج خلافه، لأنَّه يصدق عليه أنَّه عقد الأيمان عليه من قلبه، والمعنى: ترك الإهمال، فإنَّه يؤخذ بالكفَّارة مَن عقد مِن قلبه. ﴿**فَكَفَّارَتُهُ**﴾ صفة مبالغة أي فِعلته التي تبالغ في ستره وإذهاب إثمه، أي فستارته، وفي عرف الفقه تغلَّبت عليه الاسميَّة، فالتاء للنقل، وقد قيل فعَّال بالشدِّ يجوز تذكيره مع المؤنث. والهاء للنكث أو للعقد باعتبار نكثه، أو الحنث المعلوم من المقام، أو لليمين لجواز تذكير اليمين، كما قال القرطبيُّ، وَقِيلَ: لا إلاَّ بتأويل الحلف، أو للحالف المعلوم من المقام المُراد به الجنس.

(فقه) واستدلَّ الشافعيَّة بذكر الكفَّارة بلا ذكر الحنث في الآية على جواز التكفير قبله بالمال، لا بالصوم، لأنَّ الصوم لا يكون إلاَّ عند العجز عن غيره، والعجز يتحقَّق بعد الحنث، وقاسوا تقديم الكفَّارة على الحنث على تقديم الزكاة على الحول، [قلت] والصحيح أنَّه لا يجوز إلاَّ بعده وفاقًا للحنفيَّة، لأنَّ موجبه الحنث، ولا دليل في الآية ولا في قوله ﷺ «**من حَلف على يَمين فَرأى غَيرها خَيرًا منها فلْيُكَفِّر عن يمينه وليأتِ الذي هو خير**»[1] لأنَّ الواو لا ترتِّبُ، وأيضًا في رواية: «**فلْيأتِ الذي هو خير ثمَّ لِيُكفِّرْ عن يمينه**». وروي أنَّ الشافعيَّة يجمعون بين الروايتين في الحديث، بأنَّ إحداهما لبيان جواز التقديم، والأخرى لبيان الوجوب. وفاء الجواب ترتِّب مجموع ما بعدها على ما قبلها، ولا ترتيب لها بين أجزاء ما بعدها.

١- تَقَدَّمَ تخريجه في الجزء الثاني، ص ٥٢.

(فقه) ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ بالعدد ولا يجزي إطعام ما يكفيهم إنسانًا واحدًا فصاعدًا إلى تسعة، أو أحد عشر فصاعدًا، خلافًا لأبي حنيفة، وكذا في الكسوة يعطي كسوة عشرة لواحد عنده فيما يظهر، والمراد بالإطعام ما يشمل الإيكال والكيل ولا يلزم التوالي، فيجوز أن يوكل اليوم إنسانًا أو أكثر، ومن الغد أو بعد الغد آخر أو أكثر حتّى يتمّ العدد، أو يكيل كذلك أو يوكل بعضًا ويكيل لبعض كذلك. والكيل مُدَّان من الطعام الجيِّد أو ثلاثة من دونه، وأجيز مدَّان من الطعام مطلقًا، وأجيز مدٌّ.

﴿مِنَ اَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمُ,﴾ لا يجزي الدون ولا يلزم الأعلى.

(فقه) وظاهر الآية عموم الطعام، والمذهب أنَّه من الحبوب الستِّ، قالت الشافعيَّة: مدٌّ لِكُلِّ مسكين، والحنفيَّة نصف صاع من بُرٍّ، أو صاع من شعير.

وعن ابن عمر: الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزيت، والخبز والسمن، والأفضل: الخبز واللحم. وعن ابن سيرين الأفضل: الخبز واللحم، والأوسط: الخبز والسمن، والأخسُّ: الخبز والتمر. والرابط محذوف، أي ما تطعمونه. و«أَهْلِيكُمْ» جمع مذكّر سالم شاذٌّ قياسًا، لأنَّه ليس علما ولا صفة، فعدَّه بعضٌ اسم جمع.

(فقه) ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ,﴾ قدر ما يكفي الأنثى في الصلاة إن كسا أنثى، وهو ما يسترها كلّها إلاّ الكفَّ والوجه، وما يكفي الذكر فبها وهو يستره من كتفه، وقيل من سرَّته إلى أسفل من ركبتيه، قدر ما لا ينكشف باطن ركبتيه إذا ركع. والكسوة إمَّا بمعنى اللباس فيقدَّر مضاف أي وإعطاء كسوتهم، أو

إلباس كسوتهم، ويقدَّر أيضًا: أو كسوتهم من أوسط ما تكتسون. ويجزي الرجلَ سراويل، ويشترط أن يكون مِمَّا ينتفع بهِ ثلاثة أشهر لا أقلَّ. وعن ابن عبَّاس: كانت العباءة تجزي. وعن ابن عمر: قميص أو رداء أو كساء. وعن الحسن: ثوبان أبيضان. وعن جعفر الصادق: ثوبان لِكُلِّ مسكين. ويجزي ثوب واحد عند الضرورة، ويجزي كسوة صبيٍّ، واشترط الحنفيَّة أن يكون مراهقًا فصاعدا.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة عندنا قياسًا على رقبة القتل، وأيضًا الكفَّارة حقٌّ لله تعالى، فلا يصرف إلى عدوٍّ ا لله عزَّ وجلَّ، كالزكاة التي جاء فيها: «ضعوها في فقرائكم». لا حملاً للمطلق على المقيَّد، وهكذا قُل، ولا تقل: ما شهر من حمل المطلق على المقيَّد كما تقول الشافعيَّة، وإنَّما يصحُّ هذا الحمل **عندي** لو كان النوع واحدًا، وإن شئت فقل: لو كان السبب واحدًا والمعنى واحدًا، وليس كذلك، فإنَّ اليمين نوع والقتل نوع، فلو ذكر في موضع أنَّ على الحالف الحانث عتق رقبة مؤمنة، وذكر في موضع آخر أنَّ عليه عتق رقبة لصحَّ الحمل لاتِّحاد النوع.

(فقه) والتحرير هو الواجب لا هو والكسوة للمحرِّر، وصحَّحوا وجوبها، وأجاز أبو حنيفة عتق الرقبة الكافرة في جميع الكَفَّارات: اليمين والظهار وغيرهما إلاَّ كفَّارة القتل. والثلاثة على التخيير[1]، وهنَّ في الفضل على ترتيبهنَّ في الآية .

١- المـُرَاد بالثلاثة: الأشياء الثلاثة المذكورة في كَفَّارَة اليمين: الإطعام أو التحرير أو الصوم.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ ما ذكر ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي فكفَّارته صيام ثلاثة أيَّام، أو فعليه صيام ثلاثة أيَّام. ويشترط التتابع قياسًا على الظهار أو حملاً، لأنَّ ذلك كُلَّه نوع واحد وهو اليمين، والقياس أولى لتخالفهما، ولو كانا جميعًا يمينًا.

(فقه) وغير الواجد من ليس له قوت سنة، وَقِيلَ: من لم يكن له عشرون درهما، وَقِيلَ: خمسة عشر درهمًا. وعن الشافعي: غير الواجد ما لم يكن عنده قوته وقوت عياله يومه وليلته، وفَضُلَ ما يطعم عشرة أو يكسوهم، وعن أبي حنيفة: من لم يكن له نصاب فهو غير واجد. وعن قتادة: من لم يكن له خمسون درهمًا فغير واجد. ومن غريب أموره ـ أي الشافعي ـ أنَّ قوله في الجديد: إنَّ غير الواجد من لا يملك كفاية العمر الغالب، ولو ملك قوت أيَّام أو شهور أو سنين، وهو ظاهر البطلان وأظنُّ أنَّه **لا يصحُّ عنه ذلك**. وللشافعيِّ قول بعدم وجوب التتابع، ولا ينقضه الحيض والنفاس خلافًا للحنفيَّة، وأمَّا قوله ﷺ لحذيفة: «**فصيام ثلاثة أيَّام متتابعات**» ففي من له اختيار، وأمَّا من لا اختيار له كالحائض والنفساء فلا يشترط له أن لا يفصله حيض أو نفاس، وكذا فيما روي عن ابن مسعود وأبيٍّ بن كعب من التتابع.

﴿ذَلِكَ﴾ ما ذكر كلُّه أي الواحد منه ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي وحنثتم، ﴿وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ﴾ عن الحنث بها، أو احفظوا أيمانكم بأن لا تحلفوا إلاَّ في أمر مهمٍّ لداعٍ صحيح، وبأن لا تواقعوها إلاَّ باسم الله، واحفظوا شأنها بالتكفير إذا حنثتم، أو لا تنسوها.

(فقه) حفظها أفضل من الحنث والتزام الكفّارة إلاّ إن كانت على فعل مكروه أو معصية أو ترك طاعة، فليحنث وجوبًا بترك المعصية، وبفعل الطّاعة الواجبة، واستحسانًا في المكروه، والطّاعة غير الواجبة، جاء الحديث بذلك، وَقِيلَ: ترك المعصية وفعل الواجب كفّارته وفي الصحيحين عنه ﷺ: **«إنّي وا للهِ لا أَحلِفُ على يَميني فَأرى غيرهَا خيرًا منها إلاّ كفّرت عن يميني وأتيت الذي هو خير»**[1]. ولا يفيد هذا تقديم الكفّارة على الحنث جوازًا لأنَّ الواو لا ترتّب.

﴿**كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ا للهُ**﴾ أي مثل ذلك التبيين في اليمين يُبَيِّنُ ا لله ﴿**لَكُمْ ءَايَاتِهِ**﴾ سائر أحكامه في الآيات، ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ لعلّكم تشكرون ا لله على تبيينه لكم في سهولة، وعلى نعمة التعليم، وجعله المخرج لكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ

١- رواه **البخاري** في كِتَاب التفسير (١١٥) باب قول ا لله تَعَالَىَ: ﴿لاَ يُوَاخِذُكُمُ ا للهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾. رقم ٤٣٣٧. ورواه مسلم في الأيمان (٠٣) بـاب نـدب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها، رقم ٠٧. من حديث أبي موسى.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٣﴾

تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ هي ما يسكر قليله أو كثيره، وجاء الحديث: «مَا أسكر كثيره فقليله حرام»[1]، وسمِّيت لأنَّها تخامر العقل، أي تعالج تغطيته، فكلُّ ما يغيِّره خمر، وهذا أصله بالاشتقاق ولو غلب في عصير العنب، وقد قيل: إنَّها من القرْآن، وأمَّا غيرها فمن الحديث.

﴿وَالمَيْسِرُ﴾ القمارُ، سمِّي لأنَّه يؤخذ به المال يسرًا أي سهولة، وعَدُّوا منه اللعب بالجُوز والكِعَاب وما أشبه ذلك، وتنسب قطعة من جبن كصورة الرغيف إلى القمار، لأنَّهم يلعبون بها فيأخذها الغالب من المغلوب.

﴿وَالاَنصَابُ﴾ الأصنام، سمِّيت لأنَّها تنصب للعبادة، والمفرد نصب بفتحتين أو ضمَّتين، أو هي أحجار تنصب دون الأصنام، ولا تخلو عن تبرُّك بها وعبادة، ﴿وَالاَزْلاَمُ﴾ سهام يكتب في بعضها: «أمرني ربِّي»، وفي بعضها: «نهاني ربِّي»، وبعض لا كتابة فيه، وهي في الكعبة عند سدنة الكعبة إذا أرادوا نكاحًا أو سفرًا أو تجرًا أو غزوًا أو نحو ذلك أجالوها، فما خرج عملوا به، وإن خرج ما لم يكتب عليه أعادوا حتَّى يخرج ما فيه كتابة، فهم يستقسمون بها أي

١- رواه **أبو داود** في كِتَاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، رقم ٣٦٨١. ورواه **النسائي** في كِتَاب الأشربة (٢٥) باب تحريم كُلِّ شراب أسكر كثيره، رقم ٥٦٢٣، من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جدِّه.

يطلبون ما قسم لهم من الله من ذلك، دون ما لم يقسم لهم من ذلك، وَتَقَدَّم غير ذلك.

﴿رِجْسٌ﴾ خبيث تستقذره العقول السالمة، أو المراد أنَّه كرجس أي كنجس مستخبث، وأكثر ما يستعمل الرجس فيما يُسْتَخْبَثُ عقلاً والنجس طبعًا، ولم يقل أرجاس لأنَّ المبتدأ مضاف مفرد محذوف، أي إنَّمَا تعاطي الخمر، أو لأنَّه في الأصل مصدر، أو لأنَّ المراد التشبيه أي كرجس، أو خبر للخمر، وذُكِّر لأنَّ المُراد: شيء رجسٌ، ويقدَّر الخبر لغيره وهو في نية التقديم، هكذا: إنَّما الخمر رجس والميسر والأنصاب والأزلام كذلك.

﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ من وسوسته، أو نسب العمل إليه لأنَّه داع إليه، ولا يخفى أنَّ تعاطي تلك المحرَّمات هو الذي مِن عمل الشيطان لا نفس تلك الأشياء، فقوي تقدير: «إنَّمَا تعاطي الخمر...» الخ أو «معاملة الخمر...» الخ. ومثله أن يُقَدَّرَ لِكُلٍّ ما يناسبه، أي: إنَّمَا شرب الخمر ولعب الميسر وعبادة الأصنام واستقسام الأزلام»، إلاَّ أنَّ فيه كثرة الحذف؛ وإمَّا بلا تقدير فيكون نفس الخمر وما بعده من عمل الشيطان، أي من صنعته، وهو جائز، إلاَّ أنَّه دون ذلك.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي اجتنبوا ما ذكر، أو اجتنبوا الرجس، أو اجتنبوا تعاطي ذلك، أو الشيطان، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ باجتنابه، قال عمر رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»، فنزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ (سورة البقرة: ٢١٧) فدعا ﷺ عمر فقرأها عليه، فقال: «اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»، فنزل قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَقْرَبُوا

الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ...﴾ الخ (سورة النساء: ٤٣)، فدعاه فقرأه عليه. فقال: «اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»، فنزل قوله تعالى: ﴿يآ أيُّها الذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الخمرُ والْمَيسِرُ وَالاَنصَابَ وَالاَزلاَمَ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُّوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُم عَنِ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلَ اَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فدعاه فقرأه عليه فقال: «انتهينا يا ربَّنا». فقال ﷺ: «**من كان عنده شيء من الخمر فلا يطعمها ولا يبعها**»[1].

أَكَّدَ الله جلَّ وعلا تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام بالجملة الاسميَّة، وبالحصر بـ«إِنَّمَا» المفيدة قصرهنَّ على صفة هي كونهنَّ رجسًا كائنًا من عمل الشيطان، قصرَ موصوف على صفة، كأنَّه قيل: ليس لهنَّ من الصفات إلاَّ كونهنَّ رجسًا من عمل الشيطان، وأكَّد تحريمهن أيضًا بأنَّهنَّ رجس وَأَنَّهُنَّ من عمل الشيطان، فالاشتغال بهنَّ شرٌّ خالص لأنَّ الشيطان كافر متمرِّد لا غرض له سوى مخالفة الله، والرجس مستقذر عقلاً ونجس، وَأَكَّدَ تحريمهن بالأمر بالاجتناب وبترتيب الفلاح على اجتنابهنَّ فلا يحصل الفلاح معهنَّ، وَأَكَّدَ تحريمهنَّ بتحريم أعيانهنَّ ولو كان المُراد تحريم معاملتهنَّ، فإنَّ تحريم عين الشيء أبلغ من تحريم معاملته والانتفاع به، وكم شيء مرغوب في عينه مُحَرَّم الانتفاع به، كلبس الرجل الذهب والحرير، وزاد في تحريم الخمر والميسر تأكيدًا

١- رواه **الهيثمي** (المجمع) في كِتَاب الأشربة، باب ما جاء في الخمر ومن يشربها رقم ٨٢٠٣، من حديث ثابت الخولاني.

بقرنهما بالأصنام تشبيهًا بها، كما قال ﷺ: «**شارب الخمر كعابد وثن**»[1]، وكثيرًا ما يسبُّ شاربها الله عزَّ وجلَّ، ويقارف ألفاظ الشرك، وكلاهما كعبادة الصنم في ارتكاب المحرَّمات، وَأَكَّدَ تحريمهما بالحصر بأنَّه ما أراد الشيطان بهما إلاَّ إيقاع العداوة والبغضاء من أمور الدُّنيا، والصدَّ عن ذكر الله، والصدَّ عن الصلاة من أمور الدين، إذا شرب الخمر سبَّ الناس ولاسيما إن شربها مع غيره، وتحصل العداوة بالسبِّ، وقد يشربون معًا تأكيدًا للألفة ويؤول أمرهم إلى أعظم عداوة وبغضاء بالتنازع، وقد يتقامرون ليحصل لهم مال يجودون على الفقراء، ويؤول أمرهم إلى ذهاب أموالهم كلَّما صار مغلوبًا أعاد لعلَّه يكون غالبًا فلا عدوَّ له أعدى مِمَّن تغلَّب على ماله، وقد يقامر حتَّى لا يبقى له شيء فيقامر لَجَاجًا أو أَنَفَة وطمعًا في الغلبة بولده وأهله، فلا أعدى له مِمَّن يأخذ ذلك منه؛ ويلهو المقامر والشارب عن الصلاة والذكر، وفي شربها سكر وطرب ولذَّة فيغفل عنهما، وفي المقامرة استغراق الفكر فيما يكون به غالبًا.

وخصَّ الخمر والميسر بالذكر ثانيًا مع ذكر العداوة والبغضاء والصدِّ عن الصلاة والذكر، لأَنَّهُمَا مِمَّا يأنفه المؤمنون وَأَنَّهُمَا مقصود بالذَّات في الآية الأولى، وأمَّا الأنصاب والأزلام فليست مِمَّا يتعاطاه المؤمنون، وإنَّما ذكرت تأكيدًا لقبح الخمر والميسر، وإظهارًا لكونهما كالأنصاب والأزلام.

١- رواه **الهيثمي** (المجمع) في كِتَاب الأشربة، باب ما جاء في الخمر ومن يشربها رقم ٨١٨٧ من حديث عبد الله بن عمرو.

والصلاة داخلة في الذكر إلاَّ أنَّها خصَّت باسمها تعظيمًا لها وإشعارًا بأنَّ الصادَّ عنها كالصادِّ عن الإيمان، لأنَّها عماد الدين، و«**ليس بين العبد والكفر إلاَّ تركه الصلاة**»[1]، ويدلُّ على أنَّ المـُراد بالذَّات في النهي عن الخمر والميسر المؤمنون قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا﴾. وفي ذكر الانتهاء إيذان بأنَّ الأعذار انقطعت ولم يبق إلاَّ الانتهاء عن الخمر والميسر، لأنَّ العداوة والبغضاء والصدَّ يوجبن الكفَّ عنهما، واللفظ استفهامٌ، والمـُراد الأمر، أي: أتقيمون عليهما مع تلك المفاسد الدنيويَّة وَالدِّينيَّة أمْ لا؟ انتهوا!. ولكونه بمعنى الأمر عطف الأمر عليه في قوله:

﴿**وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ**﴾ فيما أمر به الله ورسوله ﴿**وَاحْذَرُواْ**﴾ المخالفة فيما أمر الله ورسوله، وفيما نهى الله ورسوله عنه كالخمر والميسر والأنصاب والأزلام، فهذا تأكيد لتحريمهنَّ بذكر الله ورسوله معًا، وتكرير الإطاعة، وذكر الحذر تعميمًا لهنَّ ولغيرهنَّ، وزاد تأكيدًا آخر بقوله: ﴿**فَإِن تَوَلَّيْتُمْ**﴾ عن الإطاعة والحذر فجزاؤكم علينا لا على الرَّسول، ولم تضرُّوا بتوليتكم الرَّسول ﴿**فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا البَلاَغُ الْمُبِينُ**﴾ أي تحصيل البلاغ للوحي فهو مصدر، أو التبليغ فهو اسم مصدر، وقد بَلَّغ فما أضرَرْتُم إلاَّ أنفسكم.

ولَمَّا أَلِفوا الخمر تجرًا وشربًا وإزالة للهمِّ بشربها، كان تحريمها تدريجًا، فنزل

١- رواه **الربيع** في كِتَاب الصلاة (٤٨)، باب جامع الصلاة، رقم ٣٠٣، من حديث ابن عبَّاس، ورواه **البيهقي** (الكبرى) في كِتَاب الصلاة والاستسقاء (٣٧)، باب ما جاء في تكفير من ترك الصلاة عمدا من غير عذر، رقم ٦٤٩٦. من حديث جابر.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ...﴾ الخ (سورة البقرة: ٢١٩) فتركها بعض، تحرُّجًا عن إثمها، وبقي بعض على منافعهما، فنزل: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ (سورة النساء: ٤٣) فتركها بعض، وقال بعض: نشربها ونقعد في بيوتنا حتّى لا نضرّ أحدًا، وشربها بعض حين لا تضرّ بالصلاة، حتّى نزل ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ... فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقالوا: انتهينا يا ربّنا. وذلك سنة ثلاث من الهجرة.

(سبب النزول) فقال أبو بكر وغيره: كيف حال من مات وقد شربها، وأكل الميسر من المؤمنين يا رسول الله؟ فنزل قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ الأحياء والأموات ﴿**جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا**﴾ أكلوا مِمّا لم يحرم ولو حرم بعدُ كالخمر والميسر، والطعم شامل للشرب كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي الماء ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (سورة البقرة: ٢٤٧). وَقِيلَ: نزلت الآية في الردّ على الذين أرادوا الترهُّب وقد مرّ ذكرهم. ﴿**إِذَا مَا اتَّقَوا**﴾ ما نزل تحريمه عليهم ﴿**وَّآمَنُوا**﴾ ثبتوا على الإيمان، أو ازدادوا إيمانًا، ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ ثبتوا على عملها، أو ازدادوا منها ﴿**ثُمَّ اتَّقَوا**﴾ ما حرِّم بعدُ وهم أحياء كالخمر والميسر، ﴿**وَّآمَنُوا**﴾ بتحريمه.

﴿**ثُمَّ اتَّقَوا**﴾ داموا على اتّقائهما واتّقاء سائر المعاصي. والجُناح في ترك الاتّقاء والإيمان وعمل الصالحات، لا في تناول المباح عند الترك، لذلك فقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا...﴾ الخ لم يذكر لتقييد نفي الجناح عنهم بتحقُّق الإيمان والتقوى والعمل الصالح، بل ذُكر لمدحهم، فإنّه تَمَّ جواب سؤال: كيف حال إخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟ في قوله: ﴿طَعِمُوا﴾ بدليل: ﴿**وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ فإنّه لا يناسب الختمَ به كونُ قوله:

﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا...﴾ الخ قيدًا لنفي الجناح بتحقُّق الإيمان وما بعده، ويحتمل أن يكون التكرير باعتبار ما قبل زمان تحريم الخمر والميسر، وزمان تحريمهما، وما بعد تحريمهما، أو زمان الشباب وزمان الكهولة وزمان الشيخوخة، أو زمان ابتداء الإيمان، وزمان الوفاة وما بينهما.

والمراد: أحسَنوا على الاستمرار والثبات على الاتِّقاء، والترتيب في ذلك باعتبار الزمان، ويجوز أن يكون باعتبار الرتبة، لأنَّ الثبوت على الشيء فوق إحداثه، قال:

لِكُلٍّ إلى جنب العُلاحَرَكَاتٌ وَلَكن عَزيزٌ في الرجَالِ ثَبَاتُ

[قلت] ومن تراخي الرتبة، فأولاها ترك المُحَرَّم خوف العقاب أو رجاء للجنَّة، وبعده ترك الشبهات أن لا يقع في الحرام، وبعد هذا ترك بعض المباح تحفُّظًا عن الخسَّة وتهذيبًا عن دنس الطبع، أو مرتبةُ خلوِّه ثمَّ مرتبة اجتماعه مع الناس، ثمَّ مرتبة خلوِّه مع ربِّه يستعمل التقوى والإيمان فِيهِنَّ، أو مرتبة الإيمان التقليديِّ ثمَّ اليقينيِّ ثمَّ العيانيِّ، أو التقوى الأولى: ترك الحرام، والثانية: الدوام عليه، والثالثة: انتفاء الظلم.

وفي الحديث: «**الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»[1]، والتقوى تَتَبَيَّنُ في الأمر الصعب، وفي الأمر السهل، فاختبر الله في السهل المسلمين بتحريم الصيد وهم مُحْرِمُون مع رسول الله ﷺ بالعمرة وقت الحديبيَّة، وكثُر عليهم حتَّى كان يقع في رحالهم ويتمكَّنون من أخذه باليد والضرب بالسيف والطعن بالرمح، كما اختبر بني إسرائيل بتحريم صيد البحر في السبت وأرسله عليهم حتَّى كاد يغطي وجه الماء كما قال:

١- تَقَدَّمَ تخريجه في الجزء الأوَّل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَالِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَالِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

الصيد في حالة الإحرام وجزاء صيد البرّ

﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ فالآية نزلت قبل الحديبيَّة وجعلت في هذا المحلِّ، والسورة مَدَنِيـَّة، إلاَّ ﴿اِلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ الخ (سورة المائدة: ٤)، فمكيٌّ، وقيل: نزلت في حجَّة الوداع بين مكَّة والمدينة، أي والله لَيُعاملنَّكم معاملة المختبَر بتحريم شيء ثابت من الصيد البرِّيِّ، أي هو الصيد البرِّيُّ، أو بعض مطلق الصيد، والبعض هو البرِّيُّ.

والصيد بمعنى الوحش، والمراد: المأكول وغير المأكول، لا بمعنى الاصطياد، لأنَّ الوصف بأنَّه تناله الأيدي والرماح لا يناسبه متبادر أو لو احتمله، بمعنى

تحصل الأيدي والرماح اصطياده. وعن ابن عبَّاس: الذي تناله الأيدي فراخ الطير وصغار الوحش والبيض والضعيف بمرض أو غيره، والذي تناله الرماح الكبار الصحاح، وقيل: الذي تناله الأيدي والرماح صيد الحرم، لأنَّه يأنس بالناس ولا ينفر كما ينفر بالحلِّ، وقيل: ما قَرُب وما بَعُد. وذكر بعضٌ أنَّه خصَّ الأيدي بالذكر لأنَّها أعظم تصرُّفاً في الاصطياد، وفيه تدْخل الجوارح والحبالات وما عمل بالأيدي من فخاخ وشباك، وخصَّ الرماح بالذكر لأنَّها أعظم ما يجرح به الصيد ويدخل فيه السهم ونحوه.

﴿**لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَّخَافُهُ, بِالغَيْبِ**﴾ أي ليعلم أولياء الله أو جند الله، فالتجاوز بالحذف، أو العِلم مجاز في معنى التمييز، لأنَّ العلم بالشيء يستلزم تمييز ذلك الشيء، وتمييزه ـ بكسر الياء ـ مستلزم لظهوره ولتميُّزه ـ بضمِّ الياء ـ وعِلمُه سببٌ لإظهاره، وإظهاره سبب لظهوره، فذلك مجاز لغويٌّ بمرتبتين.

(أصول الدين) أو المعنى ليعاملنَّكم معاملة من يمتحن الشيء ليعلمه، أو المعنى: ليتعلَّق علمه الأزليُّ بمن يخاف، فالحدوث في التَّعَلُّق لا في العلم، فالمتجدِّدُ: المعلوماتُ وحدوثُها لا العلمُ، فالعلم مجازٌ عن تعلُّقه بالمعلوم على طريق الملزوم أو السبب، وإرادة اللازم أو المُسَبَّب، أي لِيَتَعلَّقَ علمه الأزليُّ بوجود الخائف من عقابه تعلُّقه به قبل وجوده بأنَّه سيوجد، **وعلمه أزليٌّ ذاتيٌّ لا يَتَجَدَّدُ، لأنَّ صفته هو**، والغيب غيب عقابه أو عدم مشاهدته الله، فمن خاف مع الغيب فهو قويُّ الإيمان، مع أنَّ الصيد ليس بأمر عظيم على النفوس كما يعظم عليها القتل وبذل المال، بل هو أمر حقير قليل كما أشار إليه بقوله:

﴿بِشَيْءٍ﴾، فمن لم يثبت عند الأمر الحقير فكيف يثبت عند العظيم، وذلك لضعف إيمانه فيرتكب المحذور فيعاقب.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد بيان أنَّ ما وقع من كثرة الوحش بحضرتهم ابتلاء؛ وَقِيلَ: بعد التحريم والنهي، ورُدَّ بأنَّ التحريم والنهي ليسا أمراً حادثاً ترتَّب عليه الشرطيَّة بالفاء؛ وَقِيلَ: بعد الابتلاء، وردَّ بأنَّ الابتلاء نفسه لا يصلح مدار العذاب.

﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة بالنار وفي الدُّنيا بالتعزير، فإنَّه يضرب ظهره وبطنه ضرباً وجيعاً ليرتدع هو وغيره، كما روي عن ابن عبَّاس، وروى قومنا عنه أَنَّهُ تنزع ثيابه.

(فقه) والصيد عندنا وعند أبي حنيفة الممتنع المتوحِّش ولو حرِّم أكله أو كره كالأسد والذئب، فمن صاده ضمن قيمته، وقال زفر: شاة، والتفصيل في الفروع، وقال الشافعيُّ: الصيد اسم لِمَا يؤكل فلا جزاء عنده على محرَّم الأكل، ويدلُّ لنا قول عليٍّ:

صيد الملوك أرانب وثعالب وإذا ركبت فصيدي الأبطال

والثعالب من السباع، وَقِيلَ: لا. ويجوز رجوع الإشارة إلى النهي عن الصيد، أو إلى تحريمه، وجاز إلى الابتلاء لترتُّب عذاب المتعدِّي عليهنَّ، إذ لو لم يكن نهي وتحريم لم يتصوَّر الاعتداء فضلاً عمَّا يترتَّب عليه من العذاب الأليم، ولو لم يكن الابتلاء لم يكن الاعتداء، ولـمَّا كان الابتلاء وهو التكليف ترتَّب الاعتداءُ فالعذابُ.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ﴾ مأكولاً أو غير مأكول، وخصَّ الشافعيُّ ذلك بالمأكول لأنَّه الغالب فيه عرفًا، لأنَّه روي مرفوعاً: «**خمسة يُقتلن في الحل والحرم: الحدأة، والغراب، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور**»[1]، ويروى «**الحيَّة**» بدل العقرب. ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ جمع حرام، إمَّا بمعنى ممتنع بالإحرام بالحجِّ أو العمرة أو بهما، أو بكونهم في الحرم، فإنَّهم نهوا عن قتل الصيد في الحرم ولو كانوا حلالاً، وعن قتل الصيد في الحلِّ إن أحرموا بذلك.

(فقه) وسواء القتل بذكاة شَرعِيَّة أو بغيرها، وإذا ذكَّى المحرِم صيد الحلِّ بذبح أو نحر أو برمي أو جارحة فهو ميتة لا يحلُّ، وَقِيلَ: حلال لغير المحرم، وعلى كلِّ حال عليه الجزاء. وعليه الشافعيُّ كذكاة الغاصب وذكاة السارق تحلُّ عنده لغيرهما؛ والصحيح الأوَّل، لقيام المانع بالمذكِّي كقيامه بالوثنيِّ والأقلف البالغ بلا عذر، وهو الإحرام. وأمَّا ما يؤذي فجاء الحديث بقتله في الحلِّ والحرم وللمحلِّ والمحرم فلا جزاء ولا إثم.

﴿وَمَن قَتَلَهُ, مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ أو خاطئاً أو نائماً أو مغمى عليه أو سكران أو مجنوناً، أو في طفوليَّة. فيخاطَب قائمُ الطفل من مال الطفل إن لم يأمره، **والجاهل داخل في المتعمِّد، والجهل عمدٌ إذا كان الجهلُ جهلَ**

١- رواه **البيهقي** (الكبرى) في كِتَاب الحج (٢٤٤) باب ما للمحرم قتله من دوابِّ البرِّ في الحلِّ والحرم، رقم ١٠٠٣٦، من حديث ابن عمر.

ورواه **مسلم** في كِتَاب الحجِّ (٩) باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدوابِّ في الحلِّ والحرمن رقم ٦٦ (١١٩٨) من حديث عائشة.

تحريم، بعده ﷺ، أو كان الجهل في زمانه، أو بعده جهل أنَّه صيد. ومن الخطأ أن يطأه ليلاً مثلا أو يرمي إلى غيره فيصادفه، ومنه أن ينسى أنَّه محرم.

(فقه) قال الزهريُّ: نزل الكتاب بالعمد، ووردت السنَّة بالخطأ، ففي كلٍّ منهما جزاء عندنا وعند الجمهور، وليس العمد في الآية قيداً، بل إمَّا ليبنى عليه قوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾، فإنَّ الخاطئ لا وبال عليه ولا نقمة، وعليه الجزاء المبنيُّ على الإحرام أو الحرم لعظم شأنهما، فلم يسقط بالخطأ كما لا يسقط ضمان المال والنفس بالخطأ، وإمَّا لأنَّ الآية نزلت في العامد إذ عنَّ لهم في عمرة الحديبيَّة حمار وحش فطعنه أبو اليسر برمح عمدا فقتله وهو محرم، وقال أبو داود وسائر الظاهريَّة: إنَّه لا جزاء على الخطأ، وهو قول سعيد بن جبير، ورواية عن الحسن، وعنه رواية كالجمهور؛ وإمَّا لجميع ذلك من العقاب ووقوع حادثة أبي اليسر. ﴿**فَجَزَآءُ مِثْلِ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ**﴾ أي فعليه جزاء، أو فالواجب جزاء؛ والإضافة للبيان، أي فجزاءٌ هو مثلُ ما قتل، وذلك المقتول وحش، والمِثْلُ: بعض النَّعم وهو الإبل والبقر والغنم، أو «مِثْلِ» مقحمٌ، كقولك: مثلي لا يقول كذا.

والجزاء في ذلك كُلِّه: العوضُ، وهو نفس ما أعطى من النعم مماثل لِمَا قتله من الوحش.

(نحو) و«مِنَ النَّعَمِ» نعت لـ«مِثْلِ»، أو لـ«جَزَاءُ»، ويجوز أن يكون مصدرا فيتعلَّق به «مِن» وهي للابتداء، أي: فتعويضٌ من النَّعم بمِثل ما قتل من الوحش.

(فقه) والممثالة باعتبار الهيئة والخِلقة عند مالك والشافعيِّ، وباعتبار

القيمة عند أبي حنيفة، والقولان في المذهب، ويدلُّ للأوَّل أنَّ القيمة لا تكون هدياً بالغ الكعبة، ودعوى أنَّه يُشترى بها هديٌ بالغ الكعبة تكلُّف بلا دَلِيل، وخروج عن الظاهر بلا داع؛ ويدلُّ له أيضًا حكم الصحابة بنفس المماثل من النعم ببدنة في النعامة، وببقرة في حمار الوحش، وبكبش في الضبع، وبعنزٍ في غزال أنثى، وبشاة في ظبي ذكر، وبجفرة أو عناق في الأرنب واليربوع، وبسخلة في الضبِّ. وعن الشافعيِّ وغيره في الحمامة شاة لتماثلها في اللعب والهدير مع بُعد كلٍّ من الأخرى، وفي الحديث: «**الضبع صيد وفيه شاة**»[1]، وَأَوَّل من فدى طير الحرم بشاةٍ عثمان. أو المماثلة بين المقتول وبين الهدي، والطعام أكثر من المماثلة بينه وبين الصوم.

وعند أبي حنيفة يقوَّم الصيد في المكان الذي صيد فيه أو في أقرب الأماكن إليه إن لم تتحقّق له قيمة في مكانه، ويعتبر الزمان أيضاً لاختلاف القيمة بالزمان والمكان، واحتجَّ أبو حنيفة بأنَّ من الصيد ما لا مثل له في الخلقة والهيئة، فلا بدَّ فيه من القيمة، فيرجع إلى القيمة ماله مثل في الخلقة والهيئة، والجواب أن يردَّ كلُّ وحش إلى مثله من النعم بوجه ما عند الشافعيِّ ما أمكن، وعند تقدير وجود ما لا مثل له يردُّ وحده إلى القيمة على قاعدة رجوع ما لا مثل له في الضمانات إلى القيمة، كالجراد والعصفور، يصوم أو يعطي طعاماً.

فعند أبي حنيفة يُشترَى بالقيمة ما تبلغه من النعم فيذبح في مكّة أو الحرم،

١- رواه **البيهقي** (الكبرى) في كِتَاب الحج (٢٦١) باب فدية الضبع، رقم ٩٨٧٧. من حديث ابن عَبَّاس.

ورواه **الحاكم** في كِتَاب المناسك، ج١، ص ٦٢٣، رقم ١٦٦٣ (٥٥). من حديث جابر.

أو يُشْتَرَى بها طعامٌ ويُتصدَّق به لِكُلِّ مسكين نصف صاع من برٍّ أو صاع من غيره، أو صام عن كلِّ نصف صاع من البرِّ يوماً، وعن صاع من غيره يوماً، وعنده يتمُّ من عنده ما لم يبلغ منه صاعا، وفيه أنَّ في هذه تفاوتاً في العدد مجاناً، وإن لم يبلغ قيمة الهدي خيِّر بين الإطعام والصوم، وعند الشافعيِّ: يذبح المثل في مكَّة أو الحرم، أو يقوِّم المثل بالدراهم ويشتري بها طعاماً يتصدَّق به على مساكين الحرم، لِكُلِّ مسكين مدٌّ، أو صام عن كلِّ مدٍّ يوما، ويعتبر في القيمة المكان الذي قتل فيه الصيد.

﴿**يَحْكُمْ بِهِ**﴾ أي بالجزاء أو بالمثل أنَّه مماثل لكذا من النعم وأنَّ قيمته كذا، ﴿**ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ**﴾ من أهل دينكم، الجملة نعت «جَزَاءُ» وأجاز بعض الحنفيَّة العدلَ الواحدَ لقراءة محمَّد بن جعفر: «ذُو عَدْلٍ»، وجعل الاثنين حوطة، وحملها ابن جنِّي على الإمام.

﴿**هَدْيًا**﴾ حال من الهاء أو من «جَزَاءُ»، أو بدل من «مِثْلِ» على المحلِّ، على أنَّه مفعول «جَزَاءُ» أضيف إليه، وكلٌّ من البدل والحال مقدَّر لأنَّه قبل ذلك ليس هدياً بل ينوي أنَّه هدي؛ أو يقدَّر: يهدي هدياً؛ أو تمييز.

﴿**بَالِغَ الكَعْبَةِ**﴾ أي بالغاً الكعبة، فأضيف تخفيفاً، وبلوغه الكعبة بلوغه الحرم، وذبحه فيه والتصدُّق بِهِ فيه لا حيث شاء كما قيل، وقد حكم ابن عبَّاس وعمر وعليٌّ في النعامة ببدنة، وابن عبَّاس وأبو عبيدة في بقر الوحش وحماره ببقرة، وابن عمر وابن عوف في الظبي بشاة، وحكم بها ابن عبَّاس وعمر وغيرهما في الحمام لأنَّها تشبهه في شرب الماء بلا مصٍّ. جاء أعرابيٌّ إلى الصدِّيق رضي الله عنه فقال: إنِّي أصبت من الصيد كذا وكذا فما جزاؤه؟

فسأل أبو بكر أبيَّ بن كعب فقال الأعرابي: أنا آتيك أسألك وأنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وما أنكرت من ذلك؟ وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورت صاحبي، فإذا اتَّفقنا على شيء أمرناك به. ﴿أَو كَفَّارَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ﴾ عطف على «جَزَاءٌ»، والإضافة للبيان، أي كفَّارةٌ هي طعامُ مساكين.

(فقه) [الإطعام] من الحبوب الستَّة عندنا، أو من غالب قوت البلد، يشترى من ذلك بقيمة المماثل يطعمه مساكين الحرم، مدٌّ لِكُلٍّ مسكين أو مدَّان أو أربعة من غير البرِّ على ما مَرَّ، والاختيار للجاني عندنا، وقال الشافعي: إلى الحكمين، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: إذا ظهر قيمة الصيد بحكم الحكمين، وهي تبلغ هدياً، فله الخيار في الهدي والصوم والإطعام لأَنَّ التخيير رفق به، رفق به كما في كفَّارة اليمين، ولا يطعم أهل الذمَّة خلافاً للحنفيَّة، ويجوز الإطعام في غير الحرم، ومنعه الشافعي لأنَّه بدل من الهدي، وللتوسعة على سكان الحرم.

﴿أَو عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَاماً﴾ تمييز، وعدل الشيء ما يساويه، وأصله مصدر، والإشارة إلى الطعام، فيعدل صوم اليوم مداً أو مدَّين أو أربعاً على ما مَرَّ، كأنَّه قيل: قدر الطعام صياماً. ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ وجب ذلك عليه، أو شرعنا ذلك، أو جوزي بذلك ليذوق، أو يتعلَّق بما تعلَّق به خبر قوله: ﴿فَجَزَاءٌ﴾ وهو «عليه»، أو بمتعلّق «عليه»، أي: «فعليه جَزَاءُ مِثْلِ...إلخ لِيَذُوقَ»، أو «فَجَزَاءُ مِثْلِ...إلخ واجب عليه لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ» أي ثِقلَ أمْرِهِ، وأمرُه هو صيدُه محرماً أو في الحرم، وثِقلُهُ هو عقابُه، ومن ذلك: «طعامٌ وبيلٌ» أي ضارٌّ للمعدة، و«مرعى وبيلٌ» أي وخيم، والوبالُ: ثِقلُ ما يُكره. والهاء للصائد، ويجوز أن

تعود إلى الله عزَّ وجلَّ، أي: وبال مخالفة أمر الله، وهو عذابه الشديد، ولا يخفى ثِقلُ الصوم على النفس، وثِقلُ التصدُّق بالمال.

﴿عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من قتل الصيد في الإحرام أو في الحرم، إسلاماً أو جاهليَّة، أو قبل التحريم، أو في هذه المَرَّة. الصيدُ -قبل نزول قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾- مسكوت عنه فهو حلال، وكانوا يفعلونه، وما حرم إلاَّ بعد نزوله، وليس قبل ذلك معصيةً، فالعفو ليس بمعنى غفران الذنب بل هو مجرَّد عدم المؤاخذة.

وأولى من هذا أنَّ صيد المحرِم أو في الحرم محرَّم في الجاهليَّة، لأنَّهم كانوا يتعبَّدون بشرع إبراهيم، وهو يحرِّم صيدَ المحرِم والصيدَ في الحرَم، فانتهكوا ذلك، فالعفو عَلَى ظاهره.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد نزول التحريم إلى قتل الصيد ﴿فَيَنتَقِمُ﴾ أي فهو ينتقم أو فقد ينتقم، أو فليس بناج لأنَّه ينتقم، ﴿اللهُ مِنْهُ﴾ فليس الفعل هو جواب الشرط، إذ لو كان هو لسقطت الفاء وجزم. وقال أبو البقاء: حسن الفاء كون الشرط ماضياً؛ وهو قول ضعيف، وأقرب منه أنَّ الفاء في خبر الموصول العامِّ. والمُراد: ينتقم الله منه في الآخرة، مع لزوم ما تقدَّم **من الجزاء بأحد أنواعه عند الجمهور وهو الصحيح**، لا كما حكي عن ابن عبَّاس وشريح رضي الله عنهم من أنَّ عليه الانتقام دون الجزاء، حتَّى إنَّهم كانوا يسألون المستفتي: هل أصاب ذلك قبل؟ فإن قال: نعم، قالوا: اِذهب ينتقم الله منك، وإن قال: لا، قالوا له: لزمك كذا من الجزاء.

﴿وَا للهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ مِمَّن أصرَّ على عصيانه، ومن صاد بعد نزول التحريم وتاب فعليه الجزاء بأحد أنواعه دون عذاب الآخرة، وأردت بأنواعه ما في الآية كلّه.

ومن اضطرَّ فالصيد قبل الميتة ويذبحه ولاسيما إن وجده مذبوحاً، لأنَّه لو خرج من الحرم لحلَّ لغير المحرم بلا ضرورة، وقيل الميتة قبله لتعدُّد جهة المنع، لكونه محرِما وكونه صيدَ الحرم، فلا تعدُّد في صيد الحلِّ، [قلت] **والصحيح الأوَّل** وعليه الجزاء. والصيد أولى من لحم الخنزير لأنَّه حرِّم للإحرام والحرم؛ والخنزير حرِّم مطلقاً إلاَّ للمضطرِّ، والصيد أولى من لحم الآدميِّ، **والمذهب أن يموت ولا يأكل لحم الآدميِّ.**

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ كلُّ ما فيه من حيوان ولو أشبه الخنزير أو الإنسان، وهو ما لا يحيى إلاَّ بالماء ولو في الحرم، مثل أن يخلق ا لله الحوت في بركة أو ماء مجتمع فيه، وذلك كلُّه داخل في الآية، كأنَّه قيل: أحلَّ لكم هذا النوع الذي يكون في البحر سواء كان فيه أو في غيره مِمَّا لا يعيش إلاَّ في الماء.

(فقه) وأمَّا ما يعيش فيه وفي غيره مثل الضفدع والبطّ والإوزّ والسلحفاة فلا يحلُّ صيده ففيه الجزاء، وقال أبو حنيفة: لا يحلُّ للمحرم من البحر إلاَّ ما يسمَّى سمكًا أو حوتًا بأنواعه، أو أشبه حيوان البرِّ التي يحلُّ أكلها وليس كذلك، لأنَّ الآية عامَّة، وكذلك قوله ﷺ: «**هو الطهور ماؤه والحلُّ**

ميتته»[1]، وقوله: «**كلُّ ما في البحر مُذَكّى**» عامَّان.

(بلاغة) والصيد بمعنى الحيوان البحري، أو بمعنى الاصطياد، وعليه فإضافة صيد إلى البحر مجاز عقليٌّ لأنَّ البحر لا يصاد بل يصاد فيه ومنه، أو يقدَّر مضاف أي: صيد حيِّ البحر، وسائر المياه كالبحر، وقيل: ما كان من البحر أو الماء شبه الطير أو الآدمي أو غير ذلك مِمَّا ليس على صورة الحوت لا يجوز، وهو ضعيف.

﴿**وَطَعَامُهُۥ**﴾ أي طعام البحر، وهو ما مات من حيوانه فيه وطَفَا أو لم يطْفُ، فالهاء للبحر، أو جَزَر عنه البحر أو ألقاه الموج في البرِّ. ويجوز أن يكون «طَعَام» مصدر طَعِمَ يَطْعَمُ بمعنى أَكَلَ على غير قياس الثلاثي المتعدِّي، فالهاء للصيد بمعنى المصيد، أي أحلَّ لكم مصيده وأكله، أو أن تصطادوا ما فيه وأن تأكلوه، وقيل: صيد البحر الطريِّ وطعامه المملوح، وهو ضعيف لأنَّ ما حلَّ لا يحرم بقِدمه إلاَّ لعلَّة حادثة مثل الإسكار والإضرار، فالمملوح داخل في حلِّ السمك، وكذا ما مات بلا صيد لا يحرم بالقِدم.

﴿**مَتَاعًا**﴾ تعليل لقوله: ﴿**أُحِلَّ**﴾ أي تمتيعًا؛ أو مفعول مطلق، أي متَّعكم به تمتيعًا، ﴿**لَكُمْ**﴾ فـ«مَتَاعًا» اسم مصدر، بخلاف «طَعَام» فإنَّه لا حاجة إلى

١- رواه **الربيع** في كِتَاب الطهارات (٢٤) باب في أحكام المياه، رقم ١٦١ من حديث ابن عَبَّاس.

ورواه **ابن حبَّان** في صحيحه باب المياه، ذكر الخبر المدحض قول من نفى جواز الوضوء بماء البحر، رقم ١٢٤٠، من حديث أبي هريرة.

جعله اسم مصدر مع الاستغناء عنه بجعله مصدرًا، على خلاف القياس، مع ما في دعوى كونه اسم مصدر من التكلُّف لاحتياجه إلى أن يُقَدَّرَ: إطعامكم إيَّاه أنفسكم. ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ يتزوَّدونه قديدًا كما تزوَّده موسى إلى الخضر.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾ أي وحشه، فالصيد بمعنى ما يصاد.

فالوحش حرام على المحرِم صاده هو أو محرِم آخر، أو صاده من ليس محرِمًا سواء صِيدَ للمحرِم أو لغيره، أو بمعنى الاصطياد، فيحرُمُ على المحرِم الاصطياد، ويحلُّ له ما صاده غيره، ولو صاده له ما لم يعنه على اصطياده بسلاح أو غيره، **والصحيح أنَّه إذا صيد للمحرِم حرم عليه**، قال ﷺ: «**صيد البرِّ حلال لكم ما لم تصيدوه أو يصد لكم**»[1].

ويروى أنَّ أبا قتادة رأى حمارًا وحشيًّا ومعه أصحاب له محرِمون وهو غير محرم، فاستوى على فرسه فسأل أصحابه أن يناولوه رمحًا فأبوا، فأخذه ثمَّ شدَّ على الحمار فقتله، فأكل منه بعض أصحاب رسول الله ﷺ، فسأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال ﷺ: «**كل مِمَّا بقي منه**»، وهو -قيل- يدلُّ على إباحة ما صاده المحلُّ للمحرم إن لم يُعِنه المحرم بشيء ولم يشره له ولم يخبره به، **قلت**: لا يَدُلُّ على ذلك لأنَّه ليس في الحديث أنَّه صاده لهم، وذلك مذهب الجمهور، وقال غيرهم: لا يحلُّ للمحرم ولو صِيدَ لغيره.

١- رواه **أبو داود** في كِتاب المناسك، باب لحم الصيد للمحرم، رقم ١٨٥١.

ورواه **النسائي** في كِتاب المناسك، (٨١)، إذا أشار المحرِم إلَى الصيد فقتله الحلال، رقم ٢٨٢٧، من حديث جابر.

(سيرة) وفي البخاري ومسلم عن أبي قتادة الأنصاريِّ: كنت جالسًا مع أصحاب رسول الله ﷺ في منزل في طريق مكّة، ورسول الله ﷺ أمامنا، والقوم محرِمون، وأنا غير محرم، وذلك عام الحديبيَّة، فأبصروا حمارًا وحشيًّا، وأنا مشغول أخصف النعل، ولم يؤذنوني وأحبُّوا لو أبصرته فالتفتت فأبصرته، فقمت إلى الفرس فأسرجته ثمَّ ركبت ونسيت السوط والرمح، فقلت لهم ناولوهما لي، فقالوا: لا والله لا نعينك عليه، فغضبت ونزلت فأخذتهما، ثمَّ ركبت فشددت على الحمار فعقرته، ثمَّ جئت به وقد مات، فوقعوا فيه يأكلون، ثمَّ إنَّهم شكُّوا في أكلهم إيَّاه وهم حُرُمٌ، فرُحنا وخبَّأت العضد، فأدركنا رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فقال: «**هل معكم منه شيء؟**» فقلت: نعم، فناولته العضد فأكل منها وهو محرِم، وقال لهم: «**إنَّمَا هي طعمة أطعمكموها الله**»، في رواية «**هو حلال فكلوه**»، وفي رواية: «**هل منكم أحد أمره أن يحمل عليه؟ وأشار إليه**»، قالوا: لا، قال: «**كلوا ما بقي من لحمه**».

(سيرة) وروي أنَّ الصعب بن جثامة أهدى إلى رسول الله ﷺ حمار وحش ـ وفي رواية: «من لحم حمار وحش»، وفي رواية: «حمار وحش يقطر دمًا» ـ بالأبواء أو بودان، فردَّه فرأى كراهة في وجهه فقال: «**لم نردَّه عليك إلاَّ أنَّا محرمون**». وعن أبي هريرة وعائشة وطلحة وعمر: يحلُّ للمحرم أكل ما صاده المحلُّ، ولو صاده له ما لم يعنه ولم يَدُلَّه عليه ولم يعنه بشيء ولم يأمره، وقال ﷺ: «**لحم الصيد حلال للمحرم ما لم يصده أو يُصَد له**»[1].

١- رواه **أحمد** في مسنده، ج٥، ص ٢٠٠، رقم ١٥١٨٧. من حديث جابر.

﴿**مَا دُمْتُمْ حُرُمًا**﴾ محرمين، أو كائنين في الحرم ولو كنتم حلالاً.

(فقه) ولا يحلُّ للمحرم صيد الأسد ونحوه مِمَّا يحرم أكله، أو يكره، على الخلاف في حلّه أو حرمته أو كراهته، فإن صاده أو عقره فعليه الجزاء، وَقِيلَ: لم يشمله الصيد ولا جزاء عليه. ويحرم على المحرِم الوحشُ المستأنس، وقيل: لا. ولا يحلُّ له ما حيي في البحر من الوحش، وقيل: لا. ويحلُّ له ما حيي في البرِّ من الحوت.

﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ**﴾ في تحريم صيد البحر على المحرِم، أو في الحرَم، وفي استباحة صيد الحرم، واستباحة صيد الحلِّ للمحرم، وفي جميع الجائزات والمحرَّمات إفراطًا أو تفريطًا، ﴿**الذِي إِلَيهِ**﴾ لا إلى غيره ﴿**تُحْشَرُونَ**﴾ فلا ملجأ لكم منه.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

مكانة البيت الحرام والشهر الحرام، والترهيب من عقاب الله

﴿جَعَلَ اللهُ﴾ صيَّر الله ﴿الكَعْبَةَ البَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا﴾ مفعول ثان، أو خلق الله الكعبة فـ«قِيَامًا» حالٌ، أي قائمة أو تقوم قيامًا، ﴿لِّلنَّاسِ﴾ معناه ارتفاعًا لهم عن الضعف يلوذ به الخائف من عدوِّه، ولو قتل أباه أو ابنه ولو لقيه، ويأمن فيه الضعيف من أن يُظلم، وتجبى إليه ثمرات كلِّ شيء، يربح فيه التاجر لاجتماع الناس فيه من الآفاق.

أو معناه نظامًا لدينهم يتوجَّه إليه الحجَّاج والعمَّار لدينهم، فإذا هدم وترك حجُّه هلك الناس، أو معناه ذلك كُلّه: أي شيئًا يقوم به أمر دنياهم ودينهم. يقال: كان في الناس ملوك يدفعون عنهم ولا ملك للعرب، وجعل الله عزَّ وجلَّ لهم الكعبة شرفًا وأمنًا. وذكره الطبريُّ وابن أبي حاتم.

(لغة) والياء عن واو لانكسار ما قبلها، والعرب تسمِّي كلَّ بيت مربَّع كعبة لارتفاعه عن الأرض، وأصله الخروج عن الاختفاء، ولا يشرط الطول، ومنه تكعُّب الثدي، وكعبُ القدم، أو سمِّي لتربُّعه ولو كان فيه بعض طول، باعتبار حال الحجر الحطيم قبل إخراجه، أو سمِّيت لارتفاع شأنها عند الله وعند الناس، يقال للعظيم: علا كَعْبُه.

(نحو) و«البيت» عطف بيان، أو بدل، أو مفعول ثان، و«قيامًا» حال أو مفعول مطلق؛ ولا نسلِّم أنَّ شرطَ عطفِ البيانِ المدحُ أو الذمُّ، ولو سلَّمنا لقلنا بوجود المدح بنعت البيت بالحرام وبكونه البيتَ المعتدَّ به عند الله، وكونه بيت الله، وذلك ردٌّ على خثعم إذ بنوا بيتًا سمَّوه "الكعبة اليمانية"، وعلى ربيعة إذ بنوا بيتًا سموه "ذا الكعاب"، والمُراد بـ«الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ»: الحرَم كُلُّه.

﴿وَالشَّهْرَ الحَرَامَ﴾ أراد الجنس، وهو ذو القعدة، وذو الحجَّة والمحرَّم، وهنَّ سرد، ورجب وهو فرد، لا قتال في الجاهليَّة وفي الإسلام عند دخولهنَّ حتَّى نسخ تحريم القتال فِيهِنَّ، وَقِيلَ: المُراد ذو الحجَّة، وهو أنسب بالمقام، وهو وما بعده معطوفان على الكعبة، فقيامًا عائد إلى الكلِّ، وهنَّ في نية التقديم عليه، [قلت] وهذا أولى من أن يُقَدَّرَ لِكُلٍّ واحد من الثلاثة لفظُ «قيامًا» أو لهنَّ معًا لفظ «قيامًا».

ومَعنَى كون الشهر الحرام قيامًا أنَّه لا يتعرَّض في الأشهر الحرم لقتل أو غارة، ويُزال الخوف ويحجُّون ويتَّجرون آمنين، وذلك منافع للدنيا والآخرة.

﴿وَالهَدْيَ﴾ معنى كونه قيامًا أنَّه منفعة لفقراء الحرم يأكلونه ﴿وَالقَلآئِدَ﴾ أي ذوات القلائد، وهي أخصُّ من الهدي، خصَّت بالذكر لمزيد شرفها ثوابًا، ومزيد ظهور شعار الحج بها، وكانوا لا يتعرَّضون لسائق الهدي ولاسيما صاحب الهدي المقلَّد، ولو في غير الأشهر الحرم، ولا للهدي، ويموت أحدهم جوعًا ولا يتعرَّض للهدي، وكذا صاحب الهدي لا يتعرَّض للهدي ولو يموت جوعًا، وذلك تعظيم لبيت الله الحرام بإذن الله، وذلك من دين أبيهم إسماعيل وأبيه إبراهيم.

أو يقدَّر: «وذوي القلائد»، إذ كان أحدهم إذا قلَّد نفسه لحاء الشجر أو الشعر ذاهبًا إلى الحجِّ أو العمرة أو زائرًا أو راجعًا من ذلك لا يتعرَّضون له احترامًا للبيت، فالأولى أن لا تقدير فيعمُّ المقلَّد من البهائم ومن الناس، فنفس تلك القلائد قيام للناس مانعة لهم إذا تقلَّدوها ولأنعامهم إذا قلَّدوها.

﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ شَرَعَ اللهُ ذلك لتعلموا، ومن أجاز الإخبار بالجارِّ

التعليلي ومجروره أجاز أن يكون «ذَلِكَ» مبتدأ خبره «لِتَعْلَمُوا» أو خبره محذوف، أي مشروع لتعلموا، والإشارة عائدة إلى الجعل، أو إلى حفظ حرمة الإحرام و غيره.

﴿**أَنَّ ا للهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ وَأَنَّ ا للهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ تعميم بـ«كُلِّ شَيْءٍ» بعد تخصيص بـ«مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ». تُعلم صفات ا لله بأفعاله لإتقانها، فنعلم بشرعه الأحكام لدفع المضارِّ قبل وقوعها، وجلب المنافع المُتَرَتِّبَة عليها، لأنَّه حكيم كامل العلم والقدرة؛ وقيل: المُراد بِـ«كُلِّ شَيْءٍ» الأمورُ المتعلّقة بما في السماوات والأرض.

﴿**اِعْلَمُواْ أَنَّ ا للهَ شَدِيدُ العِقَابِ**﴾ لعصاته المصرِّين، ﴿**وَأَنَّ ا للهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ للمطيعين والتائبين، قال ﷺ: «**ولو يعلم المؤمن ما عند ا لله من العقوبة ما طمع في الجنَّة، ولو يعلم الكافر ما عند ا لله من الرحمة ما قنط من الجنَّة**»[1].

﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ**﴾ محمَّد، ﴿**إِلاَّ البَلاَغُ**﴾ إلاَّ تحصيل البلاغ، أو اسم للإبلاغ كالعطاء بمعنى الإعطاء، هو [أي الرسول] قضى ما عليه فلم يبق إلاَّ إثابة المطيع وعقاب العاصي، ولا عذر للعاصي بعد التبليغ. ﴿**وَا للهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ**﴾ من فعل واعتقاد وتصديق وتكذيب، ﴿**وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾ من ذلك، فتثابون على الطَّاعة من ذلك وتعاقبون على المعصية.

١- رواه **مسلم** في كِتَاب التوبة، (٤) باب في سعة رحمة ا لله تَعَالَى وَأَنَّهَا سبقت غضبه، رقم ٢٣. ورواه **الترمذي** في كِتَاب الدعوات (١٠٦)، باب خلق ا لله مائة رحمة، رقم ٣٥٤٢ من حديث أبي هريرة.

﴿**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ**﴾ من المكلَّفين والأعمال والأقوال والاعتقادات والأموال، ﴿**وَالطَّيِّبُ**﴾ من هؤلاء، ودخل في ذلك المؤمن والكافر والحلال من الأموال والحرام، ﴿**وَلَوَ اَعْجَبَكَ**﴾ سَرَّك أيُّها الدنيويُّ المطلق، وليس خطابًا للنبي ﷺ، وَقِيلَ: له والمُراد أُمَّتُه. ﴿**كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**﴾ لأنَّ العبرة بالجودة ولو مع قِلَّة، لا الخبث ولو مع كثرة، والجملة قبل «لَوْ» أغنت عن جوابه، والواو عاطفة على محذوف، أي: لو لم تعجبك كثرة الخبيث ولو أعجبتك، وللحال، فيفهم حكم عدم الإعجاب بالأولى، فإنَّه إذا لم يستويا مع الإعجاب فكيف إذا انتفى الإعجاب؟. ويدلُّ على أنَّ الكاف للعموم البدليِّ قولُه تعالى:

﴿**فَاتَّقُواْ اللهَ**﴾ بترك الخبيث وفعل الطَّاعة، ﴿**يَآ أُوْلِي الاَلْبَابِ**﴾ العقول الخالصة. ومِن التقوى تركُ التعرُّض للحاجِّ ولو مشركًا بالقتل والغنم.

(سبب النزول) كما روي أنَّهم أرادوا قتل قوم مشركين من أهل اليمامة جاءوا إلى الحجِّ بتجارة عظيمة فنزلت الآية، وقيل: سأل رجل رسول الله ﷺ عن مال جمعه من تجره في الخمر هل ينفعني إن عملت فيه بطاعة الله عزَّ وجلَّ؟ فقال ﷺ: «**لو أنفقته في حجٍّ أو جهاد لم يعدل جناح بعوضة، إن الله لم يقبل جناح بعوضة، إنَّ الله لا يقبل إلاَّ الطَّيِّب**»، فنزل قول الله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ...﴾ إلخ، ولعلَّ الرجل اتَّجر بها بعد تحريمها جهالة أو عمدًا وهو مُوَحِّد؛ وَقِيلَ: الأمر ذلك، ولو اتَّجر بها قبل إسلامه فيكون حجَّة على تحريم ما وجد من ثمن الخمر سابق على التوحيد، ﴿**لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ**﴾ ولا فلاح بلا تقوى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾

النهي عن كثرة السؤال فيما لم ينزل به الوحي

﴿يآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنَ اَشْيَآءَ﴾

(صرف) منع الصرف [في «أَشْيَاءَ»] لألف التأنيث المقلوبة همزة الممدودة بألف قبلها، وهما الألف والهمزة الأخيران، والهمزة الأولى هي لام الكلمة، وهي همزة المفرد، بل هو اسم جمع لشيء، فوزنه "لفعاء" وأصله "شَيْئَاء" بوزن فعلاء بفتح الشين وإسكان الياء بعدها همزة وبعد الهمزة ألف وبعد الألف همزة أخرى؛ قدِّمت الهمزة الأولى على الشين استثقالاً لهمزتين بينهما ألف وقبلهما حرف علَّة وهو الياء، ولو كان وزنه "أفعالاً" بأصالة الهمزة الأخيرة وزيادة الأولى والألف قبل الثانية لصُرِّف، ودعوى المنع تخفيفًا لا دَلِيل لها. وَقِيلَ: وزنه "أفلاء" بحذف عين الكلمة، وأصله "أَشْيِئَاء" بوزن "أَفْعِلاَء" جمع شيء على غير قياس، أو جمع "شَيِّئ" بشدِّ الياء كـ"هَيِّن" خفِّف على غير قياس لأنَّه غير وصف، قلبت الهمزة التي قبل الألف ياء وحذفت الياء الأولى، أو حذفت الهمزة التي بعد الياء فوزنه "أَفْعَاء"، **والصحيح ما ذكرته أوَّلاً** وهو قول الخليل وسيبويه والمازني وجمهور البصريِّين، وفي قولِ إنَّه كَـ"هَيِّن" قولان: إنَّه "فَعْيِل" وحذفت الياء، والآخر إنَّه "فَيْعِل".

وجملة قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ**﴾ نعت لـ«أَشْيَاءَ»، أي عن أشياء، دائرة بين: «إن تظهرْ فتسوءَكم لمشقَّتها»، وبين: «إن تسألوا عنها يَنزِلِ القرآنُ ورسولُ ا لله بين أظهركم فتظهرَ لكم»، وحاصله أنَّكم تسألون عنها فيظهرها القرآن فتسوؤكم لوجوب القيام بما نزل ولو شاقًّا وأنتم سبب لنزول سؤالكم[١]، فلا تسألوا عمَّا لم ينزل حكمه، واسكنوا حتَّى ينزل شيء فاسألوا عن تفسيره إن لم تفهموه، أو عن كَيفِيَّة أدائه ونحو ذلك، **والعاقل يسأل عمَّا يهمُّه ولا يشتغل بما يغمُّه.**

ولا نحتاج إلى دعوى أنَّ الجملة الثانية في معنى التقديم، لأنَّ الواو لا ترتِّب، فلا فرق بين التقديم والتأخير، ولكن ذكرت الأولى أوَّلاً لفائدة الزجر عن السؤال عمَّا لم تمسَّ الحاجة إليه؛ قيل: فيجوز أن يقدَّر مضاف أي: وإن تسألوا عن غيرها مِمَّا مسَّت إليه الحاجة؛ أو حال، أي وإن تسألوا عنها وقد مسَّت إليه الحاجة، أو «ها» لأشياء أخر غير ما ذُكر على الاستخدام، أي: وإن تسألوا عن أشياء حين نزول القرآن من تحليل أو تحريم، أو مَسَّت حاجة إليه، أو لتفسيره «تُبدَ لكم» كهاء: ﴿جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ (سورة المؤمنون: ١٣) عادت إلى ابن آدم، والمذكور قبلها آدم، وما ذكرته أوَّلاً أولى. وقوله: ﴿لاَ تَسْأَلُوا﴾ كالنتيجة للشرطيَّتين بعده.

وقوله: ﴿**عَفَا ا للهُ عَنْهَا**﴾ نعت آخر لـ«أَشْيَاءَ» أو حال من أحد ضمائر «أَشْيَاءَ»، أي أشياء مُتَّصِفة بأنَّ ا لله عفا عنها، و لم ينزل تكليف بها.

(سبب النزول) كما روي أنَّه لـمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَ لِلهِ عَلَى

١- لَعَلَّ صواب العبارة: «وأنتم سؤالكم سبب للنزول».

النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ...﴾ الآية (آل عمران: ٩٧) قال عيينة بن حصن أو سراقة بن مالك: الحجُّ علينا واجب في كلِّ عام؟ فأعرض عنه ﷺ حتَّى أعاد ثلاثًا، فقال: «**لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لـمَا استطعتم، فاتركوني ما تركتكم**»، فنزلت: ﴿لاَ تَسْأَلُوا...﴾ الآية. ومن ذلك ــ بلا نزول قرآن ــ أنَّه قيل له ﷺ: أين مكان أبيك في النَّار؟ فقال: «**مع مكانك في النَّار**»؛ وادَّعى بعض أنَّه قال: أين أبي؟ فقال: «**في النار**»؛ وأنَّه قال له قائل متعنِّتا: بِمَ حملَت ناقتي؟ فقال ﷺ: «**حملت منك**».

ويجوز كون قوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْهَا﴾ مستأنفًا على أنَّ الضمير للمسألة المفهومة من «تَسْأَلُوا»، أي عفا عن مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها. وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه ﷺ كان يخطب ذات يوم غضبان من كثرة سؤالهم عمَّا لا يعنيهم، فقال: «**لا أُسأل عن شيء إلاَّ أجبت**»، فقال رجل: أين أنا؟ فقال: «**في النار**»، وقال آخر: من أبي؟ فقال: «**حذافة، وكان قبل ذلك يدعى لغيره**»، فقال عمر: أعوذ با لله من سخط ا لله، فنزلت الآية.

واسم ابن حذافة عبد ا لله، ولـمَّا رجع إلى أمِّه قالت: ما سمعت قطُّ بأعقَّ منك، فَضَحتَ أمَّكَ بما فعلَته في الجاهليَّة على أعين الناس. فقال: لو ألحقني بعبد أسود للحقته، وفي رواية قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: رضينا با لله ربًّا، وبالإسلام دينا، وبمحمَّد ﷺ نبيئا، نعوذ با لله من الفتن[1].

١- رواه **البخاري** في كِتاب الاعتصام (٠٣)، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلُّف ما لا يعنيه، رقم ٦٨٦٤، من حديث أنس.

﴿وَا للهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يعفو عن كثير ولا يعاجلكم بالعقاب.

﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ الضمير للمسألة، فهو مفعول مطلق، وذلك استخدام لأنَّ المسؤول هنا للأمم السابقة غير ما تقدَّم لهذه الأمَّة، أو الضمير للأشياء على الاستخدام، لكن هذا على الحذف والإيصال، أي سأل عنها، أو يقدَّر مضاف في الوجهين، أي سأل مثل تلك المسألة أو عن مثل تلك الأشياء، وحذفه مبالغة، كان سؤالهم سؤال قوم سابقين عوقبوا به. وَقِيلَ: السؤال طلب العطاء، أي طلبوا تلك المسائل. ﴿قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾ متعلّق بـ«سَأَلَ»، أو نعت، لأنَّ الزمان يكون صلة لموصول جثة أو نعتًا لها أو حالاً أو خبرًا لها إذا أفاد، وهنا أفاد.

﴿ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ﴾ إذ خالفوا ما أُمروا به أو نهوا عنه، كما سأل ثمود ناقة، واليهودُ رؤيةَ ا لله جهرة، وسألوا عن البقرة حتّى اشتروها بملء جلدها ذهبًا، وزعم بعض أنَّ المُراد سؤال قريش تحويل الصفا ذهبًا، فلو تحوَّلت ذهبًا فلم يؤمنوا لهلكوا كأصحاب المائدة، وبعضٌ أنَّ المُراد سؤال قريش عن أنسابهم فيكذّبوه؛ وَقِيلَ: المراد بنو إسرائيل لكثرة سؤالهم لأنبيائهم ومخالفتهم لهم، والنصارى المائدةَ فعوقبوا إذ خالفوا، وكان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم فإذا أجيبوا خالفوا. والباء متعلّق بـ«كَافِرِينَ» قدِّم للفاصلة والتحذير، والكفر بمضمونها من المخالفة أو الباء سببيَّة.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

النهي عمَّا حرَّمه الجاهليُّون من الماشية والإبل

﴿**مَا جَعَلَ ا للهُ**﴾ أي ما شرع، ولذا تعدَّى لواحد وهو ما جُرَّ بـ«مِن» التي هي صلة للتأكيد في قوله: ﴿**مِنۢ بَحِيرَةٍ**﴾ مجرورة ﴿**وَلاَ سَآئِبَةٍ**﴾ أي منسرحة، وَقِيلَ: بمعنى مفعول، والصحيح الأوَّل، مطاوع سيبها، ﴿**وَلاَ وَصِيلَةٍ**﴾ واصلة ﴿**وَلاَ حَامٍ**﴾.

هذه الآية مناسبة لِمَا قبلها، فإنَّ فيها التزام ما لم يلزم، كما أنَّ تلك سؤال عمَّا لم يوحَ.

(لغة) والبحيرة: ناقة تلد خمسة أبطن آخرهنَّ ذكر، يبحرون أذنها أي يشقونه، ويخلون سبيلها، فلا تُركب ولا يُحمل عليها ولا يُجزُّ وبَرُها ولا تُنحر، وجعلوها للأصنام، ولا تُطرد عن ماء ولا مرعى؛ وَقِيلَ: إن كان الخامس أنثى أبقوه وشقُّوا أذن أمِّه وفعلوا ما مَرَّ، وإن كان ذكرًا ذبحوه للأصنام وتركوها ينتفعون بها، وسمَّوها بحيرة على هذا لاتساعها بالأولاد؛ وَقِيلَ البحيرة: الأنثى خامسة أولادها يحرِّمون على النساء لبنها وصوفها وسائر منافعها، وإذا ماتت حل لهنَّ أكلها، وَقِيلَ البحيرة: بنت السائبة يشقُّون أذنها ويتركونها ترعى

مع أمها وتَرِد الماء ولا تُركب، وَقِيلَ: التي يترك لبنها للأصنام، وَقِيلَ: التي تترك في المرعى بلا راع، وَقِيلَ: التي ولدت خمس إناث، ويجمع باختلاف مذاهب العرب.

والسائبة: التي يقول فيها: «إن شُفيت من مرض أو قدم غائبي أو شفي مريضي فهي سائبة»، ولا ينتفع بها كالبحيرة، سمِّيت لأنَّها تَسِيب حيث شاءت. وَقِيلَ: التي ولدت عشر إناث لا ينتفع بها، وَقِيلَ: التي تترك للأصنام، وكان الرجل يجيء بماشيته فيتركها عند الصنم ويبيح لبنها، وَقِيلَ: الناقة التي تترك ليحجَّ عليها، وَقِيلَ: العبد يعتق على أن لا يكون عليه ولاء ولا عقل ولا ميراث.

والوصيلة: الشاة تلد سبعة أبطن عَناقين، وإذا ولدت في آخرها عناقًا وجَدْيًا قيل: وصلت أخاها، فجرت مجرى السائبة، وَقِيلَ: إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتم، وإن ولدتهما قالوا: وصلت الأُنثى أخاها فلا يذبح لها الذكر، وقيل: الشاة تنتج سبعة أبطن، فإن كان السابع أنثى لم تنتفع النساء منها بشيء إلاَّ أن تموت فيأكلها الرجال والنساء، وإن كان ذكرًا ذبحوه وأكلوه جميعًا، وإن كان ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبح ولا ينتفع به إلاَّ الرجال، وقالوا: ﴿خالصة لذكورنا ومحرَّم على أزواجنا﴾(سورة الأنعام: ١٣٩)، وقيل: الشاة تنتج عشر إناث متواليات في خمسة أبطن وما ولدت بعد ذلك فللذكور، وَقِيلَ: الشاة تنتج خمسة أبطن أو ثلاثة، فإن كان جديًا ذبحوه، وإن كان أنثى أبقوه، وإن كان ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها.

وقيل الوصيلة: الناقة تبكر فتلد أنثى، ثمَّ تثني بولادة أنثى أخرى ليس بينهما

ذكر فيتركونها لآلهتهم ويقولون: قد وصلت أنثى بأنثى ليس بينهما ذكر.

والحامي: كالقاضي وحامٍ كقاضٍ أي منع ظهره، وهو الفحل يولد لولد ولده لا يركب ولا يحمل عليه ولا يستعمل ولا يطرد عن مرعى ولا ماء ولا شجر؛ وَقِيلَ: الفحل يولد من بين أولاده ذكورها وإناثها عشر إناث؛ وَقِيلَ: الفحل يولد من صلبه عشرة أبطن فيقولون: قد حمى ظهره فيكون كالسائبة؛ وَقِيلَ: الفحل يضرب[1] في مال صاحبه عشر سنين؛ وَقِيلَ: الفحل ينتج له سبع إناث متواليات، وذلك باختلاف مذاهب العرب.

وفي البخاري عن سعيد بن المسيّب: البحيرة التي يمنح درُّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، [أي: إلاّ خُدَّامها].

والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يُحمل عليها شيء.

إلىَ أن قال: والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أوَّل نتاج الإبل بأُنثى ثمَّ تثني بعد بأُنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأُخرى ليس بينهما ذكر.

والحام: فحل الإبل يضرب الضِّراب المعدود [أي: عشر مرَّات ولو لم يصلح الحمل بل سقط أو فسد]، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأَعفَوه من الحمل، فلا يحمل عليه شيء وسمَّوه الحامِيَ[2].

١- أي يستمِرّ ويبقى يلقح به الأناث، وضراب الفحل ماؤه. **لسان العرب.**

٢- رواه **البخاري** في كِتَاب التفسير (١٢٠) باب: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ...﴾ إلخ، رقم ٤٣٤٧، من حديث سعيد بن المسيّب.

﴿وَلكِنَّ الذِينَ كَفَـرُواْ يَفْـتَرُونَ عَلَـى ا للهِ الكَـذِبَ﴾ يفرضـون ويقطعـون على ا لله الكذب، أو يكذبون علـى ا لله الكـذب بتحريـم البحـيرة ومـا بعدهـا، ونِسْبَته إلىَ ا لله عـزَّ وجـلَّ، وهـم علمـاؤهم ورؤسـاؤهم وأسـلافهم، وقلَّدتهـم عامَّتهم كما قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ ذلك افتراءٌ بل توهَّموا أنَّـه حـقٌّ، فقلدوهم لقصر عقولهم وعدم التفكُّر بها؛ أو أراد أنَّ أكـثرهم لا يعقلـون ذلـك، والقليل يعقلون بطلانه، ومنعهم حبُّ الرئاسة عن أن يعترفوا بالبطلان.

قال أبو هريـرة: سمعـت رسـول ﷺ يقـول لأكتـم بـن الجـون: «**يـا أكتـم عُرضَت عليَّ النَّارُ فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة بن خنـدق يجرُّ قُصْبَـه في النَّار، فما رأيت رجـلاً أشـبه برجـل منـك بـه ولا بـه منـك**» فقـال أكتـم: أخشى أن يَضُرَّنـي شبهه يـا رسـول ا لله، فقـال رسـول ا لله ﷺ: «**لا، إنَّـك مؤمن وإنَّـه كافر، إنَّـه أوَّل من غيَّر دين إبراهيم عليه السَّلام، وبـحَّر البحـيرة وسيَّب السائبة وحمى الحامي**»[١] وعن ابن عبَّاس «**ووصل الوصيلة**».

وقال ﷺ: «**إنِّي لأعـرف أوَّل مـن سـيَّب السـوائب ونصـب النصـب، وَأَوَّل من غيَّـر دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام**» قـالوا: مـن هـو يـا رسـول ا لله؟ قال ﷺ: «**عمرو بن لحي أخو بني كعب لقد رأيته يجرُّ قُصْبه في النَّـار**[٢] **يؤذي أهل النَّار ريح قُصبِه**» وإنـي لأعرف أوَّل من بــحَّر البحـائر، قـالوا: مـن

١- رواه **الحاكم** المستدرك، كِتَاب الأموال، ج٤، ص ٦٤٨، رقم ٨٧٨٩ (١٤٤)، من حديث أبي هريرة.

٢- القصب بضمٍّ فإسكان: المِعَى، وَقِيلَ: أسفل البطن من الأمعاء. اهـ. **اللسان**.

هو يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«رجل من بني مدبح كانت له ناقتان فجذع آذانهما وحرَّم ألبانهما وظهورهما وقال: هاتان لله، ثمَّ احتاج إليهما فشرب ألبانهما وركب ظهورهما، فلقد رأيته في النّار، وهما تقضمانه بأفواههما وتطآنه بأخفافهما»**[1].

(أصول الدين) [قلت] ذلك دَلِيل على أنَّ الكفّار مخاطبون بفروع الشريعة، إذ عوقب من فعل ذلك متَّبعًا لذلك من المشركين، إذ غيَّروا خلق الله عزَّ وجلَّ، وظلموا تلك الإبل بالقطع، وابتدعوا ما لم يكن في الدّين دين إبراهيم عليه السَّلام.

﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**﴾ لهؤلاء الكفرة المفترين على الله الكذب، وللأكثر الذين لا يعقلون ﴿**تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ**﴾ يخبرنا بما أنزل الله ويبيِّنه لنا وبما نفعل وما نترك ﴿**قَالُواْ حَسْبُنَا**﴾ كافينا، مبتدأ كما دخلت عليه «إنَّ» في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾ (سورة الأنفال: ٦٣). ﴿**مَا وَجَدْنَا**﴾ من الدِّين ﴿**عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا**﴾ لا سند لهم غير التقليد لآبائهم، بالغوا فيه ﴿**أَوَلَوْ كَانَ**﴾ أحَسْبُهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان ﴿**ءَابَآؤُهُمْ**﴾ أو أيقولون ذلك ولو كان آباؤهم؟ ﴿**لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا**﴾ من الدين ﴿**وَلاَ يَهْتَدُونَ**﴾ إلى الصواب، وهم ضالُّون لا يعرفون شيئًا من دين الله بعنوان أنَّه دين الله، ولا يهتدون إلى الحقِّ ولو بلا علم أنَّه من الله.

هُنَا: ﴿مَا وَجَدْنَا﴾ وفي البقرة: ﴿مَآ أَلْفَيْنَا﴾، وهنا: ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ وفي

١- أورده **السيوطي** في الدر المنثور، ج٢، ص ٣٧١، من حديث زيد بن أسلم.

البقرة: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الآية: ١٦٩) لارتكاب فنون في التعبير، أو أحسبهم ذلك أيقولون ذلك لو لم يكن آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون؟ ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون؟. والاستفهام إنكار لِصِحَّةِ ذلك عقلاً وشرعًا.

(سبب النزول) وكان المؤمنون يتحسَّرون على عدم إيمان الكفرة ويتمنَّون إيمانهم، وكان الرجل إذا أسلم قالوا: سفَّهت آباءك وعنَّفوه، فنزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

تفويض الأمر إلى الله تعالى بعد القيام بالواجب

﴿**يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾ اِلزموا أنفسكم واحفظوها، ولفظ «عَلَيْكُمْ» جارٌّ ومجرور، والجرُّ في المحلِّ، وهو اسم فعل. ﴿**لاَ يَضُرُّكُمْ**﴾ قيل: مجزوم في جواب الأمر، والمشهور أن لا يجزم ولا ينصب في جواب اسم الفعل، إلاَّ أنَّ قراءة «لاَ يَضُرُّ» بضمِّ الضاد وقراءة كسرها وإسكان الراء فيهما تدلاَّن على الجزم في جوابه، وتحمل عليه قراءة الضمِّ والشدِّ، فالضمُّ للتخلُّص من الساكنين؛ أو الجزمُ في ذلك كُلِّه على النهي؛ أو الرفعُ استئنافٌ أو تعليلٌ. ﴿**مَن ضَلَّ**﴾ أي لا يَضُرُّكم ضلال من ضَلَّ من عصاة المؤمنين، أو من أهل الكتاب ﴿**إِذَا اهْتَدَيْتُم**﴾ بمجانبة الضلال والإصرار، ومنها أن ينكر المنكر بحسب طاقته، فانتفاء الضُّرِّ بالنهي عن الضلال فلا يقبل منكم [إضرار أنفسكم].

أو المعنى: لا تهلك حسرة على كفر الكفرة، أو: لاَ أمْرَ ولا نهي عليك إذا كان فيهما فسادٌ، أو اُثبُتْ على الإيمان ولا تُبالِ بقول الكفرة لمن أسلم: «سفَّهت آباءك»، أو «احفظوا أهل دينكم وانصروهم». ومرجع معصية الكافر عليه لا عليكم، أو ذلك كُلُّه، وقد قيل: «إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» بالأمر والنهي.

وسأل رجل ابن مسعود رضي الله عنه عن الآية فقال: هي فيما إذا أَمرتَ أو نَهيتَ فُعِل بك كذا وكذا، أو لم يُقبل منك. وسئل ابن عمر فقال: ليست فيكم إنَّمَا هي لمن بعدكم إذا لم يُقبل عنهم، فإنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ فنحن الشهودُ وأنتم الغُيَّب»**[1] قال ﷺ: **«من رأى منكم منكرا واستطاع أن يغيِّره بيده فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه»**[2] وكأنَّه قيل: لا يَضرُّكم من ضَلَّ إذا أمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر فلم يُفِدْ أمرُكم ونهيُكم.

وروى الحاكم عن أبي ثعلبة الخشني سألت رسول الله ﷺ عن الآية فقال **«ائتمِروا بالمعروف وتَناهوا عن المنكر، حتَّى إذا رأيت شُحًّا مُطاعًا وهواء مُتَّبعًا ودنيًا مُؤثَرة، وإعجابُ كُلِّ ذي رأي برأيه فعليك نفسك»** وقال لمعاذ مثل ذلك وزاد: **«فإنَّ من ورائكم أيَّامَ صَبرٍ، المتمَسِّك فيها بدينه مثل القابض على الجمر، فللِعامل منهم يومئذ مثل عمل أحدكم كأجر خمسين منكم»**،

١- رواه **مسلم** في كِتَاب الحج (٨٢) باب تحريم مَكَّة وصيدها وخلالها... رقم ٤٤٦ (١٣٥٤)، دون ذكر لفظ: «فنحن الشهود وأنتم الغُيَّب» من حديث شريح العدوي.

٢- رواه **ابن ماجه** في كِتَاب الصلاة (١٥٥) باب ما جاء في صلاة العيدين، رقم ١٢٧٥، من حديث أبي سعيد.

فقال: خمسين منهم؟ فقال: «**بل منكم أنتم، فإنَّكم تجدون على الخير أعوانًا ولا يجدونهم**»[١].

(فقه) وليست الآية مبيحة لترك الأمر والنهي إلاّ لمن اهتدى، ومنه الآمر والناهي، قال أبو بكر ﷺ: «تعُدُّونها رخصة وا لله ما نزلت آية أشدُّ منها، وإنَّما المُراد لا يَضُرُّكم من ضَلَّ من أهل الكتاب وقد أمرتموهم ونهيتموهم». كما جاء عن مجاهد وابن جبير: هي في اليهود والنصارى، خذوا منهم الجزية واتركوهم بعد أن أمرتموهم بالتوحيد فأبوا. وقال أبو بكر ﷺ على المنبر: يا أَيُّهَا الناس إنَّكم تقرأون هذه الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ما هي، سمعت رسول ا لله ﷺ يقول «**إنَّ الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيِّروه عمَّهم ا لله بعقاب، فَمُروا بالمعروف وانْهَوا عن المنكر أو لَيستَعْمِلَنَّ ا لله عليكم أشراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثمَّ يدعو أخياركم فلا يستجاب لهم**»[٢]، وعنه ﷺ: «**ما من قوم عُمِل فيهم منكر وسُنَّ فيهم قبيح فلم يغيِّروه ولم ينكروه إلاَّ وحقَّ على ا لله أن يعمَّهم بالعقوبة جميعًا، ثمَّ لا يستجاب لهم**»[٣].

١- رواه **البيهقي** (الكبرى) في كِتَاب آداب القاضي (٣) باب ما يستدَلُّ به عَلَى أَنَّ القضاء وسائر أعمال الوُلَاَة مِمَّا يكون أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر... رقم ٢٠١٩٣، من حديث أبي أمية الشعباني. وأورده **الطبري** في تفسيرة، ج ٧، ص ٦٣.

٢- رواه **السمرقندي** في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج ١، ص ١٠٠، من حديث حذيفة، مع زيادة في آخره.

٣- رواه **البيهقي** (الكبرى) في كِتَاب آداب القاضي (٣) باب ما يستدَلُّ به عَلَى أَنَّ القضاء وسائر أعمال الوُلَاَة مِمَّا يكون أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر... ٢٠١٩٢، من حديث عبيد ا لله بن جرير عن أبيه.

﴿إلى الله﴾ لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أي رجوعكم ﴿جَمِيعًا﴾ أيها المؤمنون، ومرجع الضالّين فحذف، أو مرجعكم أيُّها الناس مؤمنكم وكافركم، وهذا أنسب، فيُجازي كُلاًّ بعمله كما قال، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا يواخذ أحدًا بذنب غيره، وذلك وعد ووعيد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ١٠٦ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ١٠٨﴾

الشهادة على الوصيّة حين الاحتضار

﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ أي عليكم شهادة بينكم، أو فيما أمرتكم به شهادة بينكم، أو فرضت شهادة بينكم، فاثنان بعد في تقدير يشهد اثنان، أو ليشهد اثنان بلام الأمر، أو هو فاعل شهادة، أو شهادة بينكم اثنان، أي شهادة اثنين، أو أهل شهادة بينكم اثنان. وأضيفت الشهادة إلى البيْن باعتبار

جريانها بينهم، أو باعتبار تعلُّقها بما يجري بينهم من الخصومات، والمُراد بالشهادة: ظاهرُها أو الإشهادُ؛ والمعنى على الأوَّل: إخبار أحد بِحَقٍّ على أحد، أو حضور وصيَّة المحتضر، وعلى الثاني: إشهاد المحتضر عدلين على ما يوصي به، أو إحضارهما للشهادة. وَقِيلَ: الشهادة بمعنى الشهود، كـ«رجلٌ عَدْلٌ».

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي حضره مَبْدَؤُهُ بحسب ما يظهر فهو حضور حقوق، وإن أريد: الموتُ التامُّ فالمعنَى: إذا قاربه وظهرت أمارته. و«إِذَا» متعلّق بـ«شَهَادَةُ» خارج عن الشرط والصدر [أي: الصدارة]. ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ بدلٌ من «إِذَا» كما أبدل ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ﴾ من ﴿إِذَا دُكَّتِ الاَرْضُ﴾ (سورة الفجر: ٢٣، ٢٦)، أو متعلّق بـ«حَضَرَ» أو بـ«الْمَوْتُ». وفي الإبدال تنبيهٌ على أن لا يتهاون بالوصيَّة إذ جعل زمانها زمان حضور الموت، والوصيَّة كالموت، لا تَتَخَلَّفُ عن ذلك الزمان، كما لا يتخلَّف الموت. والوصيَّة بمعنى الإيصاء. ﴿اثْنَانِ﴾ وصيَّان اثنان، أو شاهدان اثنان، وجه الأوَّل أنَّ الآية نزلت فيهما، ولقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾، والشاهد لا يحلف إلاَّ أنَّ الأصل أن لا يتعدَّد، ولكن عدَّد تأكيدًا، وعليه تكون الشهادة بمعنى الحضور. ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ من أقاربكم، أو منكم معشر المسلمين، كذا قيل، وفيه أنَّه لم يَجْرِ للمشركين ذكرٌ سوى مقابلته بعدُ بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. و«مِنكُمْ» نعت ثان لـ«اِثْنَانِ»، أو حال.

﴿أَوَ ـاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير أقاربكم، فلا مدخل للمشركين في الشهادة للمسلم أو عليه، أو من غيركم معشرَ المسلمين وهم المشركون.

وَمَعنَى عدالةِ المشركين تحرُّزُهم عن الكذب، [قلت] كما تقبل شهادة قومنا، غلبونا أو غلبناهم **على الصحيح** إذا كانوا عدولاً في مذهبهم. ثمَّ نُسخت إجازة شهادة المشركين لَمَّا كثر المسلمون، وسواء أهل الكتاب وغيرهم، ولو نزلت في قصَّة أهل الكتاب، وإن وجدتم المسلمين فاستشهدوهم لا المشركين. قال شريح رحمه الله: وإنَّما جازت قبل النسخ في السفر، لأنَّه مظنَّة الحاجة إليها، كما قال: ﴿**إِنَ اَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الاَرْضِ**﴾ أي سافرتم. وَقِيلَ: لم تجز شهادة المشركين على المسلم أَوْ له قطُّ، فضلاً عن أن تنسخ، وَقِيلَ: جائزة عند السفر للضرورة بلا نسخ. وعن أبي موسى الأشعريِّ أنَّه حكم حين كان واليًا على الكوفة بمحضر من الصحابة بشهادة ذمِّيَّيْن بعد تحليفهما في وصيَّة مسلم في السفر، وبه قال أحمد.

والأصل: «إن ضربتم ضربتم»، فحذف «ضرب» الأوَّل، وانفصل فاعله المُتَّصِل، وكذا كلَّما حذف العامل في المستتر أو المُتَّصِل وحده انفصل الضمير، وذلك قيدٌ لقوله: ﴿أَوَ اخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ والقيد الآخر: حضور الموت، أو قيد للمسألة كلِّها إرشاد للمصلحة. كما أنَّه يجوز أن يراد بـ«غَيْرِكُم» غير أقاربكم وهم مسلمون أجانب، وجملة «شَهَادَةُ بَيْنِكُم...» إلخ إخبار بأنَّ الأمر الشرعيَّ ما ذُكر، أو بمعنى الأمر.

﴿**فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوتِ**﴾ قاربتم الموت، ويجوز أن يكون «إِنَ انتُمْ ضَرَبْتُمْ» كلامًا غير قيد لِمَا قبله، وأنَّ المعنى: إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت فأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنِّكم، وجمعتم إليهم معكم من المال ثمَّ مِتُّم وذهب الاثنان إلى ورثتكم بالتركة فارتَابُوا في أمرهما

وادَّعوا عليهم خيانة، فالحكم أن تحسبوهما من بعد الصلاة استيثاقًا منهما.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ توقفونهما عن الذهاب حيث شاءا، نعت لـ«آخَرَانِ»، أو جواب سؤال يفرض، كأنَّه قيل: كيف نعمل بالشاهدَيْنِ إن ارتبنا؟ فقال: «تَحْبِسُونَهُمَا»، ﴿مِنۢ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ صلاة العصر المعهودة للتحليف عندهم، لأنَّه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار، ولتكثر الشهود، ولأنَّ جميع الملل يعظِّمون هذا الوقت ويجتنبون فيه الحلف الكاذب. وقال الحسن: صلاة الظهر أو العصر، لأنَّ أهل الحجاز يقعدون للحكم بعدهما، وَقِيلَ: أيِّ صلاة، لأنَّ الصلاة داعية إلى الصدق ومجانبة الفحشاء والمنكر، وَقِيلَ: من بعد صلاتهما على أنَّهما مسلمان.

﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ يحلفان ﴿بِا للهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ ارتاب الوارث، والمُراد الجنس الصادق بالواحد فصاعدًا؛ أو خاطب المسلمين عمومًا، لأنَّ الورثة منهم، ويجري الحكم على أيديهم؛ أو إن ارتبتم معشر الورثة الواحد فصاعدًا. والارتياب يتصوَّر بالخيانة من الشاهدين، أو بأخذهما شيئًا من التركة. وجواب «إِنِ» أغنى عنه «تَحْبِسُونَهُمَا» و«يُقْسِمَانِ بِا للهِ» وجواب «يُقْسِمَانِ» هو قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، وإن لم ترتابوا فلا حلف.

وهاء «بِهِ» قيل عائدة إلى ا لله، أي لا نشتري بيمين ا لله، وَقِيلَ: إلى الإقسام، أي الحلف المعلوم من قوله: ﴿يُقْسِمَانِ﴾. وقال الفارسيُّ: إلى تحريف الشهادة، وهو أقوى من حيث المعنى، لأنَّه أليق بإجابة القسم، لأنَّ المقام للحلف على ما بأيديهما، والصدق فيما قالا في شأنه، وَقِيلَ: إلى الشهادة

والتذكير، لأنَّ فيها معنى القول، وأمَّا إذا عادت إلى الله أو إلى الإقسام فلا تكفي جملة «لَاَ نَشْتَرِي» جوابًا بل يُقَدَّرُ الجواب، وتكون الجملة مفعولاً به لقولٍ مُقَدَّر هكذا: «فيقسمان بالله إن ارتبتم إنَّا لصادقان فيما قلنا في شأن المال، أو في أمر الوصيَّة ما خنتُ في المال الذي بيدي» ويقولان: «لا نشتري»، أو قائلين: «لا نشتري».

وحاصل ذلك أنَّ الجملة مستتبعة لجواب القسم لا نفس الجواب، كما عهد الحالف أن يزيد على قسمه ما يؤكِّد به جوابه. والثمن: العَرَضُ المأخوذ على التحريف من المال على سبيل الفرض والتقدير، والشراء على ظاهره، ويجوز أن يكون بمعنى البيع فيكون الثمن المثمن، وهو التحريف. وضمير «كَانَ» عائد إلى المقسم له المعلوم مِن «يُقْسِمَانِ»، أو المشهود له المعلوم من لفظ «شَهَادَةُ»، والأوَّل أولى لقربه، والثاني أولى لكونه مبنيَّ الكلام. والقربى: قرابة النسب، أي ولو كان قريبًا مناسبًا.

﴿**وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ**﴾ عطف على «لاَ نَشْتَرِي»، والمُراد: الشهادة التي أمرنا الله بأدائها، ولأمره بها أضيفت إليه. ﴿**إِنَّآ إِذًا**﴾ إذ كتمناها لو كتمناها ﴿**لَمِنَ الاَثِمِينَ. فَإِنْ عُثِرَ**﴾ اطُّلِعَ، يستعمل في الاطِّلاَع على ما يخفى، مأخوذ من عَثَرَ إذا كَبَا، لأنَّ العاثر ينظر إلى موضع عثاره فيعرفه، وذلك مجاز بحسب الأصل، ثمَّ صار حقيقة عرفيَّة عامَّة، وذلك إذا قلنا مصدرهما واحد. ﴿**عَلَىآ أَنَّهُمَا اَسْتَحَقَّآ إِثْمًا**﴾ أي على استحقاقهما إثمًا، وذلك نائب فاعل «عُثِرَ». وَقِيلَ: مصدره العثور؛ ومصدرُ «عَثَرَ» بمعنى سقط أو كاد يسقط: العَثْرةُ والعثارُ. فلا مجاز لأنَّ معنى الاطِّلاَع من مصدر، ومعنى السقوط من وزن

مصدر آخر.

واستحقاق الإثم: فِعْلُ ما يثبته، كتحريفٍ وخيانة وكذب في الشهادة، بأن وجد عندهما ما اتُّهما به، وادَّعيا أنـَّهما اشترياه من الميِّت، أو أعطاهما إيَّاه أو أوصى لهما به، أو وُجد عند شخص آخر باعه له به، أو أعطاه إيَّاه أو نحو ذلك. وقدَّر بعضٌ: «عُقُوبَةَ الإِثْمِ». والهاء للشاهدين الحالفين، أو الوصيـَّين، على ما مَرَّ أنَّ الاثنين المذكورين في الآية شاهدان أو وصيَّان.

﴿فَئاخَرَانِ﴾ فالواجب شاهدان آخران، أو فعليكم شاهدان آخران، أو مبتدأٌ خبره قوله: ﴿يَقُومَانِ﴾، أو هذا نعته والخبرُ «الاَوْلَيَانِ»، أو «مِنَ الذِينَ»، ولا يحتاج لمسوِّغ، لأنَّه وصفٌ لمحذوف، وما لم يجعل خبرَه فهو نعته أو حاله، إلاَّ «الاَوْلَيَانِ» فلا يصحُّ حالاً، لأنـَّه مرفوع.

(نحو) وصحَّ نعت نكرة به، لأنَّ «ال» فيه للجنس، وإذا جُعل هو الخبرَ ففيه الإخبار بالمعرفة عن النكرة، وهو مرجوح، وَلَكِنـَّهَا هنا كالنكرة، لأنَّ «ال» فيه للجنس، وإذا جُعل نعتًا و«يَقُومَان» خبرًا ففيه الفصل بين المبتدأ ونعته بالخبر، وكذا إذا جُعل «مِنَ الذِينَ» نعتا و«يَقُومَانِ» خبرا وهو مرجوح، فالأولى في «مِنَ الذِينَ» جعله حالاً من ألف «يَقُومَانِ»، لَكِنَّ فاء الجزاء أجازت كون الخبر أجنبيـًّا من الموصوف بناء على أنـَّها جَعلت مضمون الجملة الجزائيَّة لازما للعثور على خيانتهما، والمعنى: «فإن عثر على أنَّ الاثنين منكم أو من غيركم استحقَّا إثمًا بخيانتهما فآخران من أولياء الميِّت يقومان». ﴿مَقَامَهُمَا﴾ في توجه اليمين عليهما.

﴿مِنَ الذِينَ اَسْتُحِقَّ عَلَيْهِمْ﴾ من الورثة الذين استحقَّ عليهم، أي جُنِي عليهم، فإنَّ الشاهدين أو الوصيَّين لمَّا جنيا واستحقَّا إثمًا بسبب جنايتهما على الورثة كانت الورثة مجنيًّا عليهم، متضرِّرين بجنايتهما؛ واستحقاق الإثم كناية عن هذا المعنى، لأنَّ معنى «استحقَّ الشيءَ»: لاَقَ به أن ينسب إليه، فالجاني لاَقَ أن يُنسب إليه الإثمُ. واستحقاق الإثمِ: ارتكابه. و«عَلَيْهِمِ» نائب الفاعل، أو استُحِقَّ الإيصاءُ عليهم، أي لهم، أي لأجلهم، بردِّ التركة إليهم وهم الورثة؛ أو استحقَّ الإثم عند الجمهور؛ أو الضمير للإيصاء، وَقِيلَ: للمال، وَقِيلَ: للوصية، وعليه فالتذكير بتأويل ما ذكر.

﴿الاَوْلَيَانَ﴾ الأقربان إلى الميِّت نسبًا الوارثان له، وأيضا هما أحقُّ بالشهادة لقربهما ومعرفتهما. والمُفرد: «أَوْلَى»، أي أقرب، قُلبت الألف ياء، وَتَقَدَّمَ إعرابه؛ ويجوز جعله خبرًا لمحذوف، أي هما الأوليان؛ أو خبر آخرُ لـ«آخَرَانِ»، أو مبتدأٌ خبره: «آخَرَانِ»، أو بدلاً من أَلِف «يَقُومَانِ».

﴿فَيُقْسِمَانِ بِا للهِ﴾ على خيانة الشاهدين أو الوصيَّين، ويقولان في حلفهما: ﴿لَشَهَادَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾ «وا لله لشهادتنا...» إلخ، «فَيُقْسِمَانِ» في الآية قائم مقام «وَا للهِ»، فكان قوله تعالى: ﴿لَشَهَادَتُنَا...﴾ إلخ جوابًا لقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾. والشهادة في الموضعين بمعنى اليمين عند ابن عبَّاس والجمهور، كقوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ...﴾ إلخ (سورة النور: ٦)، واليمين كالشهادة على ما يحلف عليه أنَّه كذلك، أو عَلَى ظاهرها، إلاَّ أنَّها تقرن باليمين، كما أنَّ اليمين يقرن بها. ﴿وَمَا اَعْتَدَيْنَآ﴾ ما جاوزنا الحقَّ باليمين بل صَدَقْنا فيها.

﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إذا اعتدينا ﴿لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لصاحب الحقِّ ولأنفسنا بوضع الباطل موضع الحقِّ، وَمَعنَى الآيتين: أنَّه يُشهِد المحتضر على وصيَّته اثنين، أو يوصي إليهما بدفع تركته إلى ورثته، وهما مسلمان أو كافران إن فقد المسلمين لسفر أو نحوه، والأَوْلى أن يكونا مسلمين من قرابته، وإن لم يجد مِن قرابته فَمِن غيرهم، والإيصاء إلى الاثنين احتياط، فإن رَابَهما الورثة بالخيانة بأحد أوجهها السابقة، حَلَفَا على صدق ما قالا بالتغليظ في الوقت، وإن اطَّلَعَ الورثة بأمارة فادَّعيا الإعطاء لهما أو لمن انتقل منهما إليه، حلف اثنان من الورثة على صدق ما قالا وعلى كذب مَا قال الشاهدان أو الوصيَّان.

والحكم منسوخ إن كان الاثنان في الآية الشاهدين، والحكم اليمين والشاهد لا يحلف ولا يعارض يمينه بيمين الورثة، وإن كان الاثنان الوصيَّين فالحكم منسوخ أيضًا، وهو حلف المدَّعي إذا عجز عن البيِّنة، رضي المنكر بحلفه أو لم يرض، وإنَّما الثابت حلفه برضى المنكر، وَقِيلَ: أيضًا لا يجوز. وعن عليٍّ أنَّه كان يحلِّف الشاهدَ والراويَ إذا اتَّهمهما. وفي بعض كتب الحنفيَّة أنَّ الشاهد إن لم يجد من يزكِّيه يجوز تحليفه احتياطًا. وروي أنَّ المائدة لا منسوخ فيها.

(سبب النزول) وروي أنَّ رجلاً من بني سهم خرج مع تميم الداري وعديِّ بن بداء ـ وروي ابن نداء بالنون ـ وهما نصرانيان، فمات السهميُّ بأرض ليس فيها مسلم، ولمَّا قدما بتركته فَقَدَ الورثةُ جامًا من فضَّة مخوَّصًا بالذهب، فرفعا إليه ﷺ فنزلت، فحلَّفهما ثمَّ وُجد الجام بِمَكَّةَ، فقال المكِّيُّ: ابتعناه من تميم وعديٍّ، فنزلت الآية الثانية: ﴿فَإِنْ عُثِرَ...﴾ إلخ، فقام رجلان من

أولياء الميِّت السهميِّ فحلَّفاه؛ وفي رواية الترمذيِّ: فقام عمرو بن العاصي ورجل آخر منهم، أي وهو المطَّلب بن أبي وداعة وكانا أقرب إليه؛ وفي رواية: فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلِّغا ما ترك إلى أهله، ولمَّا مات أخذا الجام ودفعا إلى أهله ما بقي.

وردُّ اليمين إلى الورثة إمَّا لظهور خيانة الوصيَّين وتصديق الوصيَّين لأمانته، وإمَّا لتغيُّر الدعوى بأن صار الوصيَّان مدَّعيين للملك، والورثة منكرين، فليس ذلك من ردِّ اليمين. وأسلم تميم الداري وعديٌّ بن بداء بعد ذلك.

وروي أنَّ تميمًا وعديًّا المذكورين خرجا في تجرهما نصرانيان ومعهما بديل مولى عمرو بن العاصي مسلمًا إلى الشام، ومرض بديل فيه فدوَّن ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما بها، وأوصى إليهما أن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات ففتَّشاه وأخذا منه إناء من فضَّة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشًا بالذهب، فغيَّباه فوجد أهلُه الصحيفة فطلبوهما بالإناء فَجَحَدا، فترافعوا إلى رسول الله ﷺ، ونزلت: ﴿فَإِنْ عُثِرَ...﴾ إلخ فقام عمرو بن العاصي والمطَّلب بن أبي وداعة السهميَّان، وحلفا أنَّ الجام للميِّت. ولا يخفى أنَّ الوصيَّ الواحد يكفي شأن الميِّت إجماعًا، وإنَّما عدَّد الوصيَّين في الآية على أنَّهما المُراد بالاثنين لهذه الواقعة الحالية المتعدِّدين هما فيها.

(لغة) والسهميُّ: بُدَيْلُ بن أبي مارية ـ بدال مهملة ـ وهو تميميٌّ وليس بديل بن ورقاء، لأنَّ هذا خزاعيٌّ، ويروى بزاي بدل الدال وكلاهما مصغَّر، وعديٌّ بن بَداء ـ بالفتح والشدِّ والمدِّ والصرف ـ قال الذهبيُّ: لم يبلغنا

إسلامه، وروي أنَّهما جحدا أشياء من متاع السهميِّ المكتوب منها الجام، وروي أنَّ بُدَيْلاً أراد بذلك الجام ملك الشام.

وروي أنَّ أهله وجدوا الصحيفة فقالوا لهما: هل باع صاحبنا شيئًا؟ قالا: لا، قالوا فهل اتَّجر تجارة؟ قالا: لا، قالوا: فهل طال مرضه فأنفق على نفسه؟ قالا: لا، قالوا: فإنَّا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه، وإنَّا فقدنا منها إناء من فضَّة مموَّها بالذهب وزنه ثلاثمائة مثقال من فضَّة، قالا: ما ندري إنَّمَا أوصى لنا بشيء وأَمَرَنا أن ندفعه لكم فدفعناه وما لنا علم بالإناء، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ وأنكرا وحلفا، ونزلت الآية الأولى، وصلَّى رسول الله ﷺ صلاة العصر ودعاهما وحلَّفهما عند المنبر: بالله الذي لا إله إلاَّ هو أنَّهما لم يختانا شيئًا مِمَّا دفع إليهما...إلخ ما مَرَّ.

﴿**ذَالِكَ**﴾ الحكم المذكور من ردِّ اليمين على الورثة، والتحليف والحبس بعد الصلاة وسائر ما ذكر من الأحكام بتفاصيلها في هذه القصَّة. ﴿**أَدْنَىآ أَن يَّاتُواْ**﴾ إلى أن يأتوا ﴿**بِالشَّهَادَةِ عَلَىا وَجْهِهَآ**﴾ بنفسها بلا تغيير، خوفًا من عذاب الآخرة ﴿**أَو يَخَافُواْ**﴾ أو أدنى إلىَ أن يخافوا ﴿**أَن تُرَدَّ**﴾ مفعول «يخاف»، أو يراد يخافوا من أن تردَّ ﴿**أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ**﴾ كما ردَّت إلى الورثة في القِصَّة، فيؤخذ الحقُّ لهم فيفتضح الشهود بظهور الخيانة واليمين الكاذبة.

والعطف على محذوف هكذا: «ذلك أدنى أن ياتوا بالشهادة محقَّقةً ويخافوا عذاب الآخرة بالكذب، أو يخافوا أن تردَّ الأيمان إلى الورثة فيحلفوا، فيأخذوا ما بأيديهم فيخجلوا على رؤوس الأشهاد». و«أَوْ» لأَحد الشيئين، إمَّا أداء

الشهادة صدقًا، أو الامتناع عن أدائها كذبًا، وربَّما لا يحلفون كاذبين إن خانوا، وهذا أولى من كون «أو» بمعنى الواو أو بل، ولم يقل: أن يأتيا أو يخافا وأيمانهما، لأنَّ المُراد عموم القصَّة فيشمل كلَّ الشهود.

﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ**﴾ حذف المتعلّق للعموم، بحيث يذهب فهم السامع إلى ترك كلِّ ما نهي عنه، ومنه الخيانة والكذب؛ والعطف على محذوف، أي احفظوا أحكام الله واتَّقوا، ﴿**وَاسْمَعُواْ**﴾ امتثلوا وانتهوا، أو الاتقاء في المعاصي والسمع في الطّاعة.

﴿**وَاللهُ لاَ يَهْدِي القَومَ الفَاسِقِينَ**﴾ لا يهدي إلى الخير أو الجنَّة أو الحجَّة المصرِّين على الفسق، وهو الخروج عن الطّاعة، فإن لم تسمعوا وتتَّقوا كنتم فاسقين، والفاسقون لا حجَّة لهم ولا يمشون بعد بعثهم في أرض توصلهم إلى الجنَّة. وأمَّا الهداية بمعنى البيان، فلا بدَّ في حكمة الله منها، خلافًا للأشعرية، وليس من الحكمة إهمال العاقل ولا قطع العذر بلا بيان.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

سؤال الرسل يوم القيامة عن أثر دعوتهم والتذكير بمعجزات عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ

﴿يومَ يَجْمَـعُ اللّـهُ الرُّسُـلَ﴾ متعلّق بـ«يَهْـدِي» كما رأيت، أو مفعول لمحذوف، أي: «اذْكُرْ»، وهو يوم القيامة، وَقِيلَ: بدلُ اشتمال مـن لفـظ الجلالـة في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ وبدل الاشتمال ما بينه وبـين المبـدل منه ملابسة بغير الكُلّيَّة والجزئيَّة، وَقِيلَ: متعلّق بمضاف محـذوف، أي: اتَّقوا عقـاب الله يـومَ. ﴿فَيَقُولُ﴾ قولَ توبيخ لأقوام الرسل وهـو عـالم بمـا أجيـب بـه الرسـل. ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ «مَاذَا» مفعول مطلق واقع علـى الـردِّ المفسَّر بـه «أُجِبْتُـمْ»، أيُّ ردٍّ ردَّ عليكم أقوامُكم في الدُّنيا حـين بلَّغتـم الرسـالة؟. أو «مَـا» اسـم استفهام مبتـدأ، و«ذَا» خبرٌ، أو بالعكس و«ذَا» موصول، أي: ما الـذي أُجبتـم؟، أي: مـا الـردُّ الذي رُدَّ عليكم؟، أو: ما الذي أجبتم به؟، بناء على جواز حذف الرابط إذا علم بلا شرط. ويضعف جعل «مَاذَا» مجرورًا بحرف مُقَـدَّر، أي: بماذا أجبتم؟.

وعلى كُلِّ حال المُراد: ماذا أجابكم أقوامكم في التوحيـد وغـيره مـن أمـر الله ونهيه جلَّ وعلا في الدنيا؟. والاستفهام توبيخ لأقوام الرّسل بلا خطاب لهم، وإنَّما كان بلا خطاب لتحقيرهم وشدَّة السخط، حتَّى إنَّه لذلـك لم يذكرهـم إذ لم يقل: ماذا أجابكم أمَمُكم؟.

﴿قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ﴾ بماذا أجابونا، نَسَوْا لدهـش القيامـة، ثـمَّ ترجـع إليهـم عقولهم فيقولون، لأنَّ يوم القيامة مواطن، فتارة يذهلون وتارة يجيبون. ثمَّ رأيـت لابن عـبَّاس مثل هذا مجيبًا به لابن الأزرق، فلا يَرِدُ على ذلك قوله تعـالى: ﴿لاَ

يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٢).

ولا يصحُّ أن يقال: لا علم لنا بما كنت تعلمه من الغيب مِمَّا في قلوبهم أو غيرها في أقوامنا، ومن تحقيق الأمر، أو من الخاتمة، أو بحال من جاء بعدنا، لأنَّ سؤال الله لهم ليس لذلك، ولأنَّهم قد رأوا أثر الشقوة. ولا يصحُّ أنَّه ردٌّ للأمرِ إلى الله عزَّ وجلَّ إذ ذلك كذبٌ لا يقولون: ما علمنا، وهم علموا؛ وكذا يوجب الكذب ما قيل: إنَّهم علموا أنَّ الله عالم لا يظلم، وأنَّ قولهم لا يدفع شرًّا، فردُّوا العلم إلى الله بنفيه عنهم تأدُّبًا؛ ولا ما قيل: إنَّهم جعلوا علمهم كلا علم بالنسبة إلى علم الله، وذلك أنَّهم نفوا العلم عن أنفسهم بـ«لا» النافية للجنس، فلم تصحَّ تلك الدعاوي؛ ولا يخفى تكلُّف ما قيل: إنَّ نفي العلم كناية عن التشكّي من أقوامهم والالتجاء إلى الله. و«قَالُوا» بمعنى: يقولون، لكنَّه لوجوب وقوع القول صاروا كأنَّهم قد قالوا.

﴿**إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ ما غاب عن خلقك البتَّة أو غاب عنهم بعد علمهم به، وجمع الغيب مع أنَّه مصدر صالح يصلح للكثير، لأنَّ المُراد الدلالة على أنواع الغيب، وذلك بمعنى أنَّه يعلم غيب ما غاب وذلك علم للغائب، وأمَّا إن قلنا: الغيب نفس ما غاب، أو: الغيوب جمع غيب مخفف غيب فلا إشكال في الجمع.

﴿**إِذْ قَالَ اللهُ**﴾ إذ يقول الله، وصيغتا المضيِّ للتحقُّق كما مَرَّ. و«إِذْ» بدل من «يَوْمَ»، أو مفعول لـ«اُذْكُرْ»، وصحَّ الإبدال لأنَّ يومَ جمعِ الرسلِ وقولِهِ لعيسى: ﴿**يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ**﴾... إلخ يومٌ واحدٌ، يَجْمَعُ توبيخَ الأقوامِ على تكذيبهم للأنبياء حتَّى قالوا: سحرةٌ، ومجانين، وأساطير الأولين، وأكاذيب،

وعلى غلو من غلا حتّى قال: إنَّ عزيرًا ابنُ ا للهِ، وحتّى قال: إنَّ عيسى إله أو ابن ا لله. والآية ردٌّ لتفريط اليهود في عيسى عليه السَّلام وإفراط النصارى فيه.

إذا جعلنا «ابْنَ» نعتَ «عِيسَى» جاز في الجملة تقدير الضمَّة على الألف كما هو الأصل، وتقدير الفتحة كما هو القاعدة في مثل قولك يا زيدَ بنَ سعيد، ولكن لا داعي إلى تقدير خلاف الأصل ولا دَلِيل عليه يترك به الأصل.

﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ إنعامي ـ بكسر الهمزة ـ ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ، إِذْ﴾ متعلّق بـ«نِعْمَتِي» كـ«عَلَى»، لأنَّه بمعنى إنعامي، وإن جعلنا النِّعمة بمعنى ما أنعم به عليه فـ«عَلَى» متعلّق بمحذوفٍ حالٌ من نعمة. والإضافة للجنس، لأنَّ نِعَمَه عليه مُتَعَدِّدَة. وأمَرَه بذكر النعم تشريفًا له بها على رؤوس الأشهاد والأعداء وتلذيذًا، وتوبيخًا لليهود والنصارى المخطئين في شأنه. وإذا جُعل «نِعْمَتِي» بمعنى ما أنعم به فـ«إذْ» متعلّق بمحذوف حالٌ من نعمة أو بدل من «إذ». ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ قوَّيتك، من الأيد مفردًا، بمعنى القوَّة. ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ هو جبريل لا يفارقه من حين ولد إلى أن رفع. والقدس: الطهر؛ أو روح القدس: الكلام الذي يحيي به الدِّين، أو النفسَ حياة أبديَّة، ويطهِّر من الآثام. ويُقوِّي تفسيرَه بالكلام قولُه عزَّ وجلَّ:

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ متعلّق بمحذوفٍ حالٌ، عُطِفَ عليه حالٌ آخر في قوله: ﴿وَكَهْلاً﴾ أي ثابتًا في المهد وكهلاً، المعجزة: التَّكَلُّم في المهد لا التَّكَلُّم في الكهولة، ولكن ذَكَرَ الكهولة إيذانًا بأنَّ كلامه في المهد وكلامه في الكهولة وما بينهما سواءٌ في الحكمةِ ومطابقةِ كلامِ كُتُبِ ا للهِ وأنبيائه وكاملي

العقول. وممَّا قال في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ...﴾ الآية (مريم: ٢٩)، وتكلَّم في الكهولة بما أوحي إليه. والكَهْلُ: من جاوز الثلاثين ووخطه الشيب.

وإن جعلنا «نِعْمَتِي» بمعنى: ما أنعم به، فـ«عَلَيْكَ» حالٌ، و«إِذْ» بدلٌ منها بدلَ اشتمال؛ أو متعلّق بـ«عَلَيْكَ» أو بمتعلّقه، أو حال من ضمير الحال الاستقراريِّ. ويجوز تعليق «فِي الْمَهْدِ» بـ«تُكَلِّمُ»، فيُقَدَّرُ: وتُكَلِّمُهم كهلاً.

وقد عدَّد عليه من النعم سبعًا: ﴿إِذَ اَيَّدتُّكَ﴾، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾، ﴿وَإِذْ تُبْرِئُ﴾، ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾، ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾، ﴿وَإِذَ اَوْحَيْتُ﴾.

واستدلَّ بعضٌ بقوله: ﴿وَكَهْلاً﴾ على أنَّه سينزل، لأنَّه رفع غير بالغ سنَّ الكهولة، وليس كذلك، لأنَّه أرسل ابن ثلاثين سنة، ومكث في رسالته ثلاثين شهرًا ثمَّ رفعه الله إليه، هكذا روي عن ابن عبَّاس؛ ويروى: ابن ثلاث وثلاثين سنة، وَقِيلَ: وثلاثة أشهر وثلاثة أيَّام؛ وَقِيلَ: ابن أربع وثلاثين؛ وما صحَّ أنَّه وخطه شيب. وتَكَلَّفَ مَن قالَ: المُراد: وشِبْهَ كهلٍ.

﴿**وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ**﴾ أي الخطَّ، تكتب وتقرأ ما كُتب، أو علَّمتك الكتب المنزَّلة كالصحف والزبور والتوراة والإنجيل، وخصَّهما بالذكر في قوله: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالاِنجِيلَ﴾ تفضيلاً لهما على الكتب التي قبلهما. ﴿**وَالحِكْمَةَ**﴾ العلم وفهم معاني الكتب وأسرارها، **واستكمال النفس بالعلم والعمل والصواب في السيرة.**

﴿وَالتَّوراَةَ﴾ هو الكتاب المنزَّل على موسى ﴿وَالاِنجِيلَ﴾ المنزَّل على عيسى، على نبيِّنا وعليهما أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تصوِّر ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ بِإِذْنِي﴾ أي بأمري. الكاف اسم مضاف لـ«هَيْئَةِ»، مفعول لـ«تَخْلُقُ»، أي تخلق مثل هيئة الطير، أي كصورة الطير. ﴿فَتَنفُخُ﴾ بفيك ﴿فِيهَا﴾ أي في مثل هيئة الطير، ورجع ضمير المؤنث إلى الكاف وهو مذكَّر إذ هو بمعنى مِثْل، لأنَّ المعنى: صورة أو هيئة مثل هيئة الطير.

(لغة) والطير اسم جمع لطائر، أو جمع له، كما في راكب ورَكْب، أي كصورة الطيور، واستعمال الطير مفردًا مرجوح.

كان الناس يقولون له على وجه التعنُّت: اُخلق لنا خُفَّاشًا واجعل فيه روحًا إن كنت صادقًا، فيفعل بإذن الله، كما قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَتَكُونُ طَآئِراً بِإِذْنِي﴾ أَنِّي خالق فيها حياة وروحًا لا أنت ولا غيرك، فذلك نعمة منِّي إليك إذ نصرتك بالحجَّة على أعدائك، والمُراد حيوانًا طائرًا وهو الخفاش أو خفاشًا طائرًا.

﴿وَتُبْرِئُ الاَكْمَهَ﴾ من ولد لا يبصر أو زال بصره، ﴿وَالاَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ أي بقدرتي لأنِّي قادر على كلِّ شيء، ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ من قبورهم أحياء كسام، ومن تقدَّم في آل عمران.

يكرِّر «إِذْ» أوَّل كُلِّ نوع مخالف لِمَا قبله فيما مَرَّ وما يأتي، ولاسيما

إخراج الموتى من القبور فإنَّه معجزة عظيمة، إذ كانوا رماما فيحييهم بإذن الله عزَّ وجلَّ، ولذلك لم يكتف عن «إذْ» فيها بـ«إذْ» التي قبلها مع أنـهما معًا في إحياء ما لا حياة فيه، ومِن هذا الإحياء: إبراء الأكمه والأبرص، وأَمَّا بالمقابلة فإحياءُ الطينِ أشدُّ إعجازا، لأنَّ الطين لم تَتَقَدَّم فيه حياة بخلاف إخراج الموتى، نعم إخراجُ الموتى أبلغُ من التعبير بإحياء الموتى.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ منعتُ ﴿بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ اليهودَ ﴿عَنكَ﴾ إذ قصدوك للقتل خداعًا، وقصدوك به مجاهرة، ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات المحَسَّات فلم يقتلوك ولكن قتلوا الشبه. و«إذْ» متعلّق بـ«كَفَفْتُ» قبله. ﴿فَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي هؤلاء الذين قصدوا قتلك بعد البَيِّنَات فصرفتهم، فمقتضى الظاهر: فقالوا إنْ هذا إلاَّ سحر مبين، ولكن أَظْهَرَ ليصفهم بالكفر بك الموجب للعذاب والذمِّ. ﴿مِنْهُم﴾ «مِن» للبيان، فبنو إسرائيل المكفوفون هم الذين قالوا: إن هذا إلاَّ سحر مبين، أو «مِن» للتبعيض فبنو إسرائيل كلٌّ لا كُلِّيَّة، والحكم الإيقاعيُّ على المجموع.

﴿إِنْ﴾ ما ﴿هَذَا﴾ أي الذي جئت به مِمَّا تدَّعيه معجزات ﴿إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أو الإشارة لعيسى أي ما عيسى إلاَّ سحر، وذلك مبالغة إذ جعلوه نفس السحر، أو يقدَّر مضاف أي ما شأن هذا إلاَّ سحر، أو ما هذا إلاَّ ذو سحر مبين.

﴿وَإِذَ اَوحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ بواسطة رسلي الماضين وعيسى أو بواسطة عيسى، أو أوحيت بمعنى ألهمت، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ

مُوسَىٰ﴾(سورة القصص: ٦)، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (سورة النحل: ٦٨)، إذ ليس الحواريُّون وأمُّ موسى والنحلُ أنبياءً. والحواريُّون: أصحاب عيسى وخواصُّه. ويجوز تفسيره بـ«أَمَرْتُ»، ومن استعماله بمعنى الأمر ما رواه الزجَّاج: «الحمد لله الذي استقلَّت بإذنه السماء واطمأنَّت، أوحى لها القرار فاستقرَّت»، إلاَّ أنِّي أظنُّه مصنوعًا ألا ترى إلى جعله الرويَّ تاء لا حرفًا مكررًا قبله.

﴿أَنَ - امِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ عيسى. «أَنْ» مفسِّرة - لتقدُّم جملة فيها معنى القول لا حروفه - لا مَصْدَرِيَّة، لدخولها على الأمر، والأمر لا خارج له بوحي، والمصدر غير الصريح لا يدلُّ على الأمر. ﴿قَالُواْ ءَامَنَّا﴾ بك وبرسولك ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ متَّبعون الإيمان بالإسلام، أي بانقياد الجوارح للعمل به، وذلك إخلاص. وقدَّموا الإيمان لأنَّه المأمور به ولو كان المُراد: الإيمان التامُّ المتبوع بالانقياد إذ قال: أَنْ آمِنُوا. ولا عبرة بإذعان الجوارح بلا تحقيق إيمان، فقَدَّمَ الإيمان لذلك، ولو كان الإسلام - أي الإذعان - بالجوارح لا عبرة به بلا إيمان، لأنَّ الإيمان على كلِّ حال هو الأصل.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّـۧنَ أَنَ-امِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن

قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

إنزال المائدة على بني إسرائيل بطلب الحواريين

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ متعلّق بـ«قَالُوا»، أو مفعول لـ«اذْكُرْ»، وعلى تعليقه بـ«قَالُوا» يكون تنبيها على أنَّ دعواهم الإيمان واستتباع الجوارح للإيمان غير متحقّقة، لِمَا ذَكَرَ الله عنهم مِن سؤالهم المائدة، ولو تحقّقت لم يسألوا المائدة و لم يشكُّوا في استطاعة الله تنزيل المائدة، أي ﴿قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ وهم غير قويِّين في الإيمان بل ضعُف إيمانهم، ومقتضى الظاهر: «إذ قالوا» بردِّ الضمير للحواريِّين ولكن أظهر لأنَّه كلام في قصَّة جرت بينه وبينهم غير ما قبلها، وقال هنا: ﴿بِأَنَّنَا﴾ بنونَين على الأصل، لأنَّ المؤمَن به ـ بفتح الميم الثانية ـ مُتَعَدِّد بي وبرسولي، وفي موضع آخر[1] بنون واحدة، لأنَّ المؤمَن به واحدٌ في آمنا با لله، كذا قيل، [قلت] وفيه سوء أدب، إذ لا ضعف في ذكر الله وحده مع أنَّه لا شيء إلاَّ منه ولا قوَّة إلاَّ به.

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ يقدِر ربُّك، ويحتمل أنَّ المُراد هل في حكمته تنزيل المائدة، فليسوا شاكّين ولا غير صادقين، وصرَّح بعض بأنَّهم مجمع على

١- في سورة آل عمران الآية ٥٢.

إيمانهم، ويدلُّ على إيمانهم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾، إلاَّ أنَّه يجاب باحتمال أن يراد فمن يبقَ على الكفر، أو يَزِدْ كفرًا فإن كان إنكار لما يجب الإيمان به كفر على حدة، فيجاب بأنَّه لا دَلِيل على هذا الاحتمال، **ولا يقبل المحتمل المخالف للظاهر إلاَّ بدليل.**

ويدلُّ على إيمانهم وصفُهم بـ«الْحَوَارِيُّونَ»، فإنَّه ينافي كونَهم على الباطل، ودعوى أنَّهم حواريُّون ظاهرًا يحتاج إلى دَلِيل؛ ويدلُّ على إيمانهم أمرُ الله عزَّ وجلَّ المؤمنين بالتشبُّه بهم كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كُونُوا أَنصَارًا لِلهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنَ اَنصَارِيَ إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ...﴾ الآيَة (سورة الصف: ١٤)، ويدلُّ على إيمانهم قوله ﷺ: «**لِكُلِّ نبيء حواريٌّ وإن حواريَّ الزبير**»[1] رواه قومنا. ودعوى أنَّ من الحواريِّين طائفة لم تؤمن أو ارتابت فطلبت المائدة تحتاج إلى صِحَّةٍ. وتفسيرُ ﴿تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بزيادة الإيمان، وتفسيرُ ﴿صَدَقْتَنَا﴾ بالإلحاح في علامة أنَّ الله يجيب دعاءنا.

وَقِيلَ: «يَسْتَطِيعُ» بمعنى يطيع، كـ«استجاب» بمعنى: أجاب، وَلَكِنَّ وَصْفَ اللهِ بطاعة غيره ولو كانت بمعنى الإجابة تحتاج إلى توقيف. وذكر أبو شامة أنَّ أبا طالب قال لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: «يا ابن أخي اُدع ربَّك أن يشفيني»، فدعا،

١- رواه **ابن ماجه** في المـُقَدِّمَة (١١)، باب في فضائل أصحاب رَسُول اللهِ ﷺ، رقم ١٢٢، من حديث جابر، وَأَوَّلُ الحديث عنده هو: قال رَسُول اللهِ ﷺ يوم قريظة: من يأتينا بخبر القوم؟ فقال الزبير: أنا، فقال: من يأتينا بخبر القوم؟ قال الزبير: أنا، ثلاثا، فقال النَّبيء ﷺ: «لِكُلِّ نبيء حواريٌّ...». ورواه أحمد في مسنده، ج٥، ص٩٨، رقم ١٤٦٣٩. من حديث جابر.

فكأنَّما نشط من عقال، فقال: «إنَّ ربَّك يطيعك»، فقال: «**لو أطعتَه لكان يطيعك**». فاستعمل إطاعة الله لغيره بمعنى الإجابة، وحسنُه المشاكلة لقول عمِّه: «إنَّ ربَّك يطيعك». أو «يَسْتَطِيعُ» بمعنى: يفعل، تعبيرًا باللازم، لأنَّه يلزم من فعل الشيء أنَّ فاعله قادر عليه، أو بالملزوم البيانيِّ عن اللازم، فإنَّه يلزم من استطاعة الشيء فعله، أي ترتُّبُه عليه في الجملة، أو بالسبب العاديِّ عن المُسَبَّب، فإنَّ القدرة سبب الفعل، أو المعنى السؤال لغيرهم مِمَّن لم يطمئنَّ لا لهم، كما سأل موسى الرؤية عن قومه لا من نفسه، وذلك كُلُّه خروج عن كفر الحواريِّين لأنَّهم كالمجمع على إيمانهم.

﴿**أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ**﴾ إناء يعدُّ للطعام الواسع بأنواع منه.

(لغة) وإن لم يكن فيه طعام فهو خِوان، كإناء شرب خمر يسمَّى كأسًا إن كان فيه الخمر وإلاَّ فقدح، وكما يستقى به يسمَّى ذَنوبًا وسجلاً إن كان فيه ماء وإلاَّ فدَلوٌ، وكالجلد هو جِراب إن دُبغ وإلاَّ فإهابٌ. وهي من مادَ: تحرَّك، كأنَّها تميد بما فيها من الطعام، أو مِن مادَّهُ: أعطاه، كأنَّها معطية للآكلين، كما تقول شجرة مطعِمة، وَقِيلَ: فاعلة بمعنى مفعولة، أي معطاة.

﴿**قَالَ اتَّقُواْ اللهَ**﴾ من مثل هذا السؤال، أو اتَّقوا الله لتحصل الإجابة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ (سورة الطلاق: ٢)، ﴿**إِن كُنتُم مُّومِنِينَ**﴾ إيمانًا حقيقيًا يستتبع الأعمال الصالحة والإخلاص، أو إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان والإسلام، وليس

المعنى: إن كنتم مؤمنين بكمال قدرة الله ونبوءتي، لأنَّ من يسأل هذا السؤال شاكٌّ في قدرة الله جلَّ وعلا وفي نبوءة عيسى عليه السلام، فلا يقال له: إن كنت مؤمنًا بذلك، إلاَّ أنَّه قد تقدَّم تفاسير في استطاعة تنزيل المائدة لا تنافي الإيمان، كما أخبر عنهم بقوله:

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّاكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا﴾ متعلّق بـ«شَاهِدِينَ» محذوف، أو متعلّق بـ«تشهد» محذوف معترض، جوابٌ لقولِ من يقول: علام تشهدون؟، أو حال من ضمير «نَكُونَ»، أو متعلّق بـ«شَاهِدِينَ» بعده، على أنَّ «ال» حرف تعريف، أو على أنَّها موصولة، وقد قيل عن الكوفيين جواز تقديم معمول الصلة على الموصول، ولا سيما معمول مجرور بحرف أو ظرف. **﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾** فإنَّ حاصله أنَّا لسنا شاكّين في كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ أو نبوءتك، ولا متعنّتين باقتراح آية، بل نريد الأكل منها تبرُّكًا في الإيمان والأبدان والقلوب، وتشفّيًا من الأمراض والأدواء، وتقوّيًا لضعفائنا، واستغناء لفقرائنا، ولاسيما أنَّا في زمان القحط، ونريد بالأكل منها اطمئنان قلوبنا وازدياد إيمانها، لأنَّ العيَان أقوى من الاستدلال بكمال قدرته تعالى، ونريد أن نزداد علمًا في دعوى الإجابة والنبوءة إنَّه ـ أي الشأن، أو إنَّك ـ قد صدقتنا ـ وقد أجاز بعضٌ تقدير الضمير لغير الشأن مِن تكلُّمٍ أو خطابٍ أو غيبةٍ بحسب الإمكان، حيث يُقَدِّرُون ضمير الشأن ويقيسون على ذلك ـ ونريد أن نشهد لك عند الله وعند الخلق على نبوءتك بآية سماويَّة غير سائر معجزاتك الأرضيَّة مرغوب فيها طبعًا. والمعنى: من الشاهدين لك بها عند من لم يشاهدها، أو: من الشاهدين لك بالنبوءة، أو: من الشاهدين لله

بالوحدانيَّة.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أظهر بعد الإضمار زيادةً في تفخيم شأنه عليه السلام في إجابته إلى مرغوب فيه عظيم، ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ بدل، أو منادى بمحذوف، لا نعتٌ.

«اللهمَّ» لا ينعت ولا يعطف عليه بحرف ولا ببيان، لأنَّ الله لا يخفى عنه، وَقِيلَ: يجوز نعته والعطف عليه نحو: «اللهمَّ وخالق كُلِّ شيء». ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لم يقل: المائدة مع عهدها تعظيمًا، ولأنَّ المعهود من كلامهم مطلق المائدة، والتي في دعائه مقيَّدة بأنَّها تكون عيدًا كما قال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ يكون يوم نزولها عيدًا نعظِّمه كلَّ عام على استمرار، فنزلت يوم الأحد فاتَّخذوه عيدًا، وتركوا الجمعة المأمورين هم بها، أو المخيَّرين فيها وفي غيرها، فحذف مضافان. أو سمَّاها عيدًا لأنَّها سبب كون اليوم عيدًا، أو «عيدًا»: سرورًا، أي نَتَّخِذُ يوم نزولها يوم سرور وعبادة، وما يعود ويتكرَّر يسمَّى عيدًا، ويوم العيد يعود كلَّ سنة أو يعود بالفرح، ويقال لِكُلِّ حالة تعاود الإنسانَ أو غيره عيدٌ ـ والياء عن واو ـ أو تكون لنا طعامًا يعود إلينا مرَّة بعد أخرى؛ وإسناد العيديَّة إليها على هذا حقيقة.

﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل مِن «لَنَا»، أي: لمتقدِّمينا ومتأخِّرينا بدل مطابق، لأنَّ المُتَقَدِّمين والمتأخِّرين هم معنى «نَا» من قولهم: «لنا»، والمُراد: لنا ولمن بعدنا، فإمَّا أن يريدوا يوم نزولها وهو مستمرٌّ، أو يريدوا دوامها، أو تجدُّد نزولها.

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ يا رَبِّ، تدلُّ على كمال قدرتك وصحَّة نبوءتي، ﴿وَارْزُقْنَا﴾ المائدةَ، وكلَّ ما نحتاج إليه، والشكرَ على الرزق، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنَّك خالق الرزق جوادٌ معطٍ بلا عوض.

لَمَّا رأى غرضهم صحيحًا في ذلك، ورآهم لا يكفُّون عنه، وخاف كفرهم إن لم يفعل، قام واغتسل ولبس المسح من الشعر، وطرح الصوف، وصلَّى ركعتين وقام مستقبلاً، وَصَفَّ قدميه حتَّى ألصق كعبًا بكعب، ووضع يمناه على يسراه فوق صدره، وبكى حتَّى ابتلَّت لحيته، ووصل الدمع الأرض، وطأطأ رأسه، وغضَّ بصره، وقال ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ مرارا، كما يدلُّ عليه التشديد، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إجابة لدعائك وسؤالهم، ﴿فَمَنْ يَّكْفُرْ﴾ بي أو بك، أو بصفة من صفاتي ﴿بَعْدُ﴾ بعد نزولها ﴿مِنكُمْ فَإِنِّيَ أُعَذِّبُهُ, عَذَابًا﴾ اسم مصدر هو التعذيب مفعول مطلق لا مفعول به، لأنَّ عذَّب متعدٍّ لواحد وهو هاء «أُعَذِّبُهُ».

﴿لَآ أُعَذِّبُهُ,﴾ هذه الهاء مفعول مطلق واقعة على «عذاب»، بمعنى التعذيب، كقولك القيام قمته، لا مفعول به، والمفعول به هو قوله: ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ الخلق كلِّهم، لأنَّهم مسخوا قردة وخنازير ولم يعذَّب بذلك أحد قبلهم ولا بعدهم، وقوم داود الصائدون في السبت مُسخوا قردة خاصَّة مع أنَّهم ماضون، والآية في المستقبل فَالمُرَادُ لا أعذِّبه بعدهم، فإنَّه قال: ﴿لَآ أُعَذِّبُهُ,﴾ ولم يقل: لم أعذِّبْهُ، أو المُراد عالَمُو زمانهم. وَقِيلَ: مسخ قوم داود قردة وخنازير وأصحاب المائدة خنازير فقط، وَقِيلَ: المُراد عذاب الآخرة، فعن

ابن عمـر: «**أشـدُّ النـاس عذابًـا يـوم القيامـة مـن كفـر مـن أصحـاب المـائدة، والمنافقون، وآل فرعون**».

(قصص) والمشهور ما ذُكر من أنَّـها نزلت. وَقِيلَ: عـن مجاهد والحسـن أنَّـه لـمَّا قـال: ﴿فَمَـنْ يَـكْفُرْ...﴾ إلخ، قـالوا: لا حاجـة لنـا بهـا فلـم تــنزل، **والصحيح** نزولها. ولـمَّا نزلت جاءت اليهود ينظرون فرأوا مـا غمَّهـم وغـاظهم فرجعوا، وشرط عليهم أن لا يخونوا ولا يدَّخروا ففعلـوا مـا نهـوا عنـه فرُفِعـت. روي أنَّه نزلت سـفرة حمـراء بيـن غمـامتين وهـم ينظـرون حتَّـى سـقطت بيـن أيديهم فبكى عليه السلام، وقال: «اللَّـهُـمَّ اجعلني من الشاكرين، اللَّـهُـمَّ اجعلها رحمة للعالمين، ولا تجعلها مُثْلة وعقوبة». ثمَّ قام فتوضَّأ وصلَّى وبكى ثمَّ كشـف المنديل، وقال: باسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بـلا فلـوس ولا شـوك تسيل دسمًا، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خلٌّ، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد زيتون وعلى الثاني عسل، وعلـى الثـالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد. وَقِيلَ: على واحد زيتـون، وعلـى الآخر تمرات، وعلى الآخر خمـس رمَّانـات، وَقِيـلَ: فيهـا سبعة أرغفـة، وسـبعة أحوات. والفلوس: ما يقشَّر منهـا، والشـوك: عظامهـا الشبيهة بالشـوك. فقـال شمعون: يا روح الله أَمِنْ طعام الدُّنيـا أم مـن طعـام الآخـرة؟ قـال: ليـس منهمـا ولكن اخترعه الله تعـالى بقدرتـه، كلـوا مـا سـألتم، واشـكروا يمددكـم الله ويزدكم من فضله. فقالوا: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآيـة آيـة أخـرى، فقال: يا سمكة، أحيي بإذن الله، فاضطربت ثمَّ قال لهـا عـودي كمـا كنـت فعادت مشوية، وأكل من أكل مـن المـائدة في ذلـك فطـارت وقـد شـبعوا، ولم

تـنزل بعدُ.

(لغة) قال القرطبي جاء في حديث سلمان أنَّ المـائدة سفرة لا مـائدة ذات قوائم، والسفرة مائدة النبي ﷺ وموائد العرب، ويقال الخوان: مَا ارتفع من الأرض بقوائمه، والمائدة: ما بسط على الأرض من الثياب والمناديل، والسفرة: ما أسفر عمَّا في جوفه. وعن الحسن: الأكل على الخوان فعل الملوك، وعلى المنديل فعل الأعاجم، وعلى السفر فعل العرب. والسفرة في الأصل: طعام يَتَّخِذُه المسافر، والغالب حمله في جلد مستدير، فنقل اسمه لذلك الجلد فسمِّي به، ولأنَّ للجلد المذكور مغاليق تنضمُّ وتنفرج فللانفراج سمِّيت سفرة.

(قصص) وعصوا بعدما رفعت فمسخوا. وَقِيلَ: كانت تأتيهم أربعين يومًا، تأتي في يوم ولا تأتي في يوم، تجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار، يأكلون حتّى إذا فاء الفيء طارت، وهم ينظرون في ظلها، ويقعد لها أربعة آلاف ولا ينقص منها شيء، ولا يأكل منها فقير إلاّ غني مدَّة عمره، ولامريض إلاّ برأ ولن يمرض أبدًا، حتّى أوحى الله إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء دون الأغنياء والأصحَّاء، فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً، وروي ثلاثمائة وثمانون، باتوا ليلتهم مع نسائهم ثمَّ أصبحوا خنازير، ولـمَّا أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تـُطيف به، وجعل يدعوهم بأسمائهم ويشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيَّام وماتوا، وَقِيلَ: سبعة، وَقِيلَ: أربعة، وَقِيلَ: دعا الله عيسى أن يقبض أرواحهم فأصبحوا لا يدرى هل الأرض ابتلعتهم أو ما الله فاعل بهم.

وعن كعب: نزلت تطير بها الملائكة بين السماء والأرض، عليها كلُّ الطعام إلاَّ اللحم، وعن قتادة: عليها ثمر من ثمر الجنة، وهو رواية عمَّار بن ياسر، وعن عطية العوفيِّ: نزلت سمكة فيها طعم كُلِّ شيء. وذكروا أنَّهم قالوا لعيسى عليه السلام: ابدأ الأكل، فقال: معاذ الله إِنَّمَا يبدأ من طلبها، فقيل: لَمَّا قال ذلك تحاموها، فدعا لها الفقراء والزمنَى، فقال: ابدأوا باسم الله واختموا بحمده سبحانه، وَقِيلَ: أكل منها مرَّة واحدة ألف إنسان بين ذكر وأنثى وثلاث مائة، وَقِيلَ: كرِّرت وتزاحم الناس، فجُعلت للفقراء والصبيان فكفر الأغنياء بها، وَقِيلَ: لَمَّا نزلت لم يكشف عليها عيسى بل قال: ليقم أحسنكم عملاً فيكشف عنها، ويسمِّي الله، ففعل شمعون وهو رئيس الحواريِّين.

وقال الحسن ومجاهد: لَمَّا أراد الله إنزالها على شرط إن لم يؤمنوا عذِّبوا استعفوا، فلم تنزل، فمعنى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ إنزالها على قبول الشرط فلم يقبلوه. وأخطأ من قال: المائدة عبارة عن حقائق المعارف رغبوا في الوقوف عليها، وشرط عليهم أن يتَّقوا فيطَّلعوا عليها، وأن لا يضعفوا عن مقامها فيزلُّوا فيهلكوا.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ

أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾

تبرئة عيسى من مزاعم النصارى

﴿**وَإِذْ قَالَ**﴾ أي يقول، والماضي للتحقُّق كأنَّه وقع، والعطف على «إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ»، وَقِيلَ: قال ذلك حين رفع إلى السماء. ﴿**ا للهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَآنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّيَ**﴾ لم يقل ومريم ليوبِّخهم أيضًا بأنَّهم جعلوا من هو مولود ومن هي والدة إلهين، مع أنَّ الإله لا يلد ولا يولد، ﴿**إِلَهَيْنِ مِن دُونِ ا للهِ**﴾ لـمَّا نزلت الآية أنكر النصارى القول بأنَّ مريم إلـه خجلاً، أو كان قوم منهم قبلهم يقولون ذلك ولم يدروا بهم، كما حَكَى بعضُ الشيعة عن بعض النصارى أنَّ طائفة منهم فيما مضى تسمَّى الـمَرْيَمِيَّة يعتقدون ألوهيَّتها، كما أنَّ في أسلاف اليهود قومًا يقولون: عزيز ابن ا لله تعالى.

وذلك أولى من أن يقال عظَّموها تعظيم ا لله سبحانه فكَأَنَّهُم جعلوها إلهًا، كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ...﴾ إلخ (سورة التوبة: ٣١)، وأولى من أن يقال: لـمَّا جعلوا عيسى إلهًا لزم أنَّ أمَّه إله، لأنَّ الولد من جنس من ولده، توبيخ للنصارى بإقرار عيسى ومريم بعبوديَّتهما لله عزَّ وجلَّ، وبكذبهم على قولهم

بألوهيَّة عيسى وأمِّه عليهما السلام، وأنَّ عيسى قائل لهم: «اتَّخِذوني...» إلخ، ولهذا قال: ﴿ءَآنتَ قُلْتَ﴾ و لم يقل: «أقلت؟». ولايصحُّ ما قيل: إنَّه لو قال: «أقلت» لكان المستفهَم عنه وقوع الاتِّخاذ، وهو معلوم الوقوع لا يستفهم عنه، لأنَّا نقول المستفهَم عنه القولُ لا الاتِّخَاذ.

وَمَعنَى الاتِّخَاذ من دون الله: استلحاقهما بالله توصُّلاً بهما إليه تعالى، كقول عبدة الأصنام: تقرِّبُنا إلى الله زُلفى. ويقال: لم ينف الله نصرانيٌّ بل يعبدون الله وإيَّاهُما، قالوا لعنهم الله: الله كالشمس وهما كشعاعها، ومَن فَعَل ذلك لم يكن عابدًا إلاَّ لغير الله، لأنَّ الله أغنى الشركاء عن الشركة.

أو معنى الاتِّخَاذِ من دون الله: الاقتصارُ على عبادتهما، ولو عبدوه أيضًا، لبطلان عبادته بالشركة، وَالأُلُوهِيَّة لا تتعدَّد ولا تتجزَّأ، ولو كان معتقدهم اجتماع عبادته وعبادتهما، أو أنَّهما الإلهان لا الله، حتَّى قالوا: إنَّه هو خالق معجزاته لا الله، ولا قائل الآن من النصارى إنَّ عيسى وأمَّه خلقا تلك المعجزات.

﴿**قَالَ**﴾ مرتعدًا مقشعِرًّا منفجرة من أصل كُلِّ شعرة عينُ دَم، ﴿**سُبْحَانَكَ**﴾ أسبِّحك عن الإنكار والشركة وصفات الخلق!. وقدَّر بعض: «سبحانك أن أقول ذلك»، أو يقال: وقدَّر بعض: «سبحانك أن يكون لك شريك فضلاً عن أن تُنفَى الألوهةُ عنك وتُثبت لغيرك». وقدَّر بعض: «سبحانك أن تبعث رسولاً يدَّعي الألوهة لنفسه أو غيره ويدعو إليهما ويكفر نعمتك».

﴿**مَا يَكُونُ**﴾ لا يليق ولا يثبت ﴿**لِيَ أَنَ اَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**﴾ من إثبات

الأُلُوهِيَّة لي ولأمـِّي، والأمر باتـِّخاذها لغيرك، و«بِحَقٍّ» خبر «لَيْسَ»، و«لي» متعلّق بـ«ليس» أو «بِحَقٍّ»، أو حال منه أو بيانٌ، أي: أعني لي، والخبرُ: «لي»، فتكون الباء غير صلة بل تعلّق بـ«لي»، أو باستقراره، أو حال من ضمير الاستقرار.

(نحو) ولا إشكال في نصب القول المفرد الذي معناه جملة، فإنَّ ما في الآية بمعنى: ﴿اِتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ كما تقول: قال شعرًا، وإنَّما يؤوَّل بالذِّكر لو نصب مفردًا ليس في معنى الجملة نحو: قلت الله، أي ذكرت هذا اللفظ.

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ صحَّ الماضي المجرَّد المتصرِّف خبرًا لـ«كان»، لأنَّه في مقام الشرط، والشرط أبدًا مستقبل كالجواب، وهو هنا كذلك، لأنَّ المعنى: إن صحَّ أنِّي قلته، والصحَّة منتظرة الوقوع، وفي معناه قول الفارسي: إنَّ المعنى: إن كنت الآن قد قلته فيما مضى، لأنَّ كونه الآن مُتَّصِفًا بأنَّه قاله في الماضي، منتظر الصِّحَّة، وكذا علمته أي فقد تَبَيَّنَ الآن عِلْمُكَهُ، فكان كغيرها للاستقبال بعد أداة الشرط، والآية من انتفاء الملزوم بانتقاء اللازم، فإنَّ كون عيسى قائلاً بذلك يستلزم علم الله تعالى بكونه قال، فإذا انتفى علم الله به فهو لم يكن.

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ أجاز بعضٌ كونَ العلم بمعنى المعرفة، ولم يشترط للمعرفة تقدُّم الجهل فله مفعول واحد، ومَن شرط ذلك قدَّر: «تعلم ما في نفسي ثابتًا». والنفس: الذَّات أو القلب. ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ما في معلوماتك التي لم تطلعنا عليها، أو ما عندك.

(لغة) وعبر بالنفس للمشاكلة، لأنَّه جلَّ وعلا لا يتَّصف بالقلب،

وكذا لا يقال: لا أعلم ما في ذاتك، لأنَّه تعالى لا يكون ظرفًا، وإن فَسَّرنَا النفس بالذَّات فالمشاكلة بلفظ «في» والنفس جناس، ومن هذا المعنى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (سورة الأنعام: ٥٤)، ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (سورة طه: ٤١)، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ (سورة آل عمران: ٢٨، ٣٠). وقوله ﷺ: **«أقسم ربِّي على نفسه أن لا يشرب عبد خمرًا ولم يتب إلى الله تعالى منه إلاَّ سقاه من طينة الخبال»**[١]، وقوله ﷺ: **«ليس أحد أحبَّ إليه المدحُ من الله عزَّ وجلَّ ولذلك مدح نفسه»**[٢]، وقوله ﷺ: **«سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه»**[٣].

أو «نفسك» بمعنى غَيْبكَ. وأجيز أنَّ النفس الثانية نفس عيسى أيضًا أضافها إلى الله تعالى، لأنَّه سبحانه خالقها ومالكها. ﴿**إِنَّكَ أَنتَ**﴾ لا أنا ولا غيري ﴿**عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ تقرير بمنطوقه لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ وتقرير

١- رواه **أبو داود** في كِتَاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، رقم ٣٦٨٠، من حديث ابن عَبَّاس، و**الطبراني** في الكبير، ج٨، ص ١٩٧، رقم ٧٨٠٣ و٧٨٠٤ بنفس المعنى وزيادة. من حديث أبي أمامة.

٢- رواه **مسلم** في كِتَاب التوبة (٦) باب غيرة الله تَعَالَى وتحريم الفواحش، رقم ٣٢، (٢٧٦٠)، مع زيادة في آخره. من حديث أبي وائل عن عبد الله. ورواه **الطبراني** في الكبير، ج١، ص٢٨٦، رقم ٨٣٦، مع زيادة: «ولا أحد أكثر معاذير من الله عَزَّ وَجَلَّ». من حديث الأسود بن سريع.

٣- رواه **مسلم** في كِتَاب الذكر والدعاء (١٩) باب التسبيح أَوَّل النَّهَار وعند النوم. رقم ٧٩ (٢٧٢٦) مع زيادة في آخره. ورواه **النسائي** في كِتَاب السهو (٩٤) نوع آخر من عدد التسبيح، رقم ١٣٥١، مع زيادة من حديث جويرة بنت الحرث.

بمفهومه لقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾. ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمُ, إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنُ اَعْبُدُواْ اُ للهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾ تأكيدًا لقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، ولقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنَ اَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، وللمراد بقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ, فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فإنَّه انتفاء من أن يقوله . و«أن اُعبدوا ا لله ربِّي وربكم» تفسيرٌ لقوله: ﴿مَآ أَمَرْتَنِي﴾، فيكون في قوله: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى غيرها.

والأصل: «أن اعبدوا ا لله ربَّ كُلِّ شيء»، ومن كان ربًا لعيسى ومخاطبيه يكون ربًّا لِكُلِّ شيء، فلا يكون قوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ مانعًا من التفسير، وذلك التفات. وأجاز بعض أن يكون المعنى: ما قلت لهم شيئًا سوى قولك: قل لهم: أن اعبدوا ا لله رَبِّي وَرَبُّكُمْ، وَضَعَ القول موضع الأمر، فصحَّ ذلك بلا تأويل بالالتفات السكَّاكي، وفيه تكلُّف.

(نحو) ويجوز تضمين القول معنى الأمر، فيصحُّ أن يكون تفسيرًا للقول وأمَّا على إبقائه على ظاهره فلا، لأنَّ «أن» التفسيريَّة لا تتوسَّط بين القول ومحكيِّه. وقال ابن الصائغ وأبو حيَّان: «أَنْ» تفسيرية لـ«اعْبُدُوا ا للهَ». ومن أجاز دخول «أن» المصدريَّة على الأمر والنهي أجاز أن يكون مصدر «اعْبُدُوا» بدلاً أو بيانًا من «ما» في قوله: ﴿إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ والقول يُحكى به الجملةُ والمفرد الذي في معنى الجملة، مثل «ما» هذه فإنَّها حكيت بالقول مع أنَّها مفرد، ومثل لفظ العبادة في مقام الأمر بها، فإنَّها تُؤَدى بقولك: «اعبدوا»، فَمَعنَى قولك «ما قلت لهم إلاَّ العبادة»: إلاَّ الأمر بها، ولاسيما أنَّ الجملة قبل التأويل بالمصدر موجودة؛ أو يضمن القول معنى الذكر فينصبُ

المفردَ، وذِكرُ العبادةِ أمرٌ بهـا، أو بـدلاً أو بيانًا مـن هـاء «بـهِ»»، ولا يشـترط في البدل أن يحلَّ محلَّ المبدل منه من كلِّ وجه، فلـو قلـت في: أكلـت الرغيـف ثلثه أكلت ثلثه، لم يتبيَّن مرجع الضمير، فكذا لو قلت: «ما قلت لهم إلاَّ ما أمرتني عبادة الله ربِّي وربِّكم» لبقي الموصول بلا عائد.

﴿**وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾ رقيبًا أنـهاهم عن الكفر، أو مشاهدًا لأحوالهـم من كفر وإيمان ﴿**مَا دُمْتُ فِيهِمْ**﴾ أي المـدَّة الماضيـة مـن كونـي فيهـم ﴿**فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي**﴾ أمتّني في الأرض بلا قتل كمـا قيـل إنـَّه مـات وأحيـاه الله ورفعـه إلى السماء، ويبعد أن يقال: أمتّني عند قرب الساعة فكُنتَ عليهم شـهيدًا فيمـا بقـي من الدُّنيا بعدي، وقبل ذلك كنت شاهدًا عليهم، قبل الرفع وفي السـماء بعـد الرفع، بأن يؤتى بأخبارهم إليه في السماء؛ أو المـراد بـالتوفّي إليـه: رفعُـه بـلا مـوت، أي أخذتـني وافيًـا إلى السـماء، لأنَّ التوفّـي بمعنـى الأخـذ واردٌ، والجمهور على أنـَّه رُفِع بلا موت قبله، وَقِيلَ: مـات وأحيـاه ورفعـه، وكـذا تقول النصارى.

﴿**كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ**﴾ الحـافظ لأعمـالهم والمراقـب لأحوالهـم، والموفّـق لمـن أردت والخـاذل لمـن أردت، أو الرقيـب بإرسـال الدلائـل وإقامـة الحجج. قال الغزالي: الرقيب أخصُّ من الحافظ، لأنَّ الرقيـب هـو الـذي يراعـي الشيء ولا يغفل عنه أصلاً، ويلاحظه ملاحظة واجبة لازمة، ولو كانـا في صفـة الله سواء. ﴿**وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ ومنه قولي لهم وقولهـم معي وبعـدي، ﴿**شَهِيدٌ**﴾ مطّلع عالم ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ**﴾ لإصرارهـم فـلا اعـتراض عليـك، أو فـأنت عدل في تعذيبهم، أو غير ظالم لهم، أو لا يمتنعوا من عذابك لأنـَّهم في أسر

ملكك كما قال: ﴿**فَإِنَّهُمْ**﴾ لأنَّهم ﴿**عِبَادُكَ**﴾ مملوكوك. وعن ابن عبَّاس: «وقد عبدوا غيرك فهم أهل التعذيب». ﴿**وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ بأن تابوا وماتوا غير مصرِّين على الشرك أو ما دونه، والكلام كلّ لا كُلّيَّة، لأنَّهم لم يصرُّوا جميعًا ولم يتوبوا جميعًا، فقد أحسنت إليهم وقبلت توبتهم، ﴿**فَإِنَّكَ**﴾ لأنَّك ﴿**أَنتَ الْعَزِيزُ**﴾ الغالب في أمره لا يردُّ له قضاء ولا فعل ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ الذي لا يعبث ولا يُسَفِّه، ولا يضع الشيء في غير موضعه.

وَقِيلَ: ذلك من كلام عيسى في الدُّنيا، إن تعذبهم بإبقائهم على الكفر فإنَّهم عبادك، وإن تغفر لهم بالتوفيق إلى الإسلام فإنَّك أنت العزيز الحكيم. تلا ﷺ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ...﴾ إلخ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ...﴾ إلخ (سورة إبراهيم: ٣٦) وبكى، ورفع يديه وقال: «**اللَّهُمَّ أمَّتي أمَّتي**» فأوحى الله تعالى إليه: «**إنَّا سَنُقِرُّ عينك في أمَّتك ولا نسوءك**».

﴿**قَالَ اللَّهُ**﴾ يقول الله، فالماضي لتحقُّق الوقوع، ﴿**هَذَا**﴾ مفعول للقول، لأَنَّهُ إشارة إلى الجملة، وهي قوله: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾. ﴿**يَوْمَ**﴾ متعلِّق بـ«قَالَ» أعاد ذكر الجملة ليرتِّب عليها قولَه: ﴿**يَنفَعُ الصَّادِقِينَ**﴾ قولاً وفعلاً واعتقادًا في الدُّنيا، كعيسى، فإنَّ ما أخبر به عن نفسه يوم القيامة إخبار عمَّا صدق بهِ في الدُّنيا، أو مَن صَدَق في الآخرة لم ينفعه صِدْقه إن لم يصْدُق في الدُّنيا، هذا كما يؤمن الكفَّار في الآخرة ويقولون الحقَّ ولا ينفعهم، ومن ذلك قول إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ...﴾ الآية (سورة إبراهيم: ٢٢)، ﴿**صِدْقُهُمْ...**﴾ إلخ، أو المعنى: يقول الله يوم القيامة: هذا اليوم يوم ينفع الصادقين صدقهم.

وبُني «يَوْمَ» على الفتح لإضافته للجملة في قراءة نافع وهو جائز، ولو كان الفعل معربًا أجازه الكوفيُّون وابن مالك، أو المعنى: يقول ا لله هذا المذكور من التعذيب والمغفرة ثابتان يوم ينفع...إلخ، فالفتح [فَتحُ] إعرابٍ، بيَّن النفع بقوله:

﴿**لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِي ا للهُ عَنْهُمْ**﴾ أي عليهم، أي أعطاهم، أو «عَنْ» لمجاوزة ضدِّ الرضا عنهم. ورضاه: قبوله لأعمالهم، أو إثباته لهم، أو علمه بأنَّهم سعداء، أو إسعاده إيَّاهم، أو مدحه لهم. ﴿**وَرَضُواْ عَنْهُ**﴾ عملوا بما أمرهم به، وانتهوا عمَّا نهى، أو قبلوا أحكامه ولم يسخطوها، ولم يكرهوا ما يجري، شقَّ عليهم فصبروا، أو لم يشقَّ عليهم اختيارًا لِمَا لله عمَّا لهم.

قال الجنيد: «الرضى يكون على قدر قوَّة العلم والرسوخ في المعرفة، والرضى حال يصحب العبد في الدُّنيا والآخرة، وليس محلُّه محلَّ الخوف والرجاء والصبر والإشفاق، وسائر الأحوال التي تزول عن العبد في الآخرة»، قال: «بل العبد يتنعم في الآخرة بالرضى ويسأل ا لله الرضى فيوحى إليهم: «**رضائي أحلَّكم داري**»، قال محمَّد بن الفضل[1]: الرَّوح والراحة في الرضى واليقين، والرضى **باب ا لله الأعظم، ومحلُّ استراحة العابدين**».

﴿**ذَٰلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ**﴾ أي جميع ما تقدَّم عند الحسن، أو ذلك المذكور

١- في **تهذيب سير أعلام النبلاء** محَمَّد بن فضيل بن غزوان، الإمام الصدوق الحافظ، مُصَنِّف كِتَاب الدعاء وكتاب الزهد، وكتاب الصيام وغير ذَلِكَ حدَّث عن أبيه وعاصم الأحول وغيرهما. وثَّقه ابن معين. مات سنة ١٩٥. وقد احتَجَّ به أرباب الصحاح. انتهى. ج١، ص٣١٨.

من نيل الرضوان.

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ منافع ذلك كالمطر والنبات والرزق، ومضارُّه كالقحط والزلازل والصواعق والموت، ولا ملك لذلك في أحد ولا لعيسى ولا لمريم، والكلُّ عبيد له عزَّ وجلَّ. و«مَا» تغليبٌ لغير العاقل، وَقِيلَ: تطلق على عموم العاقل وغيره بلا تغليب، بخلاف «مَن» فإنَّها تطلق في العموم على غيره تغليبًا، وفي التعبير بـ«مَا» تلويحٌ على أنَّ العقلاء والحيوانات والجمادات سواء في انتفاء الأُلُوهِيَّة واستحقاقها، فالنصارى سفهاء في دعواهم في عيسى ومريم. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه خزي النصارى وتعذيبهم دنيًا وأخرى، وإثابة المسلمين ونصرهم فيهما.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم.



تفسير سورة الأنعام وآياتها ١٦٥

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ① هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ② وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ③﴾

قدرة الله ونعمه الدالّة على وجوده وعلى البعث

قوله تعالى ﴿بِسْمِ ا للهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للهِ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ إخبار بأنَّ جميع الحمد لله عزَّ وجلَّ حتَّى حمد مخلوق لمخلوق على نعمةٍ، لأنَّ ا لله عزَّ وجلَّ هو الخالقُ لها، الموفِّقُ لإعطائها، والملقي الإحسان في قلب المعطي، فا لله أهل للحمد، حُمِد أو لم يُحمد. وإذا قلنا: «الْحَمْدُ للهِ» إخبار منَّا على جهة تعظيم ا لله بأنَّه أهلٌ للحمدِ فقد حمدنا، ولا سيما إن قصدنا الإنشاء بالجملة الاسميَّة على القِلَّة، فقد حصل الحمد، إلاَّ أنَّ الوجه الأوَّل أحسن لعمومه من قصد الإنشاء، فإنَّ قصده مطابق لقول من يقول المُرادُ: أحمد ا لله حمداً، فنقل للجملة الاسميَّة، فإنَّ قولك: «أحمد» يوهم أداء حقِّ الحمد، ولو على قصد الاستمرار مع أنَّ حقَّ الحمد لا يفي به أحد.

فإنَّ كلَّ الحمد نعمة توجب الحمد على التسلسل، لأنَّ كلَّ الحمد بتوفيق،

وهو نعمة كما قال داود ذلك، فأوحى الله إليه: «الآن شكرتني إذ عرفت عجزك عن شكري»[١]، ولمَّا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علمنا أنَّ المُراد بالحمد في أوَّل الفاتحة والأنعام وغيرِهما **تعليمُ العباد اللفظَ الذي يلفظون به في إيقاع الحمد.**

ويجوز أن تكون الجملة إنشاء من الله كما ورد أنَّه قال: «سبحاني»، وأن يُقَدَّرَ على تعليم إنشاء الخلق الحمد: قولوا الحمد لله.

وجمع السماوات لتخالفها بالذَّات كذهب وفضة وموج، بخلاف الأرضين فإنَّهنَّ ولو كنَّ سبعاً كالسَّماوات لَكِنَّهُنَّ كُلَّهُنَّ تراب، وورد في بعض الأخبار تخالفهنَّ[٢]، والله أعلم بِصِحَّةِ ذلك وعدمه، وأمَّا كونهنَّ سبعاً فهو الحقُّ كما قال: ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (سورة الطلاق: ١٢)، والتأويل خلاف الأصل؛ وقد روى الترمذيُّ عن أبي هريرة عنه ﷺ: «**إنَّ الأرضين سبعٌ بين الواحدة والواحدة خمسمائةَ عام**». وقدَّم السماوات لشرفهنَّ بالوحي والملائكة وعبادتهم وعدم المعصية فيها إلاَّ ما وقع من إبليس، ولِتقدُّم خلقهنَّ كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَالِكَ دَحَاهَا﴾ (سورة النازعات: ٣٠).

(قصص) ويقال: خلق الله عزَّ وجلَّ إبليس تحت الأرض السابعة،

---

١ - أورد الأثرَ ابنُ كثير في تفسير آيَة سبأ: ﴿اعملوا ءال داود شكرا﴾ بلفظ: «حين قلت إنَّ النعمة مِنِّي». ابن كثير: التفسير، ج٣، ص٥٤٧.

٢ - وهذا ما يُؤَيِّده العلم.

فعَبَده ألف سنة، وفي السابعة ألفين، وفي السادسة ثلاثة آلاف، وفي الخامسة أربعة آلاف، وفي الرابعة خمسة آلاف، وفي الثالثة ستّة آلاف، وفي الثانية سبعة آلاف، وفي الأولى ثمانية آلاف، ثمَّ في السماء الأولى تسعة آلاف، وفي الثانية عشرة آلاف، وفي الثالثة أحد عشر ألفاً، وفي الرابعة اثنى عشر ألفاً، وفي الخامسة ثلاثة عشر ألفاً، وفي السادسة أربعة عشر ألفاً، وفي السابعة خمسة عشر ألفاً، وذلك مائة وعشرون ألفاً، وقُدَّام العرش ضعف ذلك: مائتين وأربعين ألف سنة، ولم يبق موضع في الأرض إلاّ سجد فيه، وقال: يا رَبِّ هل بقي موضع لم أسجد فيه؟ قال: نعم هو في الأرض فاهبط، فهبط فقال: ما هو؟ فقال: هو آدم فاسجد له، فقال هل بقي موضع سوى آدم؟ فقال: لا. قال: لِمَ أمرتني بالسجود له وفضَّلتهُ عليَّ؟ قال: أنا المختار أفعل ما أشاء لا أُسأل عمَّا أفعل، فارتعدت الملائكة وله ستمائة ألف جناح مُرصَّع بالجواهر ولباس من نور، وزالت كلّها لـمَّا أبى؛ وَقِيلَ: رأى آدم صورة من طين بين مكّة والطائف فاحْتَقَرَهُ لطينته فزال ذلك كلُّهُ عنه.

﴿وَجَعَلَ﴾ أي خلق، فله مفعول واحد كـ«خَلَقَ»، والفرق أنَّ في الخلق معنى التقدير كقوله: ﴿تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون: ١٤)، وقول بعضهم: «وبعض القوم يخلق ثمَّ لا يفري»، فذلك إيجاد من الله بقدر وتسوية. والعطف على ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ﴾ لا على ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾. وفي الجعل تحصيل شيءٍ من شيءٍ، أو تصييره إيَّاه، أو نقلٌ منه إليه، ولذلك سُلّط على قوله:

﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ إذ لم تقم الظلمة والنور بأنفسهما كما زعمت المجوس الثنويَّة أنَّ النور والظلمة قائمان بأنفسهما غير مخلوقين، وأنَّ خالقَ كلِّ

خيرِ النورُ وكلِّ شرٍّ الظلمةُ، ومن المجوس من قال: النور خلقه هرمز، أي الله، والظلمة خلقها الشيطان، ومن المجوس من قال يزدان[١] خلق النور وهو الله، وهرمز خلق الشرَّ، وهرمز في هذا القول الشيطان. والآية ردٌّ عليهم.

والله خالق كلِّ شيء، إلاَّ أنَّه خصَّ الظلمات والنور لأنَّهم أعظم المخلوقات للناظرين. و«الـ» للاستغراق أو الحقيقة، حتَّى إنَّه قيل: شملت نور العلم والإيمان، وظلمة الجهل والكفر، كما شملت نور الشمس والقمر والنجوم والنار وكلَّ ما له نور، وظلمةَ الليل والكسوف والخسوف، وَقِيلَ: الأجرام النيِّرة كالكواكب لا ضوء لها فلا ظلمة.

وجَمَعَ الظلمة لكثرة الأجرام الحاصلة لها، وكثرة أسبابها، وهو تخلُّل الجرمِ الكثيفِ بين النَّيِّر والمحلِّ المظلم، وكلُّ جرم له ظلٌّ وهو ظلمة، بخلاف النور فإنَّه جنس واحد، وذلك التخلُّل يكثر بكثرة الأجرام المتخلِّلة، بخلاف النور فإنَّ سببه ليس إلاَّ النَّار، والكواكب، بل قيل الكواكب وكلُّ نيِّر من النَّار، أَلاَ ترى أنَّ الضوء القويَّ حارٌّ كما قيل الكواكب نوريَّة ناريَّة، وأنَّ الشُّهب تنفصل عنها. والنور يدركه البصر أوَّلاً وبواسطته يُدرك سائر المبصرات. والظلمة عدم النور فيما يقبله؛ وَقِيلَ: الظلمة الكيفيَّة الوجوديَّة المضادَّة للنور[٢] استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ كما أنَّ الأَعدام غير مخلوقة.

---

١ - كذا في النسخ لعلَّه أمزدا كما في أساطيرهم.

٢ - راجع في الموضوع كتاب (**من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**. مع آيات الله في السماء لـ د/ حسن أبو العينين) فإنَّ التقنيات الحديثة والتقدم العلمي في الأرصاد والمناظر المكبرة أزال كثيراً من هذه الإشكالات.

قلت: الحقُّ أن الأعدام التي بعد الأزل المنبئة على وجود ضِدِّها الثابتة بفقد ضِدِّها وجوديَّة مخلوقة، كالظلمة بعد النور، والأعدام الصرفة غير وجوديَّة فلم تخلق. وأمَّا كثرة الظلمة بمعنى الضلال، وقِلَّة النور بمعنى الهدى فلأنَّ الهدى واحد، ووجوه الضلال متعدِّدة. والظلمة عَرَض يضادُّ النور، ووجوديٌّ، بدليل الجعل في الآية؛ وَقَدَّمَها لتقدُّم الأعدام على الملكة، أعني: الوجود والظلمة سابقة على النور.

﴿**ثُمَّ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ عطف على «الْحَمْدُ لله»، لأنَّ المعنى أنَّ الله حقيق بالحمد على صفاته وأفعاله ونعمه وهم لم يوفوه حقَّه في الحمد، بل كفروا وعدلوا، أي سوَّوا به غيره مِمَّا ليس له ذلك الوصف، وما معه من الأوثان وغيرها. و «ثُمَّ» لِبُعد ذلك عقلاً وشرعاً مبالغةً في ذمهم، كما بالغ فيه بتقديمه تحقيقاً للاستبعاد، وبالإظهار في موضع الإضمار تحقيقاً لاستبعاد أن يُكْفَرَ بمن هُو ربٌّ منعم قادرٌ، أو تُعَلَّق الباء بـ«كفروا»، يُقَدَّرُ مثله لـ«يعدلون»، أو يُقَدَّرُ: يعدلون عنه، أي يميلون.

(أصول الدّين) والكفر بمعنى الإشراك وبمعنى كفر النعمة، والآية دَلِيل على التوحيد، والتي بعدها إلى قوله: ﴿تَمْتَرُونَ﴾ دَلِيل على البعث.

﴿**هُوَ الذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ**﴾ بخلق أبيكم آدم منه، إذ ما كنتم إلاَّ منه، وهو من طين، فكأنَّكم من طين بلا توسُّط آدم. ويروى عنه ﷺ: «**ما من مولود يولد إلاَّ ويدرُّ على النطفة من تراب قبره**»[1]، وعلى هذا فهو من طين

١- رواه **الهندي** في الكنز، ج١٥، ص ٦٩٢، رقم ٤٢٧٦٦، بنفس المَعْنَى وزيادة. من حديث ابن مسعود.

بلا توسُّط من آدم، **قلت:** وعلى تقدير صحَّة الحديث لا نسلِّم أنَّ درَّ التراب على النظفة خلق من التراب. ويجوز أن تكون الواسطة الغذاءُ المتولِّد من تراب، أو مِمَّا تولَّد منه. أو يُقَدَّرُ مضاف، أي: خلق أباكم من طين، ومن خُلِق من طينٍ فهو طِينيٌّ. والخطاب لِلكُفَّارِ على طريق الالتفات، **وخلق السماوات والأرض والظلمة والنور دلائل قَوِيَّة على قدرته تعالى على البعث.** وعقَّبها بخلقهم من طين لأنَّ دَلِيل الأنفس أقرب إلى الناظر.

﴿**ثُمَّ قَضَى**﴾ في الأزل، أي قدَّر وحكم ﴿**أَجَلاً**﴾ للموت، و«ثُمَّ» لترتيب الذكر، لأنَّ الخلق مُتَأَخِّر عن القضاء الذي هو الإرادة الأزليَّة، والعناية الإلهيَّة المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاصٍّ، والقَدَرُ: وجودهنَّ خارجاً، وهو تعلُّق تلك الإرادة بالأشياء في أوقاتها.

أو قضى: بمعنى أظهر في اللوح المحفوظ وللملائكة، فتكون «ثُمَّ» لترتيب الزمان. وفي البخاري ومسلم وغيرهما عنه ﷺ: «**إنَّ أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمِّه أربعين يوماً نظفةً ثمَّ يكون علقة مثل ذلك، ثمَّ يكون مضغة مثل ذلك، ثمَّ يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد**»[1].

﴿**وَأَجَلٌ مُّسَمًّى**﴾ مثبت مُعَيَّن لا يقبل التغيير، ومعلوم ومذكور في اللوح

١- رواه **البخاري** في كِتَاب بدء الخلق (٦) باب ذكر الملائكة رقم ٣٠٣٦ من حديث زيد بن وهب. قال عبد الله: «حدَّثنا رَسُول اللهِ (ص)...».

ورواه **مسلم** في كِتَاب القدر (١) باب كَيفِيَّة الخلق الآدمي في بطن أمِّه... رقم ١ (٢٦٤٣). من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله.

المحفوظ ﴿عِنْدَهُ,﴾ هو يوم القيامة، وصفه بأنَّه عنده إشعارًا بأنَّه لا مدخـل ولا قدرة لغيره فيه ولا علم، بخلاف الأجل المذكور أوّلاً، فقد يكـون معلومًـا عندنـا على التعيين، كما يوحى به للأنبياء، ونعلم أيضًا مدَّة حيـاة الإنسـان إذا شـاهدنا موته أو أُخبرنا به، وعلمنا عمره، وذلك بعد الموت، وإنَّما انتفى قبل موته؛ قـال ا لله عزَّ وجلَّ في موضع موته: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (سورة لقمان: ٣٤).

والأجل: آخر المدَّة، وقد يطلق أيضًا على المدَّة، كما قال ابن عبَّاس رضي ا لله عنهما: «لكل أحد أجلان، أجلٌ من ابتداء الخلق إلى الموت، وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان برًّا تقيًّا وَصولاً لرحمه زيد له من أجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجرًا قاطعًا لها نقص من أجل العمر في أجل البعث». والآية قابلة لهذا، والمعنى: أنَّه قضى له بطول العمر لبرِّه أو بقصره لفجوره.

وَقِيلَ: الزيادة والنقـص: البركـة في العمـر وعدمهـا، أو «أجـل» الأوَّل في الآيـة أجل الماضين والثاني أجل الباقين، وخـصَّ الثـاني بالعنديَّـة لأنَّـه لا يعلمـه غـيره، أو الأوَّل أجل الطبيعة الذي لو بقي الشـخص على طبيعتـه، ومزاجـه المختصِّ بـه، و لم تعرض له آفة خارجة لانتهت إلى أن تنحل رطوبته وتنطفئ حرارته الغريزة فيمـوت، وكلُّ ذلك بخلق ا لله عزَّ وجلَّ؛ والثاني أجلُ الاخترام بنحو القتل والغـرق؛ أو الأوَّل للنوم والثاني للموت؛ وَقِيلَ: الأوَّل الأجل وقت حياته في الدُّنيا والثاني أجل الآخـرة الذي لا آخر له، ونسب لمجاهد وسعيد بن جبير، وانظـر كيـف يطلـق الأجـل على المدَّة التي لا نهاية لها، الجواب أنَّ المُراد بالأجل مدَّة لها نهاية وزمان لا ينتهي.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ تشكُّون أيُّها المشركون في البعـث، و«ثُـمَّ» لاستبعاد

أن يكون امتراؤهم حَقًّا جائزًا بعد أن ثبت عندهم أنَّه خالقهم، وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فكيف لا يقدر على ردِّهم بعد الموت؟ فإنَّه أهون من خلقهم في بادي الرأي، وسواء في الحقيقة. ﴿وَهُوَ﴾ أي الله، بمعنى واجب الوجود؛ أو الشأن، فتكون الجملةُ بعده خبرَه، ﴿اللَّهُ﴾ أي المعبود، ولتضمُّنه معنى المعبود علّق به قوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ وذلك نظر إلى أصل لفظ الجلالة في الاشتقاق، فيجوز أن يتعلّق به أيضًا اعتبارًا لمعنى العلوِّ أو التحيُّر إليه، أي العالي الشأن فيهما، أو المتحيَّر إليه[1] فيهما، أو باعتبار معنى المالك أو المتصرِّف أو نحو ذلك، أو تعلّق به لملاحظة أحد تلك المعاني بلا نظر إلى اشتقاق، فصلح التَّعَلُّق ولو على القول بعدم الاشتقاق، كما علّق بأسد لملاحظة مَعنَى الشجاع بلا اشتقاق في لفظ أسد؛ أو عَبَّرَ عن علمه بما فيهما بكونه فيهما تعالى عن الكَونِ.

ويضعف تقدير: «وهو الله المعبود أو المدبِّر في السماوات وفي الأرض»، لقلّة حذف النعت، ويضعف تعليقه بـ«سِرَّكُمْ» لضعف تقدُّم معمول المصدر ولو ظرفًا، إلاَّ أنَّه يسهِّله أنَّ هذا المصدر ليس منحلاًّ إلى حرف المصدر والفعل، مع أنَّ المعمول ظرف، ويضعفُ التعليق بـ«يَعْلَمُ» من قوله:

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ لأنَّه يوهم استقراره فيهما حاشاه، وكون المعمول فيهما لا يسيغ هذا التعليق كما قيل، وأمَّا قولك: رميت الصيد في الحرم، إذا رميته وأنت في غير الحرم فأساغه أنَّ الرمي صادفه في الحرم، أو في

---

[1] - كذا في النسخ الأربع و لم أهتد إلى مَعنَى التحيُّر والمتحيَّر إليه.

الحرم حال من الصيد. والسرُّ: أفعال القلوب، والجهر: أفعال الجوارح.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكسِبُونَ﴾ يعلم نفس المكسوب من طاعة أو معصية، ومن ثواب أو عقاب، فيجازيكم. أو السرُّ والجهر: ما قد يخفى وقد يظهر، و«ما تكسبون»: أفعال الجوارح. ودخل في الكسب الترك لوجه الله عزَّ وجلَّ كترك المعصية لوجه الله سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

سبب كفر الناس بآيات ربهم

﴿وَمَا تَأتِيهِمْ﴾ المضارع لحكاية الحال، والأصل: «وما أتتهم»، أو للاستمرار التجدُّدي، والهاء لأهل مكَّة، ﴿مِن﴾ صلة للتأكيد و﴿ءايَةٍ﴾ دليل﴿مِنَ ءايَاتِ رَبِّهِم﴾ دلائله، أو معجزة من معجزاته، أو آية من القرآن، أو ذلك مطلقًا، و المُراد: الدالَّة على الوحدانيَّة. وأضاف الآيات للرَّب عزَّ وجلَّ تفخيمًا لشأنها فذلك تهويل عليهم باجترائهم في حقّها. ﴿إلاَّ كَانُواْ﴾ والمعنى: ما أتتهم إلاَّ كانوا، أو: ما تأتيهم إلاَّ يكونون.

والإتيان بمعنى النزول إن كانت الآية قرآنيَّة، وبمعنى الظهور إن كانت

معجزة في الخلق، وبمعنى الحصول إن أريد الكلُّ، أو الظهور مطلقًا فإنَّ الحصول والظهور من لوازم المجيء، ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ مهملين النظر فيها، والجملة حال.

﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ﴾ القرآن أو التوحيد ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ والفاء لكون التكذيب بالقرآن كالدليل على التكذيب بما سواهُ أو لكونه كاللازم للتكذيب بغيره من المعجزات، فهي للسببيَّة أو للتعليل، أي كذَّبوا بالمعجزة أو الدليل، لأنَّهم كذَّبوا بالقرآن، أو التوحيد، أو سببُ تكذيبهم بالدليل أو المعجزة تكذيبُهم بالقرآن، وإذا فسَّرنا الحقَّ بالقرآن ترجَّح أو تعيَّن أن يراد بالآية غيره، ويجوز أن يراد بالحقِّ الآيةُ، فمقتضى الظاهر: «فقد كذَّبوا بها لمَّا جاءتهم»، ووضع الظاهر ليصفها بأنَّها حقٌّ، وصحَّ هذا لأنَّ الإعراض ليس نصًّا في التكذيب، إلاَّ أنَّه سبب للتكذيب أو ملزوم له.

ويجوز أن يكون المُراد بالحقِّ رسولُ الله ﷺ، ويجوز ـ على ضعف ـ أن تكون الفاء تعليلاً لجواب شرط قائمة مقام فاء الجواب، أي: «إن كانوا معرضين عن الآية فلا تعجبْ لأنَّهم قد كذَّبوا بما هو أعظم آية وهو الحقُّ»، [قلت] وفيه كثرة الحذف، وفيه النيابة معه، وفيه أنَّ الحقَّ من الآيات.

وَصَفَ الله عزَّ وجلَّ كُفَّار مكَّة أوَّلاً بالإعراض عن التَّأَمُّل في الدلائل والآيات لأنَّه أدنى قبحهم، فإنَّ المعرض عن الشيء قد لا يكذِّبه ولا يستهزئ به، وثانيًا بالتكذيب لأنَّه أقبح من الإعراض، إلاَّ أنَّه قد لا يستهزئ، وثالثًا بالاستهزاء وهو أشدُّ قبحًا إذ قارنه التكذيب المقرون بالإعراض فهو الغاية في القبح، ولذلك ختم به إذ قال: ﴿فَسَوْفَ يَاتِيهِمُ, أَنبَآؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ

﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقد يكون الاستهزاء بلا تكذيب وهو دون التكذيب.

والأنباء: أنواع العذاب، سمَّاها أنباء لأنَّها يُنبأ أي يُخبر بها، وإضافتها لـ«مَا كانوا به يستهزءون» لأنَّ ما كانوا به يستهزئون هو الآيات المتلوَّة والمعجزات، وهنَّ سبب لأنواع العذاب، وملزوم لها بتوسُّط استهزائهم؛ أو أضافها لـ«مَا كانوا به يستهزءون» لأنَّهنَّ الآيات، وهنَّ مخبرات بأنواع العذاب؛ أو المُراد مضمون أنباء ما كانوا به يستهزئون فحذف المضاف. والنبأ: ما يعظم وقعه من الأخبار، وهو أخصُّ من الخبر، ففي الآية إيذان بغاية عظم عذابهم، وهو في الدنيا مستتبَعًا بعذاب الآخرة، ويضعف أن يُفَسَّرَ بعذاب الآخرة أو بهما أو بظهور الإسلام وعلوِّه، لأنَّه لا يناسب ذكر الإهلاك في قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي أهل مكَّة في سفرهم إلى اليمن شتاءً وإلى الشام صيفًا، وإلى غيرهما للتجارة أو غيرها، ﴿كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ...﴾ إلخ فإنَّه إهلاك في الدُّنيا، إلاَّ أنَّه مستتبع بعذاب الآخرة، وللانتقام لدين الله عزَّ وجلَّ.

(نحو) و«كَمْ» خبريَّة للتكثير، مفعول لـ«أَهْلَكْنَا»، والجملة مفعول للرؤية البصريَّة علَّقَتها «كم»، لأنَّ معنى التعليق التعطيل عن نصب مفرد أو مفردين أو مفرد وجملة، سواء دخل المعلق على جملة اِسْمِيَّة أو فعليَّة.

(لغة) والقرن أهل عصر فيهم نبيء أو فائق في العلم ولو قَلَّت المدَّة، كما قال الزجَّاج، ويحتاج لدليل؛ سُمُّوا لاقترانهم مدَّة من الزمان؛ أو المقدار الأوسط من أعمار كُلِّ أهل عصر؛ أو ثمانون سنة، أو سبعون، أو ستُّون، أو

أربعون، أو ثلاثون، أو تسعون، أو عشرون، أو خمسون، أو عشرة، أو ثمانية وعشرون، أو مائة وعشرون، أو **مائة** لقوله ﷺ لصحابيٍّ «**تعيش قرنًا**» فعاش مائة؛ أو القرن تلك الأزمنة، فيُقَدَّرُ مضاف، أي: أهل قرن، ولفظ القرن مِن قَرَنَ الشيءَ بالشيءِ؛ والصحابيُّ الذي قال له تعيش قرنًا فعاش مائة هو عبد الله بن بشر المازني، ويجوز أن تكون الرؤية علميَّة فإنَّهم عارفون ذلك، برؤية الآثار وبسماع الأخبار، والمُراد: من قبل زمانهم أو من قبل خلقهم، كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم.

وكأنَّه قيل: ما حالهم؟ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿**مَّكَّنَّاهُمْ فِي الاَرْضِ**﴾ كعاد وثمود ﴿**مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ**﴾ أو الجملة نعت، والمُراد: ما لم نمكن لكم يا أهل مكَّة من طول العمر، وعظم الجسم، وَالقُوَّة، وسعة الرزق والكثرة. و«مَا» واقعة على التمكين، فهي مفعول مطلق موصول، أو نكرة موصوفة، وليس المُراد أنَّها نعت لمحذوف، فضلاً عن أن يقال: إنَّه لا ينعت بـ«مَا»، بل معناها التمكين الذي لم نمكِّنه، أو تمكينا لم نمكِّنه...إلخ، ولا يجوز أن تكون نعتًا لمصدر محذوف، أي تمكينًا مَّا...إلخ، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانيًا لـ«مَكَّنَّا» لتضمُّنه معنى أعطينا.

ومكَّن يتعدَّى بنفسه تارة وبالحرف أخرى، كنصحته ونصحت له، وذكر أبو عبيدة اللغويُّ أنَّهما لغتان، قيل: واللام أكثر، ومكَّناه في كذا أثبتناه فيه، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ (سورة الأحقاف: ٢٦)، و«مكَّنا له»: جعلنا له مكانا، ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ, فِي الاَرْضِ﴾ (سورة الكهف: ٨٤)، ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ـ امِنًا﴾ (سورة القصص: ٥٧) أي نجعلْ لهم حرمًا آمنا مكانا. و«لَكُمْ»

خطاب التفت الكلام إليه عن الغيبة في «يَرَوْا» و«مِن قَبْلِهِمْ». وإنَّما قلت: الخطاب لأهل مكَّة لِمَا فيه من الارتباط لِمَا قبله، ولو جاز كونه لجميع الناس، وأبعد من هذا كونه للمؤمنين.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ﴾ المطر، كما روي عن ابن عبَّاس، وكلُّ ما علاك فهو سماء، أو السحاب فإنَّه علاك، أي أرسلنا ماء السحاب؛ أو السماء الدُّنيا، أي أرسلنا ماء السماء الدُّنيا، ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ وجه إرسال السحاب أو السماء الدُّنيا مدرارًا إرسال مائها، على حذف مضاف كما رأيت، أو كأنَّها أرسلت هي لأنَّ إرسال المطر منها، والله قادر أن يبلغ الماء من السماء الدُّنيا في أقلَّ من لحظة، أو جعله الله مستمرًّا لنزول في الأزمنة المتطاولة إلى مواقعه.

(لغة) و«مِدْرَارًا» متتابع أو كثير، مأخوذ من درَّت الناقة مثلاً تتابع لبنها للحالب لكثرته؛ حالٌ من السماء، وذُكِّرَ، ولو جعلنا السماء بمعنى السماء الدُّنيا أو السحاب مع أنَّهما مؤنَّثان، لأنَّ مفعالاً وفعُولاً وفِعالاً في المبالغة يستوي فِيهِنَّ المذكَّر والمؤنَّث، [قلت] وتفسير السماء بالسحاب أو المطر أولى لشمول الماء النازل من السماء الدُّنيا والمنعقد من البحار والعيون والبخار.

﴿وَجَعَلْنَا الاَنْهَارَ﴾ صيَّرناها أو أوجدناها، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ قيل: «منْ» في مثل هذا زائدة في الإثبات والتعريف، وَقِيلَ: بمعنى «في»، ويجوز أن تكون ابتدائيَّة، فإنَّها ولو جرت متطاولة إلاَّ أنَّ كلَّ مَسْكَنٍ مبدأ لما بعده، والمعنى: مِن تحتِ مساكنهم، أو تحتَ أبدانهم، فإنَّ الماء الجاري يعلوه القائم والقاعد. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ استأصلناهم، والفاء للتعقيب، أو عاطفة على محذوف،

أي كفروا فأهلكناهم، بلا فاء في المقدَّر، أو بها. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بسبب ذنوبهم من شرك ومعاصيهم، ولم يمنعهم ثمار شجرهم وحَبُّ حرثهم الكثير العظيم المتولّد من الأنهار والمطر، ولا كثرة عددهم، ولا قوَّة أجسامهم وآلاتهم، فخافوا يا أهل مكَّة أن ينزل بكم الإهلاك كما نزل بهم، وقد كفرتم كما كفروا بتكذيب الأنبياء والكتب، وسائر معاصيهم، وهذا محطُّ قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا...﴾ إلخ.

﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا ـ اخَرِينَ﴾ بدلَهم يعمرون البلاد، وهذا بيان لكمال قدرته، فلا ينقص إهلاكه تلك القرون من ملكه شيئًا، بل كلَّما أهلك أمَّة أحدث بعدها أخرى، فخافوا يا أهل مكَّة أن يبدِّلكم بغيركم.

(لغة) والجمهور على أنَّ القرن مائة سنة للحديث المذكور، والقول بأنَّه مائة وعشرون هو قول إيَّاس بن معاوية بن زرارة بن أبي أوفى، والقول بالثمانين لابن عبَّاس رواه عنه تلميذه صالح، والقول بالسبعين للفرَّاء، وَاحتَجَّ القائل بالسبعين بقوله ﷺ: «**معترك المنايا ما بين الستِّين إلى السبعين**»[1]. ورفع ابن سيرين إلى النبيء ﷺ: «**إنَّ القرن أربعون**»، وعن أبي عبيدة أنَّهم يرون ما بين القرنين ثلاثون سنة، والقول بالعشرين قول الحسن البصري، واستحسن بعضٌ أنَّ القرن المقدار الوسط من أعمار أهل ذلك الزمان لأنَّهم يعيشون أربع مائة وألفا وأقلَّ وأكثر، واختاروا أنَّ القرن حقيقة في الناس لغلبة إطلاقه عليهم، لا على الزمان، وَقِيلَ: هو حقيقة في الزمان، وَقِيلَ: مشترك حقيقة فيهما، والمجاز أولى من الاشتراك.

١- رواه **الهندي** في الكنز، ج١٥، ص ٦٧٧، رقم ٤٢٦٩٦. من حديث أبي هريرة.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

عناد الكفَّار والرد على طلبهم واستهزائهم

﴿**وَلَو نَزَّلنَا**﴾ نزَّلنا بمَرَّة وهو المتبادر، لأنَّه أقنع لهم، أو أنزلنا شيئًا فشيئًا لمزيد المشاهدة وتكرُّرها ﴿**عَلَيْكَ كِتَابًا**﴾ أي كلامًا مكتوبًا أو خطًّا مكتوبًا هو القرآن، أو أنَّك رسول وليس المُراد: ما يكتب فيه الكلام، لأنَّه يبقى قوله: ﴿**فِي قِرطَاسٍ**﴾ بلا فائدة، فالقرطاس ما يكتب فيه من جلد وكاغَد بفتح الغين، وبدال مهملة وقد يعجم، ومن غير ذلك؛ وذكر بعض أنَّه لا يقال قرطاس إلاَّ إذا كان مكتوبًا، ولا يصحُّ حمل الآية عليه لأنَّه يبقى قوله: ﴿كِتَابًا﴾ أي كلامًا مكتوبًا بلا فائدة عكس ما مَرَّ.

﴿**فَلَمَسُوهُ**﴾ أي القرطاس مع الخطوط فيه، أو لمسوا الكتاب، أي الخطَّ، وخصَّ اللمس لأنَّه أنفى بعد المعاينة للريبة من النظر والسمع، وأمَّا الإدراك الذَّوْقِيُّ بالفم والشميُّ فلا يليق بالمقام. والسحر يجري على المرئي أكثر مِمَّا يجري على الملموس، ولو اقتصر على النظر ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتَ اَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (سورة الحجر: ١٥) وذكر الأيدي في قوله ﴿**بِأَيْدِيهِمْ**﴾

لأنَّ اللمس بها أقوى من المس بسائر البدن، وأنَّه قد يطلق اللمس على التفحُّص عن شيءٍ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ﴾ (سورة الجن: ٨) وقد قيل: اللمس يختصُّ باليد، وَقِيلَ: هو أَعَمُّ كالمسِّ، فذكره تحرُّز أوْ تأكيد.

﴿**لَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ مقتضى الظاهر: «لقالوا»، وَضَعَ الظاهر موضع الضمير ليصرِّح بكفرهم، ويشيرَ إلى أنَّ كفرهم لا يؤثر معه برهان يحسُّ ولو باليد، وأَنَّ شأنهم الإعراض عنادًا وتعنُّتًا.

(سبب النزول) قال النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد لِرَسُولِ الله ﷺ : لن نؤمن لك حتّى تاتينا بكتاب من عند الله تعالى ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنَّه من عند الله، وأنَّك رسول الله، فقال الله سبحانه لو فعلنا ذلك وزدنا مَسَّهم إيَّاه بأيديهم ــ وَقِيلَ: طلبوا المسَّ أيضًا ــ لقالوا: ﴿**إِنْ هَذَا**﴾ ما هذا الكتاب أو القرطاس الشاهد عليه أربعة أملاك، أو المذكور منه ومن الأربعة، ﴿**إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ صرف أعيننا وأسماعنا ولَمْسَنَا عن حالها المحقّقة.

﴿**وَقَالُواْ**﴾ تارة أو قال بعض ما مَرَّ، وقال بعض: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلآَئِكَةً﴾ (سورة فصلت: ١٤) وقال بعض: ﴿**لَوْلآَ**﴾ تحضيض ﴿**أُنزِلَ عَلَيْهِ**﴾ على محمَّد ﷺ ﴿**مَلَكٌ**﴾ يقول إنَّ القرآن من الله، وإنَّك رسول الله، ﴿لَوْلآَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ, نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ٧) ﴿وَلَوَ اَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلآَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلاً مَّا كَانُوا لِيُومِنُوا إِلآَّ أَنْ يَّشَآءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١١١) وذكر ابن إسحاق أنَّه قال له ﷺ زمعة بن الأسود بن المطّلب، والنضر بن الحرث بن كلدة، وعبدة بن عبد

يغوث، وأبيُّ بن خلف بن وهب، والعاصي بن وائل بن هشام: لو جُعل يا محمَّد ملكٌ يحدث الناس أنَّك رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ٧).

وذكر سوء عاقبتهم لو أجابهم إلى ما طلبوا، وهو أنَّه جرت سنَّة الله عزَّ وجلَّ أنَّه من طلب آية حِسِّيَّة باهرة و لم يؤمن أُهلك، كأصحاب المائدة، كما قال: ﴿**وَلَوَ انزَلنَا مَلَكًا**﴾ شاهدوه كما طلبوا و لم يؤمنوا ﴿**لَقُضِيَ الأَمْرُ**﴾ أي أُثبت إهلاكُهم، لكن عاجلاً لا آجلاً، كما قال: ﴿**ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ**﴾ ولا يؤخَّرون أقلَّ من لحظة، لتوبةٍ أو معذرة أو رحمة، كأصحاب المائدة لأنَّ الاختيار قاعدة التكليف، ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (سورة غافر: ٨٤) إلخ.

﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا**﴾ أي ولو جعلنا مطلوبهم ملكًا، وهو أن يكون شاهد نبوءته ملكًا، فهذا جواب ثان عن قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، أو ولو جعلنا الرَّسول مَلَكًا كما قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ وكما قال: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ (سورة ص: ٣) و﴿قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (سورة الإسراء: ٩٤) فتكون الآية جوابًا لقولهم: إنَّما يكون الرَّسول ملكًا لا بشرًا، لأنَّ المَلَك أقوى وأعلم على قهر ما يرسل به؛ أو ولو جعلنا المُنزَل من مَلَكٍ شاهدٍ بالنبوءة، أو ملك مرسل، وهذا يعمُّ ذلك كُلَّه، وقِيلَ: لو جعلنا مكان النبيء ملَكًا كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ (سورة المؤمنون: ٢٤).

﴿**لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً**﴾ بحسب الظاهر، كما يرسل جبريل إلى النبيء ﷺ بصورة دحية الكلبي، وكما جاء الملكان إلى داود بصورة رجلين خصمين،

والملائكة بصورة أضياف إلى إبراهيم ولوط عليهما السَّلام، لأنَّ البشر لا يقوى على معاينة صورة الملك، إلاَّ بعض الرّسل في بعض الأحيان؛ وقد روي أنَّه ﷺ رأى جبريل بصورته فصعق، وعن عائشة أنَّه ﷺ «**رأى جبريل عَلَى صورته مَرَّتَيْنِ: مرَّة في الأرض في أجياد، وَمَرَّة في السماء**». وفي الآية أنَّ المرأة لا تكون رسولاً، وذلك إجماع، وإنَّما الخلاف في نبوءتها.

﴿**وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم**﴾ خلطنا عليهم بجعله رجلاً والإتيان بما يشتبه ﴿**مَا يَلْبِسُونَ**﴾ ما يخلطون على أنفسهم وعلى غيرهم، فَمَا يفيدُهم جَعْلُه رجلاً شيئًا، فلا يزالون يطلبون شاهدًا مَلَكًا أو رسولاً ملَكًا، ويقولون للملَك الذي بصورة الرجل: «ما أنت إلاَّ بشر مثلنا»، ويزيدون تحيُّرًا، ويجوز أن يكون المعنى: ولأَعنَّاهُم بجعله رجلاً على الكفر، وذلك لا يليق بشأننا، أو: لزدناهم ضلالاً على ضلالهم. و«مَا» اسمٌ، أي: لخلطنا شأنهم الذي يخلطونه وقلبناه؛ أو حرفُ مصدرٍ، أي: لخلطنا عليهم تخليطًا مثل تخليطهم على أنفسهم وعلى غيرهم. وبيان تخليطهم على غيرهم أنَّهم يقولون لضعفائهم: إنَّه لا يكون الرُّسل إلاَّ ملَكًا.

﴿**وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ**﴾ أكَّدَ ا لله جلَّ وعلا بالقسم واللام و«قَدْ»، تسليةَ رسوله ﷺ على استهزاء قومه، كأبي جهل والنضر والوليد وأميَّة، وأن يصبر كما صبر الرُّسل الذين استَهزأ بهم أقوامُهم، أي وا لله لقد استهزئ ﴿**بِرُسُلٍ**﴾ كثير عظام فصبروا فاصبر مثلهم أو أكثر ﴿**مِن قَبْلِكَ**﴾ نعت لـ«رُسُلٍ»، أو متعلّق بـ«اسْتُهْزِئَ». ﴿**فَحَاقَ**﴾ أي نزل، ولا يستعمل إلاَّ في الشرِّ ﴿**بِالذِينَ**﴾ أي بالأقوام الذين ﴿**سَخِرُواْ**﴾ استهزءوا، وكلاهما بمعنى الاحتقار، إلاَّ أنَّه يقال

استهزأ به بالباء لا بـ«مِنْ»، ويقال: سخر منه وبه، بالباء أو بـ«مِنْ» كما قال هنا.

﴿مِنْهُم﴾ من الرسل، وهذا وعيد لأهل مكّة أن يحيق بهم على استهزائهم برسولهم ما نزل على الأمم لاستهزائهم برسلهم، كإغراق قوم نوح، وإحصاب قوم هود، وإرسال الريح عليهم، والحجارة على قوم لوط، والصيحة على نمرود وقوم شعيب، وهو العقاب المذكور بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي العذاب الذي كانوا يستهزئون به، ويكذّبون الأخبار بإتيانه إن لم يتوبوا، أو حاق بهم جزاء ما استهزءوا به من الكتب والمعجزات، أي الجزاء الذي يستَحقّون باستهزائهم بذلك.

والاستهزاء بالكتب والمعجزات استهزاء بالرسل، ولا حاجة إلى دعوى أنَّ المعنى: فحاق بالذين سخروا منهم جزاء الاستهزاء الذي استهزءوا به، أي الذي أوقعوه، ولا إلى دعوى ردِّ هاء «بِهِ» إلى الرَّسول بالإفراد والمُراد به الحقيقة.

﴿قُلْ﴾ لقومك ﴿سِيرُواْ فِي الأَرْضِ﴾ إذا أردتم السير فيها لمصالحكم كالتجارة وزيارة أرحامكم وأصدقائكم، وتعلُّم الطبِّ والصنائع، بحسب ما اتّفق من ذلك، أو أنشِئُوا السير لِمُجَرَّدِ النظر والاعتبار، ولو بلا قصد تجارة أو للتجارة أو نحوها وللاعتبار معًا.

﴿ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ من العذاب، ولْيَخَفْ قومك مثله، لتكذيبك. «ثُمَّ»: تراخٍ في الزمان، لأنَّ بين مكّة التي يسيرون منها وبين

مواضع هلاك الأمم مسافة بعيدة، والنظر في آثار الهالكين لا يمكن قبل وصولهم إليها، أو «ثُمَّ» لتراخي الرتبة، إذ رتبة النظر لوجوبها متراخية من رتبة التجارة ونحوها من المباحات، ولا يعدُّون زيارة الرحم عبادة لشركهم؛ أو: سيروا وجوبًا لقصد النظر، ثمَّ انظروا إذا وصلتم ورأيتم، فـ«ثُمَّ» لتفاوت ما بين الواجبين، والسير وجب لترتُّب النظر عليه، وللوسائل حكم المقاصد، والنظر أوجب منه، لأنَّه ذاتيٌّ، والسير للنظر وسيلة، وذلك كما وجب إعداد الدلو لمن لا يجد الماء للوضوء مثلاً إلاَّ به.

ويجوز أن تكون «ثُمَّ» لمطلق الجمع كالواو، وأمَّا قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الاَرْضِ فَانظُرُوا﴾ (سورة النمل: ٦٩) فالسير فيه لأجل النظر، بدليل فاء السببيَّة، فهي دَلِيل، فلا تحكُّم في جعل السير فيه للإيجاب، وفي المقام للإباحة، [قلت] **وعلى كُلِّ حال نهاهم عن سير الغافلين عن النظر، وأمرهم بتعرُّف أحوال الأمم الهلكى**، والنظر نظر عين ليوصل إلى نظر القلب، أو المُراد: نظر القلب.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ

رَحْمَتُهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

أدلة أخرى لإثبات الوحدانية والبعث

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي الأرضين، لمن أجزاؤهما وما حلَّ فيهما؟ ومن خالق ذلك ومن مالكه؟ وَلاَ بُدَّ أن يقولوا: ذلك لله عزَّ وجلَّ، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ (سورة لقمان: ٢٥)، وقال: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة الزخرف:٨) ولمَّا كان ذلك حجَّة قاطعة لا يقدرون على التخلُّص منها وعدم الإقرار بها ولا جواب لهم سواها أمر الله جلَّ وعلا رسوله أن يبادر إلى الإقرار بها فقال:

﴿قُل لِّلَّهِ﴾ كما أنَّهم يقولون: «لله لاَ بُدَّ»، أو يقال: قل «لله» إن لم يقولوه، والأوَّل أولى لأنَّهم قالوه في مواطن، وليس مِمَّا ينتظر جوابه لأنَّه متعيِّن، بل هو مِمَّا يقال: إنَّ فلانًا قاله، ولو لم يقله، إذا كان لاَ بُدَّ من اعترافه به؛ فلك أن تقول: قل عنهم لله. وَقِيلَ: الآية على أنَّه كأنَّهم تثاقلوا عن الجواب فأمره ﷺ من أن يجيب عنهم، وذلك أنَّ الموجودات منها ما شوهد حدوثه، ومنها ما لم يشاهد حدوثه، والكلُّ عليه أثر الحدوث من عجز وتركيب وحاجة وغير ذلك، ولا بدَّ لها من صانع حكيم، لأنَّها صنعة بديعة الإتقان، والحكيم لا يعبث فإنَّما خلقها لعاقبة محمودة لمن لم يَتَخَلَّف عنها، وذلك يستدعي إرسال الرّسل وإنزال الكتب تكليفا لعباده. وحبَّبهم إلى نفسه وإلى الإذعان إلى الرّسل بقوله: ﴿كَتَبَ﴾ وعد وقضى ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

تفضُّلاً وإحسانًا في الدُّنيا والآخرة، والدين على الناس كُلّهم، ومن ذلك تسهيل الشرع وإنزاله وبيانه، ونصب الدلائل عليه، والتوفيق إليه علمًا وعملاً، وإمهال الكافر.

(أصول الدّين) وفي الآية إطلاق النفس على الله بمعنى الذّات، وهو جائز لهذه الآية ونحوها بلا مشاكلة، ولو وجدت المشاكلة في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ (سورة المائدة: ١١٨)، ودعوى تقدير المشاكلة هكذا: «وكتب على أنفسكم الذنب» بعيدٌ، فليس كما قيل: يطلق على الله ولو بمعنى الذّات إلاّ لمشاكلة، وَأَنَّهَا لا تطلق إلاّ على الحيوان أو إلاّ على غير الله عزَّ وجلَّ.

(أصول الدّين) والآية ردٌّ على من قال يجب على الله الأصلح والصلاح ولو بلا وعد، فإنَّه لا واجب على الله، ولكن لا يخلف الوعد والوعيد، فلا بدَّ من وقوع ما قاله، لأنَّ إخلافه نقص لا لوجوبٍ عليه. روى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ «**لَمَّا قضى الله الخلق كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي غلبت غضبي**»[1] ثمَّ رأيته للبخاري[2] أيضًا، وروى الترمذيُّ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ «**لَمَّا خلق الله تعالى الخلق**

١- رواه **مسلم** في كِتَاب التوبة (٤) باب في سعة رحمة الله تَعَالَى وَأَنَّهَا سبقت غضبه، رقم ١٤ (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **البخاري** في كِتَاب بدء الخلق (١) باب ما جاء في قوله الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الذي يبدأ الخلق ثُمَّ يعيده وَهُوَ أهون عَلَيْهِ﴾، رقم ٣٠٢٢ من حديث أبي هريرة.

كتب كتابا عنده بيده على نفسه: إنَّ رحمتي تغلب غضبي»[١] وفي ابن مردوية: روى أبو هريرة عنه ﷺ: «**إنَّ ا لله تعالى كتب كتابًا لنفسه قبل أن يخلق السماوات والأرض فوضعه تحت عرشه فيه: رحمتي سبقت غضبي**»[٢] وَمَعنَى «كتبه بيده»: كتبه بقدرته، والمُراد: التكوين، وأنَّه لم يكتبه ملك، وَمَعنَى سَبْقِ رحمته كمالُها على الغضب وقوَّتها.

وقال سلمان عن رسول ا لله ﷺ: «**إنَّ ا لله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كلّ رحمة طباق ما بين السماوات والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فَبِهَا تعطف الوالدة على ولدها، والطير والوحش بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة**» رواه مسلم[٣]. قال عبد ا لله بن عمرو بن العاصي: «إنَّ لله تعالى مائة رحمة، أهبط منها واحدة إلى أهل الدنيا، يتراحم بها الجنُّ والإنس، وطير السماء وحيتان الماء، ودوابُّ الأرض وهوامها، وما بين الهواء، واختزن عنده تسعًا وتسعين رحمةً حتَّى إذا كان يوم القيامة حوَّلها إلى ما عنده، فجعلها في قلوب أهل الجنَّة وعلى أهل الجنَّة».

﴿**لَيَجْمَعَنَّكُمْ**﴾ أيُّها الناس كُلُّكم، وَقِيلَ: أيُّها المشركون، كما أنَّ الكلام فيهم ﴿**إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ فيجازيكم، أي: وا للهِ لَيَجْمَعَنَّكُم، أو جواب

١- ورواه **أحمد** في مسنده ج٣، ص ٤٢٨، رقم ٩٦٠٣، من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **أحمد** في مسنده، ج٣، ص٣٥٦، رقم ٩١٣٠، من حديث أبي هريرة.

٣- رواه **مسلم** في كِتَاب التوبة (٤) باب في سعة رحمة ا لله تَعَالَىٰ وَأَنَّهَا سبقت غضبه، رقم ٢١. من حديث سلمان.

لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ لأنَّ معناه التأكيد، والتأكيد قَسَمٌ، وعلى هذا فلا يُقَدَّرُ: والله، ويجوز أن يُقَدَّرُ: والله لَيجمعنَّكم بدلاً من الرحمة بدل البعض، ولا يحتاج لربط لأنَّه جملة أو كلٌّ، وعليه فتكون الرحمة إمهالَ أهلِ الشرك وإمدادَهم بالرزق عن معاجلة العذاب قبل يوم القيامة، إذ لو شاء لبعثهم قبل يوم القيامة وأدخلهم النار، ولو شاء لعجَّل العذاب في الدنيا، وَلَعَلَّهُم يتوبون كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ, مَنْ عَمِلَ...﴾ الآية(سورة الأنعام: ٥٤) إلاَّ أنَّ المتبادر من الرحمة أن لا تحمل على ذلك الإمهال خاصَّة، وإن جعلناها رحمة الآخرة للكفرة قدَّرنا: إن أسلمتم، وفيه تعسُّف.

والكلام وعيد على الإشراكِ وإهمالِ النظر، أو ذكر للرحمة بالإمهال كما رأيت، وَمَعنَى الجمعِ إلى يوم القيامة الجمعُ لهم في القبور، وما ينزل منزلتها، أي لا يزال يجمعهم إلى يوم القيامة فإذا جاء وقت القيامة بعثهم، فلم يتكلَّم على البعث إلاَّ بذكر القيامة؛ أو معنى جمعهم إلى حساب يوم القيامة؛ أو معناه إنهاؤهم وإبلاغهم فيها إلى ذلك الوقت؛ أو «إلى» بمعنى «في»، أي: يجمعهم في يوم القيامة، [قلت] ولا بأس بتفسير حرف بمعنى حرف آخر لداع ولو كان ذلك المعنى غير مقيس فِيه. أو المعنى: يجمعهم لأجل ذلك اليوم، كظاهر قوله تعالى: ﴿جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ...﴾ إلخ (سورة آل عمران: ٩).

﴿**لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾ أي لا شبهة فيه، ولو جحد من جحد مع علمه، وشكَّ من شَكَّ، والهاء للجمع المعلوم من «يجمع» أو لـ«يوم القيامة» والجملة حال مؤكّدة من اليوم، والضمير لليوم، أو نعت لمصدر محذوف عاد إليه الضمير، أي جمعًا لا ريب فيه.

﴿**الذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ**﴾ أجسامَهم، وخسرانُها أن تكـون في النَّـار، وفي العذاب قبل النَّار أيضًا، وذلك بتضييع الإسلام الذي ولدوا عليه، وإهمال العقـل عن النظر، أي ذمَّ ا لله الذين خسروا أنفسهم، أو هم الذين خسروا أنفسـهم أي هؤلاء القائلون: ﴿إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ لَّوْلَآ أُنزِلَ...﴾ إلخ هـم الذيـن خسـروا أنفسـهم، فالجملـة بعـد ذلـك معطوفـة بالفـاء، أو مبتـدأٌ خـبرُه قولـه: ﴿**فَهُـمْ لاَ يُومِنُونَ**﴾، فالفاء في خبر المبتـدأ لشبهه باسـم الشـرط، وعلـى كُـلِّ حـال هـي سببـيَّة، لكن باعتبار ما حصل به الخسران وهـو التضييـع والإهمـال المذكـوران فإنَّ انتفاء الإيمان سبب عنهما، أو باعتبار القضاء بالخسران فإنَّ القضاء به سـبب لانتفاء الإيمان، وإلاَّ فظاهر اللفظ أنَّ الخسران نفسه سبب لانتفاء إيمانهم، مع أنَّ المُراد غير ذلك.

وأجاز الأخفش إبدال الظاهر من ضمير الخطاب، فيكون «الذِينَ» بدلاً من الكاف، وهو ضعيف في بدل كُـلٍّ، وإن قيل: الكافُ للعموم والبدلُ بدلُ بعضٍ لَزِمَ تفكيك الضمائر.

﴿**وَلَهُ, مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَـارِ وَهُـوَ السَّمِيعُ**﴾ بـالأقوال ﴿**العَلِيـمُ**﴾ بالأفعال والأحوال، وذلـك وعيـد لأهـل الشـرك، وهـذا آخـر المحكـيِّ بـ«قُـلْ» الأخير. أمر ا لله جلَّ وعلا رسوله ﷺ أن يخاطبهم بقوله: ﴿قُل لِّلهِ كَتَـبَ عَلَـىٰ نَفْسِهِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلَـهُ, مَـا سَكَنَ...﴾ إلخ غير داخل، أو ﴿كَتَبَ...﴾ إلى ﴿...الْعَلِيمُ﴾ غير داخل، وعلـى الأوَّل يكون: ﴿وَلَهُ, مَا سَكَنَ﴾ عطفًا على « لِلهِ» مع هو المُـقَـدَّر قبله.

وعلى كُـلِّ حـال تكـون هـذه الآيـة تقريـرًا لقولـه: ﴿قُـل لِّلـهِ﴾. وَمَعنَـى

«سَكَنَ»: ثبت، فإنَّه يجوز أن تقول: سكنتُ في العام، أو الشهرأو غير ذلك، كما تقول: سكنتُ في الدار على المجاز المرسل التبعيِّ، لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو على الاستعارة، فشمل التحرُّك فهو من السكنى، مثل ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٥)؛ أو لزم الجمع بين الحقيقة والمجاز، أو عموم المجاز؛ أو معناه: لم يتحرَّك، فهو من السكون، فيقدَّر محذوف، وَهَذَا الحذفُ لظهوره لِكُلِّ أحد لا ينافي أنَّ المقام للبسط، أي ما سكن وما تَحرَّك.

واقتصر اللفظ على السكون، في هذا الوجه لأنَّ الساكن أكثر من المتحرِّك، ولأنَّ عاقبة كُلِّ متحرِّك السكون، ولأنَّ السكون نعمة غالبًا، ولأنَّ الأصل السكون والتحرُّك طارئ والمتحرِّك يسكن غالبًا، وليس الغالب أن يتحرَّك الساكن، ويجوز أن لا يُقَدَّرَ لمعنى أنَّ ما يتحرَّك يسكن غالبًا، فيرجع إلى قسم الساكن، أو الساكن: جميع المخلوقات، لأنَّ المتحرِّك ساكن في حال حركاته، بين كُلِّ حركتين سكون خفيف لا يظهر لخفَّته جدًّا يتمكَّن به لحركةٍ تَعقُبُه، تختلف الحركات سرعة وبطءًا، لقلَّة السكنات المتخلِّلة وكثرتها.

﴿قُل﴾ لهم: ﴿اَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الاستفهام إنكارٌ، والمُراد مطلق الوليِّ، وليٌّ معبود أو غير معبود. نفى أن يتَّخذ غير الله وليًّا، وأثبت أنَّ وليَّه الله وحده، فالمنكر اتِّخَاذ غير الله وَلِيًّا، لا اتِّخَاذ الوليِّ مطلقًا، ولذلك قَدَّمَ المفعول الثاني وهو «غَيْرَ»، وأولاه الهمزة كما أولى لفظ «غَيْرَ» الهمزةَ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلَ اَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ (سورة الأنعام: ١٦٦) إذ كان المنكر غير الله. وَمَعنَى اتِّخَاذ غيرِ اللهِ [وَلِيًّا] عبادةُ غيره، ويجوز أن تكون العبادة في لفظ «وَلِيًّا» لا في «أَتَّخِذُ»، أي أَتَّخذُ معبودًا، وذلك أنَّ الإنكار في الآية ردٌّ

على من دعا رسول الله ﷺ إلى الإشراك، إذ قالوا له: إنَّمَا تركت دين قومك لفقرك، فارجع إليهم نجمع لك ما تكون به أغنانا، لا يقال الردُّ عليهم بأن يقال: اتَّخذ غير الله وَلِيًّا، لأنَّ المشرك لم يخصَّ عبادته بغير الله تعالى، لأنَّا نقول: من أشرك بالله تعالى غيره لم يتَّخذ الله معبودًا، لأنَّه لا تجتمع عبادته سبحانه مع عبادة غيره، قلت:

لَمَنْ صافى عدوَّك أو يعادي صديقك في معاداةٍ عَرِيقُ
ومن صافى صديقك أو يعادي عدوَّك أو عدوَّه صديقُ [1]

ولام لَمَن للابتداء وهاء «عدوَّه» للصديق.

ولو أدخل الإنكار على «أتَّخِذُ» وقال: أأتَّخِذُ غير الله وليًّا لحصل المقصود من إنكار اتِّخَاذ غير الله وليًّا، لكن لـمَّا كان متعلّق الإنكار غير الله كان تقديم غير الله أهمَّ. وَقِيلَ: «وَلِيًّا» بمعنى نصير، فإذا انتفى اتِّخَاذ غير الله ناصرًا فأولى أن ينتفي اتِّخَاذه معبودًا. ويجوز أن يكون الكلام من الإخراج على خلاف مقتضى الظاهر لإمحَاضِ النصح، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرجَعُونَ﴾ (سورة يس: ٢١).

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ نعت للفظ الجلالة لأنَّه للماضي، فليست «السَّمَاوَات» مفعولاً به لفظًا ولا تقديرًا، فالإضافة محضة تفيد التعريف، كما أنَّ المنعوت معرفة، ولا يَضُرُّ الفصل بينهما بجملة «أَتَّخِذُ»، لأنَّها غير أجنبيَّة، إذ عمل فعلها في عامل الموصوف؛ ولا يترجَّح البدل بكون فصله أسهل، لأنَّه

---

[1] - كذا في النسخ، والبيت غير متَّزن.

يقابل بكون البدل بالمشتقِّ ضعيفًا.

(لغة) عن ابن عبَّاس ما عرفت معنى «فَاطِرِ» حتَّى اختصم إليَّ أعرابيَّان في بئر، فقال أحدهما: «أنا فطرتها»، أي ابتدأتها، وَمَعنَى فطرةِ الله ما أبدع في الناس من معرفته، والفَطْرُ: الإيجاد على غير مثال، كما يفعل الله، وعلى مثال كما في كلام ابن عبَّاس، ولا يختصُّ بالأَوَّل كما قيل.

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ غيرَه مأكولاً ومشروبًا، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾(سورة البقرة: ٢٤٧)[1]. ﴿وَلاَ يُطْعَمُ﴾ لا يرزقه غيرُه مأكولاً ولا مشروبًا، لأنَّه لا يوصف بالأكل والشرب، ولا يحتاج إلى شيء، قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ يُّطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ (سورة الذاريات: ٥٧). وعبَّر بالخاصِّ ــ وهو الإطعام ــ عن العامِّ ــ وهو مطلق الرزق الشامل لِكُلِّ منفعة ــ على المجاز المرسل التبعيِّ، واشتقَّ منه «يُطْعِمُ» بمعنى يرزق، وحكمة ذلك أنَّ الأكل والشرب أعظم الرزق وأعظم ما يحتاج إليه منه قلَّ أو كثر.

﴿قُلِ اِنِّيَ أُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ أَوَّلَ مَنَ اَسْلَمَ﴾ انقَادَ من هذه الأمَّة، وذلك أنَّ كلَّ نبيء أوَّل أمَّته في الإيمان بما أوحي إليه، لأنَّه يعلم قبل غيره بما أوحي إليه، وتتبعه أمَّته فيه أو تكفر، وَأَوَّل من آمن به من هذا الإيحاء ولو أوحي أيضًا قبله، وآمن غيره لنزوله قبل فهو موحى إليه بأن يسلم كغيره، ويؤمن بنبوءة نفسه ورسالته، وكأنَّه أرسل إلى نفسه.

[قلت] وينبغي لِكُلِّ **آمر بشيء أن يسبق إلى عمله إن كان مِمَّا له عمله**

---

[1] - ساق الآية رحمه الله ليدلَّ على استعمال الطعم للمشروب.

لأنَّه أدْعَى إلى الامتثال كما قال موسى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ (سورة الأعراف: ١٤٣)، أو ذلك تحريض، كما يأمر الملك الرعيَّة بشيء، ويقول: أنا أوَّل من يفعل ليمتثلوا، ولا يلزم من الأمر بشيء أن يكون المأمور قد امتنع منه، وهو ﷺ لم يمتنع فلا إشكال، لَكِنَّ الحمل على هذا خلاف الأصل.

﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف على «قُلْ» عطف نهيٍ على أمر، و"لا" ناهيةٌ، كقولك: «كلْ ولا تَشربْ»، كلَّفه الله عزَّ وجلَّ بأَن يقول: «إنِّي أمرت...» وبأن لا يكون من المشركين. ولا حاجة إلى تقدير: «وقيل لي: لا تكوننَّ من المشركين»، ولا إلىَ دعوى الالتفات من التَّكَلُّم إلى الخطاب، وأنَّ الأصل: «ولا أكونن» عطفًا على «أُمِرْتُ»، وأنَّ "لا" نافية، وأنَّه ساغ التوكيد لأنَّ المُراد النهي، ولا إلى دعوى تأويل «أُمِرْتُ» بـ«قيل لي»، فيكون العطف على «أَنَ اَكُونَ»، و"لا" ناهيةٌ.

﴿قُلِ اِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بشرك أو ما دونه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، وفيه تعريض لقومه بأنَّهم استحقُّوا ذلك العذاب لعصيانهم، ومبالغة بأنَّه لو عصى أيَّ معصية لَعُذِّب، فكيف هم وقد أشركوا؟!. و«عَذَابَ» مفعول «أَخَافُ» وجواب «إِنْ» محذوف، أي: إن عصيت ربِّي لَحِقَني، و«عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» في نية التقديم على «إِنْ عَصَيْتُ»، فقوله: «إِنِّي أخاف عذاب يوم عظيم» إجمال فَصَّله بقوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾. و«أَخَافُ» للحال، وإن جعلناه مستقبلاً لم نحتج إلى ذلك، بل يغني عن الجواب: «إِنِّيَ أَخَافُ»، أي: إن عصيت ربِّي بعد حالي هذه فإنِّي أخاف حال المعصية وبعدها عذابَ يوم عظيم.

(أصول الدّين) والمعنى: إن عصيت إلاَّ إنَّه قضى الله أن لا أعصي، وأمَّا ما قيل: إنَّ خوف المعصوم من المعصية لا ينافي العصمة لعلمه بأنَّ الله سبحانه ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (سورة هود: ١٠٧)، وأنَّه لا يجب عليه شيء، فلا يجوز جوابًا، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُخَالِفُ ما قضى ولا يتركه، كما قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ (سورة ق: ٢٩)، وذلك حكمة وكمال بوفاء الوعد لا وجوب شيء عليه، وَمَعنَى قوله تعالى لموسى عليه السلام: «لا تأمن مكري حتَّى تدخل الجنَّة»: كن في الخضوع والحذر على صورة من لم يعلم أنَّه معصوم. وكان ﷺ يخاف قيام الساعة إذا عصفت الريح ويدخل ويخرج قلقًا، بمعنى أنَّه يفعل ذلك ذهولاً لشدَّة هولها، وقد أخبره الله عزَّ وجلَّ أنَّ الساعة بعد عيسى والدجَّال وطلوع الشمس من مغربها، أو كان يفعل ذلك قبل أن يعلم أنَّ القيامة مسبوقة بما ذُكر.

وصلَّى التراويح أوَّل رمضان وتكاثر الناس رغبة فلم يخرج إليهم، وقال: «خفت أن تفرض عليكم» مع علمه من ليلة الإسراء أن لا فرض من الصلوات إلاَّ الخمس، وَمَعنَى خوفه من فرض التراويح أن يلتزمها الناس التزام الفرائض أو التزام السنن المؤكَّدة فيشقَّ الأمر عليهم، أو خاف أن يكون حصر الوجوب في الخمس مشروطًا بشرطٍ، وخاف وقوع الشرط الذي لم يدرِ بِهِ وهو التزام التراويح، وأمَّا أن يزيد على الخمس وقد قُضِي أن لا يزيد فلا يجوز في حقِّه.

﴿**مَّنْ يُّصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ**﴾ «مَنْ» والشرطُ والجوابُ نعتٌ لـ«عَذَابَ»، [قلت] **وهو وجه حسن، ولا وجه لمنعهم إيَّاهُ**، وضمير «يُصْرَفْ» للعذاب، وهو رابط النعت، وهاء «عَنْهُ» لـ«مَنْ» ويجوز

العكس، والأوَّل أولى لأنَّ أصل الصرف أن يطلق على المتوجّه إلى غيره، وهو هنا العذاب، وتنوين «إذٍ» عوض عن جملة: «بُعِثَ» أو «قام من قبره»، وَمَعنَى «فَقَدْ رَحِمَهُ»: حقّق الله له إدخال الجَنَّة، أو أراد له في الأزل أن يُرحم بصرف العذاب عنه، وأنعم عليه بنجاته منه، أو رحمه الرحمة العظمى، كقولهم: «من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك»[1] أي أدرك المرعى التامَّ، من صرف المطلق إلى الكامل، ويضعف أن يكون المعنى: أنَّه لا يبقى بلا جَنَّة.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ المذكور من صرف العذاب ومن الرحمة، وهذا أولى من رجوع الإشارة إلى أحدهما فقط، ووجه ردِّها إلى الرحمة تأويلها بالمذكور، أو إلى الرُّحْم بإسكان الحاء وضمِّ الراء أو ضمِّهما بلا تاء، إلاَّ أنَّ الرحم بلا تاء قليل. ﴿الْفَوْزُ﴾ النجاة من المكروه والظفر بالمحبوب ﴿الْمُبِينُ﴾ الواضح ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ

١- اسم موضع خصب متاخم للدهناء. انظر: لسان العرب، ج٧، ص٤١٣. (صمم).

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾

قدرة الله على كشف الضُّر وشهادة الله للنبيء ﷺ بالصدق

﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ في النفس بقِلَّة العلم والفضل، أو في البدن كعدم جارحة ونقص ومرض، أو في حالة ظاهرة كقلَّة مال وجاه، من مَسَّه الضُّر مسًّا والشرّ المقابل للخير، وَقِيلَ: أخص ويناسبه أنَّه قابل به الخير، وفي ذكر الضُّرِّ تهويل، وفي ذكر الخير تنشيط. ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ لا مزيل ﴿لَهُ, إِلاَّ هُوَ﴾ فكيف يتَّخذ أحد وليًّا سواه؟ وهو بدل من ضمير في موجودٍ المُقَدَّر خَبَرٌ لِـ"لا"، أو مِن «لا كاشف»، لأنَّ "لا" واسمها المبنيَّ بمنزلة المبتدإ لا خبر، لأنَّ "لا" غير عاملة في المعرفة.

﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ ضدِّ الضُّر المذكور، ككثرة العلم والفضل والعفَّة، وكمال الجوارح والصحَّة وغنى واحترام، قال ابن عبَّاس: قال لي ﷺ وأنا رديفه: **«يا غلامُ، اِحفظ الله تعالى تجدْه أمَامَك، وإذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استَعَنْتَ فاستَعِنْ بالله، جَفَّ القلمُ بما هو كائنٌ، ولو جَهَدَ العباد أن ينفعوك بشيءٍ لم يَقْضِهِ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لك لم يَقْدِروا عليه، ولو جَهَدوا أن يَضُرُّوك بشَيْءٍ لم يقْضِهِ الله تَعَالَى عليك لم يقْدِروا عَلَيْهِ، فإن استطعتَ أن تعملَ لله تَعَالَى بالصدقِ في اليقينِ فاعملْ، فإن لم تستطعْ فإنَّ في الصبرِ على ما تكرهُ خيرًا كثيرًا»**[1].

١- رواه **الترمذي** في كِتَاب صفة القيامة (٥٩)، رقم ٢٥١٦. من حديث ابن عَبَّاس، مع اختلاف في اللفظ، وقال: هَذَا حديث حسن صحيح. ورواه **الهندي** في الكنز، ج١٦، ص١٣٦، رقم ٤٤١٦٥، من حديث ابن عَبَّاس.

﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ علّة للجواب، أي: وإن يمسسك بخير فلا رادَّ له، لأنَّه قدير على كلِّ شيء، وكقوله تعالى: ﴿وإنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾ (سورة يونس: ١٠٧)، ويضعف جعله تعليلاً لهذا المقدَّر، ولقوله تعالى: ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ, إِلاَّ هُوَ﴾ معًا، كما أنَّه لو كان التعليل باللام لم يَصِحَّ بإعادة التعليل، أو بتقدير قولك: ذلك، لأنَّ الله على كلِّ شيء قدير، ولأنَّ الثاني متغلّب على العلّة لأنَّها دليله، بخلاف الجواب الأوَّل فإنَّه مذكور، ويجوز أن يكون: «هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» جوابًا، أي فهو قادر على إدامته كسائر الأشياء.

﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ لا يعجز عن شيء، كلُّ ما سواه مغلوب له، وذليل له، والفوقيَّة علوُّ شأن لا حِسٍّ، تعالى الله عن الجهة؛ والجملة استعارة تمثيليَّة لعلوِّ شأنه تعالى، والاستعارة في «فَوْقَ» بأن شبَّه الغلبة بمكان محسوس، وَقِيلَ: كنَّى عن القهر والعلوِّ بالغلبة، و«فَوْقَ» متعلّق بـ«قَاهِرِ»، أو حال من ضميره، أو خبر ثان، وذلك عبارة عن كمال القدرة، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَهُو الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ عبارة عن كمال العلم، فإنَّ الحكيم لا يكون إلاَّ عالمـًا في تدبيره وأمره محقّقًا، والخبير العليم ببواطنهم كظواهرهم سواء.

قال الجيلاني[1]: «من أراد السلامة في الدُّنيا والآخرة فعليه بالصبر والرضى، وترك الشكوى إلى خلقه، وإنزال حوائجه بربِّه عزَّ وجلَّ، ولزوم طاعته،

١- عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني الجيلاني أو الكيلاني، نسبة إِلَىٰ جيلان، بلاد وراء طبرستان. انتقل إِلَىٰ بغداد شابًّا، فاتَّصَلَ بشيوخ العلم والتصوُّف. وبرع في أساليب الوعظ. وتفقَّه في مذهب الإمام أحمد، وسمع الحديث، وتصدَّر للتدريس والإفتاء في بغداد. ولد سنة ٤٧١، وتوفي سنة ٥٦١هـ.

وانتظار الفرج منه تعالى، والانقطاع إليه، فحرمانه عطاؤه، وعقوبته نعماء، وبلاؤه دواءٌ، ووعدُهُ حالٌّ، وقوله فعل، وكلُّ أفعاله حسنةٌ وحكمةٌ ومصلحةٌ، غير أنَّه عزَّ وجلَّ طوَى علم المصالح عن عباده وتفرَّد به، فليس لك إلاَّ الاشتغال بالعبوديَّة من أداء الأوامر واجتناب النواهي، والتسليم في القدر، وترك الاشتغال بالربوبيَّة، والسكوت عن لِمَ وكيف ومتى».

(سبب النزول) ولـمَّا قال أهل مكَّة: يا محمَّد أرنا من يشهد أنَّك رسول الله، فإنَّا لا نرى أحدًا يصدقك، ولقد سألنا اليهود والنصارى فأنكروك، وقالوا: ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، نزل قوله تعالى: ﴿**قُلَ اَيُّ شَيْءٍ اَكْبَرُ شَهَادَةً**﴾ أيُّ موجودٍ من الموجودات، فإنَّ الشيء يطلق على من وجد وفني أو بقي، أو سيوجد لا على غير ذلك، وأصله: مصدر شاء أي ما شاء الله وجوده، أو ما شِيءَ وجودُه، ﴿**قُلِ اللهُ**﴾ أي هو الله، أي: إنَّ الشيء الأكبر شهادةً هو الله، أو الله هو، أي: اللهُ ذلك الأكبر شهادة، لا محيد لهم عن أن يقولوا: هو الله، فقُله أنت؛ أو قُله إن لم يقولوه على حدِّ ما مَرَّ في: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ قُل لِّلهِ﴾ (الأنعام: ١٢). وذلك هو الجواب. وقوله: ﴿**شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾ خبر لمحذوف، أي هو شهيد بيني وبينكم، وهو تقرير لقوله: ﴿قُلِ اللهُ﴾ وبيان لمتعلّق الشهادة بعد إجمالها، سألهم عن الأكبر شهادة في مطلق الإخبار وأجاب، بـ«اللهُ» إجمالاً، وفصَّل بهذا بأنَّه تعالى شهيد بينه وبينهم بالرسالة لنبيئه محمَّد ﷺ، ويجوز أن يكون «اللهُ شَهِيدٌ» مبتدأ وخبر، كجواب من حيث المعنى، لأنَّه إذا كان الله شهيدٌ فهو الأكبر شهادة عندهم أيضًا الذي سألوا عنه، أو أجاب بما هو أليق بالسؤال عنه،

ويسمَّى الأسلوب الحكيم.

وشهادة الله عزَّ وجلَّ إخبارٌ بأنَّه رسوله ﷺ، واقتصر على ذلك في الجواب لأنَّه حقٌّ واضح لا محيد عنه مفهوم، عند بعضهم مجحود، وسهل الإدراك لمن استعمل نظره، والقرآن معجز أيضًا لم يقدروا على معارضته، أو بشهادة الله عزَّ وجلَّ معجزاته[1]، فإنَّ الإعجاز كما يكون بالقول يكون بالفعل، لأنَّ حقيقته ما بيَّن به المدَّعَى، بل بيانه بالفعل أقوى منه بالقول، لعروض الاحتمال في القول، لأنَّه من باب العيان، والقول من باب الإخبار، ولو كان القول في التشريع أقوى من الفعل، لأنَّه يعدو لقائل، فالاحتجاج بقول عالم أقوى منه بفعله. وكرَّر «بَيْنَ» لتحقيق المقابلة، ولو شاء لقال: «بيننا».

(أصول الدّين) وفي الآية تسمية الله شيئًا، لأنَّه في جواب «أيُّ شَيْءٍ»، لكن يقال: شيء لا كالأشياء، أو لا كسائر الأشياء، والحقُّ أنَّ الشيء يطلق على ما وجد في الحال أو في الماضي أو المستقبل وما ليس من ذلك لا يطلق عليه الشيء إلاَّ مجازًا، وكذا في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلاَّ وَجْهَهُ﴾ (سورة القصص: ٨٨) دلالة على أنَّ الله عزَّ وجلَّ شيء لا كالأشياء، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ اِنِّي فَاعِلٌ ذَالِكَ غَدًا اِلاَّ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ﴾(سورة الكهف: ٢٣-٢٤)، فالإطلاق فيه على تقدير وجوده، كما أطلق عليه بالجزم بالوجود في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ اِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ, كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة النحل: ٤٠)، وَقِيلَ: لا يطلق الشيء على ما لم يوجد وسيوجد أو وجد وفني إلاَّ

١- كذا في النسخ، تأمَّل.

مجازًا، وَقِيلَ: حقيقةً ولو في المستحيل، كما روي عن أمِّ سلمة ومعاذ بن جبل أنَّه سأل رجلٌ رسول الله ﷺ عن شيء تحدِّثني نفسي به لو تكلَّمت به لأحبطت أجري، فأجابه بأنَّه «**لا يقول سؤالك هذا إلاَّ مؤمن**» وقال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (سورة مريم: ٩)، وظاهره أنَّه قبل الخلق ليس شيئًا، الجواب أنَّه أريد شيئًا موجودًا بل شيء سيوجد.

﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لأُنذِرَكُم**﴾ يا أهل مكَّة وغيرهم كذلك، أو الخطاب لِكُلِّ من وجد حال النزول. ﴿**بِهِ**﴾ ناطقًا بالحجَّة زائدة على ما رأيتم من المعجزات المحسَّات، والتقدير: لأنذركم به ولأ بشِّركم إن آمنتم به، واقتصر اللفظ على الإنذار لأنَّ الكلام مع الكفَّار، والإيحاء إليه ﷺ حجَّة احتَجَّ بها عليهم، قرَّر بها شهادة الله في قوله: ﴿شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُم﴾. ﴿**وَمَن بَلَغَ**﴾ عطف على الكاف وضمير «بَلَغَ» للقرآن، أي ولأنذر به من بلغه يوم القيامة، أو من بلغ الحلم، أو عطف على المستتر في «أُنذِر» للفصل بالمفعول به، أي ولينذر من بلغه القرآن بعدي من عاصره، ومن بلغه القرآن، فكأنَّه رأى النبيء ﷺ وسمع منه، كما قال محمَّد بن كعب القرظي. قال ابن جرير: من بلغه القرآن فكأنَّما رأى محمَّدًا ﷺ. وأخرج أبو نعيم عن ابن عبَّاس عنه ﷺ: «**من بلغه القرآن فكأنَّما شافهته**»[1].

(أصول الدِّين) وأحكام القرآن تَعُمُّ كلَّ من بلغه ولا يؤخذ بها من لم تبلغه، إن كان على دين نبيء، والآية دَلِيل على أنَّ أحكامه تَعُمُّ من يأتي إلى

١- أورده **السيوطي** في كِتَاب الدر المنثور، ج ٢، ص٧، من حديث ابن عَبَّاس.

يوم القيامة، فقالت الحنابلة ذلك بطريق العبارة في الكلِّ، وقالت الحنفيَّة بالإجماع في غير الموجودين حال النزول. وروى أبيُّ بن كعب أنَّه أُتِيَ ﷺ بأسارى فقال: «**هل دُعيتم إلى الإسلام**» فقالوا لا، فخلَّى سبيلهم.

(سبب النزول) وقال النحام بن زيد وقردم بن كعب وبحري بن عمرو: يا محمَّد ما نعلم مع الله إلهًا غيره، فقال ﷺ: «**لا إله إلاَّ الله بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو**»، فنزل قوله تعالى: ﴿**أَيِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أنَّ مَعَ اللهِ ءَالِهَةً اخْرَىٰ**﴾ إنكار لِصِحَّةِ الشهادة وتصريح ببطلانها، وذلك تقريع لهم واستبعاد وتوبيخ وإلجاء إلى الإقرار بأنَّهم أشركوا، ولا يجدون إنكار الإشراك. ﴿**قُل لاَّ أَشْهَدُ**﴾ بأنَّ مع الله آلهة أخرى، ولا إلهيْنِ معه، ولا إله معه، أي لا أشهد بالشركة، فإنَّ المعبود لا يتعدَّد، وإنَّما ذكر الله سبحانه تعدُّد الآلهة لأنَّه معتقدُهم.

﴿**قُلِ اِنَّمَا هُوَ**﴾ أي الله ﴿**إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ لا إله معه، و«إِنَّمَا» للحصر، و«مَا» كافَّةٌ، ويجوز أن تكون موصولة، أو موصوفة بجملة: «هو إله»، فيكون خبر إنَّ هو قوله: ﴿وَاحِدٌ﴾، أي إنَّ الشيء الذي هو إله هو واحدٌ لا مُتَعَدِّد، أو إنَّ شيئًا هو إلهٌ هو واحدٌ لا مُتَعَدِّدٌ، ومع ضعف الوجهين ورجحان كون «مَا» للحصر كما هو المتعيِّن في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (سورة النساء: ١٧١) قد يكونان أليق بما قبلُ، لأنَّ فيهما مساق الحجَّة والبرهان، أي لا أشهد، لأنَّ ما استحقَّ الأُلُوهِيَّة لا يقبل التعدُّد.

﴿**وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ أي من إشراككم، أو من أُلُوهَةِ ما تشركونه من الأصنام. ويستحبُّ لمن أسلم أوَّلاً أو كرَّر الشهادة أن يقول عقب

ذلك: «وَإِنَّنِي بريء من الإشراك ومن كُلِّ دين سوى دين الإسلام».

(سبب النزول) ولـمَّا أنكر اليهود والنصارى أن يكون لِرَسُولِ الله ﷺ ذكرٌ أو وصفٌ في التوراة والإنجيل ولا غيرهما بالنبوءة وأنكروه، نزل قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

معرفة أهل الكتاب للنبيء ﷺ والافتراء على الله وتبرُّؤ المشركين من الشرك في الآخرة

﴿**الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُۥ**﴾ أي يعرفون رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل بأسمائه وصفاته ﴿**كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ**﴾ أنـَّهم أبناؤهم بمعاينة الولادة، أو المعاشرة والشبه بهم.

ولـمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر رضي الله عنه لعبد الله بن سلام رضي الله عنه: أنزل الله هذه الآية، فما هذه المعرفة؟ فقال: [يا عمر لقد عرفتُه فيكم حيث

رأيتُه كما أعرف ابني، ولا أنا أَشَدُّ معرفة بمحمَّد ﷺ منِّي بابني لأنِّي لا أدري ما صنعت النساء ـ ويروى: «ما أحدثت أمُّه»، ويروى: «ما فعلت اليهوديَّة» ـ وأشهد أنَّه حقٌّ مرسل من الله تعالى]. ويجوز عود هاء «يَعْرِفُونَهُ» للقرآن لتقدُّم ذكره، وعودها للتوحيد المعلوم من قبل فيكون فيه تعريض بشرك أهل الكتاب، بإنكار نبوءة رسول الله ﷺ وإنكار القرآن، كما أشركت النصارى بالمسيح وأمِّه واليهود بعزير وغير ذلك، وعودها إلى كتابهم، أو إلى ذلك كُلِّه بتأويل ما ذكر، [قلت] والمتبادر ما مَرَّ أوَّلاً، ولا سيما أنَّ تشبيه الإنسان بالإنسان أولى من تشبيه غير الإنسان بالإنسان.

﴿الذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب وغيرهم، مبتدأٌ خبرُه قوله: ﴿فَهُمْ لاَ يُومِنُونَ﴾، زيد فيه الفاء لشبه «الذين» باسم الشرط، أو نعت لـ«الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ»؛ أو يقدَّر: هم الذين، أو أَذُمُّ الذين؛ وعلى الثلاثة الأخيرة الفاء عاطفة على الجملة الاسميَّة قبلُ، ولا سببيَّة في الفاء، وهو قليل؛ وإن عطفنا على «خَسِرَ» فوجه السببيَّة أنَّ «خَسِرُوا» بمعنى: ضيَّعوا النظر بعقولهم، أو: قضي عليهم بتضييع ما لهم في الجنَّة، فانتفى إيمانهم، وهذا الوجه هو وجه السببيَّة فيما إذا جعلنا الجملة خبرًا لـ«الذِينَ».

﴿وَمَنَ اَظْلَمُ﴾ لا أظلم، وهو توبيخ ونفيٌ ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ قطع كذبًا على الله، أو افترى على الله افتراء، وعلى الوجهين: الافتراء إثبات الشريك لله، ودعوى بنوَّة الملائكة لله سبحانه، فهذا في مشركي العرب. ﴿اَوْ كَذَّبَ بِئَايَاتِهِ﴾ أي القرآن والمعجزات، ووصف النبيء ﷺ بخلاف وصفه في التوراة والإنجيل، وبإنكار أنَّ الله أنزل في القرآن أنَّه مذكور بالرسالة في التوراة

والإنجيل، وهذا في أهل الكتاب المنكرين لِرَسُولِ الله ﷺ.

والآية في المشركين وأهل الكتاب، أي لا أظلم مِمَّن افترى أو مِمَّن كذَّب، فكيف من جمع بين الإفتراء بما هو باطل لا يثبته من أعمل عقله، والتكذيب بما هو ثابت بالحجَّة؟!. أو الافتراء والتكذيب كلاهما في المشركين، لأنَّهم أثبتوا الشريك، وكذَّبوا بالقرآن؛ أي لا أظلم منهم لو اقتصروا على أحد الأمرين، فكيف وقد جمعوا بينهما؟، فذلك مفاد ولو لم نجعل «أو» بمعنى الواو إبقاءً على أصلها، وحكمة إبقائها على أصلها إفادة أنَّ كلاًّ من الأمرين وحده غاية الإفراط في الظلم، وبأنَّهم جمعوا بين أمرين متناقضين: أثبتوا المنفيَّ ونفوا الثابتَ، ومن شأن النقيضين أن لا يجتمعا، وأيضًا من نَفَى ما ثَبَت بالبرهان أولى بنفْيِ ما لم يثبت، ومَن أثبتَ ما نُفِي بالبرهان أولى بإثبات ما لم يُنفَ، فالجمع بينهما جمع بين المتناقضين.

والمُراد: نفي أن يكون أحد أظلم مِمَّن فعل ذلك أو مساويًا، وذلك في الاستعمال، وأمَّا بالوضع فلا يدلُّ على نفي المساواة، وذلك أنَّ النسبة بين الشيئين تُتَصَوَّرُ غالبًا بالزيادة والنقص، فإذا لم يكن أحدهما أزيد تحقَّق النقص، وَقِيلَ: دلالة التركيب على نفي المساواة وَضْعِيَّةٌ. وإذا قلت: لا أفضل في البلد من زيد، فغير الأفضل مساوٍ أو ناقص فاستعمل في أحد فرديه، وذلك من قَصْرِ الشيءِ على بعض أفراده، واعترض بأنَّ هذا مشعر بالاستعمال.

﴿**إِنَّهُ,**﴾ أي الواقع الذي لا بدَّ منه وهو الشأن ﴿**لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ لا يظفرون بمطلوب، ولا يتخلَّصون من مكروه، وذلك في مطلق الظالم فكيف من لا أظلم منه.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ «جَمِيعًا» حالٌ، ويضعف كونه توكيدًا، و«يَوْمَ» منصوب بمحذوف تهويلاً يُقَدَّرُ بعد قوله: ﴿مُشْرِكِينَ﴾، أي يكون كيت وكيت، أو يباشرون من السوء ما لا يكتنهه عقل، أو يُقَدَّرُ ماضيًا لتحقُّق الوقوع، أو نحشرهم يوم نحشرهم جميعًا، أو نحشرهم يوم نحشر الناسَ جميعًا، وهذا أبلغ تخويفًا، أو التقدير: لا يفلح الظالمون اليومَ ويومَ نحشرهم، وهو كُلِّيَّة، أي إنَّه لا يفلح الظالمون اليوم ولا يوم نحشرهم؛ ويبعد تعليقه بـ«اُنظُرْ» لكثرة الفصل، أو اذْكُرْ يوم نحشرهم لِمَا يقع فيه من الهول والعذاب، أو احذروا يوم نحشرهم، أو اخشوا يوم نحشرهم، كقوله تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾ (سورة لقمان: ٢٣)، والهاء للظالمين، أو للناس كما مَرَّ، أو للذين خسروا أنفسهم، أو لمشركي العرب، أو للمشركين وأصنامهم، كقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ (سورة الصافات: ٢٢)، وإذا كانت للمشركين فقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ (سورة البقرة: ١٧٤) لأنَّ المُراد لا يكلّمهم كلام تشريف أو نفع، فقد كلَّم إبليس وهو شرٌّ منهم. ﴿لِلذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ وضعٌ للظاهر موضع المضمر تنبيهًا على قبح شركهم، وأنَّه موجب التوبيخ والعذاب، و«ثُمَّ» لتراخي المعنى وعظمه، أو لتراخي الزمان، يبقون في غمِّ الموقف مدَّة طويلة وبعدها يقال لهم توبيخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنَّهم آلهة؟ أو أنَّهم شركاء لله في العبادة، [قلت] ولم أقدِّر: «تزعمونهم شركاء» لأنَّ الغالب والوارد في القرآن تسليط الزعم على «أنَّ» وما بعدها، وقلَّ مثلُ قوله: «زعمتني شيخًا ولست بشيخ» فذلك أولى من تقدير: «تزعمونهم شركاء».

وأضاف الشركاء إليهم لأنه لا نصيب لها في الشركة سوى تسميتهم، حتَّى جعلت غائبة، والإضافة من الإضافة لملابسة مَّا، وسُئلوا عن مكانها مع أنَّها حاضرة، كأنَّه قيل: أين شركتها التي ادَّعيتم ثبوتها ورجوتم نفعها حال الشدَّة؟ فإذا لم تحضر بالشفعة لهم فكَأَنَّهَا لم تحضر بذاتها، كما تقول لمن تعمَّد على أحد في أمر فلم ينفعه: أين فلان؟ مع أنَّ فلانًا حاضر؛ ويجوز كونها غائبة بذاتها حيث يقال لهم: أين شركاؤكم؟ فتحضر بعد ذلك ولا تنفعهم، أو غابت بعدما أحضرت وعجزت عن النفع، فقيل: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أو يُقَدَّرُ مضاف، أي أين نفع شركائكم؟.

(لغة) والزعم يستعمل في الحقِّ كما يقول سيبويه في شأن ما هو مرضيٌّ عنده: «زَعَمَ الخليلُ»، وفي حديث ضمام بن ثعلبة لِرَسُولِ الله ﷺ «زعم رسولك» مع أنَّه مصدِّق بما قال رسوله، والمُراد في الآية كنتم تجزمون أنَّها شركاء. وذكر ابن عبَّاس أنَّ كلَّ زعم في القرآن بمعنى الكذب؛ وقد ذكره بعض في شأن الله سبحانه للعلم الجازم إذ قال ـ وبئس قائلاً ـ :

تقول هلكنا إذ هلكت وإنَّما على الله أرزاق العباد كما زعم

ولعلَّه بناه للمفعول لكن لا نعرف قبله بيتًا أو بعده أو هو بيت مفرد، والقوافي يدلُّ بعضها على بعض.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ «ثُمَّ» لتراخي الزمان، أو المعنى: أي أعظم أحوالهم في العجز عن النجاة وإنكار الإشراك. والمصدر مِن أنْ والفعل بعدها بمنزلة العلم، وبذلك كان هو الاسم و«فِتْنَةَ» الخبرَ، كأنَّه قيل: لم يكن فتنةً إلاَّ قولهم. وأنَّث القول بتاء تكن لتأنيث

الخبر. والمُراد بالفتنة: كفرهم باتِّخاذ غير الله وَلِيًّا، أي لم يكن عاقبة شركهم إلاَّ تبرُّؤهم منه، كقولك لمن رأيته يحِبُّ إنسانًا مذموم العاقبة: ما كان حبًّا منك له إلاَّ أن فررت منه، كما تجعل عاقبة الشيء عينه ادِّعاء؛ أو يُقَدَّرُ: سبب فتنتهم، ولمَّا حذف المضاف أنَّث الفعل، وذلك أنَّهم تهالكوا على حبِّ الشرك.

أو الفتنة: التخلُّص، كقولك: فتنتُ الذهبَ إذا أزلتَ رداءته بالنار. توهَّموا أنَّ قولهم: «وَاللهِ رَبِّنَا...» إلخ معذرة صارفة لهم. والفتنة ما يحِبُّ الإنسان ويعجب به، وكانوا يفتخرون بشركهم؛ أو الفتنة: الجواب، لأنَّهم قصدوا به الخلاص.

أو لأنَّه كذب، فقد كذبوا في الآخرة كعادتهم في الدُّنيا، بل بنفي الشريك وتأكيد النفي بالقسم فذلك كذبان، وحينئذ يختم على أفواههم وتشهد جوارحهم، ففي موطن من مواطن الآخرة ﴿لاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ (سورة النساء: ٤٢)، وفي موطن يكتمون بالكذب، وفي موطن يُسألون أجمعون، وفي موطن ﴿لاَ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ﴾ (سورة الرحمن: ٣٩).

والآية ناطقة بأنَّ الكفَّار يكذبون في الآخرة كالدنيا، وذلك قول الجمهور، وقال أبو عليٍّ الجبَّائي من المعتزلة والباقلاَّني: لا لظهور الأمر وكون الكذب لا ينفعهم، وأجابوا عن الآية بأنَّ المُراد ما كنَّا مشركين في اعتقادنا أنَّ عبادة الأصنام يتقرَّب بها إلى الله، لا عبادة بالذَّات، وبأنَّ معنى قوله: ﴿**انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىَ أَنفُسِهِمْ**﴾ أنَّهم كذبوا في الدُّنيا بأمور يخبرون عنها بخلاف الواقع كقولهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَىَ﴾ (سورة الزمر: ٣)، وأجاب الجمهور بأنَّهم

يكذبون في الآخرة مع انكشاف الأمر وعدم الانتفاع بالكذب للتحيُّر والدهش من شدَّة الأمر، حتّى نسوا أو تعمَّدوا الكذب، وَبأَنَّ حمل «كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ» على كذب الدُّنيا تعسُّف، لأنَّ ما قبل هذا أو ما بعده في شأن الآخرة، وأيضًا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ...﴾ (سورة المجادلة: ١٨)، أي في الدنيا لكم.

﴿وَضَلَّ﴾ ذهب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي كونهم مفترين أو ما كانوا يفترونه من الآلهة، ولو حضرت لذهاب نفعها، وجُعلت نفسَ المفترَى مبالغة فإنَّ المفترى النفعُ، وهذا داخل في النظر، عطف على «كَذَبُوا»، كأنَّه قيل: «انظر كيف ضَلَّ عنهم...» إلخ؛ ويجوز عطفه على «نَقُولُ» أو «نَحْشُرُ» لأنَّ معناه الاستقبال، وإنَّما أتى بصيغة الماضي للتحقُّق، فلا يدخل في النظر.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

مواقف من عناد المشركين

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين استمع له أميَّة بن خلف وأخوه أبيٌّ والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وعتبة وشيبة ابني ربيعة لعنهم الله، ومنهم أبو سفيان بن حرب ـ إلاَّ أنَّه أسلم حين الفتح ـ اجتمعوا وقالوا للنضر وكان

أعقلهم وأقربهم للإسلام ومات كافراً: يا أبا قتيلة ما يقول محمَّد؟ فقال: ما أدري ما يقول غير أنِّي أراه يحرِّك لسانه ويذكر أساطير الأَوَّلِينَ، مثل ما كنت أذكر لكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الأخبار عنها، فقال أبو سفيان: أرى بعض ما يقول حقًّا، فقال أبو جهل: كلاَّ ! لا تُقرَّ بشيء من هذا ! المَوْتُ أحبُّ إلينا من هذا.

روعي لفظ «مَن» فأفرد الضمير، لأنَّ المستمعين المُرادين هنا قليل؛ كما أفرد في ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّنظُرُ إِلَيْكَ﴾ لقلَّة الناظرين إلى المعجزات، ورُعِيَ معناها فجمع في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّسْتَمِعُونَ﴾ (سورة يونس: ٤٢)، لأنَّ المُراد الكفَّارُ كلُّهم.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ صيَّرنا، أو خلقنا، أو ألقينا ﴿عَلَى قُلُوبِهِمُ, أَكِنَّةً﴾ جمع كنان، وهو ما يغطِّي الشيء، ﴿اَنْ يَّفْقَهُوهُ﴾ متعلّق بـ«أَكِنَّةً»، لأنَّ المعنى: وجعلنا على قلوبهم مانعًا عن أن يفقهوه، وهذا أولى من أن يقال: حذر أن يفقهوه، أو كراهة أن يفقهوه، أو لِئَلاَّ يفقهوه، أي يفهموه، والهاء للقرآن المعلوم من قوله: ﴿يَسْتَمِعُ﴾. ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ معنى مانعًا عن سماع القبول والتدبُّر، تشبيهًا بثقل السمع حتّى كأنَّهم لم يسمعوا.

والأكنَّة والوقر عبارة عن الخذلان، وهو ترك التوفيق؛ أو عن أن يُحدِث في نفوسهم هيئةً تُمرِّنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات لإهمالهم عقولهم عن النظر، وذلك عقوبة لهم على اختيارهم الكفر وإهمال النظر.

(أصول الدّين) لكنَّ هذا الاختيار مخلوق لله عزَّ وجلَّ، وليس ذلك الإحداث وخلق الاختيار إجبارًا، ولو كانا يتخيَّل أنَّهما إجبار لعجز عقولنا عن

فهم ذلك، أو نقول: لا يُسأل عمَّا يفعل. ولا حجَّة لِلكُفَّارِ إذ يقرُّون بالاختيار ضرورة، ولو أنكروه تارة. وأسند الجعل والطبع والختم إلى الله باعتبار خلقه الاختيار وترك التوفيق، وعوقبوا على الاختيار، والمعتزلة منعوا إسناد ذلك إلى الله، وقالوا: تمكّن التقليد وإهمال النظر في قلوبهم حتّى صارا كالطبيعة المسند خلقها إلى الله عزَّ وجلَّ.

والحقُّ إسناد ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ بمعنى خلقه ولا مانع، ويسألون عن ذلك التمكُّن، فإن قالوا: بالطبع المجرَّد، فذلك شرك، وهم يقولون بخلقهم أفعالهم، وضلُّوا بذلك مع أنَّ التمكُّن ليس فعلاً لهم.

﴿وَإِنْ يَّرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ علامة مِمَّا يتلى وغير ما يتلى من المعجزات على وحدانيَّة الله تعالى، ونبوءة محمَّد ﷺ ورسالته، وقال ابن عبَّاس: المُراد آيات القرآن، وَقِيلَ: التكوينيَّة كانشقاق القمر ونبع الماء من بين الأصابع وتكثير الماء والطعام القليلين، وخصَّصها بعض بغير الملجئة لئلاَّ يناقض قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتَ اَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٤)، قلت: **الإيمان عند الآية الملجئة غير الإيمان الاختياريِّ.**

﴿لاَ يُومِنُواْ بِهَا﴾ يكذّبون بها، ويقولون: سحرٌ أو افتراء وأساطير، أو لا يومنون بسببها بالوحدانيَّة والنبوءة والرسالة، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوكَ﴾ «حَتَّى» للابتداء، ولا تخلو عن معنى الغاية، لأنَّها تفريع، ألا ترى أنَّ المفرَّع ينتهي إلى المفرَّع عليه وبالعكس، فإنَّ عنادهم انتهى بهم إلى قولهم: «إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ»؛ ولو قلنا: جارَّة، خرجت «إِذَا» عن الشرط والصدر، ولم يكن لها جواب، وهو وجه ضعيف. ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ حال من الواو **مُقَدَّرة**، أي:

ينازِعونك نزاعًا شديدًا؛ أو الجدال لا يخلو عن شِدَّة؛ أو نزاعًا شديدًا حتَّى كأنَّهم يريدون أن يلقوك على الجدالة وهي الأرض. وجواب «إِذَا» هو قوله: ﴿يَقُولُ الذِينَ كَفَرُواْ...﴾ فيما قيل، واعترض بأنَّ قول الذين كفروا هو نفس الجدال، فلا فائدة إلاَّ أن تؤوَّل المجادلة بإرادتها أو بقصدها، والأصل خلاف التأويل. ﴿إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ كلمات كتبها الأَوَّلُونَ أسطارًا تتلى عليك؛ أو جواب «إِذَا» «يُجَادِلُونَكَ»، و«يَقُولُ الذِينَ كَفَرُوا» مستأنفٌ في جواب سؤال مُقَدَّر؛ أو بدل من «يُجَادِلُونَكَ».

(صرف) والمفرد: أسطورة ـ أفعولة ـ فيما يستعجب منه كأحدوثة وأضروبة، وهو أولى؛ ويليه أنَّه جمع أسطار، وأسطار جمع سَطْر ـ بفتح الطاء وإسكانها ـ؛ وَقِيلَ: جمع أسطورة أو إسطارة أو أسطير، أو أسطور مفردات غير واردة؛ وَقِيلَ: وردت في كلام العرب، ولا يصحُّ ما قيل: أساطير جمع أسطار وإسطار جمع أسطر وإسطر جمع سطر، لأنَّ "أفعالاً" جمعٌ للثلاثيِّ لا للرباعيِّ، ولا ما قيل: أنَّه اسم جمع، لأنَّ نصوص النُّحَاة أنَّ ما على صيغة منتهى الجمع يقال له جمع، ولو لم يكن له مفرد من لفظه، كعباديد وشماطيط.

﴿وَهُمْ﴾ أي المشركون ﴿يَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنْهُ﴾ عن القرآن عن أن يؤمنوا به، أو عن رسول الله ﷺ عن أن يؤمنوا به ﴿وَيَنْئَوْنَ﴾ يبعدون بأنفسهم ﴿عَنْهُ﴾ عن القرآن أو الرَّسول عن أن يؤمنوا به، أو هم ينهون عن رسول الله ﷺ أن يَضُرَّه أحد، و«يَنْأَوْنَ» يبعدون عنه، عن تصديقه.

وذلك كأبي طالب يَرُدُّ السوء عن رسول الله ﷺ ولا يؤمن به. واجتمع إليه رؤساء قريش وقالوا له: خذ شابًّا من أَصْبَحِنَا وجهًا وادفع إلينا محمَّدًا، فقال

ما انصفتموني أدفع إليكم ولدي لتقتلوه وأربِّي ولدكم!. واجتهد النبيء ﷺ أن يؤمن وينطق بالشهادتين فيجادل له عند الله فأبى، واعترف أنَّه ﷺ على الحقِّ ولكن يخاف أن يسبَّه قريش، وقال في مرض موته: إنَّه يموت على دين الأشياخ، فمات عليه، وهو دين أشياخ قريش، وقال: لولا أن يعيِّرني قريش لأقررت عينك بما تحبُّ من الإيمان، ولكن أذبُّ عنك ما حييت، وقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتَّى أوسَّد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وأبشر بذاك وقرَّ منه عيونا
ودعوتني وزعمت أنَّك ناصح	ولقد صدقت وكنت ثمَّ أمينا
وعرضت دينًا قد علمت بأنَّه	من خير أديان البريَّة دينا
لولا الملامة أو حذار مسبَّة	لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

[قلت] والوجه الأوَّل أولى، وهو أنَّهم ينهون عن تصديقه غيرهم ويبعدون عن تصديقه، وأمَّا الثاني أنَّهم ينهون عن ضرِّه ويبعدون أنفسهم عن تصديقه والإيمان به، فيضعف بأنَّ فاعل ذلك أبو طالب، ولا يحسن جمعه تعظيمًا له لفعل ما لا يستقلُّ به وحده كما قيل به، وَقِيلَ: هو وتسعة إخوة له كلُّهم أعمام النبيء ﷺ، كانوا أَشَدَّ الناس له نفعًا في العلانية ذبًّا على نسبهم، وَبِأَنَّ ما قبل ذلك من الآيات في ذمِّ طريقتهم، فليكن هذا كلُّه في ذمِّها لا في ذمِّها بالنأي عن تصديقه ومدحهم بالنهي عن ضرِّه، لكن لا بأس بالذم بالمجموع مشتملاً على شيء هو مدح.

وبأنَّ ما بعد ذلك أيضًا في ذمِّهم وهو قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ**﴾ بالنهي عن تصديقه وبالبعد عنه، لأنَّ وبال ذلك راجع عليهم، ولا

يخفى أنَّ هذا أولى من أن يقال: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ بالبعد عن تصديقه ولو لم يهلكوها بالنهي عن ضرِّه، ولو كان وجهًا.

عَبَّرَ بالإهلاك إشعارًا بأنَّ مرادهم إهلاكه بالكُلِّيَّةِ لا منع الناس عنه فقط، ولا مطلق الضُّرِّ، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بإهلاكهم أنفسهم بذلك، وأنَّ ضرره يرجع عليهم لا ينالك ضرُّهم، ولا ينال القرآن، وشَرَحَ إهلاكَهم أنفسَهم بقوله:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

موقف المشركين أمام ربهم في الآخرة

﴿وَلَوْ تَرَىَٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبُ بِئَايَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ لرأيت أمرًا هو غاية السوء يضيق عن قلبك وصفه، فحذف الجواب ليذهب السامع كل مذهب ممكن فيه، ولو أظهر مخصوصًا لاقتصر عليه أو مجملاً لم يفصله كلَّ تفصيل.

و«لو» امتناعيَّة، والرؤية الآن غير واقعة، فـ«تَرَى» بمعنى رأيت، و«إذْ» وما بعدها للمضيِّ لتحقُّق الوقوع بعده؛ أو «لو» بمعنى «إنْ»، وجوابُها بلا لام. ﴿إذْ وُقِفُوا﴾ بمعنى إذا وُقِفوا للاستقبال كـ«تَرَى». والخطاب له ﷺ، أو لِكُلٍّ من يصلح له. و«تَرَى» بَصَرِيَّة، أي تراهم، أو تشاهد حالهم؛ أو بمعنى: تدبَّرت، فيكون الجواب: لازددت يقينًا. وَوَقْفُهم على النَّار إحضارُهم ليعاينوها، وإعلاؤهم عليها من خارج، وهي من داخل أسفل منهم؛ أو إدخالهم إيَّاهَا؛ أو بيانُها لهم حتَّى يعرفوها حقًّا، كقولك: وقفت فلانًا على كلام فلان، بمعنى: عرَّفته إيَّاه حتَّى لا محيد له عنه؛ أو وقفُهم عليها: تصييرُهم واقفين فيها على أقدامهم؛ أو «عَلَى» بمعنى «في»، وهي محيطة بهم.

قيل: وحكمة «عَلَى» مع أنَّها بمعنى «في»: التلويحُ بأنَّهم في النَّار تحتها نار وهم عليها، فإنَّ كون نار فوق نار أشدُّ من كون نار على غير نار، كما أنَّ نارًا فوقها نار شديدة ولاسيما نار بين نارين، وهذا الوجه الأخير ضعيف. و«يَا» للتنبيه؛ أو يا قومُ، أو يا رسولَ الله، والمُراد الردُّ إلى الدُّنيا لنؤمن، و«لاَ نُكَذِّبُ» معطوف على «يَالَيْتَنَا نُرَدُّ» عطفَ إخبار على إنشاء، كأنَّه قيل: ياليتنا نردُّ وقالوا: لا نكذِّب إن رُددنا، فليس داخلاً في التمنِّي؛ أو لا نكذب ولو لم نردد؛ أو معطوف على «نُرَدُّ»، فيتسلَّط عليه التمنِّي كما تسلَّط على «نُرَدُّ»؛ أو الواو للحال، قدِّر المبتدأ بعدها أو لم يُقَدَّر، فيكون للتمنِّي مقيَّدًا بعدم التكذيب، ففي هذا الوجه والذي قبله تمنَّوا ثلاثة أشياء: الردَّ للدنيا وعدم التكذيب والكون من المؤمنين، فإنَّ قَيْدَ التمنِّي داخلٌ في التمنِّي.

وترجَّح العطف على «يَالَيْتَنَا نُرَدُّ»، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فإنَّ

التمنّي إنشاء لا يقبل التكذيب إلاّ باعتبار أنّهم لا يؤمنون ولو حصل الردُّ. والمُراد بـ«آياتِ رَبِّنَا» آياتُه الدالّة على النّار وأحوالها وأهلها، لأنّها الحاضرة؛ تحسَّروا على تفريطهم حتّى كانوا من أهلها، وقد حضرت لهم؛ أو مطلقة الآيات الشاملة لهذه بالأولى، وليس تمنّيهم عن عزيمة صادقة في الإيمان، فإنّه لا رغبة لهم فيه، بل خافوا العقاب الحاضر كما أشار إلى ذلك بقوله عزَّ وجلَّ:

﴿**بَلْ بَدَا**﴾ ظهر ﴿**لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ**﴾ هو إشراك المنافقين، وأمر البعث، والشرك الذي أنكره المشركون في بعض مواقف القيامة، والصغائر والكبائر التي يخفونها في الدُّنيا ــ والمشركون مخاطبون بالفروع أيضًا ـ وإخفاء أهل الكتاب ما في التوراة والإنجيل من رسالته ﷺ، والآية تَعُمُّ هؤلاء.

وَقِيلَ: هو النّار، فإنَّ جحودها إخفاء لها؛ أو الآيات الدالّة عليها، فإنَّ إنكارها نفيٌ لها؛ أو الإشراك، أي بدا جزاؤه، وتحقق أنّه إشراك يجازَوْن عليه بالنار بعدما قالوا: «وَا للهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ»، إذ قالوا كذبا أو زعمًا بأنّه غير شرك بل ليقرِّبهم إلى ا للهِ عَزَّ وَجَلَّ. وعن الْمُبَرِّد: **بدا لهم وبالُ ما كانوا يخفون**. و«مَا» موصول اسميٌّ أو حرفيٌّ، أو نكرة موصوفة.

﴿**وَلَوْ رُدُّوا**﴾ إلى الدنيا بعد الوقوف على النّار، ولو بدخولها ومضيِّ أحقاب، ﴿**لعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ**﴾ إلى ما نهوا عنه من الشرك، وما دونه من المعاصي، ﴿**وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ في وعدهم الإيمان الذي تضمَّنه تمنِّيهم له، ومن شأنهم الكذب على الإطلاق، ومنه هذا بالمشاهدة، أو بنطق جوارحهم.

وكلٌّ من المشركين والمنافقين بإضمار الشرك واليهود والنصارى وغيرهم من أهل النّار كلّهم يتمنَّون الردَّ إلى الدُّنيا ليجتنبوا ما أدخلهم النار، وكلٌّ واحد بدا له تفريطه وبطلان ما كان يتوهَّمه، وقبح ما أضمر من تشهٍّ واعتقاد.

والجملة عُطِفت على «لَوْ» وشرطِها وجوابِها عطفَ قصَّة على أخرى. والصحيح أنَّ وعد الكافرين الإيمان هو على طريق الإخبار، وَقِيلَ: إنشاء، فالكذب مبنيٌّ على الإخبار.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي منكرو البعث، عطف على «عَادُوا» فَمَعنَى «لَوْ» متسلّط عليه، كأنَّه قيل: ولو رُدُّوا لعادوا لِمَا نُهُوا عنه ولقالوا كما قالوا قبلَ معاينة العذاب؛ وأجيز عطفها على «نُهُوا»، والعائد محذوف، أي قالوه؛ أو على «كَاذِبُونَ»؛ أو على «أَنَّهُم لَكَاذِبُونَ» على أنَّ قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ كلام لهم في الدُّنيا قبل الموت، وأمَّا على أنَّه فيها بعد الموت والردِّ لو كان الردُّ فداخلٌ في حيِّز «لَوْ»، ليكون عطف خاصٍّ على عامٍّ، فإنَّ ما ذكر الله عنهم من قوله: ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي الحياة المعهودة في الأذهان ذكرت مبهمةً وفسِّرت في قوله: ﴿إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ القريبة الزوال، أو الدنيئة، أو المتقدِّمة على الآخرة، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ من جملة ما نهوا عنه.

﴿وَلَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مثل ما مَرَّ إلاَّ أنَّ الوقوف على رَبِّهم كناية عند من لم يشترط في الكناية إمكان الحقيقة؛ أو استعارة مركَّبة من تشبيه أشياء بأشياء لجامع شبه إحضارهم وإذلالهم وسؤالهم وتوبيخهم في موقف الحساب بإحضار السيِّد عبده وإذلاله، وسؤاله وتوبيخه على ما فعل، كما يقال

أوقف السيِّد عبده عليه، أو الوقف بمعنى المعرفة، أو عرفوه تحقيقًا، كما تقول: اطَّلعت على كذا، أي تحقَّقته، وكما يقال: وقفت فلانًا على كلامك؛ أو المعنى: وُقِفوا على جزاء رَبِّهم وقضائه، وسؤاله أو ملَكِه كما قال:

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي قال مَلَكُه، وهذا جواب سؤال محذوف، أي ماذا قال لهم إذ وقفوا عليه؟؛ أو حال من «رَبِّ»، والإشارة إلى البعث للحساب؛ أو إلى الحساب؛ أو إليهما معًا؛ أو إليهما وإلى الثواب والعقاب بتأويل الواقع؛ وَقِيلَ: إلى العقاب. ﴿قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أي إنَّه لَحَقٌّ.

(لغة) وليست الجملة مُقَدَّرَة بعد «بَلَى» أو «نَعم»، بل هما أفادتا معناها، فلو ذكرت لكانت تأكيدًا لمعناهما، بخلاف «لاَ» فإنَّ الجملة مُقَدَّرَة بعدها، لأنَّها تدخل على الجملة فتنفي، بخلاف «نَعم» فإنَّها ليست موضوعة لنفي جملة بعدها أو إثباتها، مثل أن يقال: نَعَم قام زيد، بمعنى: ما قام أو قام، بل لإقرارِ نفيٍ سبقها أو إثبات؛ وكذا «بَلَى» لم توضع لنفي جملة تدخل عليها، بل لنفي النفي قبلها. وإنَّما أقسموا إظهارًا للنشاط المؤذن بالطمع في التخلُّص بقبول ندمهم.

﴿قَالَ﴾ مثل الأوَّل ﴿فَذُوقُواْ العَذَابَ﴾ عطف على محذوف عطف إنشاء على خبر، أي: قد أقررتم فذوقوا العذاب، فالفاء لترتيب التعذيب على إقرارهم بحقيَّة ما كفروا به في الدُّنيا، على أنَّ مدار التعذيب كفرهم الموجب للإقرار، لا خصوص إقرارهم، فإنَّ لهم العذاب ولو لم يقرُّوا. والذوق عبارة عن أوَّل مباشرة شيء هكذا مطلقًا؛ أو إشارة إلى أنَّ عذاب كلَّ وقت بالنسبة لزيادة الشدَّة في الوقت بعده كالذوق، أي أدخلوا العذاب الذي لا يزال تزيد شدَّته.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لسبب كونكم تكفرون بذلك العذاب وبا لله وآياته؛ أو بسبب كفركم الذي تكفرونه، على إسقاط الكون؛ أو ذوقوه لكونكم تكفرون بذلك الذوق.

﴿قَدْ خَسِرَ﴾ منازلَ في الجنَّة وأزواجًا والأنفس، بمنازل في النَّار ﴿الذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ا للهِ﴾ بالبعث والجزاء على أنَّ لقاء ا لله استعارة تمثيليَّة عن البعث وما بعده؛ وقد قدَّر بعض مضافًا، أي بلقاء جزاء ا لله. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة، لأنَّ الموت مبدأها وباب لها. قال ﷺ: «**مَن مَاتَ فقد قامت قيامته**»[1]. و«حَتَّى» غاية للتكذيب ولو كانت ابتدائيَّة كما مَرَّ بيانه؛ ولا يخفى أنَّ التكذيب ينقطع بالموت، فليسوا باقين في التكذيب حتَّى يبعثوا؛ أو غاية للخسران، أي خسر المكذِّبون إلى قيام الساعة بأنواع البلاء، وإذا قامت وقعوا فيما ينسيهم هذا الخسران. والساعةُ: قطعةٌ من الزمان، وغلبت على الوقت المعلوم، كالنجم للثريَّا، وسمِّي ساعة لقلَّته بالنسبة إلى الخلود، أو لسرعة الحساب فيه؛ وفسَّره بعض بوقت الموت هنا.

﴿بَغْتَةً﴾ حال، أي نفس البغتة مبالغة، أو ذاتُ بغتةٍ، أو باغتةٌ، أو مبغوتين بها، أو «جَاءَتْ» بمعنى: بغتت، كقمت وقوفًا؛ أو باغتةً بغتةً، أو تبغتهم بغتةً. والبغتة: المفاجأة من غير استعداد ولا جعلِه ببال، ولو جعل ببال لم يعد بغتة ولو لم يستعد له. وفي التعبير عن القيامة بالساعة تلويحٌ إلى سرعة الحساب، وإيذان بأنَّها شهرت حتَّى لا ينصرف عنها لفظ الساعة عَلَمًا بالغلبة، فكيف يغفل عن

١- أورده **الشوكاني** في فوائده، ص ٢٦٧، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار، ج٤، ص٦٣.

الاستعداد لها؟!.

﴿قَالُواْ﴾ جواب «إِذَا»، ومن زعم أنَّ «حتَّى» جارَّة قال: استئناف. ﴿يَاحَسْرَتَنَا﴾ نَدمَنا وتلهُّفَنا، احْضُرِي فَهَذَا وقتك إن كان لك وقت، والمُراد: شدَّة التحسُّر، وتصريحهم بإهمال أنفسهم عن الحقِّ، حتَّى نادوا الحسرة، والحسرة لا تسمع وتقبل، وقد قيل: كأنَّهم ذهلوا حتَّى نادوها، ويقال: هذا التحسُّر وإن كان عند الموت لَكِنَّ الموت من مقدِّمات الآخرة، فجعل من جنس الساعة وسمِّي باسمها، أو جعل مجيء الساعة بعد الموت كالواقع باتِّصال.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ «مَا» مصدريَّةٌ، أي: على تفريطنا في الدُّنيا، وإن لم يجر لها ذكر لعِلْمِها من المقام، وتقدَّر في أخرى ومجرورها أي في الإيمان والعمل الصالح، لجواز تعليق اسم الزمان، ومجرور «في» بعامل واحد ولو بلا تَبَعِيَّة، والدنيا زمان، فكما يجوز: قُمت زمانًا في مكان كذا أو في عمل كذا، يجوز: قمت في زمان في مكان أو في عمل.

ويجوز عود الضمير إلى الأعمال لعلمها من المقام، فلا تقدَّر في أخرى أي في الدُّنيا، أو تقدَّر وتعلَّق في الأعمال كما قيل بعوده إلى «مَا»، على أنَّ «مَا» اسم واقع على الأعمال، أي على الأعمال التي قصَّرنا فيها؛ وَقِيلَ: يعود الضمير إلى الساعة، أي فرَّطنا في مراعاة حقِّ يوم القيامة المعبَّر عنه بالساعة؛ وَقِيلَ: إلى الجنَّة، أي فرَّطنا في طلبها؛ وَقِيلَ: إلى الصِّفة، لدلالة الخسران عليها، وهي أقوال بعيدة. ويقولون: ياحسرتنا على ما فرطنا فيها حال حملهم الوزر كما بيَّنه بواو الحال في قوله: ﴿وَهَمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوبهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمُ,﴾ سَمَّى الذنوب أوزارًا

لثقلها ثقلاً معنويًّا، وهو شدَّة العذاب عليها، أو حسيًّا كما هو معنويٌّ أيضًا.

كما روي «إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شيءٍ صورةً، وأطيبه ريحًا، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الصالح فاركبني، فقد طال ما ركبتك في الدُّنيا، فذلك قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (سورة مريم: ٨٥)، يعني ركبانًا، وأمَّا الكافر فيستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحًا فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الخبيث طال ما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾؛ وَقِيلَ: يدخل معه قبره في أقبح وجه وأسوده، وانتن ريح وأدنس ثوب، ويقول: من أنت؟ ما أقبحك! فيقول: أنا عملك في الدنيا، وإذا خرج وجده أيضًا، ويركبه حتَّى يدخله النار».

[قلت] **والصحيح أنَّ الأعمال لا تجسَّم، فيحمل الحديث والقرآن على التمثيل.** وخصَّ الظهر لأنَّه يطيق من الحمل ما لايطيقه غيره من الجسد، وهو الأصل في الحمل، كما أنَّ الكسب في الأكثر بالأيدي، وهي الأصل فيه.

﴿أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ما يذنبون، أي يكسبونه من الذنوب، أو يحملونه، والمخصوص بالذم محذوف، أي حملهم ذلك، أو ذنوبهم تلك.

(نحو) و«سَاءَ» من باب نِعْمَ وبِئْسَ، فَحُوِّل من الفتح إلى الضمِّ واللزوم؛ أو مستعمل في التعجُّب كذلك؛ أو باق على الفتح والتعدية، أي ساءهم. و«مَا» موصول اسميٌّ؛ أو نكرة موصوفة؛ أو مَصْدَرِيَّة. ولا حمل في

الآية بل تمثيل لاستحقاقهم العقاب، لأنَّ الذنوب أعراض لا أجسام.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ما أعمال الحياة الدُّنيا التي هي معاص أو مكروهات وما لا يعني والمباحات التي لم تصرف إلى الطّاعة بنيَّةٍ إلاَّ لعب، وهو ما لا نفع فيه ولا جدَّ بل هزل، وإلاَّ لهو وهو اشتغال عمَّا يهم مِمَّا ينفع أو يتوهَّم نفعه.

وأخرج بعضهم عن اللهو واللعب ما هو من ضرورة المعاش ولم تقصد به معصية، وَقِيلَ: اللعب ما يشغل النفس عمَّا تنتفع به، واللهو صرفها عن الجدِّ إلى الهزل، فالدنيا ذُمَّت من هذا الوجه، ومُدحت من حيث إنَّ الطاعة ومنها المباح المصروف إليها تكتسب فيها، **فَنِعْمت المطيَّةُ**. والكلام من التشبيه البليغ، ولو لم يُقَدَّر المضاف وهو «أعمال» وجعلت الدنيا نفسها لعبًا ولهوا مبالغةً لصَحَّ.

وَقِيلَ: اللهو صرف الهمِّ بما لا يَصِحُّ أن يصرف به، واللعب: طلب المسرَّة بما لا يحسن أن تطلب به؛ وَقِيلَ: اللعب ما قصد به تعجيل المسرَّة، واللهو: ما شغل من هوى وطرب؛ وَقِيلَ: ما قدم من غير ترك للآخر لعب، وما ترك به الآخر ونسيه لهو؛ وَقِيلَ: هما في الشيء الواحد باعتبارين، فإذا أقبل على الباطل أعرض عن الحقِّ فإقباله لعب، وإعراضه لهو.

وَقَدَّمَ اللهو في سورة العنكبوت (آية ٦٤) ـــ والله أعلم ـــ لأنَّ المقام فيها لقصر الحياة الدنيا، واللهو مِمَّا يقصر به الزمان، وأيَّام السرور قصار، والمقام هنا للردِّ على الكفرة في إنكار الآخرة، والمُراد مسرَّة الدنيا وهي كلاشيء، فقدَّم «لعبٌ»؛ أو قدَّمه لإقبالهم على الباطل قولاً وفعلاً؛ أو لأنَّ اللعب مقدَّم خارجًا

على اللهو، أجاب قولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الآية: ٢٩) بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وبقوله:

﴿**وَلَلدَّارُ الاَخِرَةِ خَيْرٌ**﴾ لدوامها وعدم تكدُّر لذَّاتها من الدُّنيا لعنائها وتكدُّر لذاتها، ونقص لذَّاتها، أو «خَيْرٌ» بمعنى منفعة، ﴿**لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾ الشرك والمعاصي، أو أفضل لهم مِمَّا لهم في الدنيا، وأمَّا الكفَّار فما لهم في الدُّنيا منفعة لهم لا ما في الآخرة وما ليس من أعمال المتَّقين لهو ولعب لا يؤدِّي إلى سعادة. واللام للابتداء مُتَّصِل بألف «ال» التي حذفت وبقيت اللام بعدها، ومقتضى قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أن يقال: «وما الدار الآخرة إلاَّ جدٌّ وحقٌّ»، لكن أقيم مقامه مسبّبه وَهُوَ الخيريَّة للذين يتَّقون.

﴿**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ خطاب للحاضرين، أو تغليب لهم على الغائبين، فيكون توبيخهم منطوقًا به كالحاضرين، أي ألا تتفكَّرون فلا تعقلون؟ أو أتغفلون فلا تعقلون أنَّ الدار الآخرة خير وأنَّ الدُّنيا لعب ولهو؟. قيل: اللهو واللعب مترادفان، وَأنَّهُمَا ما يلهو به الصبيان ويجتمعون عليه ساعة مبتهجين ويتفرَّقون، وذلك صرف الهمِّ بما لا يحسن صرفه به، أو طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب.

واختار بعض أنَّ كلَّ لعب لهو ولا عكس، فبينهما عموم وخصوص مطلقًا، لأنَّ اللهو يشمل المباح والحرام دون اللعب، لأنَّ كلَّ لعب حرام، وما استثني منه فهو في صورة اللعب، فالأخصُّ يستلزم الأعمَّ، فذِكرُ الأعمِّ بعده يحتاج إلى عناية، وهي أنَّهم يلعبون به ويلهيهم ذلك اللعب، فحينئذ يحسن الأعمُّ بعد ذكر الأخصِّ، كقوله تعالى ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيئًا﴾ (سورة مريم: ٥١، ٥٤)، أي أرسله

إليهم فأنبأهم عنه، ولذلك قُدِّم مع أنَّه أخصُّ، وأمَّا تقديم اللهو في بعض الآيات فعلى الأصل من تقديم الأعمِّ، لأنَّ العامَّ لا شعور له بأخصَّ مُعيَّن، والأصل في العطف التغاير فهما غير مترادفين.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

حزن النبيء ﷺ لإعراض قومه عنه وتسليته

﴿**قَدْ نَعْلَمُ**﴾ تحقَّق علمنا أو كثر، كقول زهير في مدح أبي حذيفة بن بدر.

أخا ثقة لا يتلف الخمر ماله ولكنَّه قد يهلك المال نائله

أي إعطاءُه.

(أصول الدّين) ومَعنَى كثرة علم الله كثرة أجزاء معلومه إذ علم من كلّ جزء وأن دقَّ، وإلاَّ فصفات الله ذاتيَّة وهو لا يتَّصف بالأجزاء.

أو: مِن أقلِّ معلوماتِنا إحزانُ الذين يقولون إيَّاك، وذلك كما نُفَسِّرُ «قَدْ» في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ (سورة النور: ٦٤) وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾ (سورة الأحزاب: ١٨) بالتحقيق أو بتكثير معلوماته من ذلك، أو بتقليلها

بالنسبة؛ والتحقيق أَنَّ «قَدْ» مع المضارع للتحقيق بالوضع، والكثرةُ أو القِلَّةُ إنَّمَا هي من خارج، وَقِيلَ: هي للتقليل، واستعمالها في الكثرة استعارة أحد الضدَّين للآخر، والأولى في قول سيبويه: أنَّ «قَدْ» كـ«رُبَّ» أنَّها بمعناها في التقليل.

﴿إِنَّهُ, لَيَحْزُنُكَ الذِي يَقُولُونَ﴾ أي الكلام الذي يقولونه، أو القول الذي يقولونه من أنَّك ساحر أو مجنون، أو شاعر أو تَتَكَلَّمُ بأساطير الأَوَّلِينَ، أو يعلّمك بشر ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ علّة لمحذوف، أي: لا تحزن لأَنَّهُمْ، أو دُمْ على الصبر لأنَّهم ﴿لَا يُكْذِبُونَكَ﴾ مضارع "أَكْذَبَ"، فهو من "أَفْعَلَ" الذي للوجود، أي لا يجدونك كاذبًا؛ أو للنسب، أي لا ينسبونك إلى الكذب من قلوبهم، بل من ألسنتهم فقط؛ أو لا يصيِّرونك كاذبًا، بل أنت باق على الصدق.

وهذا في الجملة، فإنَّ منهم من يُكْذِبه من قلبه ومنهم من يُكْذِبه بلسانه وقد عَلِم صدقه من قلبه لكنَّه جحد، كما قال: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِئَايَاتِ اِ۬للَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أو لا يكذبونك لعلمهم بصدقك في طول عشرتك، ولكنّهم يقولون: ما جئت به غير صحيح في نفسه، ولست مفتريًا له، كما روي أنَّ أبا جهل لعنه الله يقول: ما نُكْذِبك وَإِنَّكَ عندنا لصادق، وإنَّمَا نكذّب ما جئت به تظنُّ أنَّ مخبرك به صادق وليس صادقًا.

قيل: ولكن تغيّر عقلك فقلت ما قلت لا بكذب منك.

(سبب النزول) وَقِيلَ: لا يكذبونك كلُّهم، بل منهم من يصدقك، فنزلت الآية، كما روي أنَّ الأخنس قال لأبي جهل لعنهما الله تعالى: ليس معنا هُنَا أحد، فأخبرني عن محمَّد ﷺ، فقال: والله إنَّه لصادق وما يكذبك، لكن

إذا ذهب بنو قصيٍّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوَّة فما لسائر قريش؟. وكان الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصى بن كلاب يُكْذِب النبيء ﷺ علانية ويقول لأهل بيته: ما محمَّد من أهل الكذب ولا أحسبه إلاَّ صادقًا، ففي ذلك كُلِّه ونحوه نزلت الآية.

أو لا يكذبونك في الحقيقة، بل كذَّبوا آيات الله، وذلك أنَّ الله صدَّقه بالإعجاز فكذَّبوا هذا التصديق فَهَذَه نصرة له ﷺ، إذ كان مكذِّبه مكذِّبًا لله عزَّ وجلَّ. وتضمَّن ذلك وعدًا بالنصر؛ أو لا يكذبونك بقلوبهم بل بألسنتهم؛ ويجوز أن يكون «فَإِنَّهُمْ لاَ يُكْذِبُونَكَ» علّة لـ«يُحزِنُكَ»، أي: لَيُحزِنُكَ الذي يقولون من التكذيب، لأنَّه ليس تكذيبًا لك خاصَّة، بل في تكذيبهم تكذيبٌ لله، كما روي أنَّه لا يحزن لنفسه ولا يغضب لنفسه، بل فيما كان لله جلَّ وعلا. ويجوز أن يكون الجحود: التكذيب، أي ما كذَّبوك ولكن كذَّبوا آيات الله، أي تكذيبك ليس منحصرًا فيك، بل فيه تكذيب الله في آياته، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ (سورة الفتح: ١٠)، ومقتضى الظاهر: «ولكنَّهم بآيات الله يجحدون» فوضع الظاهر موضع الضمير ليصفهم بالظلم، وليدلَّ على أنَّهم ظلموا بجحدهم، أو على أنَّهم جحدوا لتمرُّنهم على الظلم، وعلى ما مَرَّ من إبقاء الجحد على نفي الإنسان ما عَلِمه تكون الباء لتضمُّن الجحد معنى التكذيب.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ وعموم البلوى مِمَّا يهونها بعض تهوين ﴿فَصَبَرُواْ﴾ قبلك ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ هذا يدلُّ على أنَّ قوله: ﴿لاَ يُكْذِبُونَكَ﴾ ليس نفيًا للكذب مطلقًا، بل نفيًا له بالنظر

لبعضهم.

أو باعتبار أنَّ قائله كَذِبَ لا أنت، أو باعتبار أنَّ الله قال لهم: إنَّ ذلك تكذيب لي، وكأنَّه قيل: ولقد كذّبت رسل كثيرون عظام من قبل تكذيبك، أو رسلٌ كَذَلِكَ ثابتون قبلك، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يُّكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ (سورة فاطر: ٤)، فصبروا عَلَى تكذيبهم وإيذائهم حتَّى نصرناهم، فاصبر على تكذيب قومك وإيذائهم إيَّاك كما صبروا ننصرك كما نصرناهم، وذلك تسلية له ﷺ، ووعدٌ بالنصر وتفريعٌ بالنصر على الصبر، فإنَّ «حتَّى» تفريع على «صَبَرُوا» لا على «أُوذُوا»، ويجوز كونه تفريعًا عليهما وعلى «كُذِّبَتْ»، و«أوذوا» عطف على «كُذِّبُوا»، و«مَا» مَصْدَرِيَّة، وتنكير «رُسُلٌ» للتعظيم والتكثير. والمُراد بالإيذاء: الضرب والخنق والرمي بالحجارة، أو تأثُّر مضرَّة الكذب فيهم فإنَّه ليس عين التكذيب، ومقتضى الظاهر: «نَصْرُهُ»، وقال: ﴿نَصْرُنَا﴾ بإشعار التَّكَلُّم بالعظمة.

﴿وَلاَ مُبَدِّلَ﴾ لا أنا ولا غيري، على أن المتكلّم يدخل في عموم كلامه، وعلى عدم الدخول ينتفى عن الله تعالى أن يكون مبدلاً لكلامه لا وعده ولا وعيده، لأنَّ ذلك من شأن من يجهل العاقبة، ﴿لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ الأشياء التي قضاها الله وتكلَّم بها لخلقه، وكذلك ما يخبرهم به لا يتبدَّل، فالنصر الموعود به لاَ بُدَّ من وقوعه، إمَّا بالإهلاك بما شاء أو بالقتل، أو بالحجج بأن يكونوا أَوَّلاً على محسوسة بل معقولة ثمَّ تأتيهم محسوسة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا...﴾ (سورة الصافَّات: ١٧١)، إلاَّ أنَّه جمع هنا على الأصل من التعدُّد، وأفرد هنالك باعتبار الاتِّحاد في معنى واحد وهو القضاء، أو أراد بالكلمات:

التلويح إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا...﴾، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ...﴾ (سورة المجادلة: ٢١)، ونحو ذلك.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ﴾ أي خبر، وإنَّما يذكر فيما له شأن كما هنا، وقيل للخبر مطلقًا. ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ أي جاءك هو، أي هذا الخبر المذكور؛ أو جاءك النبأ ثابتًا من نبإ المرسلين؛ أو جاءك شيء ثابت من نبإ المرسلين، فناب عن الفاعل نعته، أو الفاعل «مِن»، بمعنى: بعضُ مضافةً إلى «نَبَإِ»، أي خبر المرسلين وما كابدوا أقوامهم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾ (سورة البقرة: ٢١٤، آل عمران: ١٤٢).

(سبب النزول) وروي أنَّه أتى بعض رؤساء قريش في نفر منهم، ويقال الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، فقالوا: يا محمَّد إيتنا بآية من عند الله كما تفعل الأنبياء، فإنَّا نصدِّقك، فأبى الله أن يأتيهم بها، فأعرضوا عن رسول الله ﷺ، فشقَّ ذلك عليه ﷺ، فنزل قوله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ يطلبونها تضطرُّهم إلى الإيمان فافعل ما استطعت من ذلك، وهذا أمر تعجيز.

وفي الآية تضمُّن لمدح النبيء ﷺ بمبالغته في حبِّ الخير لهم، والحرص على إسلامهم مع أنَّهم جفوه وآذوه، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ...﴾ (سورة الشعراء: ٣)، وبأنَّه يغضب إذا غضب لله عزَّ وجلَّ لا لنفسه، و«كَبُرَ»: شقَّ، وإنَّما كان بـ«إِنْ» الموضوعة لغير المتحقِّق مع أنَّ شقَّ ذلك عليه متحقِّق نظرًا إلى إخفائه في

قلبه، أو إلى ما يستقبل من الشقِّ عليه المحتمل بحسب الظاهر، ولو تحقَّق عند الله الأمر.

وَقِيلَ: إنَّ نفس الصعود والدخول في النفق هو الآية، وَيَرُدُّه أنَّ قولهم: «فَتَاتِيَهُم بِئَايَةٍ» ينافيه، وأنَّ الآية غيرهما، ولا يصحُّ ذلك إلاَّ على معنى: فتكون قد أتيتهم بآية، وهو تأويل يحتاج لدليل. واسم «كَانَ» ضمير الشأن، أو تنازع هو و«كَبُرَ» في «إِعْرَاضُ»، والمُراد: إعراضهمْ عن الإيمان بك وبما جئت به. وجملةُ «إنْ» وشرطها وجوابها المقدَّر جواب «إنْ» الأولى. و«تَبْتَغِي»: تطلب. والنفق: منفذ ينفذ فيه إلى جوف الأرض. وعن ابن عبَّاس: يهرب به، وأصله نافقاء اليربوع، إذ يحفر إلى أسفل ثمَّ يصعد من جانب إلى الأعلى ليتخلَّص منه إذا طلب. والسُّلَّم: المصعد، سُمِّيَ للسلامة به إلى ما يصعد إليه. و«فِي السَّمَآءِ» نعت لـ«سُلَّمًا». و«فِي الاَرْضِ» نعتُ «نَفَقًا»؛ أو يَتَعلَّقان بـ«نَفَقًا» و«سُلَّمًا» لتضمُّنهما معنى الحدث، لأنَّ المُراد: أَنْ تَنفُذَ إلى جوف الأرض فتأتيهم من جوفها بآية، وتصعد إلى السماء فتدخلها فتأتيهم منها بآية؛ أو يَتَعلَّقان بـ«تَبْتَغِي»؛ ويضعف جعلهما حالاً من ضمير «تَبْتَغِي»؛ ويضعف ما قيل: إنَّ ذلك قطع لمطمعه عن إيمانهم، وأن لا يتأذَّى بكفرهم، ولو ناسبه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ﴾ جَمْعَهُم على الهدى، ولو شاء الله هدايتهم، لأنَّها حاصل معنى جواب «لَوْ»، ﴿لَجَمَعَهُم عَلَى الْهُدَى﴾ بالتوفيق، لكن لم يشأ، فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ، فإنَّه لا يحدث شيء إلاَّ بإرادة الله عزَّ وجلَّ ومشيئته.

(أصول الدين) فهو سبحانه مريد لكفرهم خالقٌ له ولداعيته، وقدرة العبد صالحة للضدَّين غير كافية في تعيين أحدهما، ولو قدر على التعيين لتسلسل، وقد بطل قول المعتزلة: إن الله عزَّ وجلَّ لا يريد من العبد إلاَّ الإيمان والطَّاعة والمباح، فزعموا أنَّ معنى الآية: لو شاء الله أن يلجئهم إلى الإيمان يجمعهم عليه بأنْ يعلمهم أنَّه قد قضى أنَّهم لو حاولوا أن لا يؤمنوا لمنعهم من أن لا يؤمنوا فيؤمنوا فيكون إيمان اضطرار، وهو مناف للتكليف بالإيمان اختيارًا الذي يترتَّب عليه الجزاء، إذ لا جزاء في الإجبار، فلزم المعتزلةَ أن يكون الله مقهورًا، إذ وقع في ملكه ما لم يرده -حاشاه-. وزعموا أنَّه يجب على الله اللطف، وهو عبارة عمَّا يبعد عن المعصية، وأخطأوا، إذ لا واجب على الله، لأنَّ الوجوب عليه فرع قهره ولا قاهر عليه. وَقِيلَ: يجمعهم على الهدى معكم، ﴿**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ**﴾ بالحرص على ما لا يكون بعد علمك أنَّ الله قضى في قوم مخصوصين أن لا يؤمنوا، وذلك أنَّ حرصه قبل ذلك ليس جهالة وهو بعد العلم غير حارص، فالمَعنَى: دم على أن تكون من الجاهلين بالحرص على إيمانهم. والجهالة: الذنب ولو علم صاحبه أنَّه ذنب لجريانه على غير مقتضى العلم فكأنَّه لم يعلم. وَقِيلَ: المُراد بالجاهلين: المقترحون الآية، بمعنى لا تساعدهم على اقتراحهم. وقيل المعنى: لا تجزع في موطن الصبر فيقارب حالك حال الجاهلين. وزاد تأكيدًا لنفي إيمانهم بقوله:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

رفض المشركين دعوة النبيء ﷺ

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ سَمْعَ تأمُّلٍ، فينفعهم غير ذلك من السمع كالصمم، والمعنى: يجيبونك .

(وهذا مِمَّا اتَّفق فيه استفعل وأفعل، ولا يطَّرد ما قيل: إنَّ «استجاب» للقبول و«أجاب» للعموم، ومن ذلك «أوقد» و«استوقد» بمعنى واحد، قال:

وادع دعاء من يجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مُجيب

فقابل «يستجب» بـ«مجيب»، كذا يقال، وليس لازما لجواز بقاء «مجيب» على عمومه، أي لم يجبه أحد بما ينفع ولا بما لا ينفع، ولعلَّ هذا أرجح)[1].

﴿وَالمَوْتَى﴾ الكفَّار يستجيبون بعد البعث ولا ينفعهم لا هؤلاء، فـ«الْمَوْتَى» عطف على «الذِينَ» وهو شامل لهؤلاء، وقوله: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ مستأنف، أو حال مُقَدَّرَة من «الْمَوْتَى»، والمعروف أنَّ «الْمَوْتَى» مبتدأ خبره «يَبْعَثُهُمُ اللهُ»، ونصبه على الاشتغال أنسب، إذ فيه عطف فعليَّة على فعليَّة، فيشير إلى أنَّ هؤلاء كالموتى كما لا يستجيب الموتى قبل البعث كذلك هؤلاء لا يعثون من موت الجهالة إلاَّ يوم القيامة حيث لا ينفعهم، وإلى أنَّ الله قادر على إحياء قلب

---

[1] - ما بين قوسين زيادة انفردت بها نسخة (أ).

الكافر بالإيمان كما قدر على إحياء الموتى. والاستجابة أخصُّ، لأنَّ فيها القبول لما دُعِيَ إليه، والإجابة أَعَمُّ لأنَّه قد يجيب بالمخالفة أو بما لا يفيد. والمُراد هنا الأخصُّ على ظاهره.

ويجوز أن يكون المُراد بالموتى هؤلاء الأحياء تشبيهًا في عدم انتفاعهم بأبدانهم على الاستعارة، وهو مبتدأ، أي: هؤلاء يبعثهم الله في جهلهم وشركهم، ﴿ثمَّ إِلَيهِ يُرْجَعُونَ﴾ للجزاء فيسمعون.

﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ﴾ تحضيض، أو توبيخ على عدم إنزال آية، ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ مضطرَّة لهم إلى الإيمان فيؤمنوا وَلاَ بُدَّ كنتق الجبل؛ أو آية معقبة للهلاك، كناقة صالح ومائدة عيسى عليهما السلام؛ أو مطلق آية حسيَّة مثل ذلك ومثل العصا وفلق البحر وتظليل الغمام والمنِّ والسلوى وإحياء الموتى؛ أو آية غير ملجئة غير الآيات الكثيرة التي أنزلت عليه وكفروا بها عنادًا، طلبوا أخرى يقترحونها، وإذا طلبوا غير الملجئة وأجيبوا بالملجئة كان الكلام من الأسلوب الحكيم، أو أجيبوا بما يستلزم مطلوبهم على الطريق الأقوى، وقالوا: «مِن رَّبِّهِ»، و لم يقولوا: «من الله» تعريضًا بالربوبيَّة المشعرة بالمسارعة فيما يقوِّيه المُتَرَتِّب عليه من وراء ذلك أنَّه لو كان له من الله مكان لسارع في ذلك. ﴿قُلِ اِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَنْ يُّنَزِّلَ ءَايَةً﴾ كما أرادوه، وتنكير الآية في الموضعين للتنويع. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ليسوا مِمَّن يعلم لإهمالهم التدبير، فلم ينزِّل ما يقترحون كإفساح جبال مكَّة، وإحياء بعض القدماء كقصيٍّ، لعلمه أنَّهم لا يؤمنون، ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُومِنُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٩)، ومن لم يؤمن بالآية الموجودة التي تخرُّ لها صمُّ الجبال، وتنقاد

لها بكم التلال، لم يؤمن بغيرها، إذ لا فرق بين آية وأخرى، فهم لا يعلمون أيضًا أنَّ لهم فيما نزل كفاية، وأنَّه تعالى قادر على الإنـزال، وبأنَّـه لعلَّ إنزالها يوجب الإهلاك إذا لم يؤمنوا، فالنفي بـ«لَوْلاَ» المشعر بعدم الوقوع وبذكر القدرة المشعرة بالإنزال بالإمكان لا بالفعل عائد على الإنزال بالأوجه المذكورة على مطلق الإنزال فإنَّه واقع، فبطل قول الملحد أنَّ الآية دلَّت على أنَّ الإنزال غير واقع، وأنَّه ﷺ ادَّعى النبوَّة والرسالة بلا حجَّة؛ وكلام الملحد متناقض، لأنَّه إقرار بأنَّ هَذِهِ الآية في حقِّه، وأنَّها نصرة له على دعواه، فهو نبيء ورسول بهذه الآية، وأشار إلى كمال قدرته على الإنزال وعلى كُلِّ شيء، وشمول علمه وتدبيره بقوله:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٩﴾

كمال علم الله وتمام قدرته وعدم التفريط بشيء في القرآن

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الاَرْضِ﴾ أي: وما من دَابَّة تمشي في الأرض، كما ذكر ﴿يَطِيرُ﴾ في مقابلها؛ وسواء علَّقنا «فِي الاَرْضِ» بـ«تمشي» أو بـ«دَابَّة» أو بمحذوف نعت لـ«دَابَّة»، أي ثابتة في الأرض. وذكر الأرض زيادة في الاستغراق، أي في قطر مَّا من أقطار الأرض، وفي ظهرها وجوفها. وقال

السكَّاكيُّ: «ذَكَرَ "في الأرض" مع "دَابَّة" و"يطير بجناحيه" مع "طائر" لبيان أنَّ القصد بدابةٍ وطائرٍ الجنسان وتقريرهما». ﴿وَلاَ طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي في الهواء كما ذكر «فِي الاَرْضِ» في مقابله، أي في ناحية من نواحي الجوِّ، فلزيادة هذا الاستغراق ذكر «يَطِيرُ بجَنَاحَيْهِ»، وأيضًا ذكره لئلاَّ يتوهَّم أنَّ المُراد بالطيرانِ السرعةُ على التجوُّز. ﴿إِلاَّ أُمَمٌ﴾ خبر «دَابَّة»، ﴿اَمْثَالُكُم﴾ بمعنى أنَّ كلَّ نوع من أنواع الدوابِّ في الأرض، وكلَّ نوع من أنواع الطير هو أمَّة قدر الله على إيجاده وإبقائه ورزقه وحفظه وأجله، وكيف لا يقدر على إنزال آية؟.

وَمَعنَى المماثلة أنَّ سائر الحيوان مثلكم، فكما أقررتم على أنفسكم بجريان قضاء الله عليكم فكذا جرى على غيركم، وفي أنَّها تنسج كالعنكبوت، وتدَّخر كالنمل، وتعرف الله وتسبِّحه وتعبده، ويألف بعضها بعضًا، ويفهم بعض عن بعض، ويتعارف الذكر والأنثى، وَيَتَزَوَّجُ الطير في الربيع وتبعث للحساب.

وجمع الأمَّة لإرادة النوع كما رأيت، ولا يكفي أن تقول: جَمَعَ لأنَّ النكرة في سياق السلب تَعُمُّ، لأنَّ هذا بمجرَّده يفيد أنَّ كلَّ فردٍ أمَّةٌ، وليس كذلك. والمُراد بالأرض ما ليس بجوٍّ، فشملت الماء، فدخل حيوان الماء، فتنقُّله في الماء كتنقُّل الحيوان في الأرض، كما أنَّها شاملة للجبال والشجر، وذكر الطائر مع أنَّه يدبُّ في الأرض لزيادته بالطيران، ولأنَّ من الطير ما خلق في الهواء، ولا ينزل للأرض؛ وألحق بعضهم الحوت بالطير إذ يسبَح في الماء كالطائر في الهواء. وذكر «بِجَنَاحَيْهِ» تأكيدًا، وقيل لئلاَّ يتوهَّم أنَّ المُراد بالطيران مطلق السرعة، [قلت] وهو توهُّم بعيد، مع أنَّه لا يقطع التوهُّم رأسًا، لجواز أن يكون

ترشيحًا لطيران مستعار للسرعة، ولو عملنا بهذا التوهم انفتحت إليه كلُّ حقيقة فتدخل في المجاز. وَقِيلَ: ذكر «فِي الاَرْضِ» و«يَطِيرُ» للدلالة على أنَّ المُراد الاستغراق الكلّيُّ لا عموم دوام أرض مخصوصة وطير جوٍّ مخصوص عمومًا عرفيًّا. وخصَّ الأرض دون السماء لأنَّها المشاهدة، ثمَّ إنَّه لو لم يشمل عمومها بعضًا لجاز لأنَّ المُراد الدلالة على كمال القدرة ولو بذكر أحوال بعض الممكنات، ألا ترى أنَّه لم يذكر ما يدبُّ في السماوات.

﴿**مَا فَرَّطْنَا**﴾ ضيَّعنا أو تركنا ﴿**فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ ما ضيَّعنا شيئًا بترك كتابته في اللوح المحفوظ، وسمِّي محفوظًا لأنَّه حفظ عن الشيطان، ومن تغييره. ولا خفاء في العموم الحقيقي (إلاَّ أنَّه لا يشمل عموم أمور الآخرة لأَنَّهَا لا تنقضي)[1] بخلاف ما إذا فَسَّرنَا «الكتاب» بالقرآن، فالعموم فيه عرفيٌّ بحسب ما يحتاج إليه المُكَلَّف، إمَّا تفصيلاً وإمَّا إجمالاً يفصِّله على لسان رسول الله ﷺ، أو بالقياس، أو بحسب الإيماء، ألا ترى إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَآ أُوْلِي الاَبْصَارِ﴾ (سورة الحشر: ٢)، ونحو هذا فإنَّه أذن في القياس لأهله، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (سورة الحشر: ٥٩)، فإنَّه إشارة إلى الحديث، وفي الحديث: «**اعملوا بالخليفتين من بعدي، أبي بكر وعمر، وبسنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي**»[2].

وقد قال ابن مسعود: «لعنت الواشمة والمستوشمة والواصلة

١- ما بين قوسين زيادة انفردت بها نسخة (أ).

٢- رواه **الترمذي** في كِتَاب المناقب (١٦)، باب في مناقب أبي بكر وعمر رَضِيَ الله عَنهُما، رقم ٣٦٦٢، من حديث حذيفة. (الشطر الأوَّل منه).

والمستوصلة...»[1] في القرآن، فقالت امرأة: تلوته البارحة وليس فيه ذلك، فقال: «لعنهنَّ رسول الله ﷺ، ومصداقه ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾(سورة الحشر: ٧)». ولو شاء أجاب بقوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ (سورة النساء: ١١٩)، وقال الشافعيُّ في المسجد الحرام: لا تسألوني عن شيء إلاَّ أجبتكم بكتاب الله عزَّ وجلَّ، فقال رجل: أيحلُّ للمحرم قتل الزنبور؟ فقال: نعم، قال ﷺ: «**عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي**»[2]، وذكر إسنادًا إلى عمر أنَّه قال: «للمحرم قتل الزنبور»، فذلك إجابة بالقرآن على ثلاث درجات، ولو شاء لأجاب بالقرآن بلا واسطة على مذهبه في: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ...﴾ (سورة المائدة: ٩٦)، والزنبور ليس صيدًا فليس مِمَّا حرِّم، ولو شاء لأجاب بقوله ﷺ: «**اقتلوا كلَّ مؤذ في الحلِّ والحرم**»[3]، مع قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (سورة الحشر: ٧).

ففي القرآن كلُّ ما يحتاج إليه وزيادة، يَستخرجُ بعضَه مستخرِجُه بقوَّة فهمِه بإذن الله، ومنه: منعُ ضربِ القدمين بقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (سورة الأنفال: ١٢)، إذ كان إغراء بالأشدِّ في الهلاك. وعدَّى «فَرَّطَ» للمفعول لتضمُّنه معنى ضيَّع أو ترك أو أهمل. ويجوز أن يكون «شيء» مفعولا

١- رواه **الربيع** في مسنده، ج٤، ص٣٧١، رقم٩٧٥.

٢- رواه **أبو داود** في كِتَاب السنَّة، باب لزوم السنَّة رقم ٤٦٠٧. والترمذيُّ في كِتَاب العلم (١٦) باب ما جاء في الأخذ بالسُّنَّةِ واجتناب البدع، رقم ٢٦٧٦، مع زيادة في آخره. وَأَوَّله قال: «وعظنا رَسُول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة...» من حديث العرباض بن سارية.

٣- لم نقف عَلَى تخريجه بهذا اللفظ.

مطلقًا، أي مَا فرطنا تفريطًا، فالعموم في التفريط لا في كُلِّ الأشياء ولا في الأمر المكلَّف به.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يحشرُ الأمم إلى رَبِّهم للجزاء، حتَّى يأخذ للجماء من القرناء، ثمَّ يقول، لهم: كونوا ترابًا. وذكر الدوابَّ والطير بضمير العقلاء وهو «هم» والواو تغليبًا للعقلاء؛ وإن أريد بالدابَّة غير العقلاء فلإجرائها وإجراء الطير مجرى العقلاء في وجوه المماثلة المذكورة في قوله: ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾، ومِن المماثلةِ حشرُها وحسابُها كما رأيتَ. ولفظ مسلم: «**لتؤدُّون الحقوق إلى أهلها حتَّى يقاد للشاة الجماء من القرناء**»، وليس هذا جزاء تكليف خلافًا لمن زعم أنَّ للحيوانات رسلاً منها، ولعلَّ منشأ ذلك التوهُّم من قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ...﴾ (سورة النحل: ٦٨)، وذلك خطأ، ونسب للجاحظ وغيره، وأخطأ من قال ذلك ومثلَه من تكليف الحيوانات ونحوه، وإنَّما يلهمها الله ما يشاء من تمييز، كصنعة النحل والعنكبوت.

وأمَّا قوله ﷺ للأنصار إذ ازدحموا على زمام ناقته حين هاجر: «**دعوها فإنَّها مأمورة**»، فمعناه أنَّ زمامها في يد ملَك يجرُّها إلى موضع قضى الله تعالى بالنزول فيه وسكناه، ويسوقها ملك إليه، وإذا وصلته أناخها، أو إذا وصلته أبركها الله عزَّ وجلَّ بالتكوين. وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: حشْرُ الحيواناتِ موتُها، وحمل الآيات على عموم العدل، رَدَّه حديث: «حتَّى يقاد للجماء»، إلاَّ أن يقال بالترشيح.

﴿وَالذِينَ كَذَّبُواْ﴾ الجنس، أو المذكورون بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ

ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الآية: ٣٧). ﴿بِئَايَاتِنَا﴾ القرآن ﴿صُمٌّ﴾ خبر أوّل ﴿وَبُكْمٌ﴾ خبر ثان بتوسط حرف العطف، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر ثالث، عبارة عن العمى، كما قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ (سورة البقرة: ١٨، ١٧١)، أو حال من المستتر في «بُكْمٌ»، وكلهم صمٌّ بكم في الظلمات، وَقِيلَ: المُراد التقسيم إلى قسمين: صمٌّ وبكم، ويكفي في ذلك العطف؛ وقدَّر بعضهم: بعضٌ صمٌّ وبعضٌ بكمٌ، وجَعَلَ الجملةَ خبرًا، فيكون «فِي الظُّلُمَاتِ» خبرًا ثانيًا وكلُّهم في الظلمات.

والمُراد بالظلمات: أنواع الكفر، أو الجهل والعناد والتقليد، أو الضلال، أو غضب الله وعقابه. لا يسمعون سماع قبول أو تفكُّر، ولا ينطقون بالحقِّ فهم كأصمَّ أخرس زاد بالعمى، فإنَّ الأصمَّ الأخرس البصير يفهم عن غيره بالإشارة والكتابة، ويَفهم عنه غيرُه كذلك، وقيل: المُراد بالظلمات حقيقة ظلمات الآخرة.

(أصول الدين) ﴿مَنْ يَّشَإِ اللهُ﴾ إضلاله ﴿يُضْلِلْهُ﴾ بالخذلان فالله عزَّ وجلَّ مريد لكفر الكافرين، لا كما قالت المعتزلة أنَّه غير مريد له، والمعتزلة يحملون الآية ونحوها على مشيئة الإجبار والقهر، وهو خطأ ظاهر. ﴿وَمَنْ يَّشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بالتوفيق، ومشيئته لا تَتَخَلَّفُ، والهداية نفس الجعل على صراط مستقيم؛ وتنكيره تعظيم؛ وهو دين الإسلام. وَقِيلَ: الإضلال عن الطريق في الموقف إلى الجنَّة، والجعلُ على الصراط: الهدايةُ إلى الطريق فيه إلى الجنَّة، ولا يتبادر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

الأمر باللجوء إلى الله وحده في الشدائد

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أخبروني يا أهل مكّة عن حالتكم العجيبة. لمَّا كان العلم بالشيء سببًا للإخبار عنه، أو كان الإبصار به طريقًا إلى الإحاطة به علمًا والى صحَّة الإخبار عنه، استعملت الصيغة التي هي لطلب العلم، أو لطلب الإبصار في طلب الإخبار لاشتراكهما في الطلب، ففيه مجازان: استعمال «رأى» التي بمعنى عَلِم أو أبصر في الإخبار، واستعمال الهمزة التي هي لطلب الرؤية في طلب الإخبار لأنّها سبب للإخبار وملزوم له.

(صرف) قال الفرَّاء: تقول العرب: أرأيتَك، وتريد معنى أَخْبِرْني، كقولك: أرأيتَك إن فعلتُ كذا ماذا تفعل؟ أي أخبرني. وتُفرَد التاء وتُفْتَح ولو ثنَّيتَ ما بعدها أو جمعته أو خوطب مؤنث، تقول: أَرَأَيْتَكما وأَرَأَيْتَكم وأَرَأَيْتَكنَّ، لأنَّهم لم يريدوا أن يكون الفعل واقعًا من المخاطب على نفسه،

فاكتفوا من علامة المخاطب بذكرها في الكاف وما بعدها؛ والكاف حرف خطاب، والتاء والكاف وما بعدها لمسمًّى واحد مخاطب. وقال الفرَّاء: التاء حرف خطاب كتاء "أنت"، والكاف فاعل استعير للرفع، ودعاه لذلك لزوم إفراد التاء، لأنَّ العرب إذا ثنَّتها أو جمعتها لم يريدوا معنى أخبِرْني، بل يريدون معنى المفعوليَّة للكاف، تقول: أَرَأَيْتَك على غير هذا الحال؟ أي أرأيتَ نفسك، فتقول: أرأيتُمَاكما، وأرأيتُمُوكم وأرأيتكنَّ. وقال شيخه الكسائي: التاء فاعل، والكاف مفعول به. وقال البصريُّون: الكاف حرف خطاب، والتاء قبلها فاعل. ثمَّ إنَّه لا يلزم من كون أَرَأَيْتَ بمعنى أخبِرني أن يتعدَّى بـ«عَنْ» مثلَه. والمُراد مع التعجيب: أَخْبِرُوني إخبارًا يناسب حال الشدَّة.

﴿إِنَ اتَاكُمْ﴾ بغتة ﴿عَذَابُ ا للهِ﴾ في الدُّنيا سابقًا على العذاب المعدِّ لكم في الآخرة، كما أتى من قبلكم، ﴿أَوَ اَتَتْكُم﴾ أي بغتة، وإنَّما قدَّرتُ بغتة لأنَّ المقام للتخويف. ﴿السَّاعَةُ﴾ ساعة موت الحيوانات كُلِّها، والبعث والحشر وأهوال ذلك والحساب، ـ وجواب «إنْ» محذوف ــ فمن تدعون؟ أو دعوتم ا للهَ؟ أو فأخبروني عن حالكم؟.

وزعم " الرضيُّ " أنَّ الجملة المصدَّرة بهمزة الاستفهام يجوز أن تكون جوابًا، ولا تقترن بالفاء، وعليه فيجوز أن يكون «أَغَيْرَ ا للهِ تَدْعُونَ» جواب «إنْ»، وليس كذلك؛ وإن سلَّمنا مجيئها جوابًا قُرِنت بالفاء المؤخَّرة عنها. ومفعولاَ «رَأَيْتَ» محذوفان، أي: أرأيتكم آلهتكم تنفعكم، أو اتِّخَاذكم غير ا لله نافعًا أو كاشفًا عنكم الضرَّ، دَلَّ عليهما وعلى الهول قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ا للهِ تَدْعُونَ﴾، أو هذا سدَّ مسدَّها، وعلِّق بالاستفهام الداخل على «غَيْر».

و" نافع " يسهِّل همزة «رَأَيْتَ» بعد الراء إذا دخلت عليه الهمزة كما هنـا، ويبدلها ألفًا محضة إذا لم تدخل الهمزة، كقوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ كما قيل عن نافع، (وهو بخلاف ما في الأيدي من نسخ المغاربة)[1]. والاستفهام تبكيت وإلجاء إلى الإقرار بأنَّهم إنَّمَا يرجعون في دفع العذاب والهول إلى الله لا إلى آلهتهم، ولذلك:

– **قال أوَّلاً:** ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ في إنَّها تدفع السوء، أو في أنَّها آلهة. وجواب «إنْ» محذوف، أي فادعوه، أي فادعوا غير الله. أخبروني إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعةُ من تدعون؟. على أنَّ «أَغَيْرَ اللهِ» استئناف للتبكيت، أي: أتخصُّون آلهتكم بالدعوة كما هو عادتكم إذا أصابكم ضرٌّ، أم تدعون الله عزَّ وجلَّ دونها؟. وقدَّر بعض: فمن تدعون؟؛ وبعضٌ: دعوتم الله تعالى؛ وقدَّر بعضٌ: إن أتاكم عذاب الله تعالى فأخبروني عنه أتدعون غير الله تعالى لكشفه؟

– **وقال ثانيًا:** ﴿**بَلِ اِيَّاهُ تَدْعُونَ**﴾ في كشف الضُّرِّ في الدنيا، قدِّم للحصر، وأمَّا «غَيْر» فقدِّم للاهتمام بآلهتهم على زعمهم أنَّها عظيمة، وأنَّها نافعة. ﴿**فَيَكْشِفُ مَا**﴾ أي الضُّر الذي ﴿**تَدْعُونَ**﴾ أي تدعونه ﴿**إِلَيهِ**﴾ أي إلى كشفه ﴿**إِن شَآءَ**﴾ كشفه في الدنيا، وأمَّا في الآخرة فلا يكشف عنهم الضرَّ، وأمَّا كشف ضرِّ المحشر فإنَّما هو إلى أعظم منه وهو الخلود في النَّار.

﴿**وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ**﴾ أي تشركونه، أي تتركون في الدُّنيا آلهتكم أو تتركون دعاءها، أو تتركون إشراككم، وذلك لِمَا ركِّز في قلوبكم من أنَّ النافع

---

[1] – زيادة انفردت بها نسخة (أ).

الضارَّ هو الله عزَّ وجلَّ، حتّى إنّـهم إذا أرادوا ركوب السفينة قال لهم صاحبها: أخلصوا فيخلصون، أو يخلصون ولو لم يأمرهم صاحبها، وكـذا إذا هـاج البحـر يخلصون، وإذا سلموا إلى البرِّ رجعوا إلى كفرهم، كما ذكر الله سبحانه وتعالى؛ أو معنى «وَتنسَوْنَ»: تزول عن حافظتكم آلهتكم لشدَّة الهول، ومن ذلـك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ...﴾ (سورة الإسراء: ٦٧)، وقوله جلَّ جلاله: ﴿وَظَنُّـوا أَنَّـهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ...﴾ (سورة يونس: ٢٢).

قال جعفر الصادق لزنديق: هل ركبت البحر؟ قال: نعم. قال: هـل رأيت أهواله؟ قال: نعم، هاجت يومًا رياح هائلة، فكسرت السفينة وغرق الملاّحـون، وتعلّقتُ ببعض ألواحها، ثمَّ ذهب عنـّي اللـوح، فتلاطمـت بـي الأمـواج حتّى حصلت بالساحل، فقال جعفر: قد كان اعتمادك على السفينة والمـلاّح واللـوح وهل رجوت السلامة بعـد ذهـابهم؟ قـال: نعـم. قـال: مِمَّـن؟ فسـكت، فقـال جعفر: إن الله عزَّ وجلَّ هو الذي أنجاك، فأسلم الرجل. وزاده تسلية بقوله:

﴿وَلَقَدَ اَرْسَـلْنَآ﴾ رسـلاً ﴿إِلَىٰ أُمَـمٍ مِّن قَبْلِـكَ﴾ وكفـروا وكذَّبوهـم، فـلا تضجر من كفر قومك فإنَّ هذه عادة الأمم مع رسلهم. و«مِـن» للابتـداء، وقـال ابن مالك: زائدة، يعنى أنَّ هذا من المواضع التي وردت فيها زائدة في الإثبات ولـو مع معرفة. ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ لتكذيبهم ﴿بِالْبَأْسَآءِ﴾ الجدب والفقر والخوف والـذلّ. ﴿وَالضَّرَّآءِ﴾ المرض والضعف والموت، وبعده يتضرَّع الحيُّ إن أراد الله به خيرًا، وقيل المُراد بهما: خوف السلطان، وغلاء السعر؛ وَقِيلَ: البأساء القحط والجـوع، والضرَّاء: المرض ونقصان الأنفس والأموال. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي كي يتذلّلوا إلينـا، وعاملنـاهم بالبأسـاء والضـرَّاء كمعاملـة مـن يرجـى تضرُّعـه بالتـأديب، **لأنَّ**

المصايب سبب لِلَيْنِ القلوب، والتضرُّعِ إلى علاَّم الغيوب.

﴿**فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا**﴾ كلٌّ مِن «لَوْلَآ» التوبيخيَّة هذه و«إِذْ» عائد إلى قوله: ﴿**تَضَرَّعُواْ**﴾، وبَّخهم على ترك التذلُّل، وإظهار الضعف، والخشوع لله حين مجيء البأساء والضرَّاء، وحذف الضَّرَّاء لذكره قبل، أو هو لمعنى يعمُّ الضرَّاء، وهذا كتمنٍ بحسب حال البشر، كأنَّه قيل: ليتهم تضرَّعوا، كما أنَّ قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ترجٍّ بحسب عقول البشر، وذلك لقيام مقتضى التضرُّع، وهو البأس والضرَّاء. ﴿**وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ استدراك بين الضدَّين، أي ما لاَنتْ قلوبهم، بل غلظت، أي بقيت على الغلظة، أو زادت غلظة، كقولك: ما قام عمر ولكن قعد، وقوله: ﴿لَكِنْ﴾ إخبارٌ، وصحَّ عطفه على «لَوْلَآ» مع أنَّه إنشاء، لتضمُّنه معنى الإخبار، وهو انتفاء تضرُّعهم، والعطف بالواو لجملة لكن وما بعدها، ولا يجوز أن تكون «لَوْلَآ» للتحضيض لعدم الاستقبال، إذ قال: ﴿تَضَرَّعُواْ﴾، وقال: ﴿قَسَتْ﴾ بصيغة الماضي، وكذا في قوله:

﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ من الشرك وما دونه من المعاصي، أو زيَّن لهم عملهم، وهذا في حيِّز الاستدراك، أي تركوا التضرُّع لقسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم وإصرارهم عليها، ولم يخطر ببالهم أنَّ ما جاءهم من البأساء والضرَّاء إنَّما هو لأجلها.

(لغة) والتزيين إمَّا إيجاد الشيء حسنًا، كقوله: ﴿زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا﴾ (سورة الملك: ٥)، وكصنع الصائغ أو النجَّار أو الباني شيئًا، وإمَّا تحسينه من غير إيجاد، كتزيين الماشطة العروس، وَإِمَّا تحبيبه للنفس بخلق الميل إليه، أو بترويجه إليه كالإغواء والوسوسة كالآية، وكتزيينه تعالى للكافر كفره، كما قال:

﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٨)، وكتزيين غير الله شيئًا لغير الله، كقوله تعالى: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ...﴾ (سورة الأنعام: ١٣٧).

﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ تركوا ﴿مَا ذُكِّرُواْ﴾ وُعظوا ﴿بِهِ﴾ من البأساء والضرَّاء، ولم يتَّعظوا، وقيل: المُراد بالنسيان هنا لازم ترك ما وعظوا به، وهو الانهماك في المعاصي، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي لهم استدراجًا، وذلك بصورة النفع وَلَكِنَّ عاقبته الشرُّ، وهو حكمة لفظة «عَلَى»؛ ومن حكمتها: التكثيرُ كالشيء المتدلِّي عليهم المجلل لهم من فوقهم وجوانبهم كما قال: ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فإنَّ المعنى أنواع النِّعم كالرزق والصحَّة والجاه. أُخِذوا حال النعم الكثيرة والفرح ليكون أشدَّ عليهم لتحسُّرهم على ما فاتهم، وبيان أنَّ الأمر على غير ما اطمأنُّوا إليه، ﴿حَتَّى﴾ غاية لـ«فَتَحْنَا»، أو فعلوا ما فعلوا حتَّى ﴿إِذَا فَرِحُواْ﴾ فَرَحَ بَطَرٍ واطمأنُّوا ﴿بِمَآ أُوتُواْ﴾ من النعم، معجبين به، ومشتغلين به عن القيام بِحَقِّ الله المُنعِم، ﴿أَخَذْنَاهُم﴾ بالعذاب ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون من كلِّ خير في انكسار وحزن، فإنَّ الإبلاس: انقطاع الرجاء مع حزن وانكسار.

قال رسول الله ﷺ: «**مكر بالقوم وربِّ الكعبة**»، فسرَّ به بعضهم قوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ولم ير بعضهم أنَّ ذلك مرفوع، بل موقوف على صَحابيٍّ أو تابعيٍّ. قال عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ: «**إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحِبُّ، وهو مقيم على معصيته، فإنَّ ذلك منه استدراج**»، ثمَّ تلا، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾ الآيتين، رواه أحمد والطبراني

والبيهقي في شعب الإيمان[١]. قال الحسن البصري: «مكر بالقوم وربِّ الكعبة، أُعطوا حاجتهم ثمَّ أُخذوا»، وقال أيضًا: «من وُسِّع عليه فلم يرَ أنَّه يمكر به ـ أي فلم يَظُنَّ ـ فلا رأيَ له، ومن قتر عليه فلم ير أنَّه ينظر له ـ أي في الصلاح ـ فلا رأيَ له»، ثمَّ قرأ الآيةَ والحديثَ: «**مكر بالقوم...**»إلخ. وعن عمر رضي الله عنه: «من وسِّع عليه في دنياه، ولم يعلم أنَّه مكر به فهو مخدوع عن عقله»، أي وهو مقيم على المعاصي، أو أريد بـ«مَن» هذا المقيم.

﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ**﴾ أي فقطع دابرهم، فوضع الظاهر موضع المضمر ليذكر الظلم الموجب لقطع دابرهم، وهو آخرهم، أي استُؤصِلوا بالعذاب جميعًا، فذكر الدَّابر كناية عن التعميم، حتّى إنَّ العذاب وصل إلى آخرهم؛ ودابر كلِّ شيء: الجزء الأخير منه؛ ويطلق أيضًا على الأصل، كما فَسَّرَ به الأصمعيُّ الآيةَ ونحوَها.

﴿**وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ حمد الله نفسه على نصره الرُّسل وإهلاك أعدائهم، وهم أعداؤه، فإنَّ إهلاكهم نعمة عظيمة فيها تخليص أهل الأرض من زيغهم، والاقتداء بهم، وما يترتَّب عليه من مضرَّة الدُّنيا والآخرة؛ وفيها إظهار حجَّة الرُّسل؛ وفي ذلك تعليم لسيدنا محمَّد ﷺ والمسلمين أن يحمدوا الله على إهلاك أعدائهم إذا أهلكهم، [قلت] **والإخلال بالشرع يوجب الهرج والمرج.** والربُّ بمعنى المنعم؛ وإن أريد معنى المالك، فالمَعنَى: **الحمد لله الملك القهَّار الذي له الكبرياء والعظمة وَالتَّصَرُّف في ملكه كيف شاء.**

١- رواه **الطبراني** في الكبير، ج١٧، ص ٣٣٠، رقم ٩١٣. ورواه **أحمد** في مسنده، ج٤، ص١٥٧. من حديث عقبة بن عامر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

من أدلَّة القدرة الإلهيَّة والوحدانيَّة

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد ﴿أَرَآيْتُم﴾ أيُّها المشركون ﴿إِنَ اخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ﴾ أصمَّكم ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ غطَّى عليها حتَّى لا تفهم، أي أرأيتم سمعكم وأبصاركم وعقلكم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم، أي إن أخذها؛ ولكن لمَّا حذف مرجع الضمير من أوَّل الكلام أظهر، والمفعول الثاني معلَّق عنه بالاستفهام هو مجموع قوله ﴿مَن اِلَـٰهٌ﴾ من الآلهة المـُتَعَدِّدَة على زعمكم، ﴿غَيْرُ اللهِ يَاتِيكُم بِهِ﴾ أي بما ذُكر من السمع والبصر والعقل، أو بما ذكر من مأخوذ، أو مختوم عليه، أو بواحد منهنَّ لا على التعيين.

كأنَّه قيل: إن أزال منافع أشرف أعضائكم: القوَّة السامعة وَالقُوَّة الباصرة والحياة والفهم فمن يردُّها غير الله؟ فهو وحده المستحقُّ للعبادة، وذلك كما يعود اسم الإشارة المفرد إلى الجماعة بتأويل ما ذكر؛ وأولى من هذا أنَّ الهاء

عائد إلى واحد بأن يفرد الخطاب لِكُلِّ إنسان على حدة، كأنـَّه قيل: من يأتي كلَّ واحد منكم بسمعه؟ ومن يأتيه ببصره؟. ويجوز أن يتنازع «أَرَآيـْتُمْ» و«أَخَذَ» في «سمعكم وأبصاركم».

وقرن «رأى» هنالك بالكاف لا هنا، لأنَّ التهديد هنالك أعظم؛ وَقِيلَ: للاكتفاء بما قبله وما بعده؛ وَقِيلَ: صاروا بسلب تلك المشاعر كمن لا يحسُّ فهم كمن لا يخاطب. وجملة «يَاتِيكُمْ» نعتُ «إِلَهٌ» كـ«غَيْرُ»، كما أنَّه كرَّر «قُلْ» على طريق الاهتمام بشأن المقول، ولم يعطف لبيان أنَّه مستقلٌّ بحياله. وقدِّم السمع ـ قيل ـ لأنَّه أجلُّ من نعمة البصر، وقُدِّما على ختم القلوب لأنـَّهُما ظاهران، وَلأَنـَّهُما آلتان لفهم القلوب طريقان إليها، فأخذُهُما سدٌّ لبابهما.

(فقه) فمن ولد أعمى أصمَّ، وبلغ سنَّ التكليف لم يكلَّف عندنا، وقال بعض الحنفيَّة: قد يكلَّف، وإنَّ الإدراك لا يتوقَّف عليهما.

وقدَّم القلوب في بعض المواضع لأنَّ القلب ملك الأعضاء، تصلح وتفسد به، والمُراد بالقلب: نفس القلب، لأنـَّه أنسب بالختم لا فهمه. وعَبَّرَ بالأخذ لا بالإصمام والإعماء، لأنَّ ما أخذه الله لامرسل له من بعده. وقيل: الختم تفسير للأخذ.

﴿**انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ**﴾ في هذه السورة، أو مطلقًا ﴿**الآيَاتِ**﴾ نكرِّرها على أنحاء مختلفة، كلٌّ تقوِّي الأخرى، كتصريف الرياح شمالاً وصبا، فتذكر من جهة المقدِّمة العَقلِيَّة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ...﴾ (سورة الأنعام: ٣٨؛ سورة هود: ٦)، ومن جهة الترغيب والترهيب كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَّشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ...﴾ (سورة الأنعام: ٣٩)، و﴿قُلَ اَرَآيـْتَكُمُ, إِنَ اَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ...﴾، والترهيب

مقدَّم، ومن جهة التنبيه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ (سورة الأنعام: ٤٢)، وفيه الترغيب والترهيب أيضًا، ومن جهة التذكير بأحوال المتقدِّمين كقوله تعالى:

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون أو يميلون عطفًا على «نُصَرِّفُ»، وهو العمدة في التعجيب المستفاد بقوله: ﴿انظُرْ﴾ من عَرَض الكلام. و«ثُمَّ» لاستبعاد الإعراض عن الآيات بعد تصريفها في الدلالة على التوحيد والنبوَّة تشبيهًا بتراخي الزمان.

﴿قُلَ اَرَآيْتَكُمُ, إِنَ اتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ الخاصُّ بكم، كما أتى الأمم ﴿بَغْتَةً﴾ ليلاً أو نهارًا بلا تقدُّم أمارة ﴿اَوْ جَهْرَةً﴾ ليلاً أو نهارًا بتقدُّم أمارة. سمَّى ظهوره جهرة تشبيهًا بظهور الصوت على الاستعارة التصريحيَّة لا المكنيَّة؛ أو إطلاق المقيَّد على المطلق مجازًا إرساليًّا. وتفسير ابن عبَّاس ﴿بَغْتَةً﴾ بليلٍ و﴿جَهْرَةً﴾ بنهارٍ تمثيلٌ بما هو أنسب، لا تفسير تعيين، لأنَّ من شأن الليل أنَّ ما يجيء فيه لا يدرى به، فهو بغتة، وأمَّا بالنهار يدرى به. ولا يخفى أنَّ وجه المقابلة عدم تقدُّم الأمارة وتقدُّمها، وإلاَّ فمقابل الجهرةِ: الخفاءُ. وَقِيلَ: «بَغْتَةً» استعارة للخفية بقرينة مقابلتها بالجهرة، وأنَّها مكنيَّة لا تخييليَّة، وهو بعيد مع دعوى الاستعارة المكنيَّة مُجَرَّدة عن التخييليَّة.

﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ هلاك سخط وتعذيب، وإلاَّ فكلُّ أحد يُمَاتُ، وأيضًا هلاكُ المؤمنين لوجودِهم في محلِّ العذابِ مثوبةٌ ودرجاتٌ لهم، والعذاب إذا نزل عمَّ، ولم يميِّز بين الظالم وغيره. ﴿إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم وغيرهم بكفرهم، لأنَّه يعدوهم لأمرهم به، ولاقتداء غيرهم بهم، ولشؤمه على الأبدان والأموال

بنحو القحط، أي هل يهلك سواكم بالذّات، فوضع الظاهر موضع المضمر ذكرًا للعلّة؛ وقيل: المُراد العموم، وَيَرُدُّه الخصوص في «يأْتِيكُمْ»، ويجاب بأنَّ المُراد لا يهلك إلاّ الظالمون وأنتم منهم.

﴿وَمَا نُرسِلُ المُرْسَلِينَ﴾ إلى الأمم ﴿إلاَّ مُبَشِّرِينَ﴾ المؤمنين بالجنّة والعواقب المحمودة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ الكافرين بالنار وعواقب السوء، فَمَعنَى علّة الإرسالِ: التبشيرُ والإنذارُ لا اقتراحُ الآيات، فإنَّ اقتراحها ليس مِمَّا يتعلّق بالرسالة أصلاً. والحصر إضافيٌّ، لأنَّ الرُّسل أيضًا يُصلُّون ويصومون ويعبدون عبادات كثيرة غير التبشير والإنذار، ويفعلون مباحات، أي أرسلناهم للتبشير والإنذار لا للاقتراح والقدرة على إظهار الآيات، فإنَّ مؤونته يكفيها ظهور المعجزات كالشمس. والحال في الآية تتضمَّن معنى التعليل كما رأيت، وهذا مُتّصِل بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الآية: ٣٧) الذي هو اقتراح، وما بينهما من تَتِمَّتِه، وفرَّع على الإرسال بقوله:

﴿فَمَنَ- امَنَ﴾ من الأمم، وقيل: المُراد هنا وما بعدُ أمَّتُه ﷺ والقرآن، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ إلى قوله: ﴿يَفْسُقُونَ﴾، كأنَّه قيل: فكان الناس بعد الإرسال مؤمنًا مصلحًا لا خوف عليه ولا حزن، وكافرًا مكذِّبًا يَمُسُّه العذاب، ومقتضى الظاهر أن يقول: ومن لم يؤمن ولم يصلح، أو من كذَّب وأفسد تلويحًا بأنَّ تكذيب الرُّسل تكذيب بالآيات، وأنَّ تكذيبها إفساد، كما قال في مقابله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾، وكما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِئَايَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٣٣)، والمُراد فمن آمن بالله والرسل وأصلح عمله ببنائه على أساس الشرع.

﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب يحقّقونه في الآخرة، بل يخافون ا لله إجلالاً، ويخافون خوفًا مقابلاً للرجاء، إذ لا يدرون بِمَ يُختم لهم ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة بفوت الثواب إذ لا يفوتهم، ويحزنون في الدُّنيا لذنوبهم.

﴿وَالذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا﴾ مقابل لقوله: ﴿فَمَنَ ـ امَنَ﴾، ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ أصل المسِّ: تحوُّل البدنِ أو بعضِه إلى شيء بالقصد ليباشره، فتسمية المصادم للشيء بلا قصد للمباشرة مسًّا مجازٌ، ولا قصد للعذاب، فقد شبَّه العذاب بحيوان مؤذ كالأسد والثعبان الشديد، بدليل أنَّه أثبت للعذاب ما هو من لوازم الحيوان المضرِّ القاصد للمباشرة الضارَّة، ففي ذلك مبالغة بأنَّ العذاب طالب لهم، وفي ذلك استعارة مكنيَّة؛ أو في «يَمَسُّ» استعارة تَبَعِيَّة من غير استعارة في العذاب. و«ال» في العذاب للكمال، أو للاستغراق في كلِّ عذاب، أو للجنس، أو للعهد في العذاب الذي أنذروا به، إذ عَهِد أنَّ جزاء التكذيب عذاب شديد فظيع.

﴿بِمَا كَانُواْ﴾ أي بسبب كونهم، أو بالفسق الذي كانوا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ يخرجون عن التصديق والطَّاعة، فهم معذَّبون على الشرك وما دونه من المعاصي، لأنَّ المشرك مخاطب بفروع الشريعة وبأصلها، لهذه الآية ونحوها.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ

يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْأٓيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

مصدر علم النبيء ﷺ بالوحي ونهيه عن طرد الضعفاء وبعض أحوال رحمة الله تعالى

﴿**قُل**﴾ لهم تبرئة لنفسك من القدرة على ما يقترحونه من الآيات ﴿**لَآ أَقُولُ لَكُم عِندِي خَزَآئِنُ ا للهِ**﴾ جمع خزينة، بمعنى مخزونة، "فعيلة" بمعنى "مفعولة"، وهي ما ينتفع به من مالٍ وصِحَّةِ بدن ودين، وغير ذلك من الأجسام والأعراض؛ أو جمع خزانة، بمعنى الموضع الذي يحرز فيه الشيء ويحافظ عليه به، فيقدَّر مضاف، أي: خزائن رزق ا لله. أو أطلق اسم المحلِّ على الحالّ، أو اللازم على الملزوم. أو الخزائن قضاء الأشياء التي قضاها ا لله، استعار لقضائها لفظ خزائن لجامع الحفظ وعدم الوصول والفخامة، فإنَّ قضاءه مانع من التغيُّر مطلقًا، كما تمنع مواضع الخزن تغيُّر ما فيها، والوصول إليه. أو الخزائن بمعنى المقدورات إطلاقًا لاسم المحلِّ على الحال مجاز مرسل مبنيٌّ على مجاز آخر، إذ خزينة بمعنى الشيء المخزون، وجعل المُقَدَّر مخزونا مجازٌ، وذلك ردٌّ على

قولهم: إن كنت رسولاً فادع الله أن يوسِّع رزقنا ومنافعنا.

﴿وَلآ أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾ عطف على «لآَ أَقُولُ»، فهو من مقول «قُلْ»، كأنـه قيل: وقل لا أعلم الغيب. و«لاَ» نافية. ولو عَطَفَ على «عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ» لكانت «لا» زائدةً، فيكون من جملة ما نُفِي بـ«لاَ»: «أَقُولُ»، ووجه الزيادة: النصُّ على الكُلِّيَّة، ولو لم تزد لاحتملت الآية بحسب اللفظ أنَّ المعنى: لا أقول لكم الكلامين جميعًا بل بعضهما، واحتملت أنَّ المعنى: لا أقول لكم هذا ولا أقول هذا. وقد يرجَّح العطف على «عِندِي خزَآئِنُ اللهِ» مع زيادة «لاَ» هنا، لأنَّ المقصود نفي دعوى أنَّه مَلكَ الخزائن، ودعوى أنَّه عَلِمَ الغيب، بخلاف ما في سورة هود (الآية: ٣١).

والغيب: ما لا يدركه الحسُّ، ولا تقتضيه بديهة العقل، ولم ينصب عليه دَلِيل. وهذا ردٌّ على قولهم: إن كنت رسولاً فأخبرنا بما سيقع من خيرٍ أو شرٍّ فنستعدَّ.

﴿وَلآ أَقُولُ لَكُمُ, إِنِّي مَلَكٌ﴾ لم يَدَّعِ أنَّه ملَك، ولا نسبوا إليه أنَّه ملَك، فالمَعنَى: لا أقول لكم أنَا كمَلَك في القدرة على ما يقدِر عليه المَلَك، كالصعود إلى السماء والنزول منها بكتاب، والكتاب إنَّمَا هو أيضًا بإذن الله عزَّ وجلَّ لا باختيار المَلَك، وفي علم ما لا يعلم البشر[1].

(أصول الدين) ولا يدلُّ هذا على أنَّ المَلَك أفضل من النبيِّ ﷺ، ولا من غيره، لأنَّ الفضل بالثواب، والفضل هنا بقوَّة المَلَك على الطيران ونحوه، مِمَّا ليس معتبرًا بالثواب، كعدم الأكل والشرب وكثرة العبادة، فإنَّ ثوابهم عليها لا

١- الجملة معطوفة عَلَى قوله: «كالصعود إِلَى السماء».

يساوي ثواب المؤمن، فضلاً عن النبيء، وكانوا يقولون ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الاَسْوَاقِ﴾ (سورة الفرقان: ٧)، وَيَتَزَوَّجُ، ويخالط الناس، فردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، وأنَّه ما يدَّعي إلاَّ النبوَّة الممكنة للبشر التي هي غاية كمالاَتِهم بقوله:

﴿اِنَ اَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ لا أقول من جهة نفسي شيئًا، وهذا قيد في قوله: ﴿لَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي لا أعلم الغيب، وهو ما لم يوح إليَّ، واستدلَّ بهذا من قال: النبيءُ ﷺ لا يقول باجتهاده، مع قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُّوحَىٰ﴾ (سورة النجم: ٤)، ويجاب برجوع «هُوَ» إلى القرآن.

قيل: الوحي إمَّا ظاهر بلسان المَلَك كالقرآن، أو بإشارة الملك كحديث: **«إنَّ روح القدس نفث في روعي أنَّ نفسًا لن تموت حتَّى تستكمل رزقها»**؛ أو بإلهام، بحيث يعلم أنَّه من الله؛ وإمَّا باطن، بالتأمل في الأحكام المنصوص عليها، وهذا وحي باعتبار المآل، لأنَّ عدم إنكار الله عليه بعد ذلك تقرير له، فهو كالوحي ابتداء، وزيد وحي الرؤيا.

وأعاد ﴿لَآ أَقُولُ﴾ لأنَّ نفي كونه ملكًا أو نفي اتِّباع غير ما يوحى ليس من جنس ثبوت الخزائن وعلم الغيب، كما أنَّ مجموع ذلك ليس من جنس نفي استواء الأعمى بالبصير، فأعاد لذلك لفظ «قُلْ» في قوله:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الاَعْمَىٰ﴾ الجاهل والضالُّ، والكافر ومدَّعي الأُلُوهِيَّة والمَلَكيَّة ونحوهما من المستحيلات، وهم المعاندون، وذلك مُتَّصِل بقوله: ﴿إِنَ اتَّبِعُ﴾. **﴿وَالْبَصِيرُ﴾** العالم والمؤمن والمهتدي ومدَّعي المستقيم كالنبوءة، وهم النبيء ﷺ ومتَّبعوه، والبصير بذلك كالماشي، والمتناول ببصر وجهه ما يصلح

ويجانب الضرَّ، بخلاف القسم الأوَّل فإنَّه كفقد البصر يمشي ويتناول، لا يطلع على ما يَضُرُّ فضلاً عن أن يجانبه، وَقَدَّمَه لأنَّه الذي يقع حتَّى يخرج عنه بالتعلُّم والتفكُّر، وهم لا يتفكَّرون كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ أتهملون عقولكم فلا تتفكَّرون؟! أو ألا تسمعون فلا تتفكَّرون؟! أو أتسمعون هذا الحقَّ فلا تتفكَّرون، فتميِّزوا الحقَّ وتتَّبعوا الوحي وتؤمنوا به؟!.

﴿**وَأَنذِرْ**﴾ خوِّف ﴿**بِهِ**﴾ بالقرآن لعلمه من المقام، ومن قوله ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أو بما يوحى إليك، أو بالله. ﴿**الذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُّحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ**﴾ هم المؤمنون الموفون يزدادون بالإنذار به خيرًا، والذين آمنوا وقصَّروا في العمل أو التقوى، والمشركون المقرُّون بالحشر، والمتردِّدون فيه. والإنذار حقيقة في التخويف الأوَّل وفي المكرَّر، ولا يختصُّ بِالأَوَّلِ، والمتردِّد لا يخلو من خوف به، وأعرض عن المشركين والمتَّكلين على شفاعة الأصنام الجازمين بانتفاء الحشر بعد إنذارك إيَّاهم، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ (سورة الذاريات: ٥٤)، ﴿وَمَا تُغْنِي الاَيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ (سورة يونس: ١٠١).

وإذا أُمِر بإنذار هؤلاء الأقسام فأولى أنَّه مأمور بإنذار خالي الأذهان، **فالإنسان إمَّا في خير فلا بدَّ من مصاحبته، أو مستعدٌّ للخير فلا بدَّ من إعانته، أو خالي الذهن فلا بدَّ من إرشاده، أو معاند فلا بدَّ من مفارقته والإعراض عنه.** وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ المُراد بـ«الذِينَ»: المؤمنون. وقال بعضٌ: المؤمنون المفرِّطون، ويبحث بِأَنَّهُ ليس للمفرِّطين وليٌّ ولا شفيعٌ سواه تعالى، يخافون الحشر بدون نصرته، وإنَّما الذين

يخافونه[١] الحشر بدون نصرته عزَّ وجلَّ.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾ الجملة حال من واو «يُحْشَرُوا». ولا يختصُّ هذا بتفسير ﴿الذِينَ يَخَافُونَ﴾ بالمشركين الذين لم يجزموا بإنكار البعث، فكما أنَّ المشركين لا يجدون شفيعًا ولا وليًّا لأنَّه لا وليَّ ولا شفيع إلاَّ الله على الحقيقة، وهو لا يليهم يوم الحشر بخير، ولا يشفع لهم، كذلك المؤمنون لا وليَّ ولا شفيع لهم إلاَّ الله، يليهم بخير ويشفع لهم. وأمَّا شفاعة الأنبياء والملائكة والشهداء والعلماء ونحوهم فبإذن الله فهو الشفيع.

ولا يعطِّل الحالية كون المشركين لا يجزمون بأن لا وليَّ ولا شفيع إلاَّ الله، إذ لا يلزم معرفة صاحب الحال بها، تقول: جاء زيد أحمر الوجه، وهو لا يدري بحمرته، وهذا العموم أولى من أن يقال المُراد: يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعًا لهم.

﴿لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ راجين الاتقاء، أو كي يتَّقوا، وهو متعلِّق بـ«أَنذِرْ» على الوجهين. والتقوى: ترك المخالفة في الأمر والنهي، والمُراد بالاتِّقاء: تحصيل التقوى بزيادتها أو بإيجادها، فتشمل الموفِّي والمفرِّط والمشرك.

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ يعبدونه، أو يطلبونه، كحديث: «**الدعاء مخُّ العبادة**»؛ وَقِيلَ: الدعاء الصلاة، وَقِيلَ: الذِكر، وَقِيلَ: قراءة القرآن. ﴿بالغَدَاةِ﴾ في الغداة ﴿وَالعَشِيِّ﴾ عبَّر بهما عن جميع الأوقات بحسب طاقتهم، وخصَّ اللفظ بالوقتين لشرفهما، ولأنَّهما طرفان لكن في النهار، فما قيل عن ابن عبَّاس من صلاة الفجر وصلاة العصر تمثيلٌ، فقد قيل عنه: الصلوات الخمس،

١- كذا في النسخ، وَلَعَلَّ الصواب: وَإِنَّمَا الذين يخافونه يخافون الحشر... إلخ.

وأصل الغداة: الغَدْوَة ـ بفتح الدال والواو ـ قلبت ألفًا لتحرُّكها بعد فتح.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حال من واو «يَدْعُونَ»، وجملة «يَدْعُونَ» علَّة للنهي عن الطرد، لأنَّ الموصول كالمشتقِّ، فهو مؤذن بعِلِّيَّته، وجملة «يُرِيدُونَ» تأكيد لهذه العلِّيَّة، لأنَّ الإخلاص المعنيَّ بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ من أقوى موجبات الإكرام المضادِّ للطرد، ووجه الله: الله، وَمَعنَى إرادته: إخلاص العمل له تعالى؛ أو وجهه: جهته، أي الجهة التي يريد أن تسلك، وهي السبيل الذي أمرهم به؛ أو كناية عن المحبَّة والرضى، فإنَّ من أحبَّك أحبَّ أن يَرى ذاتك؛ أو ذِكرُ الوجه تعظيمٌ.

(سبب النزول) روي أنَّه جاء الأقرع بن حابس وعيينة وعبَّاس بن مرداس ـ قيل ـ ومعهم بعض قريش، فوجدوا النبيء ﷺ جالسًا مع ناس من ضعفاء المؤمنين، كعمَّار بن ياسر وصهيب وبلال وخباب وسلمان، فلمَّا رأوهم حوله حقروهم، وقالوا: يا رسول الله: لو جلست في صدر المجلس وأبعدت عنك هؤلاء ورائحة جببهم ـ وكانوا في جبب من صوف لها رائحة كريهة لمداومة لبسها لعدم غيرها ـ لجلسنا إليك وأخذنا عنك، كرهوهم لذلك، وكرهوا بعضًا لذلك ولكونه مولى كسلمان وبلال وبكر الغنوي أنَّهم كلَّهم موالٍ، فقال النبيء ﷺ: ما أنا بطارد المؤمنين، قالوا: فإنَّا نحبُّ أن تجعل لنا مجلسًا تعرف به العرب فضلنا، فإنَّ وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنَّا، وإذا فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالو: فاكتب لنا عليك بذلك كتابًا فأتى بالصحيفة، ودعا عليًّا ليكتب.

فنزل جبريل بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم...﴾ إلخ، فألقى رسول

الله ﷺ الصحيفة. قال عمَّار: ثمَّ دعانا وهو يقول: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكنَّا نقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ...﴾ (سورة الكهف: ٢٨)، فكان يقعد معنا ولا يقوم حتَّى نقوم، وندنو منه حتَّى كادت ركبنا تمسُّ ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتَّى يقوم لئلاَّ نثقل عليه. وروي أنَّه نهاه الله أن يطردهم ترضية لقريش، وفيه أنَّ القصَّة في المدينة ولا رأى لهم فيها إلاَّ من أخلص الإيمان منهم، وفيه أنَّ الأقرع وعيينة والعبَّاس إنَّما دُعُوا إلى الإسلام وكانوا مؤلَّفة فيها لا في مكَّة، وكذا سلمان أسلم في المدينة.

وروي أنَّه لـمَّا قالوا: أقِم عنك هؤلاء الأعبد إذا جئنا، قال عمر رضي الله عنه: «لو فعلت حتَّى ننظر إلى ماذا يصير أمرهم»، فدعا بالصحيفة وعليٌّ ليكتب فنزل ذلك.

وروي أنَّ عتبة وشيبة ابني ربيعة، وقُرَضَة بن عمرو بن نوفل، ومطعم بن عدي في أشراف الكفَّار من ابن عبد مناف، أتوا أبا طالب وقالوا: لو طرد ابن أخيك هؤلاء الأعبد والحلفاء كان أعظم له في صدورنا، وأَطوَع له عندنا، وأدنى لاتِّبَاعِنا إيَّاه وتصديقه. فذكر ذلك أبو طالب للنبيء ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه: لو فعلت يا رسول الله حتَّى تنظر ما يكون منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ...﴾ إلى ﴿...بِالشَّاكِرِينَ﴾، وأنزل في أيمَّة الكفر: ﴿وَكَذَالِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ واعتذر عمر من قوله، فنزل: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ الذِينَ يُومِنُونَ بِئَايَاتِنَا...﴾. والحلفاء: ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقِد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو ومرتد بن أبي مرتد ونحوهم. وزادوا في الطعن على ذلك بأن قالوا:

لا إيمان في قلوبهم بل أظهروا الإيمان لتطعمهم وتكسوهم، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ حساب هؤلاء المؤمنين.

«مَا» في القرآن أبدًا حجازيَّة، ولو لم تعمل عمل «ليس» لتقدُّم الخبر مثلاً كما هنا.

﴿وَمَا مِّنْ حِسَابِكَ عَلَيهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اِكْتَفِ بظاهر حالهم من الإيمان وحسابُ باطنهم على الله لا تحاسب بهم، ولا يحاسبون بك، بل كلٌّ وعمله واعتقاده، ولعلَّ إيمانهم ونفعهم في الإسلام خير من إيمان هؤلاء ونفعهم لو آمنوا ونفعوا؛ وما عليك من حساب رزقهم شيء ولا عليهم من حساب رزقك شيء، وما على الأمَّة إلاَّ الطَّاعة وما عليك إلاَّ التبليغ، ورزق كلِّ أحد على الله، وذلك كما قال قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذِينَ هُمُ, أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (سورة هود: ٢٧).

ويجوز عود الهاءين الأوَّلَين لنحو الأقرع وعيينة، والأخير لنحو عمَّار وصهيب، أي لا تؤاخَذ بكفرهم ولا تعاقَب، ولا يؤاخَذون بشأنك، ﴿لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (سورة الأنعام: ١٦٤)، ولا تثاب ثوابها فضلاً عن أن تطرد المؤمنين طمعًا في إيمانهم. وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: لا تؤاخَذ بحسابهم حتَّى يهمَّك إيمانهم، ويدعوك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين.

(نحو) وعلى كلِّ حال يكون «وَمَا مِنْ حِسَابِكَ» زيادة فائدة، ومقابلة لما قبله، وكأنَّهما جملة واحدة، «فَتَطْرُدَ» منصوب في جواب نفيهما معًا، وأمَّا «تَكُونَ» فمنصوب في جواب «لاَ تَطْرُد»، أي: لا تطرد الذين

يدعون ربَّهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه فتكونَ من الظالمين. و«مِنْ» الداخلة على «شَيْءٍ» في الموضعين صلة للتأكيد، و«شيء» فاعل لـ«عَلَيْكَ» ولـ«عَلَيْهِم» لاعتمادهما على النفي، و«مِنْ حِسَابِكَ» حال من «شيء»، وكذا «مِنْ حِسَابِهِم».

(نحو) ويجوز جعل «شيء» مبتدأ، و«من حساب» حال منه على قول سيبويه بجواز الحال منه، وهذا أرجح في قوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ﴾ ليسلم من القِلّة في تقديم الحال على عاملها المعنويِّ، وهو «عليهم» النائب عن ثبت أو عن ثابت الرافع لمكتفًى به عن خبر المبتدأ، أو خبر «مَا»، وقُدِّم «عليك» و«حسابك» لأنَّهُما خطاب له ﷺ، ولذلك قرب من ردِّ العجز على[1] الصدر، نحو: «عادات السادات سادات العادات»، وذلك تعظيم له ﷺ، وإلاَّ فمقتضى الظاهر: وما عليهم من حسابك من شيءٍ. وَقِيلَ: قدَّم «عليك» في الأولى قصدًا إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به ﷺ، إذ هو الداعي إلى تصدِّيه ﷺ لحسابهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي فتنّا مثل الأقرع بمثل عَمَّار، والمُراد ما تقدَّم لا مسألة أخرى، كأنَّه قيل: فتنّا بعضًا ببعض على الوصف المذكور في الآية ضمنًا، وإنَّما أعاده ليرتِّب عليه قوله: ﴿لِيَقُولُواْ﴾ تعليل أو عاقبة لـ«فتَنّا»، سواء أبقي على ظاهره وهو: ابتلينا، أو أوَّلناه بـ«خذلنا»، كما قيل: إنَّه لا يَصِحُّ تعليلاً إلاَّ على تضمين «خذلنا». وواوُ «يَقُولُوا» لنحو الأقرع، أي ليقول

١- كذا في النسخ، ولَعَلَّ الصواب: وذا قريب من رَدِّ...إلخ.

الأكابر الأغنياء. والتشبيه غير مراد على الحقيقة، وإلاَّ لزم تشبيه الشيء بنفسه؛ وممَّا يتخرَّج به عمَّا هو ظاهر اللفظ من تشبيه الشيء بنفسه أن يجعل المشبَّه به الأمر المقرَّر في العقول، والمشبَّه ما دلَّ عليه الكلام من الأمر الخارجيِّ.

أو أن يقال: مثل ذلك الفَتْن العظيم فَتَنَّا بعض الناس ببعض غير من ذُكر في القصَّة من المؤمنين والكافرين، وذلك في أمر الدِّين، وأن يقال: مثل ما فتنَّا الكفَّار بحسب غِناهم وفقر المؤمنين حتَّى أهانوهم، فتنَّاهم بحسب سبق المؤمنين إلى الإيمان، وتخلُّفهم عنه حتَّى حسدوهم. ويجوز كون اللام بمعنى الباء، ليكون مصدر «يقول» مع اللام بدل اشتمال من قوله: ﴿بِبَعْضٍ﴾.

﴿أَهَٰؤُلَآءِ﴾ منصوب المحلِّ على الاشتغال، أي أَأَختارَ الله هؤلاء؟ أو فضَّل هؤلاء؛ أو مبتدأٌ خبرُه ما بعد، والنصب أولى، لأنَّ طلب الهمزة للفعل أولى من عدم الإضمار، والمشار إليه: المؤمنون الموالي الفقراءُ الضعفاء. ﴿مَنَّ اللهُ عَلَيهِم مِنۢ بَيْنِنَا﴾ بالإيمان والتوفيق لما يسعدهم دنيًا وأخرى، وامتازوا بالخير عنَّا، ما الذي يدعو إليه محمَّد خيرًا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ (سورة الأحقاف: ١١)، ﴿أَ.لْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ (سورة القمر: ٢٥)، ونحن الأشراف وهم سفلة؛ أو اعترفوا بفضل المؤمنين الفقراء عليهم بالسبق إلى الإيمان لكن خافوا أن يدخلوا في الإسلام فينقادوا لهم ويكونوا تبعًا لهم، وكأنَّه قيل: أَنَنْقادُ إلى ما نكون به تحتهم لِسَبقِهم إليه؟!.

ويجوز أن يكون الفَتْنُ من الجهة المذكورة والجهة الأخرى جميعًا، وهي أن يقول المؤمنون الفقراء: كيف أعطى الله هؤلاء القوم راحة ومسرَّة ومالاً وطيب

العيش مع أنَّهم غير منقادين للإسلام؟ ونحن منقادون له وقد بقينا في ضيق المعيشة؟!؛ والاستفهام إنكار للياقة ما ذكر بعده، وا لله يفعل في ملكه ما يشاء لا اعتراض عليه، والقوم بطروا واعترضوا، وهؤلاء المؤمنون صبروا وقت البلاء وشكروا وقت النعماء.

كما قال ا لله في حقهم ردًا على القوم، ومبيِّنا لسبب تقديمهم وتفضيلهم ﴿أَلَيْسَ ا للهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن شكر وَاسْتَمَرَّ على الشكر فيثيبه عليه، وبمن كفر وَاسْتَمَرَّ فيعاقبه؛ أو بمن يشكر لقضائه فيوَفِّقه للشكر، وبمن قضى عليه بالكفر فيخذِله.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ [حالة كونك] واقفاً أو ماشياً أو قاعداً أو راكباً أو مضطجعاً ﴿الذِينَ يُومِنُونَ بِئَايَاتِنَا﴾ نازلة أو معجزة. هم الذين يدْعُون ربَّهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه، الممنونون عليهم بالهدى، الشاكرون؛ ومقتضى الظاهر: «وإذا جاءوك»، لكن وضع الظاهر ليصفهم بالعلم، فإنَّ الإيمان بالآيات عِلْمٌ، فيكون قد وصفهم بالعمل الصالح بالغداة والعشيِّ، فهم جامعون لفضلَيِ العلم والعمل الموجبين للتقريب والعزِّ وترك الطرد، والتبشير بالسلام من ا لله، وبدْئه ﷺ به كما قال:

﴿فَقُلْ﴾ قبلهم تطييبًا لخاطرهم، وهذا أمر إيجاب عليه، وَقِيلَ: ندب. ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم﴾ من ا لله على لساني ومِنِّي، وقال عكرمة: منه ﷺ، وَقِيلَ: من ا لله تعالى، وَقِيلَ: ليس بتحيَّة، بل إخبار بأنَّ لهم السلامة، وابن عبَّاس: على أنَّه تَحِيَّة من ا لله عزَّ وجلَّ، ولهم التبشير بالرحمة في الآخرة كما قال:

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾ قضى، أو كتب في اللوح المحفوظ؛ وَقِيلَ: هذا من كلامه ﷺ غير داخل فيما حكي بالقول؛ وَقِيلَ: هذا مستأنف في قومٍ قالوا: أصبنا ذنوبًا عظامًا، فنزل فيهم؛ وَقِيلَ: لم تنزل في قوم مخصوصين بل عَامَّة، وفيه أنَّ المثبت مقدَّم على النافي، ومن أين لقائله الجزم بالنفي مع أنَّ النزول في مخصوصين لا ينافي العموم.

﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ, مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ﴾ يا أيُّها المذكورون بالعبادة والعلم، أو يا أيُّها الناس مطلقًا، الداخل فيهم هؤلاء أوَّلاً وبالذات. ﴿سُوءًا﴾ ذنبًا ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ ثابتًا مع جهالة، حالٌ مؤكِّدة، فإنَّ الذنب أبدًا جهالة أي سفه. قال الحسن: «**كلُّ من عمل معصية من عالم أو جاهل فهو جاهل**»، أي سفيه، أو المُراد: عدم العلم بحرمة عمله، إلاَّ أنَّ العالم بالحرمة كذلك يغفر له إذا تاب؛ ولكن خصَّ الجهالة تلويحًا إلى أنَّه يبعد عن المؤمن أن يعصي مع علمه بالحرمة، وأنَّه لا يعمل ذنبًا إلاَّ وهو غير عالم بأنَّه ذنب، كما أنَّ عمر ﷺ قال: «يارسول الله، أَقِمْ هؤلاء المؤمنين الضعفاء عنك إذا جاء هؤلاء المدَّعون للشرف فتنظر ما يصير إليه أمرهم»، قاله و لم يعلم بأنَّ ذلك سفه، وبكى واعتذر، وقال: «ما أردت إلاَّ خيرًا».

وأمَّا أن يقال: الجهالة شامل لفعل السوء مع العلم بأنَّه ذنب لَشُبَّه العالم حينئذ بالجاهل، إذ فعل ما يهلكه، ويُفَوِّته الخير الدائم، واختار اللذَّة العاجلة القليلة المتكدِّرة على الدائمة الكثيرة التي لا تتكدَّر، ففيه الجمع بين الحقيقة والمجاز، فإمَّا أن يجوِّز وإمَّا أن يُحمل على عموم المجاز وهو أولى لأنَّه أوسع، وإمَّا أن تُحمل الجهالة على عدم العلم فقط، أو على عدم العلم بما يفوته من

الثواب وما يستحقه من العقاب، ففيه تقصير عن بعض ما تشمله الآية.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بعد عمل السوء من عمله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله بالتوبة من ذلك السوء بالتدارك، والعزم على عدم العود ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ أي ا لله بفتح الهمزة كما نصَّ عليه أبو عمرو الداني[1]، ونصَّت المشارقة أنَّ أبا عمرو الداني هو أعلم الناس بقراءة نافع، وشُهِر الكسر عن نافع. ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والمصدر من «غَفُورٌ رَّحِيمٌ» بواسطة «أَنَّ» بدل من «الرَّحْمَةَ» بدل مطابق، كأنَّه قيل: «كتبَ على نفسه الغفران والرحمة لمن عمل سوءًا وتاب وأصلح».

وإن قلت: أجمع الناس على أنَّ الأنعام نزل دفعة، فكيف يقال: سبب نزول كذا وسبب نزول كذا هو كذا من آياتها؟ بل هي على العموم، فكلٌّ من فعل كذا فله كذا؟ [قلت] نزلت على طبق ما سيقع، فكانت مصداقًا له.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ في التوحيد ودلائل النبوءة والبعث، إقامةً للحجَّة على المنكرين والمتردِّدين والمؤمنين تأكيدًا لهم فيما علموا أو تعليمًا لهم فيما لم يعلموا. ومثلُ ذلك التفصيل السابق للآيات الماضية نفصِّل سائر الآيات الباقيات؛ أو على كَيفِيَّة التفصيل المعهود نفصِّل مطلق الآيات الماضية والآتية، مثل أن تفعل شيئًا ثمَّ تذكر أنَّك فعلته على الوصف المشاهد، وأنَّ شأني كذلك في أفعالي؛ أو المُراد ما مضى كذلك.

١- أبو عمرو الداني: الإمام الحافظ المقرئ الحافظ عالم الأندلس: أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عمر الأموي مولاهم القرطبي ثُمَّ الداني، ويعرف قديما بابن الصيرفي، صاحب "التيسير" و"جامع البيان" وغيرهما. ولد سنة ٣٧١، وتوفي بدانية سنة ٤٤٤. **سير أعلام النبلاء**، ج٢، ص٣٥٥.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ هذا مـن الاسـتفعال للتعديـة، كـ"خَـرَجَ" لازمًـا، وإذا قيـل: "استخرج" تعدَّى، وذلك أنَّ «بَانَ» لازمٌ تعدَّى إذا كانَ بهذه الصيغة؛ والمعنـى: لتستوضح يا محمَّد، أو تُميِّز، أو تظهر، وهو متعلِّق بمحذوف، أي: وفصَّلنا ذلك التفصيل لِتستَبينَ؛ أو معطوفًا على محذوف، أي: نفصِّل أو فصَّلنا الآيـات ليظهـر الحقُّ ولِتستبين، ﴿سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وسبيل المحقِّين؛ أو لتسـتبين سـبيل المجرمـين من سبيل المحقِّين. واقتصر اللفظ على سبيل المجرمين لأنَّ ذكر أحد المتقابلين يـدلُّ على الآخر، ولاسيما في باب التَّمايُز، وكان المذكـور سـبيل المجرمـين لأنَّ المقـام للنهي عنها والتخلِّي، وهو قبـل التحلِّي، ولكثرة المجرمـين ولظنِّهـم أنـَّهم علـى الحقِّ، فكان بيانه أَهَمَّ، أي لتسـتبين يـا محمَّـد سبيل المجرمـين فتجتنـب، وتعـامل أهلها بما يليق بهم، وأهل الحقِّ بما يليق بهم.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

حسم الجدل بين النبيء ﷺ وبين المشركين

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمَّد قطعًا لأطماعهم في أن تتَّبعهم في المسـح على آلهتهـم، إذ قالوا أمسح عليها نؤمن بإلهك. ﴿إِنِّي نُهِيـتُ﴾ بالآيـات النقليـَّة والعقليـَّة في شأن التوحيد، كقوله تعالى: ﴿قلْ إِنِّي نُهِيتُ...﴾ إلى قولـه: ﴿...لَمـَّا جَـآءَنِيَ

الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ (سورة غافر: ٦٦). ﴿أَنَ اَعْبُدَ﴾ أي عن أن أعبد ﴿الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اِ۬للَّهِ﴾ أي تعبدون، أو تسمُّونهم آلهة، واختار «الذِينَ» لاعتقادهم في الأصنام أنَّهم عقلاء، أو قريبون من العقلاء.

﴿قُل﴾ لهم أيضًا قطعًا لأطماعهم في أن تتابعهم، وتلاينهم في المسح على آلهتهم: ﴿لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُم﴾ في عبادتهم أو مماسَّتها، إنَّمَا أنتم على محض الهوى والجهالة لا على الهدى فكيف أتَّبعكم وأترك الحجَّة العقليَّة والنقليَّة؟!. وَقِيلَ: لا أتَّبع أهواءكم في طرد المؤمنين. وكرَّر «قُلْ» مع قرب، ذكره اعتناءً بالمأمور، وفرقًا بأنَّ الأوَّل لِمَا هو من جهة ا لله تعالى وهو النهي، والثاني لِمَا هو من جهته ﷺ، وهو الانتهاء عمَّا يطالبون من المداهنة. وجَمَعَ الأهواء مع أنَّ هواهم كلّهم عبادة غير ا لله لتعدُّدها في الحقيقة، لأنَّ كلَّ واحد يجعل لنفسه صنمًا يعبده ولا يعبد غيره من الأصنام، أو تتَّفق جماعة على صنم، وأخرى على آخر، وهذا أولى مِمَّا قيل: إنَّه جمع ولو كان واحدًا في نفسه لكن مُتَعَدِّدٌ بالإضافة إليهم.

(نحو) ﴿قَد ضَّلَلْتُ إِذًا﴾ هي «إِذًا» التي هي حرف جواب وجزاء، لم يذكر المضارع بعدها؛ أو الظرفيَّة الماضويَّة المعوِّض تنوينُها عن الجملة بلا إضافة نحو «حِينَ» إليها، أو الاستقباليَّة معوِّضًا عن شرطها التنوينُ، والأوَّل والثالث أنسب بفتح الذال، وهكذا في غير هذا الموضع.

أي تحقّق ضلالي في مقابلة اتِّبَاعي أهواءكم لو اتَّبَعتُها، أو حين اتَّبَعتها لو اتَّبَعتها، أو إذا اتَّبَعتها لو كنت أتَّبِعُها ﴿وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ تعريض للمشركين بأنَّهم على غير هدى، تأكيدٌ للفعليَّة بعطف الاسميَّة عليها الدالَّة

على التحقُّق والثبوت، أي لست من أعداد المهتدين في شيء ما، فضلاً عن أن أقول إن اهتديتُ، أو أنا مهتد قولاً دالاً على الهدى التامِّ مع أنِّي مُتَّبع لأهوائكم لو اتَّبعتها، وكيف أتَّبعها وأترك الحجج النقليَّة والعقليَّة؟!.

(أصول الدّين) وتوحيده ﷺ بالحجَّة والتقليد، ويكفي غيره التقليدُ الجازم على الصحيح عندنا معشر الإباضيَّة الوهبيَّة، وهو الذي حكاه القشيريُّ عن الأشعريِّ، قائلاً: إنَّ ما حكي عن الأشعريِّ من أنَّ توحيد المقلّد غير صحيح افتراءٌ عليه.

وزاد تأكيد المتقدِّم بقوله: ﴿قُلِ اِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّي﴾ بيان واضح مميِّز بين الحقِّ والباطل، فأنا على يقين، أو البيِّنة: القرآن، أو الوحي والحجج العقليَّة فلا أخالف ذلك، ويقبح عليكم خلافه، واستقبح مخالفته بقوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ سواء جعلناه حالاً من ضمير «عَلَى بَيِّنَةٍ» أو «مِن رَّبِّي»، أو من «بَيِّنَةٍ» الموصوف بقوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾ بتقدير: «قَدْ» أو دونه. و«مِنْ» للابتداء، أو للبيان، أي: على بيِّنة من معرفة ربِّي؛ أم جعلناه عطفًا على مدخول «قُلْ» لِصِحَّةِ: «قُلْ كذَّبتم به وما يحقُّ لكم التكذيب به»؛ لا على خبر «إِنَّ» لعدم صحَّة: «إنِّي كذَّبتم به». [قلت] ولا تثبت عندي واو الاستئناف.

وهاء «بِهِ» لـ«رَبِّي»؛ أو للقرآن المعلوم من المقام؛ أو من «بَيِّنَةٍ»، لأنَّها القرآن أو البيان أو البرهان؛ أو التاء للمبالغة والأصل: «على أمر بيِّن»، كما تقول: فلان راوية فلان، وَمَعنَى تكذيبهم لله تكذيبُهم وَحيَه ومطلق إشراكٍ مَّا تكذيب له سبحانه.

وكان ﷺ يخوِّفهم على الإشراك بالعذاب، فكانوا يستعجلون به استهزاء،

كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ...﴾ (سورة الأنفال: ٣٢)، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب، وَقِيلَ: من الآيات المقترحة، وقضاء الأمر على قيام الساعة، وليس كذلك، كما أنَّه لا يحسن التفسير بأنَّه لو كان ذلك في حُكْمي لأهلكتكم عاجلاً غضبًا لرَبِّي عزَّ وجلَّ.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ﴾ في تأخير العذاب الذي تستعجلونه فإنَّه تأخير لقضاء الله بتأخيره، وذلك أنَّ كلامهم على التأخير أو: إن الحكم إلاَّ لله في تأخيره واستعجاله، والمُراد أوَّلاً بالذات: الكلام على تأخيره، أو إنِ الحكمُ في كلِّ شيءٍ إلاَّ لله عزَّ وجلَّ. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي يذكره ولا يترك منه شيئًا مِمَّا كذَّبتم به، ذكرًا كقصِّ الأثر وهو تتبُّعه، كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (سورة يوسف: ٣) وَقِيلَ: «يَقُصُّ» بمعنى: يقضي، كما قرأ به الكسائي؛ وَقِيلَ: بمعنى القول، كما جاء الفصل بمعنى القول كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ (سورة هود: ١)، ﴿وَنُفَصِّلُ الاَيَاتِ﴾ (سورة التوبة: ١١)، والآية تدلُّ على أنَّه لا يقدر العبد على شيءٍ إلاَّ إذا قضى الله تعالى به، كفرًا أو طاعة أو غيرهما.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ الحاكمين ﴿قُل لَّوَ اَنَّ عِندِي﴾ أي في حُكمي، أي لو فُوِّض إليَّ من جهة ربِّي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ الاَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُم﴾ بتعجيل العذاب الذي تستعجلونه غضبًا لرَبِّي لا انتقامًا لنفسي، فإنَّ كلَّ ما عندي أفعله لله لظهور حقّه، وفي تعجيل العذاب استراحة غير مقصودة بالذَّات له ﷺ. والاستعجال مطالبة بالشيء قبل وقته، فلذلك كانت العجلة مذمومة. والإسراع: العملُ به في وقته. ولكن لم يكن عندي

علم ذلك، والأمر إلى ا لله كما قال:

﴿وَا للهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ بمن يُؤخذ منهم، وبوقت الأَخذِ، فلا قدرة لي على استعجال الأخذ. والإمهالُ رحمةٌ فقد يؤمن بعضٌ، أو يَلِدُ مؤمنًا. وَقِيلَ: بحالهم، وَقِيلَ: بوقت عقوبة الظالمين.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

كمال علم الله تعالى وسلطته على العباد

(لغة) ﴿وَعِندَهُ, مَفَاتِحُ الغَيْبِ﴾ جمع مِفتَح ـ بكسر الميم وفتح التاء ـ أو مفتاح بالألف حذفت في الجمع كما في مصابح ومَحارِب بلا ياء، عكس زيادتها في صياريف جمع صيرف بلا ألف، اسم آلةِ فتحِ الباب، استعير للأمر الذي يتوَصَّلُ به المخلوق من الأسباب إلى الغيب الذي يطلبه، أي إلى مطلوبه الغائب؛ أو ذي الغيب فيحصل له، وتلك الأسباب خلقها ا لله عزَّ وجلَّ، فيوفق إليها المخلوق، وتسمى طرقًا.

ولا يقال يتَوَصَّلُ ا لله إلى المغيبات المحيط علمه بها إلاَّ على معنى أنَّه خالقها، أو على معنى أنَّ عنده أسبابًا لإحضار المغيبات، أو أسبابًا يعلم بها المخلوق ما غاب كالوحي بأنواعه، والإلهام، والرؤيا مِمَّن اعتاد صدقها.

(بلاغة) وشبَّه الغيب بالخزائن المستوثق منها بالأقفال، ورَمزَ إلى ذلك بذكر آلات الفتح، وإثباتها تخييل أو استعارة تمثيليَّة. أو جمع مَفتَح بفتح الميم والتاء مصدرًا ميميًّا بدون ألف، وهو قليل، بمعنى أنَّه يفتح الغيب على من يشاء من عباده، أو جمع مَفتَح بفتح الميم والتاء اسم مكان ميميًّا، أي مواضع الفتح، كما فسَّره ابن عبَّاس بخزائن المطر، والمفتح المخزن أو الكنز، أي خزائن الغيب، أضيفت للغيب لغيوبتها، أو يراد بها القدرة الكاملة. وَقِيلَ: استعير العلم للمفاتح، والقرينة الإضافة للغيب.

ومن مفاتح الغيب: هذه السورة، نزلت بِمَكَّةَ جملة معها سبعون ألف ملك تكاد الأرض ترتجُّ بصوت تسبيحهم وتحميدهم، فقال النبيء ﷺ: «**سبحان ربِّي العظيم**»، وخرَّ ساجدًا. قال ﷺ: «**من قرأ سورة الأنعام صلَّت عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره**»[1]، وأمر بكتابتها. قال ابن عبَّاس: إلاَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا ا لله حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآيات الثلاث (٩١-٩٣)، وإلاَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوَا اَتْلُ مَا حَرَّمَ...﴾ الآيات الثلاث (١٥١-١٥٣) ففي المدينة. وَقِيلَ: نزلت مَرَّتَيْنِ.

﴿**لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ**﴾ يعلمها نفسها وأوقاتها وحكمتها، قال عبد ا لله بن

١- أورده **ابن كثير** في تفسيره، ج٢، ص١٢٢، من طريق ابن مردويه من حديث أنس بن مالك بدون ذكر الفقرة الأخيرة.

عمر عن رسول الله ﷺ: «**خمس لا يعلمها إلاّ الله تعالى: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلاّ الله تعالى، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلاّ الله، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدًا، ولاتدري نفس بأيِّ أرض تموت إلاّ الله، ولا يعلم متى الساعة إلاّ الله**»[1]. وَقِيلَ: ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾: خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب؛ وَقِيلَ: الثواب والعقاب؛ وَقِيلَ: انقضاء الآجال والسعادة والشقاوة وخواتم الأعمال؛ وَقِيلَ: الأقدار والأرزاق. وعن ابن عبَّاس: مفاتح الغيب خمس، وتلا: ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ, عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ (سورة لقمان: ٣٤).

(نحو) والجملة حال من المستتر في «عِندَ»، وناصبها «عِندَ» لنيابتها عن «اسْتَقَرَّت» المنتقل منه المضمر إلى «عِندَ»؛ أو ناصبه: اسْتَقَرَّ؛ أو حال من «مَفَاتِحُ» على قول سيبويه بجواز الحال من المبتدإ، والجملة خبر ثان، أو مستأنفة. وذلك إخبار بتعلُّق علمه وحده بما غاب عن خلقه.

وأخبر بتعلُّق علمه بما يشاهدونه في الجملة بقوله: ﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ من الأجسام. وفي «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ» أجسامٌ وأعراضُها. البرُّ: الأرض مطلقًا. والبحرُ: الماء المغرِق، البحر المحيط، وسائر البحار المالحة؛ وَقِيلَ: البحر: الماء المغرق ولو حُلوًا. وقيل: البرُّ: الصحراءُ، والبحر: خلافه؛ وقيل البرُّ: القفار، والبحر: كلُّ قرية فيها ماء، ولا يتبادر. [قلت] **والصحيح ما ذكرتُ أوَّلاً.**

وذَكَر خصوص الأعراض والأحوال بقوله: ﴿**وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَّرَقَةٍ اِلاَّ**

١- رواه **أحمد** في مسنده ج٥، ص ٣٥٣ . ورواه **الهندي** في الكنز، ج٢ ، ص٩، رقم ٢٩٢١. **والهيثمي** في المجمع، ج٧، ص ٨٩ من حديث بريدة.

يَعْلَمُهَا...﴾، فإنَّ السقوط والرطوبة واليبس وتوفِّيهم بالليل وكسبهم بالنهار مثلاً من الأعراض، وهي أحوال. وخصَّ سقوط الورقة دون سائر الأحوال لمناسبته لأحوال التوفِّي الآتية، ولأنَّ التغيُّر في الورقة أظهر، ولأنَّ العلم بالسقوط، والسقوط مِمَّا يغفل عنه يستلزم العلم بما يعتنى به، أي وما تتغيَّر ورقة من حال إلى حال إلاَّ يعلمها، وجميع الأرض إمَّا أرض خاصَّة أو أرض عليها ماء مُغرق، وفي كليتهما عجائب الصنع تدلُّ على كمال قدرته وسعة علمه مثلاً. أو البرُّ: المفازة التي لا ماء فيها ولا نبات، والبحر: القرى والأمصار. والجمهور على الأوَّل.

وفي علمه بسقوط الورقة ونحوه وبما في البرِّ والبحر المقرونين بـ«ال» الاستغراقيَّة، أي جميع البرِّ والبحار مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيَّات، وتلويح بعلم العرش والكرسيِّ وغير ذلك، والأرضين كُلِّهنَّ، وقد يدخلن في لفظ البرِّ، وبعلم أجزاء الأرضين والبحار. وجملة «يَعْلَمُ» حال من «ورقة» ولو نكرة لتقدُّم النفي واستغراقها بـ«مِنْ» نصًّا.

﴿وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الاَرْضِ﴾ نعت «حَبَّةٍ»، وظُلمَة الأرضِ: داخلها الذي هو خلاف ظاهرها؛ وَقِيلَ: ما تحت الصخرة تحت الأرضين؛ وَقِيلَ: ما هو في ظلمة من ظلمات الأرض مثل داخل البيت الذي لا ضوء فيه، وما تحت حجرٍ أو ساترٍ غيرِه، وحالها ليلاً؛ وَقِيلَ: بطن المرأة أو غيرها من الجنين. ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ﴾ في ظلمات الأرض، أو مطلقًا معطوفات على «وَرَقَةٍ»، أي: وما تسقط من حبَّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس.

﴿اِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يتعلَّق بمحذوفٍ، حالٌ من الثلاثة، كأنَّه قيل: ولا

تسقط حبَّة في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاَّ يعلمهنَّ، فإنَّ ما في اللوح المحفوظ المعبَّر عنه بالكتاب المبين معلوم لله جلَّ وعلا.

(نحو) وكذا إن فسَّرنا الكتاب المبين بعلمه تعالى، وذلك أولى من دعوى أنَّ قوله: ﴿إلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ بدلٌ مطابق من قوله: ﴿إلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ إن فسِّر بالعلم، وبدل اشتمال إن فسِّر باللوح، إذ لا يتصوَّر إبدال الظرف من الجملة الفعليَّة، ولا بدل اشتمال بلا رابط. ويجوز كون «حبَّةٍ» مبتدأً مجرورًا بـ«مِن» زائدة محذوفة لدلالة ما قبلُ، و«فِي كِتَابٍ» خبرُه، فلا ينسحب عليهنَّ السقوط، وقد ضعَّف بعضٌ انسحابَه عليهنَّ حين أُعرِبن بالعطف على «وَرَقَةٍ».

والحبَّة: الجزء الدقيق من تراب أو غيره، والحبَّة الثابتة قبل النبت. والرَّطْبُ: ما يُنبِت، والحيُّ، وما فيه بلل. واليابس: ما لا يُنبِت، وَالمَيِّتُ، وما لا بلل فيه؛ وهما عبارتان عن كلِّ مخلوق من الأجسام، فإنَّ الأجسام كلَّها إمَّا رطبة وإمَّا يابسة. وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «الرطب: ما ينبت، واليابس: ما لا ينبت»، وعنه: «الرطب: الماء، واليابس: التراب». وَقِيلَ: الرطب الحيُّ، واليابس الميِّت.

وكلُّ ما ذكر بعدُ تفصيلٌ لقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾. وكيف لا يعلم ذلك وهو خالقه ومريد له؟. ودخل في علمه اختلاف محالِّ الحبَّات المنتقلة بالريح، أو بما شاء الله، وملاصقتها بجوانبها واختلاف التلاصق وألوانها، وكم بقيت مع أخرى من لحظة وأقلَّ.

﴿**وَهُوَ الذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ**﴾ ينيمكم في الليل، شبَّه الإنامة بالإماتة فاستعار لها ما وضع للإماتة وهو التوفِّي، واشتقَّ منه يتوفَّى، والجامع عدم

الإحساس، ففي الجسد روح الحياة تخرج بالموت، وروح التمييز تخرج بالنوم، وترى المنامات، أو روح واحدة تتعلّق بالظاهر والباطن حال اليقظة، وبالباطن حال النوم، إذ هي فيه، أو هي في ظاهر النائم إذ جسده حيٌّ ولا يميِّز بها باطنه، فيتوفّاكم يقطع تعلُّقها بالباطن وتزول عنهما في الموت، وقد قيل: النوم يقطع الحسَّ الظاهر والحسَّ الباطن، وقد لا يقطع الباطن. وخصَّ ﴿اللَّيْلَ﴾ مع أنَّ النوم في النهار أيضًا لأنَّه في الليل أرسخ وفيه أصل وأكثر.

﴿**وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ**﴾ ما كسبتموه في النهار، أو كسبكم فيه، وذلك شامل للإثم والخير، ففيه تنبيه وتهديد، ولاسيما أنَّه قيل: إنَّ المُراد الإثم كما هو قول ابن عبَّاس، ولذلك على القولين لم يقل: ينيمكم؛ وَقِيلَ: المُراد كلُّ شيءٍ من طاعة ومعصية وغيرهما، فيراد أيضًا التنبيه والتهديد، ومنه تسمية اليد مثلا جارحة، والطير والسباع جوارح، لكسبها بيدها. وخصَّ الكسب بالنهار مع أنَّه يقع في الليل لأنَّه في النهار أرسخ وأكثر كما أنَّ النوم في الليل أرسخ، والنهار مخلوق للحركة والليل للسكون.

﴿**ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ**﴾ في النهار بردِّ أرواحكم فيها، والعطف على يتوفّاكم، ووسَّط: ﴿يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ لبيان ما في «يَبْعَثُكُمْ» من عظم الإحسان إليهم بالتنبيه على ما يكسبونه من السَّيِّئات. والبعث ترشيح لملاءمته المشبَّه به وهو الإماتة، فإنَّه في عرف الشرع مختصٌّ بها ولو جاز أن يطلق حقيقة في اللغة على الإيقاظ من النوم وعلى كلِّ إنهاضٍ، وهذا أولى من قول بعضٍ: الإيقاظُ من النوم، قيل: يُسَمَّى بعثًا حقيقة؛ وَقِيلَ: مجازًا، وحمل اللفظ على المعنى العرفيِّ

كالواجب. وخصَّ البعث بالنهار مع أنَّه يكون ليلاً أيضًا لأنَّ المجعول للنوم الليل، فالبعث بعده.

وكانوا لا صلاة فجر عندهم حتَّى أسلموا، وأيضًا من أسلم يصلِّي ركعتين في أوَّل النهار وركعتين في آخره، ثمَّ ينام ليله كلَّه. وأجاز بعضهم عود الهاء لِلَّيلِ، ويضعف ما قيل: إن المُراد بالنهارِ النهارُ السابق على الليل المذكور، فلا دلالة فيه على تأخير الإيقاظ عن هذا التوفِّي.

والواضح أنَّه النهار بعد هذا الليل فُصِل بجملته ليَتَّصِل قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ بقوله: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ...﴾ إلى آخره، فَالمُرَادُ بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ بيان مجرَّد الكسب من غير دلالة على الإيقاظ واليقظة. واللام يتعلَّق بـ«يَبْعَثُ» أي يبعثكم لتتمَّ أيَّامكم في الحياة الدنيا، وهي الأجل المسمَّى. ويجوز أن يراد بقوله: ﴿يَبْعَثُكُمْ﴾ البعث من القبور، فتعود الهاء إلى «مَا جَرَحْتُمْ» أو إلى جرحكم، أو إلى ذلك وإلى التوفِّي، أي في شأن ذلك كلِّه فيجازيكم، ولو كان التوفِّي مسندًا إلى الله لأنَّ الإنامة نعمة يجب عليهم شكرها، وأن يتوصَّلوا بأبدانهم إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ، وعليه فالأجل المسمَّى مدَّة اللبث في القبور، والمُراد: ليقضوا أجلاً مسمًّى، أو ليقضي الله أجلاً مسمًّى، ويدلُّ له قراءة: «لِيَقْضِيَ أَجَلاً مُّسَمًّى» بالبناء للفاعل، ونصب أجل.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم بالحساب أو بالموت، على أنَّ قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ هو البعث من النوم، أو رجوعكم إلى الموقف على أنَّ قوله: ﴿يَبْعَثُكُمْ﴾ بعثٌ من القبور. والخطاب في ذلك كلِّه للناس،

أو الكفرة.

واللائق للنائم أن ينام على نِية التقوِّي على إطاعة الله وكسب الطَّاعات، والكافر ينام مهملاً لنفسه، أو ينوي القوَّة على المعصيَّة، ويكسب المعاصي. والتراخي بـ«ثُمَّ» بين النوم واليقظة باعتبار أوَّل النوم، وبين البعث من القبور والرجوع إلى الموقف باعتبار الوصول. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ وهذا كناية عن الجزاء ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة ومعصية.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ الفاعل ما يشاء، ولو كرهَ الفعلَ كارهٌ. ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ حال من المستتِر في «قاهر»، فوقيَّةَ علوِّ شأنٍ وتنزُّهٍ عن النقائص، ومنها أن يردَّ عليه فعلٌ أو قولٌ حاشاه، يفعل ما يشاء من تصحيح وإعلال، وإغناء وإفقار، وإعزاز وإذلال، وإيجاد وإعدام، وإحياء وإماتة، وإثابة وتعذيب، فهو غالب لا يُغلب.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة يحفظون أعمالكم من خير وشرٍّ؛ وَقِيلَ: ومباح وما لا ثواب فيه ولا عقاب. لِكُلٍّ أحد ملكان: ملك عن اليمن إذا عمل حسنة كتبها عشرة أو أكثر، وملَك عن شماله إذا عمل سيِّئة زجره ملَك اليمين عن أن يكتبها لعلَّه يثوب حتَّى تمضي خمس ساعات أو سبع، وإذا مشى فأحدُهُما أمامه وهو ملَك الحسنات والآخر خلفه، وإذا نام فصاحب الحسنات عند رأسه وصاحب السيِّئات عند رجليه.

وعن ابن عَبَّاس مع كلِّ مؤمن خمسة: واحد عن يمينه يكتب حسناته والآخر عن شماله يكتب سَيِّئاته، وواحد أمامه يلقِّنه الخير، وواحد خلفه يدفع عنه الآفات، وواحد على ناصيته يكتب صلاته على النبيء ﷺ. ويقال: مع كلِّ

مؤمن ستُّون ملكًا، وفيه مائة وسِتُّونَ يذبُّون عنه الشياطين. وذكر بعضٌ أن أحد الملَكين على كتف والآخر على كتف، وهو المشهور. وَقِيلَ: هما على الذقن، قيل: في الفم يمينه ويساره.

ولا معرفة لهم على ما في القلب، كما جاء في الحديث أنَّهم يزكُّون عمل العبد فيقول الله عزَّ وجلَّ لهم: أنا الرقيب على ما في قلبه لم يُرِدْني به. فقوله ﷺ: «**إذا همَّ العبد بحسنة فلم يعملها كُتبت له**»[1]، بمعنى أنَّ الله سبحانه يحفظها له ويثيبه عليها ولا يكتبها الملَك؛ وَقِيلَ: يطَّلعون على ما في القلب بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ إلاَّ الرياء، كما روي أنَّ المرائين يقربون من الجـنَّة حتَّى إذا رأوها واستنشقوا ريحها ردُّوا فيقولون: لو لم نرها ولم نستنشق ريحها كان خيرًا لنا، فيجيبهم بأنَّ ذلك لعظم مبارزتي بالمعاصي، وإظهار الطَّاعة لغيري. ولعلَّ الحديث لم يصحَّ لأنَّ الشقيَّ لا يريح ريح الجنَّة.

وتتجدَّد ملائكة الليل وملائكة النهار؛ وَقِيلَ: لا، بل تطلع ملائكة الليل وترجع في الليل الآخر، وتطلع ملائكة النهار فترجع للنهار الآخر؛ وَقِيلَ: يَتَجَدَّدُ ملائكة الحسنات؛ وَقِيلَ: لا يحصر عدد ملائكة الحسنات لقوله ﷺ: «**يبتدرون أيُّهم يكتبها أوَّلاً**»، [قلت]: لا دَلِيل فيه أنَّ هؤلاء المبتدرين ليسوا ملائكة حسنات العبد، بل ملائكة يرغبون في الخير كطالب العلم، ألا ترى أنَّهم كلَّهم يكتبونها لا واحدٌ فقط، ألا ترى إلى قوله: «أوَّلاً»؟. وحكمة

١- رواه **مسلم** في كِتَاب الإيمان (٥٩) باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت وإذا همَّ بسيِّئة لم تكتب، رقم ٢٠٦ (١٣٠)، ٢٠٧ (١٣١) من حديث ابن عَبَّاس. ورواه **الطبراني** في الكبير، ج١٢، ص١٢٥، رقم ١٢٧٦٠.

إرسال الملائكة والإخبار بهم أن يعلم الإنسان أنَّ الملائكة تكتب قبائحه وتُقرأُ عليه بحضرة الخلائق ومسمعهم فينزجر عنها ويستحي منهم.

أو المُراد: ملائكة يحفظون ابن آدم ورزقه وأجله وعمله، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ أو المعقّبات كما قال الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ اَمْرِ اللَّهِ﴾(سورة الرعد: ١١)؛ وَقِيلَ: المُراد هؤلاء كلُّهم وغيرهم. والعطف على قاهر كقوله تعالى: ﴿صَآفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ (سورة الملك: ١٩)، أو على «هُوَ الْقَاهِرُ»، أو على «يَتَوَفَّاكُمْ»، أو على «يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ».

﴿حَتَّى إِذَا جَآءَ اَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ «حتَّى» تفريعيَّة، وهي حرف ابتداء، وليس كالغاية لقوله: ﴿القَاهِرُ﴾، أو لقوله: ﴿فَوْقَ﴾ إلاَّ بتكلُّف لظهورهما بدون التوفِّي، مع أنَّ التوفِّي ممَّا هو عظيم جدًّا استُشعِر في القهر والفوقيَّة، بل هو كالغاية لقوله: ﴿يُرْسِلُ﴾، لكن باعتبار تعلُّقه بالحفظة وإلاَّ فلا، أو لقوله: ﴿حَفَظَةً﴾، أي يرسل عليكم ملائكة تحفظ أعمالكم إلى أن يجيئكم الموت فيميتكم كما قال:

﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ ملَك الموت وأعوانه، وهنا كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ (سورة السجدة: ١١)، وذلك عصر الأرواح من الأجساد، فإذا بلغت الحلقوم قبضها الله؛ فهذا كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الاَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (سورة الزمر: ٤٢)، وهذا مذهبنا، وزعم بعض الصوفيَّة أنَّ القابض الله أو ملَك الموت أو أعوانه بحسب مقام العبد، وقال بعض قومنا: تعصرها الملائكة ويقبضها ملك الموت من الحلقوم إذا وصلته. أو «رُسُلُنَا»: ملَك الموت، عُظِّم بلفظ الجمع

لقوَّة عمله.

ويقال: إذا كثرت عليه الأرواح دعاها فتجيئه، وله أعوان تقبضها وتجيئه بها، والأحياء كلُّها في البرِّ والبحر كشيءٍ في طست، ويقال: كلُّ من جاء أجله سقطت إليه ورقته، ويقال: صحيفة فيها موته من تحت العرش، ويأمر أعوانه بالتَّصَرُّف، ويطوف كلَّ يوم بِكُلِّ مسكن مَرَّتَيْنِ؛ وَقِيلَ: خمسًا. ويقال: يقبض روح المؤمن ويسلِّمها لملائكة الرحمة ويبشِّرونها بالثواب، ويصعدون بها، وهم سبعة؛ وروحَ الكافر ويسلِّمها لملائكة العذاب وهم سبعة ويبشِّرونها بالعذاب، وتردُّ من السماء إلى سِجِّين.

ورأى رسول الله ﷺ ملَك الموت عند رجل من الأنصار، فقال: «أرفق بصاحبي فإنَّه مؤمن، فقال: إنِّي بِكُلِّ مؤمن رفيق، وإنِّي لأقبض روح ابن آدم فإذا صرخ صارخٌ من أهله قلت: ما هذا الصراخ؟ فو الله ما ظلمناه، ولا استبقينا من أجله، فما لنا في قبضه من ذنب، فإن ترضوا بما صنع الله تؤجروا، وإن تسخَطوا تأثموا، وإنَّ لنا لعودة وبغتة، فالحذَرَ الحذَرَ، وإنِّي لأَعرَفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم، فإنِّي أتصفَّح وجوههم كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مَرَّات، ولله يا مُحَمَّد لو أردتُ قبض بعوضةٍ ما قدرتُ حتَّى يكون الله هو الآمرُ بقبضِها». وإذا مات العبد رجعوا إلى معابدهم. وَقِيلَ: يقومون على قبره يترحَّمون عليه أو يلعنونه.

﴿وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ لا يتعدَّون كما حدَّ لهم من وقت القبض وتشديده وتسهيله ومكانه، وكيفيَّته، ومقابلة المحتضر بوجه طَلقٍ أو عبوس و نحو ذلك.

﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ للجزاء ﴿إِلَى اللهِ﴾ مقتضى الظاهر: «ثمَّ رُدِدْتُم إلى الله»

بالخطاب الذي في قوله: ﴿أَحَدَكُم﴾، لكن ذُكروا بالغيبة تلويحًا باستحقاقهم الهجر؛ وكان بالجمع لأنَّ الردَّ إلى الله بالجملة ومجيء الموت والتوفي على الانفراد. والردُّ إلى الله: ردُّهم إلى حُكمه منقادين؛ أو ردُّهم إلى موضع لا حاكم فيه سواه تعالى عنه وسائرِ المواضعِ.

﴿مَوْلاَهُمُ﴾ الذي يتولّى أمرهم بالعقاب، وأمَّا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لاَ مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ (سورة القتال: ١١) فمعناه لا ناصر لهم؛ وَقِيلَ: الضمير في «رُدُّوا» و«مَوْلاَهُم» للناس كُلِّهم، وهو مالكهم وخالقهم، يتولاَّهم بالثواب والعقاب، أو خالقهم، أو مالكهم، وزعم بعض أنَّ الضمير للرسل ملائكة الموت يموتون كما مات بنو آدم، وهو خلاف الظاهر.

والموت لاَ بُدَّ لهم منه بيد مَلَك الموت، أو مع أعوانه. ويأمر الله تعالى ملك الموت بعد موت ذوات الأرواح بالكون بين الجنَّة والنار، فيكون بينهما فيميته الله عزَّ وجلَّ. ويقبض الله أرواح الحور والولدان بدون مَلَك الموت، أو بتوسُّط مَلَك الموت.

﴿الْحَقِّ﴾ الثابت، أو الذي لا يتَّصف بالباطل ﴿أَلاَ لَهُ﴾ لا لغيره ﴿الْحُكْمُ﴾ يومئذٍ ظاهرًا وحقيقة، بخلاف الدُّنيا فقد يكون الحكم الظاهر فيها لغيره ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب الخلق في أقلَّ من لحظة، لأنَّه ليس يحاسبهم بفكر أو عدٍّ أو عقد الأصابع، تعالى عن ذلك؛ وما جاء من أنَّه يحاسب الخلق في مقدار حلب شاة تمثيل للقلَّة، أو شاء ذلك وهو قادر على أقلِّ، كما خلق السماوات والأرض في ستَّة أيَّام وهو قادر على أقلَّ منها، ويدلُّ

للتمثيل ما جاء من أنَّه يحاسبهم في مقدار نصف نهار من أيَّام الدُّنيا.

وَقِيلَ: لِكُلِّ أحد ملَك يحاسبه؛ وَقِيلَ: المؤمنون يحاسبهم الله، وَالكُفَّار يحاسبهم الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ (سورة البقرة: ١٧٤، وآل عمران: ٧٧)، ويردُّه أنَّ المعنى: لا يكلِّمهم بما ينفعهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ (سورة الأنعام: ٢٢)، وقوله: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ...﴾ إلخ (سورة الأنعام: ٣٠).

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)﴾

القدرة الإلهيَّة على الإنجاء من الظلمات وتعذيب العصاة

﴿قُلْ﴾ لأهل مكَّة توبيخًا على عبادة ما لا يدفع ضرًّا ولا يجلب نفعًا ﴿مَنْ يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ في أسفاركم وأحضاركم من شدائدهما، كالخسف في البرِّ واللدغ وأكل السباع، والضلال عن الطريق، وكالغرق في البحر والضلال فيه، والأمواج والرياح العاصفة، وبلع الحوت الكبير، وتعرُّضه للسفينة؛ أو ذلك والظلمة الحقيقة الحاصلة بالليل والسحاب على عموم المجاز؛ أو الجمع بينه وبين الحقيقة، وهو مطلق الهول الشديد الشبيه بالظلمة بجامع الذّهل، فإنَّ الشدَّة

تذهل العقل حتّى يَمُرَّ بك شيء فلا تراه، يقال يوم مظلم، ويوم ذو كواكب، وهول الظلمة شبيه بالظلمة نفسها فليس في ذلك تشبيه الشيء بنفسه.

﴿تَدْعُونَهُ﴾ حال من الكاف، أي داعين، أو من ضمير «يُنَجِّي»، أو مدعوًّا، أو مستأنف، ﴿تَضَرُّعًا﴾ ذوي تضرُّع برفع صوت، أو متضرِّعين ﴿وَخُفْيَةً﴾ وذوي خفاء دعاء، أو «خُفْيَةً» اسم مصدر، أي وذوي إخفاء، أو مخفين، أو تدعونه دعاء تضرُّعٍ ودعاء خفيةٍ، أو ضُمِّن «تَدْعُونَ» معنى: تعلنون وتخفون، كقعدتُ جلوسًا.

﴿لَّئِنَ اَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ﴾ أي من هذه الظلمات. وجملة القسم وجوابه محكيٌّ بـ«تَدْعُونَهُ» تعدَّى لواحد بنفسه، والآخر بتضمُّنه معنى: تقولون؛ أو يُقَدَّرُ له قول هو حال، أي قائلين: وا لله إن أنجيتنا من هذه ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المؤمنين الشاكرين لنعمك بالتوحيد والعبادات. والمشركون لا يخافون وقوع الخسف، فلا يدخل في قولهم: «لَئِن أنجيتنا من هذه» لأنَّهم لا يرون أثره كما يرون موج البحر ورياح البحر. ولا يكفي جوابًا اعتباره في ظلمات البرِّ باعتبار مشارفته لا وقوعه، لأنَّهم أيضًا لا يعترفون بمشارفته، اللهمَّ إلاَّ أن يتخيَّلوه حين ظلمة الليل في البرِّ مع الريح.

﴿قُلِ ا للهُ يُنجِيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ لا محيد لهم عن أن يقولوه، فقله أنت ولا تنتظرهم، ولاسيما أنَّهم يبطئون عن قوله أو يجحدون، وقد اعتقدوا صحَّته، فقد تحملهم بقَوْلِكَه على الإقرار به. والكربُ: غمُّ النفس، أي: ومن كلِّ غمٍ، أو من كلِّ ما يغمُّ سواها، فذلك إنجاء من شدائد البدن وشدائد القلب. ﴿ثُمَّ أَنتُم تُشْرِكُونَ﴾ به الأصنام. «ثُمَّ» لاستبعاد الإشراك ولياقته مع

اعترافهم بأنَّ الله هو المنجي من ظلمات البرِّ والبحر ومن كلِّ غمٍ، ومقتضى قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أن يقال ثمَّ أنتم لا تشكرون، إلاَّ أنَّه بالغ بذكر الشرك الذي هو قطع للشكر رأسًا، وذلك ذمٌّ زائد استحقُّوه، إذ لم يقتصروا مع اعترافهم بذلك على ترك الشكر بسائر ما يكون تركًا له من المعاصي، بل قطعوه قطعًا كُلّيًّا بالإشراك.

ولا يجوز ما اعتاده بعض الناس من الوقف على ﴿كَرْبٍ﴾ ويكرِّره مع قوله: ﴿قُلِ اللهُ يُنجِيكُم مِّنْهَا﴾ على الدعاء، لأنَّه إفساد لسَوْق الكلام الذي هو أنَّه: ينجيكم من ذلك ولا تكفُّون عن الإشراك شكرًا، ففي ذلك الوقفِ صرفُ ما هو تهديدٌ إلى امتنانٍ، وذلك تبديل لكلام الله تعالى عزَّ وجلَّ.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُم شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ حصرٌ للقدرة على أنواع الهلاك في الله بعد حصرها على الإنجاء من المهالك فيه. والعذاب من فوقٍ كالحجارة التي نزلت على أصحاب الفيل، والحجارة التي نزلت على قوم لوط، وكالطوفان على قوم نوح النازل من السماء، والصاعقة والريح، وكالريح النازلة على قوم هود، والصيِّحة النازلة على قوم صالحٍ وعلى قوم شعيب، ونمرود وقومه، والظلَّة عليهم. والعذاب من تحت الأرجل كالطوفان الخارج من الأرض لقوم نوح، وكالخسف لقارون، وكإغراق فرعون وقومه ببحر القلزم وهو في الأرض، ولا يضرُّ كونَ ذلك من تحتهم علوُّ الماء عليهم وعلوُّ الأرض على قارون لأنَّ البدء من أسفل، أو يعدُّ العلوُّ من فوقهم والبدء من تحت الأرجل، قيل: كما روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

ويجوز أن يكون الفوقيَّة والتحتيَّة معقولتين غير محسوستين، مجازًا، بأن يكون الفوقيَّة استعلاء أكابرهم عليهم فيضرُّونهم، والتحتيَّة تسفُّل شأن عبيدهم وأراذلهم وعامَّتهم فيضرُّونهم، وتضرُّ العامَّة أيضًا بعضهم بعضًا.

(لغة) واللَّبس: الخلط. و«شِيَعًا» حال، أو ضمِّن معنى التصيير، فـ«شِيَعًا» مفعول ثان، بمعنى: فرق مختلفة بالأهواء، كلُّ واحدة تتَّبع إمامها. أو اللبس: الخلط بانتشاب القتال بينهم. والمفرد شيعة، كسِدْرة وسدر، وهو من يتقوَّى به الإنسان، وأتباعُه وأنصاره وقد اجتمعوا على أمر؛ ويطلق الشيعة على المفرد والاثنين والجماعة والمذكَّر والمؤنَّث.

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالقتال. والبأس: الألَمُ؛ أو يذيق بعضَكم قتالَ بعضٍ، وسبب ذلك تفرُّق الأهواء عن الحكم الشرعيِّ فتخطئ الشيع، وقد يكون بعضٌ على الهدى وعدوُّه على الضلال. وروي أنَّه ﷺ قال عند قوله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُم﴾: «**أعوذ بوجهك، وعند قوله:** ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُم﴾: **أعوذ بوجهك، وعند قوله:** ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ **هذا أهون وهذا أيسر**». وفي مسلم: «**سألت ربِّي ألاَّ يجعل بأس أمَّتي بينهم فَمَنَعَنِيها**»[1]، أي لم يجب دعوتي. وبدؤه من خلافة عثمان بعد مضيِّ ستِّ سنين منها. وقال الترمذيُّ: وعن خباب بن الأرث: أطال ﷺ

١- رواه **مسلم** في كِتَاب الفتن وأشراط الساعة(٥) باب هلاك هَذِهِ الأُمَّة بَعضهم بِبَعْضٍ، رقم ٢٠ (٢٨٩٠). وَأَوَّلُ الحديث قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «سألت رَبِّي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة...». من حديث ابن سعد عن أبيه.

صلاة فقيل له: صلَّيت صلاة لم تكن تصلّيها!، فقال: «**أجل إنــَّها صـلاة رغبـة ورهبة، إنّي سألت ربّي فيها ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يهلك أمَّتي بالجدب فأعطَانيها، وسألته أن لا يسلّط عليهم عـدوًّا مـن غيرهـا فأعطانيها، وسألته أن لا يذيـق بعضهـم بـأس بعـض كمـا فعـل ببـني إسـرائيل فمَنَعنِيها**»[1].

ويروى: زويَت لي الأرض فقيل لي عن ا لله: «**ستملك ما رأيت، وسألت ربّي أن لا يستأصل أمَّتي بقحط، وأن لا يستأصلهم عـدوٌّ فأعطانيهمـا، وأن لا يلبسهم شيعًا، ولا يذيق بعضهم بـأس بعـض**»[2]. فالاثـنـتان الممنوعتـان في رواية: «**سألت ربّي أربعًا فأعطاني اثـنـتين ومنعني اثـنـتين**»[3]: اللبسُ شيعًا، وإذاقة بعض بأس بعض، والثالثة: هي كلتاهما في رواية: «**سألته ثلاثًـا فأعطـاني اثـنـتين ومنعني الثالثة**»[4]، ووجهه أنَّ الإذاقة من توابع اللبس شيعًا.

وكذا فيما يروى: «**سألت ربّي أربعًا فأعطاني ثلاثًـا، أن لا تجتمـع أمـَّتي على ضلالة، وأن لا يظهر عليهم عدوٌّ من سـواهم، أي فيسـتأصلهم، وأن لا يهلكهم بالقحط فأعطانيهنَّ، وسألته ألاَّ يلبسهم شيعًا، ولا يذيق بعضًـا بـأس**

١- رواه **الترمذي** في كِتاب الفتن (١٤) باب ما جاء في سؤال النَّبِـيء صلّى ا لله عليه وسلّم ثلاثا في أمـَّته، رقم ٢١٧٥. من حديث خباب بن الأرث عن أبيه.

٢- رواه **أحمد** في مسنده، ج٥، رقم ١٠٩، من حديث معاذ.

٣- رواه **الهيثمي** في المجمع، ج٧، ص ٢٢٢. والسيوطي في الدر المنثور، ج٣، ص١٩.

٤- لم نقف عَلَى تخريجه بهذا اللفظ.

بعض فمنعنيها»[1]، ويروى أنَّه قال لـمَّا نزلت الآية: «أمَّا إنَّها الأربعة كائنة» أي بدون استئصال، وأحاديث عدم الكون ـ بمعنى أنَّها لا تكون باستئصال ـ فلا منافاة، و لم يأت تأويلها بعد.

وعن أبي العالية: وقعت اثنتان بعد رسول ا لله ﷺ بخمس وعشرين سنة، أُلبسوا شيعًا وأذيق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان الخسف والمسخ، والتأويل: المأصدق الذي ترجع إليه وتفسَّر به: تفضل ا لله عزَّ وجلَّ بتأخير المسخ والخسف إلى قرب الساعة جدًّا، وعنه ﷺ: «**سألت ا لله أن لا يبعث على أمَّتي عذابًا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**»[2].

﴿**انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ**﴾ نكرِّر مع بيان ﴿**الاَيَاتِ**﴾ التي تتلى، أو الدلالات بها، وذلك في التوحيد والشرك والوعد والوعيد ﴿**لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ**﴾ يعلمون أنَّك على الحقِّ وأنَّهم على الباطل.

﴿**وَكَذَّبَ بِهِ**﴾ بالقرآن المدلول عليه بقوله: ﴿نُصَرِّفُ الاَيَاتِ﴾ وبالمقام، كما تعيَّن في قوله: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾، وَقِيلَ: وكذَّب بالعذاب المذكور في قوله: ﴿أَنْ يَّبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾، وعليه الأكثر، وفيه أنَّ العذاب مذكور بالإمكان لا بالوعيد جزمًا إلاَّ بتأويل أنَّهم كذَّبوا بإمكانه وبالتلويح به أنَّه لا يتمُّ، كما قيل: إنَّ الهاء عائدة على الوعيد المضمون في هؤلاء الآيات، وفيه أنَّ ما بطريق الإمكان لا يقال فيه إنَّه الحقُّ إلاَّ بتأويل، وقد قال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾؛ وَقِيلَ:

١- رواه **الهندي** في الكنز، ج١١، ص ١٧٤، رقم ٣١١٠١. من حديث أبي بصرة الغفاري.

٢- أورده صاحب **الكشَّاف** في تفسيره، ج٢، ص٦٢.

بالتصريف؛ وَقِيلَ: كذَّب بالنبيء ﷺ، وفيه أنَّه لو كان كذلك لقال: وكذَّب بك، لقوله:

﴿قَوْمُكَ﴾ بالخطاب، ولم يَجْرِ له ﷺ ذكرٌ بالغيبة، ودعوى الالتفات أبعد لعدم نكتة هنا فيه. والقوم: قريش؛ وَقِيلَ: العرب ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ حال من هاء «بِهِ»، والتكذيب به مع أنَّه الحقُّ الكامل، أو الذي كأنَّه لا حقَّ سواه مبالغةً. وَمَعنَى كونه حقًّا أنَّه صادقٌ أو واقعٌ لا محالة لأنَّه من الله عزَّ وجلَّ.

﴿قُل﴾ لهم أي لقومك ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم﴾ متعلّق بـ«وَكِيلٍ»، والباء لا تمنع من ذلك لأنَّها صلة والمعنى على ذلك لا على الحالية لتبادره، وأمَّا الباء فلا تمنع من تقديم الحال لأنَّها صلة، وقدِّم على طريق الاهتمام بمن نفيت الوكالة عليهم من حيث الوكالة، وللفاصلة على أنَّ الآية تَمَّت في قوله: ﴿بِوَكِيلٍ﴾ ولو لم يختم بالنون كنظائره. وفيه الردف بالباء كالردف فيها بالواو، والمعنى: لست حفيظًا عليكم أُوفّقكم إلى الإيمان، أو أُعاقبكم بعذاب، ليس ذلك في طاقتي، ولا وُكلَ إليَّ، وإنَّما أنا منذرٌ، والموفِّق والخاذل والمجازي هو الله، [قلت] وهذا صحيح قبل القتال ومعه وبعده، ولا حاجة إلى دعوى أنَّ المُراد كما قيل عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: لم أومر بقتالكم، فضلاً عن أن يقال نسخ بآية القتال.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ خبرٍ من الله، بمعنى شيء مخبر به، أو يُقَدَّرُ مضاف، أي لِكُلِّ مضمون خبرٌ، ومن ذلك عذابكم، أو لِكُلِّ خبر ومنها خبر عذابكم ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ زمان استقرار من الدنيا، أو من الآخرة، أو موضع استقرار من أحدهما، أو

نفس الاستقرار، والأوَّل أولى لأنَّ الكلام سيق لمثل قولهم: «مَتَى هذا الوعدُ»، وأنَّه ليس عليه أن يلازمهم إلى وقت يهتدون فيه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الدُّنيا، أو في الآخرة، أو فيهما أنَّ ما قلنا حقٌّ، أو تعرفون مكان الاستقرار، أو زمانه، أو نفسه إذا وقع؛ وذلك تهديد.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

الإعراض عن مجالس المستهزئين بالقرآن وعذابهم

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا﴾ يَتكَلَّمُون فيها بسوء كتكذيب بها واستهزاء وطعن، كقولهم: أساطير الأولين، وسحر، وتعليم بَشَرٍ؛ وَقِيلَ: المُراد أهل الكتاب، ولا بأس بالتفسير بِكُلِّ ذلك. وأصل الخوضِ في الشيء: مطلقُ الشروع خيرًا أو شرًّا؛ وَقِيلَ: أصله في الماء؛ وَقِيلَ: أصله أن يكون على وجه العبث واللعب، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُم﴾ بالقيام عنهم حتَّى لا تسمعهم، أو بالذهاب عنهم إن لم تقعد بدليل: ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾. ﴿حَتَّى

يَخُوضُواْ﴾ حتّى يشرعوا ﴿**فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾ ما فيه لعب ولهو ولا سوء، بدليل أنَّ الإعراض عنهم لأجل السوء ونحوه، فهذا الخوض الأخير جيء به على أصل اللغة، والأوَّل على مستعمل الشرع في الخوض، أو عبَّر به للمشاكلة. والهاء في «غَيْرِهِ» للآيات، لأنَّها بمعنى القرآن، أو الوحي، أو الحديث، والقرآن يطلق على البعض كما يطلق على الكلِّ.

(فقه) والآية تَعُمُّ أنَّ القعود مع أهل السوء في حال عمل السوء لا يجوز، ولو مع نهيهم، وإذا خرجوا عن السوء إلى شيء غير سوء جاز القعود معهم، ولو لم يتوبوا، إلاَّ إن كان القعود لضرورة لاَ بُدَّ منها فيجوز القعود حال السوء حتّى يقضي حاجته، فيقوم وينهى عن ذلك إن قدر. ولا دَلِيل للحشوية في الآية على منع الاستدلال في ذات الله وصفاته، ولا لمن منع القياس، لأنَّها في منع الخوض بالسوء، بل هي دَلِيل على الجواز لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فلو خاضوا بغير سوء لجاز السماع إليهم. وأيضًا قعد ﷺ إلى قوم يتذاكرون في التوحيد، وقال: «**بهذا أمرني ربِّي**»، وتذاكُرهم لا يخلو عن استدلال ومناظرة.

﴿**وَإِمَّا**﴾ «إِنْ» شَرطيَّة، و«مَا» تأكيديَّة. ﴿**يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ**﴾ يشغلك بوسوسته حتّى تنسى أنَّك مأمور بالإعراض فقعدت أو وقفت معهم، فالإنساء عبارة عن ملزومه أو سببه، وهذا كقوله: ﴿وَمَآ أَنسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾(سورة الكهف: ٦٣)، وقوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ (سورة يوسف: ٤٢)، وفي الكلام حذف، أي: وإمَّا ينسينَّك الشيطان في حال القعود معهم ابتداء أو بقاء حال الخوض بالسوء أنَّك مأمور بالقيام عنهم، ﴿**فَلاَ تَقْعُدْ**﴾ معهم، أي لا تلبث

معهم قائمًا ولا قاعدًا ولا مضطجعًا، فالقعود مقيَّد استعمل في المطلق. ﴿بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ أي التذكُّر للأمر بالإعراض ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ مقتضى الظاهر: «معهم»، لكن ذَكَرهم بخصوصِ أنَّهم فريقٌ ظالمون تشنيعًا عليهم بوضع التكذيب في موضع التصديق، والاستهزاء في موضع الاستعظام. عبَّر أوَّلاً بـ«إِذَا» لأنَّه ﷺ معترف بأنَّه يراهم يخوضون، وثانيًا بـ«إِنْ» لأنَّهُ يشكُّ أن ينسى.

والخطاب في: ﴿رَأَيْتَ﴾ و﴿يُنسِيَنَّكَ﴾ و﴿أَعْرِضْ﴾ و﴿تَقْعُدْ﴾ له ﷺ، لِصِحَّةِ تلك الرؤية منه، وإمكان الإنساء؛ وَقِيلَ: له والمُراد غيره؛ وَقِيلَ: لمن يصلح لذلك. والرؤية بصريَّة؛ والحال محذوف، أي إذا رأيت الذين يخوضون خائضين، ولا يغني عنها ذكر «الذِينَ يَخُوضُونَ» لأنَّك قد ترى ذات الخائض ولا تدري أنَّه يخوض، لبُعدك أو غفلتك؛ والمُراد: تراه بعنوان أنَّه يخوض؛ ويضعف أن تكون علميَّةً حذف ثانيها للعلم، أي: وإذا علمتهم خائضين في وقتٍ حضرتَه معهم فأعرض عنهم فيه.

ويضعف أن يكون المعنى: إن أنساك الشيطان قُبح مجالستهم حال الخوض، لأنَّه مِمَّا يعلم بالعقل قبل نزول تحريمها، فلا تقعد معهم حال الخوض بعد التذكير منَّا بالتحريم، فهو تأكيد لما قبله من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾.

(أصول الدين) ونحن لا نقول بالحسن والقبح العقليَّين بل المعتزلة، ولكن يعلمه من سائر الآيات في مجانبة كفر الكافرين بواسطة العقل، ويجوز الجلوس معهم حال الخوض للتعليم والنهي.

والنبيء ﷺ ينسى في أمر الدُّنيا ولا ينسى أمر الدِّين قبل تبليغه إجماعًا، فيما

قيل؛ وَقِيلَ: لا إجماع؛ وَقِيلَ: الكلام في الجواز ولم يقع، ولعلَّ هذا مراد الإجماع، وينسى بعده نسيانًا لا يستمرُّ، كما سلَّم من ركعتين، والممنوع منه أن ينسى ما أوحيَ اشتغالاً بغيره، وأمَّا بدون ذلك فأجازه بعضٌ وَشَرَطَ التنبُّهَ قبل الفوت، وأجازه إمام الحرمين مدَّة حياته، ومنعه بعضٌ مطلقًا، وادَّعى بعضٌ الإجماع على منعه فيما هو قول. وأمَّا في أمر الدُّنيا فلا يلزم أن يصيب في كلامه، كما أمرهم بترك تأبير النخل فلم تصلح ثماره، ثمَّ قال ﷺ: «أنتم أعلم بأحوال دنياكم، فأبّروها».

(فقه) [قلت] والصواب عدم تكليف الناسي والساهي والنائم والسكران بما هو ليس بحرام، وإمَّا بحرام كخمرة وجوزة فمكلَّف بِكُلِّ ما فعل في سكره مِمَّا يوجب طلاقًا أو حدًّا أو نحوهما؛ وَقِيلَ: في نحو الساهي والناسي مكلَّف بمعنى ثبوت الفعل بذمَّته، ولا يتمُّ ذلك لأنَّه لا يعاقب، فإن كان حقّ مخلوق خرج من حسناته.

(سبب النزول) ولـمَّا نزلت الآية قال المسلمون: قد تضطرُّنا حاجة إلى الكون معهم حال الخوض كالطواف والجلوس في المسجد، أو مبايعة في سوق أو غيره، فنزلت:

﴿وَمَا عَلَى الذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله أن يشركوا به أو يعصوه، ومن ذلك تَركهم الخوض ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ مثل ما مَرَّ، والهاء للخائضين، أي لا إثم عليهم في ذلك للضرورة، أو جالسوهم للنهي فإذا لم ينتهوا قاموا، وذكر المجالسة في قوله: ﴿وَلَكِن ذِكْرَىٰ﴾ أي عليهم ذكرى، أي على الذين يتَّقون تذكيرهم بالوعظ؛ أو لِيُذكّروهم ذكرى بلام الأمر؛ أو ذكّروهم ذكرى،

بالخطاب على طريق الالتفات؛ أو عليكم ذكرى كذلك، وقدَّر بعضٌ: نذكِّرهم ذكرى، بالنون؛ ويجوز عند بعض تقدير: ولكن يذكِّرونهم ذكرى؛ أو تذكرونهم ذكرى؛ أو الذي يأمرونهم به ذكرى، أي ذكر لدين الله، وعلى كلِّ حال المُراد: إظهار كراهة قبائحهم.

(نحو) ولا يعطف «ذِكْرَى» بالواو على «حِسَابِهِم»، لأنَّ «مِنْ حِسَابِهِم» قيدٌ في «شَيْءٍ» لأنَّه حال منه، وليس «ذِكْرَى» قيدًا فِيه، والعطف عليه يقتضي أن يكون قيدًا فيه، فإنَّك إذا قلت: أكرم الله زيدًا يوم الجمعة وعمرًا، فإنَّ يوم الجمعة قيدٌ في عمرو كما في زيد. ولا يعطف على «شَيْءٍ» لأنَّه مثبت بـ«لَكِنْ» فلا تدخل عليه «مِنْ» الزائدة، فلا يعطف على ما هي فيه، وقد نصُّوا على أنَّ القيود المعتبرة في المعطوف عليه معتبرة في المعطوف، نحو: ما جاء يوم الجمعة، أو في الدار، أو راكبًا، أو من هؤلاء القوم رجل ولكن امرأة، فالمرأة من القوم، أو جاءت يوم الجمعة، أو جاءت راكبة.

﴿لَعَلَّهُم﴾ أي الخائضين ﴿يَتَّقُونَ﴾ للحياء، أو لكراهة مساءتهم الخوض في الفضول، أو لعلَّ الذين يتَّقون المذكورون في قوله: ﴿وَمَا عَلَى الذِينَ يَتَّقُونَ...﴾ إلخ، أي يثبتون على التقوى، أو يزدادون منها بتذكيرهم الخائضين، ولا تَنثَلِم تقواهم بمجالسة الخائضين، وعلى كلِّ حالٍ الآيةُ رخصةٌ للذين يتَّقون في مجالستهم حالَ الخوض بشرط التذكير والنهي عن الخوض.

﴿وَذَرِ﴾ أترك ﴿الذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُم لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ صيَّروا دين الله الذي يجب أن يتَّبعوه ـ فيقال هو دينهم ـ لعبًا ولهوًا، أي كلعب ولهو، مستحقرين

به، أو اتَّخَذوه أمـرًا ملعوبًـا بـه وملهـوًّا بـه، أو جعلـوا بدلـه اللعـب واللهـو، أو اتَّخَذوا لأنفسـهم دينًـا يضـاف إليهـم كلعـب ولهـو في أن لا نفـع فيـه كعبـادة الصنم، وتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحـامي، وشـرب الخمـر، والرقـص، والزمر، وسائر ما دانوا به مِمَّا لا ينفع بـل يَضُـرُّ؛ أو جعلـوا دينهـم، أي عيدهـم الذي دانوه، أي اعتادوه وقتًا للعبادة لعبًا ولهوًا. وتركُ ذلك كلِّـه مـأمورٌ بـه قبـل وجوب القتال وبعده، فلا حاجة إلى أنَّـه نهي عن القتال جاء نسخه بعد. والآيـة تهديدٌ كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (سورة المدَّثر: ١١)، وقولـه تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَاكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ (سورة الحِجر: ٣)، مع تلك المعاني، وليس كمـا توهَّم بعض أنَّ التهديد وجـه على حـدة، فإنَّـه صـالح معهـا، أي ذرهـم فإنِّـي أكفيكهم، ولا تبال بأقوالهم وأفعالهم، ولا يضق قلبـك، ولكـن لا تـترك الإنـذار والنهيَ.

﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ لحِلم الله عزَّ وجلَّ عنهـم حتَّى اطمأنـُّوا إليهـا، وتوهَّموا أنَّـهم على شيءٍ مرضيٍّ عنده، وأنَّـهم عنده كرماء، وأنَّ ما عندهم مـن جاه ومال وصحَّة لكرامتهم على الله، حتَّى أنكروا البعث وكلَّ مـا ينقـص لهـم من الحقِّ ما هم عليه.

﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن الناسَ لظهور المُراد، ولـو لم يجـر لـه ذكـر إلاَّ في قوله: ﴿فِي ءَايَاتِنَا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَّخَافُ وَعِيدِ﴾ (سورة ق: ٤٥)، أو ذكِّر بالحساب أو بالدِّين. ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ حَـذَرَ أن تبسـل، أي حذَر أن تمنع من خير الآخرة، وهذا أولى من تقدير: لئـلاَّ تبسـل، أو هـاء «بِـهِ» لمبهم فسَّره بِبَدَلِه، وهو «أَنْ تُبْسَلَ».

(لغة) والبَسَل: المنع، أسدٌ باسل يمنع فريسته عـن غـيره، ورجـلٌ باسـل أي شجاع يمتنع مـن قرنـه، وهـذا بسـل أي حـرام ممنـوع، أو تُبسـل بمعنـى تـترك للهلاك، يقال أَبسَلَه وبَسَله بالتخفيف: منعه، أو أسلمه، أو المسْلَم إلى الهلاك ممنوع من النجاة، أو «تُبْسَل»: ترهن ـ قيل ـ أو تفتضـح. والمـُراد بـالنفس: الحقيقـةُ، أي **عِظ الناس بالقرآن لئلاّ يُمنعـوا مـن خـير الآخـرة**، أو لئـلاّ يخذلـوا إلى شرِّها بما كسبوا، كما قال:

﴿**بمَا كَسَبَتْ**﴾ من شرك أو سائر الكبائر.

﴿**لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ا للهِ**﴾ من غير ا لله. و«مِنْ» للابتداء، متعلّق بمحذوف خبر «لَيْسَ»، و«لَهَا» متعلّق بـ«لَيْسَ»، [قلت] والصحيـح جـواز التعليـق ببـاب كان، ودلالة بابها على الحدث، أو يقدَّر: أعني لها، أو ذلك لها. أَوْ «لَهَا» خـبرٌ، و«مِـن دُونِ ا للهِ» حـال مـن قولـه: ﴿**وَلِـيٌّ وَلاَ شَـفِيعٌ**﴾ ولـو نكرتـين لتقدُّمهـا ولتقدُّم النفي، أي: ثابتين من دون ا لله، أي ليس لها أحد يليها بالنصر، ولا أحـد يمنع عنها العذاب إلاّ ا لله، وا لله يفعل ذلك للمتّقين، أو ليس لها من دون عذاب ا لله وليٌّ ولا شفيع.

والجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون حالاً من «نَفـسٌ»، لأنَّ المـُراد الحقيقـة، ولتقدُّم النفي بالحذر، أو بتقدير: «لئلاّ»، أو من المستتر في «كَسَبَتْ». وإن قلنا: المـُراد بالنفس النفوس الكافرات لا مطلق النفس كما يـدلُّ لـه قولـه عـزَّ وجـلَّ: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ أُبْسِلُوا﴾ بإشارة الجمع فَلَنا مسـوِّغ آخـر هـو النعـت، ويـدلُّ لـه أيضًا قوله:

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُوخَذْ مِنْهَآ﴾ أي وإن تجعل هذه النفس شيئًا مثلها معادلاً لها تفتدي به، ولو ما خلق الله كلّه ذهبًا لا يُقبل منها.

(نحو) و«كُلَّ» مفعول به، و«كُلَّ عَدْلٍ» ذاتٌ، وإن جعلناه عرَضًا كان مفعولاً مطلقًا، أي وإن تفتد كلَّ افتداء لا يؤخذ منها، فحينئذ يكون ضمير «يُوخَذْ» إلى «كُلَّ عَدْلٍ» على الاستخدام بأن يراعى في الضمير الذات، وهي التي تكون فداء، أو لا ضمير في «يُوخَذْ» على هذا بل نائب الفاعل هو قوله: ﴿مِنْهَا﴾، أو فيه ضمير عائد إلى العدل بالَمعنَى المصدريِّ دون استخدامٍ مبالغةً.

﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾ مُنعوا من رحمة الله، أو أسلموا إلى الهلاك، أو رهنوا في كسبهم الفاسد واعتقادهم الزائغ، و«الذِينَ» نعت أو بيان أو بدل أو خبر، وجملة قوله: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ اَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ خبر أوَّل، أو ثان، أو حال من الواو، أو من «الذِينَ»، أو مستأنفة بيانًا أو نحوًا، كأنَّه قيل: ماذا لهم حين أبسلوا؟ فقال: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ...﴾. واللام للاستحقاق. والحميم: الحارُّ جدًّا. والشراب: المشروب، كالطعام بمعنى المطعوم ولا يقاس فَعَال بمعنى مفعول. و«مَا» مصدريَّة، أي هم بين مغلًّى يتجرجر في بطونهم، ونار تشتعل في أبدانهم، لكونهم يكفرون، وذلك تأكيد لقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ...﴾ إلخ، ولذلك فصل، أعني لم يعطف، ووجه كونه تأكيدًا أنَّ مؤدَّى كلٍّ منهما لصوقُ العذاب بهم؛ وهو أيضًا تفصيل له، لأنَّه موضِّح لمعناه.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

الدعوة إلى الإيمان بالله وضرب المثل بحال المشركين

﴿**قُلْ أَنَدْعُوا**﴾ أنعبد أو أنسأل؟ ﴿**مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا**﴾ لا يقدر على نفعنا أو ضرّنا، كقوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (سورة المائدة: ٧٦)، ولا ينفعنا إن عبدناه أو سألناه، ولا يَضُرُّنا إن تركنا عبادته، أو عاملناه بالهوان. ﴿**وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا**﴾ نرجع إلى الشرك الذي كنّا فيه، كرجوع الماشي إلى ورائه باقيًا على استدباره، **والإنسان أيضًا يولد بلا علم، ثمَّ يزداد علمًا بجوارحه كسمعه وبصره ولسانه، وإذا أهملها فقد رجع إلى ورائه.**

أو تشبيه مركّب، بأن شبَّه ترك الأمر النافع بعد الدخول فيه ـ وهو الإيمان ـ وتناول الأمر الضارّ ـ وهو الشرك ـ بعد الانصراف عنه، وعصيان الأصحاب الداعين إلى الهدى بترك الذهاب إلى قدَّام في مصلحة وعلى بصيرة، والرجوع إلى الوراء الذي هو ضارٌّ وخلاف المقصود.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ﴾ بعد وقت هدانا الله إلى الإسلام. ولا يقبل جعل «إِذْ» بمعنى «أَنْ» المصدريَّة لمخالفة الأصل وصحَّة المعنى بدونها. روي أنَّ ذلك نزل في أبي بكر رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأصنام، فتوجَّه الخطاب إلى النبيء صلى الله عليه وسلم تعظيمًا لأبي بكر رضي الله عنه، كأنَّه ما قيل له قيل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم.

﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ﴾ أضلَّته وحيَّرته، شبَّه الإضلال والتحيير في الأرض بعلاج الهوى في الأرض والتسفُّل فيها، أو بعلاج الذهاب بسرعة في المشي، قيل: أو بعلاج السقوط، وفيه تكلُّف، ولكن يناسبه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُّشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ﴾ (سورة الحج: ٢٩)، والمُراد: نردُّ ردًّا مثل الذي استهوته، أو نردُّ مماثلين للذي استهوته، واعترض بأنَّ الردَّ ليس في حال المشابهة، كما أنَّ المجيء حال الركوب في «جاء زيدٌ راكبًا». ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ جُمِع مبالغةً، فهو كالذي استهوته جماعة كثيرة من مَرَدة الجنِّ فكيف ينجو؟!. ﴿فِي الاَرْضِ﴾ متعلِّق بـ«اسْتَهْوَتْهُ» أو بـ«حَيْرَانَ»، أو حال من الهاء؛ ويضعف كونه حالاً من قوله: ﴿حَيْرَانَ﴾ أو من مستتِرِهِ، أي غير مهتد إلى الطريق، وهو مذكَّر حيرى لا حيرانة، وإلاَّ صُرِّف، وهو حال ثانية من الهاء، أو من الذي، أو من المستتر في قوله: ﴿فِي الاَرْضِ﴾ إذا علَّقناه بمحذوفٍ حالٌ من الهاء.

﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ رفقة، نعت لـ«حَيْرَانَ»، أو حال من المستتر فيه، ولا يصحُّ ما قيل من جواز أنَّه مستأنف، لأنَّه من جملة ما هو محطُّ التشبيه، فإنَّه شبَّه الراجع إلى الغواية بعد الهدى بمن استهوته الشياطين متحيِّرًا مقرونًا بأصحابٍ تزجُره عن استهواء الشياطين، وهو مُعرِضٌ عن ذلك الزجر. ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ إلى الطريق في الأرض الذي ينجي من الاستهواء، ﴿ايتِنَا﴾ قائلين:

ائْتِنَا، واترك استهواء الشياطين لك؛ أو يُقَدَّرُ: «يقولون: ائْتِنا»، ويقولون بدل من «يَدْعُونَهُ»، أو محكيٌّ بـ«يَدْعُونَهُ» متضمِّنًا معنى: يقولون.

(بلاغة) وعلى كلِّ حال لا يستجيب لهؤلاء الذين يدعونه إلى طريق النجاة في الأرض، وقد علمت أنَّ ذلك تشبيه مركَّب، وإيضاح مفرداته أنَّ الراجع إلى الشرك كالماشي إلى وراء، وكالذي استهوته الشياطين متحيِّرًا، وأنَّ أهل الحقِّ الداعين إلى الإسلام كالداعين لذلك المستهوَى إلى الطريق المنجية في الأرض، وأنَّ دين الإسلام كطريق منجية في الأرض، وسمَّى الطريق المنجية هدى مبالغةً كأنَّه نفس الرشاد، أو يُقَدَّرُ طريق الهدى، ويجوز أن يراد بالهدى دين الإسلام، فيكون تجريدًا للتشبيه.

وَمَعنَى قول الكشَّاف: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ مَرَدة الجنِّ كما تزعم العرب، إنَّ العرب تقول يحترق الجنِّيُّ بالشهاب فيظهر في الفلوات يُضِلُّ الناس حتَّى يموتوا، لا ما قيل إنَّه إنكار العرب الجنَّ وليس هو منكرًا للجنِّ. والشياطين: الكافرون من الجنِّ موَحِّدين أو مشركين؛ وَقِيلَ: نوعٌ خُلقوا من النَّار شأنهم الفساد، مِن شَطَنَ بمعنى بَعُد، فهم بعيدون عن الحقِّ، أو من شاط بمعنى احترق أو بطل.

﴿قُلِ اِنَّ هُدَى ا للهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ دين الإسلام وحده هو الهدى وغيره ضلال، وسواء الهدى الذي بمعنى البيان وهو في وسع الرُّسل وغيرهم، يعمُّ السعداء والأشقياء، ولو لم يعمَّ لم يقطع عذر عاصٍ مصرٍّ. والهدى الذي بمعنى التوفيق، وهو مختصٌّ با لله عزَّ وجلَّ، واختصَّ بالسعداء، وهذا حصر أفرادٍ

للهدَى في هدًى بالمعنى المصدريِّ، أو بمعنى ما يهتدى به بعد ما وبَّخهم وأنكر اللياقة بقوله: ﴿أَنَدْعُوا﴾.

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ هذا إلى قوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾، داخل في «قُلْ»، عطف فعليَّة على اسميَّة، ولا يضرُّ ذلك، ولا عطف إنشاء على الخبر، ولا عكس ذلك، لأنَّ الجمل المحكية كلٌّ واحدة اسم أصله جملة، كأنَّه قيل: قل كذا، وقل كذا.

(نحو) ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ مستأنفًا. واللام تعليل لـ«أُمِرْنَا...» إلخ، ويقدَّر متعلِّق آخر، أي: وأمرنا بالإسلام لنسلم، أو أمرنا بالإخلاص لنسلم، أو بقول: إنَّ الهدى هدى ا لله، أو ضمِّن «أُمِرْنَا» معنى: قيل لنا أسلموا لنسلم، وفيه كثرة التضمين. أو اللام صلة، والباء محذوفة، وفيه حذف حرف، وزيادة آخر في لفظ واحد؛ **وأولى** منه أنَّ اللام بمعنى الباء إلاَّ أنَّه غير معروف في النحو، ولا يصحُّ ما قيل حرف مصدر قائمة مقام إنَّ لعدم دَلِيل على صحَّة ذلك، ولحاجته إلى تقدير جار.

﴿وَأَنَ اَقِيمُواْ الصَّلَاَةَ وَاتَّقُوهُ﴾ لا يصحُّ العطف على «إِنَّ هُدَى ا للهِ هُوَ الْهُدَى» على أنَّ «أَنْ» تفسيريَّة، لأنَّها لا تكون بعد لفظ القول، وقولهم: «يغتفر في الثواني ما لايغتفر في الأوائل» مقصور على السماع، وحيث لا ملجأ عنه؛ بل العطف على «لِنُسْلِمَ» عطفًا على المعنى، كما يقال في غير القرآن عطف توهُّم، كأنَّه قيل: أُمرنا أن أسلموا، وأن أقيموا، لأنَّ في الأمر معنى القول لا لفظه، أو يقدَّر ومُرهم أن أقيموا الصلاة، ولكن على هذا الوجه تنقطع

الحكاية و لا بأس.

(نحو) وعلى مذهب سيبويه والفارسيِّ في جواز دخول «أَنْ» المصدريَّة على الأمر والنهي، [قلت] وهو مختار عندهم **لا عندي**، يعطف على معمول «أُمرْنَا»، أي أُمرنا بكذا، وبأن اَقيموا الصلاة واتَّقوه. وزعم بعضٌ أنَّ الأمر والنهي خارجان عن الإنشاء مع «أَنْ» المصدريَّة، فالفعل لِمُجَرَّدِ الحدث، وهذا رجوع في المعنى إلى قولي بمنع دخولها على الأمر والنهي، لأنَّ المصدر المقدَّر بعدها غير طلب، وفي ذلك تكلُّف، لكن حكى سيبويه: «كتبتُ إليه بأَنْ قُمْ»، فيجاب أنَّ المُراد: كتبت إليه هذا اللفظ.

ولا يصحُّ العطف على «لِنُسْلِمَ» لأنَّ «لِنُسْلِمَ» في تأويل المصدر دون «أَقِيمُوا». وخولف بين المتعاطفين إذ لم يجعلا أمرًا هكذا: «أُمرنا أن اسلموا وأن أَقيموا الصلاة واتَّقوه»، و لم يجعلا إخبارًا هكذا: «أُمرنا بأن نسلم وأَنْ نقيم الصلاة ونتَّقيه»، لأنَّ المأمور بالإسلام هو الكافر، والمأمور بإقامة الصلاة والاتِّقاء هو المؤمن، والكافر حال كفره بعيد عن الخطاب بإقامة الصلاة والاتِّقاء على حدِّ اتِّقاء المؤمن.

﴿**وَهُوَ الذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ تجمعون يوم القيامة للحساب على الإسلام وإقامة الصلاة والاتِّقاء، **بدأ بذكر رئيس الطاعات القلبيَّة** ويتمُّ بالتلفُّظ وهو التوحيد، **وثنَّى برئيس الطاعات البدنيَّة** وَلاَ بُدَّ من القلب معها وهي الصلاة التَّامَّة، **ثمَّ ذكر التقوى التي هي رأس ما هو من قبيل التروك والاحتراز عن كلِّ ما ينبغي**، وختم ذلك بأنَّهم يُجازون عليه يوم الحشر، وينتفعون به.

وردَّ عن عبدة الأصنام بقوله سبحانه.

﴿وَهُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قائمًا بالحقِّ والحكمة، أو الباء بمعنى اللام، أي لإظهار الحقِّ، فإنَّ صُنعه دَلِيل وحدانيَّته، فهو كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ (سورة آل عمران: ١٩١)، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ (سورة الدخان: ٣٨).

(أصول الدِّين) وقالت المعتزلة: إنَّ معنى قوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ أنَّه واقع على وفق مصالح العباد المكلَّفين، مطابق لمنافعهم، ومذهبنا ومذهب الأشاعرة **أنَّ فعل الله لا يختصُّ بمصلحتهم.**

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ واذكر يوم يقول للخروج من القبور كن فيكون، أو يقول لِكُلِّ ما يكون في اليوم الآخر كن فيكون، أو يوم يقول للنفخ في الصور كن فيكون، لا يوم يكون الصور، لأنَّ الصور موجود من أوَّل الدنيا، قيل: أو يوم يقول لهذا اليوم كن فيكون هذا اليوم، أي اذكر يومًا سيكون بإذن الله تعالى، والكون تامٌّ وفيه اتِّحاد اليوم ووقت القول، وهو لا يتَّجه، إلاَّ أن يراد باليوم المذكور في الآية وقتًا مُتَّصِلاً بيوم البعث قبله، أو خَلَقَ السماوات والأرض، وخَلَقَ يومَ يقول، عطف على السماوات أو الأرض، أو عطف على الهاء، أي واتَّقوا يوم يقول، والمُراد بقولِ كُنْ: تَوَجُّه الإرادة الأزليَّة إلى وجود شيء.

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ مبتدأ وخبر؛ أو مبتدأ خبره «يَوْمَ يَقُولُ» و«الْحَقُّ» نعته؛ أو «الْحَقُّ» فاعل «يَكُونُ»؛ أو مبتدأٌ خبرُه «يَوْمَ يَقُولُ» و«الْحَقُّ» نعته؛ أو

«الْحَقُّ» فاعل «يَكُونُ»؛ أو مبتدأٌ خبره: «يَوْمَ يُنفَخُ». ﴿**وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ**﴾ ثبت له الملك يوم ينفخ في الصور نفخة الموت، وأمَّا قبله فلِغَيْرِه املاك بحسب الظاهر، لَكِنَّ المُلك له تعالى بالحقيقة، ويوم القيامة لا مدَّعي للملك، ويختصُّ با لله عزَّ وجلَّ، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (سورة غافر: ١٦). أو «يَوْمَ» بدل من «يَوْمَ»، أو يتعلَّق بـ«تُحْشَرُونَ»، أو بـ«الْمُلْكُ»، أو بـ«يَقُولُ»، أو بـ«الْحَقُّ» الثاني، أو بقوله:

﴿**عَالِمُ الغَيْبِ**﴾ ذي الغيب، أو الغائب، أي ما غاب عن الخلق، أو عن بعضهم مِمَّا مضى أو يأتي، أو وجد من الدُّنيا والآخرة. ومَلَك النفخ واحد على المشهور، وهو اسرافيل، وفيه كلام بسيط، وفي البزَّار والحاكم عن أبي سعيد الخدريِّ عن رسول ا لله ﷺ : «**إنَّ ملكين موكَّلَين بالصور، ينتظران متى يؤمران فينفخان**». ﴿**وَالشَّهَادَةِ**﴾ ذي الحضور، أو الحاضر، أي هو عالم الغيب والشهادة.

(**نحو**) أو فاعل لـ«يَقُولُ» أو لـ«يُنفَخُ» محذوفًا مبنيًّا للفاعل دلَّ عليه المذكور المبني للمفعول، كقوله:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارع لخصومة[1]

بالبناء للمفعول ورفع يزيد، كأنَّه قيل: من يُبكيه؟ فقال: يبكيه ضارع. وقوله تعالى: ﴿يُسَبَّحُ لَهُ, فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ﴾ (سورة النور: ٣٦) في قراءة البناء للمفعول، كأنَّه قيل: من يسبِّح له؟ ــ بالبناء للفاعل ــ فقال: يسبِّح

١- هو عَجُز بيت من الطويل، وصدرُه قوله: ومختبط مِمَّا تُطيحُ الطوائحُ. وقال أكثر العلماء إِنَّهُ لنهشل بن حري. **أوضح المسالك** لابن هشام، ج٢، ص٩٣.

له رجالٌ. وقوله: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ (سورة الأنعام: ١٣٨) في قراءة بناءِ «زُيِّنَ» لمفعول ورفع «قَتْلُ»، كأنَّه قيل: من زيَّنه؟ فقال: زيَّنه شركاؤُهم.

وَمَعنَى كون الله نافخًا آمرٌ بالنفخ، وهذا الوجه ضعيف، لأنَّه لم يَرِد التوقيف بأنَّه تعالى نافخٌ حقيقة ـ حاشاه ـ أو مجازًا، خلافًا لمن أجاز الاسمَ إذا ورد الفعلُ كقوله: ﴿طَحَاهَا﴾ (سورة الشمس: ٦)، و﴿دَحَاهَا﴾ (النازعات: ٣٠)، و﴿نَفَخْنَا فِيهِ﴾ (سورة التحريم: ١٢)، و﴿نَفَخْنَا فِيهَا﴾ (الأنبياء: ٩١). أو المُراد نفخة الموت، أو نفخة البعث، وقبلهما نفخة الدهش. و«فِي الصُّورِ» نائب فاعل «يُنفَخُ». الصُّورُ: جمع صورة، أو اسم جمع؛ يجمع الله جسد كلِّ ميِّت وَيَرُدُّه في صورته، ويأمر المَلَك بالنفخ، ولا يعترض على هذا بقوله عزَّ وجلَّ، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ (سورة الزمر: ٦٨)، بتذكير ضميره، لأنَّ ما مفرده بالتاء يجوز تذكيره، لَكِنَّ الأولى أنَّه مفرد، جسمٌ مستطيل كقرن الحيوان يجمع الله سبحانه فيه الأرواح، لورود الحديث به أنَّه جسم مستطيل فيه ثقب بعدد الأرواح. قال أعرابيٌّ: ما الصور؟ قال ﷺ: «**قرن ينفخ فيه**»[1]، وقال ﷺ لأصحابه: «**كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن وحَنَى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ**». فكأنَّ ذلك ثقل عليهم، فقالوا: كيف نفعل يا رسول الله؟ وكيف نقول؟ قال: «**قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، وعلى الله توكَّلنا**». ثمَّ رأيت أَنَّ ما قلته سابقًا قول الحسن ومقاتل وأبي عبيدة.

﴿**وَهُوَ الْحَكِيمُ**﴾ صاحب الحكمة في خلقه، المصيب في أفعاله، ﴿**الْخَبِيرُ**﴾ العالم بباطن الأشياء كظاهرها، فهذا جامع لما تقدَّم، وهو كفذلكة الحساب

١- رواه **المنذري** في كِتَاب الترغيب والترهيب، فصل في النفخ في الصور وقيام الساعة، ج٤، ٣٨١. رقم ٢، من حديث أبي سعيد.

لِمَا قبلها.

وَلَمَّا أنكر على قريش عبادة ما لا يَضُرُّ ولا ينفع احتَجَّ عليهم بأنَّ إبراهيم عليه السلام الذي هو أبوكم وتدَّعون أنَّكم على ملَّته، لا يعبد إلاَّ الله ولا يعرف سواه، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾

الجدال بين إبراهيم عليه السلام وبين آزر

﴿وَإِذْ﴾ مفعول لـ«اذْكُرْ» محذوفًا معطوفًا على «قُلْ»، أي: قل لهم أندعو واذكر إذ ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ (تَارِخ) بالخاء المعجمة في التوراة كما في تاريخ البخاري الذي أَلَّفه في المدينة إلى ضوء القمر ـ حسبما قيل ـ وبالمهملة عند بعض؛ وَقِيلَ: تيرح، آزر اسم وتارِخ بالمعجمة لقب، أو بالعكس، والأوَّل أولى لِمَا روي أنَّه كان يعبد صنمًا اسمه آزر فسمِّي به، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ

نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ (سورة الإسراء: ٧١)، وقدَّر بعض: لأبيه عابدِ آزر؛ وَقِيلَ: «آزَرَ» صنمٌ مفعول لمحذوف، أي: أتعبد آزر؟، وقرَّره بقوله بعد ذلك: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا...﴾. وأبو إبراهيم سمَّى ذلك الصنم آزر.

ويقال: إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح؛ وَقِيلَ: اسمه تارخ. ولـمَّا كان مع نمروذ قيِّمًا على خزائن آلهته سمَّاه آزر، والقيِّم على الخزانة يقال له في لغتهم آزر، وهو كُوثَى بضمِّ الكاف، قرية في سواد الكوفة. و«ءَازَرَ» عطف بيان أو بدل، أو نصب على الذمِّ، ومنع الصرف للعَلَميَّة والعُجمة، ووزنه أفعل أو فاعَل بفتح العين، أو هو من الأزر أو الوزر، فمنع للعلميَّة ووزن الفعل، وهو أفعل، أو أصله المخطئ أو المعوَّج أو الهرم، وجُعل علَمًا وليس نعتًا فمنع أيضًا للعلميَّة ووزن الفعل وهو أفعل.

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ توبيخ على عبادة الأصنام وإنكار للياقتها. وكان من كنعان وهم معتقدون لإِلَهِيَّة النجوم في السماء، وإِلهيَّة الأصنام في الأرض، يجعلون للنجوم صنمًا يعبدونه فيشفع لهم إلى النجم فيقضي لهم.

(سيرة) وجميع أجداد النبيء ﷺ، منزَّهون عن عبادة الأصنام، ومن عبدها منهم عبدها بعد أن خرج ﷺ منه، فلا حاجة إلى دعوى أن آزر جدَّه ولو كان الجد أبًا، ولا إلى دعوى أنَّ آزر عمَّه والعمُّ يسمَّى أبًا كما في الحديث، وأنَّ أباه مؤمن، وجاء أنَّ العمَّ أب في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ (سورة البقرة: ١٣٢)، إلى أن قال ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾، وهو عمُّه لا أبوه ولا جدُّه ومع ذلك أدخله في الآباء. قال محمَّد بن كعب: الخال والد والعم

والد، وتلا هذه الآية. قال ﷺ في العَبَّاس: «**ردُّوا عليَّ أبي**»، [قلت] ذلك كلُّه صحيح لا بأس به لقيام الدليل، وأمَّا آزر فأيُّ دَلِيل على تفسيره بالعمِّ حتَّى يخرج عن ظاهر الآية؟. وأمَّا قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُومِنِينَ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٣)، فقد قال الله عزَّ وجلَّ فيه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ...﴾ (سورة التوبة: ١١٥)، وأمَّا قوله ﷺ: «**لم أزل أُنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات**» فَالمُرَادُ فيه الطهارة من الزنى، وإن زنى بعض فبعد خروجه ﷺ منه، وجاء الحديث: «ولدت من نكاح في جميع نسبي كنكاح الإسلام»، وأمَّا قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢١٩)، فَالمُرَادُ فيه طوافه على أصحابه ليلاً وهم يصلُّون ليرى حالهم، أو سجوده في الصلاة بهم، أو معهم، أو نظره فيمن يصلِّي خلفه.

والصنم: ما يتَّخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو نحاس أو ذهب أو فضة، أو غير ذلك على صورة الإنسان. ﴿**إِنِّيَ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ**﴾ الذين اجتمعت معهم في اتِّخَاذ الأصنام آلهة ﴿**فِي ضَلَالٍ**﴾ عن الحقِّ الإلهيِّ، وعمَّا يقتضيه العقل ﴿**مُّبِينٍ**﴾ ظاهرالضلالة. قيل: الجملة مجرَّد إرشاد لا توبيخ وتعيير، لئلاَّ يكون قد أساء الأدب مع أبيه، نعم هي تعليل للإنكار، والتوبيخ في قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾، حتَّى إنَّه قيل: لو كان أباه لم يُغلِظ، فالتغليظ دَلِيل أنَّه ليس أباه، وفيه أنَّ العمَّ يعامل بما يقرب من التغليظ لا بالتغليظ، وفيه: أنَّه لا بأس بمثل هذا التوبيخ والتعيير في اللفظ، وليس هذا تغليظًا موصولاً إلى الجفاء والنفرة، وأيضا إبراهيم حكيم، ولعلَّه ظهر له أنَّ الكلام الشديد يُؤَثِّرُ فيه والغيب لله عزَّ وجلَّ، قال المعرِّي:

اِضربْ وليدك وأذْلِلْـهُ على رُشْد ولا تقـل هـو طفـل غـير محتلـم

فـربَّ شـقٍّ بـرأس جـرَّ منفعـة وقس على شقِّ رأس السهـم والقلم

فقد وبَّخ وعيَّر بقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنامًا ـ اِلهَةً﴾، والرؤية بصريـَّة، إذ رأى بعينه جوارحه تكسب ما هو معصية، أو هي عِلْمِيَّة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ أي مثل رؤية إبراهيم أباه وقومه في الضلال المبين صيَّرناه رائيًا ملكوت إلخ... أو الأمر كذلك، أي كما رآه من ضلال أبيه وقومه، أو كما رآهم في الضلال المبين أريناه إيَّاهم فِيهِ، أي على الوصف المذكور، وفي الوجهين التوكيدُ وانقطاعُ «نُرِي إِبْرَاهِيمَ» عمَّا قبله والتأسيسُ، ووصلُ «نُرِي إِبْرَاهِيمَ» أولى، وهذا الوجه هو الأوَّل، ويليه أن يُقَدَّرَ: وكما أريناك يا محمَّد الهداية وضلال قومك أرينا إبراهيم الهداية وضلال أبيه وقومه، وفيه قطع «نُرِي» عمَّا قبله، وإن قدِّر: كما أريناك الهداية وضلال قومك أرينا إبراهيم ملكوت، كان مُتَّصِلاً، لكن فيه مقابلة إراءته ﷺ ذلك بإراءة إبراهيم ملكوت، ووجهه أنَّ إراءة الملكوت من لوازم الهدى ومسبِّباته، وكذا في الوجه الأوَّل، إلاَّ أنَّه تقوى بأنَّ الإراءة والرؤية قبلها كلتيهما في إبراهيم.

وإراءة إبراهيم مِن رَأَى بمعنى عرف، أو بصريَّة، والرؤية سبب للمعرفة وملزومة لها، وعلى كلٍّ لها مفعول واحد، ولكن تعدَّت لاثنين بالهمزة؛ وَقِيلَ: المشبَّه التبصير، من حيث إنَّه واقع، والمشبَّه به التبصير حيث إنَّه مدلول اللفظ، ومثله وصف النسبة بالمطابقة للواقع وهي عين الواقع، وبأمثال ذلك نتخلَّص من ظاهر تشبيه الشيء بنفسه.

(قصص) وقف على صخرة بإذن الله تعالى فكشف له عن العرش والكرسيِّ والسماوات وما فِيهِنَّ من العجائب والحِكم، ومكانه في الجَنـَّة، وعن الأرضين وما فِيهِنَّ وما تحتهنَّ وما في ذلك من العجائب والحِكم، وروي أنَّه رفع إلى جهة السماء ورأى رجلاً يزني فدعا عليه فأهلكه الله، ثمَّ آخر يسرق فدعا عليه فمات، وآخر على معصية فأراد الدعاء عليه فأوحى الله إليه: [**دع عنك عبادي وإنَّك رجل مستجاب، فإمَّا أن أتوب على عبادي، وإمَّا أن أُخرج منهم من يعبدني، وإمَّا أن أُعذِّبه في الآخرة**].

واسم الإشارة عائد إِلَى الرؤية أو الإراءة، فإنَّما ذكر بتأويل البصر أو التبصير. و«نُرِي» لحكاية الحال الماضية في زمان إبراهيم لتكون كالمشاهدة عند سيِّدنا محمَّد ﷺ. رأى إبراهيم عليه السلام ضلال أبيه وقومه، فجازاه الله بإراءة ملكوت السماوات والأرض، وهذا المعنى إِنَّمَا يتمُّ بجعل الإشارة إلى رؤية إبراهيم ضلال أبيه وقومه، أو إراءة الله إيَّاه ذلك، ويُجعل «نُرِي إِبْرَاهِيمَ» مُتَعَلِّقًا بذلك لا منقطعًا.

والملكوت: الملك الخفيُّ، أو ما يتضمَّنه الملك الظاهر كالغلَّة التي تكون من الماء والنار في الأحجار، أو الملك العظيم، وقد قيل: الملكوت الشمس والقمر والنجوم والأشجار والجبال والبحور، والمُراد: إراءة حِكَمها وحقائقها، واللفظ مختصٌّ بالله جلَّ وعلا؛ وَقِيلَ: يجوز لغيره، مثل أن تقول: لفلان ملكوت الأقاليم، أو لفلان ملكوت المغرب، أو لفلان ملكوت العراق أو اليمن، وعلى كلِّ حال الواو والتاء زائدتان للمبالغة، وقد فسَّر بعضهم الملكوت بالعجائب والبدائع فهي بالقلب، وتجوز بالبصر الموصل للعقل. وجعل بعضهم الكاف

للتعليل وعلَّقها بـ«نُرِي» فيعطف على ذلك قوله:

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أي نُريه ملكوت السماوات والأرض لذلك وليكون من الموقنين، وإن أبقيناها على التشبيه فالعطف على محذوف، أي ليستدلَّ وليكون من الموقنين، أو: وأريناه ذلك ليكون من الموقنين، فحذف مدخول الواو العاطفة. واليقينُ: علمٌ يحصل بعد زوال الشبهة بالنظر والتأمُّل أو بالمشاهدة.

﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ أظلم ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ وستره بظلامه، وهذه القصَّة في بابل؛ وَقِيلَ: قرب حلب، جادلهم على سبيل الترقّي لعلّهم يذعنون ولا ينفرون، فإنَّ كونه عليه السَّلام لا يحِبُّ الآفلين دون كونهم ضالّين، وكونهم ضالّين دون البراءة منهم والإشراك.

والفاءات في القصَّة للترتيب الذكريِّ، أو كما قال ابن هشام: إنَّ التعقيب في كلِّ شيء بحسبه، والنجم في ليلة والقمر في ليلة والشمس تطلع في يوم بعد ليلة، ولا يتصوَّر أن يرى الكوكب بعد ما جنَّ الليل ويغيب، ويطلع القمر بعد غيوب النجم ويغيب القمر قبل فجر يومه، أو قبل طلوع شمسه إلاَّ إن فسَّرنا غيوب القمر بذهاب نوره بنور الشمس، فيتصوَّر ذلك في ليلة ويومها. وعن ابن عبَّاس: رؤية القمر آخر النهار. وروي أنَّه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء. وهذا تفصيلٌ لقوله: ﴿نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾. فَالمُرَادُ بالملكوت ما فصل بهذه الآية، والعطف على «نُرِي» بدليل الفاء، وهو الراجح، أو عطف على قوله: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾، عطف دَلِيل على مدلوله، قيل: هذا أحسن.

﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ جواب «لَمَّا»؛ أو حال من الهاء والجواب هو قوله: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وعلى الأوَّل يكون هذا جواب سؤال، كأنَّه قيل: ما صنع حين رأى كوكبًا؟ فقال: قال لقومه: هذا الكوكب ربِّي في زعمكم، أو قاله على الاستدلال، أو يقولون: هذا ربِّي، وكذا فيما بعد، وهو الزُهَرة بضمِّ الزاي وفتح الهاء في السماء الثالثة، أو المشتري في السماء السادسة.

(قصص) كان قومه يعبدون النجوم ومنها الشمس والقمر، وكانوا ينظرون في علم النجوم ويعبدونها ليتوصَّلوا بها إلى مقصودهم، أو يعبدون الأصنام ليتوصَّلوا بها إلى النجوم، أو بالنجوم إلى الملائكة وبالملائكة إلى مقصودهم، وأنكروا الله، وجعلوا الأفلاك والنجوم قدماء لا أوَّل لها ولا آخر، فاتَّخذوا لِكُلِّ نجم مخصوص صنمًا وجعلوا صنم الشمس من ذهب، وصنم القمر من فِضَّة، ومن الكفرة من يثبت الله ويقول إِنَّه فوَّض أمر الأرض إلى الكواكب فعبدوها، وقالوا إنَّها تعبد الله، وأهل الهند والسند يثبتون الله - إلاَّ أنَّهم مجسِّمة - والملائكةَ وصنمًا لِكُلِّ ملك مخصوص يعبدونه ليتوصَّلوا إلى الملك والملك يعبد الله، والله فوَّض لِكُلِّ ملك أمرًا.

(أصول الدين) والمذهب أنَّ الأنبياء عليهم السَّلام لا يعصون الله بصغيرة ولا كبيرة قبل البعثة ولا بعدها، بعد البلوغ ولا قبله، فإنَّما قال: «هَذَا رَبِّي» على سبيل الوضع، أعني على فرض كلام الخصم ليرجع عليه بعد استفراغ ما عنده بالرَّدِّ، فيكون أبلغ في الاحتجاج وأدعى إلى الإذعان، كما قال «هَذَا رَبِّي» محاكاة لِمَا عندهم، ورجع عليهم بقوله: لا أطلب إلاَّ الله، وقد مدحه الله بهذه المحاجَّة في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا...﴾، وكان محاجًّا لقومه إذ راهق، أو قاله

على وجه الاستدلال لنفسه حال الصغر، كأنَّه يخاصم إنسانًا، والفاء تدلُّ على الأوَّل وأنَّه قاله بعد أن كان من الموقنين، ويدلُّ له أيضًا قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَاهَا...﴾، و لم يقل: آتيناها إبراهيم على نفسه، وقد يقال: الأنبياء موقنون من صغرهم قبل المراهقة، وأنَّ ما احتَجَّ به على نفسه حجَّة على قومه في نفس الأمر. وَقِيلَ: بتقدير همزة الاستفهام، أي أهذا ربِّي؟ على طريق الإنكار والتحقير، كما قدَّره ابن عبَّاس في قوله تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (سورة البلد: ١١)، وفي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ (سورة الشعراء: ٢١). وَقِيلَ: قال إبراهيم ذلك استهزاء؛ وَقِيلَ: كان يناظرهم فطلع النجم فقال: «هَذَا رَبِّي»، أي هذا الربُّ الذي تعبدون، وهذا لا يكفي لأنَّه يحتاج إلى ما مَرَّ أيضًا من التأويل بتقدير الاستفهام أو بغيره.

(صرف) ووزن كوكب " فوعل " فالزائد الواو، والأصول الكافان والباء؛ وَقِيلَ: فعفل بزيادة الكاف الثانية تكريرا للأولى، وفيه أنَّ الأصل في الزيادة الواو لا الكاف. و لم يقل الله جلَّ وعلا رأى كوكبًا بازغًا، لأنَّه رأى الزهرة في جهة الغرب ليلاً، أو رأى المشتري في أيِّ موضع من السماء ليلاً، وخصَّ أحدهما لقوَّة ضوئه. ولِتقدير: «في زعمكم»، أو «تقولون» نظَائرُ، كقوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ﴾ (سورة الفرقان: ٧)، ﴿إِنَّ رَسُولَكُم﴾ (سورة الشعراء: ٢٦)، ﴿انظُرِ اِلَىٰٓ إِلَهِكَ الذِي...﴾ (سورة طه: ٩٦)، ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (سورة الدخان: ٤٦)، وكقوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ (سورة البقرة: ١٢٥)، أي يقولان.

﴿**فَلَمَّآ أَفَلَ**﴾ أي غاب ﴿**قَالَ لَآ أُحِبُّ الاَفِلِينَ**﴾ لا أحب إثبات رُبُوبِيَّة الآفلين، أو لا أحبُّ الآفلين مطلقًا في الانتفاع لنقصهم، فضلاً عن أن أتَّخذهم

أربابًا، أو لا أحبُّ عبادة الآفلين، أو لا أحبُّ رُبُوبِيَّة الآفلين، أو كنَّى بانتفاء الحبِّ عن انتفاء الربوبيَّة والعبادة.

(أصول الدِّين) والكوكب آفل وكلُّ آفل حادث، وكلُّ حادث محتاج إلى محدث، وكلُّ ما احتاج إلى محدث ليس بإله، لأنَّ الإله هو الموجود الذي تنقطع به سلسلة الاحتياج، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ (سورة النجم: ٤٢). والكوكب متحرِّك، وكلُّ متحرِّك جسم، وكلُّ جسم مركَّب، وكلُّ مركَّب حادث. والكوكب جسم، وكلُّ جسم محلٌّ للحوادث، وأيضًا كلُّ جسم محتاج إلى حيِّز فهو ممكن لا واجب، إذ الواجب بالذَّات يستحيل حلوله في المكان لحدوث المكان، والكوكب يحتاج في انبساط ضوئه إلى عدم ساتر، والمحتاج ممكن، والممكن حادث، وكقولك: هَذَا النيِّر آفل ولا شيء من الإله بآفل، أو ربِّي ليس بآفل فهذا النيِّر ليس بإله أو ليس بربِّي. وقولنا هذا النيِّر آفل قَضِيَّة شَخصِيَّة وهي في حكم الكُلِّيَّة وذلك من الشكل الثاني. أوالإله يستحقُّ العُبُودِيَّة ولا شيء من الآفل يستَحقُّها فهذا ليس إلهًا، وليس يراقب الكوكب الليل حتَّى يغيب لم يفته ملاحظته حتَّى غاب، وكذا القمر والشمس رآهما طالعين وغائبين.

﴿فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ مبتدئًا في الطلوع، مِن بَزَغَ بمعنى ظهر، كبَزَغَ النابُ بمعنى ظهر، أو بَزَغَ بمعنى شقَّ، فإنَّه شقَّ الظلمة، أو من بزغ بمعنى سال، كأنَّ ضوءه سال وانتشر. ﴿قَالَ﴾ لهم أو لنفسه، أو قال: يقولون، ﴿هَـٰذَا رَبِّي﴾ أوَهذا ربِّي في زعمكم؟ أو بطريق الاستدلال، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن﴾ والله لئن ﴿لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ يعني الله، أي لئن لم يثبتني على الهدى لأنَّ أصل الهدى من حين كان حَيًّا في البطن وما زال يزداد، فليس المُرَاد لئن لم يعطني

ربِّي الهدى ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ﴾ تلويح بقومه، أو لمطلق من لم يكن على ما كان عليه بأنَّهم على ضلال، جادلهم بأفول الكوكب، أو استدلَّ، ولمَّا يؤثِّر فيهم، أو فرض أن لا يؤثِّر وهو مستدلٌّ، استدلَّ ببزوغ القمر وأفوله، ولمَّا لم يُؤَثـِّر أو فرض عدم التأثير جادلهم بأُفول الشمس، كما قال:

﴿فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي﴾ في زعمكم، أو بطريق الاستدلال، أو قال: يقولون هذا ربِّي، وذَكَّر الإشارة لأنَّ الخبر غير مؤنَّث وهو الراجح في المؤنَّث المخبر عنه بالمذكَّر.

(أصول الدِّين) ولأنَّ الله سبحانه منزَّه عن صيغة التأنيث، يقال: الله خلاَّق وعلاَّم، لا خلاَّقة وعلاَّمة بالتاء مع أنَّها آكد، **وعندي:** لا يجوز في الله أن تقول: الذَّات الواجبة بل الواجب بلا تاء، وينبغي أن لا يطلق عليه الذَّات أيضًا لأنَّه لفظ تأنيث، لكن جرى التعبير به، والصواب أن يقال: الشيء الواجب بالنفس أي لا بغيره، فإنَّ الصحيح جواز إطلاق النفس على الله. أو ذَكَّر الإشارة لأنَّ الشمس نجم، أو أراد هذا الجسم البازغ.

﴿هَـٰذَآ﴾ ذكَّره لتأويل النجم، أو هذا الجسم البازغ، لا لتذكير الخبر لأنَّ هذا الخبر المذَّكر لا يذكَّر له المؤنّث، لأنّه اسم تفضيل شأنه ذلك لتنكيره، تقول في المرأة هذه أكبر، لا هذا أكبر، ولا صحَّة لقول من قال إنَّه لا تأنيث في لغة العجم لاسم الإشارة، ولا لقول من قال: إن الإضافة مقلوبة في لغة العجم، فإنَّ الذي شاهدناه غير ذلك في أكثر اللغات، [قلت] ونسبي في بني عديٍّ من العرب، ولساني بربريٌّ موافق للعربيَّة كلِّها إلاَّ قليلاً. ولا يذكر في العربيَّة شيء

من ألفاظ العجميَّة ولا من قواعدها إلاَّ الأسماء.

﴿أَكْبَرُ﴾ من الكوكب والقمر جرمًا وضوءًا ونفعًا وتأثيرًا بإذن الله، فلعلّها الربُّ بطريق الاستدلال، أو في زعمكم، ويقال: الشمس مائة وستَّة وستون مثلاً وربع وثمن مثل الأرض، وستَّة آلاف وستمائة وأربع وأربعون مثلاً وثلثا مَثَلٍ للقمر، وأنَّ الأرض تسعة وثلاثون مثلاً وخُمُس وعُشُر مثلٍ للقمر.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ﴾ لنفسه كأنَّه يخاطب قومه بحضرتهم وهم غائبون، وهذا على طريق الاستدلال، أو خاطبهم تحقيقًا وهو المتبادر من قوله: «يَا قَوْمِ»، وعلى كلِّ حال لـمَّا قويت الحجَّة في الاستدلال أو في خطابه قومه صرَّح بالبراءة من دين قومه.

﴿يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من إشراككم، أو من الأشياء التي تشركونها بالله سبحانه وتعالى، من الشمس والقمر والكوكب والأصنام والآدميِّين، كما أنَّ الأب عندهم ربٌّ لزوجه، وهي ربٌّ لولدها، ونمرود ربٌّ لهم لعنهم الله، والمخلوق العاجز المحدث كيف يكون إلهًا؟، وإنَّما الإله هو القديم الموجدُ لغيره على أنواع من الجائزات يخصُّه بها زمانًا ومكانًا وذاتًا وأحوالاً، وسائر العوارض، **وأفعاله تدلُّ على صفاته وذاته.**

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ حَنِيفًا﴾ هذه استعارة تمثيليَّة، شبَّه إعراضه عن المعاصي والشرك وما لا نفع فيه، واشتغاله بالطَّاعة والتوحيد وما فيه نفع بجعلِ الوجه مستقبلاً لخالق السماوات والأرض، وهو منزَّه عن الجهات، ومائلاً عن سائر الجهات. واللام على أصلها أو بمعنى

«إلى»، وجرَّدها بقوله:

﴿وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ با لله شيئًا، أو ذلك استعارة بالكناية، و«مَـآ أَنَـا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» رمـزٌ إلى المـُراد، أو ذلـك حقيقـة، أي صرفـت قصـدي لعبـادة الذي خلق السماوات والأرض حنيفًا، أي مائلاً إلى توحيده وعبادته خاصَّة.

وإنَّـما احتَجَّ بالأفول دون البزوغ مع أنَّ في البزوغ ما في الأفول من الدلالة على الحدوث بالحركة المنافية للربوبيَّة، لأنَّ الأفول فيه دلالة على الحدوث بهـا، وبالاحتجاب والغيبة، والبزوغ يـدلُّ علـى الحركـة فقـط، ولم يعتـبر الاحتجـاب الذي قبل البزوغ لأنَّ الاحتجاب يكون بعد الظهور، فلعلَّه حدث البزوغ بـدون احتجاب، أو اقتصر على الأفول لأنَّـه أوَّل مـا تحقَّـق لـه في مناظرتـه؛ ولـو كـان البزوغ صالحًـا أيضًا للاستدلال فإنَّه لاَ بُدَّ من ظهور بعد خفاء ولو بوجود بعـد عدم، على أنَّ المعدوم خفيٌّ أيضًا، بمعنى عدم ظهوره، والأفول أَعَمُّ.

(قصص) كان نمرود لعنه ا لله أوَّل من وضع التاج على رأسه، ودعا النـاس إلى عبادته، وأخبره كهنته ومنجِّموه أنَّه يولد في هذه السنَة في بلدك من تهلك بِهِ، ويزول ملكك بـه، أو رأوا ذلـك في بعـض كتـب الأنبيـاء، أو رأى في نومـه نجمًـا طالعًا مضيئًا مذهبًا لضوء الشمس والقمر كُلِّه، ففزع وسأل الكهَّان، وأمـر بذبـح كلّ غلام يولد في ناحيته، وعزل الرجال عن النساء، وجعل على كلِّ عشرة رجلاً يمنعهم عن نسائهم، وإذا حاضت خلاَّه، إذ لا يجامعون في الحيض، وحَبَس الحبالى عنده إلاَّ أمَّ إبرهيم فصغيرة لا تـتَّهم بالحمل، وخـرج بالرجـال إلى العسـكر تخوُّفًـا عن الجماع، فظهرت لـه حاجـة لم يـأمن عليهـا إلاَّ آزر فحلَّفـه، فقـال: أنـا أشحُّ بديني، فرجع فقضـى حاجـة نمـرود، ودخـل علـى زوجتـه لينظـر إليهـا، فجامعهـا

فحملت بإبراهيم، فقال الكهان والمنجمون: إنَّ الغلام حمل به الليلة، فأمر بذبح كلِّ من ولد، ولـمَّا قربت ولادتها ذهبت إلى نهر يابس، أو مغارة فولدته، ولفَّته في خرقة ووضعته في حلفاء، وأخبرت زوجها بموضعه، وحفر له سربًا في النهر وسدَّ عليه، أو سدَّ عليه في المغارة بصخرة، أو سدَّت هي عليه فيها، وكانت تختلف عليه فتجده يمصُّ من أصبع ماء ومن أصبع لبنًا ومن آخر سمنًا ومن آخر عسلاً ومن آخر تمرًا؛ وَقِيلَ: قالت لآزر: ولدت ولدًا فمات، وصدَّقها، وكان يشبُّ في اليوم كالشهر، وفي الشهر كالسنة، ومكث في الغار خمسة عشر شهرًا، أو سبع سنين، أو ثلاث عشرة، أو سبع عشرة سنة، وقال لأمِّه: أخرجيني فأخرجته عِشاءً، فتفكَّر في السماوات والأرض والسماء والنجوم، فكان ما ذكر الله عزَّ وجلَّ عنه من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيلُ...﴾، ورجعت به إلى أبيه وقالت أنَّه ابنه، وأخبرته بما فعلت، ففرح، وقالت: إنَّه الغلام الذي ذكر الكهنة، وقال: يا أُمِّي، من ربِّي؟ قالت: أبوك. قال: فمن ربُّ أبي؟ قالت: أسكت، وقال لأبيه: من رَبِّي؟ قال: أمُّك. قال : من ربُّ أُمِّي؟ قال: أنا. قال: من ربُّك؟ قال نمروذ. قال: من ربُّ نمروذ؟ فلطمه، وقال: أسكت.

وَقِيلَ: رأى الكوكب من خلل الصخرة؛ وَقِيلَ: قال لهما: أخرِجاني، فأخرجاه في مغيب الشمس، فرأى الإبل والخيل والغنم، فسأل عنها أباه، فقال: إبل وخيل وغنم، وقال له ولأمِّه: لاَ بُدَّ لهذه ولنا من خالق ورازق لا ربَّ غيره، فرأى المشتري قد طلع؛ وَقِيلَ: الزهرة، من آخر الشهر آخر طلوع القمر، كذا قيل، وفيه أنَّه لو كان كذلك لم يره آفلاً، اللهمَّ إلاَّ بتخصيص له.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝٨٣﴾

المحاجَّة بين إبراهيم وقومه

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ جادلوه في الأصنام ونفى ألوهيتَّها حين شهر أمره جدال تهديد، وجادلهم جدال برهان، أو جادلوه بمثل: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾ (سورة الزخرف: ٢٢)، ومثل: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ (سورة ص: ٥)، وإنَّك وقعت أو تقع في الآفات حين طعنت فيها، مثل: ﴿إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ (سورة هود: ٥٣). وكان أبوه آزر يصنع الأصنام ويعطيه إيَّاهَا ليبيعها، فيقول: من يشتري ما يَضُرُّه ولا ينفعه، فلا يشتريها أحد، فيذهب إلى نهر فيضرب رؤوسها ويقول لها: اشربي، استهزاء بهم. وحلَّ له أن يمسكها لأنَّه أراد إظهار بطلانها، وفشا فيهم ذلك فحاجُّوه.

﴿قَالَ أَتُحَآجُّونِي فِي ا للهِ﴾ في توحيد ا لله، حذفت نون الرفع لتوالي مثلين وفيه عمل واحد، أو نون الوقاية لتطرُّفها، والحذف بالآخر أليق، لأنَّه محلُّ التغيير، ولحصول التكرير بها، ولأنَّ الأُولى نابت عن الضَّمة، ولأنَّها تحذف للجازم والناصب، وفيه عملان حذف نون الوقاية وكسر نون الرفع للياء.

﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ إلى توحيده وهو الحقّ، والجملة حال من الواو والربط بالواو، أومن لفظ الجلالة أو من الياء والربط بالواو والضمير.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ لا أخاف ما تشركونه من الأصنام ﴿بِهِ﴾ با لله، أن تضرَّني، لأنَّها لا تقدر على ضرٍّ ولا على نفع، أو لا أخاف مَضَرَّتها لأنَّها لا تحصل، كقوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾(سورة هود: ٥٥)، أي أنتم وأصنامكم لا قدرة لكم، أو فكيدوني بها. والجملة حال من ياء «هَدَانِ» المحذوفة المدلول عليها النون وكسرها، أو من مستتر، وعلى قول: إنَّ المضارع المنفيَّ بـ«لاَ» كالمثبَت لا يقرن بواو الحال كالمثبت يُقَدَّرُ: وقد لا أخاف، أو وأنا لا أخاف؛ أو معطوفة على «قَدْ هَدَانِ». ﴿إِلآَّ أَنْ يَّشَآءَ رَبِّي شَيْـئًا﴾ من المَضَرَّة، فإنَّه الذي يضرُّني لا أصنامكم. فالاستثناء منقطع، أي إلاَّ مشيئة ا لله فإنَّها المعتبرة، فإن حصل ضرٌّ فمن ا لله لا [مِن] جهةِ إنكار الأصنام. وليس تقدير: «وقتًا مَّا إلاَّ وقتَ مشيئةِ ربِّي شيئًا يخاف» على أنَّ مصدر «يَشَاء» نائبًا عن الزمان مدخلاً له في الاتِّصَال، لأنَّها لا تضرُّه البتَّة، ولم يقض ا لله لها قوَّة أو قدرة على الضُّر البتَّة، إلاَّ أن يراد: ﴿إِلآَّ أَنْ يَّشَآءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ يقدِّرها أن تصيبني به، بأن يخلق لها تميزًا وكيدًا. والمصدر الصريح هو الذي يصحُّ أن ينوب عن الزمان، وقال ابن جنِّي: ينوب عنه المؤوَّل أيضًا.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسع علم ربِّي كلَّ شيء؛ أو وسع ربِّي كلَّ شيء وسعًا، أي كفى؛ أو علم ربِّي كلَّ شيء علمًا، والجملة تعليل لقوله: ﴿إِلآَّ أَنْ يَّشَآءَ رَبِّي شَيْئًا﴾، أي لاَ بُدَّ من اعتبار مشيئة ربِّي لأنَّه القادر

على كلِّ شيء والكافي، أو لأنَّه العالم بِكُلِّ شيء. ومن كذلك تُخاف مضرَّته. ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ وَسْعَ ربِّي كلَّ شيء علمًا، فتعلموا أنَّه القادر، وأنَّ توحيده الحقُّ، والتقدير: أتعرضون عمَّا أوضحت لكم فلا تتذكَّرون؟.

﴿وَكَيفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُم﴾ تعجُّب وإنكار أن يخاف ما أشركوه بالله عزَّ وجلَّ أن يضرَّه، وهذا نفي للخوف، وليس متكرِّرًا مع قوله: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾، لأنَّ قوله: ﴿وَلاَ أَخَافُ﴾ نفي للخوف على جهة الإخبار بما في نفس الأمر، من أنَّه لا خوف عنده من جهة الأصنام، وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ نفيٌ للخوف بطريق الاستدلال الإلزاميِّ، أي يلزم من عدم خوفكم من الإشراك بالله كما قال:

﴿وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمُ, أَشْرَكْتُم بِاللهِ﴾ في العبادة، ذكر لفظ الجلالة هنا دون ما قبله لأنَّ المُراد هنا تهويل الأمر، والمشرك به أدخل في ذلك؛ وَقِيلَ: لأنَّه لو ذكره فيما قبله لكان كالمتكرِّر ما هنا فاختصر بالحذف، وأيضًا لم يذكره قبله إشارة إلى بُعدَ وحدانيَّته عن الإشراك فلا ينبغي ذكره مع لفظ الإشراك، ولـمَّا ذكر حال المشركين الذين لا ينزِّهونه عند الشرك ذكره [أي لفظ الجلالة]. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي لا أخاف من أصنامكم، على أنَّ الجملة هذه مع صدرها المحذوف حال، أي كيف أخافها وأنتم لا تخافون الله؟!.

(نحو) وقدَّرتُ المبتدأ لأنَّ المضارع المنفيَّ بـ«لاَ» كالمثبت لا يقرن بواو الحال، واختار بعض جواز قرنه بها، وإن عطفت على «أَخَافُ» انسحب عليها التعجُّب والإنكار فيكون متعجِّبًا من أن يليق به خوف الأصنام، ومن لياقة ألاَّ

يخافوا من الإشراك به تعالى، [قلت] وأنا أشترط في العطف اتِّحاد المسند إليه في الجملتين، وبين الخوفين فرق، فإنَّه نفى عن نفسه الخوف من ذات الأصنام، ونفى عنهم الخوف من الإشراك، لا من الله، إذ لو قال: كيف أخافهم وأنتم لا تخافون الله؟ لكان معادلاً لله بها، فالهاء في «بِهِ» عائد إلى «مَا لَمْ يُنَزِّلْ»، وهو ما يعبدونه من الأصنام على حذف مضاف، أي بإشراكه؛ وجاز عوده إلى الإشراك المقيَّد بتعلُّقه بالموصول على قول الأخفش بجواز الاكتفاء في الربط برجوع العائد إلى ملابس صاحبه.

و«سُلْطَانًا»: حجَّةً من وحيٍ في كتاب أو بلا كتاب، ومن دَلِيل مطلقًا ولو عقليًّا، مع أنَّ الدليل الموحى بِه والعقليَّ أن لا يعبد مع الله غيره، لأنَّه وحده الخالق القادر الضارُّ النافع فلا يشرك معه غيره.

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والمشركين ﴿أَحَقُّ﴾ أي حقيقًا، فهو خارج عن التفضيل، ويجوز إبقاؤه عليه كأنَّه لهم حقيَّة مَّا تنزيلاً[1] لهم عن شدَّة المكابرة. ﴿بِالاَمْنِ﴾ في الآخرة من عذاب الآخرة، المؤمنون لإيمانهم أم المشركون لإشراكهم؟. قيل: لم يقل: «أيُّنا أنا أم أنتم» لأنَّه في صورة تزكية النفس؛ وَقِيلَ: للتأكيد إلجاء إلى الجواب بالتنبيه على علَّة الحكم، والعدول عن خطابهم في ذلك فإنَّه يؤدِّي إلى اللجاج، [قلت] وإنَّما قدَّرتُ على هذا: «أنا» وبعضٌ: «نحن» لأنَّ إبراهيم مؤمن وحده، ولو فرض تقدير «نحن» لكان المُراد نوع مَن يؤمن ولو لم يوجد منه في ذلك الوقت إلاَّ هو، و«أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ» صيغة

١- قوله: «تنزيلا لهم» كذا في النسخ، وَلَعَلَّ الشيخ يقصد بكلمة «تنزيلا» الإطاحة بهم وتحقيرهم.

إنصاف، وهي أدعى للقبول، وأمّا ﴿وَإِنَّآ أَوِ إِيَّاكُمْ﴾ (سورة سبأ: ٢٤) فلنكتة.

﴿إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ﴾ أي تعرفون ما يحقُّ أن يخاف، أو تعرفون من هو أحقُّ بالأمن منه؛ أو إن كنتم من ذوي العلم، فلا مفعول له على هذا. والجواب محذوف، أي فأخبروني، أو فاتّبعوني، أو أغنى عن جوابه قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ بحسب المُراد، لأنَّ المعنى إنكار كون فريق الإشراك أحقَّ بالأمن، وأنت خبير أن «أَحَقُّ» خارج عن التفضيل، وليس المُراد: أيُّنا أحق من الآخر؟ لأنَّه لا شيء من الأمن للمشرك، إلاّ أن تنزَّل معهم إبراهيم في لين الخطاب جلبًا لهم، كأنَّه قال: إن كان لِكُلٍّ منّي ومنكم أمنٌ فأيُّنا يزيد أمنه؟.

﴿الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ با لله ورسوله وكلِّ ما يجب الإيمان به عليهم ﴿وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم﴾ و لم يخلطوا ﴿بِظُلْمٍ﴾ لأنفسهم بكبيرة فيما بينهم وبين ا لله، أوفيما بينهم وبين الخلق. والتنوين للتعظيم، فإنَّ الكبيرة ذنب عظيم كاسمها ﴿اوْلَئِكَ لَهُمُ الاَمْنُ﴾ في الآخرة من عذابها ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى ما ينفعهم دنيا وأخرى، وأمَّا من آمن ومات على كبيرة غير تائب فلا أمن لهم وهم ضالُّون.

(أصول الدِّين) وهذا ردٌّ على المرجئة الخُلَّص الذين لا يجزمون بالهلاك على من مات وهو مُصرٌّ، وعلى الأشعريَّة الذين أجازوا دخول المصرِّ الجنَّة، وقالوا بأنَّه يقع لبعض والبعض الآخر يدخل النار، ويخرج منها عندهم فكانوا في طرف من المرجئة، وأمَّا حديث البخاري ومسلم بسندهما عن ابن مسعود أنَّه لمَّا نزلت الآية شقَّ ذلك على المسلمين وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول

ا لله ﷺ: «**ليس ذلك، إنَّمَا هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيِّ لاَ تُشْرِكْ بِا للهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**» وفي رواية: «**ليس هو كما تظنون إنَّمَا هو كما قال لقمان لابنه**»[1]، فإن صحَّ فإنَّما هو بيان لهذه الآية أنَّ المُراد بالظلم فيها الإشراك، ويناسبه أنَّ الآية في الفريقين، فتبقى سائر آيِ الوعيد وأحاديثه الدالَّة على هلاك من مات على كبيرة من الكبائر السبع أو سائر الكبائر، ومنها الإصرار على الصغائر، وقد ذكر ا لله جلَّ وعلا في آخر السورة أنَّه من آمن و لم يكسب في إيمانه خيرًا لا ينفعه إيمانه، ولنا أيضًا دَلِيل عقليٌّ لا يقاومه حديث الآحاد، وهو أنَّ الإيمان لا يجامع الكفر.

وأمَّا ما أجابت به الأشعريَّة من أنَّ المُراد بالإيمان التصديق بوجود الصانع وهو يجامع تعديد الآلهة، أو المُراد الإيمان باللسان دون القلب، وأنَّ المراد بالظلم الإشراك بتعديد الآلهة، أو باللقلب دون اللسان، فيردُّه أنَّ «بِظُلْمٍ» نكرةٌ في سياق النفي، فهي إمَّا استغراق لِكُلِّ كبيرة، وإمَّا ظاهرة في الاستغراق؛ وأيضًا لم يذكر في القرآن آمن وأريد به مجرَّد التصديق، ولو مع التعديد، أو التصديق باللسان فقط إلاَّ وهو مقرون بما يدلُّ على ذلك مثل: ﴿قُل لَّمْ تُومِنُوا﴾ (سورة الحجرات: ١٤)، ولا دَلِيل هنا، وأمَّا آيات المشيئة مثل: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ (سورة المائدة: ١٨)، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَالِكَ﴾ (سورة النساء: ٤٨)، فمعناه المغفرة لمن يشاء توفيقه للتوبة، وإلاَّ لزم أن يغفر للنصارى مع بقائهم على الشرك، في قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة المائدة: ١١٨).

١- رواه **الترمذي** في كِتَاب التفسير (٧) باب: ومن سورة لقمان، رقم ٣٠٦٧، من حديث علقمة بن عبد ا لله قال: ...

والآية من كلام الله عزَّ وجلَّ على الصحيح، أو من كلام إبراهيم ــ كما روي عن عليٍّ ــ مستأنفة، أو تقدَّر خبرًا لمبتدإ محذوف، أي الفريق الأحقُّ بالأمن الذين آمنوا، وعلى هذا يكون «أُوْلَئِكَ» مستأنفا، ولا حاجة إلى تقدير: قال إبراهيم: الذين آمنوا. [قلت] ولا يصحُّ ما قيل: إنَّها من كلام قومه، أجابوا بما هو حجَّة عليهم.

﴿وَتِلْكَ﴾ القصَّة التي ذكرناها عن إبراهيم من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ...﴾ إلى ﴿...مُهْتَدُونَ﴾؛ أو تلك القولة التي قالها إبراهيم، سمَّى ما ذكر عنه كلَّه قولة، لأنَّه متوارد على معنى واحد هو التوحيد،؛أو تلك الأقوال، وأفردها بتأويل الجملة، وآخِر ذلك ﴿مُهْتَدُونَ﴾ على ما مَرَّ من تمام كلام إبراهيم أين هو؟[1]؛ مع أنَّ ما كان من الله هو حجَّة لإبراهيم ولو لم يذكر عن إبراهيم بلفظه. وضعف جعل الإشارة إلى قوله: ﴿أَتُحَاجُّونِي﴾ إلى «مُهْتَدُونَ»، لأنَّه لا دليل على تخصيصه، ولأنَّ الاحتجاج بقوله: ﴿رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أظهرُ.

﴿حُجَّتُنَآ﴾ خبرٌ، أو بدلٌ، أو بيانٌ، وعلى الأوَّل يكون ﴿ءَاتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ خبرًا ثانيًا، أو حالاً من حجَّة، لأنَّ المبتدأ إشارة، وعلى الثاني والثالث يكون خبرًا، و«عَلَىٰ قَوْمِهِ» حالٌ من ضمير النصب، أو متعلِّق بـ«حُجَّة» بمعنى الشيء المحجوج به، وإن جعلناه مصدرًا لزم الفصل بينه وبين معموله بالخبر أو الحال، ولا مانع من تعليقه بـ«آتَيْنَا» لأنَّ المعنى: ألقيناها على قومه لإبراهيم.

١- كذا في النسخ، ولم يَتَّضِح لنا المَعْنَى. تأمَّل.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَآءُ﴾ في العلم والحكمة، كما فاق إبراهيم عليه السلام في صباه شيوخ عصره، واهتدى إلى ما لم يهتد إليه إلاّ الأنبياء والأكابر. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ هذا رجوع إلى خطاب سيّدنا محمَّد ﷺ، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ...﴾ (سورة الأنعام: ٧١). ﴿حَكِيمٌ﴾ في قوله وفعله، ومن ذلك رفعُهُ درجاتِ مَن يشاء وخفْضِ مَن يشاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه، ومنها استعداد من يستعدُّ لرفع درجاته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّآ وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

إبراهيم أبو الأنبياء وخصائص رسالتهم والاقتداء بهديهم

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ﴾ من سارة، عاش مائة وثمانين سنة.

ولفظ «إِسْحَاقَ» أعجميٌّ، وذكر بعضٌ أنَّ معناه بالعَرَبِيَّةِ: الضحَّاك. ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق، عاش مائة وسبعًا وأربعين سنة، وفي هذا دَلِيل أنَّ ولدَ ولدِك ولدُك، لأنَّه جعله في الهبة مع الولد، والعطف على «تِلْكَ حُجَّتُنَا» عطفَ قصَّةٍ على أخرى، عطفَ فعليَّة على اِسْمِيَّة، لا على «آتَيْنَاهَا»، لخلوِّها عن ضمير تَسْتَحِقُّه جملة «آتَيْنَاهَا» في الربط بما قبلها، وفي الجملة [«آتَيْنَاهَا»]...إلخ مدحٌ لسيدنا محمَّد ﷺ إذ كان من ذرِّيَّة إبراهيم من جهة إسماعيل، ومدحٌ لسَيِّدنَا إبراهيم، إذ جعل أشرف الخلق من نسله وهو سيِّدنا محمَّد ﷺ، فهو من جملة ما رَفع به درجاتِ إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، إذ سلَّم قلبَه للعرفان، ولسانه لإقامة البرهان على فساد طريق أهل الشرك والطغيان، وسلَّم بدنه للنيران، وولده للقربان، وماله للضيفان، واعترف بفضله جميع أهل الأديان. ومن جملة درجاته أنَّ أكثر الأنبياء من نسله.

﴿كُلاًّ﴾ كلَّ واحد من إسحاق ويعقوب ﴿هَدَيْنَا﴾ لم يذكر ما إليه الهداية ليذهب ذهن السامع كل مذهب ممكن حسن في الهداية لإبراهيم، من كلِّ شرف، وفضيلة دُنْيَوِيَّة وأخرويَّ؛، أو للعلم به، وهو ما هدَى إليه إبراهيمَ عليه السلام، وقدَّم «كُلاًّ» للاهتمام، أو للحصر الإضافيِّ، أي إنَّما هديناهما جميعًا لا واحدًا فقط، وفيه ضعف؛ وقيل: كلاًّ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والأوَّل أولى، لأنَّ شرف إبراهيم مشهور معروف مفروغ منه قبل هذه الآية، والآية سيقت لمدحه بأنَّه وهب له وَلَدَيْنِ مهديَّين، وبأنَّه مِنْ وُلْدِ مَهْدِيٍّ عظيمٍ هو نوح.

﴿وَنُوحًا﴾ معناه بالسريانيَّة: الساكن، وَقِيلَ: سُمِّيَ نوحًا لكثرة بكائه، فهو

لقب، واسمه عبد الغفور، وصُحِّح الأوَّل. ﴿هَدَيْنَا﴾ قَدَّمَ نوحًا للاهتمام. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم، عَدَّ هُدَى نوحٍ نعمةً لإبراهيم لأنَّ شرف الأب يتعدَّى إلى الولد، فشرف إبراهيم عليه السلام من جهة أبيه نوحٍ وهو جدُّه، وجهةِ أولاده وهم أنبياءُ بني إسرائيل.

(قصص) وقيل بين آدم ونوح ألف ومائة سنة، وعاش آدم تسعمائة وَسِتِّينَ، وبين إدريس ونوح ألف سنة، وبُعث نوح لأربعين، وعاش في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين، وعاش بعد الطوفان ستِّين، وقيل: بعث ابن ثلاثمائة وخمسين، وبين إبراهيم ونوح عشرة قرون، وعاش إبراهيم مائة وخمسًا وسبعين، وبينه وبين آدم ألفا سنة، ونوح هو ابن لَمْك ـ بفتح فإسكان ـ ابن مَتُّوشَلَخ ـ بفتح فضمٍّ وشدٍّ وفتح الشين واللام، وَقِيلَ: بضمٍّ ففتحتين فإسكان الشين وكسر اللام ـ ابن أَخَنُوخ ـ بفتحتين وضمِّ النون، وهو إدريس ـ ابن برد بن مهلائيل بن قينان بن أُنوش بن شيت. والذي يتبادر إلى النفس أنَّ إدريس قبل نوح، وقد قيل: إنَّه ولد بعد آدم بمائة وستَّة وعشرين عامًا، لكن في الطبراني: أوَّل الأنبياء آدم ثمَّ نوح فإدريس بعد نوح، وعليه أكثر الصحابة، وقد قيل: إدريس بن برد بن مهلائيل بن أنوش بن قينان بن شيت بن آدم وهو جدُّ نوح بينهما ألف سنة، كما روي عن ابن مسعود ووهب بن منبِّه.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ من ذرِّيَّة نوح، أو من ذرِّيَّة إبراهيم، والأوَّل أولى، لأنَّ لوطًا ويونس ليسا من ذرِّيَّة إبراهيم، ووجه الثاني أنَّ الكلام سيق فيه، والعطف الذي بعد ذلك في الوجه الأوَّل على «نُوحًا» فيكون الهدَى متسلِّطًا عليهم، أو

على «إِسْحَاقَ»، فتكون الهبة متسلّطة عليهم، وفي الثاني على «إِسْحَاقَ». و«مِنْ» للابتداء، أو للتبعيض؛ على كلٍّ حال متعلّقة بـ«وَهَبْنَا»، أو بـ«هَدَيْنَا» على الابتداء؛ وأمَّا على التبعيض فتَتَعَلّقُ بمحذوفٍ، حالٌ من «دَاوُدَ» وما بعده. ويعطف «لوطًا» و«يونس» على «نوحًا»، وجاز عطفه على مفعول «وَهَبْنَا»، ووجهه أنَّ لوطًا ابن أخت إبراهيم عليه السلام، وَقِيلَ: ابن أخيه، وبيونس اتِّصَال بإبراهيم عليه السلام لاقتدائه به، فصحَّ أنَّهما وُهبا له به. في جامع الأصول أنَّ يونس من الأسباط في زمان شعيب فلا إشكال، ويعمل بالتغليب أيضًا فيمن ليس من ذرِّيَّته، والخال كالأمِّ، والعمُّ كالأب.

والمذكور في الآية ثمانية عشر رسولاً، وبقي آدم وإدريس وشعيب وصالح وهود وذو الكفل ومحمَّد، فهم خمسة وعشرون، قيل: يجب الإيمان بهم تفصيلاً، ولعلَّه على من قامت الحجَّة عليه بالسماع، ذكر السبعة في غير هذه السورة، وذكر الباقين من الآية بقوله:

﴿دَاوودَ﴾ بن إيشا بن عَوْبَر ـ بموحَّدة على وزن جعفر ـ ابن عابر ـ بمهملة وفتح الموحَّدة ـ ابن سلمون بن بخيثون بن عَيْذُودَب ابن إرم بن حضرموت بن فارض بن يهوذا بن يعقوب. ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ ابنه، وبين داود وموسى خمسمائة وتسع وَسِتُّونَ سنة، وعاش داود مائة، وسليمان نيِّفًا وخمسين سنة، وَقِيلَ: ثلاثًا وخمسين سنة، وبينه وبين سيِّدنا محمَّد ﷺ ألف وسبعمائة سنة، وكان داود يشاور سليمان مع صغر سنِّه لوفور عقله وعلمه، ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ بناءَ بيت المقدس بعد ملكه بأربع سنين.

﴿وَأَيُّوبَ﴾ بن أموص من أسباط عيص بن إسحاق، وَقِيلَ: أَيُّوب ابن

روم بن إسحاق، وَقِيلَ: ابن روم بن إبراهيم، ويقال: أَيُّوب بن أموص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، عاش ثلاثًا وَسِتِّينَ، ومدَّة بلائه سبع سنين، وذكر ابن عساكر أنَّ أمَّه بنت لوط، وآمن أبوه بإبراهيم، فهو قبل موسى، وفي الطبريِّ أنَّه بعد شعيب، وفي ابن خيثمة أنَّه بعد سليمان، وفي الطبرانيِّ: عمره ثلاث وتسعون سنة.

﴿وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب، عاش مائة وعشرين، قيل: بينه وبين موسى بعده أربعمائة سنة، وبين إبراهيم وموسى خمسمائة وخمس وَسِتُّونَ، قال رسول الله ﷺ: «**الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**» ﴿وَمُوسَىٰ﴾ هو ابن عمران، عاش مائة وعشرين، وبينه وبين داود بعده خمسمائة وتسع وَسِتُّونَ.

﴿وَهَارُونَ﴾ أخو موسى، أكبر من موسى بسنة، ابن عمران بن يصهر بن لاوي بن يعقوب، أخو موسى لأبيه وأمِّه، وَقِيلَ: لأبيه، وَقِيلَ: لأمِّه. ومات قبل موسى، رآه ﷺ ليلة الإسراء في السماء الخامسة، ونصف لحيته أبيض تكاد تضرب سرَّته، فقال: «**يا جبريل من هذا؟ قال: المحبَّب إلى قومه: هارون بن عمران**»، وقد قيل: إنَّ هارونَ بالعبريةِ: المحبَّبُ. ﴿**وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ نجزي المحسنين بالتشريف والتفضيل بأنواع الكرامات، كما جزينا بذلك موسى وهارون وداود وسليمان ويوسف، أو كما جزينا إبراهيم بِرُفع درجاته وكثرة أولاده والنبوَّة فيهم، والمطلق مطلق الإحسان لا خصوص النبوَّة وكثرتها، وليس في ذلك تشبيه الشيء بنفسه، وفي الحديث: «**الإحسان أن تعبد**

الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك»[1]، أي فإن لم تكن تراقبه كما تراقب من تراه.

﴿وَزَكَرِيَّآءَ﴾ هو ابن يوحيا بن مدن بن مسلم بن صدوق بن بحسان بن داود بن سليمان بن ناخور بن سلوم بن تهفاساط بن أبيا بن رجهم بن سليمان بن داود، وَقِيلَ: زكرياء بن أزن بن بركيا من ذرِّيَّة سليمان، قُتل بعد قتل ولده يحيى، بُشِّر بابنه يحيى وله اثنان وتسعون عامًا، وَقِيلَ: تسع وتسعون سنة، وَقِيلَ: مائة وعشرون. ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ هو ابن زكرياء سُمِّيَ لأنَّه حيي به رحم أمِّه، ويقال: أصله حيا زيدت أوَّله ياء، من اسم جدَّته سارة زوج إبراهيم.

﴿وَعِيسَىٰ﴾ هو ابن مريم بنت عمران بن ماتان، أو عمران بن ساهم بن أهور بن ميشا بن حزقيل بن أحريف بن يؤام بن عزاريا بن أمضياء بن تاوس بن نوثا بن بارض بن بهوشافاظ بن وأدم بن أبيا بن رجهم بن سليمان بن داود، وليس عمران أبا موسى، فبينهما ألف وثمانمائة، إذا رددنا ضمير «ذُرِّيَّتِهِ» لـ«إِبْرَاهِيم» أفادت الآية أنَّ ابن البنت داخل في الذرِّيَّة، لأنَّ عيسى لا أب له، وأمُّه من ذرِّيَّة إبراهيم ونوح، وإن رددناه إلى نوح كانت من ذرِّيَّة نوح.

ومن آذى الحسن أو الحسين فقد آذى ذرِّيَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ، فلا يجوز العنف فيه إلاَّ بحق، كما عنَّفوا الحسن في تسليم الخلافة لمعاوية، وقومنا مدحوه بذلك لحديث يروونه: «أنَّ الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، وأيضًا دعا بالحسن والحسين في قوله تعالى: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا...﴾ (سورة آل عمران:

١- تَقَدَّمَ تخريجه. انظر: ج ، ص .

٦١)، فادَّعى بعض أنَّ دخول ولد البنت في الذرِّيَّة مختصٌّ به ﷺ ومن أمُّه هاشميَّة، رجَّحوا أنَّه يعطى الزكاة، واعترض الاستدلال بالآية على أنَّ ولد البنت داخل في الذرِّيَّة بالآية بأنَّ عيسى لا أب له فلا يقاس عليه غيره، وكذا ابن الملاعنة لا أب له بحكم الشرع فلا يقاس عليه.

﴿وَإِلْيَاسَ﴾ هو ابن أخ هارون، والجمهور على أنَّه مُتَأَخِّرٌ، وأنَّه من أسباط هارون، وأنَّه ابن ياسين بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمْران، وعن ابن مسعود: إلياس هو إدريس، ولعلَّه لم يصحَّ عنه ذلك، لأنَّ إدريس جدُّ نوح لا من أولاد نوح، وَقِيلَ: من سبط يوشع، وَقِيلَ: من ولد إسماعيل. ﴿كُلٌّ﴾ أي كلٌّ واحد من زكرياء ويحيى وعيسى وإلياس ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ القائمين بحقوق الله وحقوق العباد، أو من الكاملين في الصلاح، وهو فعل الواجب والمستحبِّ وترك المحرَّم والمكروه.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم، وهو عمُّ يعقوب، إذ هو أخو إسحاق، عاش مائة وثلاثين، ومعناه مطيع الله، وَقِيلَ: أصله إسمع يائيل، أي يا الله، وكان له حين مات أبوه تسع وثمانون، ووُلِد قبل أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة، وعاش إسحاق مائة وثمانين ويعقوب مائة وسبعًا وأربعين. ﴿وَالْيَسَعَ﴾ عَلَم منقول من المضارع وحده لا مع مستتر فيه، لأنَّ المنقول من الجملة لا تدخل عليه «الـ»، ولا يظهر إعرابه، وَقِيلَ: لفظ عجميٌّ، ويعارضه دخول «الـ» فإنَّها لا تزاد في الأعجام، وقيل عجميٌّ، و«الـ» شاذَّة فيه، وَقِيلَ: قارنت النقل وجعلت علامة للتعريب. وهو ابن أخطوب بن العجوز. ﴿وَيُونُسَ﴾ هو ابن متَّى، ومتَّى أبوه، وَقِيلَ: أمُّه، وادَّعى بعض أنَّه من ذرِّيَّة إبراهيم.

﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن هاران بن تارخ أخي إبراهيم، فإبراهيم عمُّه، وَقِيلَ: ابن أخت إبراهيم، فإبراهيم خاله، هاجر معه إلى الشام، وأرسله الله تعالى إلى أهل سادوم؛ وَقِيلَ: لوط بن هاران بن آزر. وجمع الله سبحانه وتعالى أوَّلاً إبراهيم ونوحًا وإسحاق ويعقوب لأنَّهم أصول الأنبياء، إلاَّ أنَّه فصل نوحًا لأنَّه أظهر في الأصالة وأصل للكلِّ، لأنَّ الناس بعده كلُّهم منه، لأنَّه لم ينسل إلاَّ أولاده، وجمع داود وسليمان للأبويَّة والبنوَّة ورتبةِ الملكِ وهي بعد رتبة النبوَّة، وكذلك جمع بين إسحاق ويعقوب للبنوَّة لإبراهيم والنبوَّة التالية لنبوءة إبراهيم، وجمع أَيُّوب ويوسف لأنَّهما من أهل الصبر على البلاء، وجمع يوسفُ مع الصبرِ الملكَ، وجمع بين موسى وهارون لكثرة المعجزة الحسِّيَّة، وللأخوَّة، ومعجزات موسى معجزات له، لأنَّ مدَّعاهما واحد في عصر واحد، وجمع بين عيسى وزكرياء ويحيى وإلياس لكثرة زهدهم، وجمع بين إسماعيل ولوط واليسع لأنَّهم لم يبق لهم أتباع ولا شريعة.

وقد أمر الله جلَّ وعلا سيِّدنا محمَّدًا ﷺ بالاقتداء بمن له خصلة من هؤلاء، كالصبر على البلاء، وشكر النعم، كشكر داود وسليمان وصِدق إسماعيل وإخلاص موسى والزهد، وغير ذلك مِمَّا لم يذكر لهؤلاء هنا، فهو جامع ما تفرَّق في غيره.

﴿وَكُلاًّ﴾ من هؤلاء ﴿فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ﴾ عالَمي زمانهم وغيره إلاَّ سيِّدنا محمَّدًا ﷺ، فإنَّه أفضل الخلق، والأنبياء والمؤمنون أفضل من الملائكة؛ وَقِيلَ: دلَّت الآية أنَّ الأنبياء أفضل منهم لدخول الملائكة في «الْعَالَمِينَ»، وفي

المواقف،[١] لا نزاع أنَّ الأنبياء أفضل من ملائكة الأرض، وإنَّما النزاع في ملائكة السماء، قال أصحابنا - يعني المَالِكِيَّة -: الأنبياء أفضل، وعليه الشيعة وأكثر الملل، وقالت المعتزلة وأبو عبد الله الحليمي[١] والباقلاَّني من المَالِكِيَّة: الملائكة أفضل، وعليه الفلاسفة وأبو إسحاق الإسفرايِيني.

﴿وَمِنَ - ابَآئِهِم وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ عطف على «كُلاًّ» أو «نُوحًا»، أي وفضَّلنا كلاًّ وبعضَ آبائهم...إلخ، وهدينا نوحًا وبعض ذرِّيَّاتهم. و«مِنْ» للتبعيض حرفًا أو اسمًا، ووجه التبعيض أنَّ آباءهم وذرِّيَّاتهم منهم مؤمنون وكافرون كآزر وولد نوح الغريق، وأنَّ إخوانهم في النسب منهم مؤمنون وكافرون. والكلام مفروض فيمن له أخ أو ذرِّيَّة أو كلاهما، ولا ولد لعيسى ولا أب، ولا ولد ليحيى، ولا أخ لهما، وقدَّر بعضهم: وهدينا من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم جماعاتٍ.

﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ اخترناهم، والعطف على «فَضَّلْنَا» أو «هَدَيْنَا» ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تكرير أريد به بيان ما هدوا إليه، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدِّين الذي هدوا إليه، أو ذلك الاجتباء، أو ذلك الهدى، ﴿هُدَى اللهِ﴾ خبرُ «ذَلِكَ» ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ خبر ثان، أو حال من «هُدَى»، أو

١- كِتاب في علم الكلام من تأليف عبد الرحمن بن أحمد، عضد الدين الإيجي - بلدة بفارس - ولد سنة ٧٠٨هـ وتوفِّي سنة ٧٥٦هـ. الموسوعة الفِقْهِيَّة الكويتيَّة، ج١١، ص٣٨٣.

١- القاضي العلاَّمة بما وراء النهر، أبو عبد الله الحسيني بن الحسن بن مُحَمَّد بن حليم البخاري الشافعي، كان مفتيا سيَّال الذهن، مناظرا طويل الباع في الأدب والبيان. أخذ العلم عن الأستاذ المُتَكَلِّم أبي بكر القفَّال وغيره. ولد سنة ٣٨٣، وتوفي سنة ٤٠٣. **تهذيب سير أعلام النبلاء**، ج٢، ص٢٧١. بتصرُّف.

خبر و«هُدَى» بيان، أو بدل. والمُراد بالدِّين الذي هـدوا إليه: التوحيد مع ما يتفرَّع عليه، لقوله: ﴿وَلَوَ اَشْرَكُوا﴾ أي هؤلاء الأنبياء، ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مع عظم شأنهم وعلوِّ مراتبهم، فكيف غيرهم؟ أو كانوا كغيرهم في الحبوط.

[قلت] وللكلام مقاصد، فلا يرِد عليَّ أنَّ علوَّهم شأنا ورتبة أدعى للحبوط بالإشراك من حيث إنَّ المؤاخذة تعظم بحسب عظم نعمة الدِّين مثلاً. والهاء في «بِهِ» عائد على «هُدَى ا للهِ»، وهما معًا بمعنى المهدَى به، إذا كانت الإشارة إلى الدِّين، وإن كانت للاجتباء المأخوذ من «اجْتَبَيْنَا»، أو كانت للهدى المأخوذ من «هَدَيْنَا»، وهما باقيان على المعنى المصدريِّ فهي عائدة إلى «هُدَى ا للهِ» بالمعنَى المصدريِّ على طريق الاستخدام بأَن يراد بها المهدَى به لا المعنى المصدريُّ، و الآية دَلِيل أنَّ الهدى تفضُّل من ا لله لتعليقه بالموصول الذي هو وصلته كالمشتقِّ المؤذن بعِلِّيَّة ما منه الاشتقاق.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الأنبياء المذكورن ﴿الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ بلا واسطة نبيٍّ قبله، أو بواسطة إنزاله على نبيٍّ قبله، فإنَّ هؤلاء لم ينزل على كلٍّ واحد منهم كتاب، بل على بعضهم وهو القليل منهم، كموسى وعيسى وإبراهيم وداود؛ والصحف داخلة في الكتاب، والمُراد به الجنس الصادق بالمتعدِّد ﴿وَالحُكْمَ﴾ الحكمة، وهي ما يكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام، وذلك شاملٌ للعلم الظاهر والحكم بين الناس بالحقِّ والإفتاء به. ﴿وَالنُّبُوءَةَ﴾ الكاملة المُتَرَتِّب عليها الرسالة؛ أو المُراد: النبوَّة والرسالة، وحذف العطف.

﴿فَإِنْ يَّكْفُرْ بِهَا﴾ أي بالنبوءة الشاملة للكتاب والحكم لأنَّها أقرب

مذكور، أو بالثلاثة: الكتاب ـ أو إيتاؤه ـ والحكم والنبوءة، ولو كان هذا لكان الأولى بهنَّ لأنَّهنَّ ثلاث غير عواقل جمع قِلَّة بالعطف. ﴿هَؤُلَآءِ﴾ كُفَّار قريش أو أهل مَكَّة، أو كلُّ من كفر، لَكِنَّ المقام أنسب بمن كفر من قريش، أو أهل مكَّة، كما روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما وقتادة أنَّهم أهل مكَّة، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ بمراعاتها وأداء حقوقها، وهذا تعليل نائب عن الجواب، أي فلا ضير، أو فلا نقص، أو فلا اعتداد بهم لأنَّا قد وكَّلنا، أي وفَّقنا وأرصدنا. ﴿قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي ليسوا كافرين بها في وقت، ليس معنى الجملة الاسميَّة مثل قولك: «هم كافرون» الدالَّة على الثبوت في كلِّ زمان، بل معناها عدم التعرُّض للحدوث فلا تَهِم، ولا تتوهَّم أنَّ الظاهر نفي الدوام في الأزمنة. وقدَّم «بِهَا» للفاصلة وطريق الاهتمام، وكذا كلَّما قلت: «للاهتمام» فَالمُرَادُ طريق العرب فيه، لأنَّ الله لا يوصف بِهِ.

وذلك القومُ: الأنبياءُ المذكورون وغير المذكورين، ومن تبعهم من آباء وذرِّيَّة وإخوان وغيرهم؛ وَقِيلَ: الأنصار، وعليه ابن عبَّاس ومجاهد؛ وَقِيلَ: المُراد المهاجرون والأنصار؛ وَقِيلَ: الصحابة؛ وقال أبو زيد: كلُّ من آمن به؛ وَقِيلَ: الفرس؛ وضعف القول بأنَّ المُراد الملائكة لأنَّهم لم يتعارفوا باسم القوم، ولأنَّ المتبادر العمل بها، والملائكة لم يكلَّفوا بِكُلِّ ما كلِّفنا به من الأعمال. والقومُ: الرجال، والملائكة ليسوا رجالاً، ولو كان اللفظ قد يطلق عليهم.

﴿أُولَئِكَ الذِينَ هَدَى اللهُ﴾ هم الأنبياء المتقدِّم ذكرهم؛ وَقِيلَ: المؤمنون، [قلت] ولا يخفى ضعف أن يقول الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ: اقتد بالمؤمنين، وإنَّما هم المقتدون به، بل اقتد بالأنبياء. أخبر بـ«الذِينَ هَدَى اللهُ» إفادة

للكمال، إذ أسند الهدَى إلى الله بلفظ الجلالة، إذ كان معناه جامع صفات الكمال، ولا هداية فوق هداية جامعها، ولذلك جاء الكلام بطريق الالتفات من التَّكَلُّم إلى الغيبة، فإنَّ مقتضى ﴿وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ أن يقال: أولئك الذين هديناهم، وفي ذلك أيضًا تمهيد لقوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ اتَّبعهم في عبادتهم وديانتهم وصبرهم وتقواهم إلاَّ ما نُسخ، فهو [عَلَيهِ السَّلاَمُ] أفضل منهم جملة. وكلُّ فردٍ فَرَد مع تعظيمه بقوله: ﴿فَبِهُدَاهُم﴾ ولم يقل: بهم، لأنَّه اجتمع فيه ما تفرَّق فيهم مِمَّا لم يتناقض.

(أصول الدِّين) وليس ذلك تقليدًا في الأصول والديانات، فإنَّ العلماء اختلفوا فيه في توحيد المقلّد واعتقاده أصول الديانة بلا دَلِيل، هل يُجزى؟ وكيف يجزى رسول الله ﷺ فهو يقتدى بهم من طريق الوحي والأدلَّة العقليَّة، أو المعنى: كُنْ ودُم على ما أنت عليه، فإنَّك على ما هم عليه؛ أو: اعتقِد بالوحي منَّا ما اعتقدوه بالوحي منَّا إليهم. والعطف على الاِسمِيَّة أو الصلة. والباء متعلّق بـ«اقْتَدِهْ»، وقُدِّم بطريق الاهتمام وللحصر، أي بهداهم لا بغيره كمذهب مشركي قريش وأهل الكتاب المخالفين للحقِّ.

(قراءة) والهاء للوقف، ولكنها تقرأ وقفًا ووصلاً عند نافع وابن كثير وأبي عمرو وعاصم، والدليل على أنَّها تقرأ وصلاً أيضًا إجراءً له مجرى الوقف قراءةُ نافع: ﴿مَالِيَهْ هَّلَكَ﴾ (سورة الحاقة: ٢٨) بإدغام هاء «مَالِيَهْ» في هاء «هَلَكَ»، وذلك أنَّه نزل القرآن بها وكتبت في المصاحف فهي تقرأ وصلاً كالوقف لئلاَّ يتخالف النزول والخطُّ؛ وعن ابن عامر كسر

الهاء بلا إشباع، وكسرها بإشباع.

(نحو) فقيل الهاء ضمير المصدر فهي مفعول مطلق، أي اقتد الاقتداء، أو مفعول به عائدة إلى الدرس وَيَرُدُّه إسكانها، وأنَّ هاء السكت قد تُحرَّك تشبيها بهاء الضمير كقوله:

واحرَّ قلباهُ مِمَّن قلبه شَبِمُ[1]

بضمِّ الهاء الأولى وكسرها. ولا يحسن تغليط أبي بكر بن مجاهد ابن عامر في قراءته، وهاء الندبة لا تحرك للساكن وإنَّما حرِّكت تشبيها.

(فقه) واستُدلَّ بالآية على أنَّ شرع من قبلنا شرع لنا، فإنَّه ولو كان لا يمكن الاقتداء بهم جميعًا لاختلافهم في الفروع، ولكن لا مانع من اقتدائه بالفرع المختوم به المخالف لمن قبله، أو بما شاء الله من الفروع المتناقضة؛ أو شرع لنا فيما لا يتناقض من الفروع؛ أو فيما ذكر الله منها مثل قوله: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ...﴾ (سورة المائدة: ٤٧)، وأنت خبير بما مَرَّ.

وفي السؤالات: فإن كان في شريعة غير هذه ذكر شيء ولم يكن في هذه هل يعمل به؟ قال: نعم، قال الله ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، وقال بعضهم: كلٌّ واحد منهم وشريعته قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(سورة المائدة: ٤٨) فإن قال: هل كان رسول الله ﷺ متعبِّدًا بشريعة من قبله؟ قال:

١- مطلع قصيدة للمتنبِّي يعاتب فيها سيف الدولة الحمداني. وتتمَّة البيت:

ومَن بجسمي وحالي عنده سقم

اليازجي: **شرح ديوان المتنبِّي**، ص ٣٤١. والشَّبِمُ: البارد.

نعم، ما لم ينسخ؛ وَقِيلَ: لا، إلاَّ بشريعة أبيه إبراهيم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (سورة النحل: ١٢٣). واختلف الناس في شرع من قبلنا، فقيل: ليس شرعًا لنا؛ وَقِيلَ: شرع لنا إلاَّ ما نسخ؛ وَقِيلَ: شرع إبراهيم وحده، وقال الشيخ يخلفتن بن أَيُّوب[1]: «شرع إبراهيم شرع لنا في الحجِّ خاصَّة»؛ وَقِيلَ: شريعة موسى شرع لنا إلاَّ ما نسخ بالإنجيل؛ وَقِيلَ: شريعة عيسى شرع لنا؛ وَقِيلَ: شريعة نوح تُعبِّدنا بها لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (سورة الصافات: ٨٣) أي من دينه؛ وَقِيلَ: من ذرِّيَّته. وَقِيلَ: **لم نتعبَّد بشيء من شرائعهم إلاَّ ما لا ينسخ كالتوحيد ومحاسن الأخلاق**، وإليه يتوجَّه قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾. **وبهذا القول يقول بعض أصحابنا لإجماع الأمَّة أن ليس على المجتهد أن يرجع إِلَى ما في الكتب المتقدِّمة.** اهـ كلام السؤالات. وقال البعض الآخر من أصحابنا: شرائع من قبلنا شرع لنا إلاَّ ما نسخ بالقرآن وغيره، ومن التشرُّع بشرع من قبلنا قولُ صاحب الوضع في الصوم (فصل في صوم التطوُّع): روي أنَّ رجلاً جاء إلى ابن عبَّاس إلخ...[2]

﴿قُلْ﴾ لقومك ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على القرآن، أو التبليغ لدلالة المقام

١- يخلفتن بن أَيُّوب الزنزفي من علماء القرن الخامس الهجري. أصله من أمسنان بجبل نفوسة، تنقَّل بين عِدَّة مراكز للإبَاضِيَّة في المَغْرِب الإِسْلاَمِي للتعلُّم، وأخذ عن أبي الربيع سليمان بن يخلف في تونين لمُدَّةٍ ثلاثة أعوام. كان ذا مكانة عالية بين علماء عصره. قال أبو عمرو السوفي: الشيخ يخلفتن عالم فقيه. جمعِيَّة التُّرَاث: **معجم أعلام الإبَاضِيَّة** (النسخة التجريبيَّة) ج٥، رقم ١٠٨١.

٢- مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ شرع مَن قبلنا يقتدى به في التطوُّعات انظر: **كِتَاب الوضع**، ص ١٦٢.

عليهما، وإن لم يجر لهما ذكر. ﴿أَجْرًا﴾ من جهتكم تعطوننيه، بل أجري عند الله، كما أنَّ الأنبياء لا يأخذون الأجرة فذلك مِمَّا أُمر ﷺ أن يقتدي فيه بهم ﴿إِنْ هُوَ﴾ القرآن، أو التبليغ، أو المُراد، ﴿إِلاَّ ذِكْرَى﴾ عظة، أو تذكير لكم من الله لا أخصُّ به أحدًا ولا آخذ عليه الأجر منكم كما لا يأخذه الأنبياء قبلي، وهو لكم من الله، فكيف آخذ الأجر؟ ﴿لِلعَالَمِينَ﴾ الإنس والجنِّ كلِّهم، من لم يكن له كتاب، ومن كان له كتاب، وهذا دَلِيل **على أنَّه أرسل إلى الناس كَافَّة، وغيرهم.**

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

إثبات النبوَّة وإنزال الكتب ومُهمَّة القرآن

﴿وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما جعلوه لله قدرًا يليق به، أي وصفا، (أي وصفا يليق؛ أو ما عرفوه حقَّ معرفته، فالمراد بالقَدْر: المعرفة، لكونه سببا لها،

وملزوما؛ وقدرُه الواجبُ معرفتُه: توحيدُه وإعظامه وعبادته)[١]، لكن لا يمكن الوصول إلى غاية ذلك، وهذا أولى من أن يقال المُراد: قدره في الرحمة لعباده، وفي السخط على الكفَّار، وشدَّة البطش حين جسروا على قول السوء، فإنَّه لا يناسب قوله: ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ا للهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فإنَّ هذا يناسب أن يراد بالقدر العظمة، ومنها التوحيد المنافي لإنكار الإنزال على بشر، ومن معاني القَدْرِ العظمةُ، أي وما عظَّموه حقَّ عظمته، ويقال: ما عرفوا ا لله حقَّ معرفته، والأصل: وما قدروا ا لله قدره الحقَّ، فأضيفت الصِّفة للموصوف، ولا يلزم هذا، بل المتبادر أنَّ المُراد شأن قدره، أو رتبة قدره، و«إِذْ» متعلِّق بـ«قَدَرُوا» أو بـ«قَدْرِهِ». وَقِيلَ: حرف تعليل، [قلت] هي ظرفيَّة، والتعليل مستفاد من مدخولها.

(سبب النزول) والواو لليهود: فنحاص بن عازوراء ومالك بن الصيف ومن رضي بقولهما، وهم نفر يسافرون لِمَكَّةَ عنادًا، أو أريد واحد عُظِّم في السوء كعِظَم جماعة في الشرِّ، خاصَمَ النبيءَ ﷺ، فقال ﷺ: «أنشدك ا لله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أنَّ ا لله يبغض الحبر السمين؟ ـ وكان مالك كذلك ـ فقال: نعم ـ وكان يحِبُّ إخفاء ذلك، لكن أقر لإقسام النبيء ﷺ ـ فقال النبيء ﷺ: أنت حبر سمين، سمنت من أكلتك التي تطعمك اليهود»، فضحك القوم، وخجل مالك بن الصيف، أي فيكون مبغوضًا، فغضب، والتفت إلى عمر رضي ا لله عنه، وقال: ما أنزل ا لله على بشر من شيء، فقال أصحابه: ويحك،

١- ما بين قوسين زيادة انفردت بها نسخة (أ).

ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فلمَّا سمعت اليهود بذلك قالوا: أليس الله أنزل التوارة على موسى فلم قلت هذا؟ قال: أغضبني محمَّد فقلته. فقالوا: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحقِّ؟! فعزلوه من الحبريَّة، فجعلوا مكانه كعب بن الأشرف لعنهم الله، وفي ذلك نزل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. [قلت] وأنت خبير بأنَّ القائلين سافروا إلى مكَّة، فلا يعترض بأنَّ السورة مكيَّة، وأنَّ القصَّة مَدَنِيَّة، وأيضا نزلت السورة مَرَّتَيْنِ فيما قيل.

والآية على ظاهرها من نفي الأنبياء كلِّهم وكتبهم كُلِّها لثوران الغضب، والمُراد بالذَّات نفي النبيء ﷺ والقرآن، ولكن حمله الغضب على نفي كُلِّ نبيء وكُلِّ كتاب مبالغة في نفي النبيء ﷺ والقرآن، ليكون كنفي بحجَّة.

(فقه) وأنت خبير أنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل الآية مجاراة على لفظ لسانه المجاهر بالسوء، ولو كان في قلبه ثبوت التوراة كما صرَّح به عن نفسه، وفي ذلك أنَّ الغضبان المتعمِّد مؤاخذ بما قال أو بما فعل، كالسكران بمحرَّم عمدًا.

(منطق) وقال بعضٌ: على طريق الشكل الثالث: موسى بشرٌ، موسى أنزل عليه كتاب، وهاتان قضيَّتان شخصيتان في حكم الكلِّيَّتين، والأولى من قوَّة الآية، والثانية من صريحها، ينتج أنَّ بعض البشر أنزل عليه كتاب، وهذه النتيجة موجبة جزئية تكذب السالبة الكُلِّيَّة اليهوديَّة، وهي: لا شيء من البشر أنزل عليه كتاب.

وأجاب الله بأنَّ إنزال القرآن من الجائز كما أنزل التوراة على موسى، فقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَآءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ منها وهو ما صعب عليهم، وصفة رسول الله ﷺ، ومن إخفاء ما صعب عليهم: إخفاءُ آية الرجم، وآية أنَّ الله يبغض الحبر السمين. ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وهذا نصٌّ في أنَّ الآية في اليهود لا كما قيل في مشركي قريش، فإنَّ مشركي قريش لم يقرأوا التوراة، ولم يجعلوا قراطيس يبدونها ويخفون كثيرًا، ولا علّموا ما لم يعلموا ولا آباؤهم، إلاَّ أنَّ لهم بعض إذعان لتوراة موسى، وشهرت عندهم، وكانوا يخالطونهم ويسألونهم عمَّا في التوراة. قال الله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾(سورة الأنعام: ١٥٧-١٥٨). وإلاَّ أن يراد: علّمتم بالقرآن ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم. ووقع ذلك في المدينة، والسورة نزلت في مكَّة، ونزلت في المدينة مرَّة ثانية والقصَّة في المدينة؛ وَقِيلَ: نزلت في مكَّة إلاَّ هذه الآية ففي المدينة، ويروى أنَّ مالك بن الصيف كان يخرج مع نفر إلى مكَّة معاندين.

والمُراد: وعُلّمتم أيُّها اليهود على لسان محمَّد ﷺ مِمَّا أوحى إليه بيانًا لما التبس أو أخفاه مَن تقدَّم، وزيادة على التوراة ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة النمل: ٧٦)؛ وَقِيلَ: الخطاب في «عُلِّمْتُمْ» لمن آمن من قريش، و«نُورًا وَهُدًى» حال من الهاء، أو من «الْكِتَابَ»، هو في نفسه نور، أي ظاهر كالضوء اللامع. و«تَجْعَلُونَهُ» حال من

«الْكِتَابَ»، أو من الهاء. ومعنى جعلِها قراطيس: جعلُها في قراطيس، بحذف الجارِّ؛ أو يقدَّر: تجعلونه ذا قراطيس؛ أو تجعلون ظروفه قراطيس. وإذا كان الخطاب كلُّه لليهود فَالْمُرَادُ: علّمتم أيُّها اليهود بالتوراة، أو علّمكم الله بالقرآن ما لم تعلموا زيادة وأنكرتموه، كما قال: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ (سورة المائدة: ١٥)، أو من إخفاء ما أرادوا، أو إنكاره، أو محوه، أو تبديله؛ وَقِيلَ: ذلك الكثير لم يكتبوه في القراطيس إخفاء له. والناسُ: بنو إسرائيل وغيرهم.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أنزله الله، أو الله أنزله، أو منزله الله، والأوَّل أولى لورود الجواب بالفِعليَّة في قوله: ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة الزخرف: ٩)، ووجه الأوجُهِ بعده أنَّ السؤال بالاِسميَّة فليكن الجواب بها، أمَّا ما كان لاَ بُدَّ أن يقرُّوا بأنَّ الله أنزله أمره أن يقوله، أو كأنَّهم دهشوا لافتضاحهم حتَّى لا يقدروا على ردِّ الجواب فأمره ﷺ بردِّ الجواب تنبيهًا على حيرتهم، أو أمره لأنَّهم لا يقولون عنادًا.

﴿ثُمَّ ذَرْهُم فِي خَوْضِهِمْ﴾ باطلهم متعلّق بـ«ذَرْ»، أو بقوله: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أو بمحذوف، حالٌ من الهاء، أو من واو «يَلْعَبُونَ»، و«يَلْعَبُونَ» حال من هاء «ذَرْهُمْ»، أو من هاء «خَوْضِهِمْ»، ولو كان مضافًا إليه لأنَّ المضاف صالح لعمل الرفع والنصب لأنَّه مصدر، وإذا جعلنا «فِي خَوْضِهِمْ» حالاً من الهاء جاز أن يكون «يَلْعَبُونَ» حالاً من المستتر في قوله: ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾، والأمر بالجوابِ والإعراضِ عنهم بعد الجواب يصحُّ قبل نزول القتال وبعده فلا نسخ، فلا تَهِم. و«يَلْعَبُونَ»: يستهزئون.

﴿وَهَـٰذَا﴾ أي القرآن ﴿كِتَـٰبٌ﴾ عظيم ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ خبرٌ ثان، أو نعت «كِتَابٌ»، ﴿مُبَارَكٌ﴾ خبر ثالث، أو نعت ثان. ﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ خبر رابع، أو نعت ثالث. والمعنى على الإخبار: أنَّ القرآن كتاب عظيم، كما دلَّ عليه التنكير، وأنَّه أنزلناه نحن، فما فيه حقٌّ لا كذب ولا كلام لغير الله ولا تعليم بشر، [قلت] **وما فيه من فصاحة وبلاغة من الله لا من الرَّسول فما يجاريه كلام، وأنَّه كثير الخير الدنيويِّ والأخرويِّ والدينيِّ، وفيه عزُّ الدُّنيا والآخرة، إذ هو مفيد بألفاظه يشتفى به دعاء ورقيًا، مشتمل على الأصول والفروع وأعمال الجوارح والقلوب**، وأنَّه مصدِّق لجنس الكتاب الذي بين يديه -أي قبله- كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف. أوالمُراد بـ«الذِي [بَيْنَ يَدَيْهِ]» التوراة، لأنَّه أعظم كتاب أنزل قبله، ولأنَّ الخطاب لليهود، ومعظم كتبهم التوراة. و«بَيْنَ يَدَيْهِ» استعارة للقبلية، أو مجاز مرسل، ومحطُّ التصديق فيما لم يُنسخ ولم يَختلف في الكتب فظاهرٌ، كالتوحيد، وصفاته ﷺ، والتبشير به، وكمكارم الأخلاق، وتحريم مساوئها. وفيما نُسخ أو اختَلَف في الكتب أنَّ الكلَّ حكمةٌ وعدلٌ، صرَّح القرآن بأنَّ ذلك حقٌّ وأنَّ ما نُسخ منها بالقرآن قد ذكر الله فيها أنَّه سيُنسخ بالقرآن تلويحًا أو تصريحًا، ولو لم يكن فيها من ذكر النسخ إلاَّ ذكر أنَّه يجب اتِّبَاعه، فإذا جاء بما خالفها فذلك نسخٌ مذكور فيها.

وأمَّا المعنى على النعت: فهو أنَّ القرآن كتاب عظيم مُتَّصِف بإنزالنا والبركة وتصديق الكتب السابقة. وعلى كلِّ حال قدَّم الإنزال هنا لأنَّ المقام للردِّ على نفي الإنزال، ومجيء الكلام عقب نفيه، وقال ﴿مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، وقدَّم البركة في قوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ اَنزَلْنَاهُ﴾ (سورة الأنبياء:

٥٠)، بصيغة الفعل لتجدُّده، بخلاف البركة والتصديق، فإنَّهما على الثبوت.

﴿وَلِتنذِرَ أُمَّ القُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ عطف على محذوف، أي لتبشِّر من آمن به ولتنذر أمَّ القرى.

(نحو) أو عطف عَلَى المعنى، مِمَّا يقال له في غير القرآن عطف توهُّم، كأنَّه قيل: أنزلناه لتصديق الذي بين يديه، وهذا ـ لاتِّصاله ـ أولى من تقدير: أنزلناه للبركة ولتنذر أمَّ القرى، وأولى من هذا اعتبارهما معًا، أي للبركة والتصديق ولتنذر أمَّ القرى. ويجوز تعليقه بمؤخَّر، أي: ولتنذر أمَّ القرى أنزلناه؛ أو مقدَّم، أي: وأنزلناه لتنذر أمَّ القرى. ويجوز تعليقه بمعطوف محذوف، أي: مصدقٌ لِمَا بين يديه وكائن لتنذر.

وأُمُّ الْقُرَى: مكَّة، أي لتنذر أهل أمِّ القرى، أو أمُّ القرى أهلها تسمية للحالِّ باسم المحلِّ، و«مَنْ حَوْلَهَا»: أهلُ الدُّنيا كلُّهم، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ (سورة سبأ: ٢٨).

(فضل مكَّة) وَسمِّيَت أمَّ القرى لأنَّها قبلة أهل القرى، فهي كالأصل لسائر القرى، ومن معاني الأمِّ: الأصلُ، ولأنَّها محجُّهم ومعتمرهم، والحجُّ من أصول العبادة، فهي كالأمِّ للقرى، إذ كانوا يجتمعون إليها كما تجتمع الأولاد إلى الأمِّ، ولأنَّها أعظم القرى شأنًا كعظم الأمِّ بالنسبة إلى الأولاد، ولأنَّها بسطت الأرض من تحتها فهي للأرض كالأمِّ للأولاد، ولأنَّ فيها البيت الذي هو أصل سائر البيوت وأسبق، الذي هو كالأمِّ للأولاد في السبق، فمكَّة كالأمِّ لسائر الأرض.

ولا دَلِيل لطائفة من اليهود ادَّعوا بعثه ﷺ إلى العرب خَاصَّةً، وهم من حول مكَّة، لأنَّ المُراد بـ«مَنْ حَوْلَهَا» كلُّ الناس كما رأيت، ولو فسِّر بالعرب فما ذلك إلاَّ لكونهم أحقَّ بالإنذار للنسب والجوار، كما أُرسل موسى إلى غير بني إسرائيل أيضًا، وجُلَّ خطابه لهم.

﴿وَالذِينَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ﴾ بالدار الآخرة الحاصلة بالبعث للثواب والعقاب إيمانًا تامًّا، بتفكُّر يثمر الإعراض عن الحظوظ الدُّنْيَوِيَّة، والعلم بأنَّ دين محمَّد ﷺ هو دين الله، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يُومِنُونَ بِهِ﴾ بالكتاب الذي هو القرآن، أو بمحمَّدٍ ﷺ، وعليه فمقتضى الظاهر: يؤمنون بك، للخطاب في قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾، وهذا ولو كان فيه مراعاة أقرب مذكور، لَكِنَّ الأصل عدم الالتفات؛ ومن الجائز عوده إليهما معًا بتأويل ما ذكر. والجملة [«يُومِنُونَ بِهِ»] خبر «الذِينَ». ويضعف عطفُ «الذِينَ» على «أُمَّ القُرَى» وجعلُ «يُومِنُونَ» حالاً من «الذِينَ»، لأنَّ المؤمنين بالقرآن والنبيء ﷺ المحافظين على صلاتهم أنسب بالتبشير، والمقام بِهِ أنسب لأنَّه مقام استدعاء للإيمان، ولا وجه لإنذارهم سوى الحثّ على الدوام على ما هم عليه، والزجر عن الإعجاب والأمن.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِم﴾ قدِّم بطريق الاهتمام، وللفاصلة، ﴿يُحَافِظُونَ﴾ خوفًا من عقاب الآخرة. وخصَّ المحافظة عليها بعد الإيمان لأنَّها أشرف الأعمال بعد التوحيد، ولأنَّها تدعو إلى سائر العبادات، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، فهي عماد الدِّين وعَلَم الإيمان. والآية تعريضٌ بأنَّ إيمان اليهود بالآخرة

غير محقَّق، وغير معتدٍّ به، لأنَّه لم يحملهم على التصديق بالقرآن ورسول الله ﷺ والمحافظة على الصلوات الخمس، بل لا يصلُّونها البتَّة، وتعريض بالمنافقين المضمرين للشرك لأنَّهم لا يحافظون عليها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾

افتراء الكذب على الله وعقاب ذلك

﴿وَمَنَ اَظْلَمُ﴾ استفهام إنكار، أي لا أظلم لنفسه وللخلق ولدين الله ﴿مِمَّنِ اِفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ مفعول به لـ«افْتَرَى»، أي اختلق كذبًا وأنشأه. [قلت] ويضعف كونه مفعولاً مطلقًا، وكونه حالاً مؤكَّدة، أي ذا كذبٍ، أو كاذبًا، لأنَّ الافتراء أخصُّ من الكذب، فليس كقولك: قمت وقوفًا، أو قمت واقفًا، ولا يتبادر المعنى هنا بالنصب على التعليل. وافتراءُ الكذب: أن يقول: أنا نبيء؛ أو أنا رسول من الله؛ أو ذلك ودعوى الولد والشريك؛ أو: ما أنزل الله على بشر من شيء.

﴿اَوْ قَالَ أُوحِيَ﴾ أي أوحي الوحيُ، أي ما من شأنه أن يوحى، أو النائب هو قوله: ﴿إِلَيَّ﴾ وهو أولى، لأنَّ الأوَّل يشير إليه لفظ «أُوحِيَ» مع أنَّه معمول لـ«أُوحِيَ»، ولا يتكرَّر قوله: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ مع قوله: ﴿اِفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ لاختلاف التلفُّظ، إذ افتراء التلفظ أن يقول: أنا نبيء أو رسول، وهو غير لفظ: «أُوحِيَ إِلَيَّ». وأولى من ذلك أن يقال: ﴿اِفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ بمعنى: أرسل الله فلانًا أو نبَّأه، وليس كذلك وغير ذلك، وذلك كمسيلمة، وسَجاح امرأته، والأسود العنسيِّ، فهم قالوا: أنا نبيء، وأقوامهم قالوا كذبًا عليهم: إنَّ هؤلاء أنبياء، وذلك على عهد رسول الله ﷺ، وقُتِلوا في خلافة الصدِّيق. أو قال: أباح الله عبادة غيره، أو: حرَّم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، ونحوَ ذلك من الافتراء في دين الله عزَّ وجلَّ. ولا يقال: العطف تفسير أو تفصيل، لأنَّ ذلك لا يكون بـ«أَوْ». ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾ الهاء للمفتري؛ وَقِيلَ: للنبيء والكلام من المفتري، والواو للعطف، أو للحال، ﴿شَيْءٌ﴾ الجملة حال من ضمير «قَالَ». ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ﴾ من نفسي؛ وَقِيلَ: معناه: أنا قادر على الإنزال ﴿مِثْلَ مَآ أَنزَلَ اللهُ﴾ عطف على «مَنْ»، كعبد الله بن سعد بن أبي سرح، إذ قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(سورة المؤمنون: ١٤) بعد كتابته ما قبلها، فقال له رسول الله ﷺ: اكتبها فإنَّها نزلت كذلك، فارتدَّ فقال: إنِّي أوحيَ إِليَّ كما أوحي إلى محمَّد، وإن كان محمَّد كاذبًا فقد قلت ما يقول. ومِن لازمِ مَن أُوحيَ إليه في الجملة أن يوحَى إليه بعدُ؛ أو صرَّح بأنَّه: سيوحى إِليَّ، وأسلم بعدُ، وكان فتحُ أكثرِ بلاد الغرب على يديه[1]. وككُفَّار قريش إذ قالوا:

١- يعني المَغْرِب الإِسْلاَمِي، كما هو مشهور في التاريخ.

لو نشاء لقلنا مثل هذا، على معنى: لقلنا بالوحي من الله مثل ذلك، وما قاله محمَّد إلاَّ ما سطَّره الأولون من الوحي وليس موحى إلى محمَّد، وهم المستهزئون.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمَّد، أو من يصلح لأن يرى، أي: ولو ترى الظالمين إذ هم في غمرات الموت، لكن لـمَّا حذف لزم الإظهار وبطل الإضمار، فقال: ﴿إِذِ﴾ ظرف للرؤية ﴿الظَّالِمُونَ﴾ المذكورون بالافتراء على الله، والقول: «أُوحِيَ إِلَيَّ»، والقول: «سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ». ويجوز كون «إِذْ» مفعولاً لـ«تَرَى»، أي: ولو شهدت ذلك الوقت بما فيه. ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ شدَّاته، وَكَأَنَّهُ تغمرهم سكراته كما يغمر الماءُ مَنْ فِيه. وجواب «لَوْ» محذوف يقدَّر بعد «تَسْتَكْبِرُونَ»: لرأيت أمرًا فظيعًا. ويجوز أن تكون «لَوْ» تمنيِّة فلا جواب لها.

﴿وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ﴾ الجملة حال من ضمير قوله: ﴿فِي غَمَرَاتِ﴾، أو عطف على الاسميَّة قبلها، والمُراد: بسط الأيدي بالعذاب بما قدروا عليه في ضرب الوجوه والأدبار بمقامع من حديد؛ أو بسطها بعصر الأرواح كالغريم المِلِحِّ على من عليه الحقُّ لا يؤخّره لحظة، القائل: لا أفارقك حتَّى أنزع حقِّي من كبدك وحدقتك وقلبك.

﴿أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ﴾ أرواحكم إلينا من أبدانكم لنقبضها، وهذا مجاز مركَّب، إذ لا قدرة لهم على إخراج أرواحهم إلى الملائكة، وإنَّما المُراد: الإيذاء والتغليظ، كما أنَّ المُراد التحسُّر لا ظاهر اللفظ، كما في قوله:

هوايَ مع الركب اليمانين مُصعدُ جَنيبٌ وجثماني بِمَكَّةَ موثق

ويروى أنَّ أرواح الكفَّار تأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتَّى تخرج. أو: خلِّصوا أبدانكم من أيدينا، وأُنجُوها من عذابنا. أو الأمر للتعجيز. ويجوز كون ذلك استعارةً مركَّبة للإلحاح والتشديد. **والحملُ على الحقيقة أولى وهي الأصل.** والجملة محكيَّة بحال محذوف، أي قائلين: أخرجوا أنفسكم.

﴿**الْيَوْمَ**﴾ وقت غمرات الموت، أو وقت الموت إلى ما لا نهاية له، متعلِّق بـ«أَخْرِجُوا»، أي أخرجوا أرواحكم اليوم، أي في الدنيا؛ أو خلِّصوا أبدانكم من العذاب اليومَ أي في الدنيا؛ والمتبادر تعليقه بقوله: ﴿**تُجْزَوْنَ**﴾ واليوم وقت غمرات الموت، أو يوم القيامة، ﴿**عَذَابَ الْهُونِ**﴾ أي الهوان، عذاب الموت، أو ما بعده، كقوله: ﴿أَيُمْسِكُهُ, عَلَىٰ هُونٍ﴾ (سورة النحل: ٥٩)، أي على هوان. وأضيف العذاب للهون لأصالته في الهوان وتمكُّنه فيه، وللتحرُّز من عذاب يكون للتأديب والزجر، كضرب الأدب والحدود والنكال، وكعذاب السعيد في موته تطهيرًا من الذنوب؛ أو بُولغ بأنَّه نفس الهون، فاعتبر النعت به، أي العذاب الهون كما في آية أخرى[1]، ثمَّ أضيف إليه.

﴿**بِمَا كُنتُم تَقُولُونَ عَلَى اللهِ**﴾ أي بكونكم تقولون. وتراهم يُقَدِّرُون الخبر من مصدر خبر الكون زعمًا منهم أنَّ «كَانَ» التي لها خبرٌ لا مصدرَ لها، وليس كذلك، فيقدِّرون: «بقولكم». ﴿**غَيْرَ الْحَقِّ**﴾ كدعوى النبوءة، والإيحاء لغير أهلها، وإنزال مثل ما أنزل الله، ودعوى الولد والشريك. و«غَيْرَ» مفعول به لـ«تَقُولُونَ». نَصَب المفرد لتضمُّن معنى ذكر، أو لأنَّه في معنى الجملة، فإنَّ قولَ: «أنا نبيءٌ» أو «لله ولدٌ» ونحوَ ذلك جملةٌ أو نعتُ مصدرٍ محذوفٍ، أي:

١- سورة فصلت: من آية ١٧.

قولاً غَيْرَ الحقِّ.

﴿وَكُنتُم عَنَ ءَايَاتِهِ﴾ عن تصديق آياته ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ترتفَّعون فلم تتأمَّلوا، فلم تؤمنوا بها أو با لله، والمُراد بالآيات: النقليَّةُ أو العَقلِيَّةُ أو كلتاهما.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ عن أهلكم وأموالكم وأولادكم. والقائل: الملائكة، كما يناسب قوله: ﴿وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمُ, أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ﴾، يقولون على ا لله، بدليل «جِئْتُمُونَا»، و«خَلَقْنَاكُمْ»، و«خوَّلْنَاكُمْ». أو القائل: ا لله لتلك المناسبة. أو فرادى عن الأعوان والشركاء، ويناسب فرادى عن أهلكم وأموالكم وأولادكم قولُه تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمُ, أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُم وَرَآءَ ظُهُورِكُم﴾ ويناسب فرادى عن الأعوان والشركاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذِينَ زَعَمْتُمُ, أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآؤُاْ﴾

(سبب النزول) قال عكرمة: قال النضر بن الحرث: سوف تشفع لي اللاَّت والعزَّى، فنزلت الآية.

والمُراد: يقول ملائكة العذاب، أو ملائكة الموت، أو يقول ا لله يوم الموت أو يوم البعث، وهو أظهر، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمُ, أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وعلى إرادة الملائكة فإنَّما قالوا ذلك عن ا لله، كما يقول عامل السلطان: أمرناكم بكذا، أو نهيناكم عن كذا، والآمر أو الناهي السلطانُ، ولا داعي إلى اختيار "الفخرُ" لهذا ولو كانوا حين ماتوا فرادى عن ذلك أذلاَّء. ويجوز تقدير: «قال الملائكة»، أو «قلنا» لتحقُّق الوقوع، أو لحكاية ما يُعَبَّرُ عنه يوم القيامة فيهم من المضيِّ.

(صرف) فرادى جمع فرد أو فريد، أو فَرْدَان كسكران عند الفرَّاء،

وقال ابن قتيبة: جمع فردان كسكران وسكارى وعجلان وعجالى وكسلان وكسالى؛ وَقِيلَ: جمع فريد كرديف وردافى وأسير وأسارى، والمشهور، أنَّ أسارى جمع أسرى، وأسرى جمع أسير. وأَلِفُه للتأنيث؛ وَقِيلَ: فرادى اسم جمع.

ومعنى قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي مجيئًا ثابتًا، أو مجيئًا مثل مجيئكم يوم خلقناكم، ووجه الشبهِ: عدمُ الاقتران بشيء حتَّى اللباس. أو حال من ضمير «فُرَادَى»، أي: انفردتم ثابتين في الشبه كحال ابتداء خلقكم؛ أو حال ثانية؛ أو بدل من «فُرَادَى».

والخلق في البطن وهم فيه مجرَّدون عمَّا قرنوا به بعد الولادة من لباس وغيره؛ أو «خَلَقْنَاكُمْ» بمعنى: أخرجناكم من بطون أُمَّهَاتكم، يخرجون غرلاً كما جاء في الحديث، أي غير مختونين، وكذلك المرأة المختونة تبعث غير مختونة، وكلُّ شيء ذهب من جسد إنسان يبعث راجعًا فيه. وقرأت عائشة رضي الله عنها هذه الآية فقالت: «يا رسول الله، واسوأتاه! إنَّ الرجال والنساء سيحشرون جميعًا ينظر بعضهم إلى سوأة بعض! فقال رسول الله ﷺ: «**لِكُلِّ امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، لا ينظر الرجال إلى النساء، ولا النساء إلى الرجال، شغل بعضهم عن بعض**»[1]. وسمِّي الإخراج خلقًا لأنَّ الجنين لم يتحقَّق بالمشاهدة حتَّى وُلد، فاستعار الخلق للإخراج، ولأنَّ الخلق سبب للإخراج، والأوَّل أولى لأنَّه حقيقة، كما جاء في القرآن إطلاق الخلق في النطفة

١- رواه **الترمذي** في كِتَاب التفسير (٧٣) باب: ومن سورة عبس، رقم ٣٣٢٢. من حديث ابن عبَّاس.

وما بعدها.

و«مَرَّةٍ» مصدرٌ، استعمل بمعنى زمان، والخلقُ الثاني: الإعادةُ للبعث، فـ«أوَّلَ» ظرفٌ لإضافته للظرف. وعَطَفَ على قوله: ﴿جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ قولَه: ﴿وَتَرَكْتُم﴾ عند الموت ﴿مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أعطيناكم تفضُّلاً منَّا عليكم في الدُّنيا، من مال وصحَّة وجاهٍ لتطيعوا الله ولم تطيعوه، بل شغلكم ذلك عن الطاعة، ولم تنتفعوا به، كما قال: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾، والجملة حال من تاء «جِئْتُمُونَا» بلا تقدير «قَدْ» أو بتقديرها، والمُراد: ما قَدَّمتم منه شيئًا ينفعكم اليوم ولو نقيرًا، ولا صحبتم منه نقيرًا، فقد وردتم الموقف منفردين عمَّا لكم وعمَّا بين أيديكم في الدنيا، وعن حسنة تنفعكم إذ لا ينتفع مشرك بحسنة تمنعه من النار، وعبدتم غير الله، ولم تنفعكم عبادة غيره، كما قال:

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآؤُاْ﴾ لله في العبادة وَالرُّبُوبِيَّة، بخلاف المؤمن فإنَّ عمله الصالح صاحَبَه من حين موته إلى أن وافى به عرصات الموقف. ومن المؤمنين من يُبعث في كفنه، أو لباسٍ يجده عند مبعثه، وحديث بعثِ الناس عراةً ليس على عمومه: «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً»، أي غير مختونين، وليس في الآية ما يناسب أن يقال المُراد: كما خلقناكم أوَّل مرَّة غرلاً حفاة عراة، بل المُراد عدم النعال واللباس ونحوهما، وذلك أنَّهم لم ينفردوا عن الغرلة، وهي قلفة الختان حين البعث، نعم يصحُّ في الإعراب بالحال أن تراد الغرلة، أي فرادى عن الأموال والأهل والأزواج ونحوِهم حالَ كونهم غرلاً كما أنَّكم في الدُّنيا قبل الولادة غرل، فيكون الكلامُ أشدَّ انتظامًا.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي تقطّع هو، أي الوصل، دلّ عليه المقام، فإنّ الشركاء تقتضي الوصل؛ أو تقطّع التقطُّع، أي وقع. وأمَّا عود الضمير إلى التقطُّع بلا تأويل بـ«وَقَعَ» فلا يجوز، كما لا يجوز: قام أي هو أي القيام، وأمَّا ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ (سورة يوسف: ٣٥) فلا يَرُدُّ ذلك لأنَّ بَدَا البَدَاءُ مشهورٌ، ولجواز: بدا لهم السجن، وغيرُ ذلك من التأويل.

(نحو) وأجاز الكوفيُّون حذف الفاعل وحذف الموصول وبقاء صلته ولو لم يتقدَّم مثله، أي: تقطّع ما بينكم، كما قرأ به ابن مسعود، ومثل هذا أن يقال: تقطّع وصل ما بينكم، فـ«بَيْنَ» نعتٌ لمحذوف، و«مَا» نكرة موصوفة قبلُ؛ أو «بَيْنَ» فاعلٌ باق على نصبه، وأجاز بعضهم أن يكون «بَيْنَ» فاعلاً بمعنى الوصل من الأضداد، بُني على هذا لإضافته لمبنى، ولو لم يكن المضاف متوغّلاً في الإبهام؛ وهو فيما قَبلَ هذا الوجه معربٌ منصوبٌ على الظرفيَّة. ويجوز تنازع «تَقَطَّعَ» و«ضَلَّ» في «مَا»، ففاعلُ «تَقَطَّعَ» «مَا»، وفاعل «ضَلَّ» ضميرُ «مَا»، أو بالعكس.

﴿وَضَلَّ﴾ ذهب ﴿عَنكُم مَّا كُنتُم تَزْعُمُونَ﴾ أنَّه إله، أي غابت أصنامهم وكلُّ ما يعبدون من آدميٍّ أو بقرة أو غيرها ولم تحضر، وتارة تحضر فتلعنهم، وتشتدُّ الحسرة عليهم بحضورها لاعنة موبِّخة؛ أو يراد بضلالها عدم نفعها حضرت أو غابت. أو ضلَّ عنكم زعمكم أنَّها شفعاؤكم، وأن لا بعث ولا جزاء. وَمَعنَى ضلالِ الزعمِ: بطلانُه وعدمُ ظهورِ نفعٍ به.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

من قدرة الله الباهرة في الكون

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ شاقُّهما بالإنبات، فهو الذي يستحقُّ العبادة لا ما لا يفعل ذلك، وهذا أيضًا دَليل للبعث، **والحَبّ**: ما لا نواة له كالبُرِّ والشعير وبذر البصل والثوم. **والنَّوى**: كنوى التمر ونوى الزيتون ونوى الخوخ، يشقُّ ذلك عن النبات، وليس المُراد أنَّه جاعل الشقِّ في حبِّ البُرِّ وفي نوى التمر، كما قيل: إنَّ الأوَّل أفيَد وأدلُّ على البعث، إلاَّ أن يراد جاعل الشقِّ فيهما للنبات، فيرجع إلى ما ذكر، إلاَّ أنَّ نواة التمر ينبت الورقة من نقيرها لا من شقِّها، فنقول شقَّها نقيرها، وشقَّ نواة الخوخ والمشمش من الجهة التي هي كالمتلاصقين ومنها النبات.

(لغة) وإذا أطلق النوى فنوى التمر فالأولى تفسير الآية بِهِ، وإذا أريد غيره قيِّد فقيل مثلاً نوى الخوخ. وقدَّم الحبَّ لأنَّه كثير المنافع وأصل الأغذية، والحبُّ ما يقصد بالذَّات كالبُرِّ والشعير والحمص، والنوى ما ليس كذلك، فظاهره أنَّ بذر البصل والثوم، والقثَّاء والجزر واللفت ونحوه يسمَّى نوى، ولا يعهد ذلك.

ويقال: فالق بمعنى خالق، وهو مرويٌّ عن ابن عبَّاس والضحَّاك. وفالق للماضي أي هو الذي فلق ما رأيتم من الحبِّ والنوى عن النبات، أو للاستمرار. ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الحيُّ: ما ينمو من الحيوان والنبات، ومنه المرجان والأحجار التي تنمو، والميِّت: ما لا ينمو كالنطفة والبيضة والحبَّة والنواة، ويخرج منه ما ينمو كورق الحبَّة والنواة، وما يتولَّد من النطفة والبيضة والماء، وفي ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز. ويتخلَّص عن ذلك بدعوى عموم المجاز بأن يراد مطلق ما ينمو وما لا ينمو؛ أو الحيُّ الحيوان والميِّت ما يتولَّد الحيوان منه كالنطفة والبيضة والماء؛ أو الحي الحيوان والميت ما مات بعد حياة. وبحث في هذا بأنَّ الجملة بيان لفالق الحبِّ والنوى ولذلك لم تعطف. وهي في الوجه الأخير لا تصلح بيانًا له.

وقوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ فإنَّه لا يصلح بيانًا له، فعطف على «فَالِقُ» لا على «يُخْرِجُ» الذي هو بيان، كما هو قول مشهور، وذلك بأن تؤول «مُخْرِجُ» بـ«يُخْرِجُ» على أنَّ «يُخْرِجُ» مستأنف، أو تؤول «يُخْرِجُ» بـ«مُخْرِجُ» على أن «يُخْرِجُ الْحَيَّ» خبر ثان لـ«إنَّ». والميِّت: النطفة والبيضة والحيُّ ما يتولَّد منهما. ولا يقال يَتَعَيَّنُ العطف على «يُخْرِجُ» بدليل قوله تعالى

في الآية الأخرى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (سورة الروم: ١٩)، لأنَّا نقول: الآية الأخرى لا مانع فيها من العطف، إذ ليست بيانًا لما قبلها.

وعلى كلِّ حال كان «يُخْرِجُ الْحَيَّ» بصيغة الفعل المضارع ليكون أدلَّ على التكرار المشاهد المستحضر. وقدِّم إخراج الحيِّ لأنَّه أعظم في القدرة ولأنَّه أنسب بالاستدلال على البعث، ولأنَّ فائدته أزيد، ولأنَّه أسبق، ولأنَّ الاعتناء به أكثر، وذلك أنسب بالمقام من قولك: المُراد المسلم من الكافر كإبراهيم من آزر والكافر من المؤمن كولد نوح الآوي إلى الجبل.

﴿ذَالِكُم﴾ اسم إشارة يعود إلى الله، كما جاء فيه لفظ «ذَلِكَ» في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَالِكَ بِقَادِرٍ...﴾ (سورة القيامة: ٤٠)، ويجوز في الكلام ذَلِكِ بكسر الكاف أيضًا وَذَلِكُما وَذَلِكُنَّ، كما في غير الله. ولا يجوز في الله عزَّ وجلَّ أن يقال: هذا أو ذاك أو هذاك لعدم الورود، ولو كان اسم الإشارة في ذلك كلِّه واحد، أو هو لفظ «ذا» لكن على معنى: مَن فَعَلَ كذا وكذا فهو الله.

والمعنى: ذلكم الفالق المخرج ﴿اللهُ﴾ فهو لفعله ذلك مستحقٌّ للعبادة ﴿فَأَنَّىٰ تُوفَكُونَ﴾ كيف تصرفون؟ أو من أين وجه تصرفون عن الإيمان به وعبادته إلى الإيمان بغيره وعبادة غيره؟ مع قيام البرهان على أُلُوهِيَّته وتوحيده.

(أصول الدِّين) واستدلَّ به بعض المعتزلة بأنَّ الله عزَّ وجلَّ وسبحانه وتعالى لم يخلق فعل العبد وإلاَّ لم يقل له: أنَّى يوفكون، وذلك

خطأ منهم، قبَّحهم الله، فإنَّ المعنى إنكار لياقة صرفهم عن الإيمان مع تيسير أدلَّته وفهمها.

﴿فَالِقُ الاِصْبَاحِ﴾ شاقُّ ضوء الصبح، خبر آخر لـ«إِنَّ»، أو لـ«ذَلِكُم»، أو يقدَّر: هو فالق الإصباح لا نعت للفظ الجلالة لأنَّ إضافته لَفْظِيَّة إلاَّ إن كان المُراد: فالق الإصباح فيما مضى، أو إضافة فالق إلى الإصباح إضافة لغير مفعوله، أي فالق الظلمة بالإصباح، فهو كقولك كاسب عياله، أي كاسب المال لعياله، وعلى هذا فالمفلوق: الظلمة فلا إشكال، وإمَّا على أنَّها للمفعول فيشكل أنَّ الإصباح غير مفلوق، وإنَّما المفلوق الظلمة، وأجيب بأنَّ التقدير: فالق ظلمة الإصباح، فحذف المضاف. وظلمة الإصباح: هي بقيَّة ظلمة الليل؛ أو شاقُّ عمود الصبح عن ظلمة الليل، والمراد الفجر الكاذب؛ أو شاقُّ عمود الصبح عن بياض النهار، والجنوب والمغرب كبحر مظلم يشقُّه ضوء الصبح، كما عبَّر عن الشقِّ بالفلق.

والحاصل أنَّه كما يشقُّ الظلمة الخالصة الواقعة في الليل، ويخرج منها عمود الصبح وهو الفجر الكاذب، كذلك يشقُّ ذلك العمود ويخرج منه الظلمة الخالصة، ويخرج منه أيضًا بياض النهار. والصبحُ الكاذب تعقبه الظلمة الخالصة، ويطلع بعده الصادق. فالله عزَّ وجلَّ فالق الإصباح الأوَّل عن ظلمة آخر الليل، وفالق الظلمة عن الصادق.

(لغة) والإصباح: عبارة عمَّا يبدو من النهار من كاذب أو صادق، وأصله الدخول في الصباح، فسُمِّيَ المحلُّ باسم الحالِّ. وعن ابن عبَّاس: الإصباح ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل. وعن مجاهد:

إضاءة الفجر.

(فائدة فلكيَّة) واعلم أنَّ الجوَّ جسم لطيف يتكاثف مع الأجزاء اللطيفة من الأرض كالمياه والأجزاء من الأرض، وإذا قابلتها الشمس التصق به ضوءها من خلفها صبحًا وقدَّامها غروبًا، وهذا التكاثف لا يبلغ مقدار ما يحجب ما وراءه، ولا يتجاوز من سطح الأرض إلى فوق إحدى وخمسين ميلاً.

﴿وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ يُسْكَنُ إليه من التعب بالنهار ويرتاح إليه.

(لغة) وكلُّ من تميل إليه وتأنس به من أهل أو صديق أو مال أو غير ذلك، فهو سكنك، وفي لامية العجم:

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني فيها ولا ناقتي فيها ولا جملي

أو هو من السكون ضدَّ الحركة، فإنَّ أكثر الحيوان من الدَّابَّة والطائر يترك فيه الحركة استراحة، ويناسبه قوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ (سورة يونس: ٦٧)، وعلى الوجهين فيه الحذف والإيصال، أي المسكون إليه أو المسكون فيه، كالفلق بمعنى المفلوق منه، و«سَكَنًا» مفعول به ثان و«جَاعِلُ» للاستمرار التجدُّديِّ، والجعل: تصيير؛ وبعضٌ لا يجيز عمل الاستمراريِّ تغليبًا لجانب الماضي، ولو جعلناه للماضي لكان «سَكَنًا» حالاً مُقَدَّرَة، والجعل: الخلق. والكوفيُّون يجيزون عمل الوصف الذي للماضي، لأنَّه بمعنى الفعل؛ وبعض أجاز عمله إن قرن بـ«الـ».

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ عطف على معمولي عامل واحد، عطف الشمس والقمر على محلِّ الليل، فإنَّ «اللَّيْل» مفعول به لـ«جَاعِلُ» و«حُسْبَانًا»

على «سَكَنًا» مفعول ثان، أو حال مُقَدَّرَة. وَمَعنَى ﴿حُسْبَانًا﴾: يجريان على حساب أدوار مختلفة تحسب بهما الأوقات، تَتِمُّ دورة الشمس بالسنة للحرث والنسل ونضج الثمار وغير ذلك والعبادات، والقمر بالشهر للحجِّ وأجل الدَّين وغير ذلك، والعبادات؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾(سورة يونس: ٥)، و﴿حُسْبَانًا﴾ بمعنى الحساب، أي ذوي حساب، أو علامتي حساب. وقدَّر الأخفش: «يجريان بحسبان» فحذف الجارَّ، ويدلُّ له آية سورة الرحمن (الآية: ٣)؛ وَقِيلَ: جمعُ حسابٍ كشهابٍ وشُهْبَان.

﴿ذَلِكَ﴾ الجعل حسبانًا وهو إجراؤهما على حساب ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ تحديده لهما بقدر معلوم متجدِّد، أو بقضائه الأزليِّ، وذكرهما بالعِزَّةِ لأنَّه سبحانه وتعالى قاهر لهما على الوجه المخصوص، وبالعلم لأنَّه العالم بتدبيرهما وتدبير سيرهما، وبالأنفع من التداوير، أو المراد العليم بِكُلِّ شيء ومنه علمه بشأنهما.

﴿وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ خلقها لكم، أو صيَّرها ثابتة لكم، وهذه اللام للنفع بخلاف اللام في قوله: ﴿لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فإنَّها للتعليل فجاز تعليقهما بعامل واحد بلا تَبَعِيَّة لاختلاف معناهما، فلا حاجة إلى جعل «لِتَهْتَدُوا» بدلاً من «لَكُمْ» بدل اشتمال توصُّلاً إلى جواز ذلك بالتبعيِّة، وأيضا هذه التَبَعِيَّة لا تجوز، كيف يجوز إبدال ما هو للتعليل مِمَّا هو للنفع إلاَّ إن جعلنا الثانية للنفع كالأولى أو الأولى للتعليل كالثانية فيجوز الإبدال. ويجوز أن يكون «لِتَهْتَدُوا» مفعولاً ثانيًا.

والمُراد ظلمات البرِّ والبحر ليلاً في السفر وما يلتحق به مِمَّا فيه خفاء. وأضاف الظلمات إلى البرِّ والبحر لأَنَّهُما محلُّها، فهي إضافة حالٌ لمحلٌ، والأصل إضافتها لليل، أو المُراد بالظلمات مشتبهات الطرق على الاستعارة التصريحيَّة لجامع خوف المَضَرَّة وعدم الأمن وعدم الوصول إلى البغية، وقوله: ﴿لِتَهْتَدُوا﴾ تخصيصٌ بعدِ التعميم بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ فإنَّ قوله: ﴿لَكُمْ﴾ يعمُّ تزيين السماء بها وجعلها رجومًا للشياطين.

(أصول الدِّين) وحديث الربيع والبخاري ومسلم: «**أصبح من عبادي مؤمن وكافر**»[1] محمول على ما إذا قال: إنَّ طلوع نجم كذا أو سقوطه هو الممطر، وأمَّا من قال: يمطرنا الله تعالى عند ذلك وأنَّ ذلك علامةٌ فلا يكفر، ولكن يجتنب لفظ الكفر وما يوهمه، مثل أن يقول: مُطِرنا بنوء كذا، بل يقول: أمطرنا الله تعالى. وكذلك يجوز أن يستدلَّ باقتران الكواكب وافتراقها على وقوع أو انتفاء، كالأمطار والرياح والثلوج والرخص والغلاء، ويجوز أن يقال: ذلك علامة كذا والفاعل هو الله سبحانه. واختلفوا هل لتلك الأشياء تأثير لكن با لله، مثل تأثير الماء في النبات؛ وَقِيلَ: لا تأثير لها بل عندها من الله تعالى، **وهو الصحيح** والأحوط، وهو مذهبنا ومشهور الأشاعرة، وقال سلفهم بِالأَوَّلِ.

﴿**قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ**﴾ من المتلوَّة والتكوينيَّة، بيَّناها شيئًا فشيئًا لِيُستدلَّ بها

١- رواه **الربيع** في مسنده (١٠) باب في ذكر الشرك والكفر، رقم ٦. ورواه **مسلم** في كِتَاب الإيمان (٣٢) باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء. رقم ١٢٥ (٧١). من حديث خالد الجهني.

على قدرتنا، أو بيانًا بعد بيان في معنى واحد، لأنَّ العِلمين خير من علم واحد.
﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأيِّ قوم أرادوا العلم، أي التدبُّر، أو أراد خصوص من يتدبَّر لأنَّه المنتفع بها كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة: ١).

﴿وَهُوَ الذِي أَنشَأَكُم﴾ خلقكم. قال هنا «أنشأ» بخلاف بقيَّة السور ليس فيها لفظ «أَنشَأَكُمْ» ليوافق قوله بعد: ﴿وَهُوَ الذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ﴾ والكلُّ في الإيجاد بعد العدم للدلالة على البعث، وقد وافق قوله قبل: ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ـاخَرِينَ﴾ فينبغي أن يقال كلاهما لموافقة ﴿أَنشَأَ جَنَّاتٍ﴾، إذ هنَّ في سورة واحدة نزلت بمرَّة؛ أو للتفنُّن؛ أو لاعتبار مفهوم الخلق تارة وهو قطع الشيء وفرضه، ومفهوم أنشأ تارة وهو الإبداع. والخطاب لبني آدم كُلِّهم؛ أو من وُجِد وقت النزول ومن وجد بعده.

﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم، ومنه خُلقت حوَّاء من ضلعه، وعيسى إذ هو من مريم ومن ذرِّيَّته، ويأجوج ومأجوج، وإذا كنتم من نفس واحدة فَلِمَ يتعاظم بعض على بعض؟ ولِمَ لا تكونون في المعاونة على الخير كواحد؟ ولِمَ يظلم بعضكم بعضًا وكأنَّه ظَلَم نفسه؟ والرجوع إلى أصل واحد أقرب إلى التوادِّ، وقد اجتمعنا أيضًا في نوح، وجمهور العرب في إسماعيل وإبراهيم، وأهل التوحيد على اختلاف المذاهب في دين الإسلام، والنبيِّ محمَّد ﷺ، ومع كونكم من نفس واحدة اختلفت أجسامكم في الألوان والخصال والأحوال وذلك لكمال قدرته تعالى.

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ مصدران، أي فلكم استقرار واستيداع؛ أو اسما مكانٍ أي موضع استقرار وموضع استيداع؛ أو اسما زمان أي مدَّة استقرار ومدَّة

استيداع. والاستقرار في الأصلاب والاستيداع في الأرحام؛ أو الاستقرار في الأرحام والاستيداع في القبور؛ أو الاستقرار في الأرض والاستيداع في القبور؛ أو الاستقرار في الأصلاب وفي الأرحام وفي الأرض، أو في بعض ذلك والاستيداع في القبور.

وناسب الاستقرار الصلب والاستيداع الرحم لأنَّ النطفة في الرحم بفعل الأب فكأنَّه استودعها ولا استيداع له في الصلب، والله يستودع كلَّ ما يشاء لما شاء، ويراد ذَلِكَ كلُّه. [قلت]: أخرج الله ذرية آدم منه وردَّها فيه، ولا بأس من تسمية هذا الردِّ استيداعًا، فالصلب مستودع. ويناسب الاستقرار في الأرحام قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الاَرْحَامِ﴾ (سورة الحج: ٥)، ويناسب الاستقرار في الأرض قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الاَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ (سورة البقرة: ٣٦، والأعراف: ٢٤). والإنسان وديعة في القبر يخرج منه تارة أخرى، وصلب الأب مستقرٌّ للنطفة، وقدِّم على الاستيداع لتقدُّمها في الصلب على وقوعها في الرحم، إمَّا على أن تولد من نطفة الأب فقط وهو ضعيف فواضح، وإمَّا على أنَّه منها ومن نطفة الأمِّ ففيه أنَّ نطفة الأمِّ في الترائب متقدِّمة على الرحم، فيجاب بأنَّ نطفته أعظم وعمدة.

وأُبيٌّ بن كعب فسرَّ الآية بالاستقرار بالأصلاب وبالاستيداع في الأرحام؛ وأكثر الروايات عن ابن عبَّاس كما أجاب بهِ حَبر تيماء إذ سأله: إنَّ المستقر الرحم والمستودع الصلب، لقوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الاَرْحَامِ﴾ (سورة الحج: ٥)؛ وعن الحسن: أنت وديعة في أهلك، ويوشك أن تلحق بصاحبك، وقال لبيد:

وما المال والأهلون إلاَّ ودائع ... وَلاَ بُدَّ يومًا أن تردَّ الودائع

ويقوِّي قولَ ابن عبَّاس أنَّ المستقرَّ أقرب إلى الثبات من المستودع، فعنه أنَّ النطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زمانًا طويلاً، والجنين يبقى في الرحم زمانًا طويلاً، وقال سعيد بن جبير: قال لي ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هل تَزَوَّجت؟ قلت: لا. قال: أمَا إنَّه ما كان مستودع في ظهرك فسيخرجه الله.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الاَيَاتِ لِقَومٍ يَفْقَهُونَ﴾ ذكر العلم في النجوم والفقه في تخليق بني آدم لأنَّ أمر النجوم ظاهر مشاهد في الاهتداء، وتخليق بني آدم من نفس واحدة وتُصريف أحوالهم وأطوارهم غامض.

ومادَّة «فقه» لِمَا يحتاج لتدقيق نظر وللشقِّ والفتح، والفقيه من يشقُّ الأحكام ويفتِّش عن حقائقها ويفتح ما استُغْلِق، ومن ذلك أنَّ علم الشريعة سمِّيَ فقها لاحتياجه إلى تدقيق النظر للاستنباط، وأنفس بني آدم أدقُّ صنعًا، فكذلك الاستدلال بها على الصانع أدقُّ؛ وَقِيلَ: العلم والفقه بمعنًى. وذَكَر الفقه لئلاَّ تتكرَّر الفاصلة وللتفنُّن؛ وَقِيلَ: الفقه دون العلم، كحال من لا يتأهَّل للعلم كالحيوانات، وقد يكون لشيء أهليَّة للعلم ولم يعلم فتقول: لا يعلم، ومن لا يستدلُّ من نفسه شبه حمار، والله المستعان.

امتنَّ الله علينا بإيجادنا في الآية السابقة، وبما نحتاج إليه في معاشنا بقوله: ﴿وَهُوَ الذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾، أي من السحاب أو من جهة السماء، وقال أبو عليٍّ الجبَّائي من المعتزلة في كلِّ آية فيها إنزال الماء من السماء أنَّها على ظاهرها إذ لا دليل يخرجها عن الظاهر، فالله خلق الماء في السماء وأنزله إلى السحاب، [قلت]: هو محتمل صحيح والله قادر أن يوصله إلى السحاب في لحظة من مسيرة خمسمائة عام في الهواء بعد خمسمائة في الغلظ؛ أو هو منزل

بتدريج متوال على مقادير من الزمـان متواصلـة، وشـاهد "القبـائل"[١] ونحوهـم وهم على جبل عال سحابًا ومطرًا أسفل منهم، فيقال: ذلك من بخارات تجتمع تحت الأرض وتخرج وتنعقد ماء كما نشاهد القطر من سقف الحمَّام، ولا يلزم من صعودها دائمًـا الإمطار دائما، وأن لا مطر في الصيف وأن لا يحصل البرد وقت الحرِّ، ولا أنَّ تَصَعُّدَ البخارِ يدعو إلى تفرُّقه فكيف ينعقـد؟ لأنَّ للهِ تعالى أن يفعل ما يشاء، وأن يحدث مانعًا. والآية أيضًـا نِعَـمٌ بالغـة وإحسانات كاملة. وفي الآية تغليبُ الماضي على الآتي، لأنَّ ما مضى أكثر، وفيه استدلال على المستقبل.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ مقتضى الظاهر: فأخرج، لَكِنَّ لفظَ التَّكَلُّم إظهارٌ لكمال العناية بشأن ما أنزل الله لأجله، وإظهارٌ أيضًا لعظم آثار قدرته لعظمة موجِدِهِ؛ وزاد تفخيمًا بضمير العظمـة إذ لم يقـل: فـأخرجتُ، بالتـاء المضمومـة. أو أنـزل المنتظَر منزلة الواقع، لكن يفوت الكلام علـى مـا مضـى، أو يشـمله فيكـون مـن استعمال الكلمة في الحقيقة والمجاز، وفي الالتفات مطلقًـا تطرية. وهنـا زيـادة أنَّ العارف يتقوَّى بما مضى من طرق الغيبـة حتّـى يتـأهَّل لأن يكـون الكـلام معـه بطريق التَّكَلُّم وهو أقوى. والتعقيب بالفاء للمبالغة، أو هو في كلِّ شيء بحسبه، وفي بعض المواضع والأزمنة يَتَّصِلِ إخراج النبات بالإنزال؛ أو هـي هنـا لِمُجَرَّدِ السَّبَبِيَّة؛ أو بمعنى الواو؛ أو يقدَّر: مضت مدَّةٌ فأخرجنا بِهِ.

﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتَّصف بأنَّه ينبت، فما لا يكون لـه نبـات لا يدخـل

١- اسم طائفة من البربر تسكن سلسلة جبال جرجرة العالية في الأطلس التلِّي بـالمغرب الأوسط.

في قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، والنبات ما لا ساق له؛ وَقِيلَ: ما لا ساق له وما له ساق على اختلاف ذلك لونًا وطعمًا ومنفعة مع اتِّحاد الماء، فذلك من أدلِّ دَلِيل على كمال القدرة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكْلِ﴾ (سورة الرعد: ٤)، وذلك إجمال فصَّله بقوله:

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ من الماء، أو من النبات، وهو أولى، لأنَّ إخراج الخضر من النبات بلا توسُّط، وإخراج الخضر من الماء بتوسُّط النبات، إلاَّ أن يقال هو أوَّل خروجه بالماء من الأرض غير أخضر، ويبعد جعل «مِنْ» للسببيَّة، والخضرة قيل لون بين البياض والسواد وهو إلى السواد أقرب، ولذلك يقال للأخضر أسود وبالعكس. ولا لون للماء، ويقال: لونه البياض في الظاهر، فيقال: أخرج الله عزَّ وجلَّ من الماء الأبيض ثمارًا مختلفات اللون والطعم. والهاء للماء، فهو يخرج بالماء من الأرض أخضر. و«خَضِرًا»: بمعنى أخضر كَعَوِرٍ وأعور، أي شيئًا خَضِرًا، أو نباتًا خَضِرًا؛ وَقِيلَ: المُراد هنا: ما لا ساق له، وفي العرف النبات: ما لا ساق له والنجم: ما له ساق، وخصَّ عند العامَّة في بعض البلاد بما يأكل الحيوان، فإنَّ البُرَّ والشعير مِمَّا له حبٌّ ولهما ساق وهما ونحوهما داخلة في قوله عزَّ وجلَّ:

﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ كسنابل البُرِّ والشعير والذُّرَة والسلت والدخن.

(نحو) والجملة نعت «خَضِرًا» لنيابة «خَضِرًا» عن نباتًا أو شيئًا؛ ولك طريق آخر وهو أنَّه نعت ثان للمحذوف؛ أو مستأنفة في جواب

سؤال لبيان ما يعتبر به، والأوَّل أولى. وهذا المضارع للتجدُّد والاستمرار، أو لحكاية ما مضى من الأشياء استحضارًا لها كأنَّها مشاهدة. وإلى التركيب والخضرة إشارةُ القائل بقوله يصف المطر:

يصبُّ على الآفاق بعض خيوطه فَيَنْسُجُ منه للثرى حلَّة خضرًا

﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ خبر ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ بدل بعض لا بدل اشتمال كما قيل: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ مبتدأ، أو «مِنَ النَّخْلِ» معطوف على «مِنْهُ»، والمعطوف على «حَبًّا» محذوف، أي وأخرجنا من النخل نخلاً، و«مِن طَلْعِهَا» خبر لـ«قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ»، والجملة نعت ل«نَخْلاً» المُقَدَّر، وذلك معطوف على معمولي عامل. ولا إشكال في إخراج نخلة من نخلة لأنَّها من نواها أو مقطوعة منها.

(لغة) الطلع: أوَّل ما يخرج وهو مشتمل على ثمارها، ويقال له: الكفريُّ لأنَّه يكفر ثمارها، أي يسترها. والقنوان: جمع قنو وهو ثمار النخلة وشماريخها التي جمعها طرف العرجون، ويقال لمجموع الثمار والشماريخ: كباسة، وعِذق ــ بكسر العين وإعجام الذال ــ مثل عنقود العنب.

ودانية: قريبة لمن يتناولها، أي سهلة التناول ولو كانت بطلوع، أو قريبًا بعضها من بعض، أو خصَّ سهلة التناول، أو قرب قنو من قنو لزيادة النِّعمة، أو لدلالة الشيء على ضدِّه، أي وقنوان دانية التناول وبعيدة عنه، أو متدان بعضها من بعض لكثرتها، وغير متدان لقلَّتها مثلاً. وذكر الطلع قيل لأنَّه طعام وإدام بخلاف سائر الأكمام، وَقَدَّمَ النبات قيل لتقدُّم القوت على الفاكهة.

(صرف) ومثنّى قنو قنوانِ بكسر النون بلا تنوين، وتحذف للإضافة وحدها ومع الألف للنسب، وقنوانٌ إذا كان جمعًا ينوَّن ويثلّث نونه بالإعراب ولا تحذف للإضافة وتحذف مع الألف للنسب لأنّه ينسب إلى المفرد، إلاّ إن كان جمع التكسير شبيهًا بالمفرد، كالأصول من قولك: أصول الفقه، لأنّه بمعنى فنٌّ مخصوص، وكذا في صنو وصنوان، ورئد ورئدان، وشِغد وشغدان، وحُِشٌّ وحِشّانٌ بمعنى البستان كذا قيل. وإذا وقف على النون في ذلك لم يعلم الجمع أو التثنية إلاّ بقرينة.

﴿وَجَنَّاتٍ﴾ عطف على «نَبَاتَ» عطفَ خاصٌ على عامٌ، أو على «نخلاً» المنصوب المقدّر في قوله: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾، أو على «خَضِرًا» لقربه، والأوّل أولى، فيكون اعترض بالنخل للمنّة، إذ هو فاكهة وطعام؛ وضعُف العطف على «خَضرًا» لأنّ الشجر ـ وهو المُراد من الجَنّات ـ ليس بمخرج من النبات كإخراج الخضر منه، نعم يصحُّ إذا جعلنا النبات عامًّا لِمَا لا ساق له وما له ساق. ﴿مِنَ اَعْنَابٍ﴾ ثمار شجر العنب سمِّي شجر العنب أعنابًا لأنّها أصل لثمارها؛ أو يقدَّر مضاف، أي من شجر أعناب، وكذا في قوله:

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ عطفًا على «نَبَاتَ» عطفَ خاصٌ على عامٌ لمزيّتهما، ولمزيّتهما ناسب أن يُقَدَّر: «واذكر الزيتون والرمّان»، وقد قيل: إنّ النصب على الاختصاص، ولا مانع من أن لا يُقَدَّرَ هنا: «شجر»، لأنّ الزيتون والرمان مخرجان من النبات، أي وأخرجنا من النبات ثمارًا تسمّى زيتونًا ورمّانًا. ﴿مُشْتَبِهًا﴾ ورقهما في اللون وفي الشكل ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ ثمرهما لونًا وشكلاً وطعمًا، والنصب على الحال من الزيتون والرمان، ولم يقل: مشتبهين وغير

متشابهين بالتثنية لأنَّ الفاعل مستتر عائد في الأوَّل للورق وفي الثاني للثمر لدلالة المشاهدة للشجرتين، وهذا مِمَّا يقوِّي تقدير الشجر، أي وشجر الزيتون وشجر الرمَّان، بخلاف ما لو أريد الثمار وحدها، فإنَّه لا ورق فيها تشتبه. ويجوز عود «مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ» إلى جميع ما ذكر بتأويل ما ذكر، أو بمرعاة قولك: مشتبهًا ورقُه وغير متشابه.

أمَّا إن رددناهما للرمَّان فقط لقربه وقدَّرنا مثله للزيتون أو بالعكس فلا إشكال في الإفراد، ثمَّ إنَّك إمَّا أن تردَّ «مُتَشَابِهًا» إلى «مُشْتَبِه»، من التفاعل بمعنى الافتعال، أو تردَّ «مُشْتَبِهًا» إلى «مُتَشَابِهٍ» من الافتعال بمعنى التفاعل، كاجتوروا بمعنى تجاوروا، وَمَعنَى ذلك في الرمَّان تشابه الورق واختلاف الطعم بالحموضة والحلاوة وكونه مزًّا، وحمرة الحبِّ وبياضه وكذا القشر والزيتون متشابه الورق مختلف الثمار بالصغر والكبر أنواعًا بعضها كبعر الشاة أو أكبر، وبعضها كبعر البعير أو أصغر.

وممَّا يناسب إرادة الشجر في الزيتون والرمَّان قوله تعالى: ﴿انظُرُواْ﴾ يامن يصلحون لنظر الاعتبار ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ ثمر شجر الرمَّان؛ أو ثمر ما ذكر من شجر الزيتون والرمَّان؛ أو ثمر ما ذكر كُلِّه؛ أو إلى ثمر الله. ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أبدى الثمر أوَّل ما يخرج ضعيفًا لا نفع فيه. وإسناد الإثمار إلى الشجر مجازٌ لعلاقة السبب العادي أو المحلِّ، والمعنى: إذا صار ذا ثمر، وإذا فسِّر الزيتون والرمَّان فيما مَرَّ بالثمار فالهاء عائدة إليهما بمعنى الشجر على طريق الاستخدام، وإن فسِّر فيما مَرَّ بالشجر فلا استخدام، وكأنَّه قيل: انظروا إلى ثمر ذلك الشجر.

﴿وَيَنْعِهِ﴾ والى ينعه، أي نضجه، كيف يتلوَّن وينفع ويقوى ويجمع منافع، والمُراد إلى حال ثمره وحال ينعه؛ أو «يَنْعِهِ» جمع يانع أي نضيج، **والحاصل** أنَّ الثمار تتبدَّل وتنتقل إلى أحوال مضادَّة لأحوال سابقة والماء واحد والأرض واحدة وَلاَ بُدَّ لها من سبب في التغيُّرات وليس تأثيرًا للطبائع والفصول والنجوم والأفلاك لأنَّ نسبتها إلى جميع النبات واحدة، وكثيرًا أيضًا ما يكون ذلك التغاير في فصل واحد. والنسب المتشابهة لا تكون أسبابًا لحوادث مختلفة، **فبان أنَّ ذلك بقدرة الله وحده**، وما كان بالطبع فيما يظهر لك فإنَّ الله سبحانه هو الخالق للطبع ومسبِّب الأسباب ومؤثِّرها، وهو الفاعل المختار لبعض الجائزات عن باقيها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُم﴾ في ذلكم المذكور من فلق الحبِّ والنوى والإصباح وجعل الشمس والقمرحسبانًا وإخراج الحيِّ من الميِّت والميِّت من الحيِّ، وإخراج النبات والتشابه وغيره والإثمار والينع ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلالات على وجوده وقدرته على البعث عظيمة، أو كثيرة أو عظيمة كثيرة، استعمالاً للتنوين في معنيين، أو للتنكير ﴿لِقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ وغيرهم، وخصَّهم بالذكر لأنَّهم المنتفعون، أي لقوم كتب الله أن يؤمنوا أو يزدادوا إيمانًا.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

نفي الشريك عن الله وتنزيهه عن أن تدركه الأبصار

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ﴾ مع أنَّها لا تقدر على شيء من فلق الحبِّ أو غيره مِمَّا ذكر. و«الْجِنَّ» مفعول أوَّل، و«شُرَكَآءَ» مفعول ثان، و« لِلَّهِ» يَتعلَّقُ بـ«جَعَلُوا»؛ أو مفعول ثان، و«شُرَكَآءَ» أوَّل، و«الْجِنَّ» بدل أو بيان، أو « لِلَّهِ» يتعلَّق بـ«شُرَكَآءَ»، أو حال منه. والجِنُّ: الملائكة، ومن المشركين من يعبد الملائكة ويسمُّونهم بنات الله، ويقولون: إنَّهم مدبِّرون أمر هذا العالم، ويسمُّونهم جنًّا لاستتارهم أو تحقيرًا لشأنهم كما تستتر الأنثى. أو الجِنُّ: الشياطين، لأنَّها تأمرهم بالشرك والمعاصي فيطيعونها كما يطاع الله؛ أو عَبدوا الأوثان بإغوائهم؛ أو قالوا: الشيطانُ الذي هو إبليس خَلَقَ الشرَّ والظلمة وكلَّ ضارٍّ كالعقارب والحيَّات، والله خالق للخيور والمنافع، وذلك كلُّه حسب زعمهم.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال مقرونة بالواو بلا تقدير لِـ«قَدْ»؛ وَقِيلَ: لاَ بُدَّ من تقديرها في الماضي المتصرِّف المثبت المقرون بواو الحال، والمعنى: أنَّهم جعلوا لله شركاء الجنَّ والحال أنَّه خلقهم هو لا الجنُّ، كيف يجعلون المخلوق شريكًا لخالقه؟ أو والحال أنَّهم عالمون بأنَّ الله خلقهم والمشركون عالمون بأنَّ الله خلقهم كما علموا أنَّ الله خلق السماوات والأرض، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (سورة لقمان: ٢٥)، والهاء للجاعلين أو للجنِّ،

أي وقد علموا أنَّ الجنَّ خلقهم الله كما خلق السماوات والأرض والمخلوق لا يكون خالقًا، أو نزَّل تمكّنهم من العلم بأنَّ ما سوى الله مخلوق لله منزلة العلم لقوَّة أدلّته.

والخرق: قطع الشيء بلا مبالاة به، أو على قصد الفساد. والخلق: فعل الشيء بتقدير ورفق. والواو في «جَعَلُوا»، والهاء في «خَلَقَهُمْ» والواو في قوله: ﴿وَخَرَّقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَاتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ للمشركين مطلقًا، فيكون الكلام على التوزيع، فمشركو العرب قالو: الملائكة بنات الله، وكذا بعض النصارى على ما ذكر في بعض الكتب، واليهود والنصارى نسبوا إليه البنين، فقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله.

وقيل الهاء في «خَلَقَهُمْ» للجاعلين، والضمائر بعدُ لليهود والنصارى، وفيه تفكيك الضمائر، وإنَّما قال: ﴿بَنِينَ﴾ مع أنَّ مدَّعاهم اثنان فقط عزير وعيسى إطلاقًا للجمع على الاثنين مجازًا على الصحيح، أو حقيقة، ولأنَّ إثبات الولد ولو واحدًا فقط أو اثنين فقط إثبات لجواز ما لا يحصى من الأولاد، بل من أجاز ما لا يجوز ـ ولو لم يقل بوقوعه ـ فهو في حكم من قال بوقوعه.

أو عاب الله عليهم قولهم: نحن أبناء الله، لأنَّه لفظ سوء ولو أرادوا به المكانة لا حقيقة البنوَّة، وكانوا يسمعون من آبائهم الأب والابن بمعنى المؤثِّر والمؤثَّر، و لم يعلموا مرادهم، فحملوا اللفظ على ظاهره.

ومعنى ﴿خرَّقوا﴾ بالشدِّ للمبالغة أو للتكثير: أثبتوا بالكذب، وهذا أولى من جعله استعارة مِن خَرَقَ الثوبَ بمعنى شقَّه، أي اشتقُّوا له بنين...إلخ. وَمَعنَى

﴿بغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنَّهم أثبتوا البنوَّة لله سبحانه وهم عالمون بأنَّه لا علم لهم بذلك، أو بغير علم بحقيقة ما قالوا من خطإ أو صواب ولا دَلِيل، أو بغير علم بقبح ما قالوا غاية القبح. وهو حال من الواو، أي ثابتين بغير علم؛ أو نعت لمصدر، أي خرَّقوا تخريقًا ثابتًا بغير علم. وَمَعنَى ﴿سُبْحَانَهُ﴾: تنزيهًا له عمَّا يصفون، أي عن وصفهم له بأنَّ له شريكًا، وبأنَّ له ولدًا. وَمَعنَى ﴿تَعَالَىٰ﴾: ترفَّع عن وصفهم له بذلك. فـ«مَا» مصدريَّة، و«سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ» متنازعان في قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ فاعل «تَعَالَىٰ»، أو خبرٌ بعد خبرٍ لـ«هُوَ» من قوله: ﴿وَهُوَ الذِي أَنزَلَ﴾. أو يقدَّر: هو بديع، وهو صفة مشبَّهة مضافة لفاعلها وهو لازم، أي بديعٌ سماواتُه وأرضُه، بتنوين بديع ورفع ما بعده. و«الـ» نائبة عن الضمير كما رأيت؛ أو يقدَّر ضميرٌ، أي بديع السماوات والأرض له، أي حال كونهنَّ له، ويضعف أن يكون بديع وهو من الثلاثي بمعنى مبدع من الرباعي بالزيادة، ويجوز أن يكون مبتدأً على الوجهين خبرُه قوله:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَاحِبَةٌ﴾ أي من اتَّصف بخلق السَّمَاوَات وَالأَرْض على غير مثال، أو بكونهما على غير مثال من أين يصحُّ، أو كيف يصحُّ أن يكون له ولد؟ والحال أنَّه لم تكن له صاحبة، أي زوجة، وإنَّما يحصل الولد على طريق التزوُّج للجسم والله ليس جسمًا، وللمتلذِّذ والله لا يتلذَّذ، وللعاجز عن خلق الولد بدون ذلك والله قادر، تعالى عن أن يكون له ولد بوجه ما. وليس هذه الحال مؤكّدة كما توهَّم بعض من أنَّ انتفاء الولد

بالاستفهام الإنكاري موجب لانتفاء الصاحبة، بل هي قيد في الاحتجاج كقولك: كيف يغرق زيد وليس في البحر.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عطف على «لَمْ تَكُن لَّهُ, صَاحِبَةٌ»، ومَن خلق كلَّ شيء لا يصحُّ له اتِّخَاذ الصاحبة، وكيف تصحُّ له مع أنَّه خلقها؟ ؛ أو حال من هاء «لَهُ»، أي كيف يكون له الولد، والحال أنَّه خلق كلَّ شيء؟ فإنَّ المخلوق لايكون ولدًا لخالقه، والخالق لا يلد مخلوقه، والفرض أنَّه ما في الوجود الحادث شيء غيرُ مخلوق له تعالى، أي وخلق كلَّ شيء مضى، كما أنَّه يخلق ما في الحال والاستقبال.

وخصَّ الماضي لأنَّهم ادَّعوا له أولادًا موجودات. أو المعنى مَن شأنُه أن يخلق كلَّ ما شاء وجودَه ـ فكلُّ موجود سواه قد شاء خلْقَه فخَلَقَه ـ مَن إذا أراد شيئًا قال: كن، فيكون، لا يحتاج إلى إحداث شخص بطريق الولادة؛ والولد إنَّما يكون مِمَّن يصحُّ له الفناء لإبقاء النوع؛ والولد إنَّما يكون من متجانسين والله منزَّه عن المجانسة؛ والولد كفؤ لوالده والله لا كفؤ له؛ والله عالم بكُلِّ المعلومات كما قال:

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الله عالم بنفسه وغيره، فلو كان له ولد لكان عالمًا بكُلِّها. وإجماع العقلاء الإلهيِّين أن لا يكون سواه عالمـًا بِكُلِّ شيء، ولا عالمًا بلا توسُّط يرد عليه، وإذا كان الأفلاك والعرش والكرسيُّ والسماوات والأرضون مع طول عمرهنَّ لا يلِدْنَ فأولى أن لا يلد الله، وهذه مناسبة والحجَّة أنَّ الله قديم لا يتحيَّز ولا يحتاج.

﴿ذَٰلِكُم﴾ أي الموصوف بتلك الصفات من الخلق لِكُلِّ شيء، والعلم بِكُلِّ

شيء، وانتفاء الصاحبة والولد، وبدع سماواته وأرضه، وغير ذلك مِمَّا مَرَّ. وإشارةُ البعد للتعظيم. والخطابُ للمشركين ولذلك جُمع.

﴿اللهُ رَبُّكُم لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إخبار عن «ذَلِكُمْ» أو «رَبُّكُمْ» بدل أو نعت للفظ الجلالة، أو «اللهُ» بدل، أو بيان لا نعت إلاَّ بتأويل المعبود.

(أصول الدِّين) والمُراد بـ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾: ما شاء خلقه لا نفسه تعالى، ولا المستحيل لذاته، أو لعدم قضاء الله بخلقه، إلاَّ أنَّ الصحيح وهو مذهبنا أَنَّ ما لم يكن وما هو غير كائن في الحال أو الاستقبال لا يسمَّى شيئًا، وليس قوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تكريرًا، إمَّا لأنَّ قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لِمَا مضى، وهذا للحال والاستقبال، مع أنَّه لا مانع من التوكيد؛ وإمَّا أنَّه كرَّره ليبني عليه قوله:

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لاستجماعه تلك الصفات. وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ استدلالاً على نفي الولد وعلى نفي الشركة، ﴿أَفَمَنْ يَّخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخلُقُ﴾ (سورة النحل: ١٧)، وإنَّما قلت: وحده، بالحصر ليناسب قوله: ﴿لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾، ولأنَّ مشركي العرب يعبدون الله وغيره، فليس كما قيل: إنَّ المقام ليس فيه ما يدلُّ على الحصر، ولو وجب في المعنى. وَقَدَّمَ هنا ﴿لآَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ على ﴿خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لأنَّه جاء بعد قوله: ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَآءَ﴾ فتقديم ما يدلُّ على نفي الشركة أهمُّ، وأخَّره في سورة غافر (الآية: ٦٢) لأنَّه جاء بعد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ...﴾ (الآية: ٥٧) فكان بيانُ خلق الناس أهمَّ فقدَّم نفي الشركة في الخالقيَّة، فـ﴿لآَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ كالنتيجة

للأوصاف قبله، ففرَّع ﴿فَأَنَّىٰ تُوفَكُونَ﴾ (سورة غافر: ٦٢) على ما قبله، وهنا فرَّع ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، والخالقيَّة سبب للمعبوديَّة. ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ حفيظ ومتولِّي الأمور كلِّها ورقيب على الأعمال فهو الذي يُتَوَكَّلُ عليه لقدرته ويُطاع ليجازِيَ بخير.

﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ في الدُّنيا ولا في الآخرة، ولا يختصُّ الإدراك بالكنه، بل من أدرك طَرَفَ شيء فقد أدركه، ولو لم يدركه كُلَّه.

(أصول الدِّين) ورؤيته تعالى توجب التحيُّز والجهات والزمان والحلول واللون والغلظ أو الرقَّة والطول والعرض والحاجة، وذلك يوجب الحدوث، ونفي الإدراك مدح، وما هو مدح يستمرُّ في الدُّنيا والآخرة. ولا يُدرَك بالقلب أيضًا لأنَّه إذا صوَّره القلب لزم تحيُّزه، وما ذكر بعده، وإنَّما تُدرَكَ أفعالُه الدالَّة على أوصافه الموجبة لوجوده بلا أوَّل ولوحدانيَّته، وهو مخالف للحوادث وجوبًا، وما وجبت مخالفته للحوادث لا تدركه الحوادث لأنَّ إدراكها إيَّاه يناقض المخالفة، والفرض المخالفة. و«الـ» للاستغراق باقية على العموم الشموليِّ بعد النفي، فشملت أبصار المؤمنين وأبصار الكفَّار كما هو الوارد في القرآن بلا تكلُّف تأويل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ونحو هذا، وَأَمَّا قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القيامة: ٢٣) فمعناه إلى دلائل رَبِّها أو إلى رحمة رَبِّها، والنظر بمعنى الانتظار قد جاء تعدِّيه بـ«إِلَى»، أو «إلى»: معناه النِّعمة، أي ﴿نَاظِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ أي ناظرة نعمة رَبِّها. وأمَّا قوله ﷺ: «**سترون ربَّكم**»، فمعناه ازدياد اليقين في الجنَّة، بدلائل لم يتقدَّم مثلها،

وهـذا هـو المـُراد أيضًـا في روايـة: «تـرون ربَّكـم بعـين رأسـكم»، أي تشاهدون بأبصاركم دلائل لم تتقدَّم في الدُّنيا.

وذلك أنَّ رؤيته منافية لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (سورة الشورى: ١١) ولسائر صفاته، وعموم الأزمنة يدلُّ على عموم الأمكنة، والبصر يطلق على العين وعلى القوَّة التي فيها، وعلى قوَّة القلب، والمُراد هنا: العينُ، أو القوَّةُ التي فيها؛ وَقِيلَ: ذلك والأوهامُ والأفهامُ. قال عليٌّ: توحيد الله أن لا تتوهَّمه، وقال: كلُّ ما أدْركته فهو غيره[١].

وحمل بعضهم الآية على قوَّة القلب، قال الصدِّيق رضي الله عنه: «يا مَن غايةُ معرفته القصورُ عن معرفته». وقد قال إمام الأشعريَّة أبو الحسن الأشعريُّ: المنفيُّ في الآية الرؤية المطلَقة المحيطة وغير المحيطة، وكما تُـؤَدِّي الإحاطة به إلى نقص يؤدِّي إدراكه بلا إحاطة إلى نقص.

والإسناد في: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الاَبْصَارُ﴾ مجاز عقليٌّ، أي لا يدركه أولوا الأبصار، والفعليَّة للتجدُّد والاستمرار التجدُّديِّ، والإسميَّة للدوام، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الاَبْصَارَ﴾. [قلت] وهذا عجيب فإنَّه لا فرق بين تقدَّم الفعل وتأخُّره، فقولك: يدرك الأبصار وقولك هو يدرك الأبصار، فقام زيد وزيد قام سواء.

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الاَبْصَارَ﴾ يراها أي يعلمها، والبصر الأسود الذي وسط أسود العين، وبه يكون الإبصار، أو القوَّة المودعة في ذلك الأسود،

١- وَهَذَا كقول الشيخ الحاج صالح لَعْلي رَحِمَهُ اللهُ في **خلاصة المراقي**:

وكلُّ ما صوَّرتَه ببالك ... فَاللهُ جَلَّ بخلاف ذَلِك

أو في العصبتين المجوفتين المؤدِّيتين إليه، وقد يطلق على العين لأنَّها محلُّ ذلك، والعصبتان ممتدَّتان من خارج.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ اللطف: الدقَّة الموجبة لخفاء الإدراك، مستعار من مقابل الكثيف، الذي لا تدركه الحاسَّة ولا ينطبع فيها، وهذا هو المُراد هنا، وقد يطلق اللطيف على الخفيِّ المدرك، وهو عائد إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ وذلك أنَّه خلق الأبصار على أن لا تدركه وعلى عدم إمكان إدراكها إيَّاه.

والخبرة: العلم بما دقَّ وخفي، وهي عائدة إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾. **والحاصل** أنَّه لا تدركه الأبصار لأنَّه من شأنه الخفاء عنها، ويدركها لكمال علمه، وكذا يفسَّر ما في سورة الملك (الآية: ١٤)، وأمَّا الذي في سورة الشورى (الآية: ١٧) فبمعنى الذي يربِّي الخلق بصنوف الإنعام التي لا تدركها الأوهام، ولا يليق تفسير الآية هنا به، فلا يليق بالمقام ما قيل من أنَّ المعنى لطيف بأوليائه خبير بهم.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

نعمة الوحي ومنَّة الله به على من هداه

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي حججٌ، وهي آيات القرآن، تدرك به النفسُ الحقَّ وتميِّزه من الباطل، كما يُدرَك الشيءُ بالبصر الذي هو نورٌ في العين، فالبصر في الوجه والبصيرة في القلب؛ وقد يطلق البصر أيضًا على نور القلب، وحَمَل عليه بعضُهم قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (سورة النجم: ١٧). ﴿فَمَنَ اَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي من أبصر بها الحقَّ فعمل به، وهو أن يؤمن ويعمل العمل الصالح ويتَّقي، فإبصاره لنفسه، أو فلنفسه إبصاره، أو فأبصر لنفسه أو فلنفسه أبصر.

(نحو) وتقدير المبتدإ أولى، لأنَّ قوله: ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ و﴿عَلَيْهَا﴾ حينئذ عمدتان، ويقرن معمول الجواب بالفاء إذا حذف الجواب أو أُخِّر، ولو صلح لأن يكون شرطًا، لأنَّه إذا ذكر الجواب تبيَّن الربط به، وإن لم يذكر أو فصل خَلَفته الفاء، نحو: إذا جئت أكرمت زيدًا وإلاَّ فعمرًا، أي وإلاَّ أكرمت عمرًا، أو نحو: إذا جئت أكرمت زيدًا وإلاَّ فعمرًا أكرمت، وهذا مِمَّا غفلوا عنه فأوجبوا إسقاط الفاء من الجواب الصالح للشرط ولو حذف وبقي معموله أو تقدَّم عنه معموله؛ ثمَّ رأيت قولاً كما قلت وقولاً بالجواز، بعد قول بجواز الإسقاط.

﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ أي ضلَّ عن الإيمان بها وما يتبعه ﴿فَعَلَيْهَا﴾ فعليها عماها، أو فعماها عليها، أو فَعَمِيَ عليها، أو فعليها عَمِيَ، على حدِّ ما مَرَّ، وذلك كلُّه اعتبار لجانب التقدير من اللفظ المذكور، فهو أولى لموافقة اللفظ، وفُهِم النفع والضُّر من «اللام» و«عَلَى» مِن قول الزجَّاج: «فلنفسه نفْعُ ذلك وعليها ضرره»، ومثله: فلها ثوابه وعليها وباله.

﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم﴾ على أعمالكم ﴿بِحَفِيظٍ﴾ رقيب. إِنَّمَا أنا نذير مبلِّغ، والمثيب والمعاقب هو الله عزَّ وجلَّ، وتقديم «عَلَيْكُمْ» للاهتمام والفواصل. والحصر مستفاد من تقديم المسند إليه، أي أنا وحدي لست حفيظًا عليكم، بل الله هو الحافظ، على طريقة قولك: أنا قمت، ولو لم ترد الحصر لقلتَ: قمتُ، بدون «أنا»، هكذا قال بعض، كما يوجد في كتب المعاني والبيان. **والحاصل** أنَّه نفى الوحدة في الحفظ عن نفسه وحصرها لله تعالى. والقول مقدَّر، أي: قل يا محمَّد ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنَ اَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، وهنا تَمَّ القول.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الاَيَاتِ﴾ نُبَيِّنُ أو نكرِّر، وهذا كما إذا قلتَ كلامًا فقلتَ: «هكذا قلتُ»، أو المعنى: كما بيَّنَّا في ماضي السورة، أو فيما مضى من القرآن نصرِّف فيما بقي الآيات. ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ أي قرأتَ كُتُب الماضي، وجئت بهذا منها، متعلِّق بمحذوف مُتَأَخِّرًا، أي وليقولوا درست صرفنا الآيات؛ أو ليقولوا درست. نصرِّفها بمضارع التَّجَدُّد والاستقبال؛ أو ليعتبروا وليقولوا؛ أو لينكروا وليقولوا؛ أو لتلزمهم الحجَّة وليقولوا.

(لغة) واللام في «لينكروا» وفي «ليقولوا» للعاقبة، لأنَّ التصريف لا يكون لذلك فيما يظهر ويتبادر، لكن لا مانع من التعليل، والصحيح جواز التعليل في كلام الله عزَّ وجلَّ؛ وليس المُراد به الانتفاع أو الاحتجاج أو نحو ذلك تعالى الله عن ذلك، بل الحكمة والمُراد أنَّه يصرِّفها ليعاقبهم بقولهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ (سورة آل عمران: ١٧٨) وقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ (سورة البقرة: ٢٥) والواو للمشركين، وعبارة

بعضٍ: نصرِّف هذه الدلائل حالاً بعد حال ليقول بعضهم: دَرَسْتَ، فيزدادوا كفرًا ولنبيِّنه لقومٍ فيزدادوا إيمانًا، كما قال:

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي قضى الله أن يعلموا وليدوموا على علم، أو ليزدادوه؛ وخصَّهم بالذكر لأنَّهم المنتفعون، وهذه [اللام] للعلَّة كاللاَّم في «ليعتبروا» أو «لتلزمهم الحجَّة» المقدَّرَيْنِ، لأنَّ التبيين مقصود للتصريف، بخلاف لام «لِيَقُولُوا» فإنَّها بحسب الظاهر ليست للتعليل بل للعاقبة، لأنَّه ليس المقصود من تصريف الآيات أن يقولوا هذه القولة الشنعاء.

(لغة) ولام العاقبة هي التي تدخل على شيء ليس مقصودًا من أصل الفعل ولا حاملاً عليه، وَيَتَرَتَّبُ على فعله تعالى مصالح وإن لم تكن علَّة غائيَّة لها بحيث لولاها لم يُقْدِمِ الفاعلُ إليها، فحقيقة التعليل بيان ما يدلُّ على المصلحة المُتَرَتِّبَة على الفعل؛ وفسَّرها المُتَكَلِّمون بالباعث الذي لولاه لم يُقْدِمِ الفاعل إلى الفعل، وهي عند أهل اللغة حقيقة في ذلك مطلقًا.

ويضعف أن تكون اللام في «لِيَقُولُوا» لام الأمر للتهديد، أي: ليقولوا ما يقولون فإنَّه لا عبرة بهم، ولو تقوَّى بقراءة شاذَّة بسكون اللام، لإمكان أن يكون السكون تخفيفًا لوزن فَعِل بكسرالعين وهو الواو واللام والياء، ولعطف التعليل عليه. والهاء للقرآن للعلم به من المقام؛ أو للآيات بتأويل ما ذكر؛ أو لتأويلها بالقرآن أو بالدليل؛ أو للتبيين، وعليه تكون مفعولاً مطلقًا.

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ بالثبات عليه، ولا تعتدَّ بأباطيلِ المشركين، وَمَعنَى ﴿دَرَسۡتَ﴾ قرأت وتعلَّمت من سلمان، كذا قيل، وفيه أنَّ سلمان أسلم بالمدينة، والجواب أنَّ أهل مكَّة يقولون ذلك في مكَّة وغيرها،

وكذا غيرهم بعد هجرتِه ﷺ وإسلامِ سلمان. و﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: هو القرآن وسائر ما أوحي إليه. ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ معترض بين الجملتين المتعاطفتين تأكيدًا لوجوب الاِتِّبَاع، ولاسيما أمر التوحيد؛ أو حال من «رَبِّ» مؤكِّدة، لأنَّ من هو ربٌّ لاَ بُدَّ أن يكون منفردًا. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تشغلْ بالك بهم ولا بأفعالهم وأقوالهم كقولهم: دَرَسْتَ، ولا تجازهم بما قالوا فيك، بل اصبر، [قلت] وهذا مِمَّا يؤمر به ولو بعد نزول القتال، فلا وجه لدعوى نُسخ هذا بآية القتال.

﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ لو شاء الله عدم إشراكهم لم يشركوا.

(أصول الدِّين) وفيه دَلِيل على أنَّ الله أراد كفر الكافر، وأنَّه لا يريد إيمانه، وهذا مذهبنا ومذهب الأشعريَّة، وفيه ردٌّ على المعتزلة. وزَعَم الزمخشريُّ أنَّ المعنى لو شاء مشيئة إكراه ألاَّ يشركوا لم يشركوا، وأنَّ مشيئة الاختيار حاصلة البتَّة، وهذا خلاف الظاهر فلا يقبل، لأنَّ شرط المشيئة بعد «لَوْ» يؤخذ من جوابها وليس في الجواب ذكر الإكراه، فلا يُقَدَّرُ في الشرط. وفي الآية أنَّ مراده تعالى واجب الوقوع، فإنَّها أفادت بمنطوقها انتفاء عدم إشراكهم لانتفاء مشيئة توحيدهم، دلَّت على أنَّه لو شاء توحيدهم لوقع، فأفاد أنَّ مشيئته لشيء توجب وقوعه. ولا دَلِيل في الآية على الإجبار، لأنَّ المعنى: لو شاء لوفَّقهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيبًا تجازيهم بعملهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ ما وكَّلك الله عزَّ وجلَّ عليهم لتقوم بأمورهم، فلست تجبرهم على الإيمان؛ وَقِيلَ: حفيظًا عمَّا يضرُّهم، ووكيلاً تجلب لهم منافعهم. وتقديم الظرف في الموضعين لِمَا مَرَّ في الذي قبلهما.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَٰتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

النهي عن سبّ الأصنام وغيرها من المعبودات

﴿وَلاَ تَسُبُّواْ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿الذينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ا للهِ﴾ الأصنام الذين يعبدونهم، و واو «يَدْعُونَ» للمشركين ورابط الموصول مفعول به محذوف، أي: يدعونهم، وهذه الهاء عائدة إلى «الذِينَ» الواقع على الأصنام، وذَكَرهم بلفظ العاقل وهو «الذِينَ» وَ«هُمْ»، لأنَّ المشركين يعظِّمون الأصنام؛ أو تغليبًا للعقلاء منهم كالملائكة وعيسى وعزير، وكأنَّها عندهم عقلاء.

(سبب النزول) كان النبيء والمؤمنون يسبُّونها بما فيها من القبائح، فقال المشركون: لَتَنتَهُنَّ عن سبِّ آلهتنا أو لنهجُوَنَّ إلهكم، فنزلت الآية لئلاَّ يسبُّوا ا للهَ. ﴿فَيَسُبُّواْ ا للهَ﴾ لشدَّة غضبهم مع اعترافهم با لله سبحانه وتعالى، كما تحمِل الموحِّدَ شِدَّةُ الغضب على التَّكَلُّم بموجب كفره. أو يسبُّوا ا لله بما فيه بعض خفاء مثل أن يسبُّوا من يأمر سيِّدنا محمَّدًا ﷺ بما يقوله لهم.

(نحو) والنصب في جواب النهي؛ أو هو مجزوم عطفًا على المجزوم، أي فلا يسبُّوا، من نهي الغائب على ظاهره، أي لا تسبُّوا الله ولو سبَّ محمَّد وأصحابه آلهتكم؛ أو على معنى النهي عن السبِّ لسَبِّهم الله، فيكون تأكيدًا لقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾، كقولك: لا تكن هنا ولا أراك هنا، نهيته عن الكون هنا وعن لازم الكون هنا، وفي هذا تكلُّف. وقدَّر بعضٌ: فيسبُّوا رسول الله؛ أو المعنى: أنَّ سبَّه ﷺ سبٌّ لله عزَّ وجلَّ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (سورة الفتح: ١٠).

﴿عَدْوًا﴾ أي سبًّا فهو مفعول مطلق، وكذا إنْ ضُمِّن «يسبُّ» معنى مجاوزة الحدِّ؛ أو المعنى: يسبُّون الله لأجل العدْوِ؛ أو حال كونهم ذوي عدْوٍ؛ أو معادين؛ وعلى أنَّه حال تكون مؤكّدة كما في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بلا علم بما يجب ذِكرُه في حقِّ الله تعالى؛ أو سفها منهم مع علمهم بحرمة سبِّه تعالى، فإنَّ السفه جهل ولو مع العلم.

(سيرة) احتضر أبو طالب، فقال أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأميَّة وأبيٌّ ابنَا خلف، وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن أبي البحتري: أنت سيِّدنا، اِنْهَ محمَّدًا عن سبِّ آلهتنا كما لا نسبُّ إلهه، فإنَّا نخاف قتله بعدك، فيقال: قتلوه بعد موت عمِّه، فأرسل إليه فجاءه صَلَّى الله عَلَيْهِ وسلَّم، فأخبره بما قالوا، وقال له: إنَّ هؤلاء بنو عمِّك قد أنصفوك، فقال: **«أرأيتم إن تركت سبَّها فهل تعطوني كلمة تملكون بها العرب وتؤدِّي لكم العجم الخراج؟»** فقال أبو جهل: وعشرًا أمثالها، فما هي؟ فقال: **«لا إله إلاَّ الله»**، فأبوا، فقال أبو طالب: يا ابن أخي قل غير هذا، فقال: **«لا، ولو وضعوا**

الشمس في يدي». فقالوا: إلاَّ تنتهِ سببنا إلهك معك، فنزلت.

وليست منسوخة بآية القتال كما قال الزجَّاج وابن الأنباري، بل نهوا عن سبِّها حيث يَتَسَبَّبُ لسبِّ الله سبحانه، فحين لا يتَسَبَّبُ لِسَبِّها سُبَّتْ كما يسبُّها المسلمون فيما بينهم، وبحضرة من لا يسبُّه قبل القتال أو بعده.

(فقه) وسبُّها طاعة، لَكِنْ لَمَّا أدَّى إلى معصية راجحة لا يمكن دفْعُها نُهوا عنه، وذلك قاعدة كُلِّيَّة لهذه الآية؛ ولا يشكل عليها أنَّا إذا قتلناهم قتلونا، ولا نترك القتل كما لا يترك ﷺ التبليغ، لأنَّ القتال و التبليغ فرض فلا يتركان لِمَا يُؤَدِّيان إليه، وسبُّها لم يَجِب فيُترك، كما تترك الإجابة المسنونة إلى الطعام لمعصية عنده. ولذلك تَرَكَ ابن سيرين حضور جنازة فيها نساء، وقد وجد من يؤدِّي فرضها، وخالفه الحسن، ولو لم يوجد لَحَضَرَها. ومذهب الحسن أنَّه لا تترك طاعة ولو نفلاً لمقارنة بدعة، بل ينهى عنها، وإلاَّ صبر عليها، وكذا مباح مطلوب ولو لم يضطرَّ إليه عند بعض، إلاَّ الإمام المقتدى به، فإنَّه يتحرَّز ما وَجد.

(فقه) ومَن قَطَع يد قاطع قصاصًا فأدَّى إلى الموت لم يضمن، خلافًا لأبي حنيفة فإنَّه يضمِّنه، لأنَّ له العفو وله أخذ ديَة اليد، فلم يجب القصاص، بخلاف الإمام إذا قطع يد السارق لا يضمنه إن مات، لأنَّ القطع فرض عليه.

ووصف الآلهة بأنَّها لا تضرُّ ولا تنفع استدلالاً يكفي في القدح، فلا حاجة إلى شتمها، و لله ما لا يكون لغيره، ولذلك سبَّها بأنَّها: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٨)، والواجب تبليغ هذا السبِّ مرَّة لِكُلِّ مَن جهله.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ فعملوه، أي كما زيَّنَّا لكفَّار قريش

وغيرِهم عبادة غير ا لله وسائرَ معاصيهم زيَّنَّا لِكُلِّ أمَّة من الكفَّار قبلهم عملَهم القبيح من شرك وما دونه. وليست الإشارة إلى سبِّهم ا لله، لأنَّه ليس في الآية أنَّهم سبُّوه، بل فيها لا تسبُّوا آلهتهم لئلاَّ يسبُّوه.

[قلت] وإنَّما فسَّرت الآية بالكفَّار وعملهم لا بما يعمُّهم ويعمُّ المؤمنين كما فسَّر بعضٌ بالعموم، لأنَّ ما قبل هذا في الكفَّار، وكذا ما بعده، وهو قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾، ولأنَّ الوارد في القرآن تزيين الضلال لا تزيين الهدى، فهو أوْلى من تفسيرها بالخير والشرِّ والإيمان والكفر، ولو كان أنسب بإطلاق العموم. وتزيينُ ا للهِ الخيرَ: توفيقُه، وهو معنًى يعطيه ا لله المؤمنَ يحول بينه وبين الإصرار؛ وتزيينُه الشرَّ: الخذلانُ، نقول ذلك، ونسلِّم الأمر إلى ا لله، ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٣).

(أصول الدِّين) ولا نقول بالإجبار، ويمتنع أن يصدر من العبد فعل أو قول أو اعتقاد أو خطور ببال أو سكون إلاَّ با لله خالقًا له. وفسَّر بعضهم بأنَّه خلاَّهم وشأنهم فحَسُن عندهم الشرُّ، أمَّا التخلية بمعنى الخذلان فلا تخرج عن المذهب، وأمَّا التخلية بمعنى وقوع الشيء بلا خلق من ا لله فلا تجوز، وإنَّما هي اعتزاليَّة، ولذا أوَّلوا الآية على أصول مذهبهم بأنَّه أمهل الشيطان حتَّى زيَّن لهم؛ أو بأنَّه زيَّنَّا في زعمهم أنَّ ا لله زيَّن لنا الشرك وأمرنا به، وقالوا: تزيين القبيح قبيح، وا لله متعالٍ عنه، وأنت خبير بأنَّ المُراد بالتزيين غير ما توهَّموا، وقد وقعوا فيما فرُّوا عنه، إذ قالوا: أُمهِل الشيطان...إلخ، فإنَّه عين ما فرُّوا عنه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ رجوعهم للجزاء في الآخرة، والعطف على

الفعليَّة قبله أو على محذوف، أي فعملوه ثمَّ إلى رَبِّهم مرجعهم. ﴿**فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ يجازيهم.

﴿**وَأَقْسَمُواْ**﴾ أي كُفَّار مكَّة ﴿**بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**﴾ مفعول مطلق، أي غاية إقساماتهم؛ أو حال، أي جَاهِدِي أيمانِهم، أي بالغين الغاية فيها؛ أو ذوي جهد في أيمانهم؛ أو بجهد أيمانهم. وذلك إقسام بآبائهم؛ أو التوكيد بالنون. وقال الكلبيُّ ومقاتل: إذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه، وَسُمِّيَ الحلف قسمًا لأنَّه يكون عند انقسام الناس إلى مصدِّق ومكذِّب.

﴿**لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ**﴾ من جملة آيات طلبوها كلِّها ثمَّ اكتفوا ببعضها؛ أو عُدَّت كلُّها آية إذ كانت دليلاً، ولفظ آية تلويح بأنَّ ما عدا ما طلبوه غير آية احتقارًا، وليس الإيمان مرادهم، ولو حلفوا جهد أيمانهم فقالوا: أخبرتنا بأنَّ لموسى عصا يضرب بها الحجر فينفجر ماء، وأنَّ عيسى يحيي الموتى فابعث لنا قُصَيًّا نسأله عنك، واسْتَشْهِدِ الملائكة لك، واجعل الصفا ذهبًا، فقال: «**أتؤمنون إن جئت بها؟**» فقالوا: نعم، كما قال: ﴿**لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا**﴾ فقال المسلمون: يا رسول الله، إيتهم بها؛ فقام ﷺ يدعو أن يجعل الصفا ذهبًا، وهذا يدلُّ أنَّهم اكتفوا بواحدة بعد طلب متعدِّدات، ويحتمل أنَّه يدعو بعد بآخر، فقال جبريل عن الله عزَّ وجلَّ: إن شئت أصبح ذهبًا، ولكن إن لم يصدِّقوك عذَّبناهم، وإن شئت تركناهم، فيتوب تائبهم، فقال: «**أتركهم ليتوب تائبهم**».

واختار بعضٌ أنَّ مرادهم بالآية آية من جنس الآيات، وذلك لأنَّهم معاندون مضطربون في الفساد والعناد، ولا يعدُّون ما نزل آية.

﴿قُلِ اِنَّمَا الاٰيَاتُ عِنْدَ ا للّٰهِ﴾ لا عندي، أراد بالعنديَّة أنَّه المالك لها القادر عليها، وأنَّه المختصُّ بها، ومِن شرطِ المعجزة أن لا يَقْدِر عليها غيرُ ا للّٰه، فلا أتعرَّض لها من قِبل نفسي. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ اَنَّهَآ﴾ أي الآيات الشاملة للمقترحة؛ أو الآية المقترحة ﴿إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤمِنُونَ﴾ ماذا يصيِّركم عارفين بأنَّهم لا يؤمنون بها إذا جاءت؟. والاستفهام نفيٌ، أي أنتم لا تدرون أنَّهم لا يؤمنون إذا جاءت، فرغبتم في مجيئها أيُّها المؤمنون، وأنا عالم بأنَّهم لا يؤمنون فلم أُنزلها؛ أو ضُمِّن «أَشْعَرَ» معنى «أَعْلَمَ» فتعدَّى لاثنين. **وحاصله** أنَّهم لا يؤمنون إذا جاءت، ولا تعلمون أنَّهم لا يؤمنون.

ويجوز أن تكون «لاَ» صلةً، أي: وما يشعركم أنَّهم يؤمنون إذا جاءت حتّى رغبتم في مجيئها، على أنَّ «لاَ» زائدةٌ، وهو ظاهر، وكقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ (سورة الأعراف: ١١)، ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٥) في أحد أوجهٍ. ويجوز أن لا يُقَدَّرَ لفظُ «بِهَا»، وأن يُقَدَّرَ لفظُ: «برسالتك»، لجواز قولك: زيدٌ لا يقوم عمرو وقت قيامه، فرابط خبر «أَنَّ» ضمير «جَاءَتْ».

ويجوز أن تكون «أَنَّ» بمعنى لعلَّ، قال الخليل رحمه ا للّٰه حاكيًا عن العرب: إيت السوق أَنَّك تشتري لنا شيئًا، بالفتح، أي لَعَلَّك، ويقوِّيه كثرة مجيء لعلَّ بعد يدري: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (سورة الشورى: ٤٧)، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ (سورة عبس: ٣)، وأنَّها في مصحف أبيٍّ وقراءته: ﴿وَمَا يُدريكم لَعَلَّها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، وعلى هذا تَمَّ الكلام عند قوله سبحانه وتعالى وعزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُم...﴾ فيقدَّرُ لـ«يُشْعِرُ» مفعولٌ، أي: ما

يشعركم أنَّهم يؤمنون إذا جاءت. ويجوز أن تكون «مَا» بمعنى «لاَ» حرفًا أو اسمًا، أي: لا يشعركم أنَّهم لا يؤمنون فكنتم ترجون إيمانهم، فالجملة مفعول به لـ«يُشْعِرُ». ولا يجوز جعل «مَا» نافيةً، لأنَّه له يبقى «يُشْعِرُكُمْ» بلا فاعل؛ ويضعف أنَّه ضميرٌ لله جلَّ وعلا، لأنَّ المقام مقام إخبار بنفي إيمانهم، ولو جعلنا «مَا» صلةً لسَهُل ذلك. والخطابُ للمؤمنين؛ أو لهم وللنبيء ﷺ، لأنَّه ﷺ اهتمَّ بالدعاء بمجيء الآية.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم﴾ نحوِّلها عن الحقِّ بالخذلان ﴿وَأَبْصَارَهُم﴾ عن الحقِّ فلا يبصرون إبصار اعتبار فلا يؤمنون، والعطف على «لاَ يُومِنُونَ»، فالإشعار منسحب عليه، ولا يحتاج لرابط يعود إلى اسم «إِنَّ» إذا جعلنا «إِذَا جَآءَتْ لاَ يُومِنُونَ» خبرًا لا خصوص «لاَ يُومِنُونَ»، كقولك: «علمت أنَّك إذا جئت جاء زيد وقعد عمرو»، اكتفاءً بالضمير في جملة الشرط؛ أو يربط بالهاء في قوله:

﴿كَمَا لَمْ يُومِنُواْ بِهِ﴾ على أنَّها عائدة إلى القرآن الشامل للآيات مطلقًا؛ أو للمقترحة؛ أو إلى الآية؛ أو الآيات بمعنى الدليل. ويجوز عودها إلى الله، لأنَّهم لم يؤمنوا بوحدانيَّته، فهم غير مؤمنين به؛ وعودها إليه ﷺ وإلى ما أنزل. وقوله: ﴿كَمَا لَمْ يُومِنُواْ﴾ عائد إلى قوله: ﴿لاَ يَومِنُونَ﴾؛ أو إلى «لاَ يُومِنُونَ» مُقَدَّرًا، أي لا يؤمنون إيمانًا مثل انتفاء إيمانهم به؛ أو الكاف تعليل، أي لانتفاء إيمانهم به؛ ويضعف عود الهاء إلى التقليب، والباء على حالها؛ أو للتقليب والباء سَبَبِيَّة. و«كَمَا...»إلخ نعت لمفعول مطلق محذوف، أي تقليبًا ثابتًا كانتفاء إيمانهم به أوَّل مرَّة؛ أو الكاف اسم نعت.

(أصول الدِّين) والكفر والإيمان بقضاء الله عزَّ وجلَّ، وهلكت المعتزلة في مخالفة ذلك، وتأوَّلوا ـ قبَّحهم الله ـ بأنَّ المعنى: نقلِّب أفئدتهم وأبصارهم في النار، وأنَّ معنى أوَّل مرَّة في الدُّنيا.

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كانشقاق القمر وغيره مِمَّا سبق نزوله. ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ عطف على «لاَ يُومِنُونَ» منسحب عليه الإشعار، مفصح بأنَّ تقليب الأفئدة والأبصار ليس إجبارًا بل أن يخلِّيهم وشأنهم. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيَّرون، لا نوفِّقهم، فما إنزال الآية المقترحة بعد البيان القاطع لعذرهم وقد قضينا أن لا يؤمنوا؟.

﴿وَلَوَ اَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَےْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُومِنُوٓاْ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِےٓءٍ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ الْاِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِے بَعْضُهُمُۥٓ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ الذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالْاَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

من مظاهر تعنُّت المشركين

﴿وَلَوَ اَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ﴾ كما اقترحوا يشهدون أنَّك رسول الله كما قالوا: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ (سورة الفرقان: ٢٠)، وكما قالوا: ﴿أَوْ تَاتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٩٢).

﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ حقيقتهم الصادقة بمن اقترحوه كقُصَيٍّ وجدعان

وآبائهم، كما قالوا: ﴿فَأتُوا بِئَابَآئِنَا﴾ (سورة الدخان: ٣٦)؛ أو كلَّمهُم الموتى زيادة على من اقترحوه. سألوا إحياء قُصَيٍّ وجدعان بن عمرو، وكانا كبيرين صدوقين، فيشهدان بنبوءتك.

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأحياء والأموات، من البعوضة وما دونها، والفيل وما فوقه، زيادة على ما اقترحوه مِمَّا ذكر، ومن جعل الصفا ذهبًا وإفساح الجبال ﴿قِبَلاً﴾ معاينة، وهو مصدر، أي ذوي معاينة؛ أو مقابلين؛ أو نفس المقابلة مبالغة؛ أو ظرفًا أي جهة، وأفصحوا كلُّهم بنبوءتك وبرسالتك.

﴿مَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ﴾ لقضاء الله بكفرهم، فالآيات ولو عظمت لا تردُّهم عن الكفر، وقضاء الله لا يَرُدُّه شيء، ولا آية أعظم من قيام الساعة ودخول النَّار، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ (سورة الأنعام: ٢٩)، فإنزال الآيات بوفق ما طلبوه تحكُّم محض، وموجب للتسلسل، ولأِنْ لا تنتهي الحجَّة إلى مفصل، وذلك سدٌّ لباب النبوءة.

(أصول الدِّين) ولا منافاة بين كون الأفعال مخلوقة لله عزَّ وجلَّ وكونها مكسوبة للخلق بقدرتهم واختيارهم. وقدرتهم مُؤَثِّرة بإذن الله تعالى لا استقلالاً كما تقول المعتزلة، ولا غير مُؤَثِّرة كما قال الأشعريُّ أبو الحسن القائل أنَّها مقارنة للفعل الذي هو بمحض قدرة الله عزَّ وجلَّ، ولا هي منفية كما قالت المجبرة، وذلك مذهبنا ومذهب الأشاعرة، ولم يتَّبعوا إمامهم في قوله المذكور عنه، ولعلَّه لا يصحُّ عنه لظهور بطلانه جدًّا.

﴿إِلاَّ أَنْ يَّشَآءَ اللهُ﴾ إيمانهم في تأويل مصدر على تقدير اللام، أي ما كانوا ليؤمنوا لشيء من الأشياء إلاَّ لمشيئة الله؛ أو على الظرفيَّة، أي ما كانوا

ليؤمنوا وقتًا ما إلاَّ وقت مشيئة الله؛ أو يقدَّر: في حال من الأحوال إلاَّ حال مشيئة الله. والاستثناء مُتَّصِل مفرَّغ، والمُراد في الآية مجاراة الظاهر بقطع النظر عن حقيقة الأمر الذي هو القضاء، فإنَّ ما قضاه الله لا يجوز أن يقع خلافه، ولا يوصف بجواز أن يشاء وقوعه، ويكون إلاَّ جوازًا يقطع فيه النظر عمَّا قضى، فبهذا الجواز صحَّ الاستثناء. ويجوز أن يكون منقطعًا، أي لَكِنَّ مشيئة الله هي القاضية؛ أو إلاَّ مشيئة إيمان من يؤمن غير هؤلاء الأشقياء.

(أصول الدِّين) والآية دَلِيل على أنَّ الله أراد كفر الكافر وشاءه، ولايقع في ملكه ما لم يشأ، ولم يخرج عن ملكه شيء، ودعوى المعتزلة أنَّ المعنى إلاَّ أن يشاء الله إيمانهم مشيئة قهر، لا دليل لها، وزعم الجبَّائيُّ منهم أنَّ مشيئة الله حادثة، ولزمهم نسبة الجهل إلى الله تعالى، واحتجَّ بأنَّه لو كانت قديمة لَزم قِدَمُ ما دلَّ الحسُّ على حدوثه. الجواب أنَّ مشيئته قديمة أزليَّة وتنجيزها لأوانِ متعلَّقها مشيئةٌ حادثة، فِعْلٌ لَهُ لاَ وَصْفٌ.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنَّهم لا يؤمنون ولو جاءت، وأمَّا أقلُّهم فقد يعتقد أنَّه لا يؤمن ولو جاءت لاستحكام العناد فيه والإصرار. والضمير للكفرة، ويجوز أن يكون للمؤمنين، بمعنى أنَّ أكثر المؤمنين يجهلون أنَّ هؤلاء الكفَّار لا يؤمنون ولو جاءتهم، فرغبوا في مجيئها، وقليلهم يعلم أنَّهم لا يؤمنون ولو جاءت فلم يرغبوا في مجيئها. ويجوز أن يكون «أَكْثَرَ» بمعنى: كُلَّ الكُفَّار المشار إِلَيْهِم؛ أو كلَّ المؤمنين الراغبين في مجيئها.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل جَعْلِنا هؤلاء المشركين أعداءك يا محمَّد ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيءٍ﴾ قبلك مفعول ثان ﴿عَدُوًّا﴾ مفعول أوَّل، وهو جماعة كما يستعمل

للمفرد، ألا ترى إلى قوله: ﴿بَعْضُهُم﴾ وقوله: ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ وقوله: ﴿شَيَاطِينَ﴾ بالجمع، قال:

إذا أنا لم أنفع صديقي بودِّه فإنَّ عدوِّي لم يضرَّهم بُغضي

﴿شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ﴾ بدل من «عَدُوًّا»؛ أو هو الأوَّل و«عَدُوًّا» ثان، و«لِكُلِّ» مُتَعلِّق بـ«جَعَلْنَا»؛ أو حال من «عَدُوًّا».

والشيطان: المفسد العاتي من الإنس أو من الجنِّ، فلِكُلِّ نبيء شياطين من الإنس وشياطين من الجنِّ، وشيطان الإنس أعظم من سبعين شيطانًا من الجنِّ، وشيطان الجنِّ إذا أعياه المؤمن استعان عليه بشيطان الإنس فيفتنه، قال مالك بن دينار: شيطان الإنس أعظم عليَّ من شيطان الجنِّ، إن تعوذت با لله أو ذكرت ا لله ذهب، وشيطان الإنس يجرُّني إلى المعاصي عيانًا.

والجنُّ كلُّهم من أولاد إبليس، إلاَّ أنَّه يرسل طائفة إلى الإنس ليغووهم، ولذا أضيفوا إليهم فقيل: شياطين الإنس، وطائفة إلى الجنِّ كذلك. وعن ابن عبَّاس: الجنُّ هم الجانُّ وليسوا شياطين، والشياطين ولد إبليس ولا يموتون إلاَّ معه، والجنُّ يموتون، ومنهم مؤمن ومنهم كافر، وذلك كما قيل: الإضافة بمعنى اللام؛ وَقِيلَ: للبيان؛ وَقِيلَ: إضافة صفة لموصوف، أي الإنس والجنُّ الشياطين.

(أصول الدِّين) والآية تسلية لِرَسُولِ ا للهِ ﷺ بما أصاب مَن قبله من الأنبياء فيصبر كما صبروا، ويقال: «المصيبة إذا عمَّت هانت»، وحجَّة في أنَّ ا لله خلق الكفرَ وشاءه كما خلق الخير وشاءه. وفيها ردٌّ على المعتزلة سواء قلنا

«جَعَلْنَا» بمعنى صيَّرنا، أو خلقنا، أو أثبتنا، وعلى الوجهين لِـ«جَعَلْنَا» مفعولٌ واحد هو «عَدُوًّا»، وإعراب الباقي كما مَرَّ، وزعمت المعتزلة ـ تخلُّصًا عن أنَّه تعالى خلق المعاصي ـ أنَّ المعنى: كما خلَّينا بينك وبين أعدائك، خلَّينا بين الأنبياء قبلك وأعداءهم، ولم نمنعهم ليحصل الثواب والعقاب. أو أنَّ الجعل بمعنى طريق التسبُّب حيث أرسلنا الأنبياء فحسدهم الكفرة؛ أو أنَّ المُراد: كما أمرناك بعداوة قومك من المشركين، أمرنا مَن قبلك بعداوة المشركين؛ أو كما أخبرناك بعدواة المُشركين وحَكَمنا بها، أخبرنا الأنبياء قبلك وحكمنا. [قلت] وذلك باطل وخلاف ظاهر الآية وتكلُّف بلا داع إليه، سوى التعصُّب لمذهبهم الباطل.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ حال من شياطين؛ أو مستأنف أو نعت لـ«عَدُوًّا»، يُرسِل في الإخفاء أحدُ النوعين إلى الآخر ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ ملبسه من الباطل، يُسِرُّ شيطان الجنِّ إلى شيطان الجنِّ قولاً في إغواء المؤمنين، وفي زيادة إغواء غير المؤمن، يقول شيطان من الجنِّ لآخر منهم: أغويت صاحبي بكذا، فأغوه أنت به، وكذا يقول له الآخر. وأمَّا على أنَّ الشيطان بعضٌ من الإنس وبعضٌ من الجنِّ، فالذي من الجنِّ يوسوس الذي من الإنس، فذلك بعضٌ إلى بعضٍ، ولو لم يتمَّ من الجانبين. وقد يطلق الزخرف على المزيَّن الذي هو حقٌّ، والمُراد الأوَّل، لقوله: ﴿غُرُورًا﴾ أي لأجل الغرور؛ أو غارًّا؛ أو ذا غرور؛ أو يغرُّون غرورًا.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ أن لا يفعلوا فيكونوا مؤمنين، ومفعول المشيئة هو مضمون الجزاء على القاعدة كما رأيته، وقدَّر بعضهم: ولو شاء ربُّك إيمانهم، وهو تفسير معنى، أو تفسير صناعة، بأن اعتبر ما علّق به فعل المشيئة سابقًا قبلَ

هذا، وقال: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، وفيما يأتي: ﴿لَوْ شَآءَ اللهُ﴾ لأنَّ ما هنا بعد ذكر العداوة فناسب أن يذكر أنَّ مُربيِّه يمنعه ويحميه، وما يأتي بعد ذكر الشرك فناسب أن يذكره بعنوان الأُلُوهِيَّة المنافية للشرك.

﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما فعلوا ما ذكر من معاداة الأنبياء وإيحاء الزخارف؛ أو ما فعلوا الإيحاء؛ أو مَا فعلوا الغرور في حقّه ﷺ وفي حقِّ إخوانه من الأنبياء عليهم السلام، وفي هذا أيضًا ردٌّ على المعتزلة. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ اتركهم مع ما يفترونه؛ أو مع افترائهم؛ أو اتركهم واترك افتراءهم؛ أو ما يفترونه من الكفر وما دونه من المعاصي مِمَّا زُيِّن لهم، أي ما عليك إثمهم، فقد بلَّغت وليس حسابهم أو توبتهم عليك. وهذا مِمَّا يقوله الله له ولو بعد نزول القتال فلا نسخ لهذا بآية القتال كما زعم بعض.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ ولتميل إلى الزخرف، أو إلى إيحائه، أو إلى الغرور، أو إلى تعادي الأنبياء، عطف على «غُرُورًا» إذا جعلنا «غُرُورًا» مفعولاً من أجله اتَّحد فاعل الغرور وفاعل عامله فنصب. واختلف فاعل الصغو وفاعل عامله فجرَّ باللام، ففاعل الإيحاء «بَعْضُ» وفاعل الصغو «أَفْئِدَةُ»، كما قال ﴿أَفْئِدَةَ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ﴾.

(نحو) وإن جعلنا «غُرُورًا» مفعولاً مطلقًا أو حالاً علَّقنا اللام بمحذوف، أي فعلنا ذلك الزخرف أو الإيحاء أو كليهما لتصغى؛ أو يقدَّر مُؤَخَّرًا، أي: لتصغى إليه جعلنا لِكُلِّ نبيء عدوًّا، ويجوز ذلك أيضًا إذا جعلنا «غُرُورًا» مفعولاً من أجله.

(أصول الدِّين) وفي الآية إرادة الله الكفر للكافرين، لأنَّ الحاصل أنَّه

جعل العدوَّ للصغو إلى ذلك، والصغو إليه كفر، والمعتزلة جعلوا اللام للعاقبة خروجًا عن أن يريد الكفر، فوقعوا في أنَّه كان في ملكه عاقبة لم يُرِدها وهذا عين الكفر. وأجابوا أيضًا أنَّ اللام لام القسم، وَيَرُدُّه أنَّ لام القسم مفتوحة؛ وزعموا أنَّها كسرت لئلاَّ تلتبس بلام الابتداء وَيَرُدُّه أنَّه لا لبس هنا، وأنَّ المضارع في جواب القسم يؤكَّد بالنون إن لم يفصل بينه وبين اللام، وعدم توكيده إمَّا ضرورة و إمَّا قليل فلا يحمل عليه؛ و أجابوا أيضًا بأنَّها لام الأمر للتهديد، وكذا في اللامين بعده، وَيَرُدُّه ثبوت الألف في «تَصْغَى»، نعم يقويه قراءة حذفِها وقراءة الحسن بتسكين اللامات الثلاث. و دعوى أنَّ الجازم حذف الضمَّة المقدَّرة فقط، أو أنَّ الألف إشباعٌ تكلُّفٌ؛ و كذا الحمل على قراءة: «يرتعي ويلعب» (سورة يوسف: ١٢)، وقراءة: «يتَّقي ويصبر» (سورة يوسف: ٩٠).

﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ الهاء لِمَا عادت إليه هاء «إِلَيْهِ»، أي و ليرتضوا ذلك لأنفسهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ﴾ يكتسبوا. وفسَّره الزجَّاج بـ«يكذِّبوا»، وهو تفسير معنًى لا تفسير لغة، وفسَّره بعض بـ«يعيبوا» أو «يتَّهموا»، وهو تفسير معنى لا لغة، وكلاهما بعيد. ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ من الذنوب، ووجه ذلك الترتيب أنَّه يكون الخداع أوَّلاً فالميل فالرضى فالفعل المعبَّر عنه بالاقتراف. قال أبو حيَّان: «وهذا في غاية الفصاحة»، ولعلَّه أراد البلاغة.

(سبب النزول) ولـمَّا طلبه ﷺ كُفَّارُ قريش أن يجعل بينهم وبينه حكَمًا من علماء اليهود أو النصارى ليخبرهم بما في كتابهم من أمره ﷺ نزل قوله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

القرآن الكريم دليل صدق رسالة النبيء ﷺ

﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ على تقدير القول، أي قل لهم: أفغير الله...؟ والهمزة مِمَّا بعد الفاء قدِّمت على العاطف لكمال صدريـَّتها؛ أو داخلة على محذوف عطف عليه «أَبْتَغِي»، أي أأصغى إلى زخرف القول ومطلق الباطل؟ أو أأعدل عن الصراط المستقيم فأبتغي غير الله حكمًا؟ أي أطلب. و«غَيْرَ» مفعول به، فـ«حَكَمًا» حال أو تمييز لـ«غَيْرَ»؛ أو «غَيْرَ» حال من «حَكَمًا»، و«حَكَمًا» مفعول بِهِ.

والحَكَم من لا يخطئ في حكمه، وهو أخصُّ من الحاكم؛ وَقِيلَ: الحكَم من تكرَّر منه الفعل، والحاكم يَصدُق ولو بمرَّة، وأصحابنا رحمهم الله لا يجيزون اسم الفاعل بمرَّة، ووافقهم الفخر في سورة لقمان عند الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَّالِدِهِ شَيْئًا﴾ (الآية: ٣٢). وقال: ﴿أَبْتَغِي﴾ ولم يقل: «تبتغون» ـ كما قال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ تَبْغُونَ﴾ (سورة آل عمران: ٨٣) ـ مع أنـَّهم المبتغون إظهارًا للإنصاف، أي لا يليق بي كما لا يليق بكم، بدأ بنفسه في الحكم عليها؛ أو لمراعاة قولهم: اِجعلْ، لـمَّا طلبوا منه الجعل بدأ بنفسه في الكلام على الجعل.

﴿وَهُوَ الذِي أَنزَلَ إِلَيْكُم﴾ الخطاب للمشركين المبتغين للحكم، ونسب الكتاب إليهم بالإنزال للجلب إلى قبوله، ولأنَّه أوفق بصدر الآية المسوقة للإنكار عليهم، ولو عبَّر بـ«أَبْتَغِي» لا بـ«تبتغون»، إظهارًا للنصفة كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة يس: ٢١)، ولم يقل: ما لكم لا تعبدون الذي فطرني... ﴿الكِتَابَ﴾ القرآن ﴿مُفَصَّلاً﴾ مبيَّنًا فيه الحقَّ من الباطل، وأنتم أمَّة أمِّيَّة لا تدرون ما تأتون وما تذرون، والجملة حال من ضمير «أَبْتَغِي»، والرابط واو الحال؛ أو من لفظ الجلالة المضاف إليه، لجواز الحال عند الفارسيِّ من المضاف إليه مطلقًا؛ أو لتأويل المضاف بمغاير الصالح للعمل، و«كَيْفَ» إنكارٌ للياقة ابتغاء غير الله حكمًا، مع أنَّ الله هو الذي أنزل الكتاب إليكم، ولم يقل: «إلينا» تعظيمًا لشأنهم، من حيث أنَّ لهم من الله كتابًا عظيمًا، وجلبًا لهم بذلك، وزاد لهذا التعظيم والجلب وأنَّ القرآن من الله تقريرًا بقوله:

﴿وَالذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ التوراة؛ أو الجنس الشامل لها وللإنجيل وغيرهما، والمُراد أهل الكتاب مطلقًا، لأنَّ أكثرهم يعلمون؛ أو لأنَّ من لم يعلم متمكِّن من العلم، فكأنَّهم كلَّهم عالمون؛ أو المُراد علماؤهم كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتاب الذين يريدون جعل الحكم منهم، [قلت] وتفسيرُ بعضِهم الموصولَ بِكُبراءِ الصحابة وأهلِ بدر والكتابَ بالقرآن لا يتبادر، بل ليس من التفسير في العير ولا في النفير.

﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ,﴾ أي الكتاب المنزل إليك وإلى قريش وغيرهم وهو القرآن ﴿مُنزَلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ لا باطل ولا من غير ربِّك ﴿بِالْحَقِّ﴾ مقترنًا بالحقِّ ﴿فَلاَ

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّين في الكتاب أي القرآن أنَّه من الله؛ أو الشاكّين في أنَّ أهل الكتاب يعلمون أنَّه من الله جلَّ وعلا، فأجزَم بأنَّهم عالمون بأنَّه من الله.

ولا شكَّ أنَّه ﷺ لا يشكُّ في أنَّ القرآن من الله، ولا في أنَّ أهل الكتاب يعلمون أنَّه من الله، لأنَّه ﷺ قد أخبره الله بأنَّهم عالمون به، فلا يرتاب فيهم من حيثِ علمهم، ولا يتَّهمهم بمداراة أو مداهنة أو غرض في ذلك إذا أخبروه به، وقد يمكن أن يخبره بعض لذلك، وإنَّما ذلك شدَّة التأكيد والتحريض، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ١٤، وسورة يونس: ١٠٥)؛ أو المُراد الدوام على انتفاء الامتراء؛ أو زيادة اليقين؛ أو الخطاب لمن يصلح أَن يشكَّ، لا له ﷺ؛ أو الخطاب له ﷺ والمُراد التعريض لأمَّته.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ كمل صدق كلماته وعدلها وبلغ الغاية، فكلماته آيات القرآن، وقال أبو مسلم: دين الله، كقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ (سورة التوبة: ٤٠)؛ وقيل: حجَّته، و«صِدْقًا وَعَدْلاً» تمييزان محوَّلان عن الفاعل، ولفظ التمام فيه إبهام فصحَّ تمييزه، تقول: تَمَّ زيدٌ، فلا يُدرى ما مرادك، فتزيد: حسنًا أو بهاءً أو فصاحة، أو نحو ذلك. أو مفعول لأجله، أي لصدق وعدل؛ ولاحاجة إلى جعله حالاً بتأويل صادقًا وعادلاً؛ أو ذا صدق وعدل. وعلى كلِّ حال المُراد: الصدق في الإخبار، والوعد والوعيد لا يتبدَّلان، والعدل في الأحكام والتكليف بها، وفي جعله حالاً: ما يتوصَّل به إلى كون التمام بالإعجاز بلفظه، وهذا لا يصحُّ مع غير الحالية. ومن جملة كمال صدقها وعدلها أنَّها لا ينسخها كتاب آخر ونبيء آخر ولا يلحقها تحريف كما

نسخ بعض التوراة وبعض الإنجيل وكما حرِّفا. أي هنَّ عادلات صادقات زدن بعدم التغيُّر والنسخ.

[قلت] والآية ضمان من الله بحفظ القرآن عن التغيير ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحِجر: ٩)، وفي أنَّ القرآن مفصَّل ناف للبس، وأنَّه تامُّ الكلمات إخبار بأنَّه مغنٍ عن سائر المعجزات. وصرَّح بالحفظ عن التغيير أيضًا بقوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا يوجد كتاب بعد القرآن ناسخ له، ولا محرّف يُقبل تحريفه ويُتَّبع، كما حرِّفت التوراة والإنجيل واتُّبع تحريفهما.

وقد حرَّف بعضَه نصرانيٌّ من الإفرنج على عهدنا ولم يَقبل سائر الإفرنج تحريفَه، ولم يتابع عليه فضاع ماله وافتقر، وحرَّف بعضَه أيضًا الإنكليز في اليمن ولم يُقبل عنهم، ولم يتابعوا عليه. ومقتضى الظاهر: لا مبدِّل لها، ولكن أظهر تأكيدًا بتصريحه بهذا الذي لا يبدَّل أنَّه كلماته، وبتصريحه بأنَّ هذا الذي لا يبدَّل هو كلمات الربِّ، أي السيِّد القائم لعبده بمهمَّاته ومن مهمَّاته أن لا يبدَّل.

وإن فسَّرنا الكلمات بكتب الله كلِّها فالمَعنَى: لا مبطل لها بإتيان بما هو أصدق وأعدل، وأنَّها بلغت الغاية في الصدق والعدل، ويجوز أن يكون ﴿كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾: القرآنُ، و﴿كَلِمَاتِهِ﴾: مطلقُ كتبه ووحيه، فيكون قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ برهانًا وتعليلاً، أي تَمَّ القرآن، لا آتِيَ بمثله، أو بما هو أفضل، لأنَّ كلماته مطلقًا كذلك، لا مبطل لها بمساويها أو فائقها. وإذا قلنا باتِّحاد «كلمات» في الموضعين فهذه الجملة بيان لفضله على غيره بعد بيان

فضله في نفسه؛ أو حال من «كَلِمَاتُ رَبِّكَ»، والرابط «كَلِمَاتِهِ»، لأنَّه في موضع الضمير؛ وَقِيلَ: كلمات الله: قضاؤه مطلقًا حتَّى يشمل أنَّ الشقي لا يكون سعيدًا و السعيد لا يكون شقيًّا.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقول كُفَّار قريش وغيرهم ﴿العَلِيمُ﴾ بما يضمرون هم وغيرهم فيجازيهم، فلا يهمَّنَّك شأنهم.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾

ضلالاتُ المشركين والنهيُ عن أكل ذبائحهم

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ﴾ في مشارق الأرض ومغاربها، وفي مكَّة، والمُراد أيُّهم أطعت كائنًا من كان في شيءٍ ما من أمر الدِّين. والمُراد

بالأكثر: المشركون، وبـ«مَنْ»: العموم. ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ا للهِ﴾ لجهلهم وكفرهم واتّباعهم الهوى، غير كتابيِّين أو كتابيِّين، لإعراضهم عن الحقِّ الذي في كتبهم حبًّا للدنيا، والضالُّ لا يَأمر في الغالب إلاّ بما اعتاد من ضلال.

والمُراد: الإضلال بالشرك وما دونه من المعاصي ولو صغائر، فإنَّها أيضًا من دين الشيطان فلا تَهِم كما وهم بعض، ولو غفرها ا لله لمجتنب الكبائر إذ لم يصرَّ. والخطاب للنبيء ﷺ شاملاً لأمَّته، كقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ (سورة الطلاق: ١). فشمل الضلالُ اعتقادَ خلق الفاعل من المخلوقات لفعله، واعتقاد الرؤية ولو بلا كيف، لأنَّ مدرك الشيء قد تصوَّره فقد وقع في المحذور مدَّعيه، وإذا كان اللفظ عامًّا شاملاً لأهل مكَّة أوَّلاً وبالذات، فما وجه تخضيص الآية بمكَّة وأهلها؟.

والآية تحذير له ﷺ وللمؤمنين عن متابعة غير ما أنزل ا لله، وعن الركون إلى من يتَّبع غيره، وإرشادٌ إلى التمسُّك بالقرآن، وإظهارٌ لكمال مباينته لأقوالِ المشركين واعتقادِهم وأحوالِهم.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ ظنَّهم أنَّ آباءهم على الحقِّ في تحليل الميتة وعبادة الأصنام ونحوها، وتحريم البحيرة ونحوها، وظنَّهم أنَّ آراءهم الفاسدة في أمر الدِّين صلاح، ونحو ذلك مِمَّا هو فعل أو اعتقاد، كاتِّخاذ الولد تعالى ا لله، وغير ذلك مِمَّا يتعلَّق بالأُلُوهِيَّة. ﴿وَإِنْ هُمُ, إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يحزرون في أمر ديانتهم، كخرص النخل، فهم يقدِّرون أنَّهم على الحقِّ ظنًّا وتخمينًا، وخرصُهم غير مطابق للحقِّ.

أو يخرصون يكذِبون، سُمِّي الكذب خرصًا لِمَا يدخل الكذب من التحزير والتقدير، وذلك أنَّهم يكذِبون على الله في عبادة غيره، وتحريم البحيرة ونحو ذلك، وحلِّ الميتة، إذ قالوا للنبيء ﷺ: أخبرنا عن الشاة إذا ماتت مَن قتلها؟ قال: «الله قَتَلَها»، فقالوا: أنت تزعم أنَّما قتلت أنت وأصحابك حلالٌ، وما قتله الكلبُ والصقر حلال، وما قتله الله حرام! وأنَّكم تعبدون الله، فما قتله الله أحقُّ أن تأكلوه مِمَّا قتلتم!. وروي أنَّ جهلاء اليهود أو متجاهليهم قالوا ذلك، وروي أنَّ المجوس كتبوا إلى مشركي قريش ـ وكانوا أولياءهم ـ وكان في قلوب بعض المؤمنين في ذلك شبهة، فنزلت الآية. ومَن شأنهم الخرص والظنُّ كيف يطاع في أمر الدِّين؟! فإنَّه يضل غيره ولا يهديه؛ إذ كان إمَّا أن يظنَّ ما تَقَدَّمَه من باطل حَقًّا، وإمَّا أن يحزر فهو مخطئ ولو اتَّفق أنَّه وافق حقًّا، ولذلك ذكر الظنَّ والخرص، ولجواز أن يكون أمر واحد ظَنًّا وخرصًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَّضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي بمن يضلُّ، فمحلُّ «مَن» نُصِب على نزع الجارِّ، ويدلُّ عليه ذكره في مثله، وذلك مقصور على السماع خلافًا للأخفش.

(نحو) و«مَنْ» نكرةٌ موصوفة، أو اسم موصول عامٌّ، وهو أولى. ويجوز أن تكون «مَنْ» مفعولاً لمحذوف، أي يعلم من يضلُّ؛ أو هي مبتدأ و«يَضِلُّ» خبر، والجملة معلّق عنها «يعلم» المُقَدَّر بالاستفهام فيها.

وزعم بعض عن الكوفيِّين أنَّهم يجيزون نصب المفعول به باسم التفضيل ولو بدون واسطة الجارِّ، وبعض بشرط خروجه عن التفضيل، أي هو عالم من يضلُّ، فيكون على هذا مفعولاً به، أو مضافًا إليه لخروجه عن التفضيل، وهذا

ضعيف من حيث الإضافة أو نَصْب المفعول، فإنَّ اسم التفضيل ولـو خـرج عنـه لم يقُم دَلِيل على نصبه المفعول، ولا على إضافتـه لـِما لم يكـن أَعَـمَّ منـه، فإنَّـه يجوز: يوسف أحسنُ أولاد يعقوب، لأنَّ لفظ أولاد يعقوب شامل ليوسف ولـو أخرج بالمَعنَى، ولا يجوز: يوسف أحسن إخوته، لأنَّ إخـوة يوسـف لا يشـمل يوسف. ولو أضيف «أَعْلَمُ» إلى «مَنْ» على بقاء التفضيل لكان المعنى: هو أعلم الضالِّين، فيكون ضالاًّ، حاشاه. وليس المُراد أيضًا أنَّ الضالِّين عالمون وا لله. أعلم منهم، بل المُراد: **ا لله أعلم من كلِّ أحد بالضالِّين وأعلـم مـن كـلِّ أحـد يعلـم الضالِّين.** وَمَعنَى التفضيل أنَّ علمه قديم أبديٌّ لا يخرج عنه شيء، وأنَّـه ذاتـيٌّ، وكذا في قوله: ﴿**وَهُو أَعْلَمُ**﴾ من كلِّ أحد ﴿**بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ دَلِيل على أنَّ المـُـراد هو أعلم بمن يضـلُّ عـن سبيله، والجملتـان تـأكيد لقولـه: ﴿وَإِن تُطِـع...﴾ إِلَى ﴿...يَخْرُصُونَ﴾.

﴿**فَكُلُواْ مِمَّـا ذُكِـرَ اَسْـمُ ا للهِ عَلَيْـهِ إِن كُنـتُم بِئَايَاتِـهِ مُومِنِـينَ**﴾ خطـاب للمسلمين، أي إن كنتم محقِّقين في الإيمان فكلوا مِمَّا ذكر اسم ا لله عليه ـــ عنـد ذبحه أو نحره أو صيده من البرِّ ـ وحدَه، لا مِمَّا ذكر اسم ا لله عليـه ومِـن غـيرِه، ولا مِمَّا ذكر اسم ا لله واسم غيره عليه معًا، فأولى أن لا يأكلوا مِمَّـا ذكـر اسـم غيره عليه وحده. وأمَّا ما مات حتف أنفه فقيل: منه ذلك، لأنَّـه لم يذكر اسـم ا لله عليه، لأنَّ اللفظ ذكر اسم ا لله، والمُراد وحده، فلا يحلُّ ما لم يذكر عليه أو ما ذكر معه غيره؛ وَقِيلَ: مِن قوله: ﴿وَلاَ تَاكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اِسْمُ ا للهِ عَلَيْـهِ﴾. وجواب «إِنْ» أغنى عنه ما قبله. والفاء عاطفة علـى محذوف، أي كونـوا علـى الهدى فكلوا؛ أو اتَّـبَعُوا ما أمركم ا لله به فكلوا، فإنَّ الإيمان به يقتضي الاقتصار

على ما أباح.

(فقه) وفي الأثر قولٌ بجواز أكل ما ذكر اسم الله عليه واسم غيره معًا، وهو ضعيف لا يعمل به، إلاَّ أنَّه مقدَّم عند الاضطرار على ما ذكر عليه اسم غير الله وحده.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أيُّها المسلمون ﴿أَلاَّ تَأْكُلُواْ﴾ في أن لا تأكلوا، متعلِّق بـ«لَكُمْ» لنيابته عن ثابت؛ أو ثبت أو بهذا المُقَدَّر، ﴿مِمَّا ذُكِرَ اَسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ حين ذكاته، والمسلمون والمشركون لا يمتنعون من أكل ما ذكر اسم الله عليه، لَكِنَّ المُراد: ما لكم لا تقتصرون على الأكل مِمَّا ذكر اسم الله عليه وحده؟ بأن لا تأكلوا مِمَّا لم يذكر عليه اسمه، ولا مِمَّا ذكر عليه اسمه واسم غيره. ويجوز أن يكون ذلك إنكارًا على من أراد من المسلمين اجتناب اللذَّات، وعلى الوجهين قَيَّد ذلك بحاليته وقولِه:

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ بيَّن ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مِمَّا أحلَّ ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيهِ﴾ فيحلُّ لسدِّهِ المخمصةَ في الآية بعدُ في هذه السورة ولو كان مُتَأَخِّرًا عن هذه الآية، لأنَّ السورة نزلت بمرَّة، فَأَوَّلُها وأوسطها وآخرها متقرِّر، فهي كورقة كُتِب فيها، وقال كاتبها في أوَّلها أو وسطها: قد ذكرت في هذه الورقة، مشيرًا إلى ما يأتي فيها؛ أو أراد: فصَّله في اللوح المحفوظ تفصيلاً شملته هذه السورة؛ أو فصَّله في المائدة باعتبار ترتيب السُّور في اللوح المحفوظ كترتيبها في مصاحفنا من كون المائدة قبل الأنعام فيه ولو تأخَّر نزولها عن الأنعام، ففي المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ...﴾ (الآية: ٤).

و«مَا» مصدريَّة، والمصدر ظرف زمان وهاء «إِلَيْهِ» عائدة إلى «مَا»

الأولى، أي ما حرَّم عليكم في جميع الأوقات إلاَّ اضطراركم إليه. والاستثناء تفريغ مُتَّصِل والتفريغيُّ أبدًا مُتَّصِل. وإن جعلنا «مَا» اسمًا موصولاً فالهاء عائدة إليه، والاستثناء تامٌّ منقطع، لأنَّ ما اضطرَّ إليه حلال غير داخل فيما حرِّم، إلاَّ أن يعتبر نفس الأشياء المحرَّمة في ذاتها الشاملة لِمَا لم يُضطرَّ إليه فتبقى على التحريم، ولِمَا اضطرَّ إليه فتخرج إلى الحلِّ فيكون مُتَّصِلاً.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من المشركين ﴿لَيضِلُّونَ﴾ عن الحقِّ بتحليل الميتة وتحريم البحيرة ونحوها كعمرو بن لُحَيٍّ، وبغير ذلك من تحليل الحرام وتحريم الحلال، زيادة على ضلالهم بالشرك وغيره، وقال الزجاج: المُراد بالكثير: الذين ناظروا في الميتة. ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ بسبب تشهِّيهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ثابتين بغير علم، بدليل ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين إلى ما لا يحلُّ شرعًا بفعله أو قوله أو تشريعه أو اعتقاده، وذلك عامٌّ؛ أو أُريد الكثير المذكور، فوَضَع اسم التصريح باعتدائهم ذمًّا لهم مكان ضميرهم.

﴿وَذَرُواْ﴾ أُتركوا ﴿ظَاهِرَ الاِثْمِ﴾ الإثم الظاهر من إضافة النعت إلى المنعوت؛ أو من إضافة العامِّ للخاصِّ إضافة تبعيض، وذلك كالغصب والزنى جهرًا، والتطفيف جهرًا؛ أو غير ذلك مِمَّا يشاهده الناس من المعاصي مطلقًا. ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ كالإضافة قبله، إلاَّ أنَّ الضمير لا ينعتُ، وأصله ظاهر منعوت، أي: والإثمَ الباطنَ، وذلك كالسرقة والزنى سرًّا والتطفيف سرًّا، وغير ذلك مِمَّا لا يشاهد من المعاصي، ومثل الزنى جهرًا أن يخلو في حضرة غيره بامرأة شهرت بالزنى. والآية ناهية عن المعاصي كُلِّها، جهرًا أو سرًّا، ودخل في الباطن: الإثم الذي هو من أعمال القلب، وما يتضمَّنه العمل الظاهر ولا يفطن به مشاهده،

ككلام ظاهره الحلُّ أشار به إلى حرام؛ أو الظاهر: أعمال الجوارح والباطن: أعمال القلب كالرياء والكبر واعتقاد حلِّ ما حرِّم، أو تحريم ما حلَّ. وكان أشراف العرب يسرُّون بالزنى حياءً، وَيَتَّخِذُون الأخدان، وغيرُهم لا يبالون. وقال الضحَّاك: كان الجاهليَّة يرون أنَّ الزنى سرًّا حلال، فنزل: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الاِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾. وَقِيلَ: ظاهر الاثم: كالزنى وباطنه: كنكاح ما نكح الأب.

﴿إِنَّ الذِينَ يَكْسِبُونَ الاِثْمَ﴾ ولو صغيرًا إن أصرُّوا عليه ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون، ذكر الاثم هنا بالكسب وفي البقرة بالاكتساب[1] الدالِّ على العلاج، لأنَّه فيها مقرون بذكر كسب الطَّاعة وا لله أعلم.

﴿وَلاَ تَاكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اِسْمُ ا للهِ عَلَيْهِ﴾ وحده حين ذبحه أو نحره أو رميه أو طعنه؛ أو إرسال الجارحة إليه، بأن لم يذكر عليه اسم، أو ذكر اسم غيره؛ أو ذكر اسمه واسم غيره، وذلك عناد ومناقضة للحقِّ؛ أو كسلا ولو من مُوَحِّد.

(فقه) أمَّا مُوَحِّد ذَكَّى بلا ذكر لاسم ا لله ساهيا أو عامدًا فلا بأس بذكاته. سئل ﷺ عن متروك التسمية فقال: «**كلوا فإنَّ تسمية ا لله في قلب كلِّ مؤمن**»، وقال ﷺ: «**ذبيحة المسلم حلال، وإن لم يذكر اسم ا لله عليها**»[2] رواه أبو داود، وذلك محمول عندنا على من لم يذكر اسم ا لله نسيانًا، وأمَّا العامد

١- لَعَلَّهُ يشير إِلَى آيَة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، سورة البقرة: ٢٨٦.

٢- رواه **البيهقي** (الكبرى) فِي كِتَاب الصيد والذبائح (٥) باب من ترك التسمية وَهُوَ مِمَّن تَحلُّ ذبيحته، رقم ١٨٨٩٠. وقال: رواه **أبو داود** فِي المراسيل، عن مسدَّد عن عبد ا لله بن داود عن ثور بن يزيد عن الصلت عن النَّبِيء ﷺ.

فَكَالنَّافِي لِمَا فِي قَلبِهِ، ولفظ الحديث يشمل العامد، فقد يقال ليس تركه كنفي ما في قلبه، فإنَّه قد يكون تركه لوثوق قلبه به، وذلك الوثوق حاضر، نعم قد لا يحضر، وقد يقال إذا لم يحضر دخل في نحو الناسي، قيل: وقد يقال أيضًا تركه عمدًا استحضار له عمدًا، فذلك كذكره. وخبر الآحاد يخصِّصه القرآن عند الشافعيِّ، وذلك رواية عن ابن عبَّاس، ويدلُّ له قوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنَ اَطَعْتُمُوهُمُۥ إِنَّكُم لَمُشْرِكُونَ﴾ لأنَّه فسق لكونه أُهلَّ به لغير الله كما يجيء في السورة.

(فقه) والموحِّد لا يهلُّ به لغير الله، ولإجماع الأمَّة على أنَّه لا يفسق آكل ذبيحة المُوَحِّد التارك للتسمية لوجود الخلاف في ذلك، ولأنَّ ذلك جملة اسميَّة مؤكَّدة بـ«إنَّ» واللام مع تأكيد النهي بهنَّ الدال على عدم حلِّ شيء، ولا يليق مثله بأكل ذبيحة المُوَحِّد، ولأنَّه يشرك الإنسان لو أطاع المشركين في استحلال الميتة والمذبوح على أصنامهم لا في متروك التسمية، ولأنَّ قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ حال مقيِّدة للنهي، والفسق: الإهلال لغير الله، ولأنَّ الشياطين يوحون في ذلك إلى أوليائهم المشركين ليجادلوكم أيُّها الموحِّدون، لأنَّ مجادلتهم في أنَّه كيف حلَّ ما قَتَلتم ولم يحلَّ ما قتل الله؟ وكيف يحلُّ قتيل الصقر ولا يحلُّ قتيل الله! وفي أنَّا نأكل ما تذبحون باسم إلهكم الواحد وأنتم لا تأكلون مِمَّا ذبح باسم آلهتنا المُتَعَدِّدَة؟ ولمَّا كان الجدال في ذلك خصَّ النهي بِهِ.

(فقه) وقيل إنْ ترك المُوَحِّدُ التسمية عمدًا فسدت الذبيحة، وهو قول

أبي حنيفة، وحجَّته ذكر الفسوق، وهو لا يحصل بالنسيان؛ والهاء لترك التسمية لأنَّه أقرب مذكور، وأنَّه سئل ﷺ عن ترك التسمية ناسيًا فقال: «**كلوه فإنَّ تسمية الله في قلب كلِّ مسلم**». وقال ابن سيرين: تحرم ولو نسيانًا أخذًا بعموم الآية، وأعاد الهاء للآكل، وبه قال داود وأحمد، وفي فقه الحنفيَّة أنَّه قول أبي حنيفة، ونُسِب لمالك، ونسب إليه قول أنَّه لا تحرم ولو عمدًا، ونَسب إليه "الفخر" أنَّها تحرم ولو نسيانًا، ونقل ابن الجوزيِّ عن أحمد أنَّها لا تحرم ولو عمدًا، وأعادوا الهاء إلى «مَا» والفسق على ظاهره في الكلِّ، ولو عاد الهاء إلى «مَا» على تقدير مضاف، أي: إنَّ أكله لَفِسْقٌ، وإن لم يُقَدَّر فمعناه: مفسوق به. ونُسب للشافعي أنَّه لا يحرم متروك التسمية عمدًا، وشنَّع عليه قوم حتَّى قيل: خرقٌ للإجماع قبله. وحرَّمه ابن عمر ولو ناسيًا. وقد قال أبو يوسف: إن قضى قاض بحلِّ المتروك التسمية عمدًا لم ينفذ قضاؤه ولا إفتاؤه إن أفتى لخرق الإجماع، والآية في تحريم ما ذبح على الأصنام والسياق يدلُّ له. وعن ابن عبَّاس: في تحريم الميتات والمنخنقة وما معها. وما لم نفسِّر به الآية، ففي آية أخرى.

والواو حالية في «وَإِنَّهُ»؛ أو عطفت إخبارًا اسميًا على طلب فعليٍّ. والقسم محذوف، أي: والله إن أطعتموهم في استحلال أكل الميتة واستحلال ترك التسمية. و«إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» جواب القسم، ولو كان جوابَ «إِنْ» لَقُرِن بالفاء؛ وَقِيلَ: هو جوابها لم يقرن لأنَّ الشرط ماض وليس بِشَيْءٍ، ونسب للمبرِّد ولو بلا كون شرط ماضيًا.

(أصول الدِّين) وتمسَّكت الصُّفْرِيَّة بالآية على أنَّ فاعل الكبيرة مشرك، يقولون: ﴿وَإِنَ اَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في أكلها، وليس كذلك، فإنَّ المعنى: إن أطعتموهم في استحلالها، [قلت] ولي في هذا رسالة ظاهرت بها أهل عُمان على الصُّفْرِيَّة. وَقِيلَ: المُراد بالشياطين: مردة المجوس، وبأوليائهم: مشركو قريش، سمعوا نزول تحريم الميتة فكاتبوا قريشًا بأنَّ ما قتل الله أحقُّ بالحلِّ، فجادل قريش الصحابة به، فكان في أنفسهم شيء، فنزلت الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ﴾.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي الظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

مَثَلُ المؤمن المهتدي والكافر الضال

﴿**أَوَمَن كَانَ مَيِّتًا**﴾ الجمهور على أنَّ الهمزة مِمَّا بعد العاطف لكمال تصدُّرها؛ وَقِيلَ: داخلة على محذوف، أي: أيستوي المشرك والمؤمن؟ أو أأنتم مثلهم في استحلال الميتة؟ ومن كان كميِّت في عدم تحرُّزه عن المضارِّ وعدم جلب المنافع، وذلك هو مَن كَفر. ﴿**فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ صيَّرناه كمن حيي من موتٍ بالإيمان. ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُ, نُورًا**﴾ شيئًا ينتفع به كما ينتفع بنور الشمس والقمر والنجوم والمصباح، وهو آيات القرآن وسائر الوحي؛ أو هُدى في القلب بالآيات وسائر الوحي. ﴿**يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾ يتبصَّر به فيما بينهم ولا يزلُّ بزللهم،

آمنًا من ضلالهم، لأنَّه يميز الحقَّ من الباطل ﴿كَمَن مَّثَلُهُ﴾ صفته؛ أو «مَثَلُ» مقحم، أي كمن هو ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ في المعاصي والجهالات الشبيهة في الخسَّة والمضارِّ بظلمات الليل وغيره التي لا يبتدر فيها إلى نفع ولا إلى دفع ضرٍّ. وقوله: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ حالٌ من المستتر في قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾، وهؤلاء الجمل المركَّبات تمثيليَّة لا استعارة مركَّبة تمثيليَّة لذكر أداة التشبيه ولذكر المشبه والمشبه به، ولو بلفظ غير صريح فيهما، فلا يصحُّ ما قيل: إنَّها استعارة تمثيليَّة، وإنَّها لعدم ذكر المشبَّه صريحًا، وإنَّ ذلك كقولك: أيكون الأسد كالثعلب؟ في الاستعارة المفردة، فإنَّ الآية كقولك: أفمن كفر وأسلم كمن بقي في كفر؟.

وهي على عمومها نزلت في كلِّ مَنْ زِيدَ عِلْمًا ولم يكفر، وفي كلِّ من تاب وكلِّ من أصرَّ، فدخل في ذلك ما روي أنَّ أبا جهل قال: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتَّى إذا صرنا نحن وهم كفرسي رهان، قالوا منَّا نبيء يوحى إليه، والله لا نؤمن إلاَّ أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه. وَلَكِنَّ النبيء ﷺ لم يكفر قطُّ إلاَّ أنَّه كان خاليًا عن الوحي ثمَّ أحياه الله به، كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى﴾ (سورة الضحى: ٧). وما روي أنَّها نزلت في عمَّار بن ياسر وأبي جهل، وما روي أنَّها نزلت في عمر وأبي جهل كانا يسبَّانه ﷺ فأسلم عمر وأصرَّ أبو جهل، وما روي أنَّ حمزة رجع من صيد ـ وكان قنَّاصًا ـ ودخل المسجد على عادته إذا رجع، وبيده قوس فأخبرته مولاة له أنَّ أبا الحكم كان يسبُّ ابن أخيك أو رمى عليه فرثًا وهو ساجد، فجعل يضربه بالقوس وهو يتضرَّع إلى حمزة، ويقول: يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به؟ سفَّهنا وسبَّ آلهتنا وخالف

آباءنا، فقال حمزة: ومَن أسفه منكم عقولاً تعبدون الحجارة من دون الله! فأنا على دينه فأردد عليَّ إن قدرت، وأسلم وقال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله ﷺ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زيِّن للمؤمن الإيمان فاختاره على الضلال وقد قضاه الله فآمن؛ أو كما انتفت الحجج عن هؤلاء ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك والمعاصي، قضاه الله عليهم فاختاروه وكفروا، والمزيِّن الله عزَّ وجلَّ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ (سورة النمل: ٤)، وذلك بخلق الدواعي، ومنعت المعتزلة ذلك. وتزيينُ الشيطانِ: أمرُه بالفعل، وتصويره في صورة الحسن.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جعلنا في مكَّة أكابر مجرميها ليمكروا فيها؛ أو كما جعلنا فسَّاق أهل مكَّة أكابرها؛ أو كما جعلنا أعمال أهل مكَّة مزيَّنة لهم، وما قبل هذا أولى لتقدُّم هذا ولمعلوميَّته، ولتبادر ما قبله من اسم الإشارة أنَّه جعل في مكَّة رؤساءها ماكرين، مع أنَّ المُراد من الكافرين الذين زيِّن لهم أعمالهم أكابرُها، وعلى كلِّ حال [مِن] سنَّةِ الله جَعْل الأكابر كفرة أقوياء على ترويج الباطل، وأتباع الرسل ضعفاء. ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ «فِي كُلِّ قَرْيَةٍ» متعلِّق بـ«جَعَلْنَا» واجب التقديم، ليعود عليه ضمير «مُجْرِمِيهَا»، و«أَكَابِرَ» مفعول ثان مقدَّم، وجُمِع مع أنَّ مفرده اسم تفضيل مُنكَّر لخروجه عن التفضيل، و«مُجْرِمِيهَا» مفعول أوَّل، وكذلك وجب تقديم «فِي كُلِّ قَرْيَةٍ» ليعود عليها الضمير إذا جعلناه مفعولاً ثانيًا، و«أَكَابِرَ» مفعول أوَّل مضاف لـ«مُجْرِمِيهَا»، وساغ الجمع ولو بقي على التفضيل، لأنَّه أُضيف

لمعرفة. ويجوز أن يكون «أَكَابِرَ» مفعولاً أوَّلاً و«مُجْرِمِيهَا» بدلاً، فجُمِع «أَكَابِرَ» لخروجه عن التفضيل.

(نحو) ولم يظهر هذا لِبعْضٍ، فقال: إنَّه جمع لأنَّه خرج عن شأن الوصف، وجعل اسمًا للرؤساء، وأمَّا الأحامرة في قوله:

إنَّ الأحامرة الثلاثة أتلفت مالي وكنت بهنَّ قديمًا مولعًا[1]

فهو صفة مشبَّهة جمعٌ لا اسم تفضيل، وتحقيقًا أنَّه لم يُجِز أحدٌ من النُّحاة جمع اسم التفضيل على "أفاعلة". ولا يخفى أن الإخبار بالتعليل ضعيف فكيف يحسن جعل «لِيَمْكُرُوا» مفعولاً ثانيًا. ولا يجوز أن يكون الثاني محذوفًا، أي «فسَّاقًا» إذ لا دَلِيل عليه؛ وكذلك أن يكون «فُسَّاقًا» مفعولاً أَوَّلاً. وإن قلنا «جَعَلْنَا» بمعنى مكَّنَّا فله مفعول به واحد هو «أَكَابِرَ»، و«مُجْرِمِي» بدل؛ أو «مُجْرِمِي» مفعول به و«أَكَابِرَ» حالٌ منه.

وعلى كلِّ حال: قيَّض في كلِّ قرية المجرمين الأكابر لأنَّهم أقدر على الصدِّ عن دينه، وأكثر أتباعًا، وذلك تعليل كما هو ظاهر قوله: ﴿**لِيَمْكُرُواْ فِيهَا**﴾ ولله أن يفعل ما شاء، وذلك في المعنى كثير، لأنَّ حاصله التزيين والخذلان، وخلق الأفعال. أو اللام للصيرورة. ﴿**وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ**﴾ لأنَّ عاقبة مكرهم عائدة عليهم بالهلاك في الدُّنيا والأخرى. ﴿**وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ بأنَّه عليهم. ومكرُهم: هو صدُّهم الناس عن الدِّين بمنع منافعهم إن أسلموا، والإضرار بمن أسلم، وقولُهُم: شاعرٌ، أو ساحرٌ، أو مجنون، أو

١- البيت للأعشى، وَالمُرَاد بالأحامرة الثلاثة: الخمر واللحم والخلوق. اهـ. **لسان العرب.**

أساطير الأَوَّلِينَ، أو يعلّمه بشر، أو كاذب، أو كاهن، والغيبة والنميمة، والأيمان الكاذبة، وتزيين الباطل.

ومن ذلك أنَّهم أجلَسوا على كلِّ طريق من طرق مكَّة أربعة يصرفون الناس عن الإيمان، ويقولون: كاذب ساحر كاهن ونحو ذلك كما قال مجاهد، وأنَّهم يتصنَّعون في لباسهم وأولادهم وعبيدهم ليرى الناس أنَّهم أحسن فيتبعوهم، وكلَّما جاءتهم معجزة قابلوها بنوع من الإنكار ولو بعناد محضٍ. قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

تعنت المشركين ومطالبتهم بالنبوة

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ أي كُفَّار قريش ﴿ءَايَةٌ﴾ تتلى ومعجزة لا تتلى ﴿قَالُواْ لَن نُّؤمِنَ﴾ بها أَنَّها من الله، ولا بمضمونها ولا برسالته ﷺ، ولا بتوحيد الله جلَّ وعلا. ﴿حَتَّىٰ نُؤتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللهِ﴾ من الوحي والرسالة لنا إلى خلقه، فنكون كالرسل المُتَقَدِّمين أنبياء رسلاً إلى الناس كما ادَّعى محمَّد لنفسه.

وَمَرَّ قريبًا عن أبي جهل: «والله لا نرضى بمحمَّدٍ نبيًا إلاَّ أنَّ يأتينا وحي كما يأتيه، ونكون متبوعين لا تابعين، زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتَّى إذا صرنا...» إلخ. وكما قال الوليد بن المغيرة لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: «والله لو

كانت النبوءة حَقًّا لكنتُ أولى بها منك، لأنِّي أكبر منك سنًّا، وأكثر منك مالاً وولدًا»، وفي ذلك نزلت الآية هذه والأخرى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُّوتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ (سورة المدَّثِّر: ٥٢)؛ وَقِيلَ: لم يطلبوا أن يكونوا أنبياء ورسلاً، بل طلبوا أن تنزل عليهم صحف وملائكة وآيات قاهرات، كآيات الرُّسل المُتَقَدِّمين في أنَّ محمَّدًا رسول الله؛ كتاب إلى أبي جهل، وكتاب إلى الوليد، وكتاب إلى أبي لهب، وهكذا «أنَّ محمَّدًا رسول الله»، كما فسَّر بعض بِهِ آية الصحف المنشَّرة: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُّوتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾. [قلت] وما ذكرته أولى لأنَّه ظاهر الآية ولقوله تعالى:

﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ﴾ وهؤلاء ليسوا موضعًا للرسالة، ومن غاية السفه أن يقول الرجل إذا قيل له آمِنْ: لا أومِنُ حتَّى يجعلني الله نبيًّا رسولاً!.

(نحو) وتَقَدَّمَ الكلام على عمل اسم التفضيل، إلاَّ أنَّ حيث لا يكون مضافًا إليه ولا يكون مفعولاً به، فلا يجوز أن يقال مفعول به لـ«يعلم» محذوف دلَّ عليه «أَعْلَمُ»، وأجازه الفارسيُّ وابن هشام. ولا إشكال في جعلها ظرفًا مُتَعَلِّقًا بـ«أَعْلَمُ»، أي الله عظيم العلم في موضع جعل الرسالة، وليس ذلك حصرًا، فإنَّه أعظم علمًا في كلِّ شيء. ولا إشكال في الظرفيَّة لأنَّها ليست حقيقة، لأنَّ المعنى: أعلم في شأن جعل الرسالة، وقد قال الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (سورة الرحمن: ٢٧).

قال بعضٌ: سُنَّ الوقفُ في قوله تعالى: ﴿رُسُلُ اللهِ﴾. قال بعضٌ: يوقف

ويدعى بقولك: «اللهمَّ! مَن الذي دعاك فلم تجبه؟ ومن الذي استجارك فلم تجره؟ ومن الذي سألك فلم تعطه؟ ومن الذي استعان بك فلم تعنه؟ ومن الذي توكَّل عليك فلم تكفه؟ يا غوثاه يا غوثاه! بك أستغيث فأغثني يا مغيث، واهدني هداية مِن عندك، واقض حوائجنا واشفِ مرضانا، واقض ديوننا واغفر لنا ولآبائنا ولأمَّهاتنا بِحَقِّ القرآن العظيم، والرسول الكريم، برحمتك يا أرحم الراحمين» ثمَّ يقرأ: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾. ولم أر ذلك في كتب الحديث، لكنَّه حسن.

﴿سَيُصِيبُ الذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾. إجرامُهم هو قولهم: ﴿لَن نُّومِنَ حَتَّىٰ نُوتَىٰ﴾ وغيرُ ذلك من معاصيهم؛ فمقتضى الظاهر: سيصيبهم، ولكن أظهَرَ ليصفهم بالإجرام. والصَّغار: الذلُّ والهوان. والعذاب الشديد: عذابُ الدُّنيا كقَتْل بدر، وعذابُ الآخرة. ومَعنَى ﴿عِندَ اللهِ﴾: يوم حشرهم، أو قضائه؛ والعنديـَّة شاملة لذلك كُلِّه مطلقًا، لا بقيد تقدير: مِن عندِ الله، كما قيل عن الفرَّاء، إذ لا يقال بحذف الجارِّ بلا دَلِيل، لا يقال جئت عندَ زيد، ويراد: مِن عندِ زيد. ويجوز أن يكون المعنى أنَّ ذلك دخيرة عند الله لهم على التهكُّم، وهو متعلِّق بـ«يُصِيبُ» أو بمحذوف نعت «صَغَارٌ»؛ أو بـ«صَغَارٌ» لَمَّا تكبروا عن الحقِّ ومالوا إلى التلذُّذ بالمعاصي والدنيا، جُوزُوا بالذلِّ والعذاب مضادَّة لذلك، أي بسبب كونهم يمكرون؛ أو بدل كونهم يمكرون، والذلُّ بعد الرتبة أشدُّ.

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

سنَّة الله في المستعدِّين للإيمان وغير المستعدِّين وجزاء الفريقين، بعد بيان الحقّ ومنهجه

﴿**فَمَنْ يُّرِدِ اللهُ أَنْ يَّهْدِيَهُ**﴾ الفاء عطفت الجملة الاسميَّة على قوله: ﴿سَيُصِيبُ﴾ عطفَ قصَّةٍ على أخرى، بل بينهما مناسبة باعتبار مفهوم الكلام من أنَّ المجرمين يصيبهم الذلُّ والعذاب، والمؤمنين لا يصيبهم ذلك بل العزُّ والإنعام، ففي كلٍّ من الجمل وعد ووعيد، ألاَ ترى إلى قوله: ﴿**يَشْرَحْ صَدْرَهُ, لِلاِسْلاَمِ**﴾ فإنَّه ناظر إلى مفهوم: ﴿الذِينَ أَجْرَمُوا﴾، وقوله: ﴿**وَمَنْ يُّرِدَ اَنْ يُّضِلَّهُ, يَجْعَلْ صَدْرَهُ, ضَيِّقًا حَرِجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ**﴾ فإنَّه ناظر إلى ظاهر قوله: ﴿سَيُصِيبُ﴾.

والهداية هنا هداية عصمة وتوفيق مترتِّبة على هدى البيان، أي يُبَيِّنُ لهم الحقَّ فيؤمنوا فيوفِّقهم بشرح صدورهم، وهو جعلها متَّسعة للحقِّ قابلة له، ليس

فيها ما يزاحم الإيمان من السوء.

لـمَّا نزلت الآية سئل رسول الله ﷺ عن شـرح الصـدر فقـال: «**هـو نـور يقذفه الله في قلب المؤمن فيشرح له وينفسـح**» فقـالوا: هـل لذلـك مـن أمـارة يعرف بهـا؟ قـال: «**نعـم، الإنابـة إلى دار الخلـود، والتجـافي عـن دار الغـرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**»[1] فشرح الصدر كناية عن تقويـة الدواعـي إلى قبول الإيمان وحلوله في القلب، وإلى النفرة عن شأن الدُّنيا وذلـك توفيـق، وهـو ضدُّ الخذلان الذي هو منع ذلك عن القلب، فيضيق عن ألفة الحـقِّ وقبولـه، فـلا يتَّسع للإيمان وتوابعه فيتعسَّر عليه ويستحيل، كما يستحيل الصعود إلى السماء، ويصعب أو يبعد عن الحقِّ نفرة عنه، ويبعد عنه كبعد الصعود إليها.

وجملة «كَأَنَّمَا» مستأنفة؛ أو حال من ضمـير «حَرِجًـا» لقربـه؛ أو ضمـير «ضَيِّقًا» لبناء الكلام عليه؛ أو مفعول ثان بعد مفعول ثـان. وأصلـه يتصعَّـد، أُبدِلـت التـاء صـادًا وأدغمـت في الصـاد. و«فِـي» بمعنـى «إلى»؛ أو علـى ظاهرها، أي كأنـَّما يعالج الدخول في السماء بعلاج الصعود الممتنع. والمُـراد ضيِّقًا عن قبول الحقِّ، والحرجُ الذي هو أشدُّ ضيْقًا فهو أخـصُّ مـن الضيـق. وقرأ صحابي عند عمر الآية فقال عمر: أبغونـي رجـلاً مـن كنانـة واجعلـوه راعيا وليكن مُدْلِجيًّا، فأَتَوه به، فقال عمر: يا فتى ما الحَـرَجَة فيكـم؟ قـال: الحرجة فينـا الشـجرة تكـون بـين الأشـجار الـتي لا تصـل إليهـا راعيـة، ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: «كذلـك قلـب المنـافق لا يصـل إليه شيء من الخير».

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج ٣ ، ص ٤٩ . من حديث أبي جعفر المدائني.

﴿كَذَلِكَ﴾ كما جعلنا صدره ضيِّقًا حرجًا؛ أو مثل القصَّة، أي جَعْلاً مثلَ ذلك الجعل مفعولاً مطلقًا لِمَا بعده؛ أو مفعولاً ثانيًا مُقَدَّمًا لا خبر لمحذوف، أي الأمر كذلك، لأنَّه يتعطَّل عنه قوله: ﴿يَجْعَلُ ا للهُ الرِّجْسَ﴾ أي العذاب في الدُّنيا والآخرة. ولفظ الزجَّاج: اللعنة في الدُّنيا والعذاب في الآخرة؛ أو الرجس: الخذلان؛ أو الشيطان؛ وأصله الشيء القذر. والجعل: تصيير، فالمفعول الثاني هو قوله: ﴿عَلَى الذِينَ لاَ يُومِنُونَ﴾. أو الجعل: إلقاءٌ، فيَتَعلَّقُ بـ«يَجْعَلُ». و﴿الذِينَ لاَ يُومِنُونَ﴾: أهل الضلال المذكورون، ذكرهم بالظاهر ليذمَّهم بعدم الإيمان، وليذكر أنَّه علَّة للرجس؛ أو المُراد مطلق من لا يؤمن، فيدخل هؤلاء أوَّلاً.

﴿وَهَذَا﴾ أي دين الإسلام ـ قولاً واعتقادًا وعملاً وتركًا ـ الذي أنت عليه يا محمَّد وأصحابك، الآتي به القرآن، كما جاء عن ابن مسعود أنَّ الإشارة إلى القرآن، وكما جاء عن ابن عبَّاس أنَّها للإسلام. [قلت] ويضعف أن تكون الإشارة للتوفيق والخذلان لأَنَّهُما فعل للهِ لا فعل للناس، يكلِّفهم أن يكون لهم صراطًا مستقيمًا، ألا ترى إلى قوله: ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ حال من الخبر، لأنَّ المبتدأ اسم إشارة ناصبُه اسم الإشارة لما فيه من معنى الفعل، وهو العامل في صاحبه الذي هو الخبر؛ أو ناصبُه هاء التنبيه لما فيها من معنى الفعل، فيكون عامل الحال غير عامل في صاحبه.

(نحو) وهي حال مؤكِّدة لصاحبها لازمة، لأنَّ صراط ا لله أبدًا مستقيم، وليست مؤكِّدة للجملة من جملة أخرى، هكذا أحقه مستقيمًا إذ لاداعي لذلك، وقد وجدت التوكيد بلا حذف إذ حصل بكونه صراط ربِّك أنَّه مستقيم، فزيد مستقيمًا للتأكيد، وأضاف الصراط إلى ربِّك لأنَّه ارتضاه

واقتضته حكمته. وَمَعنَى استقامته: أنَّه يوصل إلى هدى كما يوصل إلى السوء ما هو معوجٌّ؛ أو أنَّه عدل، وذلك تشبيه بطريق الأرض المعتاد الموصل إلى المقصود. ومن عادة الله إجراء الأحكام الشرعيَّة وإلزام الجري عليها، كالمشي في الطريق، فإنَّه يوصل إلى رضى الله وكرامته سبحانه.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الاَيَاتِ﴾ ميَّزناها شيئًا فشيئًا بلا خلط ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتَّعظون فيعلمون أنَّ الله هو القادر، وأنَّه لا حادث في الوجود من جسم وعرَض إلاَّ وهو عالم به، قاض له، خالق له بعدل. وخصَّ المتذكِّرين بالذكر لأنَّهم المنتفعون بالآيات، وإلاَّ فقد فصَّلها للمكلَّفين كلِّهم. والآية عامَّة يدخل فيها الصحابة بالأَوْلى، وكأنَّ قائلاً قال: فما أعدَّ الله لهم؟ فقال:

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ﴾ السلامة من كلِّ مكروه، الدائمةُ وهي الجنَّة، لا يكون فيها مكروه ولا تنقطع. يقال السَّلام والسلامة كاللذاذ واللذاذة، كقوله تعالى: ﴿اُدْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ﴾ (سورة ق: ٣٤)؛ أو السَّلام لفظ: «سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ»، ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم﴾ (سورة الرعد: ٢٤)، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ (سورة يونس: ١٠)، ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (سورة يس: ٥٨)، ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا اِلاَّ سَلاَمًا﴾ (سورة مريم: ٦٢)؛ أو السلامُ الله: ﴿السَّلاَمُ الْمُومِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ (سورة الحشر: ٢٣)، أضافها لنفسه تشريفًا لها وترغيبًا. والجملة استئنافُ بيانيٌّ نحويٌّ كما رأيت؛ أو حال مُقَدَّرَة من الواو؛ أو نعت لـ«قَوْمٍ» أو حال؛ أو «لَهُمْ» حال، أو نعت، و«دَارُ» فاعل لقوله: ﴿لَهُمْ﴾.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّق بـ«لَهُمْ» أو بمتعلَّقه؛ أو حال من «دَارُ» المجعول فاعلاً

لقوله: ﴿لَهُمْ﴾. وَمَعنَى العنديَّة أنَّ دار السلام في ضمانه وكفالته لهم ووعده؛ أو أنَّها معدَّة لهم كما تكون مهيَّأة حاضرة لأصحابها، كقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (سورة البيِّنَة: ٨)؛ أو أنَّها شيء مدخول موصوف بالقرب إلى الله بالشرف لا بالمكان لتنزُّهه تعالى عنه، فلا يعرف كنهها سواه؛ أو أنَّها عظيمة بتعظيم الله لها، كقوله تعالى: «**أنا عند الـمُنكَسِرة قلوبهم من أجلي**»[1]، وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (سورة القمر: ٥٥)، ﴿وَمَنْ عِندَهُ, لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ (سورة الأنبياء: ١٩)، وقوله: «**أنا عند ظنِّ عبدي بي**»[2] باعتبار جانب ظنِّه الخير.

﴿**وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ محبُّهم أو ناصرهم بسبب ما كانوا يعملون من طاعات وترك المعصيات؛ أو بدل ذلك وعوضه؛ أو متولِّي أمورهم ومصالحهم في الدُّنيا والآخرة، ملتبِّسًا بجزاء ما كانوا يعملون، كما قال الحسن

١- حديث قدسي. قال الشيباني: «حديث: أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، قال شيخنا [العراقي]: ذكره الغزالي في البداية». **الشيباني**: تمييز الطيِّب، ص٤١، حديث ٢٣٤.

٢- رواه **البخاري**، في كتاب ١٠٠ التوحيد، باب ١٥ قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُم الله نفسَه﴾، حديث ٦٩٧٠. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ...» إلخ الحديث. ورواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: ٤٨٣٢، ٤٨٤٩. وكذا **الترمذي وابن ماجه وأحمد والدارمي والطبراني** في الأوسط والكبير **وأبو نعيم والحاكم** وصحَّحه **السيوطي**. انظر: **المناوي**: فيض القدير، ٣١٢/٢؛ ٤/٤٩٠-٤٩١. برنامج سلسلة كنوز السنَّة. العالميَّة: برنامج موسوعة الحديث: الكتب التسعة.

بن الفضل: «يتولاهم في الدُّنيا بالتوفيق وفي الآخرة بالجزاء».

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُم جَمِيعًا﴾ واذكر يوم نحشرهم قائلين: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ﴾؛ أو نقول يوم نحشرهم جميعًا: يا معشر الجنِّ؛ أو ويقال يوم نحشرهم جميعًا: يا معشر الجنِّ. ولو قدَّرنا: يوم نحشرهم جميعًا يكون ما لا تفي به العبارة لصَحَّ، لكن لا يكفي عن تقدير القول عند قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ...﴾، وتقدير هذا القول يغني عن تقدير غيره فهو أولى. ولا مانع أن يكلِّم الله الكفَّار كلام خزي، فإذا قُدِّر يقال احتمل أنَّه المتكلِّم، أو المتكلِّم غيرُه. وإذا قُدِّر: نقول، لم يَتَعَيَّن أنَّه القائل، لجواز أنَّه يقول بواسطة ملَكٍ. وهاء «نَحْشُرُهُمْ» للجنِّ والإنس فقط؛ وَقِيلَ: لكفَّارهم فقط؛ وَقِيلَ: للشياطين ولو كانت الحيوانات كلُّها تحشر، لأنَّ سائر الحيوانات لا يناسب قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾.

﴿قَدِ اِسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الاِنسِ﴾ إلى قوله: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ اللهُ﴾. والمعشر: الجماعة التي تضبطهم جهة واحدة وتحصل بينهم مخالطة؛ ولذلك عَبَّرَ به في جانب الجنِّ المغوين، إذِ الإغواء يقتضي التعاون. وَمَعنَى استكثار الجنِّ من الإنس: جَعْلُهم أتباعَهم فيحشروا معهم، كما يستكثر الأمير الجند؛ أو كما قال ابن عبَّاس والزجَّاج: إكثار إضلالهم الإنسَ.

والاستكثار " استفعال " للطلب أو المبالغة، أي طلبتم كثرة من الإنس ونلتموها؛ أو بالغتم في الإكثار منهم، ويُقَدَّرُ مضاف، أي: من إضلال الإنس وجعلهم أتباعًا لهم، إذ يكلِّمون الإنس من أجواف الأصنام بأمر الشرك، وبأمر الله لهم به وبسائر المعاصي، ويكلِّمون الكهَّان بذلك وبغير ذلك مِمَّا هو غائب،

فيدَّعون علم الغيب هم والكهَّان، ويُخبِّلون العقول فيصير الجنون، ويغوون في الصحاري، ويوسوسون بالمعاصي، ومن عادتهم إذا خاف إنسان في وادى عشيَّة أو ليلاً نادى: «أعوذ بربِّ هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه» فيحافظ عليه وعلى دَابَّته كبير الوادي من الجنِّ، قال ا لله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ (سورة الجن: ٦)، والجنُّ تتعظَّم بذلك كُلّه؛ أو بقَبُول الإنس كلامهم وَبِكُلِّ ما يدَّعيه الناس لهم من علم الغيب، وقطع المسافة البعيدة في مدَّة يسيرة، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سورة سبأ: ١٤).

قيل: لفظ الجنِّ يطلق للروحانيِّين المستترين عن الحواسِّ، فيشمل الملائكة والشياطين، ويطلق للروحانيِّين ما عدا الملائكة. ويقال الروحانيُّون ثلاثة: أخيارٌ وهم الملائكة، وأشرارٌ وهم الشياطين، وأوساطٌ فيهم الخير والشرُّ. ﴿**وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُمْ**﴾ أي من أطاعوا الجنَّ. قيل: ذَكَرَ جواب الضالّين و لم يذكر للمضلّين جوابًا إذ لم يكن لهم جواب في هذه القصَّة وهذا المقام، بل أُفحِمُوا بالمرَّة، ولو كان لهم جواب في مقام آخر. ﴿**مِنَ الاِنسِ**﴾ «مِنْ» للتبعيض، أي بعض الإنس؛ أو للبيان، أي الذين هم إنس؛ وليس استغراقًا.

﴿**رَبَّنَا**﴾ يا ربَّنا، هذا وما بعده إخبار أُريد به التحسُّر، كقوله:

هوايَ مع الركب اليمانين مُصعدُ جَنيبٌ وجثماني بِمَكَّةَ موثق

﴿**اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ**﴾ استمتاع الجنِّ بالإنس ما تقدَّم، واستمتاع الإنس بالجنِّ بمحافظة عظيم الوادي، ودلالة الجنِّ لهم على لذائذ وبيان السِّحر، وبعلم

ما يلقون إليهم عند التكهُّن؛ وَقِيلَ المُراد: استمتع بعض الإنس ببعض الإنس، لأنَّ هذا كثير ظاهر، وَيَرُدُّه أنَّه لا يليق بما سيق له الكلام من التَّبكيت؛ وَقِيلَ: بعضنا ببعض: الجنُّ.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ هو يوم البعث، وهذا، وهو قول الجمهور هو الصحيح، وقال الحسن: يوم الموت، وذلك هو مع قولهم: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ خضوع لله عزَّ وجلَّ باعترافهم بالمخالفة، وتحسُّرٌ حين لا ينفع، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ﴾ الله بواسطة ملك، أو بخلقِ الكلام حيث شاء: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ مرجعكم؛ أو موضع إقامتكم، وهو اسم مكان ميميٌّ؛ أو رجوعكم، أي ذات رجوعكم، ولا يحسن التفسير به مع الاستغناء عنه بما لا حذف فيه. ﴿خَالِدِينَ فِيهَآ﴾ حالٌ من الكاف مُقَدَّر. ولم يشترط الفارسيُّ لمجيء الحال من المضاف إليه شرطًا، وهو هنا موجود، لأنَّ مرجع مصدر ميمي، وعلى أنَّه اسم مكان ففي اسم المكان معنى الفعل إذ هو موضع الرجوع؛ أو الإقامة لأنَّه ميميٌّ، فيسوغ عمله في الظروف ولو كان لا ينصب المفعول ولا يرفع الفاعل. ﴿إِلاَّ مَا شَآءَ اللهُ﴾ «مَا» مصدريَّة، والمصدر ظرف، أي إلاَّ مشيئة الله، أي إلاَّ وقت مشيئته أن لا يكونوا في النَّار، وهو من وقتهم الذي قالوا فيه: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ﴾؛ أو من وقت حشرهم إلى أن يدخلوها، كأنَّه قيل: ما لَكُم محيد عن النَّار إلاَّ ما مضى لكم من حين أمهلكم في الدُّنيا؛ أو من حين حشركم؛ أو قولكم ذلك إلى وقت أُعِدَّ لدخلوها، على أنَّ الاستثناء منقطع لا على أنَّه مُتَّصِل، إذ لا يجوز: سأضرب القوم إلاَّ زيدًا ما ضربته، على الاتِّصَال لا على الانقطاع.

أو المـُراد: وقت خروجهم من النَّار إلى الزمهرير، على أنَّ النَّار بمعنى خصوص النَّار المحرقة لا مطلق دار العذاب التي اشتملت على الزمهرير؛ أو وقت خروجهم إلى الحميم فإنَّه خارجها كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (سورة الصافات: ٦٨)، والكلُّ في دار العذاب، كما روي أنَّهم ينقلون من عذاب النَّار ويدخلون واديًا فيه الزمهرير يفصل بعض الأعضاء من بعض فيصيحون كالكلاب، ويطلبون الردَّ إلى النَّار، وتُتصوَّر الآية أيضًا بدخول بعضِ النَّار بعد بعضٍ. [قلت] **ولا يصحُّ ولا يجوز** ما قيل: إنَّهم يخرجون من دار العذاب كلّها إلى جهة الجنَّة فيرونها ويقربون منها فيردُّون إلى دار العذاب ليشتدَّ تأسُّفهم، وأنَّ هذا هو ما شاء الله في الآية.

والاستثناء مُتَّصِل غير مفرغ نظرًا إلى تضمُّن الخلود معنى أبدًا، فكأنَّه قيل: خالدين فيها أبدًا إلاَّ وقت المشيئة. وعن ابن عبَّاس ما حاصله أنَّ «مَا» بمعنى «مَنْ» لا مصدريَّة، أي: إلاَّ من شاء الله إيمانه فقد آمن فلا يدخل النَّار، وعلى هذا فالاستثناء من الكاف أو من ضمير خالدين، أي لا خلود له لعدم دخوله فيها. وقال الزجَّاج: إلاَّ ما شاء الله من زيادة العذاب، أي خالدين فيها على هيئتها حال الدخول إلاَّ ما شاء من الزيادة على تلك الهيئة، زيادة لا تتناهى؛ أو إلاَّ زيادة تكاد لمباينتها ما سبق تعدُّ غير جنس العذاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في قوله وفعله وقضائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بِكُلِّ شيء خلقه، وأحوالهم وسعادة السعيد وشقاوة الشقيِّ، ومن ذلك إكرام المتذكِّرين بالآيات بدار السلام، وولايتهم بالنصر والعون، وتخليد الشياطين في النَّار.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

تولية الظلمة على بعضهم وتقريع الكافرين

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما ولَّينا بعض الجنِّ على بعض الإنس حتَّى استمتع بعضٌ ببعضٍ خذلانًا منَّا ﴿**نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ**﴾ أي نصيرُه يلي ﴿**بَعْضًا**﴾ فهو مسلَّط عليه بالإغواء.

كما فسَّر الكلبيُّ الآية بما جاء عنه ﷺ من أنَّه: «**إذا أراد الله بقوم خيرًا جعل أمراءهم خيارهم، وإذا أراد الله بقومٍ شرًّا جعل أمراءهم أشرارهم**»[1]، وقال الله: «أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، لكن توبوا أعطفهم عليكم». والرعية إذا كانوا ظالمين سلط الله عليهم ظالمًا مثلهم،

١- رواه **البيهقي** في الشعب (٤٩) باب في طاعة أولي الأمر (فصل في الإمام العادل) ج٦، ص٢٢، رقم ٧٣٨٩. وأَوَّلُ الحديث عنده: «إنَّ لِكُلِّ زمان ملكا يبعثه الله عَلَى نحو قلوب أهله...». من حديث كعب الأحبار.

قال ﷺ: «**كما تكونون يولى عليكم**»[1].

أو نَكِلُه إلى نصرته ومعونته فلا ينصره، كما قال: ﴿مَآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٥)، ﴿وَادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ﴾ (سورة القصص: ٦٤)، ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٢)؛ أو يجعل بعضًا يلي بعضًا في العذاب؛ أو نقرنهم في العذاب كما اقترنوا في الدُّنيا على المعصية وتعاونوا.

والكاف اسم مضاف لـ«ذَا» مفعول مطلق؛ أو حرف يُقَدَّرُ المفعول المطلق قبلها؛ أو يتعلّق بـ«نُوَلِّي» على تعليق كاف التشبيه؛ أو خبر لمحذوف، أي الأمر مثل ذلك، أو ثابت مثل ذلك؛ وهذا ضعيف، لأنَّه ينقطع هنا مثلاً عن قوله: ﴿نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾. ﴿**بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ من الإشراك وما دونه من المعاصي. والمشركون مخاطبون بفروع الشريعة فهم مؤاخذون على المعاصي كلّها من فعل وترك.

﴿**يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالاِنسِ**﴾ يقول لهم الله بما شاء؛ أو تقول الملائكة لهم توبيخًا، ويدلُّ لقول الله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾. وعلى أنَّ القول للملائكة يكون التقدير: تقول الملائكة عن الله. ﴿**أَلَمْ يَاتِكُمْ**﴾ إنكارًا لانتفاء، فثبت الإتيان، وتوبيخ لهم على ترك التأثُّر بما جاءت به الرُّسل. ﴿**رُسُلٌ مِّنكُمْ**﴾ كثيرون عظام لم يخرجوا عنكم ويكونوا من غيركم بل كانوا من بعضكم، فذلك حكمٌ على المجموع وكلٌّ، لا على الجميع ولا كُلِّيَّة، فلا ينافي أنَّ الأنبياء

١- رواه **البيهقي** في الشعب (٤٩) باب في طاعة أولي الأمر (فصل في الإمام العادل) ج٦، ص٢٣، رقم ٧٣٩١. من حديث أبي إسحاق عن أبيه.

من الإنس فقط، لكن لـمَّا جُمعوا مع الجنِّ في الخطاب وكلِّف الجنُّ بما كلِّف به الإنس وبواسطة أنبياء الإنس صحَّ الخطاب.

فلا دَلِيل في الآية لمن اسْتَـدَلَّ بها على أنَّ رسل الجنِّ من الجنِّ، ولا في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ امَّةٍ اِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سورة فاطر: ٢٤) لأنَّ المُراد أمم الإنس كما هو المتبادر من الآية، ولا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ (سورة الأنعام: ٩)، إذ كانت علَّة جعل الملك رجلا إنَّه أَلْيَقُ، فكذلك يكون الأليق بالجنِّ رجلاً منهم؛ لأنَّا نقول: رسول الإنس لائقٌ بهـم يستمعون منه، وممَّـن أخذ منه، ويحضرون الدروس ولا نراهم، وربَّما سُمِع سؤالٌ منهم، وقد استمعوا من رسول ا لله ﷺ؛ وَقِيلَ: الآية تدلُّ على أنَّ رسل الجنِّ من الجنِّ لكن لم يـوحَ إليهم بل سمعوا من رسل الإنس الموحى إليهم.

والمُراد بالرسل في الآية ما شمـل رسـل الرُّسـل، كقولـه تعـالى: ﴿وَلَّـوا اِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (سـورة الأحقـاف: ٢٩)، وهـذا كمـا سَمَّـى ا لله عـزَّ وجـلَّ رُسـل عيسى: رسـل ا لله، قـال: ﴿إِذَ اَرْسَلْـنَآ إِلَيْهِـمُ اثْـنَيْنِ﴾ (سـورة يس: ١٤). وقـام الإجماع على أنَّ رسول ا لله ﷺ مرسل إلى الجنِّ والإنس، **قلنا** هـو مرسـل إلى الإنبياء قبله وأممهم، وإلى الجنِّ أيضًا قبله، فقد وُبِّخُوا بكفرٍ مع إتيانـه ﷺ إليهـم بالآيات، كما عمَّه قوله:

﴿**يَقُصُّونَ عَلَيْكُمُ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُـمْ لِقَـآءَ يَوْمِكُـمْ هَـذَا**﴾ يـوم القيامـة، وعن ابن عـبَّاس رضي ا لله عنهما: إنَّ الجن قتلوا نبيئًا لهم قبل آدم اسمه يوسـف، وأنَّ ا لله تعالى بعث إليهم رسولاً وأمرهم بطاعته، ولكن لم يثبت ذلـك إلى ابن عـبَّاس بسند. ولا شـكَّ أن الأنبيـاء أرسـلهم ا لله عـزَّ وجـلَّ إلى الجـنِّ، لأنـَّه لا

يهمل الجنَّ كما لايهمل الإنس، لكن إمَّا بلا واسطة وهو وجه ضعيف حَتَّى قيل: وقع الإجماع أنَّه لم يرسل إليهم منهم؛ أو بواسطة الآخذين عنهم من بني آدم، ﴿قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا اُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ (سورة الأحقاف: ٣٠)، فيقال: إنَّهم يهود من الجنِّ لم يعرفوا أمر عيسى عليهما السلام. وعن الكلبيِّ الثاني أنَّه كانت الأنبياء رسلاً إلى الإنس حتَّى بعث ﷺ إلى الإنس والجنِّ. وَمَعنَى ﴿يَقُصُّ﴾: يُحدِّث بالكلام على وجه مبيَّنًا كمن يتتبَّع أثر قدم. كأنَّه قيل: فماذا قالوا عند ذلك التوبيخ؟ فقال:

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ اعترفنا بأنَّ الرُّسل قد بلَّغتنا بلا واسطة وبها، فإنَّه إذا كان الرُّسل يَتَكَلَّمُون بالوحي يسمع الحاضر من الجنِّ ولا عذر لنا في كفرنا ومخالفتنا. ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فمالوا إلى لذَّات الكفر والكسل، ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾ في الدنيا. ذمَّهم الله على سوء صنعهم بالإصرار واعترافهم في وقت لا يدفع عنهم الاعترافُ ما استوجبوه من العقاب، وهذا الإخبار زجر لغيرهم عن مثل ذلك، وهذا الاعتراف بألسنتهم في موطن من مواطن القيامة حيث اشتدَّ إيَّاسهم؛ أو ختم على ألسنتهم وأقرَّت جوارحهم، وفي موطنٍ قبلَ هذا رأوا ما للمؤمنين من الخير فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣) ظنًّا أنَّ الإنكار ينفعهم. والشهادة الأولى في الآية إخبار باعترافهم والثانية تخطئة لرأيهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إرسال الرُّسل، مبتدأٌ أخبر عنه بالعلَّة في قوله: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ أي ثابت، لأنَّه لم يكن ربُّك مهلك القرى...إلخ؛ أو خبر لمحذوف، أي الأمر أنَّ ذلك الإرسال لأجل أنَّه لم

يكن ربُّك مهلك القرى.

(نحو) و«أَنْ» مخفَّفة، وهي مصدريَّة، ولا يعرف أنَّها خفيفة مصدريَّة مثل هذا، وإنَّما تكون هكذا إذا نصبت المضارع؛ أو دخلت على ماض مثبت مُتَصَرِّف بلا فصل، كقوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾(سورة القلم: ١٤)، ولعلَّ قائل هذا حمل المضارع مع «لَمْ» على الماضي المذكور، لأنَّهما معًا للماضي. و«بِظُلْمٍ» متعلِّق بـ«مُهْلِكَ»، أي: لم يهلك ربُّك أهل القرى لأجل ظلمهم؛ أو بسببه من شرك ومعاص وهم غافلون خالون عن العلم بالوحي لعدم نزوله، وعدم إنذارهم به، ولا ضعف في ذلك؛ أو حال من «الْقُرَىٰ»، لأنَّ المقصود أهلها على حذف مضاف كما رأيت؛ أو تسمية للحالِّ باسم المحلِّ؛ أو وُضِع لفظ «قرية» أيضًا لأهلها، أي ثابتين بظلمٍ، أي إشراك ومعاص؛ أو حالٌ من «رَبُّكَ»؛ أو من ضمير «مُهْلِكَ»، أي: لا يهلكهم ظالمًا لهم جائرًا لأجل ذنوبهم حال كونهم غافلين، أي بلا إرسال رسل.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكِ القُرَىٰ﴾ بدلاً من «ذَلِكَ»، على أنَّ «ذَلِكَ» خبرٌ لمحذوف بدلَ اشتمال، على أنَّ الإشارة إلى إرسال الرُّسل، والرابط معنويٌّ، لأنَّ الظلم يُتصوَّر بانتفاء الإرسال؛ أو بدلٌ مطابق على أنَّ الإشارة لمضمون ما بعدها، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَالِكَ الاَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (سورة الحِجر: ٦٦).

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ لِكُلٍّ من المكلَّفين مراتب في الأعمال من خير أو شرٍّ، وفي جزاء الأعمال كذلك. و«مِنْ» للابتداء، أي تحصَّلت من

أعمالهم، أو مِمَّا عملوه؛ أو بيانيَّةٌ، أي مراتبُ هي أعمالهم؛ أو تعليلية، ولا مانع من قولك حصلت لهم مراتب في الأعمال هكذا من خصوص أعمالهم. و«مِمَّا» نعت «دَرَجَاتٌ»؛ أو يتعلّق بـ«لِكُلٍّ» أو باستقراره. والدرجات بمعنى: مراتب ومقادر، يستعمل في الخير والشرِّ، ولا مانع من أنَّ المُراد في الآية الشرُّ وأهله، كما يقال دركات، وهو المتبادر من الآية، لأنَّ المذكورين قبلُ وبعدُ أهلُ الشرِّ، ألا ترى إلى التهديد في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فضلاً عن أن يفوته ثواب المطيع وعقاب العاصي ومقدارهما.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

التهديد بالاستئصال والإنذار بعذاب القيامة

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ مبتدأ وخبر، و«ذُو» خبر ثان و«إِنْ يَشَأْ» خبر ثالث، أو مستأنف؛ أو «الْغَنِيُّ» نعت و«ذُو» خبر؛ أو نعت ثان و«إِنْ يَشَأْ» خبر. وَمَعنَى الغني: أنَّه لا يحتاج إلى عبادة خلقه ولا ينتفع بها، ولا تَضُرُّه المعصية، **والله كامل لا يستكمل.** ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ذو الإنعام على خلقه بإرسال الرُّسل، وإمهال العاصي، وبالتكليف، فيثيبُ المطيع، وذلك تكميل لهم، فقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ متعلّق بما قبله من الإرسال والدرجات، وتنبيه على

أنَّ التكليف ليس نفعًا لله بل للمكلَّف، وتمهيد لقوله:

﴿إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ لأنَّ الغنيَّ الكامل لا يبالي من إهلاك شيء أو إبقائه وإمهاله، وكذا ذو الرحمة لا يبالي بالإبقاء لغناه عن الإتلاف. والخطاب لأهل مكَّة، أو للعصاة مطلقًا والمقام لذلك، لا كما قيل: لمطلق الناس، ووجهه أنَّ المُراد بيان أنَّ الله غير محتاج لخلقه مطلقًا. وإذهابُهم: إهلاكُهم بمرَّة؛ أو جملة بمرَّة، وجملة بمرَّة فقط؛ أو هكذا؛ أو واحدًا واحدًا؛ أو اثنين اثنين أو نحو ذلك؛ أو بتخالف على الاتِّصَال في ذلك كُلِّه مِمَّا يخالف الموت المعتاد في الناس.

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَّشَآءُ﴾ أي ينشئ من بعد إذهابكم ما أراد من أنواع الخلق، عقلاء أو غير عقلاء، يدلُّ للنوعين لفظ «مَا»، فإنَّ النوع غير عاقل، ولو كانت أفراده عقلاء، أطاعوا أو لم يطيعوا مثلكم؛ وَقِيلَ: المُراد يستخلف من يطيع، ويدلُّ لكونِ الاستخلافِ الإنشاءَ والجعلَ في مكانِ مَنْ أُذهِب قولُه تعالى: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ـ اخَرِينَ﴾ هكذا قرنا بعد قرن، ولكن لم يذهبكم رحمة لكم. ولا دَلِيل لـما قيل القوم الآخرون: خصوص أهل سفينة نوح وهم مطيعون، وتناسلوا ذرِّيَّة بعد أخرى، بل مطلق الذرِّيَّات؛ أو القوم الآخرون: أجدادهم هكذا على الإطلاق قُربًا وبُعدًا.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ إنَّ الذي توعدونه من البعث والحساب والعذاب، وهو مِنْ «وَعَدَ» فإنَّه يستعمل في الشرِّ كما في الخير؛ أو مِنْ «أَوْعَدَ» بالهمزة ولا يستعمل إلاَّ في الشرِّ. ﴿ءَلَاتٍ﴾ أي منتقل إليكم بمضيِّ زمان بعد زمان حتَّى يحضركم؛ أو المُراد بإتيانه: حضوره، كأنَّه حاضر لتحقُّق وقوعه، وذلك تهديد. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي انتفى على الدوام أن تصيِّروا الله عاجزًا عن

بعثكم وحسابكم وعقابكم، فيفوته ذلك ولا يقدر عليه. والجملة الاسميَّة لدوام الثبوت في الإيجاب، ولدوام السلب في السلب كما هنا.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿يَا قَوْمِ اِعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُم﴾ هدِّدهم على أن يعملوا كلَّ ما شاءوا من المعاصي والعناد والمناقضة لِمَا أنا عليه قَدْرَ ما أمكنكم وقويتم عليه بلا نقص شيء منه.

(لغة) فـ«مَكَانة» مصدر مكن من الأمر، أي قدر عليه وأطاقه وتمكَّن منه، والميم أصل والألف زائدة؛ أو على أيِّ حال كنتم من معصية وعناد فهو من الكون، فالميم زائدة والألف بدل من الأصل، مجاز من موضع الكون إلى عموم الأحوال؛ أو من قولك: اثبُتْ على مكانتك يا فلان، أي لا تنحرف عمَّا أنت عليه، أي اثبتوا على مخالفتكم. وعلى كلِّ وجه هو كقوله تعالى: ﴿اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ (سورة فصِّلت: ٤٠)؛ وَقِيلَ: بمعنى المكان والمقام، كما فسَّره ابن عبَّاس بالناحية، وهو راجع إلى ما مَرَّ. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي في الثبات على الإسلام والزيادة منه، والدعاء إليه لا أترك حالتي ومقامي. أَمَرَ ا لله سبحانه رسوله ﷺ أن يخاطبهم خطاب مَن أجمع على عذابهم أعني عزم عليه، وخطاب مَن أيس منه أن يصدر منه خيرٌ، حتَّى كأنَّهم أُمروا بكفر لا يقدرون أن يتخلَّصوا عنه. شبَّه كفرَهم بالإيمان الواجب الذي لاَ بُدَّ منه، فلاَ بُدَّ من أن يكفروا لقضاء الشقاء عليهم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عطف على «إِنِّي عَامِلٌ» عطفَ فعليَّة على اسميَّة، والفاء سببيَّةٌ، فإنَّ كونه ﷺ عاملاً على مكانته سببٌ لأَن يطَّلعوا بعدُ على أنَّ له عاقبة الدار. ﴿مَن تَكُونُ لَهُ, عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي عاقبة الدُّنيا، فالدار الدُّنيا

وعاقبتها الجنَّة، لأنَّها تكون بعد الدُّنيا، وهي نتيجة الدُّنيا، لأنَّ الدنيا خلقت لتُكسَب منها الجنَّةُ ومطيَّةٌ إليها، ومجازٌ إليها، ومن لقي العذاب في الآخرة فلانحرافه عمَّا خُلقت له الدُّنيا من الطَّاعة الموصولة إلى الجنَّة، فالنار ولو كانت عاقبةً أيضًا لِلكُفَّارِ لَكِنَّهَا بالعرَض لا بالذَّات، فالعاقبة الأَصلِيَّة الجنَّة، فهي المرادة في القرآن، حتَّى يُبَيِّنَ غيرها كما بيَّن في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ (سورة الحشر: ١٧).

ويجوز أن تكون الدار هي الآخرة، وعاقبتُها: الجنَّةُ، لأنَّ الجنَّة دائمة فيها بعد البعث والمحشر. و«مَنْ» موصول أو نكرة موصوفة مفعول لـ«تَعْلَمُ» بمعنى تعرف، فله مفعول واحد؛ أو استفهاميَّة مبتدأ والجملة بعدها خبر، والمجموع سدَّ مسدَّ مفعول «تَعْلَمُ» بمعنى تعرف، معلَّقًا عن العمل؛ أو مسدَّ مفعولي «تَعَلَمُ» المتعدِّي معلَّقًا عنهما. وعلى كلِّ حال «مَنْ» بمعنى الإنسان أو الفريق. وفي الآية إنذار بإنصاف القول، إذ لم يُثبت له العاقبة مع أنَّها له كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوِ إِيَّاكُمْ...﴾ (سورة سبأ: ٢٤)، وإنَّما يكون ذلك حيث يكون المنذر واثقًا بأنَّه على الحقِّ، وكأنَّه قيل ما عاقبتهم؟ فقال:

﴿**إِنَّهُۥ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ مقتضى الظاهر: إنَّه لا يفلح الكافرون، لأنَّه يخاطب الكفَّار، لكن وضع الظالمين لأنَّ الظلم يعمُّ الإشراك وسائر الكبائر، فهم معاقبون على أصول الشريعة وفروعها حتَّى الصغائر؛ لأنَّهم أصرُّوا فلا تغفر لهم، فَهم ظلموا أنفسَهم وغيرَهم ودينَ الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

حكم الله في عادات الجاهلية

﴿وَجَعَلُواْ﴾ أي مشركو مكّة أو مشركو العرب مطلقًا، ولم يجر للفريقين ذكرٌ بخصوصهما، ولكن قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ أنسبُ بأهل مكّة، أو بقريش، أو العرب. ﴿لله مِمَّا ذَرأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأنْعَامِ نَصِيبًا﴾ وللأصنام نصيبا، بدليل قوله: ﴿فَقَالُواْ هَـذَا لله بِزَعْمِهِم وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ وَمَعنَى ﴿ذَرَأَ﴾: خلق، وأصله الظهور فيما قيل؛ وَالمُرَاد من ثمار الحرث؛ وكذا يجعلون نصيبًا لله ونصيبًا للأصنام من ثمار النخل والشجر، ولم يذكره لاستتباع الحرث له، ومن سائر أصول الشجر ولم يذكره لاستتباع الأنعام له. وقال: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ تشنيعًا

عليهم بجعل ما هو مخلوق لله متوسَّلاً به إلى عبادة غيره.

(نحو) و«الـ» في الحرث للحقيقة، أو للعهد الذهنيِّ. زعم بعض أنَّ «مِنْ» التبعيضيَّةَ اسمٌ مضاف لمدخولها، وعليه فهي مفعول أوَّل، ونصيبًا ثان، أو حال منها، أو بدل. و« لله» متعلّق بمحذوف مفعول ثان، كما إذا جعلنا «مِنْ» حرفًا فإنَّها تعلّق بمحذوف حال من «نَصِيبًا»، ويجوز أن تكون للابتداء. وإذا قلت «جَعَلُوا» بمعنى أثبتوا تعلّق به « لله»، وكان له مفعول واحد هو «نَصِيبًا» أو «مِنْ»، وإذا جُعل «مِنْ» [مفعولاً] فـ«نَصِيبًا» بدلُه أو حالُه. وَمَعنَى ﴿هَذَا لله﴾: أنَّه للمساكين والأضياف. وَمَعنَى ﴿بزَعْمِهِمْ﴾: أنَّ ذلك بحكمهم الذي اخترعوه باطلاً لا حَقًّا ثابتًا من الله، لأنَّه منكر إذ قابلوا به نصيب الأصنام، ولا يرجع إليهم ثواب منه، والله سبحانه وتعالى أغنى الشركاء عن الشركة، وإنَّما يكون حقًّا لو لم يجعلوا لها نصيبًا ولم يعبدوها، ولم يقل: وهذا لشركائنا بزعمهم، لأنَّه معلوم من باب أولى أنَّه بزعمهم، وكذا قدَّره بعضهم. [قلت] والأولى عدم تقديره لأنَّه عُلِمَ بلا سبك له في الكلام لفظًا أو تقديرًا. والباء متعلّق بـ«قَالُوا».

وَمَعنَى ﴿شُرَكَآئِنَا﴾: أصنامنا التي جعلناها شريكة لله في الأُلُوهِيَّة، وأضافوها لأنفسهم لاعتقادهم الأُلُوهِيَّة لها، فَهَو من الشرك ضدَّ الوحدانيَّة؛ أو معناه: الأصنام التي شاركتنا في أموالنا، فهي من الإضافة للفاعل؛ أو التي جعلناها شريكة فيها، فهو من الإضافة للمفعول.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ﴾ يصرفون ما لله إلى أصنامهم، ولا يصرفون إليه ما لها. لم يقل: ما

كان لها لا يصل إليه وما كان له فهو يصل إليها، تشنيعًا عليهم ثانيًا بذكر الشركة لِمَا هو أبعد شيء عنها مع **مَنْ كلٌّ شيء له ولا شريك له.**

كانوا يعيِّنون شيئًا من حرثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم لله عزَّ وجلَّ، وشيئًا منها لأصنامهم، ويدفعون ما لأصنامهم على خَدَمِها ويذبحون عندها، وإن رأوا ما لله أزكى بدَّلوه بما لأصنامهم أو بعضه أو أخذوا منه لها، وذلك كلُّه وصول لآلهتهم، وكذا إذا أقحطوا أو تلف ما لها أخذوا ما له تعالى أو بعضه، وجعلوه لها وأكلوا منه، ويوفِّرون ما لها ولا ينقصونه، ويقولون الله غنيٌّ عن هذا المال، وإذا سقط في نصيب الله من نصيبها شيء التقطوه لها، وإذا سقط في نصيبها شيء من نصيب الله سبحانه تركوه، وقالوا الله غنيٌّ عنه وهي محتاجة ﴿**سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ بئس أي هو، وهو مفسَّر بتمييز وهو «مَا» نكرةٌ موصوفة، و«يَحْكُمُونَ» صفةٌ.

(نحو) أو ساء حكمهم الذي يحكمونه، «مَا» فاعل اسم موصول؛ أو حرف مصدر أي ساء حكمهم، والمخصوص محذوف أي هذا؛ أو من باب ساء التي لا مخصوص لها ويُؤَيِّده أنَّ التي لها مخصوص يكون فاعلها معرَّفًا بـ«الـ» الجنسيَّة، أو مضافًا إلى ما هي فيه.

عاب الله عزَّ وجلَّ قولهم بلفظ الزعم وذمَّ حكمهم، فإنَّ الزعم كذب أو قول بلا دَلِيل هنا، وقولهم: «هَذَا للهِ» كذبٌ، وقولٌ لا حجَّة له؛ وكيف أشركوا بالله جمادًا لا يقدر على شيء فيما هو خلق لله عزَّ وجلَّ؟ ورجحوه عليه فيه، وقد مَرَّ تفسير هذا الزعم، وفسَّره بعض بأنَّه جعل لله غير مستتبع لشيء من الثواب، كما تستتبع التطوُّعات التي يُبتغى بها وجه الله، وأمَّا بمجرَّد

أنَّه عندهم لله بلا أمر من الله به فمستفاد من الجعل، ولذلك لم يقيِّد الثاني به، أعني بالزعم، **وما ذكرته أوَّلاً أوْلى**، ولا سيما أنَّ ما يجعلون لله يصرفونه للمساكين والضيف، ولا يَتَّضِحُ ما قيل عنهم أَنَّهُ مجعول لله استحقاقًا له من جهتهم بلا تقرُّب منهم إليه.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ زيَّن لهم شركاؤهم من الجنِّ أو من خَدَمَة الأصنام قتل أولادهم، والمـُراد بناتهم بدفنهنَّ أحياء لعدم جمالهنَّ؛ أو لخوف الفقر؛ أو لخوف مسبَّة تلحقهم منهنَّ؛ أو من السبي؛ أو من الزنا. وسمِّي الجنُّ شركاء لأنَّهم أطاعوهم في الأمر بقتل البنات كما يطاع الله؛ أو لأنَّهم عبدوا الأصنام كما عبدوها كذا قيل، وإنَّما عُرف هذا في خَدَمَة الأصنام؛ وَقِيلَ: الأولى أنَّهم سمُّوا شركاء لاستمتاع البعض بالبعض؛ وَقِيلَ: سمَّى خَدَمَة الأصنام شركاء لأنَّهم أطاعوهم في قتل الأولاد.

وكان الرجل فيما قيل يحلف بالله لئن ولد له كذا وكذا لينحرنَّ أحدهم فإن صحَّ هذا فَالمـُرَادُ بالأولاد في الآية ما يشمل الذكور والإناث، ولا نعرف هذا إلاَّ لعبد المطلب بأمر كاهنة؛ وَقِيلَ: السبب في قتل البنات أنَّ النعمان بن المنذر أغار على قوم فسبى نساءهم وفيهنَّ بنت قيس بن عاصم، ثمَّ اصطلحوا فأرادت كلُّ واحدة أهلها إلاَّ بنت ابن عاصم اختارت سابيها، فحلف قيس لا تولد له بنت إلاَّ وأدها، فصار ذلك عادة فيهم، وكان بعض يقول: الملائكة بنات الله سبحانه، فألحقوا البنات بالله تعالى، فهو أحقُّ بها. وزعم بعض أنَّ المـُراد قتل أولادهم للأصنام تقرُّبًا. ويجوز أنَّ الشركاء: الأصنام، وَمَعنَى تزيينِها القتلَ: أنَّها سبب فيه بعبادتها، فإنَّ المعصية تجرُّ إلى أخرى. ويدلُّ على

أنَّ الشركاء الجنّ لا الخَدَمَة قوله تعالى:

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ يهلكوهم بالإغواء، واللاَّمان للتعليل، هذه والتي في قوله: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ إلاَّ إنْ قلنا: الشركاء الخَدَمَة، والأصنام فللمآل، والمعنى: ليُدخِلوا عليهم الشبه في دينهم الذي يجب أن يكونوا عليه، وهو دين إسماعيل، وكانوا على بقيَّة قليلة منه، وذلك قبل النسخ؛ أو دين سيِّدنا محمَّد ﷺ فإنَّه لا غرض للأصنام البتَّة، والخَدَمَةُ ليس غرضهمُ الإرداء واللبس بخلاف الشياطين فإنَّ غرضهم هُمَا[1]، وإنَّما علّقت اللام الأولى والثانية بفعل واحد بلا عطف لاختلاف معناهما، فإنَّ قوله: ﴿لِكَثِيرٍ﴾ اللام فيه للتعدية، ولام «لِيُرْدُوهُمْ» للتعليل، أو للعاقبة.

﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما فعل المشركون القتل؛ أو ما فعل الشركاء التزيين؛ أو ما فعلوا الإرداء واللبس؛ أو الواو لِكُلٍّ من المشركين والشركاء، والهاء لِكُلٍّ من التزيين والإرداء واللبس، أي ما فعل الفريقان. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي المشركين، أو الشركاء، أو النوعين، أو الأوَّل لَكِنَّ المُراد كثير، لأنَّ الكلام عليه لقوله: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ﴾ عطف إنشاء على إخبار؛ أو يُقَدَّرُ: إذا عرفت ذلك أو إذا كان ما كان بمشيئته فذرهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي وما يفترونه، أو وافتراءهم.

﴿وَقَالُواْ هَذِهِ﴾ إشارة إلى ما جعلوا لآلهتهم من الأنعام والحرث ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ كانوا يعزلون قدرًا من الحرث حين الحرث لها ولا يؤخّرونه إلى أن تجنى ثماره أو [illegible] المُراد ثمار حرث، ويناسبه قوله: ﴿لاَّ

١- الضمير يعود إلى اللبس والإرداء.

﴿يَطْعَمُهَآ﴾ لا يأكلها ﴿إِلاَّ مَن نَّشَآءُ﴾ فإنَّ الحرث بالَمعنَى المصدريِّ لا يؤكل فتبيَّن أنَّ المُراد بالحرث ثمار تنشأ عنه؛ أو المُراد بالحرث الحَبُّ مثلاً المحروث، فيُقَدَّرُ أيضًا: الثمار الناشئة عنه؛ أو من مجاز الأوْل فإنَّه يصير بعدُ ثمارًا، أي لا يطعم ثمارًا تتولَّد منه؛ أو الحرث: نفس الثمار المتولِّدة، و﴿حِجْرٌ﴾: محجور، أي ممنوعة، نعتٌ لـ«أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ»، لأنَّه مصدر أطلق بمعنى الوصف فصلح للقليل والكثير، وللذكر والأنثى. و﴿مَن نَّشَآءُ﴾: هُم خدمة الأوثان وسائر الرجال. ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ متعلِّق بحال من واو «قَالُوا» أي ملتبسين بزعمهم؛ أو متعلِّق بـ«قَالُوا»، أي قالوا في زعمهم لا بـ«نَشَآءُ»، ولا حال من ضميره، لأنَّه ليس في كلامهم لفظ «بِزَعْمِهِمْ»، بل هو من الله عزَّ وجلَّ، كما أنَّه لا يجوز تعليق «بِزَعْمِهِمْ» المذكور قبل هذا بالله، ولا بمتعلقه لأنَّه ليس من كلامهم.

﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَت ظُهُورُهَا﴾ أي وهذه أنعام أُخر وجملة «حُرِّمَتْ...» نعت «أَنْعَامٌ»، وجملة «هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ»[1] معطوفة على «هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ». وهذه الأنعام الأخرى: البحائر والوصائل والسوائب، والحوامي: ناقةٌ تلد خمسة آخرها ذكر، وإن ولدت شاة أنثى فلهم أو ذكر ذبح للصنم، أو إيَّاهُما لم يذبح، يقول أحدهم: إن شفيت من مَرضي فناقتي سائبٌ، الحامي: ولد عشرة لا يركبونها لحجٍّ ولا لغيره ولا يحملون عليها.

﴿وَأَنْعَامٌ﴾ عطف على أنعام. وقوله: ﴿لاَ يَذْكُرُونَ اَسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ نعت «أَنْعَامٌ»، أي لايذكرون اسم الله عليها عند ذبحها بل أسماء أصنامهم؛ أو المعنى

١- لَعَلَّ الصواب: وجملة «وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ...» معطوفة عَلَى «هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ». تأمَّل.

لا يحجُّون عليها ولا يعتمرون ولا يفعلون عليها خيرًا، فإنَّ من شأن من دخل حجًّا أو عمرة أو دخل فعل الخير أو أراد دخول ذلك أن يذكر الله جلَّ وعلا، فذكر اللازم عن الملزوم بطريق النفي. وكان مضارعًا لقصد التَّجَدُّد والاستمرار في ترك التسمية، وكذا في الطعم بخلاف التحريم فإنَّه بمعزل عن ذلك، فكان بلفظ الماضي، ووجه كون الجملة نعتًا لـ«أَنْعَامٌ» مع أنَّها ليست من كلامهم، والكلام قبل ذلك مسوق في حكاية كلامهم أنَّه نعت كعطف التلقين لتمييز المنعوت، كما زاد الله من عنده تمييزًا لم يسقه من سياق كلامه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ (سورة النساء: ١٥٦) في أحد أوجه، وكأنَّه قيل وأنعام ذبحت على الأصنام؛ أو لا يحجُّ ولا يعتمر ولا يفعل خيرًا عليها، ويجوز أن تكون الجملة من كلامهم على الالتفات السكَّاكي، فإنَّ مقتضى الظاهر على هذا: لا نذكر اسم الله عليها، بل تخصَّص بالأصنام، وفي هذا الوجه لا ينصب قوله: ﴿افْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ بـ«يَذْكُرُونَ» بل بـ«قَالُوا»، لأنَّهم لا يقولون عن أنفسهم لا نذكر اسم الله افتراءً عليه.

(نحو) وإن قلنا «أَنْعَامٌ» مبتدأ للتنويع خبره «حُرِّمَتْ»، و«أَنْعَامٌ» مبتدأ للتنويع خبره «لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ» لم يكن من كلامهم، بل إخبار من الله عنهم بالنوعين انتصب بـ«يَذْكُرُونَ»، ويقدَّر مثله لـ«حُرِّمَتْ»، وهو حال، أي: قالوا هذه مفترين، أو ذوي افتراء، أو لا يذكرون الله مفترين، أو ذو افتراء؛ أو مفعول مطلق لـ«قَالُوا» كقمت وقوفًا؛ ولا يَتَّضِحُ المفعول لأجله لأنَّهم ليسوا يقولون؛ أو لا يذكرون ليكونوا مفترين، اللهمَّ إلاَّ على معنى لام العاقبة. و«عَلَيْهِ» متعلِّق بـ«افْتِرَآءً»، ويخرج بالتعلق به عن أن يكون مصدرًا مؤكِّدًا.

﴿سَيَجْزِيهِم﴾ بالنار الدائمة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ على كونهم يفترون أو على ما يفترونه أو بسببه أو بدله.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ﴾ البحائر والسوائب والوصائل. و«مَا» واقعة على الأجنّة ولذلك أنَّث الخبر وأفرد بتأويل الجماعة، كما أنَّ الأجنَّة مفرد بتأويل الجماعة، ولو كان جمع جنين، وهو قوله: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ وأُفرِد الخبر المعطوف وذُكِر باعتبار لفظ «مَا»، وهو قوله: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ أي نسائنا، بدليل مقابلة الذكور، فقد يستدلُّ به على جواز مراعاة اللفظ بعد مراعاة المعنى، والمعروف العكس.

(بلاغة) وارتكب ـ قيل ـ لِلُطفٍ معنويٍّ، وهو موافقة القول للفعل من حيث إنَّ المعهود من ذوي المروءة جبر قلوب الإناث لضعفهنَّ، كما جاء الحديث في الأطروفة أن يبدأ بالأنثى من الأولاد، ولِلُطف لفظيٍّ وهو شبه الطباق بين خالصة وذكورنا، وبين محرم وأزواجنا، وعلى المعروف فالجواب أنَّ المعنى ونوع مُحَرَّم على أزواجنا؛ أو خالصة فذُكّر مراعاة لِلَفظ «مَا» كما روعي لفظها في «مُحَرَّم». والتاء في «خَالِصَةٌ» للمبالغة أو للنقل، كرجل راوية؛ أو هو مصدر كعافية وعاقبة وقع موقع خالص، والمعنى: أنَّ أجنة البحائر والسوائب والوصائل خالص للرجال دون النساء إن ولدت حيَّة لقوله تعالى:

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ﴾ أي الذكور والنساء، لأنَّ المُراد بالأزواج الإناثُ ولو صبيَّة، فإنَّ الأنثى قرينة للذكر فهي زوج له، وكلُّ واحد من المقترنين زوج ولو باعتبار المقابلة. وضمير «يَكُنْ» عائد لِـ«مَا» باعتبار اللفظ، أي إن كان ما

في البطن مَيتًا بأن سقط و مات أو سقط مَيِّتًا أو ماتت أمه أو قُتلت أو ذُبحت ووجد فيها مَيِّتًا أَكَلَه الذكور والإناث. والمُراد بالمَيْتَةِ: الذكر والأنثى. ﴿فِيهِ﴾ أي في ما في بطون الأنعام؛ أو في المَيْتَة، وذكّر تغليبًا للذكر الذي يَعُمُّه لفظ «مَا» ويَعُمُّ الأنثى. ﴿شُرَكَآءُ﴾ يأكلون منه جميعًا.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُم﴾ أي جزاء وصفهم ذلك بالتحليل والتحريم كذبًا على الله، وتصف ألسنتهم الكذب في الحرث والأنعام والأجنَّة ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل للجزاء جمليٌّ، أي يجزيهم بالنار على وصفهم المذكور لأنَّه حكيم في صنعه، عليم بخلقه، لا يخفى عنه شيء، ومن الحكمة ألاَّ يهملهم.

﴿قَدْ خَسِرَ الذِينَ قَتَلُوٓاْ﴾ بالدفن ﴿أَوْلَادَهُم﴾ من ربيعة ومُضر وبعض العرب وبعض النصارى، تفعله قديمًا، والمُراد بالأولاد: الإناث، وتقدَّم كلام في ذلك، يقتلوهنَّ خوف السبي والفاقة وغير ذلك، والمذكور في القرآن خشيةُ الإملاق. وخسرانُهم في الدُّنيا بنقص الذُّرِّيَّة وعددهم، فإنَّ في البنات الذرِّيَّة بالتناسل وهنَّ نفسهنَّ ذرِّيَّة نافعة، وفيهنَّ رقَّة على الأبوين لا توجد في الذكور، وخسرانُهم في الآخرة تعوُّض النَّار عن الجنَّة.

﴿سَفَهًا﴾ لأجل السفه منهم وهو خفَّة العقل؛ أو سافهين؛ أو ذوي سفه؛ أو ضمِّن «قَتَلُوا» معنى: سفهوا؛ أو سفهوا سفهًا، وذلك أنَّهم لم يتيقَّنوا أنَّ الله هو الرزَّاق لهم ولأولادهم. وعن ابن عبَّاس: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الذِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿...وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نعتُ «سَفَهًا»؛ أو حال؛ أو متعلّق

بـ«قتلوا».

كان رجل لا يزال مغتمًّا في مجلس رسول الله ﷺ فقال له: **ما لك؟** فقال: أذنبتُ يا رسول الله ذنبًا أخاف أن لا يغفر لي، وأنا أسلمت، فقال رسول الله ﷺ: **ما هو؟** قال: ولدت لي بنت فشفعت لي امرأتي أن أتركها فتركتها حتّى أدركت، فصارت من أجمل النساء، فخطبوها فدخلتني الحميّة أن أزوّجها أو أتركها بلا تزويج، فقلت لأمّها: أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا لأقربائي فابعثيها معي، فسرَّت بذلك وزيّنتها بالثياب والحليّ، وأخذت عليَّ المواثيق أن لا أخونها، فذهبت بها إلى رأس بئر ففطنت فالزمتني وجعلت تقول: يا أبي لا تضيّع أُمّي، فجعلت أنظر تارة إلى البئر ومرّة أنظر إليها فأرحمها، فغلبني الشيطان فأخذتها فألقيتها في البئر منكوسة وهي تنادي في البئر يا أبي قتلتني، فمكثت هناك حتّى انقطع صوتها فرجعتُ، فبكى رسول الله ﷺ فقال: **لو أمرت أن أعاقب أحدًا بما فعل في الجاهليّة لعاقبتك**».

﴿**وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ**﴾ من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي والحرث. ﴿**افْتِرَآءً عَلَى اللّهِ**﴾ مثل «سَفَهًا» في إعرابه. ﴿**قَد ضَلُّواْ**﴾ عن الحقّ ﴿**وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ**﴾ إليه، وصفهم الله عزّ وجلّ بسبْعٍ: الخسران، والسفه، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء على الله سبحانه، والضلال، وعدم الاهتداء.

ولـمَّا ذمَّ أحوال الأشقياء بالإشراك رجع إلى تقرير التوحيد بقوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾

الأدلَّة الواضحة على قدرة الله تعالى وإنكار ما افتراه المشركون على الله

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ أنبت ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين من شجر العنب ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي ملقاة الأشجار على العرائش، أي الأشياء المرتفعة كالسقف، فإنَّهم يسقفون لها فتلقى على السقف، سقف عيدان أو خشب أو غير ذلك ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ بل ملقاة على الأرض أو ما خرج منها على الجبال وفي الأودية بلا غارس، فلا يكون له عريش لأنَّه لا يُعتنى به كما يُعتنى بما غرس.

أو المُراد: بساتين من شجر العنب المبسوط على الأرض كالعرش أي السقف، كأنَّه مسقف على الأرض وغير المبسوط بل علّق إلى شيء كنخل وجدار وركيزة. أو المُراد: بساتين مِمَّا يسقف له ويفرش على السقف، وممَّا لا يسقف له مِمَّا يقوم على ساق كشجر التين، وشجر العنب الذي لا يترك يميل بأن يقطع ما يميل منه، أو بغير القطع. وعن ابن عبَّاس: إدخال القرع والبطيخ ونحوه مِمَّا يبسط على الأرض في المعروش، وذلك بالتبع.

(لغة) وأمَّا حائط نحو بطيخ وقرع ولا نخل ولا شجر فيه فلا يسمَّى بستانًا.

﴿وَالنَّخْلَ﴾ أي وأنشأ النخل، أي أظهره ورفعه بالخلق ﴿وَالزَّرْعَ﴾ ما يحرث كالحبوب السِّتِّ، والفول والعدس ﴿مُخْتَلِفًا اُكْلُهُ﴾ بضمِّ الهمزة ضمًّا منقولاً إلى التنوين، أي ثمره المأكول، واختلافُه: بالهيئة، وبالطعم والهضم، والحرارة، والبرودة، واليبوسة ونحو ذلك. وعلى دخول النخل والزرع في الجنَّات فَذِكْرُهما على حدة تنبيهٌ على مزيَّة، وَلِكُلِّ شيء مزيَّة إذا أراد الله ذِكرها ذَكرها، ولا تنافي ما لم يذكرها فيه؛ ولهما أيضًا مزيَّة على ما ينبت في الجنَّات، وعلى عدم الدخول فكذلك، إذ لولا المزيَّة لقيل: جنَّات من معْروشات وغير معروشات، ونخلٍ وزرعٍ بالجرِّ.

و«مُخْتَلِفًا» حال مُقَدَّرَة، وصاحبها الزرع، يُقَدَّرُ مثله لِمَا قبله هكذا: «مختلفًا أكلها»، أي: أكل الجنَّات والنخل؛ أو يُرَدُّ ضمير «أُكْلُهُ» إلى ذلك كُلّه، أي: أُكْلُ ما ذُكر. وإنَّما قلتُ: مُقَدَّرَة، لأنَّ النخل والزرع والشجر ليس لها ثمار من حين الإنبات بل بعدُ.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ حال من «الرُّمَّانَ»، ويقدَّر مثله للزيتون؛ أو يعكس؛ أو حال منهما بتأويل ما ذُكِر، زيتون يشبه زيتونًا أو يخالفه رقَّة وغلظًا وطعمًا وطبعًا، وكذا الرمان، وبحلاوة وحموضة. أو المُراد: متشابه الورق وغير متشابه الطعم في كلِّ نوع منهما على حدة وفيما بينهما، فإنَّ ورق الزيتون كورق الرمَّان، وعلى هذا يكون المُراد شجر الزيتون والرمَّان، ومَرَّ ذِكرُ الخمسة على غير هذا الترتيب بطريق الاستدلال على الله جلَّ وعلا بالنظر فيها وفي أحوالها، إذ قال: ﴿انظُرُواْ إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ (سورة الأنعام: ٩٩). وخالف المادَّة في لفظ الشبه تفننًا. وذكرهنَّ هنا للاستدلال على أن الله هو المستحقُّ للعبادة والوحدانيَّة، وزاد الإذن في أكلها وإخراج الحقِّ منها، وَقَدَّمَ ما في الاستدلال وحده لعظمة الله جلَّ وعلا، وَقَدَّمَ الإذن في الأكل إيناسًا وتوسعة على إخراج الحقِّ إذ قال:

﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُ, يَوْمَ حِصَادِهِ﴾ ومحلُّ كلٍّ منهما بعد التوحيد والاستدلال عليه، والآية أباحت الأكل من الثمار قبل الإدراك وبعده، ونهت عن تحريم الأكل إلى الحصاد كقولهم: ﴿هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ (سورة الأنعام: ١٣٨)، وإذا قُطعت تلك الثمار أعطي منها الفقراء الذين حضروا ما تيسَّر، وما أخطأه المنجل وما وقع في النبات أو في الجذوع والأوراق حين القطع وحين الدرس، ولا يختصُّ ذلك بحبوب الزكاة ولا بنصاب مخصوص، وذلك قبل فرض الزكاة إذ فرضت في المدينة والسورة مَكِّيَّة، ولـمَّا فرضت كانت ناسخة؛ وَقِيلَ: ذلك على الندب فهو باق مع فرض الزكاة،

وحديث الأعرابيِّ: هل عليَّ غير ذلك؟ قال: «**لا، إلاَّ إن تطوع**»[١]، يحتمل أنَّه بعد النسخ.

وكانوا ــ قيل ــ يلقون العذق فيأكل منه من مَرَّ، ويعلّقون العذق في جانب المسجد فيضربه المسكين بعصاه فيأكل ما سقط. وعن ابن عبَّاس: كان يتصدَّق يوم الحصاد به بطريق الوجوب من غير تعيين مقدار، ثمَّ نُسخ بالزكاة. وعن الشعبيِّ أنَّ هذا حقٌّ في المال غير الزكاة، ويزكّى أيضًا بعدُ، ولا نسخ. قال مجاهد: اطرح لمن حضر من المساكين إذا حصدت واطرح لهم إذا درست وإذا صفَّيته فاعزِل زكاته. وَقِيلَ: المُراد الزكاة والسورة مَكّيَّة أيضًا، إلاَّ أنَّ تفصيل الزكاة في المدينة، ولا يؤاخذون عليها ما لم تفصَّل؛ وَقِيلَ: نزلت الآية في المدينة؛ وَقِيلَ: نزلت السورة مَرَّتَيْنِ. وعلى كلِّ حال فصِّلت الزكاة في المدينة.

(فقه) وعلى أنَّ المُراد بالآية الزكاة قيل: المُراد الثمارُ كُلُّهَا، وقال أصحابنا: الحبوب السِّتَّة. ويوم الحصاد: يوم حصدت تجب زكاتها إن تَمَّ النصاب في الحصد؛ وَقِيلَ: يحسب فيه ما أُكل أو أُتلف قبله وبعد الإدراك؛ وَقِيلَ: يحسب ويُتِمُّ العَدَّ بِهِ ولا يعطِي عنه؛ وَقِيلَ ﴿يَوْمَ حِصَادِهِ﴾: يومَ إدراكه، لأنَّه كلُّ ما أدرك أمكن قطعه. والحِصاد: بمعنى القطع، فشمل الثمار كلّها، أو الحبوب الستَّة. وخمسةُ أوسق شرطٌ من الحديث[٢]. وزعم أبو حنيفة أنَّ الزكاة

١- رواه **الربيع** في مسنده (٩) باب في الإيمان والإسلام والشرائع، ج١، ص ٢١، رقم ٥٥. ورواه **البخاري** في كِتَاب الإيمان (٣٣) باب الزكاة من الإسلام، رقم ٤٦. من حديث طلحة بن عبيد الله.

٢- يشير إِلَى الحديث الذي رواه **الربيع** في كِتَاب الزكاة والصدقة (٥٥) باب في النصاب، ج١،

في القليل والكثير لإطلاق الآية وفي كلِّ ثمرة، قَلَّت أو كثرت، وإذا لم يضيِّع القطع عن وقته أو الدرس عن وقته وتلفت لم تجب الزكاة، كما قال بعض قومنا: بعد حصاده وبعد التصفية، لأنَّه إنَّمَا يَتَوَصَّلُ إلى إخراج مقدار الزكاة بعدها.

﴿وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾ بإعطائه كلّه أو جلّه ويبقى عيالكم، أو تبقون محتاجين؛ أو بإعطائه أو قليل منه في المعصية، أو في غير نفع، ولا تكثروا الأكل منه وقضاء المصالح به قصدًا لتقليل ما للفقراء منه. عن ابن المسيّب: «لا تمنعوا الصدقة ومنعها إسراف». وفي الحديث: «**ابدأ بمن تعول**»[1]، ولا يقبل الله صدقة على الأجانب مع ترك الأقارب.

(فقه) ودخل في الإسراف: إشراك الأصنام في الحرث أو الأنعام أو مال مَّا. ودخل في الإسراف أخذ الولاة أكثر من الواجب وَالتَّصَرُّف فيه بما لا يجوز؛ وقد قيل: الخطاب لهم ولأصحاب الأموال. ودخل في الإسراف منع الزكاة أو بعضها وإعطاؤها غير أهلها، لأنَّ الإسراف مجاوزة الحدِّ، وعن مجاهد: «لو أنفق رجل أبا قبيس ذهبًا لم يكن مسرفًا، وإن أنفق درهمًا أو أقلَّ في معصية كان مسرفًا».

﴿إِنَّهُ, لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لا يرضى إسرافهم أو يبغضهم، وذلك كناية عن عقابهم، والآية ناسبت أنَّ ثابت بن قيس صرم خمسمائة نخلة فقسَّمها في

ص٨٥، رقم ٣٣٢. من حديث ابن عَبَّاس. ورواه **مسلم والنسائي** عن أبي سعيد الخدريِّ.

١- رواه **البخاري** في كِتَاب الزكاة (١٧) باب لا صدقة إلاَّ عن ظهر غنى، رقم ١٣٦٠. من حديث أبي هريرة.

يوم واحد، و لم يعط أهله منها حتَّى قيل نزلت الآية فيه، والمعنى أنَّها طابقته، أو عني بها قبل النزول، وإلاَّ فالسورة نزلت مرَّة لا شيئًا فشيئًا. روي أنَّه قال: «لا يأتيني اليوم أحد إلاَّ أطعمته» فأطعم حتَّى أمسى وليس له تمرة، فنزلت الآية، ولا مانع من نزول آية بعد نزول السورة كلِّها فتجعل الآية فيها. وما تقدَّم إبطال لما يجعلونه لأصنامهم من الحرث.

وذكر إبطال بدعتهم في البحيرة ونحوها من الأنعام والثمار بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَمِنَ الاَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا**﴾ عطف على جنَّات كأنَّه قيل وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشًا. الحمولة: ما يحمل عليه في الحال أو في المآل ككبار الإبل والبقر وصغارها. والفَرْش: الغنم لصغرها، كأنَّها فرشت على الأرض، ولأنَّه يفرش ما ينسج من صوفها ووبرها؛ أو الفرش: الغنم وصغار الإبل والبقر؛ أو الفرش: ما يفرش للذبح. والفرش: ما نسج من الصوف أو الوبر أو الشعر فيكون فراشًا. والفرش في ذلك كُلِّه تسمية بالمصدر. وَقِيلَ بدخول البغال والحمير في الأنعام، فالحمولة: الإبل والبقر والبغال والحمير، والفرش ما صغر منهنَّ أو ما ينسج من وبرهنَّ وشعرهنَّ؛ أو الغنم. ويعارض تفسير الأنعام بما يشمل البغال والحمير أو إيَّاهُما والبقر أنَّ المذكورَ في القرآن للحمل: الإبلُ.

ويعارضه أيضًا في جانب البغال والحمير قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الأنعام والثمار حلالاً طَيِّبًا، وما عند الإنسان من حرام وعلم أنَّه حرام فليس رزقًا له إلاَّ إن انتفع به فَهَو رزقه ولو كان حرامًا، إلاَّ أنَّه يعاقب عليه.

﴿**وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ, لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ فإنَّه متبادر في

الأزواج الثمانية من أمر الله بالأكل، وذكر الله البغال والحمير للركوب والزينة[١]، وحمل العرب إنّما هو على الإبل وإن كان على البغال والحمير فقليل، وأيضًا المشهور بتحريمهم الأزواج الثمانية من البحيرة ونحوها، وما يجعلون منها للأصنام، فيقول الله جلَّ وعلا: لا تحرِّموها، كلوها حلالاً طيِّبًا، ولا تتَّبعوا خطوات الشيطان في تحريمها.

ويعارضه أيضًا إبدال الأزواج الثمانية من «حَمُولَةً وَفَرْشًا»، في قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ...﴾، بدلاً مطابقًا من «حَمُولَةً وَفَرْشًا» إذ الإبدال أولى من جعل «ثَمَانِيَةَ» مفعولاً لـ«كُلُوا» المذكور، أو لـ«كُلُوا» محذوفًا، ولو كان قريبًا.

(نحو) وجمل الاعتراض قليل إذا جعل مفعولاً لـ«كُلُوا» المذكور، لأنَّ المعروف الكثير [قولك:] كل من كبش لا: كل كبشًا، ومن هذا كان جعل «ثَمَانِيَةَ» حالاً من ما أولى من جعله مفعولاً لـ«كُلُوا».

و﴿خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ مجاز لاستعارة عمَّا يأمر به أو ينهى عنه.

(لغة) وأصله الطرْق أو أثر القدم، أو ما بين القدمين، والزوج: ما اقترن به آخر من جنسه كالرجل والمرأة، وشِقّي الرحا، وكلُّ فرد من ذلك زوج كما في الآية وهما زوجان، وإطلاق الزوج على اثنين خطأ؛ وَقِيلَ: لغةٌ، ولو كان كذلك لكان في الآية ستّة عشر. وَمَعنَى ﴿مُبِينٌ﴾: ظاهرٌ، والمُراد: ظاهر العداوة، من "أَبَانَ" اللازم؛ ويجوز أن يكون من المتعدِّي، أي أظهرَ لكم عداوتَه ولو لم تنتبهوا.

١- في سورة النحل: ٨.

(أصول الدِّين) والرزق الحلال والحرام لقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً﴾ (سورة المائدة: ٨٨)، يقول: كلوا من الرزق ما هو حلال لا ما هو حرام منه. والمعتزلة يقولون الرزق لا يطلق إلاَّ على الحلال، فيجعلون «مِنْ» للبيان، زعموا أنَّ الله إذا رزق الحرام كان إعانة على المعصية، ويرد عليهم كلُّ ما خلقه الله من الحرام كالخنزير والميتة.

﴿مِنَ الضَّأْنِ اِثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعزِ اِثْنَيْنِ﴾ «اِثْنَيْنِ» الأوَّل بدل من «ثَمَانِيَةَ» بدل مطابق، باعتبار ما عُطف عليه، وهو «اِثْنَيْنِ» في ثلاثة مواضع بعده، ولو جعلنا «ثَمَانِيَةَ» بدلاً على القول بجواز الإبدال من البدل، والمانع يقول مفعول لـ«أَنشَأَ» محذوفًا، و«مِنَ الضَّأْنِ» حال منه ولو نكرة لتقدُّم الحال، و«مِنَ الْمَعْزِ» حال من «اِثْنَيْنِ» بعده كذلك، و«اِثْنَيْنِ» معطوف على «اِثْنَيْنِ» فهو في حكم الأوَّل. والاثنان: ذَكَرٌ وأنثى، كبش ونعجة من الضأن، وتيس للذكر من المعز والعنز للأنثى، وهذه أربعة أزواج مفسِّرة للفرش في إحدى تأويلاته، وقدَّمهنَّ هنا مع تأخير الفرش هنالك لأنَّهنَّ معظم أكل اللحم، والأكل معظم ما يتعلَّق به الحلُّ والحرمة، كما هو السرُّ في التعرُّض للأكل، إذ قال: ﴿كُلُوا﴾ ولم يتعرَّض للحمل والركوب وما حرَّموه في نحو السائبة. والضأن والمعزُ: اسما جمعٍ؛ أو جنس؛ أو جمع، وهما كراكب وركب، وتاجر وتجر، وراكبة وتاجرة، والمفرد: ضائن وضائنة، وماعز وماعزة.

﴿قُلَ ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ الله ﴿أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾ نقلت فتحة همزة الاستفهام لِلاَم «قُلْ»، وحذفت الهمزة، وقلبت همزة «الـ» ألفًا مُدَّت بها اللام مدًّا موسَّطًا قدر ألف ونصف؛ وَقِيلَ: مشبعًا

قدر ألفين؛ وَقِيلَ: ثلاث ألفات. والاستفهام إنكارٌ، والمعنى: أحرَّم الذكرين من الضأن والمعز لكونهما ذكرين؟ أم الأنثيين منهما لكونهما أنثيين؟ أم ما في الأرحام لاشتمال الأرحام ذكرًا أو أنثى؟ كأنَّه قيل: أحرَّم الذكرين من حيث الذكورة أم الأنثيين من حيث الأنوثة أم ما في الأرحام من حيث الأرحام؟ وإن كان ذلك فلِمَ حلَّلتم بعض الذكور وبعض الإناث وبعض الأجنَّة مع وجود الذكورة والأنوثة والكون في الأرحام؟ ولهذه الحيثية قَدَّمَ المفعول، ولكونه هو الذي نفاه الله فتلا الهمزة، وهذا أولى لدقَّته من أن يقال المعنى: إنكار أن يحرِّم الله من جنس الغنم وإظهار كذبهم.

ولـمَّا كانوا يحرِّمون الذكور تارة والإناث أخرى وما في الأرحام فصَّل ذلك هنا وفيما يأتي كما ذكروه مبالغة في الردِّ عليهم، وبالغ أيضًا بذكر الضأن والمعز والأرحام على حدة، وبذكر الإبل والبقر والأرحام على حدة، ولولا ذلك لقال على كلِّ الأزواج الثمانية ما نصُّه: الذكور حرَّم أم الإناث أم ما اشتملت عليه أرحام الإناث؟ أو قال: من الضأن اثنين ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، قل الذكور حرم أم الإناث أم ما اشتملت عليه أرحام الإناث؟.

﴿**نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ**﴾ من أين جاء التحريم ﴿**إِن كُنتُم صَادِقِينَ**﴾ في كون ذلك حرامًا، وفي أنَّ الله حرَّمه، ﴿**وَمِنَ الاِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلَ ـ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتِ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ**﴾ قد تقدَّم أنَّهم يحرِّمون الذكر من الإبل إذا كان من صلبه عشرة أبطن، وابنة الشاة لهم وابنها لآلهتهم، وإن ولدت ذكرًا وأنثى وصلته و لم يذبح، وابن البحيرة أو السائبة

يحرِّمونه على الإناث، وإن ولدت مَيِّتًا فبين الرجال والنساء، وروي أنَّه ﷺ ناظرهم بأنَّه: إن كان التحريم للذكورة فحرِّموا الذكور كلَّها، أو للأنوثة فحرِّموا الإناث، أو باشتمال الرحم فحرِّموا الذكور والإناث كُلَّها، وأيضًا: ما بال الخامس أو السابع أو بعض دون بعض فعجزوا. ويجوز أن يكون المعنى: إذا حكمتم بالحامي والسائبة في الإبل فلم لم تحكموا به في البقر والغنم، بأن لا يحمل على البقرة ولا تُردَّ عن مرعى ويختصَّ لبنها بالإصنام، وبأن لا تحلب الشاة إلاَّ للأصنام ولا تُردَّ عن مرعى.

(لغة) واعلم أنَّه كما اختلف أسماء الأنعام اختلفت أسماء أولادها، كما يقال لولد البقرة: عِجلٌ، ولولد الناقة حوارٌ، ولولد الشاة حملٌ، ولولد العنز جديٌ، ولولد الفرس مهرٌ، ولولد الحمار جحشٌ، ولولد الأسد شبلٌ، ولولد الفيل دغفلٌ، ولولد الكلب جروٌ، ولولد الظبي خشفٌ، ولولد الأروية غفرٌ، ولولد الضبع فرعلٌ، ولولد الدُّبِّ ديسمٌ، ولولد الخنزير خنوصٌ، ولولد الحيَّة حربشٌ، ولولد النعام رألٌ، ولولد الدجاجة فرُّوجٌ، ولولد الفأر درصٌ، ولولد الضبِّ حسلٌ، وهكذا يتتبَّع القاموس.

(لغة) وكذا اختلفت أصواتها، كالخوار لصوت البقرة، والثغاء لصوت الغنم، واليعار لصوت المعز، والرغاء لصوت البعير، والنبيب لصوت التيس، والنباح لصوت الكلب، والزئير لصوت الأسد، والعواء والوعوعة لصوت الذئب، والضباح لصوت الثعلب، والقباع لصوت الخنزير، والمواء لصوت الهرَّة، والنهيق والسحيل لصوت الحمار، والصهيل والضبح والقنع والحمحمة لصوت الفرس، والصني لصوت الفيل، والبتغم للظبي، والضيب

للأرنب، والعرار للظليم، والصرصر للبازي، والعقعقة للصقر، والصفير للنسر، والهديل للحمام، والسجع للقمريِّ، والسقسقة للعصفور، والنعيق والنعيب للغراب، والصقاء والزقاء للديك، والقوقاء والنقيقة للدجاجة، والفحيح للحية، والنقيق للضفدع، والصَّيْءُ للعقرب، والعارة والصرير للجراد، أعني لأصواتهنَّ، وهكذا تتبع كتب اللغة كالقاموس.

﴿أَمْ كُنتُمْ﴾ بل كنتم ﴿شُهَدَآءَ﴾ حاضرين ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا﴾ أي بهذا التحريم لو وصَّاكم، أو إذا وصَّاكم في زعمكم، وهذا أشدُّ نهيًا من قوله: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ إذ حاصله أنَّه لا سبيل إلى التحريم إلاَّ بتحريم من الله، والله لم يحرِّم ذلك.

﴿فَمَنَ اَظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ أي مِمَّن اتَّصف بالكذب على الله من أكابرهم الرؤساء المقرِّرين لما هو كذب، الداعين إليه ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ كعمرو بن لُحي بن قمئة، فإنَّه أوَّل من غيَّر دين إسماعيل عليه السَّلام بعبادة الأصنام، وتبحير البحيرة ونحوه، وعبادة الأصنام. قيل: جاء بهبل وهو صنم من الشام، وقال في تلبيته: لبيك اللهمَّ لا شريك لك إلاَّ شريك تملكه وما ملك. فَالمُرَادُ في الآية هو وسائر الأكابر المقرِّين لما أمر به عمرو بن لُحيٍّ فإنَّه أوَّل وهم يأمرون بما قال وما فعل، أو يراد: هو وحده وأمَّا مقلدوه فمثله في العقاب.

ويجوز أن يراد كلُّ من اتَّصف بالكذب رئيسًا أو مرؤوسًا، أو مهملاً،

فتكون اللام للعاقبة في حقِّ غير الرئيس، وللتعليل في حقِّه، فيكون جمعًا بين الحقيقة والمجاز، أو يكون من عموم المجاز.

وَمَعنَى ﴿بغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنَّهم غير عالمين بأنَّ الله حرَّم ذلك لأنَّ الله لم يحرِّمه، وقد علموا أنَّه لم يحرِّمه، فالآية صريحة في خروجهم عن حدود النهايات في ظلمهم، و«بِغَيْرِ» حال من ضمير «افْتَرَى» أو ضمير «يُضِلَّ» أو من «النَّاسَ»، أي: غير عالمين بأنَّ ما أمرهم به غير عِلم.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي﴾ هداية توفيق إلى الإسلام ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين قضى الله عليهم بالشقوة، وذلك على عمومه فدخل فيه أوَّلاً وبالذات هؤلاء الذين الكلام فيهم، وإن قلنا: إنَّهم المُراد، فمقتضى الظاهر: لا يهديهم، ووضَعَ الظاهر موضع المضمر ليصفهم بموجب الخذلان، وهو ظلمُهم العامُّ لهم ولغيرهم ولدين الله عزَّ وجلَّ؛ والمعتزلة يقولون: لا يهديهم إلى ثوابه.

ولـمَّا أبطل الله عزَّ وجلَّ تحريم ما حرَّموا قالوا: فما المحرَّم؟ فنزل قوله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا

لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

بيان ما حرّم الله من اللحوم على المسلمين وما حُرّم على اليهود

﴿قُل﴾ لهم يا محمَّد ﴿لَآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ في القرآن أو غيره، وهذا لعمومه أولى من أن يفسَّر بالقرآن فقط. وفي ذكر الوحي إشارة إلى أنَّ التحريم إنَّمَا يُعلم بالوحي لا بمحض العقل أو بالهوى. ﴿مُحَرَّمًا﴾ أي شيئًا مُحَرَّمًا ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥ﴾ على إنسان مريد الأكل صالح لأن يأكله، ذكر أو أنثى، ردٌّ على قولهم: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَاجِنَا﴾ (الآية: ١٣٩).

﴿إِلَّآ أَنْ يَّكُونَ﴾ الطعام المُحَرَّم ﴿مَيْتَةً﴾ الاستثناء منقطع، لأنَّ الكون ميتة ليس من الأشياء المحرَّمة، وإنَّما الذي منها هو الميتة لا كونها ميتة، وكذا سائر المعطوفات. واستثنى ﷺ جلد الميتة فهو حلال [الاستعمال] نجسٌ، يُطهَّر بالدبغ فيستعمل. والمُراد بالميتة: ما مات بنفسه أو سقوط أو نحو ذئب أو ضرب أو نطح أو قتل لغير الصنم، وأمَّا للصنم ففي قوله: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ .

﴿أَو دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ مصبوبًا، كانوا يفصدون الدم من حيوان حيٍّ ويأكلونه، ويأكلون دم الذبيحة، فحلَّ بعد التذكية الكبد والطحال لأنَّهما جامدان، وحلَّ دم القلب ودم العروق وباقي الدم لأنَّه غير مصبوب. والعطف على «مَيْتَةً»، لا على «أَنْ» وما بعدها.

﴿اَو لَحْـمَ خِنزِيرٍ﴾ أو مُخه أو عصبه وسائر أجزائه بدليل قوله: ﴿فَإِنَّـهُۥ﴾ أي الخنزير كُلُّه لحمه وغير لحمه حتّى شعره، وخصَّ اللحم بالذكر لأنّه أعظم ما يقصد منه، وغيرُه تَبَع له؛ أو يعتبر أنّه إذا حُرِّم لحمه مع أنّه محتاج إليه جدًّا فغيره أولى بالتحريم. وخبَثُ الخنزير ذاتيٌّ فهو حرام ولو كان لا يأكُلُ إلاّ ما هو طاهر. وَقِيلَ: الهاء عائدة إلى ما ذُكر من الميتة والدم ولحم الخنزير وهو ضعيف. ﴿رِجْسٌ﴾ حرام خبيث، وإن رددنا الهاء إلى لحم فغير اللحم مثله تبعًا له.

﴿اَو فِسْقًا﴾ عطف على «مَيْتَةً» أي حيوانًا مفسوقًا به؛ أو سمّاه فسقًا مبالغة؛ أوْ ذَا فسق من غيره أو منه؛ أو فاسقًا، سمّاه فاسقًا أو ذا فسق منه مجازًا اسناديًّا، وفسَّر الفسق بقوله: ﴿اُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِۦ﴾ الجملة نعت لـ«فِسْقًا، وإن جعلنا «فِسْقًا» مفعولاً لأجله عامله «أُهِلَّ» فجملة «أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِـهِۦ» عطفت على «يَكُونَ مَيْتَةً» بـ«أَوْ»، أي: إلاّ أن يكون ميتة أو أُهلَّ به لغير الله لأجل الفسق. وَمَعنَى ﴿اُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِۦ﴾: رفع الصوت به عند ذبحه أو نحوه باسم غير الله من الأصنام، أو غيرها فإنّه حرام، ولو ذُكر معه الله.

(نحو) والباء للسببيّة. وعلى كلِّ حال لا ضمير في «أُهِلَّ». ونائب فاعل «أُهِلَّ» هو «بِهِۦ»، والهاء عائد إلى «فِسْقًا»، إلاّ إذا جعلنا «فِسْقًا» مفعولاً لأجله فعائد إلى ما عاد إليه ضمير «يَكُونَ».

والحصر في هذه الأشياء إضافيٌّ منظور فيه إلى نحو البحيرة والحرث والأنعام المجعولة لأصنامهم، أي أجد مُحَرَّمًا: الميتةَ والدمَ المفسوح ولحم الخنزير وما أهلَّ لغير الله به، لا البحيرةَ والسائبة والوصيلة والحامي وما جعل من الحرث والأنعام للأصنام، فلا يَرِد أَنَّ لنا أشياء مُحَرَّمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردِّية والنطيحة

وما أكل السبع، بل دخلت هؤلاء في الميتة وما يكون بالأزلام والخمر والربا وسائر المُحَرَّمات وذي ناب وذي مخلب؛ أو يقال: تحريم غير ما ذُكر أتى بعد سورة الأنعام وأمَّا ما قبلها فعلى أصل الحقِّ؛ أو أفاد تحريم تلك الحيوان نجاستها المعلَّل بها تحريم الخنزير.

ولم يقبل ابن عبَّاس قولهم: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهليَّة يوم خيبر، وقرأ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ...﴾. وسئل ابن عمر عن القنفذ فقرأ هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ...﴾. وكانت عائشة إذا سئلت عن ذي ناب وذي مخلب قرأت الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ...﴾. ولعلَّ حديث: «**كلُّ ما استخبثته العرب فهو حرام**» قبل نزول آيات التحريم وبعد نزول ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٧)، وكان إذ ذاك طبعهم على حال واحد، وإلاَّ فطبائع العرب مختلفة في الاستخباث، وقد استخبث النبيء ﷺ الضبَّ حتَّى بصق وقال: «**يعافه طبعي**»، ولم يحرِّمه، وهو أصدق العرب طبعًا.

وإذا عقلتم ذلك ﴿**فَمَنُ اضْطُرَّ**﴾ افتعل من الضُّر قلبت التاء طاء لتجانس الضاد، أي فمن أوقع في ضرِّ الجوعُ الشديدُ فأكل بعض ذلك في شدَّة مجاعة، كما قال: ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ (سورة المائدة: ٣). ﴿**غَيْرَ بَاغٍ**﴾ خارج على المسلمين، أو مانع للحقِّ، أو على مضطرٍّ آخر مثله بأن ينزع ما بيد هذا المضطرِّ الآخر من الميتة أو الدم أو لحم الخنزير، أو مِمَّا أهل لغير الله به، فإنَّ ما بيده حقٌّ له كسائر المال الحلال فنزعه من يده بغي عليه.

فإن كان بيده أكثر مِمَّا يجوز له في التنجية فنزع منه مضطرٌّ الزائدَ ليتقوَّت به أو ببعضه فليس بباغٍ، وكذا كلُّ من لم يضطرَّ ونزع من المضطرِّ ما اضطرَّ

إليه من ذلك فهو باغ. ﴿وَلاَ عَادٍ﴾ متعدٍّ على المسلمين بقطع الطريق لمال أو نفس أو فحش أو تخويف، أو على السيِّد بإباقة، أو على الزوج بنشوز، أو بسفر في معصية، أو بأكل من الميتة، وما ذكر أكثر مِمَّا يسدُّ به رمقه أو استصحب معه.

(فقه) ورخَّص بعض أن يأكل أكثر مِمَّا يسدُّ رمقه وأن يستصحب بعد الأكل، والعمل على الأوَّل، فمن اضطرَّ ووجد دما مفسوحًا من حيوان حيٍّ، أو وجد دم ذبيحة فله الأكل منه قدر التنجية، ويفصد من دابـَّته إذا كان لو ذبحها انقطع عن الوصول؛ وإن وجد خنزيرًا قطع منه أو ذبحه، والصواب ذبحه أو قتله لوجوب قتله على المضطرِّ وغيره، ولئلاَّ يعذَّب بالقطع منه؛ وَقِيلَ: لَمَّا حلَّ له وجب ذبحه وحلَّ له بالذبح ككبشه، قيل: ولا يأكل الميتة المدودة لأنـَّها لا تنجيه.

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ لا يؤاخذه بما أكل ﴿رَحِيمٌ﴾ له إذ وسَّع عليه بذلك. ﴿وَعَلَى الذِينَ هَادُواْ﴾ لا على غيرهم مِمَّن قبلهم ومَن بعدهم، فهذا ردٌّ عليهم إذ قالوا: لسنا بأوَّل من حرِّمت عليهم وأنـَّها كانت مُحَرَّمة على نوح وإبراهيم وما بينهما ومن بعد إبراهيم حتَّى وصل الأمر إلينا؛ وقدِّم على قوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾ للحصر، أي ما حرَّمنا إلاَّ عليهم، ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ ما له أصبع، فحلَّ لهم ذوات الأظلاف وهي البقر والغنم والظباء، لأنـَّه لا أصبع لها، وحرَّم عليهم ما له أصبع منفرجة كأنواع السباع والكلاب والسنانير، أو غير منفرجة كالإبل والنعام والأوز والبط، وعن عبد الله بن مسلم: ذو الظفر كلُّ ذي مخلب من الطير وكلُّ ذي حافر من الدوابِّ. وتسمية الحافر ظفرًا استعارة، ولا يخفى أنـَّه

لا يحسن حمل الظفر على الحافر، والحافر لا يكاد يسمَّى ظفرًا، فالظفر المخلب.

ولا يخفى أنَّه ليس معنى الآية حرَّم الله عليهم كلَّ حيوان له حافر، فالآية تدلُّ أنَّ البقر والغنم يحلاَّن لهم، وأغربَ مَن قال: المُراد تحريم الإبل، وعبارة بعض: ذو الظفر ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير كالإبل والنعام والوزِّ والبطِّ، وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم فلمَّا ظلموا حُرِّم عليهم. وبحث في ذلك بأنَّ الأصل الحقيقة، والحافر لا يسمَّى ظفرًا إلاَّ مجازًا، وبأنَّه لو كان الأمر كذلك لوجب أنَّه تعالى حرَّم عليهم كلَّ ذي حافر، وليس كذلك، فإنَّ الآية تدلُّ على إباحة البقر والغنم مع أنَّ لها حافرًا، **فالأولى حمل الظفر على مخالب الطير وبراثن السِّباع.** ﴿**وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ**﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿**حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ**﴾ على أنَّ «مِن» للابتداء، أو حال من قوله: ﴿**شُحُومَهُمَآ**﴾ واجبة التقديم، ولو أخِّرت لَعَادَ الضمير إلى مُتَأَخـِّرٍ لفظًا ورتبة. ﴿**إِلاَّ مَا حَمَلَت ظُهُورُهُمَآ أَوِ الْحَوَايَا**﴾ جمع حوِيَّة بكسر الواو وشدِّ الياء كوصِيَّة ووصايا على القياس.

(صرف) وَقِيلَ: أو جمع حاوياء كقاصِعاء، أو حاوية كزاوية وزوايا، وعلى الأوَّل أصله حوائي بوزن "فعائل"، فُتحت الهمزة تخفيفًا وقلبت ياء وقلبت الياء بعدها ألفًا، وعلى الثاني وزنه "فواعل" حذفت ألف التأنيث وهمزته اللتان في المفرد، وكذا الثالث قلب الواو الذي هو عين الكلمة همزة والهمزة ياء وفتحت، والياء الأخيرة ألفًا.

أي: أو ما حملت الحوايا من الشحم، وهي الأمعاء، وهي المصارين والمباعر. والعطف على «ظُهُور»، أو يُقَدَّرُ مضاف فالعطف على «مَا»، أي: أو شحوم

الحوايا، وقال بعض المُتَقَدِّمين: العطف على «شُحُوم» فتكون الحوايا محرَّمة. روي عن ابن عبَّاس أنَّ الحوايا غير شحم، وأنَّه المباعر؛ وَقِيلَ: المرابض[1]، وهي نبات اللبن؛ وَقِيلَ: المصارين والأمعاء.

و«أَوْ» بمعنى الواو، وكذا في قوله: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ من الشحم، وسائر الشحم حرام عليهم، وهو شحم الفؤاد وشحم الكليتين والشحم الذي يغشي الكِرش والأمعاء، و«أَوْ» بمعنى الواو، ويجوز أن تكون للتنويع، وشحم الحوايا حلال وباقيها لحم حلال؛ وَقِيلَ: عطف «الْحَوَايَا» على «مَا»، وليس كما قيل: إنَّ «الْحَوَايَا» و«مَا اخْتَلَطَ» معطوفان على «شُحُومَ» وأنَّهما مُحَرَّمان، وهو خطأ.

﴿ذَلِكَ﴾ التحريم، مفعول ثان لقوله: ﴿جَزَيْنَاهُم﴾ أي جزيناهم ذلك التحريم، لأنَّ جزى يتعدَّى لاثنين تارة وبالباء أخرى، كما يجوز أن يجعل مبتدأ والرابط محذوف، أي ذلك التحريم جزيناهم به، وهذه الباء للتعدية، والتي في قوله تعالى: ﴿بِبَغْيِهِم﴾ للسببية، أي بسبب ظلمهم، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ...﴾ إلى قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ...﴾ (سورة النساء: ١٦٠)، كُلَّمَا عصوا معصية مِمَّا هو مخصوص، (إلاَّ أنَّه إِنَّمَا يحس على عدم الحذف ما وجد وإنَّما أذكر مثل هذا تبعًا لهم وغفلة)[2] عوقبوا بتحريم بعض ما أحلَّ لهم، وزعموا أنَّه حرِّم قبلهم. ويجوز أن يكون «ذَلِكَ» مفعولاً مطلقًا، أي جزيناهم ذلك الجزاء ببغيهم، إلاَّ أنَّ الغالب

١- المرابض عروق يجري فيها ماء الغذاء من المعدة إِلىَ الكبد. وفسَّرها الشيخ بنبات اللبن.

٢- ما بين قوسين زيادة في نسخة (أ).

في مثل ذلك أن يُتبع بالمصدر نحو: قمت ذلك القيام.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في إخبارنا ووعدنا ووعيدنا، وفي قولنا أنَّها حرِّمت عليهم لبغيهم. وذلك تعريض بكذبهم في قولهم: حرِّمت قبلنا، وفي قولهم: حرَّمها إسرائيل على نفسه؛ وَقِيلَ: بغيهم على فقرائهم، كان ملوكهم يمنعون فقراءهم من أكل لحوم الطير والشحوم، فعوقبوا بالتحريم.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فيما جئت به من ذمِّهم وتقبيحهم لمعاصيهم، ومن سائر الوحي إليك، والضمير للمشركين فيما يقولون ويفعلون، كالبحيرة، ولليهود كذلك، وفي قولهم إنَّ التحريم علينا مُتَقَدِّم قبلنا على من قبلنا ونحو ذلك؛ وَقِيلَ: لليهود لقرب ذكرهم، ولأنَّ المشركين ذكروا بعد؛ وَقِيلَ: للمشركين. ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أمهلكم إمهالاً، ولولا رحمته لعاجلكم بعقاب يستأصلكم، فإنَّكم أهل للعذاب وتعجيله، فلا تغترُّوا بعدم تعجيله، وبقولكم: أنَّكم أحبَّاء الله وأنَّكم مهملون ومعفوٌّ عنكم.

وزجرهم عن هذا الاغترار وتوهُّم الرضى عنهم بقوله: ﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ إذا جاء، أي لا يُردُّ عذابه عنكم، ووضع القوم المجرمين موضع الكاف ليصفهم بالإجرام الموجب، فيعلموا أنَّهم استحقُّوا البأس عند الله لإجرامهم، وإنَّما أخره رحمة بكم للاستجلاب إلى الإيمان؛ أو المُراد: ذو رحمة واسعة للمؤمنين، ولمن تاب، ولا يُردُّ بأسه عنكم أو عن كلِّ مجرم، فيدخلون في المجرمين أوَّلاً وبالذات؛ أو ذو رحمة لي لتصديقي، وينتقم منكم لتكذيبكم فَإِنَّهُ لا يُردُّ بأسه...

ونفيُ ردِّ البأس كنايةٌ عن مجيئه، ومع قولنا: إذا جاء كان صريحًا. والجملة معطوفة على «ذُو رَحْمَةٍ»، أو على «رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ»، وهي مِمَّا تسلَّط عليه «قُلْ».

(سبب النزول) ولـمَّا أيقن المشركون ببطلان حجَّتهم في تحريم ما حرَّموا التجأوا إلى الكذب على الله بأنَّه أجبرهم على الإشراك، وتحريم ما حرَّموا، فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا...﴾ كما في سورة النحل (الآية: ٣٥)، فقال عنهم قبل قولهم ذلك:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

نسبة المشركين الشرك والتحريم إلى الله تعالى وإقامة الحجَّة عليهم

﴿سَيَقُولُ الذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ ءَابَآؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ فنزلت بعد هذا آية النحل، أو أرادوا أنَّهم أشركوا وحرَّموا استقلالاً منهم بلا خذلان من الله، لكن علم ذلك منهم ولم

ينههم عنه إجبارًا، فذلك رضى من ا لله عليهم في ذلك، زاعمين أنَّ ذلك شرع من ا لله لهم، وكلا الوجهين كفر. وعطف «ءَابَآؤُنَا» على الضمير المُتَّصِل المرفوع المحلِّ للفصل بـ«لاَ»، لأنَّ الفصل يسيغ ذلك قبل العاطف أو بعده، نحو: جئت وراكبًا زيدٌ، بعطف زيد على التاء للفصل بحال من زيد، وزاد في النحل ﴿مِن دُونِهِ﴾ مَرَّتَيْنِ و﴿نَحْنُ﴾ لا هنا، لأنَّ الإشراك مغنٍ عن ذكر «مِن دُونِهِ»، لأنَّه متضمِّن للتحريم من دون ا لله، وأسقط «نَحْنُ» تبعًا للتخفيف، بخلاف آية النحل فإنَّها في العبادة والعبادة لا تستنكر، وإنَّما المستنكر كونها لشيء مع ا لله، ولا تدلُّ على تحريم شيء كما يدلُّ عليه «أَشْرَكَ»، فناسب ذكر «مِن دُونِهِ»، وناسب استيفاء الكلام فيه ذكر «نَحْنُ».

وليست الآية اعتذارًا منهم إلى ا لله عزَّ وجلَّ في أنَّهم فعلوا قبيحًا، فإنَّهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا، يتقرَّبون بعبادة الأصنام إلى ا لله عزَّ وجلَّ، بل ادَّعوا أنَّ ا لله عزَّ وجلَّ لو شاء عدم إشراكنا وعدم تحريمنا لم نشرك ولم نُحرِّم، ولـمَّا أشركنا وحرَّمنا علمنا أنَّ ا لله رضي بذلك.

(أصول الدِّين) وهؤلاء المشركون كالمعتزلة في اعتقاد أنَّ ا لله لا يريد الكفر، ولـمَّا وقع منهم علموا أنَّ ا لله شاءه، ولـمَّا شاءه علموا أنَّه جائز لأنَّه لا يريد المحرَّم. وفي ذلك أيضًا إنكار للنبوءة، لأنَّ ما شاء ا لله يقع ولا يَتَخَلَّفُ، والنبوءة لا ترُدُّه فلا حاجة إليها، ويدلُّ لذلك قوله:

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ كذَّب الأمم السابقة أنبياءَهم في تحريم

الإشراك وتحريم القول بما لم يقله الله، كما كذَّبك قومك في ذلك، ولو أرادوا الاعتذار عن ذلك معترفين بقبحه لم يصحَّ الوصف بالتكذيب، وإنَّما صحَّ التكذيب لدعواهم أنَّ ذلك مشروع من الله حاشاه، وذلك تهديد لهم أفصح به قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ وإنَّما صحَّت كلمة «حَتَّى» لأنَّ المعنى داموا على التكذيب حتَّى ذاقوا، وهذا اعتبار لِمَا في «حَتَّى» الابتدائيَّة من طرف الغاية، فلو جعلناها لِمُجَرَّدِ التفريع كالفاء بقي «كَذَّبَ» على ظاهره، أي كذَّبوا فذاقوا.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهم: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أمر معلوم، يكون حجَّة في إباحة الإشراك والتحريم ﴿فَتُخْرِجُوهُ﴾ تظهروه ﴿لَنَآ﴾ كما أظهرنا لكم الأمر المعلوم الذي هو حجَّة من الله عزَّ وجلَّ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتَّبعون في إشراككم ﴿إِلاَّ الظَّنَّ﴾ إلاَّ ترجيحًا لأمر هو عندكم ظاهر مع أنَّه ليس ظاهرًا، بل هو باطل، ولا يقين لهم في جواز الإشراك والتحريم، وذلك أنَّ الظنَّ تجويز أمرين أحدهما ظاهر عند المجوِّز والآخر غير ظاهر، والأَولى أنَّ الظنَّ ترجيح أحد جائزين.

(أصول الدين) والآية تحريم للظنِّ فيما فيه قاطع، وذلك في جميع ما يؤخذ ديانة مِمَّا يقطع فيه العذر، ولا يسوغ فيه الخلاف، وإذا لم يعارض قاطع ظنِّيٌّ أو عقليٌّ جاز الظنُّ للمجتهد، أعني أنَّه يجتهد في بعض أحكام الفروع.

﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ تكذّبون في ذلك، يعني أنَّ ذلك ظنٌّ عندهم، كَذِبٌ في نفس الأمر، ففي الآية أنَّ الكذب لا يشترط فيه العمد، بل هو الإخبار بخلاف الواقع، أَعتقَدَ أنَّه خلافٌ أم لم يعتقد. ويحتمل هنا اعتبار تساهلهم في الظنِّ، ففيه طرف من تعمُّد الإخبار بخلاف الواقع، أو الخرص التقدير بِمُجَرَّدِ الهوى.

﴿قُلْ فَلِلهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن لم تكن لكم حجَّة فلله الحجَّة البالغة، أي فقد افتضحتم لأنَّ لله الحجَّة البالغة؛ أو إن كان الأمر كما زعمتم من أنَّ ما أنتم عليه مرضيٌّ عند الله، فلله الحجَّة البالغة. وأولى من ذلك أن يجعل عطفًا على «إِنَ اَنتُمُ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾»، كعطف التلقين. و«قُلْ» اعتراضٌ، أو عطف كذلك على «هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ»، لأنَّ معناه: لا علم لكم، فلله العلم البالغ، أو على محذوف، أي أنتم لا حجَّة لكم فيما ادَّعيتم فلله الحجَّة عليكم البالغة.

والحجَّة البالغة تبيينه أنَّه الواحد، وإرسال الأنبياء بالحجج التي يعجز الخلق عنها وبالكتب؛ أو معنى بلاغِها: كمالُها وخلوصها عن نقص؛ أو بلوغُها غاية النهاية والوضوح، ولا حجَّة فوق حجَّة القادر الحكيم؛ أو قوَّتها على إثبات الحقِّ من التوحيد وغيره، أو يبلغ صاحبها دعواه، والبلوغ لصاحبها لا لها، كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (سورة القارعة: ٦)، والحجَّة من الحجِّ بمعنى القصد، كأنَّها تقصد إثبات دعوى صاحبها، أو بمعنى القطع.

﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ هدايتكم إلى الحقِّ، أو إلى الحجَّة البالغة بطريق القهر

﴿لَهَدَاكُمْ﴾ إلى ذلك قهرًا ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لأنَّه قادر على كلِّ شيء، لكنَّه وفَّق بعضا وخذل بعضا، والحكمة المطلوبة بالتكليف الإيمانُ اختيارًا، **ولا يكون في ملك الله ما لا يريد**، فقد أراد الله ضلال هؤلاء، وإلاَّ كان مغلوبًا، وملكه ناقصًا، سبحانه عن ذلك.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ اسم فعلٍ فاعِلُه مستترٌ وجوبًا مع الواحد والمذكَّر وغيرهما، و«شُهَدَآءَ» مفعول به لأنَّه متعدٍّ، بمعنى: أَحضِروا، أو هاتوا، أو قرِّبوا، بفتح الهمزة وكسر الضاد، ويكون أيضًا لازمًا كقوله تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ (سورة الأحزاب: ١٨)، وهي كلمة واحدة بسيطة مبنيَّة على الفتح في هذه اللغة وهي لغة الحجاز.

﴿الذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي الذي حرَّمتمُوه تقليدًا لهم، فإنَّهم إن حضروا لم يجدوا حجَّة وانقطعوا، وهم شهداء معهودون كما أضافهم إلى هؤلاء لملابسة أنَّ الشهادة منهم لهؤلاء، ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ أي: شهد بالتحريم المشركون المطلوبون بإحضار الشهداء، إعراضًا عن الإحضار لهم، أو شهد الشهداء المطلوب إحضارهم بالتحريم، أي شهدوا بعد إحضارهم ﴿فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ بالتحريم، ولو جاءوا بِكُلِّ ما جاءوا به من حجج لأنَّها باطلة مزيَّفة؛ أو المعنى: لا تسكت بل بيِّن لهم فساد ما جاءوا به، فسمَّى على هذا سكوته شهادة منه، لأنَّها تتوهَّم من السكوت، فهو سبب لتوهُّمها منه، فيكون مجازًا مرسلاً بواسطة الدعوى والتوهُّم؛ أو سمَّى التسليم ولو بالسكوت شهادة لأنَّها من لوازمه، أو استعار الشهادة للسكوت واشتقَّ من الشهادة بمعنى السكوت، شهد بمعنى سكت؛ أو سمَّى السكوت عن الردِّ شهادة لمشاكلة قوله: ﴿فَإِن

شَهِدُوا﴾، وكلٌّ ذلك جواب عمَّا يقال: كيف ينهاه عن شهادة فإنَّها لا تتوهم منه؟. ويبعد أن يقال: الخطاب للشمول البدليِّ الصالح لمن يمكن منه ذلك، لأنَّه ينافيه قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوَا اَتْلُ...﴾ فإنَّه له ﷺ وكذا ما قبل.

﴿**وَلاَ تَتَّبِع**﴾ يا محمَّد؛ وَقِيلَ: الخطاب للعموم البدليِّ ﴿**اَهْوَآءَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا**﴾ أي القرآن والمعجزات وهم المطلوبون بإحضار الشهداء، أو الشهداء ومقتضى الظاهر: ولا تتَّبعهم؛ لكن أظهر ليبيِّن أنَّهم اتَّبعوا الهوى، وأنَّ مكذِّب الآيات لا يكون إلاَّ متَّبعًا للهوى، ومفهومه أنَّ متَّبع الحجَّة لا يكون إلاَّ مصدِّقًا بها، فإن وقعت منهم شهادة بالتحريم فإنَّما هي اتِّباع الهوى، ﴿**وَالذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ**﴾ بالبعث والحساب والجنَّة والنار؛ وَقِيلَ ﴿الذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَاتِنَا﴾: اليهودُ، و﴿الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ﴾: المشركون.

﴿**وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ يسوُّون الأصنام في العبادة بربِّهم سبحانه وتعالى، ولا شيء من العبادة لغير الله، والمعنى: يجعلون له عديلاً، كقوله تعالى: ﴿هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (سورة النحل: ١٠٠)؛ أو يميلون بعبادتهم عنه؛ أو بأفعاله إلى غيره بنسبتها إلى غيره. والجملة معطوفة على صلة «الذِينَ» أو حال، وكلُّ هؤلاء قوم واحد، نُزِّل تغاير الصِّفة منزلة تغاير الذَّات فعطف «الذِينَ» على «الذِينَ»، وكأنَّه قيل: لا تتَّبع هؤلاء الجامعين بين التكذيب بالآيات وانتفاء الإيمان بالآخرة وإثبات العديل لله جلَّ وعلا.

وَكَأَنَّهُم لمَّا أعجزهم قالوا: فأيُّ شيء حرَّم الله؟ فنزل قوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

المحرَّمات العشر، أو الوصايا العشر

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟﴾ وأصل «تَعالَ» الأمرُ بمعالجة الصعود من أسفل إلى أعلى حِسًّا، ثمَّ استعمل في مطلق الأمر بالإقبال ولو من أعلى إلى أسفل، أو في المعقول، وذلك استعمال للمقيَّد في المطلق، أو للخاصِّ في العامِّ، أو صار حقيقة عرفيَّة عامَّة في مطلق طلب الإقبال.

(بلاغة) ولا ضعف في أن يقال: شبَّه كونهم في الجهل بكون الإنسان في مكان أسفل حِسًّا، وكونه ﷺ على الحقِّ بكونه في موضع عال حِسًّا، فاستعار لهم ما يناسب ذلك وهو اللفظ الموضوع للأمر بالصعود من موضع أسفل إلى عال، ولا أُسلِّم أنَّ الترقِّي إلى ذروة العلم غير معلوم. وفي الآية تعريض بأنَّهم في حضيض، وهو فعل أمر وفاعل، وهو تفاعل من العلوِّ.

﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ «أَتْلُ» مضارع للمتكلّم مجزوم بحذف الواو، أي أَقرأُ ما حرَّم، وأقرأ للمتكلّم، و«مَا» اسم موصول، أي أتل الأشياء التي حرَّمها؛ أو نكرة موصوفة، أي أشياء حرَّمها؛ ويضعف أن تكون مصدريَّة، أي أتل تحريم ربِّكم، لأنَّه إمَّا أن يؤوَّل المصدر بالمفعول فيغني جعلها اسمًا موصولاً أو اسمًا موصوفًا، وإمَّا أن يُراد: أتل عليكم دالَّ التحريم، أي ما يدلُّ عليه، وهو الألفاظ، وهو تأويل، إلاَّ أنَّه لا مانع من أن يقال: الكلام بما هو محرَّم تحريمٌ له إذا أريد به التحريم، ولا تكلُّف فِيهِ.

ويجوز أن تكون استفهاميَّةً، فحينئذ لا تكون منصوبة بـ«أَتْلُ» بل بـ«حَرَّمَ»، وحينئذ جملة «حَرَّمَ...» مفعول لـ«أَتْلُ» معلّق بالاستفهام، على تضمين «أَتْلُ» معنى التعليم، أي أعلّمكم أيَّ شيء حرَّم ربُّكم. والآية من أسلوب المتكلّم الحكيم بالإضافة، أو من الأسلوب الحكيم بوصف الأسلوب بالحكمة، وذلك أن يُعرض عمَّا أراد الخصم إلى ما هو له أحقُّ، وهو هنا ما يقتضي الحال بيانَه. ﴿عَلَيْكُم﴾ تُنازِعُهُ «أَتْلُ» و«حَرَّمَ»، لأنَّ المعنى: أتل عليكم، وحرَّمه عليكم؛ وتعليقه بـ«حَرَّمَ» أنسب بمقام الاعتناء بإيجاب الانتهاء عن المُحَرَّمات.

﴿أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾ «أَنْ» ناصبة، و«لاَ» نافيةٌ، والمصدر بدلٌ أو بيان من «مَا» أو من عائدها المحذوف، ولَكِنَّ البدل والبيان من عائدها على زيادة «لاَ»، وذلك أنَّه لا يحرم انتفاء الإشراك بل يحرم الإشراك، والأصل عدم الزيادة.

(نحو) ولك جعل «عَلَيْكُم» اسمَ فعلٍ، فيكون مصدر «أَن لاَّ تُشْرِكُوا» مفعولاً لـ«عَلَيْكُم»، أيِ الزموا انتفاء الإشراك؛ ويجوز كون «أَن لاَّ

تُشْرِكُوا» خبرًا لمحذوف، أي المتلوُّ انتفاء الإشراك؛ ويجوز المُحَرَّم الإشراك على زيادة «لاَ»؛ أو يُقَدَّرُ حرف التعليل ويُعَلَّق بـ«أَتْلُ»، أي أتل لئلاَّ تشركوا؛ أو يُقَدَّرُ: أوصيكم أن لا تشركوا؛ أو مبتدأ خبره «عَلَيْكُم» أي: عليكم انتفاء الإشراك به.

ويجوز أن تكون «أَنْ» مفسِّرة للتحريم، لأنَّ فيه معنى القول دون حروفه، و«لاَ» ناهية، ويناسبه عطفُ الأمر والنهي بعده إلى قوله: ﴿أَوْفُوا﴾ عطفَ إنشاء على إنشاء، بخلاف ما إذا جعلناها نافية فيوجَّه بتأويل الخبر بالطلب، أو يعطف الطلبُ على الإخبار، ولا يخلو القرآن عن ذلك وعكسه. والمُراد بـ«شيء» شَيْءٌ من الأصنام، فهو مفعول به؛ أو الإشراك، فهو مفعول مطلق.

واعلم أنَّه تقدَّم التحريم فدخلت الأوامر بعده والنواهي، واشتركن في الدخول تحت حكمه، والتحريم راجع إلى أضدادها وهي الإساءة إلى الوالدين، وبخس المكيال والميزان، وترك العدل في القول ونكث العهد.

ويجوز تقدير: أَتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم وما أمركم به، فإنَّ ما بعد ذلك تفسير التحريم المذكور والأمر المحذوف؛ ويجوز العطف على «أَتْلُ». **وهذه أحكام عشرة تَعُمُّ الأعصار والأمم ولا تنسخ، مَن عمل بهنَّ سعد ومَن خالف شَقِيَ.** وعن كعب الأحبار: «والذي نفس كعب بيده إنَّ هذه الآيات لأوَّلُ شيء في التوراة: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قل تعالوا». وعن غيره: أوَّلها أوَّل السورة إلى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١-٤).

ولعظم حقِّ الوالدين قُرِن حقُّهما بالتوحيد، فيكون ترك حقِّهما مقرونًا بشرك فقال: ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ أحسنوا بالوالدين إحسانًا نفعًا، وخَفْضَ

جناحٍ وردَّ بصرٍ للأرض أكثر من تذلُّل العبد لسيِّده العنوف. وعن ابن مسعود: لـمَّا قرَّب الله موسى نجيًّا يوم كلَّمه أبصر في ظلِّ العرش رجلاً فغبطه بمكانه، فسأله عنه فلم يخبره باسمه، وأخبره بأنَّه «كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله تعالى من فضله، برًّا بالوالدين، لا يمشي بالنميمة».

عدل إلى ذلك عن: أن لا تسيئوا إلى الوالدين، أو لا تعصوهما بصيغة النهي، لأنَّ ترك الإساءة في حقِّهما غير كاف، ولأنَّه يجب الإحسان ولو بما لم يأمرا به لا متابعتهما فيما أَمَرا به خاصَّة. وصحَّ الإنشاء بعد الإخبار لأنَّ التلاوة قول والمقول يحكى، نحو: قلت له قام زيد وقُم، ولا مانع من أن يُقَدَّرَ: وأن تحسنوا بالوالدين إحسانًا، بتقدير مضارع مثبت.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوٓاْ﴾ أيُّها الرجال والنساء، لأنَّهنَّ أيضًا قد يقتلن الأنثى حين ولدت ويدفِنَّها في حفرة الولادة لَكِنْ قليلٌ. ﴿أَوْلاَدَكُم مِّنِ اِمْلاَقٍ﴾ من خشية إملاق، لقوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾ (سورة الإسراء: ٣١)؛ أو من أجل إملاق، فـ«مِنْ» للتعليل، كما دلَّ عليه نصب «خَشْيَةَ» على التعليل. والإملاق: الفقر، وهو المشهور، ويفسَّر بالجوعِ أيضًا ـ وهو لغة لخم ـ والإسرافِ عند محمَّد بن نعيم اليزيدي، فإنَّ قتل الولد إسراف، ويرُدُّه ﴿خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾ فإنَّهم لا يخشون الإسراف بقتل الولد، والإنفاقِ عند المنذر بن سعيد[1]، أي لا تقتلوا أولادكم لثقل النفقة عليكم، وعلى كلِّ حال: المُرادُ الإملاقُ المخشيُّ بدليل آية

١- المنذر بن سعيد البلوطي الأندلسي قاضي الجماعة بقرطبة، كان فقيها محقّقا، وخطيبا بليغا. ومن تصانيفه: "الإنباه عن الأحكام من كِتَاب الله"، وكتاب: "الإبانة عن حقائق الديانة". تُوُفِّيَ سنة ٣٥٥هـ، ولد سنة ٢٦٥هـ. **سير أعلام النبلاء**، ج٢، ص ١٦٥، رقم ٣٣٥٠.

ذكر الخشية، ويُفهم أنَّ الإملاق الموجود مثله، ويجوز أن يراد: الإملاقُ الموجود، ويفهم أنَّ الإملاقَ المخشيَّ مثلُه، ويجوز أن يرادا معًا، أي: لا تقتلوهم من إملاق مطلقًا سواءٌ وُجد أم خِيف، ولو كان الواقع أحدهما.

وعلَّلَ النهي بقوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُم وَإِيَّاهُمْ﴾ وَأَوَّل من سنَّ قتل البنت ربيعة، سُبِيَتْ بنت لأمير منهم، وكان الصُلح، فخيِّرت فاختارت من هي عنده على أبيها، فغضب وسنَّ لقومه الوأد ففعلوه مخافة مثل ذلك، ومخافة العار مطلقًا، وشاع في العرب للإملاق وغيرها. وَقَدَّمَ خِطاب الآباء لتقدُّم خطابهم في «وَلاَ تَقْتُلُوا»، وليناسب الخطاب في المناهي بعده، ولأنَّهم مخاطبون برزق الأولاد إذ وجب عليهم أن ينفقوهم، فخاطبهم بوعد الرزق، أو قدَّم هنا للآباء الفقراء في الحال، وأخَّر في الإسراء لأنَّ المُراد بها خشية الآباء الأغنياء الفقرَ بعدُ، ولذلك أيضًا ذُكر فيها خشية لا هنا فقدَّم خطابهم للوعد لهم لئلاَّ يخافوا، وذلك لإفادته معنى آخر أولى من أن يقال: قدَّم تارة وأخَّر أخرى، وصرَّح بخشية تارة دون أخرى تفنُّنًا، والحاصل أنَّه خوطب بقوله تعالى: ﴿مِن اِمْلَاقٍ﴾ الفقراءُ، وبقوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ الأغنياءُ الذين يخشون الفقر بعدُ، فقُدِّم هنا الرزق لذلك، وقدِّم رزق أولادهم في مقام الخشية، ويأتي الكلام في سورة الإسراء.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كشرب الخمر يظهر بالسكر، والزنى بذوات العلامات بالدخول إليهنَّ للزنى بإجهار الدخول وغير ذلك مِمَّا يظهر، كالقتل جهرًا وذَكر الخمر في المسألة مراعاة لنزول الأنعام مرَّة ثانية بالمدينة. و«مِنْ» للابتداء يتعلَّق بـ«ظَهَرَ»، أو للتبعيض فيتعلَّق بمحذوف حال من «مَا» أو من ضمير «ظَهَرَ». ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ منها كشرب الخمر حيث لا يتبيَّن،

لقلّة ما شرب، وكالزنى حيث لا يعلم بالدخول عليه كما تتّخذ الأشراف الأخدان وغير ذلك، كالقتل سرًّا.

(فقه) ومن ذلك صبُّ النطفة خارج الفرج كما جاء في الحديث «أنَّ العزل وأْدٌ خفيٌّ»، و[من ذَلِكَ] أيضًا ولد الزنى في حكم الميِّت، والآية في المعاصي مطلقًا؛ وَقِيلَ: في الزنى واختاره بعض، لأنَّه أنسب بالمتعاطفات، وما بدل مطابق باعتبار المعطوف لا بدل اشتمال كما قيل.

(بلاغة) ولم يقل: لا تفحشوا، لأنَّ النهي عن قُرب الفواحش بتمنِّيها أو نيتها أو بفعل ما يدعو إليها كالخلوة والتفكُّر والنظر والاستماع أبلغُ في الزجر وأفيد، ولأنَّ قربها داع إليها؛ ويجوز أن يكون مجازًا تعبيرًا بالملزوم والسبب عن اللازم والمسبَّب، فإنَّ القرب للفواحش سبب لها وملزوم، والفواحش مسبَّب ولازم، والمجاز أبلغ من الحقيقة، وهو مع أبلغيَّته خال عن زيادة محرَّم، لأنَّ ما مَرَّ تحريمٌ للفواحش وقربها، وهذا تحريم لها فقط معبّرًا عنها بقربها. ووسَّطَ هذه الجملة بين قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ...﴾ وقوله: **﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾**، بسبب من الأسباب، أو في حال من الأحوال إلاَّ في حال التباسكم بالحقِّ، كما في سورة الإسراء، لاعتبار أنَّ قرب الفواحش شامل لولادة ولد الزنى، وللعزل.

(فقه) والنفس المحرَّمة نفس الموحِّد وكلٍّ من لا يقتل كذمِّيٍّ ومستجير وداخل بأمان، ولذا استثنى منها ما يقتل بحقٍّ بِرِدَّةٍ أو بغي وزنى مع إحصان أو لقتل من يقتل به، والقتل دفعًا عن النفس وقتل الباغي، وإلاَّ فكونها

محرَّمة ينافي أن تقتل بحقٍّ و«بِالْحَقِّ» حال من الواو، أو مفعول مطلق، أي: إلاَّ قتلاً ثابتًا بالحقِّ؛ أو هي للتعدية أو السببيَّة، فتعلَّق بـ«تَقْتُلُوا»، والاستثناء مفرغ، أي: لا تقتلوا في حال من الأحوال إلاَّ بالحقِّ. وعطف هذه الجملة على قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا﴾ عطف خاصٍّ على عامٍّ لمزيتَّه في التحريم. وَقِيلَ: المُراد بالنفس: المؤمنُ، وهو ضعيف.

﴿ذَٰلِكُم﴾ أي ما ذكر من ترك الإشراك، ومن الإحسان بالوالدين، وترك قتل الأولاد، وترك قرب الفواحش، وترك قتل النفس التي حرَّم الله ﴿وَصَّيٰكُم بِهِ﴾ أي بحفظه. وفي التوصية لُطفٌ ورأفةٌ بهم، إذ جعلهم أوصياء له جلَّ وعلا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدُّنيا والدِّين، والعقل مناط التكليف فهو الذي يُدرك به ذلك، أو تستعملون عقولكم فتعقلكم، أي تحبسكم عن الإشراك، وترك الإحسان للوالدين، وعن القتل الذي لا يحلُّ، وقرب الفواحش.

(بلاغة) وذكر هنا «تَعْقِلُونَ»، وذكر بعد ذلك «تَذَكَّرُونَ» و«تَتَّقُونَ» تفنُّنًا، وهو من شُعب البلاغة؛ أو ذكر هنا «تَعْقِلُونَ» لأنَّ هؤلاء الخمسة ظاهرة يجب تعقُّلها، فخُتمت بـ«تَعْقِلُونَ»، ولـمَّا كانت الأربعة بعدها وهنَّ قرب مال اليتيم بما هو أحسن، وإيفاء الكيل والميزان، والعدل في القول، والإيفاء بالعهد خفيَّةً غامضةً لاَ بُدَّ فيها من الاجتهاد حتَّى يوقف على القدر المجزي بالحوطة ختمت بالتذكُّر؛ ولـمَّا فرغ من الكلِّ وأشار إليه ذكر «تَتَّقُونَ» على معنى: احذروا المخالفة وإلاَّ هلكتم، أو لأنَّ المنهيَّ عنه وهو الإشراك والقتل

وقُرب الفواحش لا تستكشف العرب عنه، وأمَّا إحسان الوالدين ونحوه فممَّا تفعل العرب فأُمروا بالتذكُّر هنا وبالتعقُّل هناك.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ﴾ أيُّها الأوصياء والأولياء وغيرهم ﴿مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلاَّ بالفعلة أو القربة أو الخصلة التي هي أحسن وأفضل مِمَّا تفعلون بأموالكم، من الحفظ وتنميته بنحو التجر والسقي، ولا تكتفوا بالحسن كما يجوز في أموالكم الاكتفاء بالحسن عن الأحسن، ثمَّ إنَّه لا يخفى أنَّ «لاَ تَقْرَبُوا» أوكد من: «لا تباشروا» على حدِّ ما مَرَّ في ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾. وخصَّ ذكر اليتيم مع أنَّ مال ذي الأب والبالغ كذلك لحقِّ الإسلام والقرابة، لأنَّ الطمع في مال اليتيم أكثر لضعفه، ولأنَّ إثمه أعظم.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ,﴾ فهو الذي يقرب مال نفسه ويحوطه، وليس المُراد أنَّه إذا بلغ أشُدَّه فاقربوه بما ليس أحسن، فقد قال: ﴿فَإِنَ ـانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمُ, أَمْوَالَهُمْ﴾ (سورة النساء: ٦).

(لغة) فالأشُدُّ: القوَّة ببلوغ الحلم وإيناس الرشد، وهو مفرد كأَنُك بهمزة وألف فنون مضمومة؛ أو اسم جمع بمعنى القوَّات؛ أو جمع شِدَّة بكسر عند سيبويه كنعمة وأنعم؛ وَقِيلَ: أنعم جمع نُعمة بضمِّ النون؛ أو جمع شَدٌّ بالفتح ككلب وأكلب؛ أو جمع شِدٌّ بالكسر كذئب وأذؤب؛ أو جمع شُدٌّ بضَمِّها كضُرٌّ وأَضُرٌّ؛ وأصله: أَشْدُدٌ بإسكان الشين وضمِّ الدَّال الأولى، نقلت الضَّمَّة إلى الشين وأدغمت الدَّال. ولـمَّا كان زيادة الأشدِّ ينتهي إلى ثلاث وثلاثين ولا يزيد بعدُ، جاز إطلاق الأشُدِّ عليها تسمية بآخرها.

﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ مصدر كالميعاد بمعنى الوعد، فوافق الكيل في المصدريَّة، فهما مصدران بمعنى مفعول، أي المكيل والموزون، أو باقيان على المعنى المصدريِّ، والمعنى صحيح؛ أو الميزان: اسم آلة، فتجعل للكيل بمعنى الآلة بمعنى المكيال؛ أو يُقدر مضاف، أي مكيل الكيل وموزون الميزان ﴿بِالقِسْطِ﴾ بالعدل، حال من واو «أَوْفُوا»، ولا يتكرَّر مع الإيفاء، لأنَّ الإيفاءَ: تركُ النقص إلى حقِّ مَن عليه الحقُّ، والقسط: تركُ الزيادة في حقِّ مَن له الحقُّ، إلاَّ أنَّه خوطب بهما معًا مَن عليه الحقُّ، أي عليكم أن لا تنقصوا ولكم أن لا تزيدوا. عبارة بعضٍ: أمر الله تعالى المعطِيَ بإيفاء ذي الحقِّ حقَّه من غير نقصان، وأمر صاحب الحقِّ بأخذ حقِّه من غير طلب الزيادة.

﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا اِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أي لا نكلِّفها بأقلَّ من وسعها في أداء حقِّ الخلق، وكذا في أداء حقِّ الخالق بلا مشقَّة عظيمة وعسر شديد، ولا عقاب عليكم فيما أخطأتم فيه بعد استعمال قواكم، ولكن إذا علمتم فعليكم التخلُّص، وإلاَّ تتخلَّصوا عوقبتم، وإن لم تعلموا حتَّى مِتُّم نقص من حسناتكم. وذَكَر تكليف النفس بوسعها بعد الكيل والميزان لشدَّة الوقوف على استيفائهما، فعليكم وسعكم ووراءه العفو، وقد قيل: «لا يوصل إلى حقيقة الكيل والميزان، وَأَوَّل وقت الصلاة والخوف والرجاء وَأَوَّل البلوغ»؛ أو ذلك امتنان بأنِّي كلَّفتكم مَا تطيقونه بلا مشقَّةٍ، ومن **زاد في الكيل والوزن فقد وفَّى بالحقِّ وله ثواب الزيادة.**

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ تَكَلَّمتم في قضاء أو إفتاء أو وعظ أو أمر أو نهي أو حكاية أو أداء شهادة أو تأدية أحكام الشرع، ولتضمُّن القول هنا معنى التَّكَلُّم لم يكن

له مفعول به، أو لم يذكر لعدم تعلّق المقام به، فصار كاللاَّزم، والفعل كالقول هكذا: وإذا قلتم أو فعلتم، أو يراد بالقول ما يشمل الفعل مجازًا. ﴿فَاعْدِلُواْ﴾ في ذلك القول أو الفعل، لا تجوروا في القضاء ولا تزيغوا في الإفتاء أو الوعظ، ولا تزيدوا أو تخلطوا في حكاية قصَّة، ولا تأمروا بمنكر أو تنهوا عن المعروف، ولا تنقصوا أو تزيدوا في الشهادة فإنَّ ذلك كُلّه غير عدل.

﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي المقول له أو عليه، أو المفعول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ فتدعوكم أنفسكم إلى فعل أو قول له، أو إزاحة ضرّ لازم له، أو فعل كذلك مع أنَّه ليس ذلك حقًّا له، لا تتركوا حقًّا ضارًّا له أو بعضه ولا فعلاً ضارًّا له أو بعضه وهو حقٌّ عليه. ولم يذكر الفعل لأنَّه يفهم بالأولى لأنَّه أقوى من حيث الإنجاز، ولو كان دون القول من حيث إثبات الأحكام الشرعيَّة.

﴿وَبِعَهْدِ اللهِ﴾ قدّم على متعلّقه وهو قوله: ﴿أَوْفُواْ﴾ على طريق الاهتمام، وإضافة «عَهْدِ» إلى «اللهِ» إضافة مصدر للفاعل، أي: أوفوا بمقتضى عهده إليكم بتقدير مضاف كما رأيت؛ أو بمعنى مفعول أي بمعهود الله، أي الذي عهده الله إليكم؛ أو إضافة مصدر لمنصوب على العظمة، أي بمقتضى عهدكم الله أو بمعهودكم إليه.

وعهدُ الله إليهم: فعلُ ما ألزمه إيَّاهم وما استحبَّه، وترك ما حرَّمه أو كرهه، وعهدُهم إلى الله ما وَعدُوا الله من نذر ويمين وطاعة، وما من شأنه أن يُفعلَ لله أو يُترك، فإنَّ ذلك قامت به الحجَّة ولو كفروا، وكأنَّهم آمنوا أو ألزموه أنفسهم، أو المُراد العهد يومَ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢).

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي العهد المذكور أو الإيفاء به ﴿وَصَّاكُم بِهِۦ﴾ تأكيدًا، فإنَّ الإيصاء بالشيء أوثق من الأمر به، لأنَّه أمرٌ وطلبُ محافظةٍ، وَمَعنَى الإيصاء بالنهي أو المنهيِّ عنه الإيصاء بمراعاته للاجتناب ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتَّعظون وتعملون بمقتضاه.

خُتمت الآية الأولى بـ«تَعْقِلُونَ» لأنَّهم استمرُّوا على ما فيها من الإشراك وما بعده، ولم يعقلوا قُبحَ ذلك، وذُكر فيها حقُّ الوالدين لأنَّه أعظم الحقوق بعد التوحيد، فكفرانه يلي كفر الشرك، خَلَقَهُ الله وقامًا به حين كان لا يَقْدِر على شيء؛ وأمَّا ما في الثانية من حفظ مال اليتيم وما بعده فقد يقومون ويفتخرون به، فأمرهم بتذكُّره لئلاَّ ينسوه؛ أو ما في الأولى ظاهر فأمرهم بتعقُّله، وما في الثانية خفيٌّ فأمرهم بالتفكُّر فيه؛ أو ما في الأولى بالمنع والنهي ـ وأحبُّ شيء إلى الإنسان ما منع ـ فكانت بالعقل الذي فيه معنى الحبس، وما في الثانية بالأمر فكانت بما يدلُّ على التفكُّر فلا ينسى.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ أي ما ذكر من الأوامر والنواهي من حيث الائتمار والانتهاء في الآيتين، أو من الشرع كُلِّه، كما روي عن ابن عبَّاس، ويناسبه النهي بعدُ؛ أو ما ذكر في السورة من التوحيد والنبوءة وإثبات الشريعة، فإنَّ السورة كلَّها في ذلك، إمَّا بالذَّات أو بالواسطة؛ ولا يترجَّح الوجه الأوَّل بالقرب، وهو العود إلى الأوامر والنواهي، لأنَّ ما في السورة قريب لاتِّصاله وكأنَّه شيء واحد قريب، فاستويا في القرب؛ وترجَّح هذا بأنَّه زاد فائدة التعميم، ولا فائدة في التخصيص بلا مخصِّص. وتقدَّر اللام وتعلَّق بـ«اتَّبِعُوهُ».

وإنَّما صحَّ الإخبار بأنَّ ذلك صراط الله مع أنَّ فيه محرَّمات، لأنَّ المُراد ما ذكر من الأوامر والنواهي من حيث العمل بالأمر والنهي؛ والعمل بالنهي: اجتناب ما نُهي.

وبهذا الاعتبار أيضًا قال: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ ولا يشكل عليه ما استُحِبَّ، ولم يجب لجواز حمل الاِتِّبَاع على المشترك بين الوجوب والندب، عملاً بعموم المجاز، ودون هذا أن تحمل الاِتِّبَاع على إيجاب اعتقاده، فيجب على العالم باستحباب شيء اعتقاد استحبابه.

(نحو) والفاء صلةٌ لا عاطفة لتعلُّق «أَنَّ هَذَا صِرَاطِي» بما بعدها أي اتَّبعوه لأنَّه صراطي مستقيمًا، وهو واجب التقديم لعود الهاء إليه مِمَّا بعده، وهي لـ«هَذَا» أو لـ«صِرَاطِي»، ولو تأخَّر لَعَاد الضمير إلى مُتَأَخِّر لفظًا ورتبة في غير أبوابه؛ وإن عاد الهاء إلى «ذَلِكُمْ» فلا إشكال. ولفظ «هَذَا» مِن وَضْعِ الظاهر موضع المضمر. ويجوز تقدير: آثِرُوه فاتَّبعوه. ويجوز جعل «أَنَّ هَذَا» مفعولاً لمعطوف على «تَذَكَّرُونَ»، أي لعلَّكم تذكَّرون وتعلمون أنَّ هذا صراطي مستقيمًا، فتكون الفاء عاطفة للأمر على «وَصَّاكُم بِهِ» أو على «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، أو على «مَا حَرَّمَ». والياء في صراطي لله تعالى؛ وَقِيلَ: إنَّها له ﷺ، وأنَّه أضيف الصراط إليه ﷺ، لأنَّه أدعى للاتِّباع.

والصراط مجاز عمَّا ذكر من دين الله تحريمًا وتحليلاً؛ و«مُسْتَقِيمًا» حالٌ، أي لا عوج فيه، وما سواه طرق إبليس تُؤَدِّي إلى النَّار، على كلِّ

طريق منها شيطان يدعو إليها، روي ذلك عن ابن مسعود عنه ﷺ.
وروي عن جابر بن عبد الله: «**كنَّا عند رسول الله ﷺ فخطَّ خطًّا وخطَّ خطَّين عن يمينه، وخطَّ خطَّين عن شماله ثمَّ وضع يده في الخطِّ الأوسط، ثمَّ قال: هذا سبيل الله، ثمَّ تلا هَذِهِ الآية، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾**»[1].

﴿**وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ وهذه السبل سبل أهل الشرك، وسبل أهل الضلال من أهل القِبلة، وكلُّ ما هو حرام من ترك أو فعل مِمَّا يُفعل تشهِّيًّا أو ديانة، والبدع والشبهات، **فالمُراد بالسبل السبل المخالفة لسبيل الله**، وجمعت لأنَّها لا تنضبط لأنَّها باعتبار الهوى والعادات والطبائع، ودين الله واحد باعتبار الحجَّة، فأفرد سبيله لذلك.

(نحو) وأصل «تَفَرَّق» تَتَفَرَّق حذفت إحدى التاءين، ومعناه: تميل، فتعلَّق به الباء وهي للتعدية، كأنَّه قيل: تفرِّقكم عن سبيله؛ وهو دين الإسلام؛ أو هي للمصاحبة فتتعلق بمحذوف حال من ضمير «تَفَرَّقَ»، أي كائنة معكم، وأهل الضلال أكثر من أهل الصواب كما قال قائل:

أرى ألف بأنٍ لا يقوم بهادمٍ   وكيف ببانٍ خلفه ألف هادم؟

إلاَّ أنَّ الله المستعان.

﴿**ذَٰلِكُم**﴾ أي ما ذكر من اتِّباع السبيل واجتناب اتِّباع السبل ﴿**وَصَّٰكُم بِهِ**﴾ كرَّر التوصية تأكيدًا. ﴿**لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ**﴾ التفرُّقَ عن سبيله،

١- رواه **الحاكم** في مستدركه، كِتَاب التفسير، (٦) تفسير سورة الأنعام رقم ٣٢٤١ (٣٥٨)، ج٢، ص ٣٤٩. من حديث وائل بن عبد الله.

أو تتّقون النّار. أتى بذلك بعد ذكر الصراط المستقيم تلويحًا بأنّه طريقٌ لاتّقاء النّار، فلم ينج منها من لم يكن عليه. قال ابن مسعود: «من سَرَّهُ أن ينظر إلى وصيّة محمّد ﷺ بخاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوا...﴾ إلى ﴿...تَتَّقُونَ﴾». وقال عبادة بن الصامت عنه ﷺ: «**أيُّكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟، وتلاهنَّ، قال: فمن وفّى بهنَّ فأجره على الله ومن انتقص منهنَّ شيئًا فأدركه الله تعالى في الدُّنيا كانت عقوبته، ومن أخّره إلى الآخرة كان أمره إلى الله تعالى، إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه**»[1]، ومعنى «من أخّره إلى الآخرة»: لم يعاقبه في الدنيا، فإن شاء أخذه بأن لا يوفّقه للتوبة، وإن شاء عفا عنه بأن يوفّقه لها؛ أو آخذه: عاقبه في القبر والمحشر وقد تاب، والعفو: عدم عقابه وقد تاب، قال ابن عبّاس: «من عمل بهنَّ دخل الجنّة ومن تركهنَّ دخل النّار».

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

١- راجع: ابن كثير في تفسير الآية، وفي تخريج الحديث.

إقامة الحجة بإنزال الكتب

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ «ثُمَّ» لترتيب الإخبار بلا مهلة، أي ثمَّ أُخبركم أنَّا آتينا موسى الكتاب؛ أو لتراخي الرتبة، أي ذلكم وصَّيناكم به يا بني آدم قديمًا وحديثًا، وأعظم من ذلك أنَّا آتينا موسى الكتاب؛ ويبعد العطف على ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ, إِسْحَاقَ﴾ (الآية: ٨٥) لكثرة الفصل فإنَّه بنحو نصف السورة، وليس تقديرُ: ثمَّ مِمَّا وصيناه أنَّا آتينا موسى الكتاب تقديرَ إعراب، ولا مخرجًا لها عن تراخي الإخبار أو الرتبة، وكذا تقديرُ: ثمَّ كنَّا قد آتينا موسى الكتاب قبل القرآن. ويجوز أن تكون «ثُمَّ» في مثل الآية لمطلق الجمع؛ وقدَّر بعضٌ: ثُمَّ قل آتينا موسى الكتاب، أي قُل عنَّا؛ وقدَّر بعضٌ: ﴿قُل تَعَالَوْاْ اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُم﴾ ثمَّ اتل عليهم قولنا: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾.

ووجه أعظميَّة إيتاء موسى الكتاب وهو التوراة اشتمالها على تلك الوصايا وكثرة العلم، وتفصيل كلِّ شيء حتَّى إنَّها كجزاء لموسى كما قال: ﴿تَمَامًا عَلَى الذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي لأجل تمام نعمتنا أي إتمامها؛ أو آتينا موسى الكتاب تامًّا، أو ذا تمام؛ أو آتينا موسى الكتاب إيتاء تمام؛ أو آتينا موسى الكتاب ذوي إتمام، أو متمِّين، أو أتممناه إتمامًا تأكيدًا للجملة قبله.

والذي أحسن هو موسى عليه السلام، وضع الظاهر موضع المضمر ليصفه بالإحسان المتسبِّب لإيتاء الكتاب؛ وذلك الإحسان إجادة علمه وعمله

واعتقاده، أي آتيناه التوراة زيادة على ذلك؛ أو المُراد إحسان التبليغ، أي آتيناه تمامًا على الذي أحسن تبليغه؛ أو تماما على الفريق الذي أحسن القيام به مراعاة لمن أحسن من بني إسرائيل، وفي هذا ضعف، لأنَّ جُلَّهم جهلاء، يقرب نكثهم وفسقهم على عهد موسى عليه السَّلام ولا سيما بعده، ألاَ ترى إلى عبادة العجل و﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ (سورة الأعراف: ١٣٨)، فلا يحسن مدحهم مع هذا ولو أراد المجموع لا الجميع، ولو كان فيهم أيضًا علماء وعباد غير ناكثين؛ ويجوز أن يراد تمامًا على كلِّ من أراد الإحسان. ويدلُّ على إرادة جنس المحسن قراءة عبد الله بن مسعود: «عَلَى الذِينَ أَحْسَنُوا»، وقراءة الحسن: «عَلَى الْمُحْسِنِينَ».

وقال أبو مسلم: الذي أحسن هو إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ (الآية: ٨٤) ولا دَلِيل عليه هنا، ويُبعِده الفصل. ونَصبُ «تَفْصِيلاً» و«هُدًى وَرَحْمَةً» على حدِّ نصب «تَمَامًا». والمُراد بتفصيل كلِّ شيء: بيان كلِّ شيء يُحتاج إليه في الدِّين لا كلِّ شيء على الإطلاق، وما فيه من الزيادة على الدِّين فتبع له، مع أنَّها ليست عامَّة.

(أصول الدِّين) والمشهور اختصاص هذه الأمَّة المحَمَّدِيَّة بالاجتهاد؛ وَقِيلَ: به أيضًا لغيرهم، والأوَّل أصحُّ، اللهمَّ إلاَّ إن كان اجتهادهم بالقياس فيما يعلم من الدِّين ويفهم منه فهما جليًّا كأنَّه ضروريٌّ، ولا دلالة في الآية على أنَّه لا اجتهاد في دين موسى عليه السلام. وعن مجاهد: لـمَّا ألقى موسى الألواح بقي الهدى والرحمة، وذهب التفصيل، والظاهر دوامه إلاَّ أنَّهم غيَّروا.

﴿لَعَلَّهُم﴾ أي بني إسرائيل المدلول عليهم بموسى وكتابه ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ قدِّم للفاصلة وعلى طريق الاهتمام. ولقاؤه تعالى حضورهم المحشر بالبعث للجزاء؛ ويقال: اللقاء الجزاء؛ ويقال الرجوع إلى ملك الربِّ وحده، ولا يملك أحد معه شيئًا، فإنَّ الناس في الدُّنيا في صورة المالِكين، ويقال: كي يؤمنوا بالبعث والجزاء ﴿يُومِنُونَ﴾ وترجية الإيمان بالبعث فيهم مِمَّا يدلُّ على ركّة اعتقادهم في الدِّين وضعفهم فيه.

﴿وَهَذَا﴾ أي القرآن كلُّه، ما نزل وما سينزل باعتبار أنَّه كتاب نزل مرَّة إلى السماء الدُّنيا؛ أو ما نزل فقط وما سينزل مقيس عليه في أنَّه مبارك مصدِّق، فإنَّ كلَّ جزء من أبعاض القرآن قرآن. ﴿كِتَابٌ﴾ أي عظيم، ولهذا نُكِّر ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ كلّه أو بعضه على ما مَرَّ، أو جمع بين الحقيقة وهي إنزال ما نزل والمجاز وهي إنزال ما سينزل، أو من عموم المجاز، والجملة خبر ثان ﴿مُبَارَكٌ﴾ خبر ثالث، أو «أَنزَلْنَاهُ» نعت «كِتَابٌ» و«مُبَارَكٌ» نعت ثان، أو خبر ثان، وَمَعنَى ﴿مُبَارَكٌ﴾: أُثبت فيه خير الدُّنيا والآخرة؛ وَقِيلَ: لا يقدَّم النعت الجمليُّ على الإفراديِّ.

﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ اقتدوا به يا أهل مكَّة أو العرب، لكونه من الله، ولعظم شأنه، ولأنَّ فيه شرفكم، ولأنَّ فيه منافع الدُّنيا والآخرة ومدافعهما، فلا وجه لمخالفته ﴿وَاتَّقُواْ﴾ احذروا الكفر به ومخالفة ما فيه، ففيها خسارة الدُّنيا والآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالإيمان به والعمل بما فيه.

﴿أَن تَقُولُواْ﴾ يوم القيامة، لئلاَّ تقولوا بلام العاقبة، أو التعليل أو حذر أن

تقولوا، أو كراهة أن تقولوا، وعامله «أَنزَلْنَاهُ»، ولو فصل بأجنبي وبجمل معترضة، أو بـ«أَنزَلْنا» محذوفًا؛ أو مفعول لـ«اتَّقَوْا» أي احذروا أن تقولوا ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَابَ﴾ حقيقة الكتاب الشاملة للتوراة والزبور والإنجيل، ولم يعهد تسمية الصحف كتابًا بل صحفًا، ولم يذكر كثيرًا الزبور لأنَّه لا أحكام فيه بل مواعظ. ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ اليهود والنصارى.

وأمَّا الصابون فداخلون فيهما، لأنَّهم امتازوا بالمواظبة على مستحبَّات مخصوصات من تلك الكتب، من غير أن يتركوا فرائضها، وأن يفعلوا مُحَرَّماتها، ولذلك اعتبروا، ولذلك ذكر الله عزَّ وجلَّ أنَّ من آمن من الفرق الثلاثة وعمل صالحًا دخل الجنَّة.

وبعد بعثته ﷺ لا يقبل عمل من بلغه خبر بعثه، ولا يسعه إلاَّ اتباعه، وأمَّا المجوس فلا عبرة بهم إذ لا كتاب لهم، أو كان فأسرعوا في إبطاله ولم يستمرَّ عليه ولو واحد، فلم يعدُّوا طوائف ثلاثًا بل عدُّوا طائفتين، ولم يذكر غيرهما لشهرتهما بالتوراة والإنجيل والزبور ﴿مِن قَبْلِنَا﴾ إذ سبقونا بالزمان مع أنبيائهم.

﴿وَإِن كُنَّا﴾ الواو للحال من «طَآئِفَتَيْنِ»، أو عاطفة، و«إِنْ» مخفَّفة بدليل اللام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ وقدَّم «عَن دِرَاسَتِهِمْ» للاهتمام وللفاصلة، أي لغافلين عن قراءتهم، أي لا نعرفها لأنَّها بغير لغتنا، ولا نعرف مثلها كما لا نعرف خطَّهم لأنَّهما بالعبرانيَّة، وبعضًا بالسريانيَّة، ونحن عرب لغة وخطًّا.

وأصل الغفلة: عدم التنبُّه لشيء بحيث لو شيء لتنبّه له، واستعمل في عدم المعرفة مطلقًا استعارة لجامع عدم الإدراك، أو مجازًا مرسلاً للإطلاق والتقييد. ولم يقل عن دراستهما لأنَّ كلَّ طائفة فيها مُتَعَدِّدون؛ وَقِيلَ «دِرَاسَتهم»: ما في قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوَا اَتْلُ...﴾ لأنَّ ذلك معان لا تختلف باختلاف الأعصار، كلَّف بها كلَّ أمَّة، قطع الله عذرهم بأنَّهم إذا لم يعرفوا لغة هؤلاء لإنزال القرآن بلغة العرب فليكتبوه بلغتهم وقلمهم، ولو لم ينزله عليهم؛ أو لو أنزله بغير لغتهم لقالوا : لو أنزل علينا وكان بلغتنا لأسرعنا إلى الإيمان به كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَو تَقُولُواْ﴾ أو لئلاَّ تقولوا، أو حذر أن تقولوا على حدِّ ما مَرَّ.

﴿لَوَ اَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ من الطائفتين إلى الإيمان والعمل، لجودة أفهامنا وعقولنا، ندرك من الفنون ومكارم الأخلاق ما لا يدركه العجم، مع القصص والأخبار والخطب، مع أنَّا أمِّيُّون لا نكتب ولا نقرأ كتابًا، ولا نعاشر من يعرفهما.

﴿فَقَد جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قرآن ونبيٌّ بلغتكم، وحجج واضحة لا تخفى عنكم. ويقال: البيِّنة فيما يعلم سمعًا، والهدى: فيما يعلم عقلاً وسمعًا. ﴿وَهُدًى﴾ لمن لم يهمل النظر فيها، وهو المنتفع بها، أو لِكُلِّ مُكَلَّف، وهو أولى لكونه أَشَدَّ في التحريض. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لمن اتَّبَعَها. والفاء عطفت قصَّة على أخرى، أو في جواب لمحذوف، أي إن صدقتم في كونكم أهدى من الطائفتين لو أنزل عليكم كتاب تفهمونه فقد حصل ما شرطتم للإيمان فلا عذر لكم؛ أو إن صدقتم فيما كنتم تعتذرون عن أنفسكم فقد جاءكم؛ أو إن كنتم كما

تزعمون أنَّكم إذا أنزلنا عليكم كتابًا تكونون أهدى من الطائفتين فقد جاءكم؛ أو لا عذر لكم فقد جاءكم، أي لأنَّه قد جاءكم.

﴿فَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِئَايَاتِ ا للهِ﴾ الفاء عاطفة لجملة اسميَّة استفهاميَّة على خبريَّة فعليَّة، وهي «قَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ»، أو يقدَّر: إذا لم تؤمنوا بعد معرفة بعضكم بصِحَّةِ القرآن، وبعد تمكُّنكم من معرفته فمن أظلم منكم؟، أي فلا أظلم منكم، ووضع «مَن كَذَّبَ» موضع الكاف. ﴿وَصَدَفَ﴾ أعرض ﴿عَنْهَا﴾ أو صرف عنها غيره، فإنَّه يتعدَّى ويلزم، والأفصح اللزوم بمعنى أعرض، فيتعدَّى بالهمزة نحو أصدف فلانًا عن كذا ﴿سَنَجْزِي الذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون أو يصرفون الناس ﴿عَنَ ـايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي أشدَّه ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ بسبب كونهم يصدفون.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَاتِيَهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَاتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَاتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَاتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا اِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ـامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾

إنذار أخير للكفَّار بسوء العذاب

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون، أهل مكَّة فهذا من النظر الثلاثي بمعنى الانتظار الخماسي، وأهل مكَّة لم يعتقدوا انتظار الملائكة للعذاب، وإن اعتقدوا أنَّ الموت بالملائكة فليسوا في مراقبة ذلك، و لم يعتقدوا أيضًا إتيان آيات أو أمره، ولا إيمان لهم بيوم القيامة وما فيه، لكن لمَّا كان يلحقهم ذلك لا محالة شبَّهوا

بمن ينتظره واعتقده، كأنَّه قيل: فما يستحقُّون إلاَّ نزول ذلك حين أنزلتُ الكتاب فلم يؤمنوا.

وَقِيلَ: الواو للنبيِّ ﷺ وأصحابه، والحصر إضافي منظور فيه إلى الإيمان، أي إنَّمَا يقع بهم أحد هؤلاء الأشياء لا الإيمان، فإنَّه لا يتأتَّى منهم، و«هَلْ» للإنكار، وهو نفي، وكأنَّه قيل: لا ينتظرون، وأنكر الرضيُّ مجيئها للإنكار وأقرَّ أنَّها للتقرير، والأوَّل المشهور وعليه الجمهور.

﴿**إِلاَّ أَن تَاتِيَهُم**﴾ هذا الضمير لكفَّار مكَّة ﴿**الْمَلاَئِكَةُ أَو يَاتِيَ رَبُّكَ أَو يَاتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ**﴾ والعاقل لا ينتظر العذاب انتظار الميل إليه بل انتظار توقُّع مكروه، لكن شبَّهوا لإصرارهم على موجبه بمن ينتظره، والجامع الترتيب، والمُراد بإتيان الملائكة إتيانهم لقبض أرواحهم أو لتعذيبهم، وَمَعنَى إتيان الربِّ إتيان أمره بالعذاب، أو أمره هو عذابه، أو إتيان الربِّ إتيان آياته كلِّها، آيات القيامة والعذاب والهلاك الكلِّي، والمُراد بإتيان بعض الآيات علاماته الدَّالة على الساعة.

قال حذيفة والبراء بن عازب رضي الله عنهما: «**كنَّا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: ما تذاكرون؟ قلنا نتذاكر الساعة. قال: إنَّها لا تقوم حتَّى تروا قبلها عشر آيات: الدخان ودابَّة الأرض، وخسفا بالمشرق وخسفًا بالمغرب وخسفا بجزيرة العرب، والدجَّال، وطلوع الشمس من مغربها، وياجوج وماجوج، ونزول عيسى، ونار تخرج من عَدَن**»[1]،

١- رواه الترمذي في كتاب الفتن (٢١) باب ما جاء في الخسف، رقم ٢١٨٣. من حديث حذيفة بن أسيد.

وجزيرة العرب ما أحاط به بحر فارس وبحر السودان ونهر دجلة ونهر الفرات. قيل ﴿بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾: الدجَّال والدابَّة وطلوع الشمس من مغربها. وإتيانُ الأمرِ والآياتِ مجازٌ استعاريٌّ، لأنَّه حقيقة في الأجسام.

﴿يَوْمَ يَاتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ طلوع الشمس من مغربها كما في الصحيحين عن أبي هريرة عنه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتَّى تطلع الشمس من مغربها»، وهو طلوع واحد، وزعم بعضٌ أنَّها تطلع من المغرب ثلاثة أيَّام، ويقال: تطلع إلى خط نصف النهار وترجع.

ونحن آمنَّا بطلوعها ولا يعرفون ما هو، ولا أعرف أنا ما هو، فإنَّ المغارب والمطالع لا يحصيها إلاَّ الله، تغيب في موضع وتطلع في موضع، فإذا غربت عنَّا في مضاب فهي طالعة في غير بلدنا، فلو طلعت علينا في مغربنا لم تكن طالعة في المشرق الأقصى، وقس على ذلك، ويقال: تدور بقطب الشمال، ويقال تصل إليه ثمَّ ترجع ولا نفهم ذلك، فإنَّها حينئذ ليست يراها كلُّ أحد حال طلوعها أيضًا، ولعلَّها تغرب في البحر المحيط بحيث تبعد جدًّا حتَّى لا يراها مَن عند المحيط المغربيِّ، ولا يرى ضوءها أهل المشرق ولا أهل المغرب ولا أهل الجنوب ولا أهل الشمال، ويطلعها الله فوق السماء السابعة تحت العرش فقد غابت عن الناس كُلِّهم، بعضهم غابت عنه أكثر من ليل ويتفاوتون فتطلع على أهل الدُّنيا كُلِّهم بمرَّة لارتفاع محلِّها فقد صارت الدُّنيا كلُّها ليلاً ثمَّ صارت كلُّها نهارًا ثمَّ تكون كعادتها.

وفي البيهقيِّ أنَّ أوَّل الآيات ظهورُ الدجالِ ثمَّ نزول عيسى، ثمَّ خروج ياجوج وماجوج، ثمَّ خروج الدَّابَّة، ثمَّ طلوع الشمس من مغربها، وهو أوَّل

الآيات العظام المؤذنة بتغيُّر أحوال العالم العلويِّ، وذلك أنَّ الكفَّار يسلمون في زَمن عيسى عليه السلام ولا ينفع الكفَّار إيمانهم أيَّام عيسى، ويصير الدِّين واحدًا فإذا قبض عيسى ومن معه من المسلمين رجع أكثرهم إلى الكفر، فعند ذلك تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من على الأرض وذلك حين لا ينفع الإيمان النفس التي لم تؤمن من قبل، ولا النفس التي آمنت قبل وأصرَّت على المعاصي، ولا ينفعها عملها الصالح بعدُ.

كما قال الله عزَّ وجلَّ ﴿**لاَ يَنفَعُ نَفْسًا اِيمانُهَا**﴾ توحيدها ﴿**لَم تَكُنَ ـامَنَتْ مِن قَبْلُ**﴾ الجملة نعت لـ«نَفْسًا» مفصول بالفاعل، وجاز ذلك لأنَّ عاملها واحد وهو «يَنفَعُ»، أو حال من المضاف إليه، لأنَّ المضاف مصدر يصلح للعمل لا مستأنفة كما قيل، لأنَّه جيء بها قيدًا.

﴿**أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾ طاعة وتوبة عطف على «ءَامَنَتْ» فهو منفيٌّ، و«أَوْ» للتنويع، فكأنَّه قيل: أو لم تكن كسبت في إيمانها خيرًا لأنَّ «ءَامَنَتْ» منفيٌّ بـ«لَمْ تَكُن»، والمعطوف على المنفيِّ منفيٌّ، وقوله: ﴿فِي إِيمَانِهَا﴾ صريح في أنَّها آمنت، والمعنى: في توحيدها. فالناس الذين لا ينفعهم إيمانهم يوم طلوع الشمس من مغربها نوعان: الأوَّل مشرك وحَّد لطلوع الشمس، والآخر مُوَحِّد من قَبْلِ طلوعها لكنَّه منهمك في المعاصي غير تائب، وذلك كالإيمان عند الغرغرة والمشاهدة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (سورة غافر: ٨٤) لأنَّهم إنَّما كلِّفوا بالإيمان بالغيب، وأمَّا إيمان المشاهدة فلا ينفعهم.

قال الضحَّاك: من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قَبِل

الله منه العمل بعد نزول الآية، كما قبل منه قبلُ، وأمَّا من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يُقبل منه، لأنَّها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذابًا على أمَّة فآمنوا وصدَّقوا، فإنَّه لا ينفعهم ذلك لمعاينتهم الأهوال التي تضطرُّهم إلى الإيمان والتوبة.

(أصول الدِّين) ويقبل إيمان من لم يبلغ، أو ولد بعدُ فآمن، أو أفاق من جنون. وفي الآية دَلِيل لنا وللمعتزلة على أنَّ التوحيد المقرون بالمعصية المصَرِّ عليها لا ينفع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (سورة الأنعام: ٨٣)، فالظلم أَعَمُّ من الشرك، لهذه الآية وهو مذهب المحدِّثين من قومنا أيضًا. والأشعريَّة عطفوا «كَسَبَتْ» على «لَمْ تَكُن» فيكون المعنى: لا ينفع الإيمان الحادث في يوم الطلوع نفسًا لم تؤمن قبلُ، أو آمنت بعد ظهور الآيات وكسبت في إيمانها الحادث خيرًا، وهو باطل لأنَّ مقابل «لم تؤمن قبلُ» «آمنت قبلُ». قال الطبرانيُّ بسنده إلى أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ يومًا: «**أتدرون أين تذهب هذه الشمس إذا غربت؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: تذهب إلى مستقرِّها تحت العرش، فَتَخِرُّ ساجدةً، فلا تزال كذلك حتَّى يقال لها: ارتفعي فارجعي من حيث جئت، فتصبح طالعة من مطلعها، وهكذا كلَّ يوم، فإذا أراد الله أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول: يا رَبِّ إنَّ مسيري بعيد. فيقول لها: اطلعي من حيث غربت، فقال الناس: يا رسول الله هل لذلك من آية؟ فقال: آية تلك الليلة أن تطول قدر ثلاث ليال، فيستيقظ الذين يخشون ربَّهم فيصلُّون ثمَّ يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقض، ثمَّ يأتون مضاجعهم فينامون، حتَّى إذا**

استيقظوا والليل مكانه، خافوا أن يكون بين يدي ذلك أمر عظيم، فإذا أصبحوا طال عليهم طلوع الشمس، فبينما هم ينتظرونها إذ طلعت عليهم من قِبَل المغرب»[1].

﴿**قُلِ انتَظِرُوا**﴾ بعض هذه الآيات الموعود بها للعقاب، وذلك وعيد وتهديد فقط، وإلاَّ فهم لا يؤمنون بها فضلا عن أن ينتظروها، فانتظروا الويل فإنَّنا ننتظر الفوز المُراد في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا مُنتَظِرُونَ**﴾ عقابكم في الدُّنيا والآخرة؛ ولا يلزم المنتظر اتِّصَاله بما ينتظره فهم منتظرون الآية ولا يتّصلون بها، بل يَتَّصِل بها المشركون في آخر الزمان، فالمشركون كلُّهم الأَوَّلُونَ والآخرون كفريق واحد، فانتظار أواخرهم انتظار لأوائلهم، كما ذَمَّ بني إسرائيل على عهده ﷺ بما فعل أوائلهم لرضاهم عنهم، وتصويبهم؛ أو يراد الانتظار في قبورهم إذ تردُّ إليهم أرواحهم، وأيضًا أرواحهم حيَّة تنتظر ولو بلا رجوع إلى أجسادهم، فلا يصحُّ ما قيل من أنَّ المُراد الكفُّ عن القتال، وأنَّه منسوخ بآية القتال.

والمُراد: أنَّ المشركين يُمهلون قدر مدَّة الدُّنيا، فإذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الإيمان وعوقبوا. قال صفوان بن غسَّان المرادي قال رسول الله ﷺ: **«باب من قبل المغرب يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة، خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض مفتوحًا للتوبة، لا يغلق حتَّى تطلع الشمس منه»** ، أخرجه الترمذي، وفي رواية: «سبعين» وفي

١- رواه **البخاري** في كِتاب التوحيد، رقم ٦٨٧٤. عن أبي ذرٌّ. **ومسلم** في كِتاب الإيمان، رقم ٢٢٨. عن أبي ذرٌّ. **والترمذيُّ** كَذَلِكَ.

أخرى: «مائة»، ويُروى: «للراكب المسرع»، وفي رواية: «**يَلتَمُّ حتّى ما به صدغٌ، فلا تقبل توبة**».

ويروى: الدَّابَّة وطلوع الشمس أيُّهما سبق فالآخر على أثره، فإن طلعت قبلُ خرجت الدَّابَّة ضُحى يومِها، وإن خرجت الدَّابَّة قبلُ طلعت الشمس من الغد. وروى أبو الشيخ وابن مردوية عن أنس عن رسول الله ﷺ: «**صبيحة تطلع الشمس من مغربها يصير في هذه الأمَّة قردة وخنازير، وتطوى الدواوين وتجفُّ الأقلام، ولا يزاد في حسنة ولا ينقص من سيِّئة**»[1]. وذكر ابن مردويه عن ابن عبَّاس رضي الله عنه عنهما: «**تحبس الشمس ثلاث ليال والقمر ليلتين ولا يؤذن لهما في الطلوع، ينتبه لذلك أهل الأوراد وحملة القرآن فيجتمعون في المساجد بالتضرُّع والبكاء بقيَّة الليلة، ويرسل الله عزَّ وجلَّ جبريل عليه السَّلام إلى الشمس والقمر فيقول: إنَّ الربَّ تعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغربكما فتطلعا منه، لا ضوء لكما عندنا ولا نور، فيبكيان خوف القيامة، فينادي مناد والغافلون في غفلتهم: ألا إنَّ باب التوبة قد أغلق والشمس والقمر طلعا من مغربهما، فيراهما الناس كالغرارتين العظيمتين وكالبعيرين المقرونين يتنازعان استباقًا، ويتصايح أهل الدنيا، وتذهل الأُمَّهَات عن أولادها وتضع كلُّ ذات حمل حملها، وإذا بلغا مقدار وقت العصر ـ وروي: وسط السماء ـ ردًّا إلى المغرب**».

١- أورده السيوطي في الدر، ج ٣ ، ص ٦٥، من حديث أنس.

وروي: «للباب مصراعان من ذهب مكلّلان بـالدرِّ والجوهـر ويُكسيان بعد ذلك ضوءهما ويطلعان من مطالعهما قبـل، ويشتدُّ حرص الناس على حفر العيون وغرس الأشجار والبنيان، وتمكث الدُّنيا مائة وعشرين سـنة السنة كالشهر والشهر كالجمعـة، والجمعة كـاليوم، واليـوم كالسـاعة، وتعبد العرب الأصنام كآبائهم مائة وعشرين سنة بعد نزول عيسى عليه السلام وخروج الدجَّال، ويمتّع المؤمنون أربعين سنة لا يتمنَّون شـيئًا إلاَّ أُعطُوه، فيشرع فيهم الموت وتصير الكفّار كالبهائم ينكح الرجـل المرأة في وسط الطريق، يقوم واحد عنها وينزل عليهـا الآخـر، وأفضلهـم مـن يقول: لو تنحَّيتم عن الطريق لكان أحسن، حتّى لا يولد ولـد إلاّ بزنـى، ويعقم الله النساء ثلاثين سنة ويكـون كلُّهـم أولاد زنـى فتقـوم السـاعة على أشرار الخلق».

وإذا طلعت الشمس خرَّ إبليس ساجدًا متضرِّعًا يقول: يا رَبِّ مُرني أسـجد لمن شئت، فتقول له الشياطين: يـا سيِّدنا مـا هـذا التضرُّع؟ فيقـول: هـذا هـو الوقت الذي سألت ربـِّي أن ينظرني إليـه. والله أعلـم، ولا حـول ولا قـوَّة إلاَّ بالله العلي العظيم. وتلك الآيات أمارات لقـرب السـاعة، أو أمـارات لوجودهـا واستقبالها، وتقبل توبة من لم يشاهد الطلـوع لحدوثه بعـده، أو بلوغـه أو إفاقتـه بعده. واختلفوا فيمن شاهده ونسيه، وصحَّحوا على فرض إمكان النسيان أنـَّها لا تقبـل، وأنـَّه لا يمكـن النسيان وذلـك حمـل لظـاهر الآيـة والأحـاديث علـى عمومها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

عاقبة الاختلاف في الدّين وجزاء الحسنة والسّيّئة

﴿إِنَّ الذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ دين الله الواجب عليهم أن يكونوا عليه، فيُضاف إليهم، أخذوا بعضه وتركوا بعضه، وتَرْكُ البعضِ نقضٌ للكلِّ فهو تركٌ للكلِّ، وهذا في أهل الشرك وأهل التوحيد، وذلك كعبادة الأصنام، والقول بأنَّ الملائكة بنات الله، وبأنَّ عيسى ابن الله، وأنَّه إله، وأنَّ مريم إله، وأنَّ عزير ابن الله، وأنَّ عليًّا أولى بالإمامة، وأنَّ الإمامة في أولاده إلاَّ الحسين بن علي بن الحسين بن علي، لأنَّه لم يبغض أبا بكر وعمر، كذبت الشيعة فإنَّه لم يبغضهما أحد قبله أيضًا من أولاد عليٍّ، والقول بأنَّ أهل المعاصي والكبائر مشركون، والتحكيم فيما فيه حكم إلاَّ إن أمرنا الله بِهِ.

قال ﷺ: «**افترقت المجوس على سبعين فرقة كلُّها هالكة، وافترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلُّها في النَّار إلاَّ واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلُّها هالكة إلاَّ واحدة، وستفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين فرقة كلُّها هالكة إلاَّ واحدة، وسئل ﷺ: من**

هي؟ فقال: **من كان على ما أنا عليه وأصحابي**»[1]. وليس في أحاديث الإسناد ذكر المجوس؛ وذكره الشيخ يوسف بن إبراهيم [الوارجلاني] في بعض كتبه[2] وذلك كما قال الله جلَّ وعلا:

﴿**وَكَانُواْ شِيَعًا**﴾ فرقًا تنسب كلُّ فرقة إلى إمامها الذي تشايعه هي ﴿**لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾ «مِنْهُمْ» خبر ليس، و«فِي شَيْءٍ» متعلّق بـ«مِنْهُمْ» أو بمتعلَّقه، أو «مِنْهُمْ» حال من «شَيْءٍ» بناء على جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور بحرف غير زائد، و«فِي شَيْءٍ» خبر ليس، أي لست في شيء من أحوالهم الفاسدة أو التفرُّق، والمعنى أنَّك بريء منهم ومن معاصيهم ولا تعاقب عليهم، وكذلك ليسوا منك في شيء من الحقِّ، لأنَّك أنت تتَّبع البراهين وهم يقلّدون الآباء والأهواء، كما يقال في نفي الاتِّصَال: لست منِّي ولست منك، وفي إثباته: أنت منِّي وأنا منك، ويضعف أن تختصَّ الآية بالمشركين، ويراد النهي عن القتال حتَّى ينسخ بآية القتال.

﴿**إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ**﴾ يتولاَّهم بمعرفة أعمالهم ومقاديرها، ومقادير جزائها، و«لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» خبر «إِنَّ»، و«إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ» مستأنف، أو خبر ثان، أو هو الخبر و«لَسْتَ...» حال من الواو في «كَانُوا» أو «فَرَّقُوا».

١- أورده **الترمذي** في كِتَاب الإيمان، رقم ٢٥٦٥ عن يزيد بن عبد الله بن عمرو، بلفظ: «الجماعة» بدل: «من كان عَلَى ما أنا عَلَيْهِ وأصحابي». وأورده بما هو قريب منه **ابن ماجه** في كِتَاب الفتن، رقم ٣٩٨٢. عن عوف بن مالك.

٢- في كِتَاب **العدل والإنصاف**، ج١ ، ص ٩١ .

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ يعاقبهم أو يخبرهم به، وبأنَّهم استحقُّوه إذ جهلوا عاقبة أفعالهم، فيظهرها لهم على رءوس الأشهاد.

وفصل إجمال المقادير في الجزاء بقوله:

﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ إلى يوم القيامة لم يفسدها في حياته أيَّ حسنة كانت، كلمة الإخلاص وما يبنى عليها فعليَّة أو تركيَّة ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي كأنَّه عمل عشر حسنات يثاب عليهنَّ، أو عشر إثابات حسنة، فإنَّ الجزاء حسن، كما أنَّ العمل حسن، واقتصر على العشر لأنَّه أقلُّ ما يكون إلاَّ أنَّه إن اهتمَّ بحسنة ولم يفعلها فله واحدة. ولا غاية للكثرة، فإنَّه خمس وعشرون وسبع وعشرون وسبعون ومائة وسبعمائة وألف وسبعون ألفًا ومائة ألف، وأكثر وبلا حساب، قال أبو ذرٍّ عنه ﷺ: «**الحسنة عشر أو أزيد، وَالسَّيِّئَة واحدة أو أحقر، فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره**»[1]. وجاء: «**من اهتمَّ بسيِّئة كتب عليه همّه بها**»[2].

وإنَّما لم يكن «عَشْرُ» بالتاء لأنَّ الأمثال واقع على المؤنَّث وهو حسنات، أو لأنَّه نعت لـ«حسنات» محذوفة، أو لأنَّه أضيف لمؤنث. ولكثرة الثواب قيل: المُراد بالعشر الكناية عن الكثرة لا خصوص العدد. وإنَّما كان الخلود في النَّار أو الجنَّة لنيَّات الدوام على المعصية أو الطَّاعة كما روي عن الحسن البصري.

١- رواه **الهندي** في الكنز، ج١، ص ٢٣٥. رقم ١١٧٨. **والطبراني** في الأوسط، ج٨، ص ١٨٢. رقم ٧٣٧١. روى الشطر الأوَّل منه فقط. من حديث أبي ذرٍّ.

٢- لم نقف عَلَى من أخرجه بهذا اللفظ.

﴿وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ الشرك وما دونه، والمجيء بها الإصرار عليها، ومن تاب فقد قطعها عن المحشر فلم يوافه بها ﴿فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ أي إلاّ جزاء يماثلها، أي إلاّ الجزاء المماثل لها، أي المناسب، فالمثل بمعنى الجزاء الذي هو مصدر، أو الجزاء الذي بمعنى ما يجزى به من العذاب، والمُراد نفي الزيادة، وذلك أولى من أن يقال مثل زائد لمشاكلة مثل قبله، ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلم الله الجاءين بالحسنة والجاءين بالسيِّئة، أي لا ينقص من ثواب الحسنة ولا يزيد في عقاب السَّيِّئة.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

اتّباع ملّة إبراهيم في التوحيد والعبادة والتبعية الشخصية

﴿قُلِ انَّنِي هَدَيٰنِي﴾ إيَّاي ولم يهدكم أيُّها الكفرة من العرب واليهود والنصارى، وسائر من لم يكن على دين الإسلام، وذلك ردٌّ على من زعم أنّه على دين إبراهيم ﴿رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دلّني أو وفّقني أو هداني عن الصراط المعوجّ، وهو دين الكفر إلى صراطه المستقيم المنجي من السوء المفضي إلى الخيور، وهو الآيات النازلة بالوحي، والأدلّة العقليّة المأخوذة مِمّا نصب من

الدلائل، دلائل السماوات والأرض والتنكير للتعظيم.

﴿دِينًا﴾ حال ولو جامدًا لتأوُّله بمشتق، كمعتقَد ـ بفتح القاف ـ ومعتاد ومجازًى به؛ أو مفعول مطلق، أي هداية دين قيِّم؛ أو يقدَّر: عرَّفني دِينا؛ أو الزموا دينا قيِّمًا؛ أو بدل من محلِّ صراط، وساغ لأنَّه يظهر في الفصيح، لأنَّ هَدَى يتعدَّى إلى المفعول بنفسه تارة وتارة بإلى وتارة باللام كقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (سورة الفتح: ٢٠)، كأنَّه قيل: هداني ربِّي صراطًا مستقيمًا دينا قيِّمًا، ولو كان الأصل أن يعدَّى بـ«إِلَى»، ولا تعسُّف في اشتراط جواز ظهور المحلِّ في الفصيح للعطف على المحلِّ، فلو عطف على محلِّ زيد بالنصب في "مررت بزيد"، لم يجز، لأنهَّ لا يقال في الفصيح: "مررت زيدًا".

﴿قِيِّمًا﴾ "فَيْعَلٌ" من القيام أو "فعيل" منه، وعلى الأخير قدِّمت الياء على الواو، والأصل "قَيْوِمٌ" بإسكان الياء أو "قَوِيمٌ"، قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء، وهو صفة مشبَّهة، وهو أبلغ من مستقيم، لأنَّه صفة مشبَّهة تدلُّ على الثبوت، ومستقيم اسم فاعل يدلُّ على التجدُّد، وفي مستقيم بلاغة أيضًا لأنَّ زيادة الحروف في الغالبِ والأصلِ تدلُّ على زيادة المعنى، فإنَّه على صيغة الطلب، والنقل والمبالغة بـ«قَيِّمًا» أقوى منها بـ«مستقيم»، ولذلك اختير القيِّم في وصف الدِّين، ومستقيمًا في وصف الصراط، ولو كان المُراد بهما واحدًا.

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بدل أو بيان من «دِينًا»، ووجه البيان أنَّه ليس في قوله: ﴿دِينًا قَيِّمًا﴾ ذكر إبراهيم، وأيضًا مفهوم الدِّين: الجزاء أو الاعتياد أو الطاعة أو نحو ذلك، ومفهوم المِلَّةِ غيرُ ذلك، وهو أنَّها تُمل على سامعها ليكتبها، أو

يدرسها، فأفاد لفظ «مِلَّةَ» ما لم يفد لفظ «دِينًا». ﴿حَنِيفًا﴾ حال من «إِبْرَاهِيمَ»، ووجه التقييد بالحال أنَّ المعنى أنَّه تلقَّفها عن جبريل حال كونه مائلاً عن الشرك والمعاصي، والحنيف: المائل. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بشرك اليهود والنصارى وهؤلاء العرب، أي ليس إبراهيم مشركًا كما أنَّكم مشركون فكيف تزعمون أنَّكم على دينه؟. والآية للدوام في النفي لا لنفي الدوام.

﴿قُلِ اِنَّ صَلاَتِي﴾ أعاد القول لأنَّ ما مَرَّ في الأصول وهي التوحيد وتوابعه، وهذا في الفروع.

(أصول الدِّين) والفروع هنا ما عدا التوحيد وتوابعه، وهي المُراد في قولهم: المشرك مخاطب بفروع الشريعة فيعذَّب عليها، ولو كان لا تصحُّ بدون التوحيد، وإنَّما غفرت لهم ـ إن وَحَّدوا مع أنَّهم خوطبوا ـ جلبًا لهم إلى الإسلام بجعل التوحيد كفَّارة لها. وكلُّ ما عدا التوحيد ولو أحقه هو من الفروع كالصلاة والحجِّ والصوم.

وأمَّا الفروع والأصول في علم الكلام: فما لا يجوز فيه الخلاف كنفي رؤية الباري، وككون صفاته هو، وكون الاستواء الملك، والقول فيه مع واحد فهو الأصول، وما يجوز فيه الاختلاف فالفروع، كرفع اليدين عند التكبير، و[طهارة] بول ما يؤكل لحمه، وبعض تفاصيل نقض الصلاة والطهارات، فنفس **الصلوات والجمعة والحجِّ والصوم** من الأصول، والاختلاف في بعض مسائلها من الفروع.

﴿وَنُسُكِي﴾ عبادتي حجًّا، أو عمرةً، أو تضحيةً، أو صومًا، وتلاوةً،

وذكرًا، وزكاةً، وصدقةً وغير ذلك، كأنَّه قال: وكلُّ ما صفيته وأخلصته من العبادة كسبائك الفِضَّة البيضاء المصفَّاة المسمَّاة نسكًا، وخصَّ الصلاة مع دخولها في النسك لأنـَّها أعظم العبادات بعد التوحيد.

﴿وَمَحْيَايْ﴾ أي حياتي، وسكَّن الياء باعتبار الفتح قبل الألف والْـتقى ساكنان إجراءً للوصل مجرى الوقف؛ وعبارة بعض سكنها بنيَّة الوقف ﴿وَمَمَاتِيَ﴾ أي موتي ﴿لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كلُّ ذلك ثابت لله لا لغيره حقًّا وملكًا، أي خلق صلاتي وعباداتي، وحياتي وموتي، أوكلُّ ذلك ثابت لربِّ العالمين؛ الصلاة والنسك إخلاصًا له، والحياة والموت خلقًا منه، وكلُّ ما سواه يكون منه.

وفي الآية أَنَّ طاعة العبد خَلَقها الله وحياتَه وموتَه، والمبالغة بأنَّ الحياة والموت أنفسهما خلقهما الله، وأنَّ الحياة والموت أنفسهما لمرضاة الله عزَّ وجلَّ، واستلزم ذلك أنَّ الطَّاعة الواقعة فيهما هي لله بطريق برهانيٍّ؛ أو المُراد: أحوال الحياة والممات طاعة أو مباحًا لله خلقًا وملكًا.

(فقه) أو طاعات الحياة والموت كلُّها لله كالوصيَّة عند الموت، والتدبير الواقع قبله أو عنده، والإيصاء بما هو خير قبله أيضًا، كأنَّه قيل: وما أنا عليه في حياتي وموتي، فيُقَدَّرُ: وأحوال حياتي وموتي؛ أو طاعة حياتي وموتي. وطاعة الموت: ما يعمل من الطَّاعة عند الموت، أو يوصى بها لتنفَّذ عند الموت أو بعده. وهما مصدران ميميَّان، أو اسمَا زمانٍ ميميَّان أُطلق زمان الحياة والممات، أو نفس الحياة والممات على ما يقع فيهما.

﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ,﴾ في عبادة ولا في خلق جسم أو عرض ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ بما

ذكر كلُّه من قول وإخلاص توحيد وعبادة ﴿أُمِرْتُ﴾ إنَّمَا أمرت بذلك لا بالإشراك وعدم الإخلاص كما أنتم عليه. ولا ترجع الإشارة إلى الممات والحياة والنسك والصلاة، لأنَّ الحياة والموت ليسا في قدرة المكلَّف إلاّ باعتبار أحوال الحياة والممات مِمَّا هو في اختياره.

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أوَّل من أسلم من هذه الأمَّة بعد إسلامه السابق على الوحي. والإسلام: الانقياد، وهو واحد من الأمَّة، أي هذا القوم الأخير إلاَّ أنَّه رسولهم، وكلَّما أوحِيَ إليه شيء فإنَّه أوَّل من يؤمن به مِمَّن في عصره أو بعده، فهو أوَّل لهم، ولو سبق الوحي به لمن قبله أو تكرَّر له، لأنَّه يصدِّق به أنَّه من الله ثمَّ يخبر الأمَّة به، وكذا كلُّ نبيء أوَّل أمَّته إيمانًا بما أنزل لأنَّه يعلم بنزوله أوَّلاً ثمَّ أمَّته.

والمُراد: الأَوَّليَّة في الإيمان بما نزل عليه، ومَن قبله كانوا مسلمين، لأنَّ الأنبياء لا يفعلون الصغائر التي تنسب إلينا ولا الكبائر. أو أنا أوَّل المسلمين كلِّهم خلقة أو إجابة يومَ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢).

﴿قُلَ اَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ أأطلب غير الله حال كون غيره إلهًا؟ لا يتصوَّر ذلك، لأنَّ غيره لا يكون إلهًا؛ أو أأطلب ربًّا حال كونه غير الله؟. أو «ربًّا» تمييز أو بيان أو بدل من «غَيْرَ»، يقول: لا يتصوَّر ذلك، لأنَّ الربَّ لا يكون غير الله. سأله المشركون أن يصير إلى دينهم ويعبد آلهتهم فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يقول لهم: لا أعبد غير الله، لا وحده ولا مع الله، فإنَّ من عبدهما معًا فليس عابدًا لله سبحانه.

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ربُّ معبوداتكم وغيرها من سائر الخلق، وكيف

أجعل المربوب ربًّا؟ والجملة حال، وكانوا يقولون للمسلمين: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ (سورة العنكبوت: ١٢)، أي تكتب علينا لا عليكم، إن كتبت عليكم حملنا عليكم عقابها إن بُعثنا فنزل ردًّا عليهم قوله تعالى:

﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ سوءًا ﴿إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ متعلّق بـ«تَكْسِبُ»، يقال: كسب لنفسه خيرًا وكسب على نفسه سوءًا، ولا حاجة إلى دعوى أنَّه حال وأنَّ التقدير: إلاَّ حال كون ذنبها عليها مستعليًا عليها بالعقاب، أو حال كونه مكتوبًا عليها لا على غيرها، وإذا كان لا تكسب كلُّ نفس إلاَّ عليها فكيف أعبد غيره؟ وهو لا يحمل عنِّي عند الله شيئًا.

(سبب النزول) وكان الوليد بن المغيرة يقول للمؤمنين: اتَّبِعُوا سبيلي أحمل عنكم أوزاركم، أي ذنوبكم الشبيهة عندكم بالحمل الثقيل المسمَّى وزرًا، أو التي صارت في قلوبكم كالشيء الثقيل تحرُّجًا عنها، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لا تذنب نفس مذنبة ذنب أخرى، وَمَعنَى ﴿وَازِرَةٌ﴾: ممكِنَةٌ لأن تذنب، أو قابلة لأن يكون ذنب غيرها ذنبًا لها، أو كلُّ نفس أذنبت فذنبها فعل لها لا فعل لغيرها، وذلك في عين الفعل لا ما يتولَّد عنه، فإنَّه من دعا غيره إلى معصية أو دلَّ عليها، أو بدع بدعة محرَّمة يكتب عليه وزر كوزر من عمل بها، وذلك كعمله، وليس إسقاطًا للذنب عمَّن عمله تبعًا له.

وذكر المحدثون أنَّه إذا لم يبق من حسنات الظالم شيء تحمل من سيِّئات المظلوم ما يقابل ما بقي من التباعة، وكذا قالوا في المديون، ولم يثبت عند جمهور أصحابنا تحمُّل الظالم من سيِّئات المظلوم وكذا المديون. وأمَّا التسبُّب فقد قال

ﷺ: «**الدالُّ على الخير كفاعله**»[١]، فكذا الدالُّ على الشرِّ كفاعله، وقال: «**من عمل سيِّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت: ١٣)، وقال ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ أَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة النحل: ٢٥).

﴿**ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ**﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿**فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ يخبركم به فيعاقبكم بعد الإخبار، أو ذلك كناية عن العقاب، والمُراد: تختلفون مع النبي ﷺ والمؤمنين؛ أو بمعنى: تخالفون النبي وأصحابه، لكن لا يتعدَّى كما يتعدَّى تخالفون، كاجتَوَروا بمعنى تجاوروا لكن بعض بعضًا، بخلاف الآية فإنَّهم اجتمعوا على خلاف الرَّسول ﷺ، فيميِّز الله لهم أنَّ الحقَّ ما عليه محمَّد ﷺ وأنَّ الباطل ما هم عليه، وتختلفون فيما بينكم، فبعض يقول: سحر، وبعض: كهانة، وبعض: أساطير الأولين، وبعض: شاعر، وغير ذلك، فيميِّز الله تعالى أنَّ أقوالهم كلَّها باطلة؛ أو تختلفون فيه من الأديان فيميِّز الله لكم أنَّها كُلَّها باطلة.

١- رواه **الهندي** في الكنز، ج٦، ص ٣٥٩، رقم ١٦٠٥٢. من حديث ابن مسعود. ورواه **الطبراني** في الكبير، ج١٧، ص ٢٢٧، رقم ٦٢٨، ٦٢٩. من حديث أبي مسعود.

٢- رواه **الحاكم** في مستدركه كِتَاب التفسير (٨٢) تفسير سورة الانفطار، ج٢، ص ٣٦١، رقم ٣٩٠٦ (١٠٤٤). وَأَوَّلُ الحديث عنده: «قام سائل عَلَى عهد النَّبِيء ﷺ، فسأل، فسكت القوم...» من حديث حذيفة بن اليمان.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

استخلاف الإنسان في الأرض

﴿وَهُوَ الذِي جَعَلَكُم خَلآئِفَ الاَرْضِ﴾ جمع خليفة، والخليفة إذا كان لمؤنَّث يؤنَّث وإذا كان لمذكَّر يذكَّر ولا يؤنَّث، فتقول: جاء الخليفة، وهذا الخليفة، ولا تقول: جاءت أو هذه، وشذَّ قوله: أبوك خليفة ولدته أخرى. وظاهر قول بعض: إنَّ منهم من يقول خليفة أخرى، أنَّ التأنيث لغةٌ.

ومَعنَى جعلهم خلائف أنَّهم يخلفون مَن قبلهم، أو أنَّ بعضًا يخلف بعضًا، أو جعلكم خلفاء الله في أرضه، فوحِّدوه واعبدوه، ولا تجوروا في تصرُّفكم فيها؛ أو الخطاب للمؤمنين جعلهم خلفاء الأمم السابقة.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ بالمال والجاه والشرف وَالقُوَّة والحسن والغنى، والعلم والجود وكرم الأخلاق. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَاكُم﴾ أيُّكم يشكر الخير، ويصبر على السوء ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ﴾ للعصاة، والسرعة عبارة عن القرب، لأنَّها سبب للقرب وملزوم له في الجملة، وكلُّ ما هو آت قريب، أو سريع التمام إذا جاء لا يؤخَّر عن وقته ﴿وَإِنَّهُ, لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالغ في الغفران والرحمة، بصفَتَيْ المبالغة ولام التأكيد، وإسنادهما إلى نفسه، بخلاف العقاب فلا صفة مبالغة فيه، ولا معه، لأنَّ سريع صفة مشبَّهة لا صفة مبالغة، ولا أسند السرعة إلى نفسه ولا أسند العقاب إلى نفسه، إذ لم يقل

إنِّي سريع في العقاب ولا إنِّي معاقب سريعًا، وذلك تلويح بأنَّه غفور رحيم بالذَّات، وكثير الغفران والرحمة ومعاقب بالعرض قليل العقاب، وذلك ترجيح للمغفرة والرحمة.

وَمَعنَى قولنا: "بالذَّات" بالأصالة والرجحان وسبق الرحمة للغضب، لا ما قيل: إنَّ معنى "بالذات" أنَّ غفرانه ورحمته لا يتوقَّفان على شيء، وَمَعنَى "بالعرض" أنَّ العقاب يتوقَّف على الذنب، لأنَّا نقول: المغفرة والرحمة تتوقَّفان على العمل الصالح والتوبة، فإنَّ عدم توقُّفهما على ذلك مذهب المرجئة ومن اغْتَرَفَ منهم، قال بعض:

أنا مذنب أنا مخطيء أنا عاصي	هو غافر هو راحم هو عافي
قابلتهنَّ ثلاثة بثلاثة	ولتغلبنَّ أوصافه أوصافي

وقال الشافعي:

ولَمَّا قسا قلبي وضاقت مذاهبي	جعلت الرجا ربِّي لعفوك سلَّما
تعاظمني ذنبي فلمَّا قرنته	بعفوك ربِّي كان عفوك أعظما

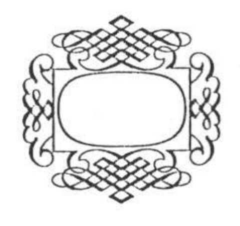
قال أبو نواس:

يا رَبِّ إن عظمت ذنوبي كثرة	فلقد علمتُ بأنَّ عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلاَّ محسن	فبمن يلوذ ويستجير المجرم

وفي الأعراف اللام في الموضعين، لأنَّ ما فيها بعدَ: ﴿وَأَخَذْنَا الذِينَ ظَلَمُوا﴾ (الآية: ١٦٥) وبعد ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ فناسب اللام في «سَرِيعُ» لذلك، ولأنَّه مقطوع بالعذاب فيها، وهنا في وعظ لمن يزدجر وبعد قوله: ﴿مَن

جَآءَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الذِي﴾، وكانت اللام في الثانية في الأعراف تبعًا للأولى فيها، ولتأكيد الغفران في الجملة لا للمقطوع عليهم بالشرِّ المذكورين قبلها.

والله أعلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.





الجزءُ الرابع من تيسير التفسير، ويليه بإذن الله الجزءُ الخامس،

وأوَّله بداية سورة الأعراف



الفهارس

الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس بعض مختارات الشيخ

فهارس عامة للموضوعات الفرعية

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

الآية	العنوان	الصفحة

تفسير سورة المائدة

تفسير سورة الأنعام

التعريف بالمفسِّر*

• في سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

• في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن – بلده الأصلي –، واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغا كبيراً.

• في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

• منذ سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

• في سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

لعلمائها، وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.

• له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

• تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

• في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.

تـم بحـمـد الله

رقم الأيداع :٢٠٠٤/١٦

طبع بالمطبعة الشرقية ومكتبتها - تليفون : ٧٧١٦٩٥٢